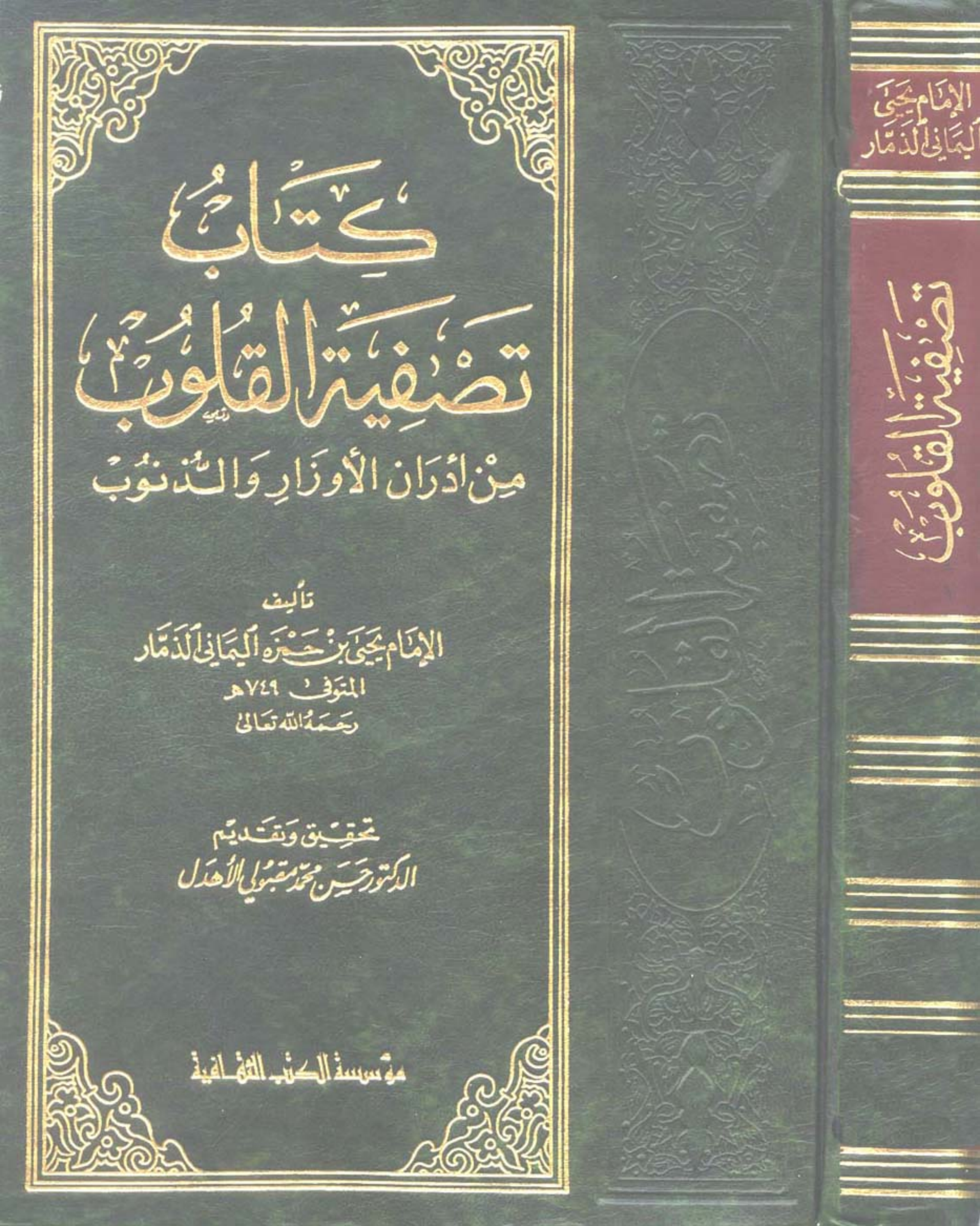


كتاب
تصفية القلوب
من أدران الأوزار والذنوب
تأليف
الإمام يحيى بن حمزه اليماني الذمار
المتوفى ٧٤٩هـ
رحمه الله تعالى
تحقيق وتقديم
الدكتور حسن محمد مقبولي الأهدل
مؤسسة الكتب الثقافية
الإمام يحيى
اليماني الذمار
تصفية القلوب



تأليف

الإمام يحيى بن حمزه اليماني الذماري

المتوفى ٧٤٩هـ

رحمه الله تعالى

تحقيق وتقديم

الدكتور حسن محمد مقبولي الأهدل

مؤسسة الكتب الثقافية

مُلتزم الطبع والنشر والتوزيع
مؤسسة الكتب الثقافية فقط
الطبعة الثالثة
١٤١٥هـ - ١٩٩٥م



مؤسسة الكتب الثقافية
الصنائع . بناية الاتحاد الوطني . الطابق السابع . شقة ٧٨
هاتف المكتب : ٦٤٠٢٠٨
ص.ب : ١١٤/٥١١٥ - برقيا : الكتبكو - تلكس : ٤٠٤٥٩
بيروت - لبنان


كتاب
تصفية القلوب
من أدران الأوزار والذنوب

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة
الطبعة الأولى

الإمام أبو حامد الغزالي هو رائد علم التصوف وقد سبق غيره بتأليف كتابه إحياء علوم الدين الشهير وقد نسج على منواله وطريقته جماعة منهم إمام اليمن وعالمها الإمام يحيى بن حمزة بن علي مؤلف هذا الكتاب ويلاحظ أن في بعض صفحات الكتاب ما لفظه قال مولانا المؤيد بالله، أو قال الإمام يحيى بن حمزة مما يدل على أن بعض تلامذته ساهم في ترتيب بعض أبواب الكتاب، كما نلاحظ أن المؤلف عند الاستدلال بأي حديث لا يسنده إلى كتاب من كتب الحديث الشهيرة بل يقول قال رسول الله ﷺ ويأتي بالحديث، مثل ما جرى عليه الإمام أبو حامد الغزالي في إحياء العلوم وربما يكون ذلك بناءاً على ما تعارف عليه علماء الحديث وهو أن أحاديث الترغيب والترهيب تندرج تحت عموم أصول الأحاديث الواردة في الحث على فضائل الأعمال ويهمنا في الوقت الحاضر نشر هذا الكتاب وإخراجه من خبايا المخطوطات إلى حيز الوجود للانتفاع به.



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

الحمد لله رب العالمين، نحمده أن هدانا للإسلام والإيمان، ونشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له الهادي إلى الحق وإلى طريق مستقيم، وأن محمداً عبده ورسوله معلم الناس ومرشدهم إلى الخير - ﷺ وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن كتاب «تصفية القلوب» من الأدران والأوزار والذنوب لمؤلفه الامام يحيى بن حمزة كتاب عظيم في بابه من حيث تأديب النفوس وتربيتها على السلوك الفاضل والتحلي بالأخلاق الكريمة.

وهو من الكتب العلمية المفيدة في موضوعها ومن أهم كتب التربية لأنه عالج مواضيع هامة في تربية النفوس وتهذيبها وأدبها. وكشف وأبان عن بعض أمراضها أو ما يسمّى بأمراض الروح والقلب. لذلك فهو حقاً من أهم كتب تربية النفوس وكتب الزهد التي تعالج الأمراض المستعصية الخارجة عن نطاق أمراض الجسد فكما يصاب الجسم بأمراض كثيرة تؤثر على الإنسان ويدركها أطباء الأبدان فهناك أمراض أخرى معنوية خارجة عن طب الأبدان يعرفها أطباء النفوس والقلوب منها ما يطرأ على القلب من الغشاوة، والران، والحقد، والحسد، والعجب، والكبر، والرياء.

ومنها ما يتعلق باللسان كالكذب، والغيبة، والنميمة. وقد عالج كتاب «تصفية القلوب..» هذه الأمراض الفاتكة بالروح والقلب معاً معالجة كافية شافية، إلى جانب عنايته بتربية النفوس قبل وقوعها في تلك الأمراض وتزكيتها والسمو بها إلى أعلى المنازل فبين

أمهات الفضائل والأخلاق كالزهد، والقناعة، والصبر، والصدق وقول الحق، والوفاء بالعهد.

منزلة كتاب التصفية ومكانته في كتب التربية والسلوك

إذا كان علماء التربية والسلوك قديماً قد اهتموا بهذا الجانب من تراثنا الإسلامي فإنه من الأحرى بنا في عصرنا الحاضر أن نربي أنفسنا وأبناءنا على تلك الفضائل ونضع هذه المدرسة التي اهتمت بهذا الجانب نصب أعين المربين والموجهين خصوصاً وأن أمتنا الإسلامية قد أصيبت بداء عضال في سلوكها وأخلاقها وقلدت غيرها تقليداً أعمى فأخذت ما يتنافى مع سلوكها وعقيدتها وليس أدل وأبلغ مما نشاهده في أبناء الأمة الإسلامية وشبابها من تأثرهم بالسلوكيات والأخلاق الغربية المنحطة. نتيجة للغزو الفكري الذي أصيبت به بعد ما تنكبت لتعاليم دينها وأهملت تراثها الزاخر بمعان وأخلاق وسلوكيات سامية.

وإنه لمن الإنصاف أيضاً أن نقول بأن كتاب «تصفية القلوب» المتضمن تلك المعاني جدير بالعناية والتحقيق لذلك حرصت على تحقيقه وإعادة نشره بصورة أرجو أن تكون مرضية حباً للخير ونشراً للعلم وإحياء للتراث ومساهمة متواضعة في توجيه الصحوة الإسلامية نحو التمسك بقيم أمة الإسلام وأخلاقها.

كما أن الكتاب ذو مادة علمية مفيدة احتوى على نصوص من الكتاب والسنة أردت تبيين منزلة ودرجة أحاديثه وتحقيق نصوصه تحقيقاً علمياً ليخرج في حلة جديدة وقشيبة.

معلومات عن كتاب التصفية:

طبع كتاب التصفية بالقاهرة عام ١٤٠٥ هـ بالمطبعة السلفية قدمه للطباعة العلامة / إسماعيل بن أحمد الجرافي. وأشرف على طبعه وتحقيقه القاضي العلامة/ أحمد بن علي الهيصمي إلا أنه قد حصل في تلك الطبعة أخطاء في نصوص الكتاب وتعدت إلى الخطأ في ترتيب بعض أوراقه وأبوابه، إضافة إلى الأخطاء المطبعية التي لا يخلو منها أي كتاب مطبوع. وكذلك عدم تخريج أحاديثه وتوثيق نصوصه. تلك الأسباب مجتمعة جعلتني أعتني بالكتاب عناية خاصة ومن الأسباب التي حملتني على تخريج أحاديث الكتاب ما وقفت عليه بخط العلامة / أحمد بن علي الهيصمي مما يشير فيه إلى أن مؤلف تصفية القلوب قد سلك مسلك الإمام الغزالي في الاحياء وأنه قد اطلع على تخريج أحاديث إحياء علوم الدين للحافظ

العراقي ويود لو يقوم أحد الباحثين بتخريج أحاديث كتاب «تصفية القلوب» فعقدت العزم على تخريج أحاديث هذا الكتاب وتحقيقه وممن شجعني على القيام بهذا العمل الأخ الفاضل / عضو مجلس الشورى ـ / الأستاذ عبد الوهاب أحمد الآنسي حيث أمدني بكثير من المراجع، ويسر أمر الطباعة وتفضل بإعطائنا نسخة خطية للكتاب من مكتبة والده القاضي / أحمد الآنسي، أفادتنا كثيراً وبينت لنا ما وقع من السقط والأخطاء في النسخة المطبوعة والمخطوط المشار إليها سابقاً بخط السيد / مطهر بن علي بن المطهر فرغ من نسخها في الخامس عشر من شهر ذي القعدة سنة ١٠٧٣. وتقع في ١٤٨ ورقة من القطع الكبير في كل ورقة ثلاثين سطراً، وفي كل سطر اثني عشر كلمة وتمتاز بجودة الخط وحسنه وسهولة قراءته وكتابة العناوين باللون الأحمر. كما أنه يضع كل مطلب بين خطوط. ويوجد إلى جانب هذه النسخة نسخ أخرى كثيرة للكتاب في الجامع الكبير بصنعاء وفي كثير من المكتبات الخاصة ببعض الأسر بصنعاء ومصعد وذمار وغيرها من المدن اليمانية.

منهج المؤلف في عرضه لمعلومات الكتاب

سلك مؤلف كتاب «تصفية القلوب» مسلك الإمام الغزالي في كتاب الإحياء في الجانب الأخلاقي والسلوكي والتربوي الذي تعرّض له، إلا أن الإمام الغزالي كان أكثر توسعاً منه. فقد استوعب كتابه كثيراً من الأحكام والحكم وأسرار العبادات ودقائق في علم التصوف والأخلاق.

والمؤلف في مسلكه هذا يناقش الإمام الغزالي ويتعقبه وقد يخالفه أحياناً مثل ما فعل في مسألة السماع.

أما من ناحية الشكل والتنظيم فإن المؤلف قد قسم كتابه إلى عشرة أبواب. يذكر تحت كل باب مطالب متعددة وقد يعبر بالمقصد بدلاً عن المطلب، وقد يعبر أيضاً بالمقالة أو البيان أو التنبيه أو الركن أو المقام أو بالقسم أو بالإيضاح، ولم يلتزم في تقسيمه للأبواب بنوع معين من هذه الأنواع، وأما عرضه للمسائل وإيراد النصوص فإنه بعد أن يضع العنوان يسرد شواهده من القرآن الكريم ثم يذكر أحاديث نبوية دون التعرض لدرجتها أو لا يذكر راويها ويأتي بذكر الحديث مباشرة بدون سند أو ذكر صحابي الحديث فيقول: قال ﷺ.. ثم يذكر الحديث. ولذا كان اهتمامنا بتخريج الأحاديث وبيان درجتها أكثر من غيره توثيقاً وتبييناً لمراتبها.

عملي في الكتاب:

- قمت بمراجعة النصوص من النسخة الخطية المشار إليها ومقارنتها بما في النسخة المطبوعة، كما راجعت الآيات المذكورة في الكتاب بمقابلتها مع المصحف وذكرت السورة ورقم الآية.

- خرجت الأحاديث الواردة في الكتاب مع التأكد من ألفاظها بعزوها إلى مصادرها من الكتب المعتمدة عند المحدثين من كتب الصحاح والسنن والمسانيد والأجزاء مبتدءاً في الغالب بذكر الأمهات الست المشهورة، والتي إليها كان المعول إن وجد الحديث بها، وإن لم يكن فيها انتقل إلى غيرها. وقد استفدت كثيراً في هذا الجانب من كتاب تخريج أحاديث إحياء علوم الدين للحافظ عبد الرحيم بن الحسين العراقي المتوفى ٨٠٦ هـ.

- وبينت منزلة الحديث من حيث صحته إن كان في غير الصحيحين، ووضحت ما في السند من مقال بعزو ذلك إلى المراجع والمصادر المعتمدة.

- ثم وضعت فهارس علمية في آخر الكتاب توضح محتوياته وما ورد فيه من نصوص وأحاديث.

- كتبت مقدمة للكتاب تشمل الآتي:

أ - منزلة الكتاب.
ب - بـ منهج المؤلف في عرضه لمحتويات الكتاب.
جـ - ترجمة المؤلف.

ترجمة المؤلف

لقد ترجم لمؤلف تصفية القلوب كثير من العلماء وتعرضوا لحياته من جوانب متعددة فمنهم: الجنداري في «تراجم الرجال». وحسين العرشي في «بلوغ المرام شرح مسك الختام». وترجم له الإمام الشوكاني في «البدر الطالع». والمؤرخ زبارة في «أئمة اليمن» كما توجد له تراجم في «طبقات فقهاء الزيدية» وفي «غاية الأماني» وترجم له الواسعي في «فرجة الهموم». وبينً مؤلفاته صاحب «كشف الظنون» حاجيّ خليفة والبغدادي في «إيضاح المكنون» وفي «هدية العارفين» وعمر رضا كحالة في «معجم المؤلفين» والزركلي في «الأعلام» كما ترجم له وذكر مؤلفاته «بركلمان». في الأدب العربي. وسوزكين في «التراث العربي» وذكره من الباحثين حسين علي محفوظ في «تراجم أعلام الشيعة» كما ترجم له كثير من الباحثين في مقدمات كتبه المطبوعة التي قام بتحقيقها وطبعها ونشرها بعض الباحثين.

ـ ومن هذه التراجم كلها ومما وقفنا عليه وضعنا هذه الترجمة المختصرة عن حياة المؤلف:

اسمه ونسبه:

هو المؤيد بالله الإمام / يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم بن محمد بن إدريس بن علي ابن جعفر الهاشمي، يتصل نسبه بالحسين السبط بن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنهما.

مولده ونشأته:

ولد بحوث في ٢٧ صفر سنة ٦٦٩ هـ. وذكرت بعض المراجع أن مولده كان بصنعاء فولد رحمه الله في أسرة[1] كريمة مشهورة بالعلم موصوفة بالزهد والتقوى تأثر بها ونشأ محباً

(١) لم نجد في المراجع التي بأيدينا ذكر حياة والده العلمية، وغاية ما ذكر أن والده قدم من العراق في القرن السابع الهجري وتزوج بأخت الإمام / يحيى بن محمد السراجي المتوفى سنة ٦٩٦. انظر أئمة اليمن لزبارة ١/٢٨٨.

للعلم، طالباً له، ساعياً للتزود بالمعارف المختلفة المتعددة المشارب. تلقن العلم على يد أكابر علماء بلاده وهو لا يزال صغيراً ففاق في هذا الميدان أقرانه وحاز قصب السبق.

مكانته العلمية والاجتماعية وثناء العلماء عليه

كان رحمه الله من أكابر علماء الزيدية وأئمتها البارزين الجامعين بين العلم والعمل، الآمرين بالمعروف، والناهين عن المنكر. مع سلامة صدره وطهارة لسانه وعدم اقدامه على التكفير والتفسيق بالتأويل لمن خالفه في الرأي من أصحاب الفرق والمذاهب الأخرى.

لقب الإمام ابن حمزة بقمطر العلوم وحافظ منطوقها ومفهومها لغزارة علمه وكثرة تصانيفه النافعة.

وعندما دعا لنفسه الإمامة اختاره الناس عمن سواه لعلمه ومكانته وصفاته الحميدة. فقد كان محباً للمساكين عادلاً في حكمه زاهداً في دنياه. عرفه المقربون إليه منذ صغره حاد الذكاء حسن الخلْق والخلُق، وقد وصفه الإمام المطهر بن محمد قائلاً «في هذا الولد ثلاث آيات علمه وحفظه وخلقه».

ومدحه صاحب «غاية الأماني» بقوله كان أفضل الأئمة وأشرفهم عملاً، وله المناقب العديدة.

كما وصفه الإمام الشوكاني متحدثاً عن علمه ومكانته بقوله: «اشتغل بالمعارف العلمية وهو صبي، وأخذ من جميع أنواع الفنون. وتبحر في جميع أنواع العلوم. وفاق أقرانه، صنف التصانيف الحافلة في جميع الفنون، وهو من أكابر أئمة الزيدية. وكان له ميل إلى الإنصاف مع طهارة اللسان، وسلامة الصدر، وعدم الاقدام على التكفير والتفسيق بالتأويل. كثير الذب عن أعراض الصحابة وعن أكابر علماء الطوائف وكان من الأئمة العادلين الزاهدين في الدنيا.

عصره:

عاصر الإمام يحيى بن حمزة الدولة الرسولية أبان حكمها، وكانت عاصمتها تعز في عهد الملك المظفر بن يوسف بن عمر بن علي بن رسول (٦٤٧ ـ ٦٩٤هـ) الذي ذاع صيته في الآفاق حتى بلغ سفراء بلاده إلى الصين والهند وفارس ولقب بتبع الأصغر.

شهد الإمام يحيى بن حمزة رحمه الله الأحداث والحروب التي دارت بين الأئمة الزيدية وبين الدولة الرسولية التي امتد نفوذها إلى صنعاء فبعد مولده بعام واحد (٦٧٠هـ) دخل الإمام المهدي لدين الله إبراهيم بن محمد بن تاج الدين المتوفي سنة ٦٨٣ هـ صنعاء وأخذها من بني رسول ثم زحف إلى ذمار وهناك اندحرت جموعه فأسر وسجن حتى مات في سجنه. وأثناء فترة اعتقال الإمام المهدي دعى لنفسه الإمام مطهر بن يحيى بن المرتضي سنة ٦٧٤ هـ فعقد صلحاً مع الملك المظفر. وكان الإمام بن حمزة ذا صحبة للإمام المطهر استمرت حتى وفاة الإمام المطهر سنة ٦٩٧هـ وقد شارك الإمام يحيى بن حمزة صاحبه في قتاله ضد القرامطة الاسماعيلية عام ٦٨٩هـ وكان عمره حينها سبعة وعشرين سنة، واستمر في قتالهم حتى بعد دعوته لنفسه. ولم تذكر المصادر اشتراك الإمام يحيى بن حمزة في قتال دولة بني رسول قبل أو بعد دعوته لنفسه.

وبعد وفاة الإمام المطهر دعى لنفسه الإمامة وكان ذلك في سنة ٧٢٩هـ فعارضه الإمام / علي بن الصلاح بن إبراهيم بن تاج الدين، والإمام الواثق المطهر بن محمد المطهر الملقب بالفصيح، والإمام أحمد بن علي بن أبي الفتح جميعهم عارضه كل في بلده ولكن ما أن بلغ الناس دعوة الإمام يحيى بن حمزة حتى التفوا حوله وأيدوه.

وقد كان أول عمل له دعوته إلى حمل السلاح وتجميعه الناس لقتال القرامطة الاسماعيلية وظل يقاتلهم حتى سنة ٧٣١ هـ بعد ميل الناس إلى الصلح فتوقف الإمام عن قتالهم وعاد إلى صنعاء ثم انتقل إلى حصن هران في شمال منطقة ذمار واستقر به. ولكنه ظل يدعو ويكاتب الملوك والسلاطين لإقامة شرع الله في الأرض وقتال الملاحدة إضافة إلى عمله المتواصل في تأليف التصانيف المتعددة والمفيدة.

شيوخه وتلامذته:

من مشايخه الذين أخذ عنهم محمد بن عبد الله بن خليفة مصنف شرح الجوهرة. والإمام / يحيى بن محمد السراجي وهو خاله أخو أمه الشريفة ثريا، كما أخذ عن الفقيه محمد بن الحسن الأصفهاني وعن المحدث أحمد بن أبي الخير السماحي الزبيدي. وأخذ كذلك عن الشيخ إبراهيم بن محمد الطبري المكي. ومن أشهر تلامذته محمد بن سليمان الأوزري محدث اليمن المتوفى سنة ٨٠١ هـ والفقيه المحدث الحسن بن محمد النحوي المتوفى

سنة ٧٩١ هـ سمع من المؤلف كتابه الانتصار لمذاهب علماء الأمصار. والسيد محمد بن المرتضى بن المفضل.

مصنفاته:

اشتهر الإمام يحيى بن حمزة بمصنفاته العديدة في كثير من العلوم والفنون نذكر منها ما يلي:

١ ـ الفقه وأصوله.

ـ الاختيارات المؤيدية ـ فقه ـ مخطوط.

ـ الانتصار الجامع لمذاهب علماء الأمصار ـ مخطوط في ١٨ مجلداً بالجامع الكبير.

ـ الإيضاح لمعاني التنقيح أصول ـ مخطوط.

ـ الحاوي في أصول الفقه أصول ـ مخطوط.

ـ العدة في المدخل إلى العمدة فقه ـ مخطوط

ـ القسطاس في القياس وحصره وفنونه وطرقه ـ أصول ـ مخطوط.

ـ الكوكب الوقاد في أحكام الاجتهاد ـ أصول ـ مخطوط.

ـ المعيار في معاقد أصول الفقه ـ أصول ـ مخطوط.

ـ نور الأبصار المنتزع من الانتصار ـ فقه.

ـ نهاية الوصول إلى علم الأصول ـ أصول ـ فقه ـ مخطوط.

٢ ـ الفلسفة والمنطق وعلم الكلام:

ـ الإفحام لأفئدة الباطنية الطغام ـ مطبوع «منشأة المعارف ـ الإسكندرية».

ـ التحقيق في أدلة الإكفار والتفسيق ـ مخطوط.

ـ التمهيد لأدلة مسائل التوحيد ـ مخطوط.

ـ الجواب الرائق في تنزيه الخالق ـ مخطوط.

ـ الجواب الناطق بالصواب القاطع لعرى الشك والارتياب ـ مخطوط.

ـ الجوابات الوافية للبراهين الشافية.

ـ الرسالة الوازعة لذوي الألباب عن فرط الشك والارتياب ـ مطبوع.

- الرسالة الوازعة لصالح الأمة عن الاعتراض على الأئمة - مخطوط.

- الشامل لحقائق الأدلة السلفية وأصول المسائل الدينية.

- عقد اللآلىء في الرد على أبي حامد الغزالي.

- كتاب الفائق - منطق - مخطوط.

- القاطع للتمويه عما يرد على حكمة التنزيه.. ويسمى الجواب القاطع للتمويه. - مخطوط.

- القانون المحقق في علم المنطق.

- الكاشف للغمة عن الاعتراض على الأئمة.

- مشكاة الأنوار في الرد على الباطنية الفجار. ويسمى مشكاة الأنوار لهدم قواعد الباطنية الفجار.

- مشكاة الأنوار للسالكين مسالك الأبرار.

- المعالم الدينية - عقائد - مخطوط

- النهاية في علم الكلام.

٣ - التصوف والزهد:

- تصفية القلوب من الأدران والأوزار والذنوب.

- تصفية النفوس «ولعله مختصر من الأول».

- الوعد والوعيد.

٤ - النحو:

- الأزهار الصافية في شرح الكافية.

- الاقتصاد وهو مدخل إلى كتاب المفصل في النحو.

- الحاصر لفوائد مقدمة طاهر في علم حقائق الإعراب.

- المحصل في كشف شرح أسرار المفصّل.

- المنهاج في شرح جمل الزَجّاج.

٥ - البلاغة:

- الإيجاز لأسرار كتاب الطراز في علوم البيان وعلوم حقائق الإعجاز قام بتحقيقه

الدكتور / رياض القرشي.

ـ الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز طبع سنة ١٩١٤ م بمصر مطبعة المقتطف، وطبع في بيروت عام ١٩٨٠ م بدار الكتب العلمية.

٦ ـ كتب أخرى متفرقة في الأدب والحديث والتاريخ:

ـ أطواق الحمامة في حمل الصحابة على السلامة ويقال له:

«طوق الحمامة في مباحث الإمامة».

ـ الأنوار المضيئة.

ـ خلاصة السيرة. ويقال له «شرح الأخبار النبوية».

ـ الدعوة العامة.

ـ الديباج الوضي في الكشف عن أسرار كلام الرضي.

ـ رسالة في بيان المصدر.

ـ شرح نهج البلاغة.

ـ اللباب في محاسن الآداب[1].

ـ مجموع رسائل مذكورة في سيرته.

ـ مختصر الأنوار المضيئة.

ـ المصلح للدين الموضح لسنن سيد المرسلين.

ـ المعيار لقرائح النظار.

وفاته:

توفي الإمام يحيى بن حمزة سنة ٧٤٩ هـ [2] هـ بحصن هران عن عمر بلغ الثمانين ثم نقل إلى ذمار ودفن بها وقبره مشهور موجود بمسجد عمار الدين جوار الجامع الكبير بمدينة

---

(١) ذكره الباحث عبد الله الحبشي في مصادر الفكر ص ٥٦٩. ـ

(٢) هذا هو الصواب في تاريخ وفاته. وقد ذكر صاحب غاية الأماني ٢/٥١٤ أنه توفي سنة ٧٤٧، وذكر الشوكاني في البدر الطالع أن وفاته في ٧٠٥ هـ.

ذمـار بعد أن قضى حيـاة عامـرة بالعلم والعمـل والاجتهاد. خلف من الأولاد سبعـة سلك معظمهـم طريق أبائهم.

وقد رثاه كثير من الأدباء والشعراء في عصره.

المحَقِق

النسخ التي اعتمدنا عليها في النقل

١ ـ نسخة الوالد القاضي أحمد بن أحمد الجرافي ، تاريخ كتابتها شهر جمادى الآخرة سنة ١٠٣٤ أربع وثلاثين بعد الألف ، عدد صفحاتها ٤٠٤ وفيها أخطاء خطية كثيرة ، ولم يذكر اسم كاتبها .

٢ ـ نسخة السيد علي إسحق يرحمه الله ، تاريخ كتابتها شهر شوال سنة ١٣٥٤ أربع وخمسين وثلثمائة وألف بقلم يحيى محمد الشامي ، عدد صفحاتها ٣٤١ .

٣ ـ نسخة الأستاذ حمود رواس تاريخ كتابتها شهر ذي القعدة سنة ١٣١١ هـ ولم يذكر اسم كاتبها ، عدد صفحاتها ٤٤٢ .

بسم الله الرحمن الرحيم

ربِّ سهل ويسر وبلغ يا كريم، وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين، الحمد لله المبدع اللطيف الخبير، الذي أبدع في تصريف الأمور بعجيب التدبير، وعدّل تركيب الخلق بحسن التقويم والتقدير، وزيّن صورة الإنسان فأحسن في عجيب التصوير، وحرسه عن الزيادة والنقصان في شكله من غير تأمل ولا تفكير، فحصل على قانون الحكمة ومطابقة المنفعة من غير تقديم ولا تأخير، وفوّض تحسين الأخلاق إلى الإجتهاد من جهة التعبد والتشمير واستحثه على تهذيبها بباعث الخوف وسوط التحذير، وسهّل على خواص أوليائه تهذيب الأخلاق بما منحهم من التوفيق والتيسير، وامتنّ عليهم بما أعطاهم من الألطاف الخفية في تسهيل العسير.

والصلاة على البشير النذير الداعي إلى الله بإذنه السراج المنير، الذي لاحت أنوار النبوة من أساريره، وتلألأت مخايل الحق في مخايله وتباشيره، وعلى آله الطيبين الطاهرين الذين أظهروا وجه الإسلام عن ظلمه ودياجيره، وحسموا مواد الباطل فلم يتدنسوا بقليله ولا بكثيره.

أما بعد فإن المقصود بهذا الإملاء هو الإشارة إلى تصفية النفوس عن الرذائل وتزكية الأخلاق والتحلي بمحاسن الشمائل وتطهيرها عن الأوصاف الردية وتنزيهها عن الخصال المهلكة الدنية ليكون بذلك محرزاً للطرائق المحمودة ومخلصاً لنفسه عن الخلائق المذمومة، فعند ذلك تحصل النجاة من عذاب الله والفوز برضوانه والإختصاص بكريم جواره ومزيد فضله وإحسانه وقد اخترنا في ترتيبه أن يكون محتوياً على عشر مقالات هي وافية بالمقصود والغرض المطلوب مما نريده بمعونة الله وحسن توفيقه.

المقالة الأولى
في الرياضة وتهذيب الأخلاق

واعلم أنا إنما بدأنا به لأنه كلام في قوام النفس وتطهيرها عن دنس الأوزار وتبعيدها عن أوضار الآثام حتى تظفر بالسعادة الأُخروية وتفوز بالكرامات السرمدية، فنقول المثال الصّادق في علاج النفوس بمحو الرذائل والأخلاق الردية عنها وكسب الفضائل والأخلاق الجميلة إليها، مثال البدن وعلاجه بإزالة العلل عنه وجلب الصحة إليه، فكما أن الغالب على أصل المزاج الصّحة والإعتدال وإنما تعتري العلل العارضة من جهة عوارض الأغذية وتغير الأهوية وتعاقب الأحوال، فهكذا كل مولود فإنه يولد معتدلاً صحيحاً كما أشار صاحب الشريعة صلوات الله عليه بقوله: «كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه وينصّرانه ويمجّسانه»[1] أي يكسب الرذائل والتعود والتعليم، وهكذا حال البدن فإنه لا يخلق كاملاً وإنما يكمل بالتربية والأغذية الطيبة، فهكذا حال النفس فإنها تخلق ناقصة قابلة للكمال وإنما تكمل بالتزكية وتهذيب الأخلاق بالعلم وكما أن البدن إذا كان صحيحاً فشأن الطبيب تمهيد القانون الحافظ للصحة. وإن كان مريضاً فشأنه جلب الصحة إليه، فكذلك النفس مثلاً إن كانت طاهرة زكية مهذبة الأخلاق فينبغي أن يسعى في حفظها وحفظ صفاتها وجلب مزيد القوة إليها واكتساب زيادة صفاتها وإن كانت عديمة الكمال والصفاء، فينبغي أن يسعى بجلب ذلك إليها، فكما أن العلة المغيرة لاعتدال المزاج الموجبة للمرض لا تعالج إلا بضدها، فإن كانت من حرارة عولجت بالبرودة، وإن كانت من برودة فبالحرارة، فهكذا حال الرذيلة التي هي مرض القلب علاجها بضدها، فيعالج مرض الجهل بالعلم، ومرض البخل بالسخاء، ومرض الكبر بالتواضع، ومرض الشره بالكف عن المشتهيات بالتكلف، فكما لا بد من احتمال مرارة الدواء في علاج الأبدان، فلا بد من احتمال مرارة المجاهدة والصبر عليها لمداواة مرض القلوب، فإذا تمهدت هذه القاعدة فلنذكر رياضة القلوب ثم نذكر رياضة الأبدان ثم نردفه برياضة الأطفال، فهذه أبواب ثلاثة نذكرها ونفصلها بمشيئة الله سبحانه وتعالى.

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة البخاري الجنائز رقم الحديث (١٣٨٥) وفي التفسير رقم (٤٧٧٥). مسلم: في القدرة رقم الحديث (٢٦٥٨) أبو داود في السنن: السنة رقم الحديث (٤٧١٤)

الباب الأول

في رياضة القلوب وشرح عجائبها

اعلم أن شرف الإنسان وفضيلته - التي فاق بها جملة من أصناف المخلوقات باستعداده لمعرفة الله تعالى التي هي في الدنيا جماله وكماله وفخره وفي الآخرة عدته وذخره - هو القلب. فإنه إنما يستعد لمعرفة الله بقلبه لا بجارحة من جوارحه فالقلب هو العالم بالله تعالى وهو العامل لله والساعي إلى الله والمتقرب إليه، والجوارح إنما هي أتباع وخدم له وآلات يستخدمها القلب ويستعملها استعمال الملك للعبيد والراعي للرعية ويشتمل على لطائف وأسرار نشير إلى المهم منها بمعونة الله نوردها في مطالب ستة.

المطلب الأول
في بيان ما يطلق عليه لفظ القلب

ويطلق على معنيين:

المعنى الأول منهما: على اللحم الذي يكون في الجانب الأيسر من صدر الإنسان دقيق الأعلا عريض الأسفل على شكل الصنوبرة، وهولحم مخصوص وفي باطنه تجويف وفي ذلك التجويف دم أسود، وهذا القلب موجود للبهائم بل هو موجود في حق الميت، والكلام في شكله وكيفيته ليس يتعلق به شيء من الأغراض الدينية، وإنما يتعلق به غرض الأطباء.

المعنى الثاني: وهي اللطيفة الإلهية التي تتعلق بها المقاصد الدينية وهي العالمة المدركة، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان وهي المخاطبة والمطالبة والمثابة والمعاقبة ولها تعلق مع القلب الجسداني، وقد تحير أكثر عقول الخلق في إدراك وجه العلاقة بينهما هل يضاهي تعلق الأعراض بالأجسام والأوصاف بالموصوفات أو تعلق الصورة

بالمرآة أو تعلق المكان بالتمكن فيه أو غير ذلك من سائر الإضافات والبحث عن ذلك دقيق، وليس ذلك من همنا، وإنما همنا إصلاحه على أي وجه كانت حقيقته، وهكذا حال الروح فإنه يطلق على معنيين أحدهما: الجسم اللطيف منتشر في سائر أجزاء الجسد، وثانيهما: على اللطيفة العالمة المدركة، وهكذا حال النفس فإنها تطلق على المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة في الإنسان، وعلى اللطيفة التي هي العالمة المدركة الآمرة الناهية فهذان معنيان أيضاً،وهكذا العقل فإنه يطلق على معنيين، أحدهما: على اللطيفة التي أشرنا إليها فإنها هي العاقلة المثابة المعاقبة، وثانيهما: على العلم بالحقائق المفردة والمركبة فهذه حقائق أربعة. القلب، والروح، والعقل، والنفس، وألفاظها متغايرة أربعة والمعاني خمسة، والخامس هو الجامع لها وهي المتفقة عليه، فالقلب الجسماني والروح الجسماني والنفس الشهوانية والعلوم العقلية فهذه أربعة والخامس هو اللطيفة المدركة العاقلة التي هي متصفة بالصفات التي ذكرناها من الإحساس والعلم والإدراك، فهذا ما أردنا ذكره من شرح معناه.

المطلب الثاني
في بيان الخاصة لقلب الإنسان ومثاله وجنوده

فأما الخاصة فاعلم أن الله تعالى قد أنعم على سائر الحيوانات سوى الآدمي بالشهوة والقدرة والحياة والحواس الظاهرة كالسمع والبصر حتى إنه ألهمها إلى ضروب من الإلهامات العجيبة مما يكون فيه مصالح لها ومصالح للعباد، ولهذا فإنك ترى الشاة تهرب من الذئب إذا أبصرته لما تعرف من عداوته لها، لكن الآدمي قد خص الله قلبه بخصائص لأجلها عظم شرفه واستحق القرب من الله عزّ وجل، وهذا هو العلم بالأمور الدنيوية والأمور الأخروية والحقائق العقلية، فإن هذه الأمور وراء الأمور المحسوسة ولا مشاركة فيما بينه وبين سائر الحيوانات فيها كالعلم بالأمور الخبرية التي تحتاج إلى ممارسته كالعلم بانكسار الزجاج وإغراق الماء وإحراق النار وغير ذلك، ونحو العلوم النظرية فإنها متولدة عن المقدمات الضرورية وحاصلة عنها، فحصل من مجموع ما ذكرنا ها هنا أن تميز الإنسان يكون بخاصتين:

الخاصة الأولى: العلم وأشرف أنواع العلم العلم بالله تعالى وصفاته الذاتية كالعالمية والقادرية وسائر الصفات السلبية والإيجابية وعلوم الحكمة في أفعاله فإن

بإحراز هذه العلوم يحصل كمال الإنسان وفي كماله إحراز السعادة الأُخروية والفوز بجوار الله في دار كرامته .

الخاصة الثانية : الحكمة ونعني بها حالة للنفس يدرك بها الصواب من الخطأ في جميع أفعاله فتكون مطابقة لمنهاج الحق ومسلك الصواب وإليه الإشارة بقوله عز وجل ﴿ **وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب** ﴾ (ص آية ٢٠) فلا فضل له إلا بإحراز هذين الأمرين ، ومصداق ما قلناه أن الإنسان من حيث إنه يتغذى وينمو فهو نبات ، ومن حيث إنه يحس ويتحرك بالإختيار فهو حيوان ومن حيث الصورة والقامة فهو كالصورة الحاصلة من شمع أو خشب ، وإنما خاصيته معرفة حقائق الأشياء ، فمن استعمل جميع أعضائه وقواه على جهة الاستعانة بها على العلم والعمل فقد تشبه بالملائكة فحقيق أن يكون لاحقاً بهم وجدير أن يسمى ملكاً كما قال تعالى ﴿ **إن هذا إلا ملك كريم** ﴾ (يوسف : آية ٣١) . ومن صرف همته إلى اتباع اللذات البدنية يأكل كما تأكل الأنعام فقد انحط إلى حضيض البهائم فيصير إما غِمراً كالثور وإما شرهاً كالخنزير وإما عاقراً كالكلب وإما حقوداً كالجمل أو متكبراً كالنمر ، أو ذا روغان كالثعلب ، أو يجمع ذلك كله كالشيطان المريد ، وما من عضو من أعضائه إلا ويمكن استعماله والإستعانة به على الطاعة لله تعالى والوصول به إلى السعادة الأُخروية فيكون لقاء الله مقصده والدار الآخرة مستقره والدنيا منزله ، فمن أجل ذلك كان الإنسان متميزاً بما ذكرناه ، وأما الأمثلة فاعلم أن الله عز وجل قد ركب الإنسان تركيباً عجيباً وقومه في أحسن تقويم فلنذكر الأمثلة الدالة على نهاية الحكمة فيه وجملتها ثلاثة :

المثال الأول : أن نقول مثل نفس الإنسان في بدنه كمثل والٍ في مدينته ومملكته فإن البدن مملكة للنفس وعالمه ومستقره وقواه ، فأما جوارحه فهي بمنزلة الصُنّاع والعمال ، فأما العقل فهو بمنزلة المشير الناصح والوزير العاقل ، وأما الشهوة فهي كالعبد السوء يجلب الطعام والميرة إلى المدينة ، وأما الغضب والحمية فهما كصاحب الشرطة ، والعبد الجالب للميرة كذاب مُخاتر مُخادع خبيث يتمثل بصورة الناصح وتحت نصحه السم القاتل والشر الهايل ولا يزال ينازع الوزير في كل تدبيره ، فالوالي في مملكته متى استشار هذا الوزير المُرشد وهوالعقل صلحت مملكته واستقامت أحواله ، ومتى كان مستشيراً لهذا العبد الخبيث مَرَج الأمر وفَسد الملك ، فهكذا حال النفس متى كانت مطيعة للشهوة موطوءة بقدمها كانت كما قال الله تعالى ﴿ **أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم** ﴾ (الجاثية : آية ٢٣) . ومتى كانت مطيعة للعقل كانت كما قال الله عزّ وجل ﴿ **وأما**

من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى﴾ (النازعات: ٤١).

المثال الثاني: وهو إن البدن كالمدينة والعقل كمثل ملك مدير لها والحواس بمنزلة الجنود والأعوان، والأعضاء بمنزلة الرعية، والنفس الأمارة بالسوء هي الشهوة، والغضب بمنزلة عدو ينازعه في مملكته ويسعى في هلاك رعيته، فإن جاهد عدوه وقهره على ما يحب حمد أثره واستقام ملكه، وإن ضيع ثغره وأهمل رعيته ذُمَّ أثره وبطل أمره وكان خاسراً عند الله تعالى.

المثال الثالث: مثل العقل كمثل فارس مُتصيد فالشهوة كالفرس والغضب بمنزلة الكلب، فمتى كان الفارس حاذقاً والفرس مروّضاً والكلب مؤدباً معلماً، كان جديراً بالنجاح، ومتى كان الفارس أخرق وكان الفرس جموحاً والكلب عقوراً فلا فرسه منقاد للحاجة ولا كلبه يسترسل بإشارته مطيعاً فهو خليق بأن يعطب فضلاً عن أن ينال ما طلب، فَخُرق الفارس مثل لجهل الإنسان وقلة حكمته، وجماح الفرس مثل لجهل الإنسان وقلة حكمته، وجماح الفرس مثل لغلبة الشهوة في البطن والفرج، وعقر الكلب مثل للغضب واستيلائه، فهذه الأمثلة التي أوردناها جعلناها أمثلة لخلق الإنسان وتركيبه، وأما جنوده فاعلم أن الله تعالى يقول ﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾ (المدثر: آية ٣١). وقال ﷺ: «الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف[1]» فالقلب في حكم الملك، والجنود في حكم الخدم والأعوان، فهذه هي فائدة الجند ومعناه، فاليد والرجل والعين والأذن واللسان وسائر الأعضاء جميعها خادمة للقلب ومسخرة له وهو المتصرف فيها والمردد لها، وقد خلقت مجبولة على طاعة القلب لا تستطيع خلافاً له ولا تمرداً عليه، فإذا أمر العين بفتح الجفن انفتحت، وإذا أمر الرجل بالمشي مشت، وإذا أمر اللسان بالكلام تكلم، وهكذا سائر الأعضاء منقادة لأمره مسخرة له مدبرة تحت أمره.

وجملة الأمر أن جنوده أصناف خمسة، الصنف الأول: هذه الأعضاء التي ذكرناها كاليد والرجل وسائرها، الصنف الثاني: الحواس الخمس نحو الشم والذوق والسمع والبصر واللمس، الصنف الثالث: القدرة فإنها هي الآلة في هذه الأفعال كلها وبها تحصل الآثار الفعلية، الصنف الرابع: الإرادة فهي الباعثة على هذه الأفعال المحصل

---

(١) متفق عليه من حديث عائشة البخاري: في الأنبياء رقم (٣٣٣٦) ومسلم: في البر والصلة رقم (٢٦٣٨) وأبو داود: السنن: الأدب رقم (٤٨٣٤).

لوقوعها على الأوجه المختلفة، الصنف الخامس: العلم والحكمة والفكر فإن هذه الأمور كلها لا بد من وجودها وحصولها فحقه أن يستعين بهذه الآلات التي هي بمنزلة الجند على إحراز السعادة الأُخروية ونجاة النفس من عذاب الله فإنه إن ترك الإستعانة وحكم على نفسه الغضب وقوة الشهوة هلك يقيناً وخسر خسراناً مبيناً، وهذا حال أكثر الخلق، فإن عقولهم صارت مسخرة لشهواتهم في استنباط الحيل لقضاء أوطار الشهوات فضلوا عن طريق النجاة ومالوا عن منهاج الجنة وخلقت النفوس مطيعة للشهوات العاجلة وإيثارها، فحصل من مجموع ما ذكرناه ها هنا بيان خاصة الإنسان ومعرفة جنوده وبيان أمثلته بالإضافة إلى جنوده وآلاته التي هي كالخدم في حقه والله أعلم.

المطلب الثالث
في بيان كيفية اتصاف القلوب بالعلوم وغيرها من سائر الصفات المضافة إليها

اعلم أن محل العلوم هو القلب وهو بالإضافة إلى حقائق المعلومات كالمرآة بالإضافة إلى الصور المنطبعة فيها، فإن لكل معلوم حقيقة ولتلك الحقيقة صورة فتنطبع في مرآة القلب وتتضح بها فكما أن المرآة غير وصورة الأشخاص غير وحصول مثالها غير، فهذه ثلاثة أمور فهكذا ها هنا ثلاثة أمور: القلب وحقائق المعلومات، وحصول تلك الحقائق في القلوب، فالعلم عبارة عن القلب الذي فيه مثال حقائق المعلومات، والمعلوم عبارة عن حقائق الأشياء كلها، والعلم عبارة عن حصول المعلوم في القلب كما مثلناه في المرآة من غير تفرقة بينهما وهو أوقع مثال في حق القلب والعلم والمعلوم، وكما أن المرآة لا تنكشف فيها الصورة لأمور تعرض فيها، وجملتها خمسة، أولها: نقصان الصورة كالمرآة من الخشب، فإنه لا يحصل فيها صورة لبطلان الجوهرية، وثانيهما: الصدأ والكدورة وإن كانت الجوهرية حاصلة وثالثها: العدول بها عن جهة الصورة كما لو كانت وراءها، ورابعها: الحجاب المرسل بين المرآة والصورة، وخامسها: عدم النور المتصل بالمرئي، فهكذا حال القلب فإنه مرآة مستعدة لأن تتجلى فيها ـ الحقائق في الأمور كلها.

وإنما خلت القلوب عن العلوم لمثل هذه العوارض، أولها: نقصان القلب كما نقوله في قلب الصبي، وثانيها: كدورة المعاصي فإنها محطية للقلب، وثالثها: أن يكون معدولاً به عن جهة الحقيقة المطلوبة، فإن قلب المطيع الصالح وإن كان صافياً فإنه ليس تتضح فيه جلية الحق لأنه ليس طالباً له، ولا يصرف نفسه وفكرته إلى التأمل فلهذا لم

يحصل له العلم، ورابعها: الحجاب فإن المطيع إنما لم يحصل له العلم المحقق لما حجب نفسه باعتقاد الجهل الذي يسبق إلى نفسه في الصبا على جهة التقليد، وخامسها: عدم نور التوفيق من جهة الله تعالى، فهذه الأسباب كلها هي المانعة من معرفة حقائق الأمور، وإلا فكل قلب فهو صالح بالفطرة لمعرفة الحقائق لأنه جوهر شريف مفارق لسائر الأعضاء والجوارح بهذه الخاصية التي أشرنا إليها.

وكما أن الإنسان يتصف بهذه الصفات المحمودة، فقد يجتمع فيه أنواع من الأوصاف النميمة الخسيسة، وجملتها أمور ثلاثة السبعية والبهيمية والشيطانية، الصفة الأولى: السبعية فهو من حيث سُلِّط عليه الغضب يتعاطى أفعال السباع من العداوة والبغضاء والتهجم على الناس بالضرب والشتم وأنواع الأذايا بحيث لا يرعوي عن ذلك، الصفة الثانية: البهيمية فهو من حيث غلبت عليه الشهوة يتعاطى أفعال البهائم من الجمع والحرص والشبق وكثرة الأكل والشرب، الصفة الثالثة: الشيطانية فمن جهة أنه متميز عن البهائم، مع مشاركته لها في الغضب والشهوة حصلت فيه شيطانية فصار شريراً يستعمل الحذق في استنباط الحيل والخدع والمكر ويتوصل إلى تحصيل الأغراض بإعمال كل حيلة، ويظهر الشر في معرض الخير، وهذه هي أخلاق الشياطين.

وكل إنسان فيه شوب من هذه الشوائب الثلاث أعني السبعية والبهيمية والشيطانية، وكل ذلك مجموع في القلب، وكأن المجموع في إهاب الإنسان خنزير وكلب وشيطان، فالخنزير هو الحرص، والكلب هو الغضب فإنه السبع الضاري، والشيطان هو الشهوة، فهذه آفات متى اجتمعت فهي مهلكة، وملاك ذلك هو العقل فإذا كان الإنسان مُحكماً له فهو السلطان القاهر عليها وحصلت النجاة من ذلك، وإذا كان مقهوراً لغلبة الشهوة والكبر وموطوءاً بقدمها حصل الهلاك نعوذ بالله منه.

المطلب الرابع
في بيان تسليط الشيطان على القلوب بالوسوسة

اعلم أن القلب هو مهبط الرحمة والملائكة ومعترك الشياطين والغضب، ومصداق ذلك قوله تعالى ﴿**يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس**﴾ (الناس: آية ٥) وقوله ﷺ: «إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم فإذا ذكر الله عز وجل خنس وإن نسي الله التقم قلبه»[١]، وفي حديث آخر، «قلب المؤمن بين إصبعين من

---

(١) أبو يعلى في المسند ٢٧٩/٧ رقم الحديث (٢٤٦) وابن عدي في الكامل ١٠٤٤/٣ في ترجمة زياد النمري وابن أبي=

أصابع الرحمن»[1]، وقوله ﷺ، «إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم فضيقوا مجاريه بالجوع»[2] إلى غير ذلك من الأحاديث، فإذا تقررت هذه القاعدة فالحاصل من الخير إنما هو بسبب الآثار الحاصلة في القلب، وما حصل من الشر فهو من الآثار الحاصلة فيه أيضاً، والباعث على تلك الآثار جهات ثلاث:

الجهة الأولى: هي الأسباب الظاهرة كالحواس الخمس، فإنه إذا أدرك بالحواس شيئاً فإنه يحصل منه أثر في القلب، فإذا شاهد الإنسان ما يحبه، فإنه يثير المحبة والمودة والملاءمة وإذا شاهد ما يكرهه فإنه يحصل الغضب والسخط فلهذا كانت الكراهة مشيدة آثار العداوة والبغضاء.

الجهة الثانية: الأسباب الباطنة كالخيال والشهوة والغضب والخلائق المركبة في مزاج الإنسان فإن الشهوة إذا هاجت لكثرة الأكل أو بقوة في المزاج حصل منها في القلب آثار، وإن لم يحصل هناك شيء من جهة الحواس، فالخيالات الحاصلة في النفس تبقى وينتقل الخيال من شيء إلى شيء وبحسب انتقال الخيال ينتقل القلب من حال إلى حال، والمقصود أن القلب في التغير والتأثر دائماً من هذه الأسباب.

الجهة الثالثة: الخواطر الحاصلة في القلب، ونعني بالخواطر ما يعرض من الأفكار والأذكار، فإنه يحصل هناك اعتقادات وعلوم وظنون على جهة التجدد وعلى سبيل التذكر، فإنها تسمى خواطر من حيث أنها تخطر في القلب بعد أن كان غافلاً عنها، والخواطر هي المحركات للإرادات فمبدأ الأفعال الخواطر، والخواطر تحرك الرغبة، والرغبة تحرك العزم، والعزم يحرك الأعضاء، ثم إن الخواطر المحركة للرغبة منقسمة إلى ما يدعو إلى الشر وهو ما يضر في العاقبة، وإلى ما يدعو إلى الخير، وهو ما ينفع في

= الدنيا في مكائد الشيطان وأبو نعيم في الحلية ٢٦٨/٦ من حديث أنس والبخاري تعليقاً بصيغة التمريض من حديث ابن عباس وضعفه الحافظ انظر فتح الباري ٧٤١/٨، وابن كثير في التفسير (سورة الفلق) وانظر مجمع الزوائد ١٤٩/٧ والمطالب العالية ٢٤٢/٣ رقم الحديث (٣٣٨٤) والدر المنثور للسيوطي ٤٢٠/٦ والضعيفة للألباني رقم الحديث (١٣٦٧).

(١) مسلم: في القدر، رقم الحديث (٢٦٥٤) عن ابن عمر بلفظ: إن قلوب بني آدم... ابن ماجه: رقم الحديث (١٩٩) المقدمة عن النواس بن سمعان، أحمد في المسند ١٧٣/٢ عن ابن عمر وفي ١٨٢/٤ عن النواس بن سمعان.

(٢) متفق عليه إلى قوله مجرى الدم. البخاري: الاعتكاف رقم الحديث (٢٠٣٨) وفي الأحكام (٧١٧١) ومسلم: في السلام رقم (٢١٧٤)، (٢١٧٥) وأبو داود في السنن: الصوم رقم (٢٤٧٠)، (٢٤٧١) أما زيادة قوله «فضعفوا مجاريه بالجوع» فهي لابن أبي الدنيا في مكائد الشيطان من حديث علي بن الحسين مرسلاً. تخريج الإحياء ١٠٤/٣.

الدار الآخرة فهما خاطران مختلفان فافتقرا إلى اسمين مختلفين.

والخاطر المحمود يسمى إلهاماً، والخاطر المذموم الداعي إلى الشر يسمى وسواساً، ثم إن سبب الخاطر الداعي إلى الخير يسمى ملكاً وسبب الخاطر الداعي إلى الشر يسمى شيطاناً، واللطف الذي به يتهيأ القلب لقبول إلهام الملك يسمى توفيقاً، والذي به يتهيأ لقبول وسواس الشيطان يسمى إغواء وخذلاناً، فإن المعاني المختلفة تفتقر إلى ألقاب مختلفة، والملك عبارة عن خلق خلقه الله تعالى من شأنه إفاضة الخير وإفادة العلم وكشف الحق والوعد بالمعروف، وقد خلقه الله تعالى وسخره من أجل ذلك، والشيطان عبارة عن خلق خلقه الله تعالى فشأنه ضد ذلك، وهو الوعد بالشر والأمر بالفحشاء والتخويف عن الهم بالخير والفقر، فالوسوسة في مقابلة الإلهام، والشيطان في مقابلة الملك، والتوفيق في مقابلة الخذلان، فالقلب متجاذب بين الشيطان والملك، فالشيطان يضله ويغويه، والملك يرشده ويهديه، فمتى جاهد الإنسان نفسه بطرح الشهوات ولم يسلطها على نفسه وتشبه بأخلاق الملائكة صار قلبه مستقراً للملائكة ومهبطهم.

وإن اتبع الإنسان مقتضى الشهوة والغضب ظهر تسلط الشيطان بواسطة الهوى، وصار القلب عُشّاً للشيطان ومعدنه، لأن الهوى هو مربع الشيطان ومرعاه، ولهذا قال ﷺ، «في القلب لمتان لمة من الملك وعد بالخير وتصديق للحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمده، ولِمة من الشيطان العدو إيعاد بالشر وتكذيب بالحق ونهي عن الخير، فمن وجد ذلك فليعُذ بالله من الشيطان»[1]. فقد اتضح بما ذكرناه من الإستبصار معنى الوسوسة والإلهام والملك والشيطان والتوفيق والخذلان، والله أعلم بالصواب.

المطلب الخامس
في بيان مداخل الشيطان إلى القلوب

اعلم أن القلب مثاله مثال حصن رفيع والشيطان عدو يريد أن يدخل الحصن ويملكه ويستولي عليه، ولا يقدر على حفظ الحصن إلا بحراسة أبواب الحصن ومداخله ومواقع ثُلَمه، ولا يقدر على حراسة أبوابه من لا يعرف أبوابه، وحماية القلب عن فساد الشيطان فرض عين واجب على كل عبد مكلف، وما لا يُتَوصل إلى الواجب إلا به فهو

---

(١) الترمذي في التفسير: رقم الحديث (٢٩٨٨) عن ابن مسعود، وقال: حسن غريب وابن حبّان في صحيحه: تقريب الإحسان ٢/١٧١ رقم الحديث (٩٩٣) والعلل لابن أبي حاتم ٢/٢٢٤ وأخرجه أيضاً النسائي في السنن الكبرى.

واجب، ولا يتوصل إلى دفع الشيطان إلا بمعرفة مداخله، فصارت معرفة مداخل الشيطان واجبة، ومداخل الشيطان وأبوابه صفات العبد نحو الشهوة والغضب والحدة والطمع وغيرها وهي كثيرة، ولكنا نشير إلى مُعظم وسائله في إغواء الخلق وتسلطه عليهم بها، وجملتها وسائل عشرة نذكرها ونذكر كيفية علاجها والتخلص منها، فهذان تقريران.

التقرير الأول: في ذكرنا **الوسيلة الأولى** الحسد والحِرص، فمن حصل فيه هاتان الخصلتان عمي وصم،وهمامن أعظم مداخل الشيطان وأكبر وسائله، وقد رُوي أن نوحاً عليه السلام لما ركب البحر وحمل في السفينة من كل زوجين اثنين كما أمر رأى في السفينة شيخاً لم يعرفه، فقال له نوح: مَن أدخلك؟ قال: دخلت لأصيب قلوب أصحابك فتكون قلوبهم معي وأبدانهم معك، فقال نوح: أُخرج يا عدو الله فإنك رجيم، فقال إبليس: خمس أُهلِكَ بهن الناس وسأحدثك منهن بثلاث، ولا أحدثك باثنتين، فأوحي إلى نوح إنه لا حاجة لك إلىَ الثلاث، مُرْه يحدثك بالإثنتين، فقال: ما الإثنتان؟ فقال: هما اللتان لا تكذباني، هما اللتان لا تخلفاني بهما أهلك الناس الحرص والحسد، فبالحسد لُعِنت وجُعِلت شيطاناً رجيماً، وبالحرص أصبت حاجتي من آدم، أُبيح لآدم الجنة كلها إلا الشجرة التي عُرف بها فوسوست له حتى أكلها.

الوسيلة الثانية: الشهوة والغضب فإنهما من أعظم المكايد للشيطان، فمهما غضب الإنسان لعب به الشيطان، وعن بعض الأنبياء أنه قال لإبليس: بأي شيء تغلب ابن آدم؟ قال: آخذه عند الغضب وعند الهوى، وظهر إبليس لراهب، فقال: أي أخلاق بني آدم أعون لك عليهم؟، فقال: الحدة، إن العبد إذا كان حديداً قلبناه كما تقلب الصبيان الكرة، وقيل لإبليس: كيف تقلب ابن آدم؟، فقال: إذا رضي جئت حتى أكون في قلبه، وإذا غضب جئت حتى أكون على رأسه.

الوسيلة الثالثة: حبّ الشهوات والزينة في الدنيا في الثياب والأثاث والدور والمراكب، فإن الشيطان إذا رأى ذلك غالباً على قلب إنسان باض فيه وفرخ، فلا يزال يدعوه إلى عمارة الدنيا وتزيين سقوفها وحيطانها وتوسيع الأبنية، ويدعوه إلى التزين بالأثواب النفيسة ويستسخره طول عمره، فإذا أوقعه فيها فقد استغنى عن معاودته فإن بعض ذلك يجر إلى بعض، فلا يزال يؤدّيه شيء إلى شيء إلى أن يستاق إليه أجله فيموت وهو في بحر الأماني يعوم، وفي سبيل الضلال يخوض، ومن ذلك يخشى سوء الخاتمة نعوذ بالله منها.

الوسيلة الرابعة: الطمع، فإذا كان الطمع غالباً على القلب لم يزل الشيطان يُحَسِّن له التصنع لمن طمع فيه حتى يصير المطموع فيه كأنه معبوده، وقد قال الرسول ﷺ «إياكم واستشعار الطمع فإنه يُشرِب القلب شدة الحرص ويختم على القلوب بطابع حبّ الدنيا، وهو مفتاح كل سيئة، وسبب إحباط كل حسنة»[1] وهذا هو الغاية في الخسران والهلاك.

الوسيلة الخامسة: العجلة في الأمور وكثرة الطيش والفشل، ورُوي عن رسول ﷺ أنه قال: «الأناة من الله والعجلة من الشيطان»[2]، ورُوي أنه لما وُلد عيسى عليه السلام أتت الشياطين إبليس فقالوا: أصبحت الأصنام قد نكِّست رؤوسها فقال: هذا حادث قد حدث مكانكم فطار حتى جاء خافقي الأرض، فلم يجد شيئاً فوجد عيسى عليه السلام قد ولد، وإذا الملائكة قد حفت حوله، فقال لهم: إن نبياً قد ولد البارحة، ما حملت أُنثى قط ولا وضعت إلا وأنا بحضرتها إلا هذا فاستيأسوا من عبادة الأصنام بعد هذه الليلة ولكن ائتوا بني آدم من قبل الخفة والعجلة.

الوسيلة السادسة: الفتنة بالدراهم والدنانير وسائر أصناف الأموال والعروض والدواب والعقارات وكل ما يكون فضلة على قدر الحاجة والقوت فهو مستقر الشيطان، ورُوي أن الرسول ﷺ لما بُعث، قال إبليس لشياطينه: لقد حدث أمر فانظروا ما هو، فانطلقوا ثم جاؤا وقالوا: ما ندري قال إبليس: أنا آتيكم بالخبر فذهب وجاء، قال: قد بعث محمد ﷺ، قال: فجعل يرسل شياطينه إلى أصحاب الرسول ﷺ فينصرفون خائبين، فيقولون: ما صحبنا قوماً قط مثل هؤلاء، نصيب منهم ثم يقومون للصلاة

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ وله ألفاظ أخرى «إياك والطمع» أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/٣٢٦ الرقائق وقال صحيح الإسناد وفيه محمد بن أبي حميد مجمع على ضعفه وأخرجه الطبراني في الأوسط انظر مجمع الزوائد ١٠/٢٤٨.

وأبو نعيم في المَعرفة. والعسكري في الأمثال كلهم عن طريق محمد بن سعد بن أبي وقاص وله شواهد منها حديث ابن عمر عند القضاعي في مسند الشهاب ٢/٩٤ رقم (٦١٨) بلفظ «إياك وما يعتذر به» وعن ابن ماجة في السنن. الزهد رقم (٤١٧١) عن أبي أيوب وللديلمي في الفردوس عن أنس رقم (١٧٥٥) وأخرجه الضياء في المختارة وأحمد في المسند ٥/٤١٢ عن سعيد بن أبي وقاص وأبو نعيم في الحلية ١/٤٦٢ ولأبي الشيخ في الأمثال نحوه أيضاً الحديث رقم (٢٢٦) عن أبي أيوب وحسنه الحافظ ابن حجر بشواهد وانظر الصحيحة للألباني ٣/٤٠٨ ـ ٤٠٩ وانظر تخريج أحاديث الإحياء ٤/١٨٩٨ ـ ١٨٩٩ رقم الحديث ٤٠١٢ لأبي عبد الله محمود بن محمد الحداد.

(٢) الترمذي: البر والصلة رقم الحديث (٢٠١٢) من سهل بن سعد وقال الترمذي غريب وفيه عبد المهيمن بن عباس ضعيف قال البخاري: منكر الحديث انظر ميزان الاعتدال.

فبمحون ذلك، فقال إبليس: رويداً بهم عسى الله أن يفتح لهم الدنيا فهناك تصيبون حاجتكم منهم[1].

الوسيلة السابعة: البخل وخوف الفقر فإن البخل هو أصل لكل خطيئة، ورُوي عن إبليس لعنه الله أنه قال: ما غلبني ابن آدم فلن يغلبني في ثلاث، آمره أن يأخذ المال من غير حقه وينفقه في غير حقه ويمنعه من مستحقه، وقال سفيان الثوري: ليس للشيطان سلاح على الإنسان مثل خوف الفقر، فإذا قبل ذلك منه أخذ في الباطل ومنع من الحق وتكلم بالهوى وظن بربه ظن السوء، وهو من أعظم الآفات على الدين.

الوسيلة الثامنة: سوء الظن بالمسلمين وقد قال تعالى ﴿ **اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم** ﴾ (الحجرات: آية ١٢). ومن حكم بشيء على غيره بالظن فإن الشيطان يبعثه على أن يطول فيه اللسان بالغيبة فيهلك، أو يقصر في القيام بحقوقه أو يتوانى في إكرامه أو ينظره بعين الإحتقار أو يرى نفسه خيراً منه، وكل ذلك من المهلكات، فمهما رأيت إنساناً يسيء الظن بالناس طالباً لعيوبهم فاعلم أنه خبيث في الباطن، فإن المؤمن يطلب المعاذير، والمنافق يطلب العيوب للخلق.

الوسيلة التاسعة: الشبع من الطعام والتأنق في المآكل الفاخرة، فإن الشبع يقوي الشهوات وهي أسلحة الشيطان التي بها يصول، ورُوي أن إبليس ظهر يوماً ليحيى بن زكريا عليه السلام فرأى عليه معاليق من كل شيء، فقال له يحيى عليه السلام: ما هذه المعاليق؟ فقال: هذه هي الشهوات التي أُصيب بها بني آدم، فقال: هل لي منها شيء؟، فقال: ربما شبعت فتثاقلت عن الصلاة وعن الذكر، فقال: هل غير ذلك؟ قال: لا، فقال يحيى: لله عليَّ أن لا أملأ بطني، فقال إبليس: عليَّ لله أن لا أنصح مسلماً.

الوسيلة العاشرة: تعاطي العوام الذين لم يمارسوا العلوم ولم يتجروا فيها بالتفكر في ذات الله عزّ وجل وصفاته وفي الأمور التي لا تبلغها عقولهم حتى يؤدي ذلك إلى الإعتقادات الكفرية وهم لا يشعرون، وهم في غاية ما يكونون من الفرح والسرور والإطمئنان إلى ما وقع في صدورهم وهم في غاية الخطأ ويظنون أن ما اعتقدوه هو العلم والبصيرة، فما هذا حاله يكون من أعظم الأبواب للشيطان في اللعب

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في مكائد الشيطان مرسلاً وذكر هذه القصة ابن أبي شيبة وعبد بن حميد والبيهقي في الدلائل وأبو نعيم في دلائل النبوة والطبراني وابن مردويه وابن جرير عن ابن عباس، وللترمذي: التفسير رقم الحديث (٣٣٢٣) وأخرج النسائي وأحمد نحوه وصححه الترمذي انظر تخريج الإحياء ٤/١٥٥٦ رقم (٢٣٩٥).

بعقولهم وإيقاعهم في الأمور المكروهة، فهذه وسائل الشيطان ومداخله إلى القلب وهي كثيرة، وفيما ذكرناه تنبيه على ما ورائها، وبالجملة فليس في الآدمي صفة مذمومة إلا وهي سلاح للشيطان ومدخل من مداخله.

التقرير الثاني: في بيان العلاج في دفعها وإزالتها، اعلم أن علاج هذه الأمور وإزالتها إنما يكون بالدعاء إلى الله والإلتجاء إليه في دفعها وإزالتها، وبالإجتهاد في قلع هذه الصفات المذمومة عن القلب، وبالعناية في ذكر الله عزّ وجل، فهذه دوافع ثلاثة نذكرها.

الدافع الأول: يكون باللجاء إلى الله بالدعاء وتحصيل الألطاف الخفية في إبعاد الشياطين وإزالتهم، وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى، قال: كان شيطان يأتي الرسول ﷺ وبيده شعلة نار فيقوم بين يديه وهو يصلي فيقرأ ويتعوذ فلا يذهب، فأتى جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ فقال له: قل أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ومن شر فتن الليل والنهار وطوارق الليل والنهار إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن، فطفيت شعلته وخرّ على وجهه[1]، وعن الحسن البصري أنه قال: نُبِّئْت أن جبريل أتى إلى رسول الله ﷺ، فقال: إن عفريتاً من الجن يكيدك فإذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي[2]، وعن الرسول ﷺ أنه قال: أتاني شيطان فنازعني ثم نازعني فأخذت بحلقه والذي بعثني بالحق ما أرسلته حتى وجدت برد لسانه على يدي، ولولا دعوة أخي سليمان لأصبح طريحاً حتى تنظروا إليه[3].

الدافع الثاني: العناية في إزالة هذه الصفات المذمومة من القلوب وقلعها منها فإن

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ كتاب ص ٥٩٠ رقم الباب (١٠) باب ما يؤمر به من التعوذ مرسلاً عن يحيى بن سعيد. ووصله ابن عبد البر في التمهيد من راوية يحيى بن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة عن عباس الشامي عن ابن مسعود وأخرجه ابن أبي الدنيا في مكائد الشيطان مرسلاً وأخرج أحمد في المسند ٣/٤١٩ نحوه عن عبد الرحمن بن خنيش والبيهقي في الدلائل ٧/٩٥ انظر تخريج الإحياء ٣/٤٩.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في مكائد الشيطان مرسلاً. تخريج الإحياء ٣/٤٩.

(٣) أحمد في المسند ٥/١٠٤ ـ ١٠٥ عن سمرة بن جندب بسند جيد والبيهقي في الدلائل ٧/٩٩ نحوه عن ابن مسعود. وللبخاري نحوه عن أبي هريرة رقم الحديث (٣٤٢٣) بلفظ «أن عفريتاً من الجن» فتح الباري ٦/٤٥٧ ومسلم: في المساجد ومواضع الصلاة رقم الحديث (٣٩) باب جواز لعن الشيطان في أثناء الصلاة. وللنسائي نحوه في الكبرى عن عائشة انظر تخريج الإحياء ٣/٤٩.

الشيطان مثل الكلب في التسلط على الإنسان، فإذا كان الإنسان متصفاً بهذه الصفات الذميمة من الغضب والحسد والحرص والطمع وغيرها كان بمنزلة من يكون بين يديه خُبز ولحم فإن الكلب لا محالة يتهور عليه ويتوثب ولا يندفع، وإن لم يكن متصفاً بها لم يطمع فيه لأنه لا داعي لـه هنالك ويكون دفعه بأسهل ما يكون وأيسر فإنه يندفع بالنهر والخسا، فَتُزال بنقائضها، فَيُزال الغضب بالرضاء والسكينة، ويُزال الكبر بالتواضع، ويُزال الحسد بمعرفة حق المحسود وأن الذي اختص به فضل من الله فلا يمكن دفعه، ويُزال الطمع بالورع والإكتفاء بما أعطاه الله عزّ وجل، ويزال الحرص بتحقق حال الدنيا وانقطاعها بالموت، وهكذا تفعل في كل خصلة مذمومة بالإجتهاد في إزالتها.

الدافع الثالث: ذكر الله تعالى، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿**إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكّروا فإذا هم مبصرون**﴾ (الأعراف: آية ٢٠١) والمعنى أنهم إذا ألم بقلوبهم شيء من هذه الصفات الذميمة فزعوا إلى ذكر الله تعالى وتذكروه، فعند ذلك يحصل التبصر لهم في عواقب أمورهم، نعم الذكر لا يكون طارداً للشيطان إلا إذا كانت القلوب معمورة بالخوف والتقوى، فأما إذا كانت خالية عن ذلك فربما يكون الذكر غير مُجْد، ومثال هذا من يطمع في شرب الدواء قبل الإحتماء والمعدة مشحونة بغليظ الطعام ويطمع في أنه ينفعه كما ينفع الذي يشربه بعد الإحتماء وتخلية المعدة عن الأطعمة، فالذكر هو الدواء والتقوى هو الإحتماء، فإذا حصل الذكر في قلب فارغ عن غير الذكر اندفع الشيطان كما تندفع العلة بنزول الدواء في معدة خالية عن الأطعمة كما أشار إليه تعالى بقوله ﴿**إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب**﴾ (ق: آية ٣٧).

المطلب السادس
في بيان ما يؤاخذ به العبد
من وساوس القلوب وما يعفى عنه

اعلم أن هذا الأمر غامض ولا يدرك إلا بالفكرة الصافية ويخفى على الأكثر، ولا يدركه إلا أهل البصائر وسماسرة العلماء وموردة الشرع، وقد وردت فيه آيات وأخبار متعارضة، فمما يدل على العفو قوله ﷺ: «تجاوز الله عن أُمتي ما حدّثت به أنفسها ما لم تقل أو تفعل»[1]، وفي حديث آخر «يقول الله تبارك وتعالى إذا هم عبدي بسيئة فلا

(١) مسلم: الإيمان رقم الحديث ٢٠٢ عن أبي هريرة بلفظ «إن الله تجاوز».

تكتبوها فإن عملها فاكتبوها بسيئة ، وإن تركها من أجلي فاكتبوها حسنة ، وإذا هم بحسنة فلم يعملها فاكتبوها حسنة ، فإن عملها فاكتبوها عشراً»[1] ففي هذا دلالة على العفو عن عمل القلب والهم بالسيئة ، وفي حديث آخر ، من همَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، ومن همَّ بحسنة فعملها كتبت له إلى سبع مائة ضعف ، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب وإن عملها كُتبت»[2] ، وفي حديث آخر : «إذا تحدث بأن يعمل سيئة فأنا أعفوها له ما لم يعملها»[3] ، وكل ذلك دال على العفو وكقوله تعالى: ﴿**الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم**﴾ (النجم : آية ٣٢) وهو ما ألّم بالقلب من العزوم والإرادات . وأما ما يدل على المؤاخذة فقوله تعالى : ﴿ **وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله**﴾ (البقرة : آية ٢٨٤) . وقال تعالى ﴿ **إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً**﴾ (الإسراء : ٣٦) فدل ذلك على أن عمل الفؤاد كعمل السمع والبصر فلا يعفى عنه ، وقال عز وجل : ﴿ **ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه**﴾ (البقرة : ٢٨٣) . وقال تعالى : ﴿ **ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم**﴾ (البقرة : ٢٢٥) . والحق في هذه المسألةلا يوقف عليه إلا بعد الإحاطة بتفصيل الأعمال من مبدأ ظهورها إلى أن يظهر الفعل على الجوارح، فنقول: للقلب قبل عمل الجارحة أربع أحوال، الأولى : منها الخاطر الذي يرد على القلب كما لو خطر على باله صورة امرأة أنها وراء ظهره في الطريق لو التفت إليها لرآها ، الثانية : حركة الشهوة وهيجان الرغبة التي في الطبع ونزوغ النفس ، فما هذا حاله فإنه يتولد من جهة الخاطر ، ويسمى هذا ميل الطبع ، الثالثة : حكم القلب بأن هذا ينبغي أن يفعل أي ينبغي أن ينظر إليها وهو على كل حال حكم للعقل ، الرابعة : تصميم العزم وجزم النية فيه ، وما هذا حاله يسمى عزماً ، فهذه كلها أربع أحوال للقلب كما ترى ، فإذا تقررت هذه فالمختار أنه لا تقع المؤاخذة بتلك الأحوال الثلاثة المتقدمة أعني الخاطر وحركة الشهوة وحكم القلب ، فإن هذه الأمور لا تدخل تحت الإختيار ، فهذه أمور كلها ليس فيها جزم على الفعل ، فكلها أحاديث النفوس التي تهجس في الخواطر ، وإليه الإشارة بقوله ﷺ : «تجاوز الله عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة. البخاري : في التوحيد رقم (٧٥٠١) ومسلم : الإيمان رقم (٢٠٣) .

(٢) متفق عليه من حديث ابن عباس، البخاري : في الرقائق رقم الحديث (٦٤٩١) ومسلم : الإيمان رقم الحديث (٢٠٧) .

(٣) مسلم : الإيمان رقم الحديث (٢٠٥) عن أبي هريرة.

تقل أو تفعل»[1]، وأما الحالة الرابعة وهي: تصميم العزم وتجديد القصد ففيه تقع المؤاخذة وفيه وقع التردد بين المتكلمين هل يكون هذا العزم مشاركاً لمعزومه في الحكم أم لا، فقالت طائفة يكون مشاركاً للفعل على الإطلاق في كونه كفراً أو فسقاً، وذهبت طائفة أخرى إلى أنه غير مشارك بكل حال، وقالوا: إن الله يتجاوز عن هذه العزوم والإرادات، وصار صائرون إلى التفرقة فإن كان العزم مشاركاً للفعل المعزوم عليه فحكمه حكمه في الكفر والفسوق، وإن كان غير مشارك للفعل المعزوم عليه في كونه كفراً أو فسقاً لم يكن لاحقاً به، وقالوا على أثر هذا: إن العزم على شرب المسكر ليس فسقاً لما لم يكن مشاركاً له، والعزم على الإستخفاف بالله تعالى وبأنبيائه يكون كفراً لما كان مشاركاً في الوجه الذي صار به كفراً، وهذا هو المختار من جهة أن العزوم والإرادات أمور مضافة إلى الأفعال، فلهذا كانت لاحقة بها، وعلى ما ذكرناه من التفصيل يتضح الأمر، فيحتمل المؤاخذة على العزوم والإرادات، ويحتمل ترك المؤاخذة على ما ذكرناه من الأحوال الحاصلة للقلب قبل ظهور أعمال الجوارح، والبرهان القاطع على صحة ما فصلناه قوله عز وجل: ﴿**وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء**﴾ (البقرة: ٢٨٤). فإن هذه الآية لما نزلت جاء أقوام من الصحابة فقالوا يا رسول الله كلفنا ما لا نطيقه إن أحدنا ليحدث نفسه بما لا يحب أن يثبت في قلبه فكيف نحاسب على ذلك؟، فقال ﷺ: لا تقولوا كما قال بنو اسرائيل سمعنا وعصينا ولكن قولوا سمعنا وأطعنا[2]، فأنزل الله تعالى الفرج بقوله: ﴿**لا يكلف الله نفساً إلا وسعها**﴾ (البقرة: ٢٨٦). فدل على أن كل ما لا يدخل تحت الوسع من أعمال القلوب لا يؤاخذ الله به، وقوله ﷺ: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل في النار والمقتول في النار، قيل: يا رسول الله فهذا القاتل فما بال المقتول، فقال: «إنه أراد قتل صاحبه»[3]، وفي هذا دلالة على أن كل قول يدخل تحت الإختيار من أعمال القلوب فإنه مؤاخذ به، وفيه التقسيم الذي ذكرناه، وقد نجز غرضنا من الباب الأول في الكلام في رياضة القلوب.

---

(١) مسلم: الإيمان رقم (٢٠٢) عن أبي هريرة وتقدم ص ٣٠.

(٢) مسلم: الإيمان رقم (١٩٩) عن أبي هريرة وعن ابن عباس نحوه رقم (٢٠٠).

(٣) متفق عليه من حديث أبي بكرة البخاري: الإيمان رقم الحديث (٣١) ومسلم: الفتن رقم الحديث (١٥).

الباب الثاني

في رياضة النفوس وتهذيب الأخلاق

واعلم أن الأصل في تهذيب الأخلاق وتطهيرها عما يكون شائباً لها هو حسن الخلق فإنه صفة سيد الأنبياء وأفضل أعمال أهل الصدق وهو على التحقيق شطر الدين وهو ثمرة مجاهدة أهل التقوى ورياضة أرباب العبادة، والأخلاق السيئة هي السموم القاتلة والدواهي المهلكة والمخازي الفاضحة والرذائل الواضحة، والخبائث المبعدة من جوار رب العالمين، المنخرطة بصاحبها في سلك الشيطان اللعين، وهي الأبواب المفتوحة إلى نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة، كما أن الأخلاق الجميلة هي الأبواب المفتوحة من القلب إلى نعيم الجنان وجوار الرحمن، وتمام المقصود يحصل من هذا الباب ببيان مقاصد خمسة.

المقصد الأول
في بيان حقيقة حسن الخلق، وبيان معناه

اعلم أن كثيراً من مشايخ الطريق في التصوف قد تكلموا في حقيقة حسن الخلق، وأكثر كلامهم يميل إلى بيان حكمه وتحصيل ثمرته وأعرضوا عن ذكر ماهيته وحده فحكي عن الحسن البصري أنه قال: حسن الخلق بسط الوجه وبذل الندى وكف الأذى، وحكي عن بعضهم أنه قال: حسن الخلق هو ألا تخاصم ولا تُخَاصم من شدة معرفة الله عز وجل، وقال آخر: هو كف الأذى واحتمال المؤن، وقال آخرون: أن تكون بين الناس غريباً ومنهم قريباً، وقال غيره: هو إرضاء الخلق في السراء والضراء وحكي عن بعضهم أنه قال: هو الرضا عن الله تعالى، وسئل بعضهم عن حسن الخلق فقال: أدناه الاحتمال وترك المكافأة والرحمة للظالم والاستغفار له والشفقة عليه.

وحكي عن أمير المؤمنين كرم الله وجهه أنه قال: حسن الخلق في ثلاث، اجتناب

المحارم وطلب الحلال والتوسيع على العيال، وقال آخر: هو أن لا يؤثر فيك جفاء الخلق بعد مطالعتك للحق، وقال آخر: هو أن لا يكون لك همة سوى الله تعالى.

فهذا وأمثاله إنما هو تعرض للأحكام والثمرات دون الحقيقة، والمختار عندنا تفصيل نشير إليه فنقول، الخلق والخُلُق عبارتان مستعملتان معاً فيقال فلان حسن الخلق والخلق أي حسن الباطن والظاهر، فيراد بالخلق الصورة الظاهرة الكاملة، ويراد بالخلق الصورة الباطنة، وذلك لأن الإنسان مركب من جسد مدرك بالبصر ومن روح مدرك بالبصيرة، ولكل واحدة منهما هيئة وصورة إما قبيحة وإما حسنة، ولا شك أن النفس المدركة بالبصيرة أعظم قدراً من الجسد المدرك بحاسة البصر، ولهذا عظم الله أمرها بالإضافة إلى نفسه فقال: ﴿ **إني خالق بشراً من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين** ﴾ (ص آية ٧٠، ٧١) فنبه أن الجسد منسوب إلى الطين، والروح منسوب إلى الله عز وجل، فالخُلُق عبارة عن هيئة راسخة في النفس تصدر عنها الأفعال الخاصة بسهولة وتيسير من غير حاجة إلى ذكر وروية، فإذا كانت هذه الهيئة تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعاً سميت خلقاً حسناً، وإن كان الصادر منها أفعالاً قبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقاً سيئاً.

فحصل من مجموع ما ذكرناه هاهنا أن حسن الصورة الظاهرة مطلقاً لا يتم بحسن العينين دون الفم والأنف والخد بل لا بد من حسن الجميع حتى يتم حسن الخَلْق، فهكذا حال الخُلُق لا يتم إلا بكمال الخصال الحسنة التي نفصلها بعد هذا بمشيئة الله تعالى، وإنما قلنا في الماهية إنها هيئة راسخة لأن كل من يصدر منه بذل المال على الندور لحالة عارضة، لا يقال خلقه السخاء ما لم يثبت ذلك منه ويترسخ، وإنما قلنا إنه تصدر عنه الأفعال بسهولة من غير روية لأن كل من تكلف بذل المال والسكون عند الغضب بجهد ومشقة منه لا يقال خلقه السخاء والحلم، واعتبرنا صدور الأفعال المحمودة وهي كثيرة لكن أمهاتها خصال أربع، الحكمة والشجاعة والعفة والعدل.

الخصلة الأولى: الحكمة ونعني بها حالة للنفس يدرك بها الصواب عن الخطأ في جميع الأفعال الاختيارية لأن الحكمة هي ثمرة قوة العقل فمتى حصل الاعتدال في العقل فإنه يتم حسن التدبير وجودة الذهن وثقابة الرأي وإصابة الظن والتفطن لدقائق الأعمال وخفايا الأسرار. فإذا أفرط في الزيادة فيها حصل المكر والخداع والدهاء، ومتى حصل التفريط فإنه يثمر البله والغمارة والحمق والجنون.

الخصلة الثانية : الشجاعة ويعني بها كون قوة الغضب منقادة للعقل في إقدامها وإحجامها، ومتى وجدت فإنها تثمر الكرم والنجدة والشهامة وكبر النفس والاحتمال والحلم والثبات وكظم الغيظ والوقار والتؤدة، وهذه كلها أخلاق محمودة، وأما إفراطها فهو التهور ويصدر عنه الصلف والتكبر والعجب والخرق والاستشاطة والبذخ، وأما تفريطها فيصدر منه المهانة والذلة والجموح والخساسة وصغر النفس والضعف عن تناول الحقوق الواجبة.

الخصلة الثالثة : العفة ونعني بها تأدب قوة الشهوة بتأديب العقل والشرع، ومتى كانت حاصلة فإنه يصدر عنها السخاء والحياء والمسامحة والقناعة والورع والطلاقة والمساعدة والظرف وقلة الطمع، وأما ميلها إلى الإفراط فيحصل منه الحرص والشره والوقاحة والخبث والتبذير والتقتير والرياء والمجون والملق والحسد والشماتة والتذلل للأغنياء واستحقار الفقراء وغير ذلك من الصفات المذمومة، وأما تفريطها فيحصل منه البخل واللؤم والانقباض والوحشة.

الخصلة الرابعة : العدل وهو حالة للنفس وقوة بها تحصل السياسة للغضب والشهوة ويحملها على مقتضى الحكمة ويضبطها عن الاسترسال والانقباض على حسب مقتضاهما، والإفراط فيه يورث الشح والانقباض والتفريط يورث الظلم والفساد، فهذه هي أمهات محاسن الأخلاق وهي الجامعة للفضائل فمتى حصلت على جهة الاعتدال فهي الغاية ولم يبلغ كمال الاعتدال فيها إلا رسول الله ﷺ، والناس بعده متفاوتون في القرب والبعد منه في هذه الأخلاق فكل من قرب في هذه الأخلاق فهو قريب من الله بقدر قربه من رسول الله ﷺ، وكل من جمع كمال هذه الأخلاق استحق أن يكون بين الخلق ملكاً مطاعاً ترجع الخلق كلهم إليه ويقتدون في جميع أفعالهم به، ومن انفك عن جملة هذه الأخلاق كلها واتصف بأضدادها استحق أن يخرج من زمرة العباد فإنه يكون قريباً من الشيطان المبعد من رحمة الله، وما بعث رسول الله ﷺ إلا من أجل أن يتمم مكارم الأخلاق، فهذا ما أردناه في ذكر حقيقة حسن الخلق وإبانة معناه.

المقصد الثاني
في بيان فضيلة حسن الخلق ومذمة سوء الخلق

ويحصل ذلك من جهة الآيات والأخبار والآثار فهذه جهات ثلاث:

الجهة الأولى : الآيات كقوله تعالى لرسول الله ﷺ **﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾** (ن آية ٤) وقوله عز وجل **﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾** (الأعراف ١٩٩) وقوله تعالى

﴿ والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ﴾ (آل عمران ١٣٤) وقوله تعالى فيما حكاه عن لقمان من الحكمة: **﴿ يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ﴾** (لقمان ١٧) وقوله تعالى: **﴿ ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً ﴾** (لقمان ١٨) فقد أشار تعالى في هذه الآيات إلى شريف الخصال وإلى محامد الشيم، وكلها دالة على حسن الأخلاق وفضلها، وقوله تعالى: **﴿ ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾** (الشورى ٤٣) وعلى الجملة فإن القرآن كله دال على الإشارة إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب.

الجهة الثانية: وهذا كقوله: ﷺ «ثلاث من أخلاق أهل الجنة العفو عمن ظلمك والإعطاء لمن حرمك والإحسان لمن أساء إليك»(١)، وقوله: ﷺ «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»(٢)، وقوله عليه السلام: «أثقل ما وضع في الميزان الخلق الحسن»(٣)، «وجاء رجل إلى الرسول ﷺ من بين يديه فقال: ما الدين قال: حسن الخلق، ثم أتاه من قبل يمينه قال: ما الدين قال: الخلق الحسن، ثم أتاه من قبل شماله فقال: ما الدين قال:

---

(١) الطبراني في المعجم الصغير ١/١١٤ رقم الحديث (١٦٤) عن أنس وفيه بشر بن الحسين وهو كذاب وضعفه العراقي في تخريج الإحياء ٣/٤٩ وانظر مجمع الزوائد ١/٥٩ وأخرجه ابن مردويه في تفسيره عن أنس. وانظر الدر المنثور للسيوطي فذكر نحوه عن جابر وعن قيس بن سعد.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ. كتاب حسن الخلق ص ٥٦٤ رقم (٨) وإسناده منقطع وقال ابن عبد البر: هو حديث ـ مدني صحيح متصل من وجوه عن أبي هريرة وغيره وأخرجه أحمد في المسند ٢/٣١٨، ٢/٣٨١ والبخاري في كتاب الأدب المفرد ص ١٠٤ رقم (٢٧٣) والحاكم في المستدرك ٢/٦١٣ وصححه ووافقه الذهبي وأخرجه البيهقي في السنن ١٠/١٩٢ والخرائطي في مكارم الأخلاق ص ٣٦ الحديث رقم (١) الجميع عن محمد بن عجلان عن القعقاع ابن حكيم وانظر الصحيحة للألباني رقم الحديث (٤٥) وله ألفاظ أخرى بلفظ «بعثت لأتمم صالح الأخلاق».

(٣) أبو داود في السنن: الأدب رقم الحديث (٤٧٩٩)، والترمذي في البر والصلة رقم الحديث (٢٠٠٣) وقال غريب وفي بعض النسخ حسن صحيح بلفظ «ما شيء أثقل» وبلفظ «ما من شيء أثقل..» وانظر الفتح ١٠/٤٥٨ وقال الحافظ صححه الترمذي وابن حبان في صحيحه، تقريب الإحسان ١/٣٥٠ رقم (٤٨١) والطبراني في المعجم الصغير ١/٣٣١ ـ ٣٣٢ رقم (٥٥٠) وفي الكبير ٢٤/٦٤٧ وفي ٢٥/ ١٧٨ وأخرجه البزار انظر كشف الأستار ٢/٤٠٧ وأحمد في المسند ٦/٤٠١، ٤٤٢، ٤٤٦، ٤٤٨، ٤٥١، ٤٥٢ والبخاري في الأدب المفرد ص ١٠٣ رقم (٢٧٠) وهناد السدي في الزهد ٣/١٣٥ رقم (٢٧٥) والطيالسي في المسند ٢/٤٠ والحميد في المسند ١/١٤٩ وعبد الرزاق في مصنفه ١١/١٤٦ وابن أبي شيبة في مصنفه ٨/٥١٦، ٥٢١ والسهمي في تاريخ جرجان ص ٣٥٦ وأبو نعيم في الحلية ٥/٢٤٣ والفسوي في المعرفة والتاريخ ٢/٣٢٧ والقضاعي في مسند الشهاب ١/١٥٤ رقم (٢١٤) والبغوي في شرح السنة ١٣/٧٨ رقم ٢٧٥ وانظر موارد الظمآن ص ٤٧٤ رقم الحديث (١٩٢١) ومجمع الزوائد ٨/٢٣ الجميع عن أبي الدرداء وانظر الصحيحة للألباني الحديث رقم (٨٧٦).

حسن الخلق ثم أتاه من وراءه فقال: ما الدين قال: حسن الخلق، فقال: يا رسول الله ما الدين فالتفت إليه فقال: ألا تفقه هو أن لا تغضب»[١]، وقال: ﷺ «ما حسّن الله خلق امرىء أو خلقه فتطعمه النار»[٢]، وقيل يا رسول الله «ما الشؤم؟ قال: سوء الخلق»[٣]، وقال ﷺ «أوصني فقال: إتق الله حيث كنت، قال: زدني قال: أتبع السيئة الحسنة تمحها، قال: زدني قال: خالق الناس بخلق حسن»[٤]، «وسئل رسول الله ﷺ أي الأعمال أفضل؟ قال: حسن الخلق»[٥]، وقيل لرسول الله إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وهي سيئة الخلق تؤذي جيرانها قال: لا خير فيها هي من أهل النار»[٦].

وقال أبو الدرداء سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أول ما يوضع في الميزان الخلق

---

(١) أخرجه محمد بن نصر المروزي في كتاب تعظيم الصلاة ٢/٨٦٤ ـ ٨٦٥ رقم الحديث (٨٧٨) مرسلاً عن عبد الله ابن الشخير وقال صاحب إتحاف السادة المتقين بشرح الإحياء علوم الدين في المجلد ٣١٨/٧ أورد الحافظ ابن ناصر طرف الحديث في كتابه منهاج السلامة في ميزان القيامة وانظر تخريج الأحياء ٣/٦٤.

(٢) أخرجه ابن عدي في الكامل ٣/٩٥٠ في ترجمة داود بن فراهيج مولى بني قيس من حديث أبي هريرة وقال في اسناده نكرة وأخرجه الطبراني في المعجم الأوسط وفيه عبد الله بن سند البكري وهو ضعيف انظر مجمع الزوائد ٨/٢١ وأخرجه الطبراني في مكارم الأخلاق والبيهقي في شعب الايمان. انظر تخريج إحياء علوم الدين ٣/٦٤ للعراقي.

(٣) أحمد في المسند ٣/٥٠٢ عن رافع بن مكيث وفي ٦/٨٥ عن عائشة بلفظ «الشؤم سوء الخلق» وأبو داود في السنن: الأدب رقم الحديث (٥١٦٣) مرسلاً عن رافع بن مكيث، والطبراني في الأوسط عن عائشة وضعفه المنذري وللطبراني في الكبير أيضاً من حديث رافع ومن حديث جابر وكلها لا تصح انظر مجمع الزوائد ٨/٢٤ وتخريج الإحياء للعراقي ٣/٦٤.

(٤) الترمذي في البر والصلة رقم الحديث (١٩٨٧) وقال حسن صحيح وأحمد في المسند ٥/١٧٧، ١٥٣، ١٥٧، ٢٣٦ والحاكم في المستدرك ١/٥٢ وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي وفيه سيف بن يعقوب القاضي مجهول وأخرجه الجميع من حديث أبي ذر وله شاهد من حديث معاذ أخرجه البيهقي في السنن عن معاذ وفي شعب الإيمان عن أبي ذر وقال الذهبي في المهذب اختصار سنن البيهقي إسناده حسن ولابن عساكر والطبراني نحوه عن أنس.

(٥) مسلم: البر والصلة رقم الحديث (١٤ ـ ١٥) وأحمد في المسند ٤/١٨٢ والبخاري في الأدب المفرد ص ١١١رقم الحديث ٢٩٥ والدارمي في السنن ٢/٢٣٠ رقم (٢٧٩٢) والحاكم في المستدرك ٢/١٤ وصحح إسناده ووافقه الذهبي وابن حبان في صحيحه ١/٣٠٧ ـ ٣٠٨ رقم الحديث (٣٩٨) والقضاعي في مسند الشهاب ١/٩٦ رقم (٥٣) والخرائطي في مكارم الأخلاق ص ٣١ رقم (١٩) أخرجه الجميع عن النواس بن سمعان وللترمذي نحوه السنن الزهد رقم الحديث.

(٦) أحمد في المسند ٢/٤٤٠ والحاكم في المستدرك ٤/١٦٦ دون قوله «هي سيئة الخلق» وصححه ووافقه الذهبي من حديث أبي هريرة.

الحسن والسخاء»(١)، ولما خلق الله عز وجل الإيمان قال: اللهم قوني فقواه بحسن الخلق والسخاء، ولما خلق الكفر قال: اللهم قوني فقواه بالبخل وسوء الخلق»(٢)، والمراد ها هنا بخلق الكفر والإيمان هو العلم بهما وكَتْبُهُما في اللوح المحفوظ على العبد دون الإيجاد بالقدرة كما هو رأي الأشعرية وغيرهم من فرق المجبرة، وقال عليه السلام: «إن الله استخلص هذا الدين لنفسه ولا يصلح لدينكم هذا إلا السخاء وحسن الخلق، ألا فزينوا دينكم بهما»(٣)، وقال عليه السلام: «حسن الخلق هو خلق الله الأعظم»(٤)، وسئل رسول الله ﷺ «أي المؤمنين أفضل إيماناً فقال: أحسنهم أخلاقاً»(٥)، وقال عليه السلام: «إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم ببسط الوجه

---

(١) تقدم تخريجه في الحديث المتقدم بلفظ «أثقل ما وضع» وفي لفظ «ما من شيء أثقل».

(٢) قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ٣/ ٦٥ لم أقف له على أصل.

(٣) الطبراني في الكبير عن عمران بن حصين وفيه عمرو بن الحصين متروك انظر مجمع الزوائد ٨/ ٢٠ وأخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق من ص ٣١ رقم (٢٠) وص ١٢٣ رقم (٢٧٥) من حديث أبي جابر بإسناد فيه لين والدارقطني في المستجاد انظر تخريج الإحياء ٣/ ٦٥ والضعيفة للألباني رقم الحديث (١٢٨٢).

(٤) الطبراني في الكبير والأوسط عن عمار بن ياسر وفيه عمرو بن الحصين متروك وانظر مجمع الزوائد ٨/ ٢٠ وقال المنذري اسناده ضعيف جداً وانظر تخريج الإحياء ٣/ ٦٥ ويشهد له ما بعده من الأحاديث.

(٥) ورد هذا الحديث بهذا اللفظ وبلفظ أكمل المؤمنين.

أخرجه أبو داود في السنن رقم الحديث (٤٦٨٢) والترمذي في الرضاع رقم الحديث (١١٦٢) وقال حسن صحيح ونسبه العراقي للنسائي وهو في الكبرى. وأخرجه أحمد في المسند ٢/ ٢٥٠، ٤٥٠، ٤٧٢، ٥٢٧ والحاكم في المستدرك ١/ ٣، ٥٣ وصححه ووافقه الذهبي وأخرجه البيهقي في السنن ١٠/ ١٩٢ والدارمي في السنن ٢/ ٣٢٣ وابن حبان في صحيحة ١/ ٣٥٠ رقم (٤٧٩) وهو في موارد (الظمآن ص ٣١٨ و ص ٤٧٥ وأخرجه أبو نعيم في الحلية ٩/ ٤٨، وابن أبي شيبة في مصنفه ٨/ ١٥، ١١/ ٢٧ وفي كتاب الإيمان له ص ٨ رقم (١٧، ١٨) وهناد ابن السري في الزهد ٣/ ١٢٨ رقم (١٢٦٩) وابن السني في عمل اليوم والليلة ص ٢٢٨ والطبراني في الأوسط وفي الصغير انظر مجمع الزوائد ٨/ ٢١ وفي مكارم الأخلاق للطبراني أيضاً وأخرجه الخطيب في تاريخ بغداد ٥/ ٥٦٣، وأبو نعيم في تاريخ أصبهان ٢/ ٦٧ وله شواهد كثير من حديث عائشة عند أحمد في المسند ٦/ ٤٧ص ٩٩ والحاكم في المستدرك ١/ ٣، ٥٣ وعن جابر بن سمرة نحوه لأحمد في المسند ٥/ ٨٩، ٩٩ ولأحمد عن أبي ثعلبة الخشني المسند ٤/ ١٩٣ وعن أبي سعيد عند الطبراني في الصغير ١/ ٣٦٢ وفي الكبير عن أبي أمامة بلفظ أفضل وانظر جامع الأصول ٤/ ١٩٧٥، والترغيب والترهيب للمنذري ٣/ ٣٦٠ والصحيحة للألباني ١/ ١٦٧ رقم (٢٨٤، ٣٨٩) ورقم (٧٥١) وانظر ٤/ ٤٥٣ رقم (١٨٣٧) وأخرجه البخاري في الأدب المفرد ص ١٠٤ رقم ٢٧٢ عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وانظر فتح الباري ١٠/ ٤٥٨ ـ ٤٥٩ طرق الحديث وشواهده.

وحسن الخلق»[1]، وقال: ﷺ «سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخل العسل»[2].

وعن جرير بن عبدالله قال: قال لي رسول الله ﷺ «إنك امرؤ قد حسن الله خلقك فأحسن خلقك»[3]، وعن البراء بن عازب قال: «كان رسول الله أحسن الناس وجهاً وأحسنهم خلقاً»[4]، وعن أبي مسعود البدري أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم كما حسَّنت خلقي فحسن خلقي»[5]، وعن ابن عمر رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه ابن عدي في الكامل ٤/ ١٤٨١ في ترجمة عبد الله بن سعيد المقبري وضعفه وأخرجه الحاكم في المستدرك ١/ ١٢٤ وقال هذا حديث صحيح معناه قال الذهبي: قلت عبدالله واه وأخرجه البزار انظر كشف الأستار عن زوائد مسند البزار رقم الحديث (٢١٩٧٧) وحسنه الحافظ في فتح الباري١٠/ ٤٥٩ وأخرجه الطبراني في مكارم الأخلاق وأبو يعلى في مسنده وانظر مجمع الزوائد ٨/ ٢٢ وقال فيه عبد الله بن سعيد المقبري وهو ضعيف وقال وبعض رجال البزار ثقات وقال المنذري إنه حديث حسن والصواب أنه حديث ضعيف لضعف عبدالله بن سعيد المقبري لكن قال الحافظ ابن حجر اسناد البزار حسن.

(٢) رواه الحارث بن أبي أسامة والحاكم في الكنى والألقاب وأبو نعيم والديلمي من حديث عمر. وأخرجه الطبراني في الكبير وفي الأوسط. انظر مجمع الزوائد ٨/ ٢٤ وهو عن ابن عباس وعن أبي هريرة وفيه عبس بن ميمون المدني وهو ضعيف وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس وعن أبي هريرة وضعفهما وأخرجه ابن حبان في المجروحين انظر تخريج الأحياء ٣/ ٦٥.

(٣) أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق ص ٢٧ رقم (٥) وروغه أبو العباس الدغولي في كتاب الأدب وابن عساكر في التاريخ والحديث ضعيف انظر تخريم الأحياء ٣/ ٦٥.

(٤) الخرائطي في مكارم الأخلاق ص ٣ «الطبعة القديمة وهو السلفية مصر، عن البراء بن عازب والترمذي في الشمائل عن أنس بلفظ «كان رسول الله أحسن الناس خُلُقاً» انظر مختصر الشمائل ص ١٨٢ رقم الحديث (٢٩٦) والبخاري في الأدب المفرد ص ١١٣ رقم (٣٠٣) نحوه وأخرجه الترمذي في السنن رقم الحديث (٢٠١٥) وأبو داود رقم الحديث (٤٧٧٤) والدارمي ١/ ٣١ والبغوي في مصابيح السنة رقم (٢٦٦٤) وابن حبان في صحيحه ٨/ ٦٨ رقم (٦٢٥٣) وأحمد في المسند ٣/ ١٤٧، ١٨٥، ٢١٢ وصححه الترمذي والبغوي وأصله في الصحيحين من حديث أنس انظر البخاري رقم الحديث (٦٠٣٣) انظر مختصر الشمائل للشيخ الألباني ص ١٨٢ رقم (٢٩٦) وللبيهقي نحوه في الدلائل عن أبي هريرة. وانظر فتح الباري ١٠/ ٤٥٨ ولأحمد في المسند ٦/ ٢٣٦ نحوه بلفظ «كان أحسن الناس خلقاً» وقال المناوي في كتاب كنوز الحقائق رواه أحمد بلفظ «كان أحسن الناس وجهاً» ولم أجده بهذا اللفظ في مسند أحمد.

(٥) أحمد في المسند ١/ ٤٠٣ والطيالسي في المسند ١/ ٢٥٦ والقضاعي في مسند الشهاب ٢/ ٢٣٤ رقم (٤٧٢) وابن حبان في صحيحه ٢/ ١٥٤ رقم (٩٥٥) وابن سعد في الطبقات ١/ ٣٧٧ وهناد بن السرى في الزهد ٣/ ١٥٢ رقم (١٢٩٠) والخرائطي في مكارم الأخلاق ص ٢٧ رقم (٢٧) عن أبي مسعود البدري وهو وهم والصحيح عن ابن مسعود كما بين ذلك ابن حبان والعراقي في تخريج أحاديث الإحياء ٣/ ٦٥ وانظر الحديث في فتح الباري ١٠/ ٤٥٦ ولأحمد عن عائشة نحوه المسند ٦/ ٦٨، ١٥٥ وانظر الترغيب والترهيب للمنذري ٣/ ٣٥٥ وموارد الظمآن ص ٦٠١.

يكثر الدعاء ويقول اللهم إني أسألك الصحة والعافية وحسن الخلق»[1]، وعن أبي هريرة عن الرسول ﷺ أنه قال: «كرم المرء دينه ومروءته عقله وحسبه خلقه»[2].

وعن أسامة عن الرسول ﷺ قال: «شهدت الأعراب يسألون رسول الله ﷺ يقولون ما خير ما أعطي المرء؟ قال: حسن الخلق»[3]، وقال ﷺ: «ثلاث من لم يكنّ فيه أو واحدة منهن فلا يعتد بشيء من عمله، تقوى تحجزه عن معاصي الله أو حلم يكف به السفيه أو خلق يعيش به في الناس»[4]، وقال ﷺ: «ألا أخبركم بأحبكم إليَّ وأقربكم مني مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً الموطأون أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون»[5]،

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ص ١١٥ رقم٣٠٧. الخرائطي في مكارم الأخلاق ص ٢٧ رقم (٦) والطبراني في المعجم الكبير والبزار أيضاً. انظر كشف الأستار رقم الحديث (٣١٨٧) وهو عن ابن عمرو وفيه عبد الرحمن بن زياد الأفريقي وهو ضعيف انظر مجمع الزوائد ١٠/ ١٧٣ ـ ١٧٤ وتخريج الإحياء ٣/ ٦٥ وقال فيه لين.

(٢) ابن حبان في صحيحه ١/ ٣٥١ رقم ٤٨٣ والحاكم في المستدرك ١/ ١٢٣ وفي ٢/ ١٦٣ وصححه في حديث أبي هريرة وتعقبه الذهبي لأن في اسناده مسلم بن خالد الزنجي وهو ضعيف وأخرجه، والخرائطي في مكارم الأخلاق ص ٢٧ ـ ٢٨ رقم (٨) ورواه البيهقي في السنن ٧/ ١٣٦ وفي ١٠/ ١٩٥ من طريقين مرفوعاً عن أبي هريرة وموقوفاً على عمر وصحح البيهقي الموقوف ولكنه من رواية الشعبي عن عمر ولم يسمع الشعبي من عمر ورواه أحمد أيضاً عن أبي هريرة وانظر الترغيب والترهيب للمنذري ٣/ ٤٠٥.

(٣) أخرجه ابن ماجه في السنن رقم الحديث (٣٤٣٦) عن أسامة بن شريك واسناده صحيح ورجاله ثقات، والخرائطي في مكارم الأخلاق ص ٤ «الطبعة القديمة السلفية مصر» والطبراني في الكبير ١/ ١٤٦ وفي ١/ ١٤٧، ١٤٨ وابن حبان في صحيحه انظر موارد الظمآن ص ٤٧٥ ومجمع الزوائد ٨/ ٢٤ للبيهقي وأخرجه الحاكم في المستدرك٤/ ٣٩٩ وصححه ووافقه الذهبي وأخرجه هناد في الزهد ٣/ ١٣٨ رقم (١٢٧٦) ووكيع في الزهد وابن أبي شيبة في مصنفه ٨/ ٥١٣ والطيالسي في مسنده ٢/ ٣٩ رقم (٢٠٥٨) والبخاري في الأدب المفرد ص ١٠٩ رقم (٢٩١) وانظرفتح الباري، ١٠/ ٤٥.

(٤) أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق ص ٣٥ رقم (١٥) عن ابن عباس بإسناد ضعيف والطبراني في مكارم الأخلاق وفي المعجم الكبير من حديث أم سلمة واسناده حسن وأخرجه في المعجم الصغير ٢/ ٢١ رقم (٢٠٦) عن علي وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٢٤ فيه جماعة لم أعرفهم. ورواه البيهقي في الشعب مرسلاً من حديث الحسن البصري.

(٥) أخرجه ابن حبان في صحيحه ١/ ٣٥١ رقم (٤٨٢) وفي ١/ ٣٥٢ رقم (٤٨٥) من حديث أبي هريرة ومن حديث أبي ثعلبة الخشني والطبراني في الأوسط والصغير ٢/ ٨٩ رقم (٨٣٥) من حديث أبي هريرة وفيه صالح بن بشير المري وأخرجه أيضاً وعن أبي هريرة في مكارم الأخلاق وعن ابن عباس وفي المعجم الكبير ومكارم الأخلاق له من حديث أبي ثعلبة وأخرجه أحمد في المسند ٤/ ١٩٣ من حديث أبي ثعلبة أيضاً ولأبي يعلى من حديث أنس، وحديث أبي هريرة حسنه الترمذي وصححه الحاكم وتقدم ص ٤٠ تعليق (١١) وللترمذي من حديث جابر مرفوعاً نحوه ولأحمد في المسند من حديث جابر بن سمرة بسند رجاله ثقات وللحاكم وابن حبان وصححاه من طريق أسامة بن شريك نحوه وأخرجه أيضاً الطبراني في الكبير وأخرجه البخاري أيضاً في الأدب المفرد وتقدم وله أيضاً في الأدب المفرد من=

وقال ﷺ : «إن حسن الخلق ليذيب الخطيئة كما تذيب الشمس الجليد»(١).

الجهة الثالثة : الآثار عن أهل الصلاح والتقوى : قال ابن لقمان عليه السلام لأبيه : يا أبت أي الخصال من الإنسان خير؟ قال : الدين قال : فإذا كانت اثنتين قال : الدين والمال ، قال : فإذا كانت ثلاثاً قال : الدين والمال والحياء ، قال : فإذا كانت أربعاً قال : الدين والمال والحياء وحسن الخلق ، قال : فإذا كانت خمساً قال : الدين والمال والحياء وحسن الخلق والسخاء ، قال : فإذا كانت ستاً قال : يا بني إذا اجتمعت هذه الخصال الخمس فهو تقي نقي ولله تعالى ولي ومن الشيطان بري ، وقال الحسن : من ساء خلقه عذب نفسه وإن كان عابداً ويبلغ بسوء خلقه أسفل درك في جهنم ، وقال بعضهم : في سعة الأخلاق كنوز الأرزاق ، وقال وهب بن منبه : مثل السيىء الخلق كمثل الفخار المكسور لا يرقع ولا يعاد طيناً ، وقال الفضيل بن عياض : لأن يصحبني فاجر حسن الخلق أحب إليَّ من أن يصحبني عابد سيىء الخلق.

وصحب ابن المبارك رجل سيىء الخلق في سفر فكان يحتمل منه ويداريه فلما فارقه بكى ، فقيل له في ذلك فقال : أترحم عليه فارقته ومعه خلقه لم يفارقه ، وقال الجنيد : أربع ترفع العبد إلى أعلى الدرجات وإن قل عمله وعلمه : الحلم والتواضع والسخاء وحسن الخلق وهو كمال الإيمان ، وقال بعضهم : سوء الخلق سيئة لا ينفع معها كثرة الحسنات ، وحسن الخلق حسنة لا تضر معها كثرة السيئات ، وسئل ابن عباس ما الكرم؟ قال : ما بين الله تعالى في كتابه ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ (الحجرات ١٣) وقيل له : ما الحسب؟ قال : أحسنكم خلقاً أفضلكم حسباً ، وقيل : لكل بنيان أساس وأساس بنيان الإسلام حسن الخلق ، وقال بعض الزهاد : ما ارتفع من ارتفع إلا بالخلق الحسن ، ولم ينل أحد كماله إلا المصطفى صلوات الله عليه ، وأقرب الخلق إلى الله السالكون آثاره بحسن الخلق.

= حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ص ١٠٤ رقم (٢٧٢) وأخرجه أحمد وابن حبان وله أيضاً وللطبراني في الصغير عن أبي سعيد للطبراني وعن أبي أمامة في الكبير. وأخرج حبان في صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص بلفظ «إن خياركم أحسنكم أخلاقاً» رقم الحديث (٦٠٣٥) وانظر فتح الباري ١٠/٤٥٦، ٤٥٨.

(١) أخرجه الطبراني في مكارم الأخلاق ص ٣١ رقم (٢١) عن أنس لسند ضعيف والطبراني في الأوسط عن ابن عباس وضعفه الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/٢٤ وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس وعن أبي هريرة وضعفهما وقال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ٣/٦٦رواه الطيالسي وابن عدي في الكامل ٥/٨٨١، بلفظ «حسن الخلق» في ترجمة عيسى بن ميمون الجرشي المدني ويقال له المكي.

المقصد الثالث
في بيان السبب الذي ينال به حسن الخلق

قد قررنا فيما سبق أن حسن الخلق يرجع إلى اعتدال قوة العقل بكمال الحكمة وإلى اعتدال قوة الغضب والشهوة وكونها مطيعة للعقل والشرع ، وهذا الاعتدال يحصل له من طرق ثلاث :

الطريق الأول : يكون بجود إلّهي وكمال فطري بحيث يخلق الإنسان ويولد كامل العقل حسن الخلق قد كُفي سلطان الشهوة والغضب فإنهما خلقاً مطيعين منقادين للعقل والشرع فيصير عالماً بغير تعلم وأديباً من غير مؤدب وهذا كما كان في عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا صلوات الله عليهما وهكذا سائر الأنبياء عليهم السلام، ولا يبعد أن يكون في الفطرة والطبع ما قد ينال بالاكتساب فرب صبي يخلق صادق اللهجة سخياً جرياً وربما يخلق بخلاف ذلك فتحصل له هذه الأخلاق المحمودة بالتعود ومخالطة المتخلقين بهذه الأخلاق الكريمة .

الطريق الثاني : اكتساب هذه الأخلاق وهذا يكون بالرياضة والمجاهدة ونعني بذلك حمل النفس على الأعمال التي يقتضيها الخلق المطلوب فمن أراد مثلاً أن يحصل لنفسه خلق الجود فطريقته أن يتكلف تعاطي فعل الجواد وهو بذل المال فلا يزال يواظب عليه تكلفاً مجاهداً لنفسه حتى يصير ذلك له طبعاً ويتيسر عليه فعله فيصير جواداً ، وكذا من أراد أن يحصل لنفسه خلق التواضع وقد غلب عليه التكبر فطريقه أن يواظب على أفعال المتواضعين مدة مديدة وهو فيها مجاهد لنفسه ومتكلف إلى أن يصير ذلك له خلقاً وطبعاً، وهكذا جميع الأفعال المحمودة والخلائق الجميلة شرعاً إنما تحصل بمثل هذا الطريق ، وغايتها أن يصير الصادر منه لذيذاً بعد أن كان صعباً منفوراً عنه ، والمتواضع هو الذي يستلذ التواضع ، ولن ترسخ أخلاق الدين في النفس ما لم تتعود جميع العادات الحسنة وأن تترك جميع العادات السيئة ما لم يواظب عليها مواظبة تنساق إلى الأفعال الجميلة وتنعم بها ويكره الأفعال القبيحة ويتألم بها كما قال ﷺ: «وجعلت قرة عيني في الصلاة»[1] ومهما كانت العبادة وترك المحظورات مع كراهة واستثقال فهو النقصان ولا ينال

---

(١) النسائي : السنن: عشرة النساء رقم الحديث (٣٩٣٩ ـ ٣٩٤٠) عن أنس والحاكم في المستدرك ٢ / ١٦٠ وصححه ووافقه الذهبي ورواه أحمد في الزهد وأبو يعلى في مسنده والديلمي في الفردوس والطبراني في الأوسط والصغير ورواه أبو عوانة والبيهقي وابن سعد وابن عدي .

كمال السعادة إلا بالاجتهاد والمواظبة ولهذا قال تعالى ﴿ **وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين** ﴾ (البقرة ٤٥).

وقال ﷺ : «أعبد الله في الرضى فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير»[1] ثم لا يكفي في نيل السعادة الموعود بها على حسن الخلق استلذاذ الطاعة واستكراه المعصية في زمان دون زمان، بل ينبغي أن يكون ذلك على الدوام والاستمرار في جملة العمر وكل ما كان العمر أطول كانت الفضيلة أرسخ وأكمل، ولهذا فإنه لما سئل رسول الله ﷺ عن السعادة فقال: «طول العمر في طاعة الله عز وجل»[2] ولهذا كره الأنبياء الموت لما كانت الدنيا مزرعة الآخرة، وكلما كانت العبادة أكثر لطول العمر كان الثواب أجزل والنفس أزكى وأطهر والأخلاق أقوى وأرسخ، وإنما مقصود العبادات أن يحصل بالبرهان في القلوب وإنما يتأكد آثارها بكثرة المواظبة على العبادات، وغاية هذه الأخلاق أن ينقطع عن النفس حب الدنيا ويرسخ فيها حب الله عز وجل فلا يكون شيء أحب إليه من لقاء الله، فإذا عرفت هذا بما ذكرناه أن الأخلاق المحمودة يمكن اكتسابها بالرياضة وهي تكلف الأفعال الصادرة عنها ابتداء لتصير طبعاً لها.

الطريق الثالث: يحصل بمشاهدة أرباب الأفعال الجميلة ومصاحبتهم وهم قرناء الخير وإخوان الصلاح إذ الطبع يسرق من الطبع وإن لم يشعر الخير والشر جميعاً، فمن تظاهرت في حقه هذه الطرق الثلاث حتى صار فاضلاً، إما بالطبع وإما بالرياضة والتعلم، وإما بمقارنة أهل الصلاح والخير كان في غاية الفضيلة، ومن كان حائزاً للرذالة بطبعه واتفق له أقران السوء فهو منهم وتيسرت له أسباب الشر حتى تعودها فهو في غاية البعد من الله عز وجل فحصل من مجموع ما ذكرناه ها هنا أن هذه الأخلاق المحمودة حاصلة بهذه الطرق الثلاث والله الموفق للصواب.

---

(١) الطبراني في المعجم الكبير ولم يذكر صحابي الحديث الذي رواه انظر تخريج الإحياء ٣/٧٥ وأتحاف السادة المتقين بشرح أحياء علوم الدين ٧/٣٣٨.

(٢) القضاعي في مسند الشهاب ١/١٠٦ رقم (٣١٢) عن ابن عمر والديلمي في الفردوس ٢/٣٤٦ رقم (٥٦٦) والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ٦/١٦ - ١٧ وإسناده ضعيف وللطبراني في الصغير ٢/٨١ رقم(٨١٨) **نحوه** والخرائطي في مكارم الأخلاق ص ٧ عن جابر مرفوعاً نحوه بلفظ «من سعادة المرء حسن الخلق» والترمذي عن أبي بكرة وصححه بلفظ «سئل أي الناس أفضل قال من طال عمره وحسن عمله» وصححه انظر الترمذي : الزهد رقم الحديث (٢٣٣٠) وانظر تخريج الأحياء ٣/٧٥ وإتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين ٧/٣٢٨ **ومجمع** الزوائد ١/٢٠٣ وفيض القدير رقم الحديث (٤٨٨).

المقصد الرابع
في بيان علامات حسن الخلق

اعلم أن كل إنسان فهو جاهل لعيوب نفسه ، فإذا جاهد نفسه وأدبها تأديباً حتى يترك كبائر المعاصي والفواحش الظاهرة ظن في نفسه أنه هذب نفسه وحسن خلقه فاستغنى عن المجاهدة فلا بد من علامات حسن الخلق ليكون الأمر فيه واضحاً فإن حسن الخلق هو الإيمان وسوء الخلق هو النفاق وجملة ما نشير إليه من العلامات خمس هي الدالة على الأخلاق الحسنة .

العلامة الأولى : العرض على كتاب الله تعالى ، وقد ذكر الله تعالى صفة المؤمنين وهي بجملتها ثمرة حسن الخلق فقال تعالى في صدر سورة البقرة : ﴿ **هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ـ إلى قوله المفلحون** ﴾ (البقرة ٢ ـ ٥) ، وقال في سورة التوبة : ﴿ **التائبون العابدون الحامدون** ﴾ (التوبة ١١٢) إلى آخر هذه الآية ، وقال في صدر سورة المؤمنين : ﴿ **قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون ـ إلى قوله ـ فإنهم غير ملومين** ﴾ (المؤمنون ١ ـ ٦) وقال في آخر سورة الفرقان : ﴿ **وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً** ﴾ (الفرقان : ٦٣) إلى آخر هذه الآيات في صفة المؤمنين ، فمن أشكل عليه حاله في الإيمان فليعرض نفسه على هذه الآيات ، فوجود جميع هذه الصفات علامة حسن الخلق ، وفقد جميعها علامة سوء الخلق ، ووجود بعضها يدل على وجود البعض دون البعض فليشتغل بتحصيل ما فقد منها وحفظ ما وجد .

العلامة الثانية : في العرض على سنة رسول الله ﷺ فإنه ﷺ ، وصف المؤمنين بصفات كثيرة وأشار بجميعها إلى محاسن الأخلاق ، فقال : «المؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[1] ، وقال : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه»[2] ، وقال ﷺ : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»[3] ، وفي حديث آخر ذكر أن صفة الإيمان هو حسن الخلق فقال : «أكمل

---

(١) متفق عليه من حديث أنس بلفظ «لا يؤمن أحدكم حتى يحب» البخاري : الإيمان رقم الحديث (١٣) ومسلم : الإيمان رقم الحديث (٤٥).

(٢) متفق عليه من حديث أبي شريح الخزاعي ومن حديث أبي هريرة، البخاري : الأدب المفرد رقم الحديث (٦٧٢) ومسلم : الإيمان رقم الحديث (٤٧).

(٣) انظر تخريج الحديث الذي قبله.

المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقا»(١)، وقال ﷺ : «إذا رأيتم المؤمن صموتاً وقوراً فادنوا منه فإنه يلقن الحكمة»(٢) وقال ﷺ : «من سرته حسنته وسآءته سيئته فهو مؤمن»(٣) وقال: «لا يحل للمؤمن أن ينظر إلى أخيه نظرة تؤذيه»(٤)، وقال: «لا يحل لمسلم أن يروع مسلماً»(٥)، وقال: «إنما يتجالس المتجالسون بأمانة الله فلا يحل لأحدهما أن يفشي على أحدهما ما يكره»(٦).

العلامة الثالثة: سأل بعض الصالحين عن حسن الخلق، فقال: هو عشرة أشياء، قلة الخلاف وحسن الإنصاف وترك طلب العثرات وتحسين ما يبدو من السيئات والتماس المذرة واحتمال الأذى والرجوع بالملامة على نفسه والتفرد لمعرفة عيوب النفس دون عيوب غيره وطلاقة الوجه للصغير والكبير ولطف الكلام لمن هو دونه وفوقه، وسئل سهل

---

(١) الترمذي في السنن: الرضاع رقم الحديث (١١٦٢) والنسائي في الكبرى عن عائشة والحاكم في المستدرك ٣/١ عن أبي هريرة وقال: رواته ثقات على شرط الشيخين وله من حديث عائشة أيضاً وتقدم نحوه هذا ص ٤٠ رقم التعليق ١١.

(٢) أخرجه ابن ماجه في السنن الزهد رقم الحديث (٤١٠١) من حديث أبي خلاد بنحو هذا والطبراني في الكبير من حديث أبي هريرة عن شيخه أحمد بن طاهر بن حرملة وهو كذاب. مجمع الزوائد ٣٠٢/١٠ بلفظ «إذا رأيتم الرجل العبد يعطي زهداً في الدنيا وقلة النطق فاقربوا منه فإنه يلقن الحكمة».

(٣) أحمد في المسند ١٨/١ عن ابن عمر من حديث أبي موسى ورجاله ثقات والحاكم في المستدرك ٤١/١ وصححه على شرط الشيخين من حديث أبي أمامة ومن حديث أبي موسى على شرط مسلم وأخرجه الطبراني من حديث أبي أمامة.

(٤) الزهد لابن المبارك ص ٢٤٠ رقم (٦٨٩) مرسلاً عن حمزة بن عبده انظر تخريج الإحياء ٨٩/٣.

(٥) أبو داود رقم الحديث (٥٠٠٤) من حديث عبد الرحمن بن أبي ليلى وأحمد في المسند ٣٦٢/٥ والبزار وانظر كشف الأستار رقم الحديث (١٥٢١) عن ابن عمر بسند ضعيف والطبراني في الكبير والأوسط عن النعمان بن بشير وفي حديث ابن عمر ومن حديث سليمان بن صرد انظر مجمع الزوائد٦/٢٥٣ـ ٢٥٤ وحديث ابن عمر رجاله ثقات ورواه ابن المبارك في الزهد ص ٢٤٠ رقم (٦٨٨) عن أبي هريرة وله شاهد عند مسلم من حديث النعمان بن بشير رقم (   ) وانظر تخريج الإحياء ٨٩/٣.

(٦) ابن المبارك في الزهد ص ٢٤٠ ـ ٢٤١ رقم الحديث (٦٩١) مرسلاً من حديث أبي بكر بن حزم والخرائطي في مكارم الأخلاق ص ١٤٧ رقم (٣٢٣)، ص ١٤٨ رقم (٣٢٧) وعبد الرزاق في الجامع ٢٢/١١ والعسكري في الأمثال عن ابن عباس من طريقين وأبو بكر بكر بن لال في مكارم الأخلاق عن ابن مسعود ورواه الديلمي في الفردوس والقضاعي في مسند الشهاب(   ) والعسكري من حديث علي والديلمي من حديث أسامة بن زيد. وقال العراقي في تخريج الإحياء ٢٢٨/٢ رواه الحاكم في المستدرك عن ابن عباس وصحح اسناده ولم أجده في المستدرك وللحديث أيضاً شاهد آخر عن أنس أيضاً انظر تخريج الإحياء ٥/ ٢٠٠١ رقم الحديث (٣١٦٢) ولأبي داود نحوه في السنن: الأدب رقم الحديث (٤٨٦٨) عن علي ورقم (٤٨٦٩) عن جابر وسند حديث جابر ضعيف وهو بلفظ (المجالس بالأمانة).

عن حسن الخلق فقال: أدناه احتمال الأذى وترك المكافأة والرحمة للظالم والاستغفار له والشفقة عليه[1].

وروي عن أمير المؤمنين عليّ كرم الله وجهه أنه دعا غلاماً له فلم يجبه فدعاه ثانية وثالثة فلم يجبه فقام إليه فرآه مضطجعاً، فقال: أما تسمع يا غلام؟ قال: نعم. قال: ما حملك على ترك جوابي؟، قال: أمنت عقوبتك فتكاسلت فقال: إمض فأنت حر لوجه الله تعالى[2].

العلامة الرابعة: حكي عن بعض الزهاد أنه جمع علامات حسن الخلق، فقال: أن يكون كثير الحياء قليل الأذى كثير الصلاح وقوراً صدوق اللسان قليل الكلام كثير العمل قليل الزلل قليل الفضول براً وصولاً وقوراً صبوراً رضياً شكوراً حليماً رفيقاً عفيفاً شفيقاً لا لعّان ولا سبّاب ولا نمّام ولا مغتاب ولا عجول ولا حقود ولا بخيل ولا حسود هشاشاً بشاشاً يحب في الله ويبغض في الله، وسئل ﷺ عن علامة المؤمن والمنافق، فقال: «إن المؤمن همته في الصلاة والصيام والعبادة، والمنافق همته في الطعام والشراب كالبهيمة»[3]، وحكى الحسن بن أبي الحسن عن جده الحسن والحسين أنه قال: أحسن الحسن الخلق الحسن[4]، ولما كثر الإيذاء على الرسول ﷺ من جهة كفار قريش قال: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[5]، ولهذا قال تعالى في معرض الثناء على رسوله مذكراً له ما أنعم به عليه: ﴿**وإنك لعلى خلق عظيم**﴾ (ن: ٤).

العلامة الخامسة: حكي عن بعض الزهاد في صفة المؤمن والمنافق وفيه تنبيه على حسن الخلق وسوءه قال: المؤمن مشغول بالذكر والعمل، والمنافق مشغول بالحرص والأمل، والمؤمن آيس من كل أحد إلا من الله، والمنافق خائف من كل أحد إلا من الله، والمؤمن يقدم ماله دون دينه، والمنافق يقدم دينه دون ماله، والمؤمن يحسن ويبكي، والمنافق يسيء ويضحك، والمؤمن يحب الوحدة والخلاء، والمنافق يحب الخلطة

---

(١) انظر الإحياء ٣/ ٩١.

(٢) انظر الإحياء ص ٣/ ٩١.

(٣) قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء لم أجد له أصلاً.

(٤) انظر الإحياء ٣/ ٩٠.

(٥) ابن حبان في صحيحه ٢/ ١٦٠ رقم ٩٦٩ والبيهقي في دلائل النبوة ٣/ ٢١٥. من حديث سهل بن سعد ورجاله في الصحيحين من حديث ابن مسعود، البخاري في الأنبياء رقم (٣٤٧٧) وفي المرتدين رقم (٦٩٢٩) ومسلم في الجهاد رقم (١٠٤) وأخرجه ابن ماجه في السنن: الفتن رقم الحديث (٤٠٢٥).

والملا والمؤمن يزرع ويخشى الفساد، والمنافق يقلع ويرجو الحصاد والمؤمن يأمر وينهى للسياسة فيصلح والمنافق يأمر وينهى للرياسة فيفسد! وأحسن ما يمتحن به حسن الخلق الصبر على الأذى واحتمال الجفى، ومن شكى من سوء خلق غيره فذاك دال على سوء خلقه لأن حسن الخلق احتمال الأذى، ولقد كان رسول الله ﷺ في غاية الاحتمال لكل أذى والصبر لله وقد شرح الله له صدره وأساه بمن قبله من الأنبياء بقوله: ﴿ **فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل** ﴾ (الأحقاف: ٣٥).

المقصد الخامس
في بيان الطريق التي يتعرف بها الإنسان عيوب نفسه

اعلم أن الله تعالى إذا أراد بالإنسان خيراً بصره عيوب نفسه، فمن كملت بصيرته لم تخف عليه عيوبه وإذا عرف العيوب أمكنه العلاج ولكن أكثر الخلق جاهلون لعيوب أنفسهم يرون القذى في غيرهم ولا يرون الجذع في عيونهم، فمن أراد الوقوف على عيب نفسه فله في ذلك طرق أربع:

الطريق الأول: أن يكون جالساً بين يدي أستاذ أو شيخ بصير بعيوب النفوس مطلع على خفايا الآفات ويحكمه على نفسه ويتبع إشاراته في جميع أحواله، وهذا هو شأن من يريد الآخرة ويسلك طريقها، وما هذا حاله فهو يعزّ وجوده في هذا الزمان.

الطريق الثاني: أن يطلب صديقاً صدوقاً بصيراً صادقاً متديناً وينصبه رقيباً على نفسه ليلاحظ أحواله وأفعاله فما كان يكره من أخلاقه وأفعاله نبهه عليه فهكذا كان يفعل أهل الصلاح وأفاضل العلماء، ومن سلف من الأئمة والخلفاء، وحكي عن عمر رضي الله عنه أنه قال رحم الله أمرءاً أهدى إليَّ عيوبي[١]، وكان يسأل سلمان رضي الله عنه عن عيوبه لما قدم عليه وقال له: ما الذي بلغك عني مما تكرهه؟ فاستعفاه فأبى وألح عليه، فقال له: سمعت أنك جمعت بين إدامين على مائدة وإن لك حلتين حلة بالنهار وحلة بالليل، فقال له عمر: وهل بلغك شيء غير هذا؟ قال: لا، قال: أما هؤلاء فقد كفيتهن[٢]، وكان يسأل حذيفة يقول: أنت صاحب سر رسول الله ﷺ في المنافقين **فهل ترى عليَّ شيء من أثر النفاق**[٣]؟ فهو على جلالة قدره وعلو حاله متهم لنفسه، وكل من

---

(١) انظر الإحياء ٣/ ٨٣.

(٢) انظر الإحياء ٣/ ٨٣.

(٣) انظر الإحياء ٣/ ٨٣.

كان أوفى عقلاً وأعلى منصباً كان أقل إعجاباً وأعظم اتهاماً لنفسه، وحكي عن داود الطائي أنه اعتزل الناس فقيل له: ألا تخالط الناس؟ قال: ماذا أصنع بأقوام يخفون عني عيوبي[(1)]؟.

الطريق الثالث: أن يستفيد عيوب نفسه من لسان أعدائه فإن عين السخط تبدي المساوىء، ولعل انتفاع الإنسان بعدو مشاحن يذكره عيوبه أكثر من انتفاعه بصديق مداهن يثني عليك ويمدحك ويخفي عنك عيوبك خلا أن الطبع مجبول على تكذيب العدو وحمل ما يقوله على الحسد والبغضاء، ولكن البصير لا يخلو عن الانتفاع بقول أعدائه فإن مساويه لا بد أن تنتشر على ألسنتهم.

الطريق الرابع: أن يكون مخالطاً للناس فكل ما رآه مذموماً فيما بين الخلق فيطالب نفسه بتركه، وما رآه محبوباً سبب نفسه إليه فإن المؤمن مرآة أخيه فيرى في عيوب غيره عيوب نفسه ويعلم أن الطباع متقاربة في اتباع الهوى فما يتصف به واحد من الأقران لا ينفك القرين الآخر عن أصله أو عن أعظم منه أو عن شيء منه فيفتقد نفسه ويطهرها عن كل ما يذمه من غيره، وناهيك بهذا تأديباً، فلو ترك الناس كلهم ما يكرهونه من غيرهم لاستغنوا عن المؤدب، قيل لعيسى صلوات الله عليه: من أدبك؟ قال: ما أدبني أحد، رأيت جهل الجاهل فجانبته.

فهذه جملة الطرق الدالة على عيوب الإنسان وهو نوع مجاهدة للنفوس وقد قال ﷺ «المؤمن بين خمس شدائد مؤمن يحسده ومنافق يبغضه وكافر يقاتله وشيطان يضله ونفس تنازعه»[(2)]، وقال بعض الزهاد: جاهد نفسك بأسباب الرياضة والرياضة بالصبر على أوجه أربعة: القوت من الطعام والغمض من المنام والحاجة من الكلام وحمل الأذى من جميع الأنام، وليس على العبد شيء أشد من الحلم عند الجفاء والصبر على الأذى، وقال مالك بن دينار: من أرضى الجوارح بالشهوات فقد غرس في قلبه شجر الندامات، وقال بعض الزهاد: أجمعت العلماء واتفق الفضلاء على أن النعيم لا يدرك إلا بترك النعيم والله أعلم بالصواب، وقد نجز غرضنا من الكلام في رياضة النفوس فنسأل الله أن يعرفنا رشدنا ويبصرنا عيوب أنفسنا ويشغلنا بمداواتها ويوفقنا للقيام بشكره حيث اطلعنا على مساويها بمنه وفضله.

---

(1) انظر الإحياء ٣/٨٣.

(2) أخرجه أبو بكر بن لآل في مكارم الأخلاق من حديث أنس بسند ضعيف انظر تخريج الإحياء ٣/٨٤.

الباب الثالث

في بيان الطريق إلى رياضة الأطفال في أول النشأة وتهذيب أخلاقهم وتأديبهم

إعلم أن الصبي أمانة عند والديه وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة وهو قابل لكل نقش ومائل إلى ما يمال به إليه ، فإن عُوِّد الخير تعوده ونشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة وشارك في ثوابه أبواه وكل معلم ومؤدب ، وأن عود الشر وأهمل إهمال البهائم شقي وهلك وكان الوزر في رقبة القيم عليه كالأب والوصي والقائم بمصالحه وقد قال تعالى : ﴿**يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً**﴾ (التحريم : ٦) ومهما كان الأب يصونه من نار الدنيا فبأن يصونه من نار الآخرة أولى وأحق ، وصيانته تكون بتهذيبه وتأديبه وتعليمه محاسن الأخلاق وشريف الشيم ، وتختلف به الآداب باختلاف أوقاته وأحواله في التدريج فليجعل ذلك على مراتب أربع .

المرتبة الأولى
في بيان الآداب المتعلقة بأحوال الولادة :

وجملتها ثمانية :

الأدب الأول : لا يكثر فرحه بالذكر وحزنه بالأنثى فإنه لا يدري أين الخيرة له في أيهما ، وكم من صاحب ابن يتمنى أن لا يكون له ابن أو أن يكون أنثى ، بل السلامة من جهتهن أكثر والثواب فيهن أجزل ، وقد قال ﷺ : «من ابتلي من هذه البنات فأحسن إليهن كن له ستراً من النار[1]» ، وقال عليه السلام : «من كانت له ابنة فأدبها وأحسن أدبها

---

(١) أحمد وابن حبان. وقال المنذري في تهذيب السنن وقع اختلاف في إسناده والترمذي في البر والصلة رقم الحديث=

وغذاها وأحسن غذاها وأسبغ عليها من النعم التي أسبغ الله عليه كانت له ميمنة وميسرة من النار[1]» ، وعن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ: «من حمل طرفة من السوق إلى عياله فكأنما حمل إليهم صدقة حتى يضعها فيهم وليبدأ بالإناث قبل الذكور فإنه من فرّح أنثى فكأنما بكى من خشية الله ، ومن يبك من خشية الله حرم الله بدنه على النار[2] .

الأدب الثاني : أن يؤذن في أذنيه عند الولادة ، روي نافع عن أبيه قال رأيت رسول الله ﷺ : أذن في أذن الحسين حين ولدته فاطمة رضي الله عنها[3] وروي عن الرسول ﷺ أنه قال «من ولد له مولود فأذن في أذنه اليمنى وأقام في أذنه اليسرى رفعت عنه أم الصبيان»[4] .

الأدب الثالث : الختان في اليوم السابع ، عن الرسول ﷺ أنه ختن الحسن والحسين في اليوم السابع[5] ، ولأن فيه مخالفة اليهود لأنهم يختنون أولادهم في اليوم الثالث فخالفهم الرسول ﷺ .

الأدب الرابع : التسمية للذكور والإناث ، ويستحب أن يكون الاسم حسناً لأن

= (١٩١٣) وقال: حسن غريب بلفظ «من عال جاريتين» والخرائطي في مكارم الأخلاق ص ٧١ «الطبقة القديمة السلفية مصر» والحاكم في المستدرك عن أبي هريرة بلفظ «من كان له ثلاث بنات» وله شاهد من حديث أنس رواه أحمد وأبو يعلى وأبو الشيخ والخرائطي تخريج الإحياء رقم (١٤١٢).

(١) الخرائطي في مكارم الأخلاق ص ٧٠ عن ابن مسعود وضعف سنده العراقي في تخريج الإحياء ٢/٦٨ والطبراني في الكبير وفيه طلحة بن زيد وهو وضاع وانظر مجمع الزوائد ٨/١٥٨ ويشهد له ما تقدم تخريجه والحاكم من حديث ابن عباس نحوه بلفظ «ما من أحد يدرك ابنتين» ورواه ابن ماجه في السنن والطبراني في الكبير.

(٢) الخرائطي في مكارم الأخلاق ص ٧١ وابن عدي في الكامل ٤/١٥٥٤ في ترجمة عبد الله بن ضرار بن عمرو عن أبيه وقال إنكاره من حماد بن عمر لأنه يضع الحديث وأخرجه ابن الجوزي في الموضوعات ٢/٢٧٦ انظر تخريج الإحياء ٢/٦٨.

(٣) أحمد في المسند ٦/٣٩٠ عن أبي رافع والترمذي في الأذان رقم الحديث (١٥١٤) وقال: حديث حسن صحيح وأبو داود في السنن رقم الحديث (   ) وفي لفظ أبي داود والترمذي الحسن بدل الحسين وهو عن عبد الله بن أبي رافع عن أبيه وضعف الحديث ابن القطان انظر تخريج أحاديث الإحياء ٢/٦٨.

(٤) أخرجه أبو يعلى الموصلي في المسند وابن السني في عمل اليوم والليلة والبيهقي في شعب الإيمان من حديث الحسين بن علي سنده ضعيف ورواه ابن عساكر في التاريخ وسنده مردان بن سالم النضار وهو متروك وأورد الحديث الذهبي في الميزان في ترجمة يحيى بن العلاء البجلي ونقل عن أحمد أنه كذاب وضاع.

(٥) الطبراني في المعجم الصغير ٢/١٢٢ رقم الحديث (٨٩١) من حديث جابر واسناده ضعيف ولفظ «عق عن الحسن والحسين وختنهما لسبعة أيام انظر مجمع الزوائد ٤/٥٧، ٥٩ ورواه الحاكم في المستدرك ٢/٢٣٧ وصحح إسناده عن علي وعن عائشة وصححه أيضاً وأخرجه البيهقي أيضاً وصحح إسناده الحافظ في فتح الباري ٩/٥٨٩ وانظر =

ذلك من حق الولد على والده، وقد قال ﷺ: «إذا سميتم فأعبدوا»(١)، وقال عليه السلام: «أحسن الأسماء إلى الله: عبد الرحمن وعبد الله»(٢)، ويستحب تسمية السقط لما روي عن الرسول ﷺ أنه قال: «لا يزال السقط محبنطياً(٣) على باب الجنة حتى يغفر لوالديه، فيقول: أنت ضيعتني وأنت تركتني لا اسم لي يقول لأبيه»(٤)، ومن له اسم يكره فيستحب له تبديله(٥).

الأدب الخامس: يستحب أن يلقن أول ما ينطق به لسانه بلا إله إلا الله ليكون أول حديثه كلمة التوحيد وليكون مولعاً بذكر الله عز وجل.

الأدب السادس: العقيقة عن الذكر شاتان وعن الأنثى شاة ولا بأس بالشاة ذكراً كان أو أنثى لما روي عن الرسول ﷺ أنه أمر عن الغلام شاتان وعن الجارية شاة(٦)

= مجمع الزوائد ٤/٥٩ وأخرجه ابن حبان في صحيحه ٧/٢٥٥، ٢٥٦ عن أنس وعن عائشة وأخرجه حديث أنس الطبراني انظر مجمع الزوائد ٤/٥٩ وله شاهد عن بريدة انظر مجمع الزوائد ٤/٥٨.

(١) أخرجه الطبراني من حديث عبد الملك بن أبي زهير الثقفي عن أبيه عن معاذ انظر مجمع الزوائد ٨/٥٠ وضعفه الحافظ ابن حجر في فتح الباري ١٠/٥٧٠ وللبيهقي نحوه من حديث عائشة انظر تخريج الاحياء للعراقي ٢/٦٨ وأخرجه الحسن بن سفيان في مسنده ومسدد في مسنده والحاكم في الكنى وأبو نعيم وابن مندة والحديث من جميع طرقه ضعيف.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ٣/١٦٨٢ الأدب رقم (٢١٣٢) بلفظ «أحب الأسماء» من حديث ابن عمر وبهذا اللفظ أخرجه أبو يعلى في مسنده وفيه إسماعيل بن مسلم المكي ضعيف انظر مجمع الزوائد ٨/٤٩.

وله شواهد منها ما أخرجه البخاري في الأدب المفرد ص ٢٨٢ رقم ٨١٤ عن أبي وأحمد في المسند ٤/٣٤٥ وأبو داود رقم (٤٩٢٨) والترمذي رقم (٢٩٩) وابن ماجة رقم (٣٧٢٨) والنسائي في السنن: الخيل رقم (   ).

والطبراني في الكبير ٨/٣٧١ رقم (١٣٣٧٤) عن ابن مسعود واسناد الطبراني ضعفه الحافظ في الفتح ١٠/٥٧٠ وهو بلفظ «أحب الأسماء إلى ما تعبد له» ورواه البزار في الألقاب وللطبراني وأحمد نحوه من حديث عبد الرحمن بن سمرة تخريج الإحياء.

(٣) يروى هذا الأثر عن عبد الرحمن بن زيد بن معاوية بن أبي سفيان من قوله وهو من التابعين، ويروى مرفوعاً عن أنس نحوه أخرجه الديلمي ولابن عساكر نحوه عن أبي هريرة وكلها لا تصح.

انظر تخريج أحاديث الإحياء رقم الحديث (١٤٢٠).

(٤) لحديث: أن رسول الله ﷺ بدل اسم زينب فكانت اسمها برة فسماها زينب رواه البخاري في كتاب الأدب رقم (٦١٩٢) ومسلم الأدب رقم (١٤ ـ ١٨) والترمذي في التعبير والمناقب وابن ماجة في الأدب رقم (٣٣٣٢) والبخاري في الأدب المفرد ص ٢٨٥ ـ ٢٨٦ ولما رواه أيضاً الطبراني في الكبير من حديث عبد الله بن الحارث بن جزء الزبيري باسناد صحيح «أنه ﷺ بدل اسم العاص بعبد الله» ورواه البزار والبيهقي في الشعب وانظر فتح الباري ١٠/٥٧٧ تغيير الأسماء.

(٥) الترمذي رقم الحديث ١٥١٣ عن عائشة وصححه وذكر له شواهد فقال وفي الباب عن علي وأم كرز، وبريدة وسمرة =

ويستحب أن لا تكسر عظامها[1].

الأدب السابع: يستحب أن يتصدق بوزن شعر رأسه ذهباً أو فضة، وقد ورد فيه خبر روي أنه عليه السلام أمر فاطمة يوم سابع الحسن أن تحلق شعره وتتصدق بزنة شعره فضة[2].

الأدب الثامن: يستحب أن يحنك بتمرة أو حلاوة لما روي عن أسماء بنت أبي بكر أنها قالت ولدت عبد الله بن الزبير بقباء ثم أتيت رسول الله ﷺ فوضعته في حجره ثم دعا بتمرة فمضغها ثم تفل في فيه فكان أول شيء دخل بطنه ريق رسول الله ﷺ ثم حنكه بتمرة ثم دعا له وبرك فيه[3] فكان أول مولود ولد في الإسلام ففرحوا به فرحاً شديداً لأنهم قيل لهم إن اليهود سحرتكم فلا يولد لكم، فهذه جملة ما يتحصل من آداب الولادة والله الموفق للصواب.

المرتبة الثانية
في الآداب المتعلقة بالرضاع

وجملة ما نذكر من ذلك آداب أربعة:

الأدب الأول: المستحب أن لا يستعمل في حضانته ورضاعته إلا امرأة صالحة متدينة تأكل الحلال فإن اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه، فإذا وقع فيه نشوء الصبي انعجنت طينته من الحرام فيميل طبعه إلى ما يناسب الحرام من الخبائث المحرمات.

الأدب الثاني: يستحب أن يكون رضاعه في تمام الحولين لقوله عز وجل ﴿ **والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة** ﴾ (البقرة: ٢٣٣) ولما في ذلك من كمال التغذية باللبن، لأن بعد الحولين يحتاج الولد إلى ما هو أشد من

= وأبي هريرة وابن عمر وأنس، وابن عباس، ومسلم بن عامر وانظر فتح الباري ٥٩٣١٩.

(١) هذا الأثر ورد عن عائشة في العقيقة لا تكسر عظامها عند الذبح.
ي ٢/٦٩ - ٧٠.

(٢) الحاكم في المستدرك ٤/٢٣٧ من حديث علي والترمذي في السنن الأضاحي رقم الحديث ١٥١٩ وقال ليس بمتصل الاسناد وهو من رواية جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي وهو لم يدرك علياً وذكر فيه الحسن بدل الحسين.
وروى أحمد في المسند ٦/٣٩٠، ٣٩٢ عن أبي رافع نحوه بسند رجاله ثقات.

(٣) أول شيء دخل بطنه ريق رسول الله ﷺ ثم حنكه وبرك. متفق عليه من حديث أسماء بنت أبي بكر البخاري في المناقب رقم الحديث ٣٩٠٩ - ٣٩١٠ وفي العقيقة بحديث رقم ٥٤٦٩. ومسلم في الأدب رقم الحديث ٢١٤٤ والترمذي في المناقب رقم الحديث ٣٨٦٦ وأحمد في المسند ٦/٩٣ عنها وعن عائشة أيضاً.

اللبن وهو العيش .

الأدب الثالث : يجب على الأم إرضاع الصبي اللبأ وهو ثلاثة أيام ومن بعدها إن طلبت الأم إرضاعه فهي أحق سواء كان بالأجرة أو بغير أجرة ، فإن كان غيرها ترضع من غير أجرة وهي لا ترضع إلا بأجرة فمن يكون أحق ، فيه تردد ، والأقرب أنها أحق بالأجرة لأن خلاف ذلك يكون مضارة لها وقد قال تعالى : ﴿ **لا تضار والدة بولدها** ﴾ (البقرة : ٢٣٣) .

الأدب الرابع : جميع الغرامات المالية من الكسوة والنفقة وأجرة الرضاع كلها يكون من مال الوالد إذا كان له مال ، فإن لم يكن له مال فإنه يكون على الأب لقوله تعالى ﴿ **وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف** ﴾ (البقرة : ٢٣٣) فهذه الآداب كلها متعلقة بحال عدم التمييز والرضاع والحضانة وعدم الاستقلال بنفسه .

المرتبة الثالثة

إذا بلغ الصبي حالة التمييز

ومهما بدت من الصبي مخايل التمييز فينبغي أن يحسن مراقبته ومطالعة أحواله فإذا ظهرت في وجهه أنوار الحياء وكان يحتشم ويستحي من بعض الأفعال حتى يراها قبيحة فهذه هدية من الله تعالى إليه وبشارة تدل على اعتدال الأخلاق وصفاء القلب ، وما هذا حاله فهو مبشر بكمال العقل عند البلوغ فينبغي أن لا يهمل عن رعاية الاعتناء في حقه بحسن الأدب ، وجملة ما نشير إليه مما يعامل به من الآداب واحد وثلاثون أدباً .

الأدب الأول : هو أن الغالب على الأطفال الشره في الطعام فينبغي أن يؤدب فيه فلا يأكل الطعام إلا بيمينه ويقول بسم الله عند أكله وليأكل مما يليه ولا يبادر إلى الطعام قبل غيره ولا يحدق إلى الطعام وإلى من يأكله .

الأدب الثاني : يؤمر أن لا يسرع في الأكل ، ويمضغ الطعام مضغاً جيداً ولا يوالي بين الأكلات ويلطف اللقمة ولا يلطخ أثوابه .

الأدب الثالث : يعود أكل الخبز من غير الإدام في بعض الأوقات حتى يصير بحيث لا يرى الإدام حتماً واجباً ، ويقبح عنده كثرة الأكل بأن يشبه من يكثر الأكل بالبهائم ، ويذم الصبي الذي يكثر الأكل عنده ويمدح الصبي القليل الأكل حتى يقتدي بذلك .

الأدب الرابع : يحبب إليه الإيثار بالطعام وقلة المبالاة ، ويمدح عنده الطعام الذي فيه خشونة أي طعام كان بحيث لا يكون مولعاً بالطعام اللين فيصعب عليه مفارقته .

الأدب الخامس: يستحب أن يكون لباسه من الثياب البيض دون الثياب الملونة بالصباغات المزعفرة والمعصفرة وأنواع الديباج والأبريسم، ويقرر عنده أن ذلك إنما هو من لباس النسوان والرجال الذين لا خير فيهم ولا دين لهم وأن الرجال يستنكفون عن ذلك.

الأدب السادس: أنه مهما رأى على صبي ثوباً من ديباج أو حرير أو أبريسم فينبغي أن ينكر عليه فيذم على لبسه ويزال عنه بكل حال ولا يغتفر له ذلك.

الأدب السابع: ينبغي أن يُحْفظ الصبي عن الصبيان الذين عودوا التنعم والترفه ولبس الثياب الفاخرة وعن مخالطة من يرغب فيما ذكرناه فإن الصبي إذا أهمل في أول النشأة خرج في الأغلب رديء الأخلاق كذاباً حسوداً سروقاً نماماً لجوجاً ذا فضول ومجون، وإنما يحفظ عن ذلك كله بحسن الأدب.

الأدب الثامن: ثم إنه يستحب أن يشغل في المكتب يتعلم القرآن وأحاديث الرسول ﷺ وخطب أمير المؤمنين كرم الله وجهه في التوحيد ويعتمد في حفظ المواعظ الحسنة وأخبار الأبرار وحكاية أهل الصلاح في الزهد في الدنيا وحسن الرياضة للنفس فينغرس في قلبه حب الصالحين.

الأدب التاسع: ينبغي أن يحفظ عن الأشعار التي فيها ذكر العشاق ويحفظ عن مخالطة من هذه حاله في اتباع الهوى فإن ذلك مهما انغرس في قلوب الصبيان فإنه يبذر الفساد في النفوس.

الأدب العاشر: أن يعود كتابة الخط وحفظ الأمثال الشعرية فإن ذلك صفة كمال وزينة، وقد قال أمير المؤمنين كرم الله وجهه، عليكم بحسن الخط فإنه من مفاتيح الرزق.

الأدب الحادي عشر: إذا ظهر من جهة الصبي فعل جميل وخلق حسن فينبغي أن يكرم عليه ويجازى بما يفرح به ويمدح بين أظهر الناس، فإن خالف ذلك في بعض الأحوال مرة واحدة فينبغي أن يتغافل عنه ولا يهتك ستره في ملأ من الخلق ولا يكاشف في وجهه ويظهر له أن مثل هذا لا يتجاسر عليه أحد لا سيما إذا ستره الصبي وأخفاه.

الأدب الثاني عشر: أنه إن عاد إلى ذلك فينبغي أن يعاتب سراً ويعظم عليه الأمر فيه ويقال له إياك أن يطلع عليك في مثل هذا فتفتضح بين الناس، ولا يكثر عليه العتاب في

كل حين فإن ذلك يهون سماع الملامة في حقه ويسقط وقع الكلام في قلبه.

الأدب الثالث عشر: أن يكون الأب حافظاً لهيبة الكلام معه ولا يوبخه إلا أحياناً، والأم تخوفه بالأب وتزجره عن القبائح وتظهر له الوعيد بشدة الأب وخوفه منه.

الأدب الرابع عشر: ينبغي أن يمنع من النوم نهاراً فإن ذلك يورث الكسل في حقه ولا يمنع من النوم ليلاً لأن منعه من النوم في الليل يورث الملالة والتسخن ويضعف عن مكابدة النوم وشدة النعاس.

الأدب الخامس عشر: ينبغي أن يمنع من استعمال الفرش الوطية حتى تتصلب أعضاؤه ويستخف بدنه فلا يصبر عن التنعم، بل يعود الخشونة في الملبس والمفرش والمطعم والمشرب، فقد قال رسول الله ﷺ: «إياكم وفضول المطعم فإنه يسم القلب بالقسوة»[1].

الأدب السادس عشر: ينبغي أن يمنع من كل ما يفعله في خفية فإنه لا يخفيه إلا وهو يعتقد أنه قبيح فيدعو ذلك إلى أنه يتعود فعل كل قبيح.

الأدب السابع عشر: ينبغي أن يعوّد في بعض النهار المشي في الحركة والرياضة حتى لا يغلب عليه الكسل ويتعود الميل إليه وإن كان ممن يعتاد الرمي ويحبه فلا بأس بشغله، وهكذا الحال في ركوب الخيل فقد قال ﷺ: «ثلاثة لا تعد من اللهو، لهو الإنسان بغرسه ولهوه بقوسه ولهوه بأهله»[2].

الأدب الثامن عشر: ينبغي أن يعود أن لا يكشف أطرافه ولا يسرع في المشي ولا يرخي يديه يحركهما قداماً ووراء فعل المتبختر فقد نهى رسول الله ﷺ عن هذه المشية[3]، وهكذا حال التمطط عند المشي مكروه أيضاً وقد نهى عنه[4].

---

(١) لم أجده بعد البحث وما أظنه أنه حديث مرفوع وهو أشبه بكلام الزهاد.

(٢) أبو داود في السنن: الجهاد ٣/٢٨ رقم الحديث ٥١٣ وسيأتي أيضاً في ص ١٤٢ والترمذي رقم الحديث ١٦٣٧ والنسائي في السنن: الخيل ٦/٢٢٢ رقم ٣٥٨٧ كلهم عن عقبة بن عامر ولمسلم نحوه أيضاً من حديث عقبة رقم الحديث ١٩١٩ وللنسائي نحوه من حديث أبي هريرة وجابر وهو عند الطبراني في الكبير والبيهقي في السنن ٤/١٤٨ والضياء في المختارة.

(٣) مسلم اللباس رقم الحديث ٢٠٨٨ عن أبي هريرة.

(٤) فيه حديث أبي هريرة مرفوعاً «إذا مشت أمتي المطيطاء وخدمتهم فارس والروم سلط بعضهم على بعض» رواه الطبراني في الأوسط رقم الحديث ١٣٢ عن أبي هريرة وانظر مجمع الزوائد ١٠/٢٣٧ ولابن حبان نحوه عن خولة بنت قيس رقم الحديث ٦٦٨١ وللترمذي نحوه عن ابن عمر رقم الحديث ٢٢٦١ وضعفه.

الأدب التاسع عشر: ينبغي أن يمنع من الافتخار على أقرانه وأمثاله بشيء مما يملكه أبواه أو بشيء من مطاعمه وملابسه ولوحه ودواته ويعود التواضع والإكرام لكل من عاشره من الصبيان ويلطف في الكلام معهم.

الأدب العشرون: يمنع أن يأخذ على الصبيان من أمثاله شيئاً إذا كان من أهل الشرف والرياسة ويقرر في نفسه أن الأخذ لؤم وخسة ونزول قدر وأن الإعطاء كرم وشرف، وإن كان من أولاد الفقراء فيقرر في نفسه أن الأخذ طمع وفي الطمع مهانة ومذلة وأن ذلك من دأب الكلاب فإنه يتذلل في انتظار لقمة.

الأدب الحادي والعشرون: ينبغي أن يقبح إلى الأولاد حب الذهب والفضة والطمع فيهما ويحذر منهما أكثر مما يحذر من الحيات والعقارب والسموم، فإن آفة حب الذهب والفضة والطمع فيهما أكثر من آفة السموم على الصبيان بل على الأكابر من العقلاء، فإن ضرر السم ينقطع بالموت وضرر حبهما يتجدد بعد الموت.

الأدب الثاني والعشرون: ينبغي أن يعود أن لا يبصق في المجلس ولا يتمخط بحضرة غيره ولا يستدبر غيره ولا يكثر التثاؤب ولا ينبسط على وجهه ولا ينقعر على قفاه فإن ذلك كله أمارة دالة على الكسل والهوان.

الأدب الثالث والعشرون: ينبغي أن يعلم كيفية الجلوس على ركبتيه على الأرض أو ناصباً قدمه اليمين واضع الأخرى على الأرض أو يقعد محتبياً بيديه، هكذا كان رسول الله ﷺ يفعل في أكثر أحواله[1] ولا يقعد متربعاً عند الأكل[2]، ويتربع إذا كان يكتب ليتمكن من وضع اللوح في حجره.

الأدب الرابع والعشرون: ينبغي أن يمنع من كثرة الكلام ويبين له أن ذلك من أمارة الوقاحة وأنه عادة أبناء اللئام وأولاد السفلة من الناس لينزجر عن ذلك ويمتنع منه والله أعلم.

الأدب الخامس والعشرون: ينبغي أن يمنع عن الأيمان صدقاً كانت أو كذباً حتى لا يتعود ذلك في حال الصغر، ويمنع أن يبتدي بالكلام، ويعود أن لا يتكلم إلا جواباً،

---

(١) هكذا كان رسول الله ﷺ يفعله في كثير أحواله ـ المراد به كيفية جلوسه ﷺ.

(٢) الصحيح أن النبي ﷺ كان يجلس متربعاً وقد ورد ذلك من حديث حنظلة بن حزام. أخرجه البخاري في الأدب المفرد ص ٤٠٣ وابن عبد البر في الاستيعاب والمزي في تهذيب الكمال ومن حديث أنس أخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار عن ابن عباس نحوه أيضاً.

وبقدر السؤال، وأن يحسن الاستماع مهما تكلم من هو أكبر منه سناً وقدراً.

الأدب السادس والعشرون: أن يقوم لمن هو فوقه ويوسع له في المكان ويجلس بين يديه، ويمنع من لغو الكلام وفحشه ومن اللعن والسب، ومن مخالطة من يجري على لسانه مثل ذلك، فإن ذلك يسري لا محالة من قرناء السوء، وأصل تأديب الصبيان الحفظ من قرناء السوء.

الأدب السابع والعشرون: ينبغي أن يتعلم شجاعة القلب والصبر على الشدائد وتمدح هذه الأوصاف بين يديه ولسماعه لها ينغرس في قلبه حسنها ويتعودها.

الأدب الثامن والعشرون: ينبغي له إذا ضربه المعلم أن لا يكثر الصراخ والعياط ولا يستشفع بأحد بل يصبر ويذكر أن الصبر هو دأب أهل الشجاعة والرجال الأجواد، ويعرف أن كثرة الصراخ هو دأب المماليك والنسوان الذين لا صبر لهم على احتمال مكروه.

الأدب التاسع والعشرون: ينبغي أن يؤذن له بعد الفراغ من المكتب أن يلعب لعباً جميلاً يستريح إليه من تعب المكتب وضيقه بحيث لا يتعب في اللعب فإن منع الصبي عن اللعب وإرهاقه إلى التعلم دائماً ربما يميت قلبه ويبطل ذكاءه وينغص العيش عليه حتى يطلب الخلاص منه رأساً، وقد أشار ﷺ بقوله: «روحوا القلوب ساعة بعد ساعة فإنها تصدأ كما يصدأ الحديد»[1].

الأدب الثلاثون: ينبغي أن يعود الأكل مع الضيف والأنس بهم لئلا يكون مستوحشاً لمخالطتهم ويكون محباً لهم.

الأدب الحادي والثلاثون: ينبغي أن يعلم طاعة والديه ومعلمه ومؤدبه وكل من هو أكبر منه سناً من قريب أو بعيد أو أجنبي، وأن يكون ناظراً إليهم بعين الجلالة والتعظيم، وأن يترك اللعب بين أيديهم فهذه الآداب كلها متعلقة بسن التمييز في حالة الصغر قبل البلوغ والله أعلم.

---

(١) رواه الديلمي في الفردوس عن أنس رقم الحديث ٣١٨١ والقضاعي في مسند الشهاب رقم الحديث ٦٨٢ وفيه الوليد بن محمد الموقري وهو متروك الحديث ولابن عدي في الكامل ١/ ٢٥٨ نحوه عن ابن عمر ويكفي في هذا حديث حنظلة الذي أخرجه مسلم في صحيحه رقم الحديث ١٣ ولفظه «يا حنظلة ساعة وساعة» وللبزار نحوه من حديث أنس بسند صحيح كشف الأستار ٤/ ٧٥ وأخرجه أبو يعلى في مسنده وانظر مجمع الزوائد ١٠/ ٣٠٨.

المرتبة الرابعة
مهما قارب البلوغ وعظم تمييزه

ويشتمل على آداب خمسة:

الأدب الأول: ينبغي أن لا يتسامح له في ترك الطهارة والصلاة ويؤمر بالصوم في بعض الأيام من رمضان تعويداً وتمريناً، وقد رد الخبر عن الرسول ﷺ «مروهم بالصلاة وهم أبناء سبع وأضربوهم وهم أبناء عشر»[1].

الأدب الثاني: ينبغي أن يتجنبوا لبس الحرير والذهب ويعلموا كل ما يحتاج إليه من حدود الشرع، ويخوفوا من أكل الحرام ومن الكذب والخيانة والفحش وكل ما يعاب على الإنسان.

الأدب الثالث: ينبغي أن يقرر في قلبه أن الأطعمة أدوية وأن المقصود بها أن يتقوى الإنسان بها على عبادة الله تعالى وهكذا حال اللباس فإن الغرض به ستر العورة ولا حاجة إلى التأنق في هذين الأمرين، فإن الاشتغال بعلاجهما والتفكه بهما والمنافسة فيهما ربما كان شاغلاً عما يراد من أمر الآخرة فينبغي الإعراض عنهما إلا مقدار ما تدعو إليه الضرورة.

الأدب الرابع: ينبغي أن يتحقق في نفسه أن الدنيا كلها لا أصل لها لأنها غير باقية وأن الموت قاطع لنعيمها ومزيل جميع لذاتها، وأنها دار ممر لا دار مقر، وأن الآخرة دار مقر لا دار ممر، فمتى عقل هذه الأمور كلها في أول النشوء فإنه ينتفع غاية الانتفاع.

الأدب الخامس: ينبغي أن يخطر بباله الموت وينتظره في كل ساعة، ويعلم أن الكيس العاقل من تزود من الدنيا للآخرة حتى تعظم عند الله تعالى درجته وتتسع في الجنان نعمته، فإذا كان نشوءه على هذه الصفة كان هذا الكلام عند البلوغ واقعاً ومؤثراً نافعاً يثبت في قلبه كما يثبت النقش في الحجر وإن وقع النشوء، والعياذ بالله حتى ألف الصبي اللعب والفحش والوقاحة وشره الطعام واللباس والتزين والتفاخر قسا قلبه عن قبول الحق فأوائل الأمور هي التي ينبغي أن تراعي، فإن الصبي خلق جوهرة قابلة للخير والشر جميعاً وإنما أبواه يميلان به إلى أحد الجانبين كما أشار إليه الرسول ﷺ «كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه»[2]، وبتمامه يتم الكلام

---

(١) أبو داود السنن رقم الحديث ٤٩٤، ٤٩٥ وأحمد في المسند ٢/١٨٧و ١٨٠.

(٢) تقدم تخريجه ص ١٠ أول الكتاب.

على هذه المقالة في الرياضة للنفوس وغيرها كما شرحناه من قبل والله أعلم بالصواب .

المقالة الثانية
في بيان الصفات المهلكة

وجملتها عشر: حب الدنيا والبخل والكبر والعجب والرياء والحسد والغضب وحب المال وحب الجاه وإيثار الشهوتين البطن والفرج وما يندرج تحت هذه الآفات المهلكة كآفات اللسان من الكذب ونحوه، واعلم أن محل هذه الصفات هو القلب، وكل واحدة من هذه الصفات كافية في الهلاك فينبغي الاجتهاد في دفعها وإزالتها وليستعن بالله تعالى على إزالتها، ونحن نذكر كل واحدة منها ونفرد لها باباً على الخصوص ونشرح ما يحتمل كل واحدة منها وبالله التوفيق .

الباب الأول

في بيان الذم للدنيا وذم حبها

اعلم أن حب الدنيا رأس كل خطيئة كما قال ﷺ : وقد صارت عدوة لله وعـدوة لأوليائه وعدوة لأعدائه، أما عداوتها لله تعالى فلأنها قطعت الطريق بينه وبين أوليائه، ولهذا فإنه لم ينظر إليها منذ خلقها، وأما عداوتها لأوليائه فلأنها تزينت لهم بزينتها وغمرتهم بزهرتها وتزهت لهم بنضارتها حتى تجرعوا مرارات الصبر في مقاطعتها وتحملوا المشاق في البعد منها، وأما عداوتها لأعدائه فلأنها استدرجتهم بمكرها ومكايدهـا واقتنصتهـم بحبائلها وأقصدتهم بسهامها حتى وثقوا بها وعولوا عليها فخذلتهم أحوج ما كانوا إليها وغدرت بهم أسكن ما كانوا إليها فاجتنوا منها حسرة تنقطع دونهـا الأكبـاد، وحرمتهـم السعادة الأخروية على طول الآماد، فلنذكر ماهية الدنيا ثم نذكر ذمها و بيان أمثلتها وذكر المواعظ فيها، فهذه بيانات أربعة نفصلها بمعونة الله تعالى.

البيان الأول
في إيضاح ماهيتها وحقيقتها

اعلم أن معرفة ذم الدنيا والبعد عنها لا يكفيك ما لم تعرف الدنيا المذمومة ما هي؟ وما الذي ينبغي أن يجتنب منها وما لا يجتنب؟ فلا بد من بيان المذمومة المجتنبة ما هي: فنقول الدنيا والآخرة عبارة عن حالتين فكل ما كان قبل الموت فهو من الدنيا وكل ما كان بعد الموت فهو من الآخرة، وكل ما لك فيه حظ وعرض ونصيب وشهوة ولذة عاجلة قبل الوفاة فهو الدنيا، وليس مذموماً على الإطلاق لكنه على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما يصحبك في الآخرة وتبقى معك ثمرته بعد الموت وهو شأن العلم **والعمل**، ونعني بالعلم ما كان متعلقاً بذات الله وصفاته وأفعاله وملائكته وكتبـه ورسلـه

وملكوت أرضه وسمائه والعلم بشريعة الرسول ﷺ ، فهذا هو العلم الديني النافع ، ونعني بالعمل العبادة الخالصة لوجه الله تعالى وقد يأنس العالم بالعلم حتى يصير ألذ الأشياء عنده من جميع المطاعم والمشارب كلها والملابس ، فما هذا حاله ليس معدوداً من الدنيا المذمومة بل هو خير محض يعد في الآخرة .

القسم الثاني : وهو المقابل لهذا على المناقضة وهو كل ما فيه حظ عاجل ولا ثمرة له في الآخرة ، وهذا نحو التلذذ بالمعاصي كلها والتنعم بالمباحات الزائدة على قدر الضرورة والحاجة الداخلة في جملة الرفاهية وهذا نحو التنعم بالقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث والغلمان والجواري والدور والقصور ورفيع الثياب وغير ذلك من الملاذ ، فحظ العبد من هذا كله هو الدنيا المذمومة إذ ليس فيه شيء من أعمال الآخرة .

القسم الثالث : وهو متوسط بين الطرفين وهو كل حظ من العاجل معين على أعمال الآخرة كقدر القوت من الطعام والقميص من الأثواب وكل ما لا بد للإنسان منه ليتأتى للإنسان البقاء والصحة التي يتوصل بها إلى العلم والعمل فما هذا حاله فإنه يكون متوسطاً بين القسمين الأولين ، فإن قصد به وجه الله تعالى والوصول به إلى الدار الآخرة فهو مثل الأول ، وإن قصد به التنعم والتلذذ فهو من الثاني ، ولا يبقى بعد إلا عمل الآخرة ، وحكي عن عمر رضي الله عنه أنه استعمل أبا الدراء على حمص فاتخذ به كنيفاً أنفق عليه درهم فكتب إليه عمر بن الخطاب «أما بعد فقد كان لك في بناء فارس والروم ما تكتفي به من عمران الدنيا حين أذن الله تعالى بخرابها فإذا أتاك كتابي هذا فقد سيرتك وأهلك إلى دمشق» فلم يزل بها حتى مات .

فحصل من هذا كله أن كل ما أريد به وجه الله تعالى خالصاً فهو من الآخرة ، وما كان للدنيا خالصاً فليس معدوداً في الآخرة وإنما هو للدنيا خالصاً ، وحكي عن سليمان ﷺ أنه كان يأكل خبز الشعير ويطعم الناس لذيذ للأطعمة ، وروي عن الرسول ﷺ أنه أتى بلبن قد مزج بعسل فأبى أن يشربه ، وقال لا أشربه ولا أحرمه[1] ، وروي عن عمر رضي الله عنه أنه أتي إليه بماء باردٍ قد مزج بعسل فأداره في كفه وامتنع منه ، وقال : اعزلوا عني حسابها ، فهكذا كانت سيرة التاركين للدنيا الجاعلين الآخرة نصب

---

(١) رواه البزار من حديث طلحة بن عبيد الله والطبراني في الأوسط وفيه نعيم بن مودع العنبري وثقه ابن حبان وضعفه غيره انظر مجمع الزوائد ١٠/٣٢٥ وقال الهيثمي بقية رجاله ثقات. وانظر تخريج الإحياء ٢/ .

أعينهم والمعرضين عن الدنيا، وحصل من مجموع ما ذكرناه أن كل ما أظلته الخضراء وأقلته الغبراء فهو معدود من الدنيا إلا ما كان خالصاً لوجه الله تعالى يراد به مرضاته والدار الآخرة فهو من الآخرة.

البيان الثاني
في ذم الدنيا

وهو حاصل من جهات ثلاث:

الجهة الأولى: الآيات الواردة في ذمها وهذا كقوله عز وجل ﴿**وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب**﴾ (الأنعام: ٣٢) وقال تعالى: ﴿**اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد**﴾ (الحديد: ٢٠) وقال تعالى: ﴿**واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح**﴾ (الكهف: ٤٥) وقال تعالى: ﴿**إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام**﴾ (يونس: ٢٤) وقال تعالى: ﴿**وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور**﴾ (الحديد: ٢٠) وقال تعالى: ﴿**من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب**﴾ (الشورى: ٢٠) وقال تعالى: ﴿**من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً**﴾ (الإسراء: ١٨) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على حقارة الدنيا وانقطاعها وبطلانها وفسادها.

الجهة الثانية: الأخبار وقد روي عن الرسول ﷺ أنه مر بشاة ميتة فقال: أترون هذه الشاة هينة على صاحبها؟، فقالوا: نعم، فقال: «والذي نفسي بيده للدنيا أهون على الله تعالى من هذه على صاحبها ولو كانت تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء»[1] وقال ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»[2]، وقال عليه السلام:

---

(١) مسلم نحوه رقم الحديث ٢٩٥٧ والحاكم في المستدرك ٣٠٦/٤ وصححه وتعقبه الذهبي لأن فيه زكريا بن منظور وهو ضعيف وأخرجه ابن ماجه في السنن رقم الحديث ٤١١١ والترمذي ٦١١/٦ عن سهل بن سعد وعن المستورد ابن شداد وللترمذي أيضاً من حديث أبي هريرة رقم ٢٣٢٢ الزهد وأحمد في المسند ٣٦٥/٣ وأبو داود في السنن ٣٢٣/١ والبخاري في الأدب المفرد ٤٣٨/٢ ـ ٤٣٩ ولأحمد من حديث ابن عباس في المسند ٣٣٨/٢ وله أيضاً من حديث جابر بن عبد الله ولأبي نعيم في الحلية ٣٠٦/٣ عن ابن عباس.

(٢) مسلم في الزهد رقم الحديث ٢٩٥٩ من حديث أبي هريرة والترمذي ٦١٤/٦ وابن ماجه رقم ٤١١٣ وأحمد المسند ٣٢٣/٢، ٣٨٩، ٤٨٥ وابن حبان موارد الظمآن ص ٦١٦ وللبزار من حديث ابن عمر وللطبراني والبزار أيضاً من حديث سلمان وهو ضعيف انظر مجمع الزوائد ٢٨٨/١٠ ـ ٢٨٩ وانظر المطالب العالية ٦٧٣/٣.

«الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله عز وجل»[1]، وقال ﷺ: «من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب آخرته أضر بدنياه فآثر ما يبقى على ما يفنى»[2]، وقال ﷺ: «حب الدنيا رأس كل خطيئة»[3]، وقال ﷺ: «حب الدنيا مهلكة للدين»[4]، وعن أبي بكر رضي الله عنه قال: كنت مع رسول الله ﷺ فرأيته يدفع عن نفسه شيئاً ولم أر معه أحداً فقلت: يا رسول الله ما الذي تدفع عن نفسك؟ فقال: هذه الدنيا مثلت لي[5] فقلت لها: إليك عني، ثم رجعت فقالت: إنك إن فلت مني فلن يفلت مني من بعدك.

وقال ﷺ: «يا عجباً كل العجب للمصدق بدار الحيوان وهو يسعى لدار الغرور»[6]، وروي عنه ﷺ أنه وقف على مزبلة فقال: «هلموا إلى الدنيا وأخذ خرقاً قد بليت على تلك المزبلة وعظاماً قد نخرت، فقال هذه الدنيا»[7]، وهذه منه إشارة إلى أن زينتها ستخلق مثل تلك الخرق، وإن الأجسام التي ترى بها ستصير عظاماً بالية، وقال ﷺ: «الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون إن بني إسرائيل لما انبسطت الدنيا ومهدت تباهوا في الحلية والنساء والطيب والثياب»[8].

---

(١) الترمذي من حديث أبي هريرة ٦/٦١٣ وحسنه، وابن ماجة رقم ٤١١٢ وابن المبارك في الزهد ص ١٩٢ رقم ٤٥٣ والزهد لابن أبي عاصم ص ٤٨ والمعرفة والتاريخ ٣/٣٩٨ وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله ١/٣٣ والطبراني في الأوسط عن ابن مسعود انظر مجمع الزوائد ١/١٢٢ وضعف حديث ابن مسعود الهيثمي.

(٢) أحمد المسند ٤/٤١٢ والحاكم ٤/٣٠٨، ٣١٩ وابن حبان ٢/٤٧ من حديث أبي موسى الأشعري.

(٣) أبو نعيم في الحلية ٦/٢٨٨ والبيهقي في الزهد ص ١٦٩ رقم ٢٤٩ من قول عيسى بن مريم ورواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا مرسلاً عن الحسن ومثله البيهقي في الشعب والديلمي في الفردوس عن علي. انظر تخريج الإحياء للعراقي ٣/٢٥١ والمقاصد الحسنة ص ٢٩٦ وكشف الخفاء ١/٤١٣ والضعيفة للألباني رقم ١٢٢٦والحديث موضوع.

(٤) انظر تخريج الحديث المتقدم قبله.

(٥) البزار من حديث زيد بن أرقم بسند ضعيف والحاكم في المستدرك ٤/٤٠٩ عن أبي بكر رضي الله عنه وصححه في شعب الإيمان وابن أبي الدنيا انظر تخريج الإحياء للعراقي ٣/٢٥٢.

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة مرسلاً. تخريج أحاديث الإحياء ٣/٢٥٢ وقال السبكي في طبقات الشافعية ٦/٣٤٤ لم أجد له إسناداً.

(٧) ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا ومن طريقه البيهقي في شعب الإيمان مرسلاً من رواية أبي ميمون اللخمي عن رافع بن خديج وميمون مجهول وفيه بقية بن الوليد وهو مدلس وقد عنعن ورواه ابن المبارك في الزهد من حديث الحسن مرسلاً ومن قول أبي هريرة أيضاً. تخريج الإحياء ٣/٢٥٣ وطبقات السبكي ٦/٣٤٤.

(٨) النسائي ٥/٧٦ عن ابن عمر والترمذي رقم الحديث ٢١٩١ ـ ٢١٩٢ عن أبي سعيد وابن ماجه رقم ٤٠٠٠ وابن أبي عاصم في الزهد ص ٥٧ ـ ٥٨ والزهد لابن المبارك ص ١٧٤ رقم ٥٠٣ وشطر الحديث متفق عليه أخرجه البخاري في الزكاة ٤/٧٨ وفي الخمس ٧/٥٩ وفي الرقائق ٤/٣٦ ومسلم رقم ٢٧٤٢ وأحمد في المسند ٣/٤٣٤، =

وقال عيسى صلوات الله عليه: لا تتخذوا الدنيا رباً تتخذكم عبداً، اكنزوا كنزكم عند من لا يضيعه فإن صاحب كنز الدنيا يخاف عليه الآفة، وصاحب كنز الله لا يخاف عليه الآفة، وقال: يا معاشر الحواريين إني كببت لكم الدنيا فلا تنعشوها بعدي فإن من خبث الدنيا أن الله تعالى ما عصي إلا فيها وإن من خبث الدنيا أن الآخرة لا تدرك إلا بتركها، ألا فاعبروها، ولا تعمروها، واعلموا أن أصل كل خطيئة حب الدنيا، ورب شهوة أورثت حزناً طويلاً، وقال أيضاً: بطحتم الدنيا وجلستم على ظهرها فلا تنازعكم فيها الملوك والنسوان، فأما الملوك فلا تنازعوهم الدنيا فإنهم لن يعترضوا لكم ما تركتموهم ودنياهم، وأما النساء فاتقوهن بالصوم والصلاة، وقال أيضاً: الدنيا طالبة ومطلوبة فطالب الآخرة تطلبه الدنيا حتى يستكمل رزقه وطالب الدنيا تطلبه الآخرة حتى يجيء الموت فيأخذ بعنقه.

وقال ﷺ: «إن الله جل ثناؤه لم يخلق خلقاً أبغض إليه من الدنيا وأنه منذ خلقها لم ينظر إليها»[1]، وروي أن سليمان ﷺ كان في موكبه والطير تظله والجن والإنس عن يمينه ويساره مر بعابد من عباد بني إسرائيل، فقال: والله يا ابن داود لقد آتاك الله ملكاً عظيماً، قال: فسمع سليمان فقال: تسبيحة في صحيفة مؤمن خير مما أعطي ابن داود، فإن ما أعطي ابن داود يذهب والتسبيحة تبقى[2]، وقال ﷺ: ألهاكم التكاثر يقول ابن آدم مالي مالي وهل لك من مالك إلا ما تصدقت فأمضيت أو أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت؟[3]، وقال ﷺ: «الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له، ويجمعها من لا عقل له، وعليها يعادي من لا دين له، وعليها يحاسد من لا فقه له، ولها يسعى من لا يقين له»[4]، وقال ﷺ: «من أصبح والدنيا أكثر همه فليس من الله وألزم قلبه أربع خصال: هماً

= والدارمي ٢/٤١٠ والحميدي ٢٥١/١ وعبد الرزاق في المصنف ١٢/١١ ورواه ابن أبي الدنيا مرسلاً عن الحسن بهذا اللفظ. تخريج الإحياء ٢٥٢/٣.

(١) إبن أبي الدنيا في ذم الدنيا مرسلاً والبيهقي في شعب الإيمان من طريقه من حديث موسى بن يسار. تخريج الإحياء ٢٥٢/٣ والطبقات للسبكي ٣٤٤/٦.

(٢) انظر الإحياء ٢٥٢/٣.

(٣) أخرجه مسلم. الزهد رقم الحديث ١٩٥٨ من حديث عبد الله بن الشخير.

(٤) أحمد في المسند ٧١/٦ عن عائشة ورجاله ثقات، وابن أبي الدنيا في ذم الدنيا واللفظ له، والبيهقي في شعب الإيمان عن عائشة وعن ابن مسعود مرفوعاً والديلمي في الفردوس رقم الحديث ٣١٠٩، أنظر تخريج الإحياء ٢٥٣/٣ ومجمع الزوائد ٢٨٨/١٠ وفيض القدير للمناوي رقم الحديث ٤٢٧٤ وقال: قال المنذري والعراقي اسناده جيد وقال الهيثمي رجاله رجال الصحيح غير دويل وهو ثقة.

لا ينقطع عنه أبداً وشغلاً لا يتفرغ منه أبداً وفقراً لا يبلغ غناؤه أبداً وأملاً لا يبلغ منتهاه أبداً»[1]، وقال رسول الله ﷺ: «ألا أريك الدنيا جميعاً يا أبا هريرة؟ قال قلت: بلى يا رسول الله وأخذ بيدي وأتى بي إلى مزبلة فيها رؤوس وعذرات وخرق وعظام، ثم قال: «يا أبا هريرة هذه الرؤوس كانت تحرص كحرصكم وتأمل آمالكم ثم هي اليوم عظام بلا جلد، ثم هي صائرة رماداً، وهذه العذرات ألوان أطعمتكم اكتسبوها من حيث اكتسبتموها ثم قذفوها من بطونهم فأصبحت والناس يتحامونها وهذه الخرق البالية كانت رياشهم ولباسهم فأصبحت الرياح تصفقها، وهذه العظام عظام دوابهم التي كانوا ينتجعون عليها أطراف البلاد، فمن كان باكياً على الدنيا فليبك قال: فما برحنا حتى اشتد بكاؤنا»[2].

ويروى أن الله تعالى لما أهبط آدم عليه السلام إلى الدنيا، قال له: ابن للخراب ولد للفناء، وروي أنه وجد في صحف إبراهيم عليه السلام: يا دنيا ما أهونك على الأبرار الذين تصنعت وتزينت لهم، إني قذفت في قلوبهم بغضك والصدود عنك، وما خلقت خلقاً أهون علي منك، كل شأنك صغير وإلى الفناء يصير، قضيت عليك يوم خلقتك ألا تدومي لأحد ولا يدوم أحد لك وإن بخل بك صاحبك وشح عليك طويلاً يتحسر عليك، طوبى للأبرار الذين أطلعوني من قلوبهم على الرضى ومن ضمائرهم على الصدق والاستقامة، طوبى لهم ما عندي لهم من الجزاء إذا وفدوا إليَّ من قبورهم، النور يسعى أمامهم والملائكة حآفون بهم حتى أبلغهم ما يرضون من رحمتي[3].

وقال ﷺ: «الدنيا موقوفة بين السماء والأرض منذ خلقها الله تعالى لا ينظر إليها وتقول يوم القيامة، يا رب اجعلني لأدنى أوليائك نصيباً اليوم، فيقول: اسكتي بلا شيء لم أرضك لهم في الدنيا فأرضك لهم اليوم»[4] وروي في أخبار آدم عليه السلام أنه لما أكل من الشجرة تحركت معدته ليخرج الثفل ولم يكن ذلك مجعولاً في أطعمة الجنة إلا في

---

(١) الطبراني في الأوسط رقم الحديث ٤٧٤ عن أبي ذر وابن أبي الدنيا في ذم الدنيا من حديث أنس واللفظ له واسناده ضعيف والديلمي من حديث ابن عمر والحاكم ٣١٧/٤ من حديث حذيفة وكلاهما ضعيف. تخريج الإحياء ٢٥٣/٣.

(٢) قال العراقي في تخريج الأحياء ٢٥٣/٣ لم أجد له أصلاً.

(٣) الإحياء ٢٥٣/٣.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا مرسلاً والبيهقي في شعب الإيمان وتقدم نحوه من حديث موسى بن يسار ص ٦٨ التعليق رقم (١).

هذه الشجرة فلذلك نهيا عن أكلها، قال فجعل يدور في الجنة فأمر الله ملكاً يخاطبه، فقال قل له أي شيء تريد، قال آدم: أريد أن أضع ما في بطني من الأذى، فقيل: قل له في أي مكان تضعه على الفرش أم على السرر أم على الأنهار أم تحت ظلال الأشجار، هل ترى ها هنا موضعاً يصلح لذلك ولكن اهبط إلى الدنيا، وقال ﷺ: «ليجيئن أقوام يوم القيامة وأعمالهم كجبال تهامة فيؤمر بهم إلى النار، فقالوا: يا رسول الله مصلّين؟ قال: نعم كانوا يصلون ويصومون ويأخذون وهنة من الليل فإذا عرض لهم شيء من الدنيا وثبوا عليه»[١]، وقال ﷺ: «احذروا الدنيا فإنها أسحر من هاروت وماروت»[٢]، وقال عيسى صلوات الله عليه: لا يستقيم حب الدنيا والآخرة في قلب مؤمن كما لا يستقيم الماء والنار في إناء واحد[٣].

وروي أن جبريل قال لنوح عليه السلام: يا أطول الأنبياء عمراً كيف وجدت الدنيا؟ قال: كدار لها بابان دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر[٤]، وقيل لعيسى صلوات الله عليه: لو اتخذت بيتاً، فقال: يكفينا خلقان[٥] من كان قبلنا وروي أنه خرج الرسول ﷺ يوماً على أصحابه، فقال: «هل منكم من يريد أن يذهب الله عنه العمى ويجعله بصيراً؟ ألا إنه من رغب في الدنيا وطال أمله فيها أعمى الله قلبه على قدر ذلك، ومن زهد في الدنيا وقصر أمله فيها أعطاه الله تعالى علماً بغير تعلم وهدى بغير هداية ألا إنه سيكون بعدي قوم لا يستقيم لهم الملك إلا بالقتل والتجبر، ولا الغناء إلا بالفخر والبخل، ولا المحبة إلا باتباع الهوى، ألا فمن أدرك ذلك منكم فصبر للفقر وهو يقدر على الغناء ويصبر على البغضاء وهو يقدر على المحبة، ويصبر على الذل وهو يقدر على العز لا يريد بذلك إلا وجه الله تعالى أعطاه الله سبحانه ثواب خمسين صديقاً»[٦].

وروي أن عيسى صلوات الله عليه اشتد به المطر والرعد والبرق يوماً فجعل يطلب

---

(١) الديلمي من حديث أنس رقم ٨٨٧٥ وأبو نعيم الحلية ١/١٧٦ من حديث سالم مولى أبي حذيفة وكلاهما ضعيف، انظر تخريج الإحياء ٤/١٨٦٢ رقم ٢٩٥٢ تحقيق عبد الله بن محمود.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي الدرداء، الرهاوي مرسلاً ونقل العراقي في تخريج الإحياء ٣/٢٥٤ عن الذهبي قوله لا أصل له.

(٣) تخريج الإحياء ٣/٢٥٤.

(٤) الإحياء ٣/٢٥٤.

(٥) الإحياء نفس المصدر.

(٦) ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا والبيهقي في شعب الإيمان وفيه إبراهيم بن الأشعث، الرهاوي تكم فيه أبو حاتم. انظر تخريج الإحياء ٣/٢٥٤.

شيئاً يلجأ إليه فرفعت له خيمة من بعيد فأتاها فإذا فيها امرأة فحاد عنها فإذا هو بكهف في جبل فأتاه فإذا فيه أسد فرفع يده وقال: إلهي لكل شيىء مأوى ولم تجعل لي مأوى، فأوحى الله سبحانه إليه مأواك في مستقر رحمتي لأزوجنك يوم القيامة مائة حوراء خلقتهن بيدي ولأطعمن في عرسك أربعة آلاف عام يوم منها كعمر الدنيا ولآمرن منادياً ينادي أين الزهاد في الدنيا زوروا عرس سيد الزهاد عيسى ابن مريم، وقال عيسى صلوات الله عليه: ويل لصاحب الدنيا يموت ويتركها ويأمنها وتغره ويل للمغترين فيها كيف أزفهم ما يكرهون وفارقهم ما يحبون وجاءهم ما يوعدون، ويل لمن الدنيا همه والخطايا عمله كيف يفتضح غداً بذنبه[١].

وقيل: أوحى الله إلى موسى عليه السلام ما لك ولدار الظالمين إنها ليست لك بدار أخرج منها همك وفارقها بعقلك فبئست الدار هي إلا لعامل يعمل فيها خيراً فنعمت الدار يا موسى هي، إني مرصد للظالم حتى آخذ منه للمظلوم[٢]، وقال أبو سعيد الخدري، قال رسول الله ﷺ: «إن أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله عليكم من بركات الأرض قيل: وما بركات الأرض؟ قال: زهرة الدنيا»[٣]، وقال رسول الله ﷺ: «لا تشغلوا قلوبكم بذكر الدنيا»[٤]، فنهى عن ذكرها فضلاً عن إصابة عينها، وقال عيسى عليه السلام: من ذا الذي يبني على أمواج البحر داراً؟ إياكم والدنيا لا تتخذوها قراراً، وقيل لعيسى عليه السلام علمنا عملاً واحداً يحبنا الله عليه، قال: ابغضوا الدنيا يحبكم الله تعالى[٥] وقال ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ولتركتم الدنيا»[٦] وقال عيسى عليه السلام: يا طالب الدنيا لتبر، تركك للدنيا أبر[٧]، وقال ﷺ: «لتأتينكم بعدي دنيا تأكل

---

(١) الإحياء نفس المصدر.

(٢) الإحياء نفس المصدر.

(٣) متفق عليه من حديث أبي سعيد، البخاري: الجهاد رقم الحديث ٢٨٤١ عن أبي هريرة ومن حديث أبي سعيد: الرقائق رقم الحديث ٦٤٢٧ ومسلم: الزكاة رقم ١٢٢.

(٤) ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا والبيهقي في شعب الإيمان من رواية محمد بن نظر الحارثي مرسلاً، تخريج الأحياء ٢٥٥/٣ وقال السبكي في طبقات الشافعية ٣٤٥/٦ لم أجد له اسناداً.

(٥) الإحياء ٢٥٥/٣.

(٦) متفق عليه بهذا اللفظ من حديث أنس: البخاري ومسلم رقم وللبخاري من حديث عائشة نحوه رقم وأخرجه الترمذي رقم ٢٣١٣ من حديث أبي ذر وابن ماجة أيضاً رقم الحديث ٤١٩٠ وللطبراني نحوه من حديث أبي، انظر تخريج الإحياء ٢٥٦/٣.

(٧) الإحياء ٢٥٦/٣.

إيمانكم كما تأكل النار الحطب»[1]، ومر موسى عليه السلام برجل وهو يبكي، فقال موسى: يا رب عبدك يبكي من مخافتك فقال: يا ابن عمران لو نزل دماغه مع دموع عينيه ورفع يديه حتى يسقطا لم أغفر له وهو يحب الدنيا، فهذه جملة أوردناها في ذم الدنيا من الأخبار[2].

الجهة الثالثة: الآثار حكي عن أمير المؤمنين كرم الله وجهه أنه قال: من جمع ست خصال لم يدع للجنة مطلباً ولا من النار مهرباً، أولها من عرف الله فأطاعه وعرف الشيطان فعصاه وعرف الحق فاتبعه وعرف الباطل فاتقاه وعرف الدنيا فرفضها وعرف الآخرة فطلبها، وحكي عن الحسن البصري أنه قال: رحم الله أقواماً كانت الدنيا عندهم وديعة فأدوها إلى من أئتمنهم عليها ثم راحوا خفافاً، وقال أيضاً: من نافسك في دينك فنافسه، ومن نافسك في دنياك فألقها في نحره، وقال لقمان عليه السلام: يا بني الدنيا بحر عميق قد غرق فيه ناس كثير فتلكن سفينتك فيها تقوى الله تعالى وحشوها الإيمان بالله تعالى وشراعها التوكل على الله تعالى لعلك ناج وما أظنك ناجياً، وقال الفضيل بن عياض: طال فكري في هذه الآية ﴿ **إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً** ﴾، (الكهف: ٧، ٨) وقال بعض الحكماء: إنك لن تصبح في شيء من الدنيا إلا وقد كان له أهل قبلك ويكون له أهل بعدك، وليس لك من الدنيا إلا عشاء ليلة وغداء يوم فلا تهلك نفسك في أكلة، وصم عن الدنيا وأفطر على الآخرة، وإن رأس مال الدنيا الهوى وربحها النار.

وقيل لبعض الزهاد: كيف ترى الدهر؟ قال: يُخْلِق الأبدان ويجدد الآمال ويقرب المنية ويبعد الأمنية، قيل: فما حال أهله؟ قال: من ظفر تعب ومن فاتته نصب، وقال بعض الحكماء: كانت الدنيا ولم أكن فيها وتذهب الدنيا ولا أكون فيها فلا أسكن إليها فإن عيشها نكد وصفوها كدر وأهلها منها على وجل إما بنعمة زائلة أو بلية نازلة أو منية قاضية، وقال بعضهم: من عيب الدنيا أنها لا تعطي أحداً ما يستحق لكنها إما تزيد وإما تنقص، وقال سفيان: أما ترى النعم كأنها مغضوب عليها قد وضعت في غير أهلها، وقال بعض الزهاد: من طلب الدنيا على المحبة لها لم يعط منها شيئاً إلا أراد أكثر منه، ومن طلب الآخرة على المحبة لها لم يعط منها شيئاً إلا أراد أكثر وليس لها غاية ولا نهاية.[3]

---

(١) قال العراقي في تخريج الإحياء ٣/٢٥٧ لم أجد له أصلاً.

(٢) الإحياء ٣/٢٥٧.

(٣) الإحياء ٣/٢٥٧.

وقال رجل لأبي حازم: أشكو إليك حب الدنيا وليست لي بدار، فقال: أنظر إلى ما آتاك الله عز وجل منها فلا تأخذه إلا من حله ولا تضعه إلا في حقه ولا يضرك حب الدنيا، وإنما قال هذا لأنه لو أخذ نفسه بذلك لأتعبه حتى يتبرم من الدنيا ولطلب الخروج منها، وقال يحيى بن معاذ: الدنيا حانوت الشيطان فلا تسرق من حانوته شيئاً فيجيء يأخذك، وقال الفضيل بن عياض: لو كانت الدنيا من ذهب يفنى والآخرة من خزف يبقى لكان ينبغي أن يختار خزفاً يبقى على ذهب يفنى، فكيف وقد اخترنا خزفاً يفنى على ذهب يبقى، وقال أبو حازم: إياكم والدنيا فإنه بلغني أنه يوقف العبد يوم القيامة إذا كان معظما للدنيا، فيقال هذا عظم ما حقر الله تعالى(١).

وقال ابن مسعود ما أصبح أحد من الناس إلا وهو ضيف وما في يده عارية والضيف مرتحل والعارية مردودة رواه عن رسول الله ﷺ(٢)، وروى أبو أمامة الباهلي أنه لما بعث الرسول ﷺ أتت إبليس جنوده فقالوا قد بعث نبي وأخرجت أمته، قال: يحبون الدنيا؟ ،قالوا: نعم، قال: لئن كانوا يحبونها ما أبالي أن لايعبدوا الأوثان وأنا أغدو عليهم وأروح بثلاث أخذ المال من غير حقه وإنفاقه في غير حقه وإمساكه من حقه والشر كله لهذا تبع(٣)، وقال رجل لعلي كرم الله وجهه: يا أمير المؤمنين صف لنا الدنيا، قال: ما أصف لكم من دار، من استغنى فيها فتن، ومن افتقر إليها حزن ومن ساعاها فاتته، ومن وأتاها واتته، ومن أبصر بها بصرته، ومن نظر إليها أعمته، وقال: هي دار حلالها حساب وحرامها عقاب(٤)، وقال مالك بن دينار: اتقوا السحارة فإنها تسحر قلوب العلماء يعني الدنيا، وحكي عن بعض الحكماء أنه قال: إذا كانت الآخرة في القلب جاءت الدنيا تزحمها فإذا كانت الدنيا في القلب لم تزحمها الآخرة لأن الآخرة كريمة والدنيا لئيمة، وقال مالك بن دينار: بقدر ما تحزن للدنيا يخرج هم الآخرة من قلبك وبقدر ما تحزن للآخرة يخرج هم الدنيا من قلبك، وقال عيسى صلوات الله عليه: الدنيا والآخرة ضرتان فبقدر ما ترضى أحدهما تسخط الأخرى.

وقال الحسن البصري رضي الله عنه: والله لقد أدركت أقواماً كانت الدنيا أهون عليهم من التّراب الذّي يمشون عليه ما يبالون شرقت الدنيا أم غربت أذهبت أم لم تذهب،

(١) نفس المصدر.

(٢) نفس المصدر الإحياء ٣/٢٥٨ وشرحه ٨/٧٣ وقال أخرجه الطبراني ومن طريقه أبو نعيم في الحلية. وهو حديث موقوف على ابن مسعود وقول المصنف أنه رواه عن النبي ﷺ وهم والصحيح عنه من قول ابن مسعود.

(٣) نفس المصدر الإحياء.

(٤) الإحياء نفس المصدر.

ذهبت إلى هذا أو ذهبت إلى هذا، وقال الفضيل بن عياض: لو كانت الدنيا بحذافيرها عرضت عليَّ حلالاً لأحاسب بها في الآخرة لكنت أقذرها كما يقذر أحدكم الجيفة إذا مر بها أن تصيب ثوبه، وقال سفيان الثوري: خذ من الدنيا لبدنك ومن الآخرة لقلبك، وقال الحسن البصري: والله لقد عبدت بنو إسرائيل الأصنام بعد عبادتهم الرحمن بحبهم الدنيا وقال وهب بن منبه: قرأت في بعض الكتب، الدنيا غنيمة الأكياس وغفلة الجهال لم يعرفوها حتى خرجوا منها فسألوا الرجعة فلم يرجعوا، وقال لقمان عليه السلام لابنه: يا بني إنك استدبرت الدنيا من يوم نزلتها واستقبلت الآخرة فأنت إلى دار تقرب منها أقرب من دار تباعد عنها.

وقال بعض الزهاد: إذا رأيت العبد تزداد دنياه وتنقص آخرته وهو به راض فذلك المغبون الذي يلعب بوجهه وهو لا يشعر، وكتب الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز: «سلام عليك أما بعد فكأنك بآخر من كتب عليه الموت قد مات، فأجابه عمر سلام عليك كأنك بالدنيا لم تكن وبالآخرة لم تزل»، وقال الفضيل بن عياض: الدخول في الدنيا هين والتخلص عنها شديد، وقال بعض الحكماء: عجباً لمن يعرف الموت حقاً كيف يفرح وعجباً لمن يعرف النار حقاً كيف يضحك وعجباً لمن يرى تقلب الدنيا بأهلها كيف يطمئن إليها، وعجباً لمن يعرف أن القدر حق كيف ينصب.

وقدم على معاوية رجل من نجران عمره مائتا سنة، فسأله عن الدنيا كيف وجدها؟ فقال: سنيات بلاء وسنيات رخاء يوم فيوم وليلة فليلة يولد ولد ويهلك هالك فلولا المولود يولد باد الخلق، ولولا الهالك يهلك ضاقت الدنيا بمن فيها، قال له: سل ما شئت، قال عمر مضى فترده وأجل حضر فتدفعه، قال: لا أملك ذلك، فقال له: لا حاجة لي إليك، وقال داود الطائي: يا ابن آدم فرحت ببلوغ أملك وإنما بلغته بانقضاء أجلك ثم سوفت بعملك كأن منفعته لغيرك، وقال بعض الزهاد: من سأل الله تعالى الدنيا فإنما يسأله طول الوقوف بين يديه، وقال أبو حازم: ما في الدنيا شيء يسرك إلا وقد ألصق به شيء يسوءك، ولنكتف بهذا القدر من الكلام في ذم الدنيا ففيه كفاية لمقصودنا وتنبيه على مرادنا والله أعلم بالصواب[1].

البيان الثالث
في صفة الدنيا بالأمثلة

وأمثلتها مختلفة باختلاف أحوالها، وجملة ما نورده من ذلك أمثلة عشرة:

---

(١) الإحياء ٣/٢٥٩.

المثال الأول: في سرعة زوالها، إعلم أن الدنيا مثال الظل سريعة الفناء قريبة الانقضاء تعدنا بالبقاء ثم تخلف بالوفاء، تنظر إليها فتراها ساكنة مستقرة وهي سائرة سيراً عنيفاً ومرتحلة ارتحالاً سريعاً، ولكن الناظر إليها قد لا يحس بحركتها فيطمئن إليها، وإنما تكون عَسِرة عند انقضائها، ومثالها بالظل فإنه متحرك في الحقيقة ساكن لا تدرك حركتها بالبصر الظاهر وإنما تدرك بالبصيرة الباطنة، وكان الحسن بن علي رضي الله عنه يتمثل ويقول شعراً:

يا أهل لذات دنيا لا بقاء لها ... إن اغتراراً بظل زائل حمق

ولما ذكرت الدنيا للحسن البصري قال شعراً:

أحلام نوم أو كظل زائل ... إن اللبيب بمثلها لا يخدع

المثال الثاني: من جهة التغرير بخيالاتها فإنها تشبه خيالات المنام وأضغاث أحلام، قال رسول الله ﷺ: «الدنيا حلم وأهلها مجازون ومعاقبون»[1]، وعن بعض الحكماء ما شبهت نفسي والدنيا إلا كرجل نام فرأى في منامه ما يكره وما يحب فبينا هو كذلك إذا انتبه، فكذلك الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا، فإذا ليس في أيديهم شيء مما ركنوا إليه وفرحوا به، وقيل لحكيم: أي شيء أشبه بالدنيا؟ قال: أحلام النيام.

المثال الثالث: في عداوتها لأهلها، إعلم أن طبع الدنيا التلطف للاستدراج أولاً والتوصل إلى الإهلاك آخراً، وهي كامرأة تتزين للخطاب حتى إذا نكحتهم ذبحتهم، فقد روي أن عيسى عليه السلام مثلت له الدنيا فرآها في صورة عجوز هتماء عليها من كل زينة، فقال لها: كم تزوجت؟ قالت: لا أحصيهم، قال: فكلهم مات عندك أو كلهم طلقك قالت: بل كلهم قتلت، فقال عيسى صلوات الله عليه: بؤساً لأزواجك الباقين كيف لا يعتبرون بالماضين وكيف تهلكينهم واحداً واحداً ولا يكونون منك على حذر.

المثال الرابع: في مخالفة باطنها لظاهرها، إعلم أن الدنيا مزينة الظواهر قبيحة السرائر، وهي تشبه عجوزاً متزينة تخدع الناس بظاهرها فإذا وقفوا على باطنها وكشفوا القناع عن وجهها تمثلت لهم قبائحها فندموا على اتباعها وخجلوا من ضعف عقولهم في الاغترار بظاهرها، قال العلاء بن زياد: رأيت في النوم عجوزاً كبيرة السن معصبة الجلد، عليها من كل زينة الدنيا والناس عكوف عليها متعجبون منها ينظرون إليها فجئت ونظرت إليها، قال: وتعجبت من نظرهم إليها وإقبالهم عليها فقلت لها: ويلك من أنت؟

---

(١) قال العراقي في تخريج الإحياء ٣/٢٦٧ لم أجد له أصلاً.

فقالت: إني أنا الدنيا، فقلت: أعوذ بالله من شرك قالت: فإن أحببت أن تعاذ من شرى فابغض الدينار والدرهم، وقال الفضيل بن عياض: قال ابن عباس: يؤتى بالدنيا يوم القيامة في صورة عجوز شمطاء زرقاء أنيابها بادية مشوهة خلقها فتشرف على الخلائق فيقال لهم: تعرفون هذه؟ فيقولون: نعوذ بالله من معرفة هذه، فيقال لهم: هذه الدنيا التي تفاخرتم عليها وتقاطعتم الأرحام بها وتحاسدتم وتباغضتم واغتررتم ثم يقذف بها في جهنم فتنادي أي رب أين أتباعي وأشياعي؟ فيقول الله عز وجل: ألحقوا بها أشياعها وأتباعها.

المثال الخامس: في انقطاع الدنيا وزوالها، إعلم أن الأحوال ثلاثة: حالة لم تكن فيها شيئاً وهي ما قبل وجودك إلى الأزل، وحالة لا تكون فيها مشاهداً للدنيا وهي ما بعد موتك إلى الأبد، وحالة متوسطة بين الأبد والأزل وهي أيام حياتك في الدنيا فانظر إلى مقدار طولها وأنسبه إلى طرفي الأزل والأبد حتى تعلم أنه أقل من منزل قصير في سفر طويل، قال ﷺ: «ما لي وللدنيا إنما مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب سار في يوم صائف ارتفعت له شجرة فقال تحتها في ظلها ثم راح»[1]، ومن رأى الدنيا بهذه العين لم يركن إليها ولم يبال كيف انقضت أيامه في ضر وضيق أو في سعة ورفاهية بل لا يبني لبنة على لبنة، توفي رسول الله ﷺ وما وضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة[2].

المثال السادس: في لين موردها وخشونة مصدرها، إعلم أن أوائل الدنيا تبدو هينة لينة يظن الخافض فيها أن حلاوة خفضها كحلاوة الخوض فيها وهيهات فالخوض في الدنيا سهل والخروج منها مع السلامة شديد، وقد كتب أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه إلى سلمان الفارسي بمثالها فقال: مثل الدنيا الحية لين ملمسها ويقتل سمها فأعرض عما يعجبك فيها لقلة ما يصحبك منها، وضع عنك همومها لما أيقنت من فراقها، وكن آنس ما تكون فيها أحذر ما تكون منها، فإن صاحبها كلما اطمأن منها إلى سرور أشخصته إلى مكروه والسلام، ولقد أجاد في كلامه هذا كل الإجادة وأحسن فيه غاية الإحسان في صفة الدنيا وبيان حكمها وإظهار صفاتها.

المثال السابع: في تعذر الخلاص منها بعد الدخول فيها، قال الرسول ﷺ: «إنما

---

(١) الترمذي رقم الحديث ٢٣٧٧ وابن ماجه رقم ٤١٠٩ والحاكم المستدرك ٤/٣١٠ وصححه من حديث ابن مسعود وابن عباس، وأحمد في المسند ١/٤٤١ عن ابن عباس.

(٢) الطبراني وأبو نعيم في الحلية في الأوسط من حديث عائشة مرسلاً عن الحسن بسند ضعيف، انظر مجمع الزوائد ١٠/٢٥٨ بلفظ من سأل عني أو سره أن ينظر علي، وابن حبان في الثقات مرسلاً عن الحسن تخريج الإحياء ٣/٢٦٨.

مثل صاحب الدنيا كمثل الْماشي في الماء هل يستطيع الماشي في الماء أن لا تبتل قدماه؟ »[1] ، وهذا يعرفك جهالة قوم ظنوا أنهم يخوضون في نعيم الدنيا بأبدانهم ، وقلوبهم عنها مطهرة وعلائقها عن بواطنهم منقطعة ، وتلك مكيدة الشيطان ، بل لو أخرجوا عما هم فيه لكانوا أعظم المفجعين بفراقها فكما أن المشي في الماء يقتضي بللاً لا محالة يلصق بالقدم فكذلك ملابسة الدنيا تقتضي علاقة وظلمة في القلب، بل علاقة القلب مع الدنيا تمنع حلاوة العبادة ، قال عيسى عليه السلام : بحق أقول لكم كما ينظر المريض إلى الطعام فلا يلتذ به من شدة المرض ، كذلك صاحب الدنيا لا يلتذ بالعبادة ولا يجد حلاوتها مع ما يجد من حب الدنيا ، بحق أقول لكم إن الدابة إذا لم تركب وتمتهن تصعبت وتغير خلقها ، كذلك القلوب إذا لم ترقق بذكر الموت ونصب العبادة تقسو وتغلظ.

المثال الثامن : في بيان مخالفة آخر الدنيا لأولها ، إعلم أن شهوات الدنيا في القلوب لذيذة كشهوات الأطعمة في المعدة ، وسيجد العبد عند الموت لشهوات الدنيا في قلبه من الكراهة والنتن والقبح ما يجده للأطعمة اللذيذة إذا بلغت في المعدة غايتها ، وكلما كان الطعام ألذ طعماً وأكثر دسماً وأظهر حلاوة كان رجيعه أقذر وأشد نتناً ، فكذلك كل شهوة في القلب هي أشهى وألذ وأقوى فنتنها وكراهتها والتأذي بها عند الموت أشد ، بل هي في الدنيا مشاهدة ، فإن كل من نهبت داره وأخذ أهله وولده وماله كانت مصيبته وألمه وتفجعه في كل ما فقده بقدر لذته فيه وحبه له وحرصه عليه فكلما كان عند الوجود أشهى وألذ فهو عند الفقد أدهى وأمر ، وما للموت معنى إلا فقد ما في الدنيا ، وقد روي عن الرسول ﷺ أنه قال للضحاك بن سفيان الكلابي : أليس يؤتى بطعامك وقد ملح ومزج ثم تشرب عليه اللبن والماء؟ ، قال : بلى ، قال : فإلى ما يصير؟ ، قال له : إلى ما علمت يا رسول الله ، قال : فإن الله عز وجل ضرب مثلاً للدنيا بما يصير إليه طعام ابن آدم[2] ، وقال أبي بن كعب : قال رسول الله ﷺ : «إن الدنيا ضربت مثلاً لابن آدم

---

(١) ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا والبيهقي في شعب الإيمان بلاغاً عن الحسن البصري ووصله البيهقي في الشعب وفي الزهد رقم الحديث ٢٥٩ من رواية الحسن عن أنس. وضعفه السيوطي في الجامع الصغير، انظر فيض القدير ٦/٣٥٤ وتخريج الإحياء ٣/٢٩٦ .

(٢) أحمد في المسند ٣/٤٥٢ من حديث الضحاك بن سفيان وفيه علي بن زيد بن جدعان مختلف فيه ورواه الطبراني، انظر مجمع الزوائد ١٠/٢٨٨ وقال الهيثمي رجاله رجال الصحيح غير علي بن زيد وقد وثق وانظر تخريج الإحياء ٣/٢٧٠ .

بطعامه فانظر ما يخرج من ابن آدم وإن مزجه وملحه إلى ماذا يصير؟[1].

المثال التاسع: في اشتغال أهل الدنيا بنعيمها وغفلتهم عن الآخرة، إعلم أن أهل الدنيا في غفلتهم عن الآخرة كمثل قوم ركبوا سفينة فانتهت بهم إلى جزيرة من الأرض فأمرهم الملاح بالخروج لقضاء حوائجهم وحذرهم من المقام وخوفهم مرور السفينة فتفرقوا في نواحي الجزيرة فقضى بعضهم حاجته ودخل السفينة فصادف المكان خالياً، وبعضهم توقف في الجزيرة ينظر إلى ما فيها من الملاذ ثم رجع السفينة فلم يصادف إلا مكاناً ضيقاً وبعضهم أكب في تلك الجزيرة وشغف بما فيها وناداه الملاح فلم يجبه، ثم إنه استصحب من أمتعة تلك الجزيرة فلم يسعه المكان مع حمله فتارة يضعه في حجره وتارة يضعه فوق رأسه، وبعضهم تولج في الجزيرة وناداه الملاح فأجابه بغير توقف فسقط على الشوك وبقي في مكان خائفاً من السباع واللصوص وبعضهم لم يسمع النداء وتخلف عن السفينة ثم مرت فبعضهم أكلته السباع، ومنهم من مات جوعاً حتف أنفه، ومنهم من نهشته الحيات، فهذا مثال لجميع أصناف أهل الدنيا في اشتغالهم بحظوظهم العاجلة ونسيانهم موردهم ومصدرهم وغفلتهم من عاقبة أمورهم.

المثال العاشر: في اغترار الخلق بها حكى عن الرسول ﷺ أنه قال لأصحابه: «إنما مثلي ومثلكم كمثل قوم سلكوا مفازة غبراء حتى إذا لم يدروا ما سلكوا منها أكثر أو ما بقي أنفذوا الزاد وخسروا الظهر وبقوا بين ظهراني المفازة لا زاد ولا حمولة فأيقنوا بالهلكة فبينا هم كذلك إذ خرج عليهم رجل في حلة يقطر رأسه فقالوا له: قريب عهد بريف وما جاء هذا إلا من قريب، فلما انتهى إليهم قال يا هؤلاء: قالوا: يا هذا، فقال: على ما أنتم؟. قالوا له: على ما ترى، قال: أرأيتكم إن هديتكم إلى ماء ورياض خضر ما تعملون؟ قالوا له: لا نعصيك شيئاً قال: عهودكم ومواثيقكم على ذلك فأعطوه عهودهم ومواثيقهم بالله لا يعصونه أبداً قال: فأوردهم ماء ورياضاً خضراً فمكث بينهم ما شاء الله، ثم قال: يا هؤلاء قالوا: يا هذا، قال: الرحيل، قالوا: إلى أين؟ قال: إلى ماء ليس كمائكم وإلى رياض ليس كرياضكم، فقال أكثرهم: والله ما وجدنا هذا حتى ظننا أنا لا نجده، وما نصنع بعيش خير من هذا؟ قال وقالت طائفة ـ وهم أقلهم: ألم تعطوا هذا الرجل عهودكم ومواثيقكم بالله أن لا تعصوه شيئاً؟ وقد صدقكم في أول حديثه فوالله ليصدقنكم في آخره، فراح فيمن اتبعه وتخلف بقيتهم فبدر لهم عدو فأصبحوا بين أسير

---

(١) أخرجه الطبراني من حديث أبي بن كعب ورواه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند ٥/١٣٦ وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/٢٨٨ رجالها رجال الصحيح وانظر تخريج الإحياء ٣/٢٧٠.

وقتيل»[1] ولله دره ﷺ في مثاله هذا فقد طابق ممثولة وأوقع الحز على المفصل، فمن وافقه فقد نجا ومن خالفه فقد غرق وهوى.

البيان الرابع
في إظهار المواعظ في ذم الدنيا

قال بعض الحكماء: أيها الناس اعملوا على مهل وكونوا من أمر الله على وجل ولا تغتروا بالأمل ونسيان الأجل، ولا تركنوا إلى الدنيا فإنها غدارة غرارة قد تزخرفت لكم بغرورها وفتنتكم بأمانيها وتزينت لخطابها فأصبحت كالعروس المتحلية، العيون إليها ناظرة والقلوب عليها عاكفة، والنفوس لها عاشقة فكم من عاشق لها قتلته، ومطمئن إليها خذلته، فانظروا إليها بعين الحقيقة، فإنها دار كثرت بوائقها وذمها خالقها، جديدها يبلى وملكها يفنى، وعزيزها يذل وكثيرها يقل، وحيها يموت وخيرها يفوت، فاستيقظوا من غفلتكم وانتبهوا من رقدتكم قبل أن يقال فلان عليل ومدنف ثقيل فهل على الدواء من دليل، وهل إلى طبيب من سبيل، فيدعى لك الأطباء ولا يرجى لك الشفاء، ثم يقال فلان أوصى وماله أحصى، ثم يقال قد ثقل لسانه فما يكلم إخوانه ولا يعرف جيرانه، وعرق عند ذلك جبينك وتتابع أنينك وثبت يقينك وطمحت جفونك وصدقت ظنونك وتلجلج لسانك وبكى إخوانك، وقيل لك هذا ابنك فلان وهذا أخوك فلان، منعت الكلام فلا تنطق وختم على لسانك فلا ينطق، ثم حل بك القضاء وانتزعت روحك من الأعضاء، ثم عرج بها إلى السماء، فاجتمع عند ذلك إخوانك وأحضرت أكفانك فغسلوك وكفنوك فانقطع عوادك واستراح حسادك وانصرف أهلك إلى مالك وبقيت مرتهناً بأعمالك.

وقال بعض الحكماء لبعض الملوك: إن أحق الناس بذم الدنيا وقلاها من بسط له فيها وأعطي حاجته منها لأنه يتوقع آفة تعدو على ماله فتجتاحه أو على جمعه فتفرقه أو تأتي سلطانة فتهدمه من القواعد أو تدب إلى جسمه فتسقمه أو تفجعه بشيء هو ظنين به من أحبابه فالدنيا أحق بالذم، هي الآخذة ما تعطي والراجعة فيما تهب بينا هي تضحك صاحبها، إذ أضحكت منه غيره وبينا هي تبكي له إذ بكت عليه، وبينا هي تبسط كفه بالإعطاء إذ بسطتها بالاسترداد، تعقد التّاج على رأس صاحبها اليوم وتعفّره بالتّراب غداً، سواءٌ عليها ذهاب ما ذهب وبقي ما بقي، تجد في الباقي من الذاهب خلفاً، وترضى بكل من كل بدلاً.

---

(١) ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا وأحمد في المسند ٢/٢٦٧ من حديث ابن عباس والطبراني. انظر مجمع الزوائد. تخريج الإحياء ٣/٢٧٢ والحديث في إسناده علي بن زيد بن جدعان وتقدم أنه مختلف فيه.

وكتب الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز «أما بعد فإن الدنيا دار ظعن ليست بدار إقامة، وإنما أنزل الله إليها آدم عقوبة فاحذرها فإن الزاد منها تركها والغني فقرها، لها في كل حين قتيل، تذل من أعزها وتفقر من جمعها، هي كالسم يقابله من لا يعرفه، وهي جيفة فكن لها كالمداوي جراحته يحتمي قليلاً مخافة ما يكره طويلاً ويصبر على شدة الدوى مخافة طول البلى، فاحذر هذه الدار الغدارة الختالة الخداعة التي قد تزينت بخدعها وفتنت بغرورها وأضلت بآمالها وتشوقت لخطابها فأصبحت كالعروس المتجلية فالعيون إليها ناظرة والقلوب عليها والهة والنفوس لها عاشقة، وهي لأزواجها كلهم قاتلة، وللرشا على أحبابها قابلة، فلا الباقي بالماضي معتبر، ولا الآخر بالأول مزدجر، ولا العارف بالله عز وجل حين أخبره عنها مذكر، فعاشق لها قد ظفر منها بحاجته فاغتر وطغى، ونسي المعاد فشغل فيها لبه حتى زلت عنها قدمه، فعظمت ندامته وكثرت حسرته واجتمعت عليه سكرة الموت بألمه وحسرات الفوات بغصته، فمن رغب فيها لم يدرك منها ما طلب ولم يروح نفسه من التعب فخرج بغير زاد، وقدم على غير مهاد، فاحذرها يا أمير المؤمنين وكن أسر ما ما يكون فيها أحذر ما يكون لها، فإن صاحب الدنيا كلما اطمأن إلى سرور أشخصته إلى مكروه، السار فيها لأهلها غار، والنافع فيها غداً ضار، وقد وصل الرخاء فيها بالبلاء، وجعل البقاء فيها إلى فناء، سرورها مشوب بالأحزان، لا يرجع منها ما ولي وأدبر، ولا يدري ما هو آت فينتظر، أمانيها كاذبة وآمالها باطلة، وصفوها كدر وعيشها نكد وابن آدم فيها على خطر إن عقل ونظر وهو من النعماء على خطر ومن البلاء على حذر، فلو كان الخالق لم يخبر فيها خبراً ولم يضرب لها مثلاً لكانت الدنيا قد أيقظت النائم ونبهت العاقل فكيف وقد جاء من الله عنها زاجر، وفيها واعظ، فما لها عند الله تعالى قدر وما نظر إليها منذ خلقها، ولقد عرضت على نبيك ﷺ بمفاتيحها وخزائنها لا ينقصه عند الله جناح بعوضه فأبى أن يقبلها، إذ كره أن يخالف على الله أمره أو يحب ما أبغضه خالقه»[1]، وقد نجز غرضنا من الباب الأول في ذم الدنيا من مقالة المهلكات.

انتهى الباب الأول

---

(١) الإحياء ٢٧٢/٣.

الباب الثاني

في بيان كسر الشهوتين البطن والفرج

إعلم أن من أعظم الأمور المهلكة لابن آدم إنما هو شهوة البطن فبها أُخرج آدمُ وحواء من دار القرار إلى دار الذل والمهانة والافتقار إذ نُهيا عن أكل الشجرة فغلبتهما شهوتهما حتى أكلا منها فبدت لهما سوءاتهما، والبطن على التحقيق ينبوع الشهوات، ومنبت الآفات لأن شهوة الفرج تابعة لشهوة البطن، ويتضح مقصودنا من هذا الباب بإيضاح فضيلة الجوع، ثم إيضاح فوائده وإيضاح طريق الرياضة بتقليل الطعام ثم إيضاح شهوة الفرج وفوائده وبيان فضيلة من يخالفها فهذه إيضاحات خمسة.

الإيضاح الأول
في بيان فضيلة الجوع وذم الشبع

ولها جهتان:

الجهة الأولى: جهة الأخبار، قال رسول الله ﷺ: «جاهدوا أنفسكم بالجوع والعطش، فإن الأَجر في ذلك كأجر المجاهد في سبيل الله وإنه ليس من عمل أحب إلى الله من جوع وعطش»[1]، وقال ﷺ: «لا يدخل ملكوت السموات والأرض من ملأ بطنه»[2]، وقيل يا رسول الله: أي الناس أفضل؟ قال: «من قل أكله وضحكه ورضي بما يستر عورته»[3]، وقال ﷺ: «سيد الأعمال الجوع وذل النفس لباس الصوف»[4]، وقال أبو سعيد

---

(١) قال العراقي في تخريج الإحياء ٣/١٠٢ لم أجد له أصلاً.

(٢) قال العراقي في تخريج الإحياء ٣/١٠٢ لم أجد له أصلاً.

(٣) قال العراقي في تخريج الإحياء ٣/١٠٢ لم أجد له أصلاً.

(٤) قال العراقي في تخريج الإحياء ٣/١٠٢ لم أجد له أصلاً.

الخدري قال رسول الله ﷺ : «البسوا الصوف وكلوا في أنصاف البطون فإنه جزء من النبوة»[1] ، وقال الرسول ﷺ ، : «الفكر نصف العبادة ، وقلة الطعام هي العبادة»[2] ، وقال الحسن قال الرسول ﷺ : «أفضلكم عند الله صابركم جوعاً»[3] .

وفي الخبر أن رسول الله ﷺ كان يجوع من غير عوز[4] ، أي مختاراً له ، وقال ﷺ : «إن الله ليباهي الملائكة بمن قل طعمه في الدنيا يقول انظروا إلى عبدي ابتليته بالطعام والشراب في الدنيا فتركهما ، اشهدوا يا ملائكتي ما من أكلة يدعها إلا أبدلته بها درجات في الجنة»[5] ، وقال ﷺ : لا تميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب فإن القلب كالزرع يموت إذا كثر عليه الماء»[6] ، وقال ﷺ : «ما ملأ ابن آدم وعاء شر من بطنه ، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه وإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه»[7] ، وفي حديث أسامة بن يزيد وحديث أبي هريرة عن الرسول ﷺ : «أقرب الناس من الله تعالى يوم القيامة من طال جوعه وعطشه وحزنه في الدنيا هم الأخفياء الأتقياء»[8] ، وروي الحسن عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «البسوا الصوف وشمروا وكلوا في أنصاف البطون تدخلوا في ملكوت السماء»[9] ، وقال عيسى صلوات الله عليه : «أجيعوا أكبادكم واعروا أجسادكم لعل قلوبكم تحب الله تعالى»[10] .

---

(١) قال العراقي في تخريج الإحياء ٣/١٠٢ لم أجد له أصلاً .

(٢) قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ٣/١٠٣ لم أجد له أصلاً .

(٣) قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ٣/١٠٣ لم أجد له أصلاً .

(٤) البيهقي في شعب الإيمان من حديث عائشة وإسناده معضل تخريج أحاديث الأحياء ٣/١٠٣ .

(٥) أخرجه ابن عدي في الكامل من حديث ابن مسعود وهو حديث ضعيف وانظر تخريج الإحياء ١/١٠٤ ، ٣/١٠٣ .

(٦) قال العراقي في تخريج الإحياء ٣/١٠٣ لم أقف له على أصل .

(٧) الترمذي رقم الحديث ٢٣٨١ من حديث المقدام وقال هذا حديث حسن صحيح وفي بعض النسخ حسن ، وابن ماجة رقم الحديث ٣٣٤٩ والحاكم في المستدرك ٤/١٢١ وصححه ووافقه الذهبي وحسنه المنذري في الترغيب ٤/١٩٨ والعراقي في تخريج الإحياء ٢/٦ وصححه ابن حجر في الفتح ٩/٥٢٨ بمجموع طرقه ص ٨٦ .

(٨) أحمد في الزهد من حديث سعيد بن زيد والخطيب البغدادي والحارث بن أبي أسامة وأورده ابن الجوزي في الموضوعات من طريق أبي الطيب وفيه جناب بن عبد الله بن جبلة أحد الكذابين وفيه من لا يعرف . انظر تخريج الإحياء ٣/١٠٤ واللآلىء ٢/٣٠٨ .

(٩) أخرجه الديلمي في الفردوس رقم ٣٣٨ بسند ضعيف . انظر تخريج الإحياء ٣/١٠٤ وتقدم نحوه في نفس هذه الصفحة تعليق (٢) .

(١٠) قال العراقي في تخريج الإحياء ٣/١٠٤ لم أجد له أصلاً ومثله قال السبكي في الطبقات ٦/٣٤٤ وأخرجه أبو نعيم في الحلية من قول عيسى بن مريم وساقه الغزالي في الإحياء من قول طاووس .

وفي التوراة إن الله ليبغض الحبر السمين، كأن السمن يدل على الغفلة وكثرة الأكل وذلك قبيح خصوصاً بالحبر، ولأجله قال ابن مسعود: «إن الله يبغض القارىء السمين»، وفي الخبر إن الأكل على الشبع يورث البرص[1]، وقال ﷺ: «المؤمن يأكل في معاء واحد والكافر يأكل في سبعة أمعاء[2]، والمراد بالأمعاء الشهوات لأن الشهوات تقبل الطعام كما تقبل الأمعاء، ورُوي عن عائشة رضي الله عنها قالت سمعت رسول الله ﷺ: «يقول: أديموا قرع باب الجنة يُفْتَح لكم قلت: وكيف نُديم قرع باب الجنة؟، قال: بالجوع والظمأ[3]، ورُوي أن أبا جحفة تجشأ في مجلس رسول الله ﷺ فقال: «أقصر من جشائك فإن أطول الناس جوعاً يوم القيامة أكثرهم شبعاً»[4].

الجهة الثانية: جهة الآثار، قال عمر رضي الله عنه: «إياك والبطنة فإنها ثقل في الحياة نَتن في الممات[5]، وقال سفيان: «العبادة حرفة وحانوتها الخلوة وآلتها المجاعة»[6]، وقال لقمان لإبنه: «يا بني إذا امتلأت المعدة ضاقت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الأعضاء عن العبادة»[7]، وقال الفضيل بن عياض يخاطب نفسه: «أي شيء تخافي الجوع لا تخافي أنت أهون على الله من ذلك، إنما يجوع محمد وأصحابه، وقال بعض الزهاد: «إلهي أجعني وأعريني وفي ظلم الليل أجلسني فبأي وسيلة بلغتني ما بلغتني».

وقال بعضهم عند شدة المرض والجوع: «إلٰهي ابتليتني بالمرض والجوع وكذلك تفعل بأوليائك فأي عمل أؤدي شكر ما أنعمت به عليَّ»، وقال يحيى بن معاذ: «جوع الراغبين منبهة وجوع التائبين تجربة وجوع المجتهدين كرامة وجوع الصابرين سياسة وجوع الزاهدين حكمة» وقال أبو سليمان: «لئن أترك لقمة من عشاي أحب إليّ من قيام

---

(١) قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ٣/١٠٤ لم أجد له أصلاً.

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة، البخاري في الأطعمة رقم الحديث ٥٣٩٤ ـ ٥٣٩٦ ومسلم في الأشربة ،٢٠٦٠ـ ٢٠٦١ .

(٣) قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ٣/١٠٤ لم أجد له أصلاً.

(٤) بهذا اللفظ أخرجه البيهقي في شعب الإيمان من حديث أبي جحيفة وأصله عند الترمذي رقم الحديث ٢٤٧٨ وحسنه من حديث ابن عمر بلفظ «كف عنا جشاءك» وأخرجه ابن ماجه في السنن: الأطعمة رقم الحديث ٣٣٥٠ وللبزار نحوه وانظر تخريج أحاديث الإحياء ٣/١٠٤ .

(٥) الإحياء ٣/١٠٤ .

(٦) نفس المصدر الإحياء.

(٧) نفس المصدر الإحياء ٣/١٠٤ .

ليلة إلى الصبح»، وقال أيضاً: «الجوع عند الله في خزائنه لا يعطيه إلا من يحب» وقال بعض الزهاد: «لم ير الأكياس شيئاً أفضل من الجوع في الدين والدنيا وقال لا أعلم شيئاً أضرّ على طلاب الآخرة من الأكل».

الإيضاح الثاني
في بيان فوائد الجوع وآفات الشبع

وجملة ما نشير إليه من فوائده عشر:

الفائدة الأولى: صفاء القلب واتقاد القريحة ونفاذ البصيرة، فإن الشبع يورث البلادة ويعمي القلب ويكثر البخار في الدماغ يشبه السُكر حتى يستولي على معادن الفكرة فيثقل القلب بسبب ذلك عن الجريان في الأفكار.

الفائدة الثانية: رقة القلب التي يتهيأ بها لإدراك حلاوة المناجاة لله عزّ وجل، فكم من ذكر يجري على اللسان مع حضور القلب ولكن القلب لا يلتذ به ولا يتأثر عنه حتى كأن بينه وبينه حجاباً من قساوة القلب وقد يرق في بعض الأحوال فيعظم تأثره بالذكر وتلذذه بالمناجاة، وخلو المعدة هو السبب الأظهر في ذلك.

الفائدة الثالثة: الإنكسار والذل وزوال البطر والفرح والأشر الذي هو مبدأ الطغيان والغفلة عن الله تعالى، ولا تنكسر النفس ولا تذل كما تذل بالجوع، فعنده يستكين العبد لربه ويخشع له ويقف على عجزه وذله، والبطر والفرح بابان من أبواب النار وأصلهما الشبع، والذل والإنكسار بابان من أبواب الجنة، وأصلهما الجوع، ومن أغلق باباً من أبواب النار فقد فتح باباً من أبواب الجنة بالضرورة لأنهما متقابلان كالمغرب والمشرق، فالبعد من أحدهما قرب من الآخر.

الفائدة الرابعة: لا ينسى بلاء الله وعذابه ولا ينسى أهل البلاء، فإن الشبعان ينسى الجائعين وينسى الجوع، والمؤمن الفطن لا يشاهد بلاء إلا ويذكره بلاء الآخرة، ويتذكر من عطشه عطش الخلائق في عرصات القيامة، ومن جوعه جوع أهل النار حين يجوعون فيطعمون من الزقوم والضريع ويسقون الغساق والمهل.

الفائدة الخامسة: كسر شهوات المعاصي كلها والإستيلاء على النفس الأمارة بالسوء، فإن منشأ المعاصي كلها الشهوات، ونيل الشهوات مادة القوى، ومادة الشهوات والقوى لا محالة الأطعمة، فبقلتها تضعف كل شهوة وقوة، والسعادة كلها أن يملك الإنسان نفسه، والشقاوة في أن تملك الإنسان نفسه وتكون هي المستولية عليه.

الفائدة السادسة : رفع النوم ودوام السهر ، فإن كل من شبع شرب كثيراً ، ومن كثر شربه كثر نومه ، وحُكي أنه أجمع رأي سبعين صديقاً على أن كثرة النوم من كثرة الشرب ، وفي كثرة النوم ضياع العمر وفوت التهجد وبلادة الطبع وقساوة القلب ، والعمر أنفس الجواهر وهو رأس مال الإنسان الذي به يتجر .

الفائدة السابعة : تيسير المواظبة على العبادة فإن كثرة الأكل تمنع من كثرة العبادة لأن الأكل يحتاج إلى زمان يشتغل فيه بالأكل ، وربما احتاج إلى زمان في شراء الطعام وطبخه ثم يحتاج إلى غسل اليد والخلال ثم يكثر تردده للخروج إلى بيت الماء ، وهذه أوقات يمكن صرفها إلى العبادة عوضاً عن الأكل المباح وليس لها سبب إلا كثرة الأكل والتوسع في الشبع .

الفائدة الثامنة : صحة البدن ودفع الأمراض فإن سببها كثرة الأكل وحصول فضلات الأخلاط في المعدة والعروق ، ثم إن المرض يمنع من العبادات ويوسوس[1] القلب ويمنع من الذكر والفكر وينغص ويُحوج إلى الفصد والحجامة والدواء والطبيب ، وكل ذلك يحتاج إلى أمور كثيرة وتبعات وفي الجوع ما يمنع من ذلك كله .

الفائدة التاسعة : خفة المؤنة فإن كل من تعوّد قلة الأكل كفاه من المال قدر يسير ، والذي تعوّد الشبع صار بطنه غريماً ملازماً يأخذ بمخنقه كل يوم فيقول ماذا تأكل اليوم فيحتاج إلى أن يدخل في المداخل الخبيثة فتكسبه من الحرام فيعصى أو من الحلال فيذل ويتعب ، وربما يحتاج إلى أن يمد عينيه إلى الخلق بالطمع فيما في أيديهم وهو غاية الذل والمؤمن خفيف المؤنة .

الفائدة العاشرة : التمكن من الإيثار والتصدق بما فضل من الأطعمة على اليتامى والمساكين ، ويكون يوم القيامة في ظل صدقته كما ورد في الخبر ، فما يأكله فخزانته الكنيف وما يتصدق به فخزانته فضل الله ورحمته ، فهذه جملة ما نريد ذكره من فوائد الجوع ، وأما آفات الشبع فهو نقائض هذه الخصال التي أوردناها فلا حاجة لنا إلى تكريرها .

الإيضاح الثالث
في بيان الرياضة في كسر شهوة الجوع

إعلم أن على السالك لطريق الآخرة المأخوذ عليه أن لا يأكل إلا حلالاً ، فالعبادة

مع أكل الحرام كالبناء على أمواج البحر، فإذا كان محرزاً لهذه الخصلة فالمتوجه عليه وظائف ثلاث:

الوظيفة الأولى: في تقليل الطعام وله درجات خمس الدرجة الأولى: أن يرد نفسه إلى قدر ما يقيم الروح الذي لا يبقى من دونه، وهذا إنما يكون بعد الرياضة الكثيرة وتقليل الطعام قليلاً قليلاً لأنه لو تركه دفعة واحدة لصعب ذلك وشق، الدرجة الثانية: أن يرد نفسه بالرياضة في اليوم والليلة إلى نصف مدّ وهو رغيف واحد ويشبه أن يكون هذا ثلث البطن في حق الأكثر، الدرجة الثالثة: أن يرد نفسه إلى مقدار المد وهو رغيفان ونصف، ويكاد هذا ينتهي إلى ثلثي البطن ويبقى ثلث للشراب، الدرجة الرابعة: أن يرد نفسه إلى المن وهو زائد على المد، ويشبه أن يكون ما وراء هذا إسرافاً، الدرجة الخامسة: أن لا يكون هناك تقدير وهو أن يكون أكله عند صدق الجوع ويقبض يده إلا عند شهوة صادقة، والمختار أن يقدر الإنسان مع نفسه في الأكل القدر الذي لا يضعفه عن حمل العبادة التي هو بصددها، وعلى الجملة فلا يمكن تقدير الطعام لأنه يختلف بالأحوال والأشخاص والمعايش والأوقات.

الوظيفة الثانية: في وقت الأكل وفيه درجات ثلاث، الدرجة الأولى: أن يطوي ثلاثة أيام، ورُوي أن بعضهم انتهى إلى ستة أيام يطويها من غير حاجة إلى مقدار المأكول وانتهى بعضهم إلى ثلاثين وبعضهم إلى أربعين، وحُكي عن بعضهم أنه طوى خمسين يوماً وعن بعضهم ستين يوماً، وكل ذلك بطريق الرياضة ويكون في الأوقات المتباعدة، الدرجة الثانية: أن يطوي يومين وليس خارجاً عن العادة بل ذلك ممكن، الدرجة الثالثة: وهي أدناها يقتصر في اليوم والليلة على أكلة واحدة وهذا هو الأقل، وروى أبو سعيد الخدري عن الرسول ﷺ أنه كان إذا تغدى لم يتعشّ وإذا تعشى لم يتغد[1]، وكان السلف الصالح يأكلون في كل يوم أكلة، وقال الرسول ﷺ لعائشة: «إياك والإسراف فإن أكلتين في اليوم من السرف[2]، فإذا كان أكلتان في اليوم سرفاً فالأكلة في اليومين إقتار، والأكلة في كل يوم وسط بين ذلك وهو المحمود، وفي حديث عائشة كان الرسول يواصل إلى السحر، ومن اقتصر على أكلة واحدة فيستحب أن يأكلها

---

(١) قال العراقي في تخريج الإحياء ٣/١١٥ لم أجد له أصلاً في المرفوع وأخرجه أبو نعيم في الحلية عن أبي سعيد انظر تخريج الإحياء ٤/١٦٠٨ تحقيق عبد الله بن محمود.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان القسم الثاني ٢/٢٦٠ ـ ٢٦٣ المخطوطة عن عائشة وفي إسناده عبد الله بن الهيعة وهو ضعيف انظر الترغيب والترهيب للمنذري ٤/٢٠١ ـ ٢٠٤ وتخريج الإحياء للعراقي ٣/١١٢.

سحراً قبل طلوع الفجر فيحصل له جوع النهار للصيام وجوع الليل للقيام.

الوظيفة الثالثة: في نوع الطعام وأعلا الطعام مخ الحنطة وهو غاية الترفه، وأوسطه الشعير منخول وأدناه شعير من غير نخل، وأعلا الإدام اللحم والحلاوة وأدناه الملح والخل وأوسطه العدس بالدهن من غير لحم، والعادة للسالكين لطريق الآخرة الإمتناع عن الإدام على الدوام والإستمرار بل الإمتناع عن الشهوات فإن كل لذيذ يشتهيه الإنسان ويأكله فإنه يقتضيه بطراً في نفسه وقسوة في قلبه وإنساً لنفسه بلذات الدنيا حتى يألفها ويكره الموت ولقاء الله تعالى وتصير الدنيا محبوبة عنده، وإذا منع نفسه شهواتها وضيق عليها وحرمها لذاتها صارت الدنيا مكروهة عنده واشتهى الإنقلاب إلى الله عز وجل فقد قال ﷺ: «شرار أمتي الذين غذوا بالنعم ونبتت أجسامهم عليه»[1]، وإنما همتهم ألوان الطعام وأنواع اللباس، وأوحى الله تعالى إلى موسى إنك ساكن القبر فيمنعك ذلك عن كثير من الشهوات.

الإيضاح الرابع
في بيان شهوة الفرج

إعلم أن شهوة الوقاع سلطت على الإنسان لفائدتين الأولى منها بقاء النسل ودوام وجود الخلق، الثانية أن يقيس بها لذات الآخرة فإن لذة الوقاع لو دامت لكانت أقوى لذات الأجسام، فهاتان الفائدتان في شهوة الفرج، ولكن في لذة الفرج من الآفة ما يهلك الدين والدنيا إن لم تُضبط وتُقهر ولم تُرد إلى حد الإعتدال، وقد قيل في قوله تعالى: ﴿**ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به**﴾ (البقرة: ٢٨٦). قيل هو الشدة للشهوة للنكاح، وكان رسول الله ﷺ يتعوذ بالله من سمعه وبصره وقلبه وهنيته[2]، وقال: «النساء

---

(١) أخرجه ابن عدي في الكامل ١٩٥٦/٥ في ترجمة عبد الحميد بن جعفر وقال: إنه ممن يكتب حديثه وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان من حديث فاطمة بنت رسول الله ﷺ ورواه أيضاً مرسلاً من حديث فاطمة بنت الحسين ورجح المرسل الدارقطني ورواه ابن أبي الدنيا وابن عساكر مرسلاً وأبو نعيم في الحلية من حديث عائشة باسناد لا بأس به وله طرق أخرى عن ابن عباس رواه الديلمي في الفردوس رقم الحديث ٣٦٤٧ ورواه الحاكم في المستدرك ٥٦٨/٤ عن عبد الله بن جعفر وصححه وتعقبه الذهبي وانظر تخريج الإحياء ١٦١٠/٤ تحقيق عبد الله بن محمود.

(٢) أبو داود في السنن رقم الحديث ١٥٥١ عن ستير بن شكل بن حميد عن أبيه.

والترمذي: الدعوات رقم ٣٤٩٢ وقال: حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث سعد بن أوس بن بلال بن يحيى، والنسائي رقم ٥٤٨٦ والحاكم في المستدرك ٥٣٣/١ وصححه، والديلمي في الفردوس رقم الحديث ٥٩٧٨ وانظر تخريج الإحياء ١١٩/١..

حبائل الشيطان»[1]، ولولا هذه الشهوة لما كان للنساء سلطة على الرجال، ورُوي أن الشيطان قال للمرأة أنت نصف جندي وأنت سهمي الذي أرمي به فلا أخطىء وأنت موضع سري وأنت رسولي في حاجتي، فنصف جنده الشهوات والنصف الآخر هو الغضب.

ثم إن هذه الشهوة لها إفراط وتفريط واعتدال فهذه ثلاث حالات:

الحالة الأولى: الإفراط وهو كل ما يقهر العقل ويخرجه عن حد الإستقامة حتى يصرف همّه الرجل إلى وطء النساء والجواري فيشغله ذلك عن سلوك طريق الآخرة وعن العبادة ويقهر الدين حتى يجر ذلك إلى اقتحام الفواحش وملابسة المحظورات وقد ينتهي إفراطها بأقوام إلى أمرين شنيعين: **أحدهما**: أن يتناولوا ما يقوي شهواتهم لاستكثار الوقاع كما يتناول بعض الناس أدوية تقوي المعدة لشهوة الطعام وما مثل ذلك إلا كمثل من بلي بسباع ضارية فتنام عنه في بعض الأوقات فيحتال في إثارتها وتهييجها، ثم يشتغل بعلاجها وإصلاحها فإن شهوة الطعام والوقاع على التحقيق أمر يريد الإنسان الخلاص منه فيطلب سبب الخلاص، وثانيهما: أنه قد تنتهي هذه الشهوة ببعض الضُلال إلى العشق وهو غاية الجهل في إفراط المحبة لما وُضع له الوقاع وهو مجاوزة في البهيمية لحد البهائم، لأن العاشق ليس يقنع بإراقة شهوة الوقاع التي هي أقبح الشهوات حتى اعتقد أن شهوته لا تقضي إلا من محل واحد والبهيمة تقضي الشهوة كيفما اتفق وأين ما اتفق فتكتفي به، وهذا لا يكتفي إلا بواحد معين حين يزداد ذلاً إلى ذلٍ وعبودية إلى عبودية، وحتى يكون العقل موطوءاً بقدم الشهوة وقد خلق الإنسان لأن يكون مطاعاً ولا يكون خادماً، والعشق هو المحبة وهو مرض القلب الفارغ الذي لاهمة له ولا هو مشغول إلا بمعشوقه، وعلاجه إنما يكون في أوائله بترك المعاودة للفكر والنظر، فأما بعد استحكامه فإنه يعسر دفعه.

الحالة الثانية: التفريط وهذا إنما يكون بالضعف والعجز بالعفة عن إتيان المنكوحة، وهذا أيضاً مذموم في الرجال لأن فيه انقطاع النسل، وعلاج ما هذا حاله قد يمكن دواؤه، وقد يكون خلقة ولا يمكن دواؤه.

الحالة الثالثة: الاعتدال في الطبع وهو محمود، فمتى كانت الشهوة مطيعة للعقل

---

(١) أخرجه الأصبهاني في الترغيب والترهيب من حديث خالد بن معبد الجهني، والقضاعي في مسند الشهاب من حديث زيد بن خالد، والتيمي في الترغيب والترهيب وأبو نعيم في الحلية والحديث ضعيف لأن في إسناده مجهولين. انظر تخريج الإحياء ٣/١٢٦، ٤/١٦١٥ تحقيق عبد الله بن محمود.

والشرع في انبساطها وانقباضها كان ذلك موافقاً لقانون الشرع وحكمه ، ومهما أفرطت فكسرها يكون بـ جـ ع والنكاح ، ولهذا قال ﷺ : «معاشر الشباب عليكم بالباءة فمن لم يستطع فعليه بالصوم فإن الصوم له وجاء»[1] والله أعلم .

الإيضاح الخامس
في بيان فضيلة من يخالف شهوة الفرج والعين

اعلم أن هذه الشهوة أعظم الشهوات على الإنسان وأعصاها عند الهيجان على العقل لأن مقتضاها قبيح يستحى منه ويخشى من اقتحامه ، وامتناع أكثر الناس من مقتضاها إما لعجز أو لخوف الحياء أو المحافظة على حشمته ، وليس في شيء من ذلك ثواب فإنه إيثار حظ من حظوظ النفس على حظ، نعم من العصمة أن لا يقدر ففي العوائق فائدة وهي دفع الآثام ، فإن من ترك الزنا اندفع عنه إثمه بأي سبب كان تركه وإنما الفضل والثواب الجزيل في تركه خوفاًلله تعالى مع القدرة وارتفاع الموانع وتيسير الأسباب لا سيما عند صدق الشهوة ، وهذه هي درجة الصديقين ، وقال ﷺ : «سبعة يظلهم الله تعالى يوم لا ظل إلا ظله وعدّ منهم رجلاً دعته امرأة ذات حسن وجمال إلى نفسها ، فقال : «إني أخاف الله رب العالمين»[2] وقصة يوسف عليه الصلاة والسلام وامتناعه عن زليخا مع القدرة عليها ورغبتها معروفة ، وقد أثنى الله عليه بذلك في كتابه الكريم وهو إمام كل من وقف لمجاهدة الشيطان في غلبة هذه الشهوة العظيمة ، فهذا أفضل من تمكن من قضاء هذه الشهوة فعف ، يقرب منه من تمكن من شهوة العين فإن البطن مبدأ الزنا فحفظه مهم ، وهو يسير من حيث إنه قد يستهان به ولا يعظم الخوف فيه والآفات كلها تنشأ منه والنظرة الأولى إذا لم يقصد لم يؤاخذ بها ، والمعاودة يؤاخذ بها قال ﷺ : «الأولى لك وعليك الثانية»[3] يعني النظرة .

وقال العلاء بن زياد لا تتبع بصرك رداء المرأة فإن النظر يجعل في القلب شهوة ،

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ الطبراني في الأوسط مجمع الزوائد والضياء في المختارة من حديث أنس وللبخاري من حديث بلفظ يا معاشر الشباب من استطاع رقم الحديث ٩٦٧ ومسلم رقم الحديث ١٤٠٠ وأحمد في المسند ١/٣٧٨، ٤٢٤ انظر تخريج الإحياء ٣/١٢٦ .

(٢) مسلم : الزكاة رقم الحديث ١٠٣١ عن أبي هريرة وأبي سعيد معاً، الترمذي رقم ٢٣٩١ عن أبي هريرة وأحمد المسند ٢/٢٣٩ عنه .

(٣) الترمذي الأدب رقم ٢٧٧٧ وقال غريب لا نعرفه إلاّ من حديث شريك وهو من حديث بريرة عن أبيه وأبو داود في السنن النكاح رقم الحديث ٢١٤٩ .

وقلّ ما يخلو الإنسان في تردداته عن وقوع النظر على النساء والصبيان ، ومهما تخيل إليه الحُسن تعاطى الطبع المعاودة ، وعنده ينبغي أن يقرر على نفسه أن هذه المعاودة عين الجهل لأنه إن حقق النظرة واستحسن ثارت الشهوة وعجز عن الوصول ولا يحصل له إلا التحسر ، وإن استقبح لم يتلذذ ويأثم لأنه قصد التلذذ فقد فعل ما إليه قصد ، والذي يتعلق بقدرته فلا يخلو في كل حالته عن المعصية وعن ألم وتحسر ، ومهما حفظ العين بهذه الطريق اندفع عن قلبه كثير من الآفات وإن أخطأ في عينه وحفظ فرجه مع التمكن فذلك يستدعي غاية الهداية ونهاية التوفيق .

الباب الثالث

في بيان آفات اللسان

إعلم أن اللسان من نعم الله العظيمة ولطائف صنعه القويمة، فإنه صغير جرمه وعظيمة طاعته وجرمه إذ لا يتبين الكفر والإيمان إلا بشهادة اللسان وهما غاية الطاعة والطغيان، ثم إنه ما من موجود ومعدوم خالق أو مخلوق متخيل أو معلوم أو مظنون أو موهوم إلا واللسان يتناوله ويتعرض له بإثبات أو نفي إما بحق أو باطل، فهذه خاصة لا توجد في سائر الأعضاء، فإن العين لا تصل إلى غير الألوان والصور، والأذن لا تصل إلى غير الأصوات، واليد لا تصل إلى غير الأجسام، فأما اللسان فهو رحب الميدان ليس له مرد ولا لمجاله منتهى وحد، فله في الخير مجال رحب وله في الشر سحب، فمن أطلق اللسان سلك به الشيطان في كل ميدان، ونحن بتوفيق الله تعالى نذكر فضيلة الصمت أولاً ثم نذكر الآفات المتعلقة باللسان فهذان مطلبان.

المطلب الأول
في بيان فضيلة الصمت

ويحصل ذلك من جهتين:

الجهة الأولى:

من جهة الأخبار، إعلم أن خطر اللسان عظيم ولا نجاة من خطره إلا بالصمت، فلهذا مدح الشرع الصمت وحث عليه فقال ﷺ: «من صمت نجا»[1] وقال: «الصمت

(١) الترمذي السنن صفة القيامة رقم الحديث ٢٥٠١ وقال غريب من حديث عبد الله بن عمرو واسناده ضعيف ورواه الداري في السنن الرقائق ٢/١٩٩ وابن المبارك في الزهد ص ١٣٠ رقم ٣٨٥ والطبراني في الأوسط رقم الحديث ١٩٥٤ وأحمد في المسند ٢/١٥٩ ورواه أبو نعيم في الحلية ٤/٥ وابن أبي الدنيا في الصمت ص ٣٨ رقم الحديث ١٠ والعسكري في الأمثال والبيهقي في شعب الإيمان ومدار الحديث على عبد الله بن لهيعة لكن قال المنذري في الترغيب =

حكم وقليل فاعله»[1] أي هو حكمة وحزم، وروي عن سفيان قال: قلت يا رسول الله «أخبرني عن الإسلام بأمر لا أسأل عنه أحداً بعدك، قال: قل آمنت بالله ثم استقم، قلت: فما أتقي؟ فأومأ بيده إلى لسانه[2]، وقال عقبة بن عامر: قلت يا رسول الله ما النجاة؟ قال: «أملك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك»[3]، وقال الرسول ﷺ: «من يتكفل لي ما بين لحييه ورجليه أتكفل له بالجنة»[4]، وقال ﷺ: «من وقي شر قبقبه وذبذبه ولقلقه فقد وقي»[5]، والقبقب: النظر، والذبذب: الفرج، واللقلق: اللسان، فهذه الشهوات الثلاث بها يهلك أكثر الخلق، ولهذا اشتغلنا بذكر آفات اللسان لما فرغنا من ذكر الشهوتين البطن والفرج، وسئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الجنة، فقال: «تقوى الله وحسن الخلق»[6]، وسئل عن أكثر ما يدخل النار، قال:

= ٩/٤ رواه الطبراني ورجاله ثقات ومثله قال العراقي في تخريج الإحياء ٧/٤٤٩ والصحيح للألباني رقم الحديث ٥٣٦.

(١) رواه ابن المبارك في الزهد ص ٢٨٩ رقم ٨٤١ وابن أبي عاصم في الزهد ص ٢٧ بسند صحيح إلى طاووس والديلمي في الفردوس رقم الحديث ٣٨٥١ من حديث ابن عمرو بسند ضعيف، والبيهقي في شعب الإيمان من حديث أنس بإسناد صحيح، وابن حبّان في روضة العقلاء ص ٢٨ وذكره من قول لقمان وانظر إتحاف السادة المتقين شرح إحياء علوم الدين ٧٠/٤٤٩.

(٢) مسلم في صحيحه الإيمان رقم الحديث ٦٢ جامع أوصاف الإسلام عن بن عبد الله الثقفي والترمذي في السنن الزهد رقم الحديث ٢٤١٠ وصححه في السنن ٢/٢٩٨، وابن ماجة في السنن رقم ٣٩٧٢ وأحمد في المسند ٣/٤١٣، وابن حبان انظر موارد الظمآن ص ٦٣٢ رقم ٢٥٤ وابن أبي الدنيا في الصمت ص ٣٥ رقم ١، ٧ والطيالسي في مسنده ٢/٦٤ رقم ٢٢٠٥، وعبد الرزاق في المصنف ١١/١٢٨ رقم ٢٠١١.

(٣) الترمذي رقم الحديث ٢٤٠٦ وأحمد في المسند ٥/٢٥٩ وابن أبي الدنيا في الصمت ص ٣٥ رقم الحديث ٢ وللطبراني نحوه في الأوسط رقم الحديث ٢٣٦١ عن شرحبيل بن مسلم والحديث حسنه الترمذي ولكنه ضعيف الإسناد لأن فيه علي بن يزيد الألهاني وهو ضعيف، ضعفه الحافظ في تقريب التهذيب ص ٤٠٦.

(٤) أخرجه البخاري بلفظ من تضمن لي... أضمن له الجنة عن سهل بن سعد في الرقاق ٨/٣٥ الفتح وفي المحاربين ٨/٢٠٣ والترمذي في السنن الزهد رقم الحديث ٢٤٠٨ وقال حسن صحيح غريب.

وأحمد في المسند ٥/٣٣٣ وابن حبان في صحيحه وهو في موارد الظمآن ص ٦٣٠ رقم الحديث ٢٥٤٦ والحاكم في المستدرك ٤/٣٥٨ وصححه، وابن أبي الدنيا في الصمت ص ٣٦ رقم ٣ وهذا اللفظ له، والطيالسي في المسند ٢/٦٥ رقم ٢٢١٢.

(٥) الديلمي في الفردوس رقم الحديث ٥٩٧٨ من حديث أنس بسند ضعيف والبيهقي في شعب الإيمان وابن أبي الدنيا في الصمت ص ٣٦ رقم ٣ وفي ص ٤٢ رقم ٢ وإسناده حسن وأخرجه الحاكم في المستدرك ٤/٣٥٧ نحوه وابن حبان في صحيحه ٧/٣٨٤ عن أبي هريرة نحوه والترمذي نحوه عن أبي هريرة وحسنه رقم الحديث ٢٤٠٩.

(٦) الترمذي في البر والصلة رقم الحديث ٢٠٠٤ وقال صحيح غريب وأحمد في المسند ٢/٢٩١، ٣٩٢، ٢٤٤٢ وابن ماجه في السنن رقم الحديث ٤٢٤٦ وابن حبان في صحيحه وهو في موارد الظمآن ص ٤٧٥ رقم ١٩٢٣ وابن أبي الدنيا في الصمت ص ٣٦ رقم ٤ والحاكم في المستدرك ٤/٣٢٤ وصححه والبخاري في الأدب المفرد ص ١٠٨ رقم ٢٨٩ ص ١١٠ رقم ٢٩٤ والجميع عن أبي هريرة وانظر فتح الباري ١٠/٤٥٩.

«الأجوفان الفم والفرج»[1]، والفم يحتمل أن يكون المراد به اللسان لأنه محله، ويحتمل أن يراد به البطن لأنه منفذه.

وقال معاذ بن جبل، يا رسول الله أنؤاخذ بما نتكلم به، فقال: «ثكلتك أمك يا ابن جبل وهل يكب الناس على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم»[2]، وقال أنس بن مالك قال رسول الله ﷺ: «لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه، ولا يدخل الجنة رجل لا يأمن جاره بوائقة»[3]، وقال رسول الله ﷺ: «من سره أن يسلم فليلزم الصمت»[4]، وعن سعيد بن جبير مرفوعاً إلى الرسول ﷺ أنه قال: «إذا أصبح ابن آدم أصبحت الأعضاء كلها تناشد اللسان بأن تقول اتق الله فينا فإنك إن استقمت استقمنا وإن أعوججت أعوججنا»[5]، وعن أبي بكر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ليس شيء من الجسد إلا يشكو إلى الله اللسان على حدته»[6].

---

(١) أخرجه الترمذي السنن رقم الحديث ٢٠٠٤ وهو جزء من الحديث الذي قبله وابن ماجه السنن رقم الحديث ٤٢٤٦ وابن أبي الدنيا في الصمت ص ٣٦ رقم ٤ الجميع أخرجوه من حديث أبي هريرة.

(٢) الترمذي السنن الإيمان رقم الحديث ٢٦١٦ وقال حديث حسن صحيح، وابن ماجه رقم الحديث ٢٩٧٣ أحمد في المسند ٢٣١/٥، ٢٣٧ والطيالسي في المسند ٦٤/٢، ٦٥ رقم ٢٢٠٧ والحاكم في المستدرك ٢٨٦/٤ ـ ٢٨٧ وصححه على شرط مسلم.

(٣) أحمد في المسند ١٩٨/٣ نحوه والبيهقي في شعب الإيمان وابن أبي الدنيا في الصمت ص ٣٨ رقم ٩ وفيه علي بن مسعدة الباهلي وقال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ٣ /١٣٨ رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق، وانظر مجمع الزوائد ١٠ /٥٣ وقال الهيثمي فيه علي بن مسعدة وثقه جماعة وضعفه آخرون.

(٤) الطبراني في الأوسط رقم الحديث ١٩٥٥ وأبو يعلى في مسنده وفيه عثمان بن عبد الرحمن مجمع الزوائد ٢٩٨/١٠. ورواه البيهقي في شعب الإيمان من حديث أنس وابن أبي الدنيا في الصمت ص ٣٩ رقم ١١ وأبو الشيخ في فضائل الأعمال وانظر تخريج الإحياء ١٣٨/٣ واتحاف السادة المتقين ٤٥١/٧ والحديث ضعيف وفي رواته مجهولون.

(٥) الترمذي الزهد رقم الحديث ٢٤٠٧ من حديث أبي سعيد مرفوعاً وموقوفاً وقال في الموقف هذا أصح وقال هذا حديث لا نعرفه إلا من حديث حماد بن زيد وقد رواه غير واحد عن حماد بن زيد ولم يرفعوه. ورواه أحمد في الزهد ص ١٩٥ والطبالي في المسند رقم الحديث ٢٢٠٩ وقال صاحب إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين ٤٥١/٧ رواه ابن خزيمة وصححه ورواه البيهقي.

(٦) رواه مالك في الموطأ ص ٦١١ رقم ١٢ باب ما تجاف من اللسان كتاب الكلام، وأحمد في الزهد ض ١١٢ وابن السني في عمل اليوم والليلة ص ٧ رقم الحديث ٧، وأبو يعلى الموصلي رقم الحديث ٥ وانظر مجمع الزوائد ٣٠٢/١٠ وقال الهيثمي رجاله رجال الصحيح، وابن أبي الدنيا في الصمت ص ٣٩ رقم ١٣ الجميع من حديث عن بكر وقال الدارقطني في العلل المرفوع وهم فيه وروي هذا عن قيس بن أبي حازم عن أبي بكر ولا علة له وانظر تخريج الأحياء ١٣٨/٣ والصحيحة للألباني رقم الحديث ٥٣٥ وصحح الحديث ونقل عن ابن كثير أن إسناده جيد.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه كان على الصفا يلبي ويقول: يا لسان قل خيراً تغنم واسكت عن شر تسلم من قبل أن تندم، قيل يا أبا عبد الرحمن هذا شيء تقوله أو سمعته من رسول الله ﷺ، قال بل سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أكثر الخطايا من ابن آدم في لسانه»[١]، وقال ابن عمر رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «من كف لسانه ستر الله عورته ومن ملك غضبه وقاه الله عذابه، ومن اعتذر إلى الله قبل الله عذره»[٢]، وروى معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال يا رسول الله أوصني فقال: «أعبد الله كأنك تراه واعدد نفسك في الموتى، وإن شئت أنبأتك بما هو أملك لك من هذا كله وأشار إلى لسانه»[٣]، وعن صفوان بن سليم قال، قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأيسر العبادة وأهونها على البدن الصمت وحسن الخلق»[٤]، وقال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»[٥].

وعن الرسول ﷺ «رحم الله عبداً تكلم فصمت أو سكت فسلم»[٦]، وقيل لعيسى

---

(١) رواه الطبراني بإسناد رجال الصحيح. انظر مجمع الزوائد ١٠/٢٩٩ - ٣٠٠ والبيهقي في شعب الإيمان بسند حسن، تخريج الإحياء ٣/١٣٨ وابن أبي الدنيا في الصمت ص ٤١ رقم ١٨، ورواه أبو الشيخ في الثواب بإسناد حسن وابن عساكر واسناده جيد انظر الترغيب للمنذري ٤/٨ والصحيحة للألباني رقم الحديث ٥٣٤.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الغضب عن أنس وفي الصمت ص ٤٢ رقم ٢١ عن ابن عمر ورواه أبو يعلى والطبراني في الأوسط انظر مجمع الزوائد ٨/٦٨، ٧١، والمطالب العالية ٣/٢٢٥ وميزان الاعتدال ١/٦٢٨ ورواه ابن أبي عاصم في الزهد ص ٢٧ رقم ٤٧ والخرائطي في مساوىء الأخلاق وأبو نعيم في أخبار أصفهان ٢/١١١ والبيهقي مرفوعاً وموقوفاً عن أنس وقال المنذري في الترغيب ٣/٥٢٥ الصواب الموقوف والحديث فيه خالد بن برد العجلي مجهول والراوي عنه عبد السلام بن هاشم منكر الحديث، وقال الألباني في الضعيفة رقم الحديث ٥٨٨ موضوع.

(٣) الطبراني في الكبير عن أبي الدرداء انظر مجمع الزوائد ٢/٤٠ وفيه رجل مجهول وفي المجمع ٤/٢١٨ قال رواه الطبراني وفيه انقطاع لأنه من رواية أبي سلمة عن معاذ وهو لم يدرك معاذاً، وعن معاذ أيضاً أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت ص ٤٢ رقم ٢٢ والبيهقي في الشعب ولأبي نعيم في الحلية نحوه عن زيد بن أرقم.

(٤) ابن أبي الدنيا في الصمت ص ٤٣ رقم ٢٧ عن صفوان بن سليم مرسلاً ورجاله ثقات وأبو الشيخ في طبقات المحدثين باصبهان عن أبي الدرداء وعن أبي ذر مرفوعاً بسند ضعيف انظر شرح الإحياء إتحاف السادة ٧/٤٥٢.

(٥) متفق عليه من حديث أبي هريرة البخاري في الأدب ٨/١٣ الفتح وفي إكرام الضيف ٨/٣٩ وفي الرقاق حفظ اللسان ٨/١٢٥ ومسلم في الإيمان رقم ٧٤ والترمذي رقم الحديث ١٩٦٧ البر والصلة وفي صفة القيام رقم الحديث ٢٥٠٠ وابن ماجة رقم ٢٦٧٢ والدارمي الأطعمة والضيافة ٢/٩٨ ومالك في صفة النبي ﷺ رقم الحديث ٥٧٨ وأحمد في المسند ٤/٣١ وابن أبي الدنيا في الصمت ص ٤٨ رقم ٤٢.

(٦) الزهد لأحمد ص ٢٧٧ عن الحسن البصري وابن أبي الدنيا في الصمت ص ٤٨ رقم ٤١ والبيهقي في شعب الإيمان من حديث أنس بسند ضعيف فيه إسماعيل بن عباس ومرسلاً عن الحسن، ورواه الطبراني انظر مجمع الزوائد ١٠/٢٩٩ - ٣٠٠ وفيه عفير بن معدان، وانظر إتحاف السادة المتقين ٧/٤٥٢.

صلوات الله عليه : دلنا على عمل ندخل به الجنة قال : «لا تنطقوا أبداً قالوا : لا نستطيع ذلك ، قال : فلا تنطقوا إلا بخير»[1]، وقال سليمان بن داود عليه السلام : «إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب»[2]، وقال ﷺ : «إن الله عند لسان كل قائل فليتق الله أمرؤ فيما يقول»[3] وقال ﷺ : «إذا رأيتم المؤمن صموتاً وقوراً فادنوا منه فإنه يلقن الحكمة»[4]، وقال ابن مسعود قال رسول الله ﷺ : «الناس ثلاثة غانم وسالم وشاجب ، فالغانم الذي يذكر الله تعالى ، والسالم الساكت ، والشاجب الذي يخوض في الباطل»[5] ، وقال النبي ﷺ : «إن لسان المؤمن وراء قلبه فإذا أراد أن يتكلم بشيء تدبره بقلبه ثم أمضاه بلسانه ، وإن لسان المنافق أمام قلبه فإذا هم بالشيء أمضاه بلسانه ولم يتدبره بقلبه»[6].

الجهة الثانية : الآثار ، كان أبو بكر رضي الله عنه يضع حجراً في لسانه يمنعه من الكلام وكان يشير إلى لسانه ويقول هذا أوردني الموارد ، وقال ابن مسعود رضي الله عنه : «والله الذي لا إله إلا هو ما شيء أحوج إلى طول سجن من لساني» ، وقال طاووس : «لساني سبع إن أطعته أكلني» وقال وهب بن منبه في حكمة آل داود : «حق على العاقل أن يكون عارفاً بزمانه حافظاً للسانه مقبلاً على شأنه» ، وقال الأوزاعي كتب إلينا عمر بن عبد العزيز : «أما بعد فإنه من أكثر ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير ومن عد كلامه من عمله قل كلامه فيما لا يعنيه»، وقال بعضهم : «الصمت يجمع خصلتين للرجل ، السلامة في دينه والفهم عن صاحبه» وقال محمد بن واسع لمالك بن دينار : «يا

---

(١) الإحياء.

(٢) الإحياء.

(٣) ابن المبارك في الزهد ص ١٢٥ رقم ٣٦٧ والقضاعي في مسند الشهاب ٢/١٦٩ وأبو نعيم في الحلية ٨/٣٥٢ والخطيب في تاريخ بغداد ٩/٤٤ الجميع عن عمر بن أبي ذر عن أبيه أبي ذر ومن حديث ابن عباس رواه البيهقي في شعب الإيمان والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ٩/٣٢٩ وأبو نعيم من حديث ابن عمر الحلية ٨/١٦٠ وهو حديث ضعيف انظر الأحاديث الضعيفة للألباني رقم الحديث ١٩٥٣ .

(٤) ابن ماجه رقم الحديث ٤١٠١ من حديث خلاد وأبو نعيم في الحلية ١٠/٤٠٥ عنه والبيهقي في شعب الإيمان من حديث أبي هريرة.

(٥) أبو يعلى في مسنده والطبراني في الكبير من حديث أبي سعيد ولهما من حديث عقبة بن عامر وفي إسناده عبد الله بن لهيعة وهو ضعيف. ولأحمد في المسند ٣/٧٥ نحوه من حديث أبي سعيد بلفظ المجالس ثلاثة وقال العراقي في تخريج الإحياء ٣/١٣٩ ضعفه ابن عدي وقال أيضاً لم أجده من حديث ابن مسعود.

(٦) قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ٣/١٣٩ لم أجده مرفوعاً وقال رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق مرسلاً عن الحسن البصري ورواه ابن أبي الدنيا وانظر إتحاف السادة المتقين شرح إحياء علوم الدين ٧/٤٥٥ .

أبا يحيى حفظ اللسان أشد على الناس من حفظ الدنانير والدراهم» ، وقال يونس بن عبيد: «ما من الناس أحد يكون لسانه منه على بال إلا رأيت صلاح ذلك في سائر عمله»، وقال الحسن: كانوا يتكلمون عند معاوية والأحنف ساكت، فقالوا: ما لك لا تتكلم يا أبا الحسن، قال: أخشى الله إن كذبت وأخشاكم إن صدقت.

وقال أبو بكر بن عياش: اجتمع أربعة ملوك ، ملك الهند وملك الصين وكسرى وقيصر، فقال أحدهم : أنا أندم على ماقلت ولا أندم على ما لم أقل ، وقال الآخر: إني إذا تكلمت بكلمة تملكني ولا أملكها وإذا لم أتكلم ملكتها ولم تملكني ، وقال الثالث : عجبت للمتكلم إن رجعت إليه كلمته ضرته وإن لم ترجع إليه لم تنفعه ، وقال الرابع : أنا على رد ما لم أقل أقدر مني على رد ما قلت(١).

فإن قال القائل : فهذا الفضل الكثير للصمت ما سببه؟ قلت : نعم إن سببه كثرة آفات اللسان من الخطأ والكذب والغيبة والنميمة والرياء والنفاق والفحش والمراء وإيذاء الخلق والسعي بالكلام وغيرها ، فهذه آفات كثيرة وهي سبّاقه إلى اللسان ولا تثقل عليه ولها حلاوة في القلب وعليها بواعث من الشيطان ، إلا على من وفقه الله تعالى وعلم منه صدق نية فأعانه على أمره ، وقيل إن المنصور بن المعتمد لم يتكلم بعد العشاء الآخرة أربعين سنة ، والربيع بن خثيم ما تكلم بكلام الدنيا عشرين سنة .

المطلب الثاني
في بيان آفات اللسان

ونحن نوردها واحدة واحدة ونبدأ بالأهم فالأهم من أخطارها والله الموفق للصواب :

الآفة الأولى: الغيبة ، والنظر فيها طويل لاشتمالها على تفاصيل ودقائق وهي مشتملة على تنبيهات ستة :

التنبيه الأول : في بيان معناها ، واعلم أن حد الغيبة هو أن تذكر أخاك بما يكره لو بلغه سواء كان نقصاناً في بدنه أو سنه أو في خلقه أو في فعله أو قوله أو دينه وحتى في ثوبه وداره ودابته ، فأما البدن فكأن يقول إنه أعمش أو أعمى أو أحول أو أعور، وهكذا القصر والطول والسواد والصفرة والحمرة وجميع ما يتصور أنه يكرهه ، وأما النسب فنحو أن يقول إن أباه نبطي أو هندي أو فاسق أوخسيس أو إسكاف أو شيء مما يكرهه ، وأما

---

(١) الإحياء ٣/ ١٣٩ .

الخلق فنحو أن يقول إنه بخيل أو سيىء الخلق أو مرآء أو شديد الغضب أو جبان أو عاجز أو ضعيف القلب ، وأما الفعل فنحو أن يقول إنه سارق أو كذاب أو شارب الخمر أو خائن أو ظالم أو متهاون بالصلاة ولا يحسن الصلاة في ركوعها وسجودها ولا يضع الزكاة مواضعها ولا يحرس صومه عن الرفث والتعرض لأعراض الناس .

وأما فعله المتعلق بالدنيا فهذا كقولك هو قليل أدب يتهاون بالناس ولا يرى لأحد حقاً ويرى لنفسه حقاً وأنه كثير الكلام والأكل وأنه نؤوم في غير وقته ويجلس في غير موضعه ، وأما ثوبه فإنه واسع الكم طويل الذيل وسخ الثياب ، وهل يجوز غيبة الفاسق أم لا فيه تردد ، فقال قوم يجوز لقوله ﷺ : «أذكروا الفاسق بما فيه كي يحذره الناس»[1] ، وقال آخرون : لا يجوز غيبته وهذا هو المختار لأن الإجماع منعقد من جهة الأمة على أن كل من ذكر غيره بما يكرهه فهو مغتاب له ويؤيده ما روي عن الرسول ﷺ : هل تدرون ما الغيبة؟ قالوا : الله ورسوله أعلم قال : «الغيبة ذكرك أخاك بما يكرهه» قيل : أرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال : «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه فقد بهته»[2] ، وعن الحسن البصري أنه قال : ذكر الغير ثلاثة أقسام الغيبة والبهتان والإفك والكل في كتاب الله تعالى ، الغيبة أن تقول ما فيه ، والبهتان أن تقول ما ليس فيه ، والإفك أن تقول ما بلغك .

التنبيه الثاني : في ذم الغيبة وظهور ذلك يكون من جهات ثلاث ، الجهة الأولى : في كتاب الله تعالى : ﴿ **ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه** ﴾ (الحجرات : ١٢) وقد نبه الله تعالى في الآية على مكروهات ثلاث النهي بقوله : ﴿ **ولا يغتب بعضكم بعضاً** ﴾ (الحجرات : ١٢) وتشبيهه بأكل اللحم الميت وما هذا حاله فهو من أخبث المأكولات ومنها الكراهية بقوله : «فكرهتموه» .

الجهة الثانية : من جهة الأخبار وقد روى أبو هريرة عن الرسول ﷺ أنه قال : «لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يغتب بعضكم بعضاً وكونوا عباد الله إخواناً»[3] ،

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في الصمت ص ١٢٨ رقم ٢٢٠ والبيهقي في السنن ١٠/ ٢١٠ وابن عدي في الكامل ٢/ ٥٩٥ وأبو يعلى والحاكم في الكنى والشيرازي في الألقاب والخطيب في تاريخ بغداد من حديث معاوية بن حيدة والطبراني عن عائشة انظر الجامع الكبير ١/ ١٥ .

(٢) مسلم في صحيحه البر والصلة رقم الحديث ٢٥٨٩ والترمذي رقم ١٩٣٤ وصححه ٢/ ٢٩٩ وأحمد في المسند ٢/ ٢٣٠ ، ٣٨٤ ، ٣٨٦ ، ٤٥٨ وأبو الشيخ في التوبيخ رقم الحديث ١٩٦ الجميع عن أبي هريرة .

(٣) متفق عليه من حديث أبي هريرة دون قوله ولا يغتب بعضكم بعضاً البخاري الأدب رقم الحديث ٦٠٦٤ عن أبي =

وعن الرسول ﷺ أنه قال: «إياكم والغيبة فإن الغيبة أشد من الزنا إن الرجل قد يزني فيتوب الله عليه، وإن صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه»[1]، وقال أنس بن مالك قال رسول الله ﷺ: «مررت بقوم ليلة أسري بي وهم يخمشون وجوههم بأظافيرهم فقلت: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الذين يغتابون الناس ويقعون في أعراضهم»[2]، وقال سليمان بن جابر أتيت رسول الله ﷺ فقلت: علمني خيراً ينفعني الله به، فقال: «لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تصب دلوك في إناء المستسقي وألق أخاك ببشر وحسن خلق وإذا أدبر فلا تغتبه»[3]، وقال البراء: خطبنا رسول الله ﷺ فأسمع العواتق في بيوتهن فقال: «يا معشر المسلمين من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإن من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته يفضحه في جوف بيته»[4]، وأوحى الله عز وجل إلى موسى أنه من مات تائباً من الغيبة فهو آخر من يدخل الجنة، ومن مات مصراً عليها فهو أول من يدخل النار.

الجهة الثالثة: الآثار قال أبو هريرة: من أكل لحم أخيه في الدنيا قرب إليه لحمه في الآخرة فقيل له: كله ميتاً كما أكلته حياً[5]، وعن مجاهد قال: ﴿ **ويل لكل همزة**

هريرة وعن أنس رقم ٦٠٦٧ وانظر الفتح ٤٩٦/١٠ ومسلم البر والصلة رقم ٣٠ ـ ٣٢ والترمذي البر والصلة رقم ١٩٣٥ وأبو داوُد رقم ١٩١٠ عن أنس.

(١) ابن أبي الدنيا في ذم الغيبة وفي الصمت ص ١٠٤ رقم ١٦٤ والطبراني في الأوسط انظر مجمع الزوائد ٩١/٨ - ٩٢، وابن حبان في الضعفاء ١٦٨/٢ وأبو الشيخ في التوبيخ رقم الحديث ١٧١ وابن مردويه في تفسيره والبيهقي في الشعب عن جابر وأبي سعيد انظر الدر المنثور ٩٧/٦ وإتحاف السادة المتقين ٥٣٣/٧ والحديث فيه عباد بن كثير متروك وانظر ضعيف الجامع للألباني رقم الحديث ٢٢٠٣ والضعيفة رقم ١٨٤٦.

(٢) أحمد في المسند ٢٢٤/٣، أبو داوُد رقم الحديث ٤٨٧٨ مسنداً ومرسلاً والمسند أصح، وابن أبي الدنيا في الصمت رقم ١٦٥، ٥٧٢.

(٣) أحمد في المسند ٣٤٤/٣، ٣٦٠، ٤٨٣ وأبو داوُد رقم الحديث ٤٠٨٤ وروي الترمذي نحوه من حديث جابر رقم الحديث ١٩٧٠ البر والصلة وابن أبي الدنيا في الصمت ص ١٠٤ رقم ١٦٦ عن سليم بن جابر ورواه البيهقي وفي إسناد الحديث ضعيف. انظر تخريج الإحياء ١٧٣٨/٤، وأخرجه مسلم في صحيحه في البر والصلة رقم ١٤٤ من حديث أبي ذر مقتصراً على جملة «لا تحقرن من المعروف شيئاً».

(٤) ابن أبي الدنيا في ذم الغيبة بسند ضعيف فيه مصعب بن سلام صدوق له أوهام وأبو داوُد من حديث أبي هريرة بإسناد جيد رقم الحديث ٥٠٦/٧٤٨٨٠ رقم ٥٧٣٣ عن ابن عمر والترمذي رقم ٢٠٣٢ وقال حسن غريب وابن حبان في صحيحه ورجاله ثقات والطبراني في الكبير عن بريدة وفي الكبير والأوسط وليعلى أيضاً عن البراء انظر مجمع الزوائد ٩٣/٨، ٩٤ وانظر إتحاف السادة المتقين ٤/٧ ـ ٥.

(٥) ابن أبي الدنيا في ذم الغيبة وابن مردوية مرفوعاً وموقوفاً وأبو يعلى وابن المنذر والطبراني في الأوسط رقم ١٦٧٧ من حديث أبي هريرة وفيه محمد بن إسحاق وهو وبقية رجاله ثقات وانظر مجمع الزوائد ٩٢/٨ وتخريج الإحياء ١٧٨/٣.

لمزة﴾ (الهمزة: ١) (الهمزة الطعان في الناس واللمزة الذي يأكل لحوم الناس[1]، وقال قتادة: ذكر لنا عذاب القبر أنه يكون من ثلاث أثلاث ثلث من الغيبة وثلث من النميمة وثلث من البول، وقال الحسن: والله للغيبة أسرع في دين المؤمن من الآكلة في جسمه، وقال بعضهم: أدركنا السلف وهم لا يرون العبادة في الصلاة والصوم ولكن في الكف عن أعراض الناس، وقال ابن عباس: إذا أردت أن تذكر عيوب الناس فاذكر عيوب نفسك، وقال أبو هريرة: يرى أحدكم القذى في عين صاحبه ولا يرى الجذع في عينيه، وكان الحسن البصرى رضي الله عنه يقول: يا ابن آدم إنك لن تصيب حقيقة الإيمان حتى لا تعيب الناس بعيب هو فيك حتى تبدأ بإصلاح ذلك العيب من نفسك فإذا فعلت ذلك كان شغلك في حاجة نفسك وأحب العباد إلى الله من كان هكذا، وسمع علي بن الحسين رضي الله عنه رجلاً يغتاب آخر، فقال له: إياك والغيبة فإنها إدام كلاب النار، وقال عمر رضي الله عنه: عليكم بذكر الله فأنه دواء وإياكم وذكر الناس فإنه داء.

التنبيه الثالث: في بيان الأسباب الباعثة على الغيبة، إعلم أن الأسباب الباعثة على الغيبة كثيرة لحب الناس لها وشغفهم بها، ويجمعها أحد عشر سبباً، ثمانية تطرد في حق العامة، وثلاثة تختص بأهل الدين فأما الثمانية.

فالأول: منها تشفّي الغيظ وذلك أنه إذا جرى سبب غضب به عليه فإذا هاج غضبه يسعى بذكر مساوىء من كان الغضب من جهته: وهكذا حال الحقد إذا كثر الغضب فإنه يبين ذكره بالنقص فصار الحقد والغضب باعثين على نقصه وذكر عيبه.

الثاني: الاستشعار وهذا نحو أن يحس من إنسان بأنه سيقصده بالمضرة فيطول لسانه فيه ويقبح حاله عند الرؤساء والكبراء ويشهد عليه بشهادة فيبادر ذلك بما يطعن في عرضه وإسقاط شهادته أو يبتدىء بذكر ما فيه صادقاً عليه ليكذب عليه بعده فيروح كذبه بالصدق الأول.

الثالث: موافقة الأقران ومجاملة الرفقاء ومساعدتهم على الأرض فإنهم إذا كانوا يتفكهون بذكر أعراض الناس فيرى أنه لو أنكر عليهم اقتطع المجلس واستثقلوه ونفروا فيساعدهم على ذلك من المعاشرة.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الغيبة وانظر إتحاف السادة المتقين ٧/٥٣٦، ٥٣٧.

الرابع : أن ينسب إلى شيىء فيريد أن يبتدىء منه بذكر الذي كان فعله وكان من حقه أن يبرىء نفسه ولا يذكر الذي فعله فلا ينسب غيره إليه .

الخامس : إرادة التصنع والمباهاة وهو أن يرفع نفسه بنقص غيره فيقول فلان جاهل وفهمه ركيك وكلامه ضعيف وغرضه أن يثبت في ضمن ذلك نفسه ويريهم أنه أفضل منه ويحذر أن يعظم مثل تعظيمه فيقدح فيه من أجل ذلك .

السادس : الحسد وهو أنه ربما يحسد من يثني الناس عليه ويحبونه ويكرمونه فيريد زوال تلك النعمة عنه ، فلا يجد سبيلاً إلى زوالها إلا بالقدح فيه فيريد أن يسقط ماء وجهه عند الناس حتى يكفوا عن إكرامه والثناء عليه وإعظامه .

السابع : اللعب والهزل والمطايبة وتزلج الوقت بالضحك فيذكر غيره بما يضحك الناس على سبيل المحاكاة والتعجب والتعجيب والمجون والمزاح المفرط، وهذا غالب على كل من نزلت همته وركت حالته وصار يضحك الناس .

الثامن : السخرية والاستهزاء استحقاراً له فإن ذلك يجري في الحضور ويجري في الغيبة ، ومنشؤه الكبر واستحقار المستهزء به واستصغاره ، فهذه هي الأسباب العامة في الخلق .

وأما الأسباب الثلاثة الخاصة لأهل الدين فهي أعظمها وأدقها لأنها شرور عبأها الشيطان في معرض الخيرات :

فالأول : منها إظهار التعجب وهو أن يقول الرجل ممن يتمسك بالدين ويظهره تعجبت من فلان كيف يحب جاريته وهي قبيحة وكيف يجلس بين يدي فلان وهو جاهل ، وذلك مكروه عند المتعجب منه فيسهل الشيطان له ذكر اسمه في معرض تعجبه فيصير به مغتاباً من حيث لا يدري .

الثاني : الرحمة وهو أن يغتم بسبب ما يبتلي به فلان فيقول مسكين فلان قد غمني أمره وما ابتلي به ، فيكون صادقاً في اغتمامه ويلهيه الغم عن الحذر وعن ذكر اسمه فيذكره فيصير به مغتاباً .

الثالث : الغضب لله تعالى فإنه قد يغضب على منكر قارفه إنسان إذا رآه أو سمعه فيظهر غضبه ويذكر اسمه ، وكان الواجب أن يذكر غضبه ولا يظهر اسمه ولا يذكره بالسوء فذكره باسمه يكون غيبة ، فهذه الأمور الثلاثة مما يغمض دركها على العلماء فضلاً عن العوام ، والاحتراز عن هذه الأمور هو أحوط للدين .

التنبيه الرابع: في بيان العلاج الذي يمنع اللسان عن الغيبة، إعلم أن مساوىء الأخلاق نعوذ بالله منها إنما تعالج بمعجونات العلم والعمل وإنما علاج كل شيء بما يضاده وينافيه، وعلاج الغيبة نستنهج فيه منهاجين إجمالياً وتفصيلياً.

المنهج الأول: ما يكون على جهة الإجمال فهو أن يعلم المغتاب تعرضه لسخط الله تعالى ولائمته بما رويناه من هذه الأخبار وأن يعلم أنها تحبط حسناته وأنها تنقل يوم القيامة حسناته إلى من اغتابه عوضاً عما هتكه من عرضه وهو مع ذلك متعرض لمقت الله ومشبه عنده كمن يأكل الميتة وينقص الثواب والأجر ولا يبعد أن يكون فسقاً عند الله لكثرة ما ورد فيه من الوعيدات الشرعية، وفي الحديث عن الرسول ﷺ: «ما النار في اليبس بأسرع من الغيبة في حسنات العبد»[1]، فمهما آمن العبد بما وردت به الأخبار لم ينطق لسانه بالغيبة خوفاً من ذلك، وينفعه أيضاً أن ينظر في نفسه فإن وجد فيها عيباً اشتغل بعيب نفسه وذكر قوله ﷺ: «طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس»[2]، ومهما وجد عيباً فينبغي أن يستحي من أن يترك نفسه ويذم غيره، وإن لم يجد في نفسه عيباً فليشكر الله تعالى على ذلك ولا يلوثن نفسه بأعظم الذنوب، فإن ثلب الناس وأكل لحم الميتة من أعظم الذنوب وأكبر العيوب، وإذا كان لا يرضى أن أحداً يغتابه فينبغي أن لا يرضى غيبة لأحد من خلق الله، فهذا علاج على الجملة.

المنهج الثاني: ما يكون على جهة التفصيل فطريقه أن ينظر في الأسباب الباعثة على الغيبة التي قدمنا ذكرها فنقررها واحداً بعد واحد، ونسعى في إبطالها كالغضب والحقد والحسد والاستهزاء والعجب وتشفي الغيظ وغير ذلك من الأسباب المهيجة للغيبة كما سيأتي شرح هذه العاهات فيما بعد بمعونة الله تعالى.

دقيقة: أعلم أن الغيبة كما تكون باللسان وهو الأكثر الجاري المطرد فقد تكون أيضاً بالقلب وهو محرم أيضاً كتحريم الغيبة باللسان، فإنه كما يحرم عليك أن تحدث الغير بمساوىء الناس فإنه يحرم عليك أن تحدث نفسك بها وتسيىء الظن بأخيك، ولسنا نعني بذلك الخواطر التي تكون في القلب والوساوس التي تكون في الصدور وميلها، وإنما نعني تحريك الظنون والإرادات والعزوم والأعمال الحاصلة في القلوب فإن

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا عن الحسن موقوفاً تخريج الإحياء ٣/١٨٥ وإتحاف السادة المتقين ٧/٥٤٩.

(٢) البزار من حديث أنس انظر تخريج الإحياء ٤/١٦٤٠ تحقيق أبي عبد الله محمود بن محمد ورواه البغوي وابن قانع في معجمي الصحابة من حديث ركب المصري وابن أبي الدنيا في الصمت ص ٦٩ رقم ٤٣ بنحوه والديلمي في الفردوس رقم الحديث ٣٩٢٩ عن أنس وانظر مجمع الزوائد ١٠/٢٢٩ وقال فيه نصر بن محرز وغيره من الضعفاء.

الإنسان مؤاخذ بذلك كما قال تعالى: ﴿ **اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم** ﴾ (الحجرات: ١٢) فأما الخواطر والوساوس فإن الله عز وجل يعفو عنها ومن ثمرات سوء الظن التجسس فإن القلب لا يقنع بالظن ويطلب التحقيق فيشتغل بالتجسس وهو أيضاً منهي عنه، قال الله جل وعلا: ﴿ **ولا تجسسوا** ﴾ فالغيبة والتجسس وسوء الظن منهي عنها كلها، ومعنى التجسس أن لا يترك عباد الله تحت ستر الله بل يتوصل إلى الإطلاع وهتك الستر حتى ينكشف له ما وراءه ولو تركته على حاله لكان أسلم لقلبك ولدينك.

فقد انكشف لك بما ذكرنا كيفية العلاج لهذه الآفة العظيمة التي كثرت بها البلوى وعظم ضررها على الخلق وصارت عادة يعتادها الأكثر إلا من وفقه الله وعصمه، ومن أعظم البواعث عليها تشفي الغيظ بالمغتاب فتحصل الجرأة على هتك عرضه من أجل ذلك، وقد قال ﷺ: «إن لجهنم باباً لا يدخله إلا من شفى غيظه بمعصية الله تعالى»[١]، وقد قال ﷺ: «من كظم غيظه وهو يقدر على أن يمضيه دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخيره من أي الحور شاء»[٢].

التنبيه الخامس: في بيان الأعذار المرخّصة في الغيبة، إعلم أن الرخص في الغيبة في ذكر مساءة الغير هو غرض صحيح في الشرع لا يمكن التوصل إليه إلا به فيدفع ذلك إثم الغيبة وقبحها وجملتها ستة:

العذر الأول: التظلم فإن كل من ذكر قاضياً بالظلم والخيانة وأخذ الرشوة كان مغتاباً له عاصياً، أما المظلوم من جهة القاضي فله أن يتظلم إلى الإمام وينسبه إلى الظلم ولا حرج عليه في ذلك إذا لم يمكنه استيفاء حقه وقد قال ﷺ: «إن لصاحب الحق سلطاناً»[٣]، وقال: «ليّ الواجد يحل عرضه وعقوبته»[٤].

---

(١) البزار وابن أبي الدنيا وابن عدي في الكامل وفي الشعب من حديث ابن عباس نحوه بإسناد ضعيف انظر أتحاف السادة ١٨٦/٣ والفردوس رقم ٣٩٢٩٩ عن أنس.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه رقم (٤٧٧٧)، والترمذي رقم (٢٠٢٢)، (٣٤٦٥) وحسنه، وابن ماجه في السنن رقم (٤١٨٦)، وأحمد في المسند ١٤٤٠/٣ والطبراني وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في السنن الكبرى ١٦١/٨ الجميع عن أنس، وابن أبي الدنيا في ذم الغضب عن ابن عمر، وانظر إتحاف السادة المتقين ٥٤٩/٧.

(٣) متفق عليه من حديث أبي هريرة. البخاري في الاستقراض من صحيحه رقم (٢٣٩٠) بلفظ «إن لصاحب الحق مقالاً». ومسلم في المساقاة رقم الحديث (٢١٢٠)، (   ) وأحمد في المسند (٢٦٨/٤) و٤١٦ و٤٥٦ من حديث عائشة، انظر إتحاف السادة المتقين (٥٥٥/٧) وقال رواه ابن عساكر من حديث أبي حميد الساعدي، وأبو نعيم من حديث أبي هريرة.

(٤) رواه أبو داود رقم (٣٦٢٨) الأقضية، والنسائي رقم (٤٦٩٤) في البيع، وابن ماجه في الصدقات رقم (٢٤٢٧) =

العذر الثاني: الاستعانة على تغيير المنكر ورد العاصي إلى منهاج الصواب والصلاح كما روي أن عمر بلغه أن أبا جندل قد داوم على الخمر فلا ينفكها فكتب إليه عمر، ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب** ﴾ (الآية غافر: ١ ـ ٣) فتاب ولم ير عمر أن في ذلك غيبة فيمن قاله وحكاه.

العذر الثالث: الاستفتاء كما يقول الواحد قد ظلمني أبي وزوجتي وأخي فكيف طريقي في الخلاص، والأسلم التعريض بأن يقول ما قولك في رجل ظلمه أبوه وأخوه وزوجته، ويجوز التصريح لما روي عن هند أنها قالت للرسول ﷺ: «يا رسول الله إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني أنا وولدي أفآخذ من غير علمه، قال: خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف، فذكرت الشح والظلم ولم يزجرها رسول الله ﷺ عن ذلك»[(١)].

العذر الرابع: تحذير المسلمين عن الشر فإذا رأيت متفقهاً يتردد إلى مبتدع أو فاسق وخفت أن تتعدى إليه بدعته فلك أن تكشف له بدعته وفسقه مهما كان الباعث لك الخوف على سراية البدعة والفسق إليه.

العذر الخامس: أن يكون الإنسان معروفاً بإسم يكشف عن عيبه كالأعرج والأعمش فلا إثم على من يقول ذلك، وروى أبو الزناد عن الأعرج، وروى سليمان عن الأعمش وما يجري مجراه فقد فعل العلماء ذلك لضرورة التعريف لأنه صار بحيث لا يكرهه صاحبه ولو وجد مندوحة عن ذكر ذلك لكان أفضل وأولى.

العذر السادس: أن يكون مجاهراً بالفسق كالمجاهر بالزنا وشرب المسكر والقتل بغير حق، وكان متظاهراً به لا يستنكف أن يذكر به ولا يكره ذلك، فإذا ذكر منه ما يتظاهر به فلا إثم هناك على الذاكر وقد قال ﷺ: «من ألقى جلباب الحياء عن وجهه فلا غيبة

= وأحمد في المسند (٣٨٨/٤، ٣٩٩) والحاكم في المستدرك (١٠٢/٤) وصححه ووافقه الذهبي، وعلقه البخاري في صحيحه في الاستقراض رقم الباب (١٣)، وأخرجه الطبراني في الأوسط (٢١٤/٣) رقم ٢٤٤٩ كلهم عن عمرو ابن الشريد.

(١) متفق عليه من حديث عائشة والبخاري رقم (٥٣٥٩) و ٥٣٦٤ في النفقات وفي الأحكام رقم ٧١٨٠. ومسلم رقم (١٧١٤) كتاب الأقضية بأقضية هند.

له»[1]، وقال عمر: «ليس لفاجر حرمة»[2]، وقال ﷺ: «من تعزى بعزاء الجاهلية فاعضّوه بهن أبيه ولا تكنوا»[3]، فأما إذا لم يكن متظاهراً به فذكره تكون غيبة محرمة. قال عوف دخلت على ابن سيرين فتناولت الحجاج، فقال ابن سيرين: إن الله حكم عدل ينتقم للحجاج ممن اغتابه كما ينتقم من الحجاج للذين ظلمهم، فهذه هي المعاذير المرخصة لذكر النقائص.

التنبيه السادس: في بيان كفارة الغيبة لمن فعلها، اعلم أن الواجب على المغتاب أن يندم ويتوب ويتأسف على ما فعل ليخرج عن حق الله عز وجل ثم يستحل من المغتاب فيحله فيخرج عن مظلمته، وينبغي أن يطلب الحل وهو حزين كئيب متأسف نادم على ما فعله، وحُكي عن الحسن البصري يكفيه الإستغفار دون الإستحلال محتجاً بما رواه عن الرسول ﷺ أنه قال: «كفارة من اغتبت أن تستغفر له»[4]، وقال مجاهد: «كفارة أكلك لحم أخيك أن تثني عليه وتدعو له بخير»[5]، وعن عطاء أنه قال: «تمشي إلى صاحبك وتقول كذبت فيما قلت وظلمتُ وأسأتُ فإن شئت أخذتَ بحقك وإن شئتَ عفوتَ[6]، وهذا هو المختار، وقول القائل العِرض لا عوض له فلا يجب الإستحلال

---

(١) أخرجه الشهاب القضاعي في مسنده (١) ٢٦٣ - ٢٦٤ رقم ٤٢٦ ورقم ٤٢٧) وابن حبان في الضعفاء (١٥٧/٣) في ترجمة أبي سعيد الساعدي.

وابن عدي في الضعفاء في ترجمة أبان بن عياش (٣٧٧/١) والخطيب في تاريخ بغداد (١٧١/٤)، (٤٣٨/٨) والديلمي في الفردوس رقم (٥٩٢٥)، والبيهقي في السنن (١٠/ ١١٠) وفي الشعب وقال: ليس بالقوي.

وأخرجه الخرائطي في مساوىء الأخلاق. وابن عساكر وابن النجار، وأبو الشيخ في كتاب ثواب الأعمال، الجميع عن أبي سعيد الساعدي. عن أنس وسنده ضعيف انظر إتحاف السادة المتقين (٥٥٧/٧) وقال الذهبي في ميزان الاعتدال (٥٢٨/٤) الحديث موضوع، وضعفه الألباني في الأحاديث الضعيفة رقم الحديث (٥٨٥).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في الصمت رقم الحديث (٢٣٢) ص ١٣٠وانظر إتحاف السادة المتقين (٥٥٧/٧) وتخريج أحاديث الإحياء رقم الحديث (٢٧٨٠) لأبي عبد الله محمود بن محمد الحداد.

(٣) أخرجه أحمد في المسند (١٣٦/٥)، وابن حبان في صحيحه (٥/ ٦١) رقم الحديث (٣١٤٣) والنسائي في الكبرى عن أبي ابن كعب، وانظر كشف الخفاء (٢/ ٣٣٢).

(٤) أخرجه الحارث بن أبي أسامة في مسنده، وابن أبي الدنيا في الصمت رقم الحديث (٢٩١) ص ١٦٣، والبيهقي في الشعب وأبو الشيخ في التوبيخ رقم الحديث (٢١) والخرائطي في مساوىء الأخلاق رقم الحديث ٢١١ وابن الجوزي في الموضوعات (١/ ٧٣)، والخطيب البغدادي في التاريخ، وانظر إتحاف السادة المتقين (٥٥٨/٧)، والدُر المنثور للسيوطي (٩٧/٦) واللآلىء (٣٠٣/٢) وحكم الألباني في ضعيف الجامع (٤/ ٩٥) على الحديث بالوضع.

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت رقم (٢٩٣) ص ١٦٣ والبيهقي في الشعب عن عطاء بن أبي رباح وله طرق أخرى، انظر إتحاف السادة المتقين (٥٥٩/٧).

(٦) انظر الإحياء ١٨٦/٣.

بخلاف المال كلام ضعيف إذ وجب في العرض حد القذف وتثبت المطالبة به، وفي الحديث عن الرسول ﷺ أنه قال: «من كانت عنده لأخيه مظلمة في عرض أو مال فليستحللها منه قبل أن يأتي يوم ليس هناك دينار ولا درهم»[1]، وهل يجب التحلل من المظلوم بالغيبة أم لا؟ فيه تردد والأقرب أنه غير واجب ولكنه يستحب والأفضل للمعتذر أن يبالغ في الثناء والإعتذار والتودد ويلازم على ذلك حتى تطيب نفسه، وكان بعض السلف لا يحلل قال سعيد بن المسيّب: «لا أحلل من ظلمني» وقال ابن سيرين: «إني لم أحرمها عليه فكيف أحلله، إن الله حرم الغيبة عليه فما كنت أحل ما حرم الله عليه»[2]، وقد نجز غرضنا مما أردناه من الغيبة والله الموفق.

الآفة الثانية: النميمة وهي من جملة العاهات المتعلقة باللسان وينحصر مقصودنا منها بذكر تنبيهات ثلاثة نوضحها بمشيئة الله:

التنبيه الأول: في بيان معناها وحدها، اعلم أن اسم النميمة يطلق في الأكثر على من ينم قول الغير إلى المقول فيه كما يقال فلان كان يتكلم فيك بكذا وكذا، وليس النميمة مخصوصة بالقول بل معناها وحدها كشف ما يكره كشفه سواء كرهه المنقول إليه والمنقول عنه أو كرهه ثالث، وسواء كان النقل بالقول أو بالكتابة أو بالرمز أو بالإيماء، وسواء كان المنقول من الأقوال أو من الأعمال، وسواء كان ذلك عيباً أو نقصانا على المنقول عنه أو لم يكن، بل حقيقة النميمة إفشاء السر وهتك الستر عما يكره كشفه بل كلما أراد الإنسان ورآه من أحوال الناس فينبغي أن يسكت عنه إلا أن يكون في حكايته فائدة لمسلم أو دفع لمعصية كما إذا رأى من يتناول مال غيره فعليه أن يشهد به مراعاة لحق المشهود له، فأما إذا رآه يخفي مال نفسه فذكره وأفشاه فهو نميمة وإفشاء سر فإن كان ما ينم به نقصاناً وعيباً في المحكي عنه كان قد جمع بين الغيبة والنميمة، والباعث على النميمة إما إرادة السوء بالمحكي عنه أو إظهاراً لحب المحكى له أو التفريح بالحديث أو الخوض في الفضول، إلى غير ذلك من البواعث، فهذا شرح فائدتها ومعناها والله أعلم.

التنبيه الثاني: في بيان مذمة النميمة والتحذير عنها ويظهر من جهتين نذكرهما:

الجهة الأولى: من جهة الكتاب وقد قال تعال ﴿**ولا تطع كل حلاف مهين هماز**

---

(1) البخاري في المظالم رقم (٢٤٤٩) وفي الرقاق رقم (٦٥٤٤) وأحمد في المسند (٣/٣٥) وفي (٥٠٦) كلاهما عن أبي هريرة.

(2) انظر الإحياء ١٨٧/٣.

مشاء بنميم مناع للخير معتد أثيم - إلى قوله - زنيم﴾ (ن: ١٠ - ١٣)، قال عبدالله ابن المبارك: «هو ولد الزنا لا يكتم الحديث وأشار به إلا أن كل من لا يكتم الحديث ويمشي بالنميمة دل على أنه ولد زنا استنباطاً» من قوله ﴿عُتلٍّ بعد ذلك زنيم﴾، والزنيم الدعي، وقد قال تعالى: ﴿ويل لكل همزة لُمَزة﴾ (الهمزة: ١). قيل الهمزة هو النّمام، وقال تعالى: ﴿حمالة الحطب في جيدها حبل من مسد﴾ (المسد: ٥). قيل كانت حمالة للحديث، وقال تعالى: ﴿فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً﴾ (التحريم: ١٠). قيل كانت امرأة لوط تخبر قومها بالضيفان وكانت امرأة نوح تخبر بأنه مجنون وغير ذلك.

الجهة الثانية: الأخبار وقد قال ﷺ: «لا يدخل الجنة نمام»[١] وفي حديث آخر: «لا يدخل الجنة قتات»[٢] والقتات: هو النمام، وقال أبو هريرة قال الرسول ﷺ: «أحبكم إليَّ أحسنكم أخلاقاً الموطأون أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون، وإن أبغضكم إليَّ المشاؤون بالنميمة المفرقون بين الأحبة المفرقون بين الإخوان، الملتمسون للبراء العثرات»[٣] وقال ﷺ: «ألا أخبركم بأشراركم قالوا بلى قال المشآؤون بالنميمة المفسدون بين الأحبة الباغون للبرآء العيب»[٤]، وقال أبو ذر قال رسول الله ﷺ: «من أشار على مسلم كلمة ليشينه بها بغير حق شانه الله بها في النار يوم القيامة»[٥]، وقال أبو

---

(١) البخاري لاقم الحديث (٢٣٣٢) الأدب، ومسلم رقم الحديث (١٦٩ - ١٧٠)، وأبو داود الأدب أيضاً رقم (٤٨٥٠) والترمذي رقم (٢٠٢٧)، وقال حديث حسن صحيح، الجميع عن حذيفة، وابن حبان رقم الحديث (٣٣٧٤) وانظر الجزء (٧/٥٠٨، ٦٤٨) و١/٣٣٩ (وبنحوه رقم (٤٥٥)، والطبراني في الأوسط (٣/١٧٥) رقم (٢٣٥٦)، والطيالسي في مسنده رقم الحديث (٢٢٥١) وأحمد في المسند ٥/٣٨٢، ٣٨٩، ٣٩١، ٣٩٦، ٤٩٩، ٤٠٦.

(٢) هو جزء من الحديث الذي تقدم قبله، وانظر صحيح ابن حبان (٧/٥٠٨) رقم (٥٧٣٥) عن همام بن الحارث (٥/١٦٣) رقم (٣٣٧٥).

(٣) تقدم تخريجه ص ٤١ من هذا الكتاب وهو حديث ضعيف وله شواهد أخرى، وانظر جامع الترمذي رقم الحديث (٢٠١٨) والطبراني في الصغير (٢/٨٩) رقم (٦٠٥) ورقم (٨٣٥) وابن أبي الدنيا في الصمت رقم (٢٥٣) وانظر جامع الأصول (٤/١٩٧٥)، ومجمع الزوائد (٨/٢١).

(٤) أحمد في المسند ٦/٤٥٩ من حديث أبي مالك الأشعري وأبو الشيخ في التوبيخ رقم (٢٢٢) وابن أبي الدنيا في الصمت رقم (٢٥٥) والطبراني في الكبير (٢٤/١٦٧) ومن حديث أسماء بنت يزيد وفي إسناده شهر بن حوشب وانظر مشكاة المصابيح رقم (٢١٧٣) وضعيف الجامع (٢١٧٣) وانظر إتحاف السادة المتقين (٧/٥٦٣).

(٥) الحاكم في المستدرك (٤/٣١٨) وصححه وتعقبه الذهبي فقال سنده مظلم لأنه من رواية عبدالله بن ميمون القداح وهو متروك، وأخرجه الطبراني في مكارم الأخلاق والخرائطي والبيهقي في الشعب وابن الدنيا في=

الدرداء: قال رسول الله ﷺ: «أيما رجل أشاع على رجل كلمة وهو منها بريء ليشينه بها في الدنيا كان حقاً على الله عز وجل أن يدنيه بها يوم القيامة في النار»(١)، وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ «من شهد على مسلم بشهادة ليس لها بأهل فليتبوأ مقعده من النار»(٢)، ويقال إن ثلث عذاب القبر من النميمة.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أن الله تعالى لما خلق الجنة قال لها تكلمي قالت: «سَعِدَ من دخلني»، قال الجبار جلّ جلاله: وعزتي وجلالي لا يسكن فيك ثمانية نفر، لا يسكنك مدمن خمر ولا مصرٌ على الزنا ولا قتات وهو النّمام ولا ديّوث وهو الذي يحصل على نسائه ولا الشرطي وهو صاحب المكس ولا المخنث ولا قاطع رحم ولا الذي يقول عليَّ عهد الله إن لم أفعل وكذا ثم لم يف به»(٣).

وروى كعب الأحبار: أصاب بني إسرائيل قحط فاستقى موسى مرات فما أجيب، فأوحى الله إليه إني لا أستجيب لك ولمن معك وفيكم نمام قد أصر على النميمة، فقال: «يا رب من هو حتى أخرجه من بيننا؟» فقال: «يا موسى أنهاكم عن النميمة وأكون نماماً فتابوا بأجمعهم فسُقُوا»، ويقال: إنه اتبع رجل حكيماً سبعمائة فرسخ في سبع كلمات فلما قدم عليه قال إني جئتك للذي آتاك الله من العلم، أخبرني عن السماء وما أثقل منها، وعن الأرض وما أوسع منها، وعن الحجر وما أقسى منه، وعن النار وما أحر منها، وعن الزمهرير وما أبرد منه، وعن البحر وما أغنى منه، وعن اليتيم وما أذل منه، فقال: البهتان أثقل من السموات، والحق أوسع من الأرضين، والقلب القانع أغنى من البحر،

= الصمت رقم (٢٥٦ ـ ٢٥٧) وأبو الشيخ في التوبيخ رقم (١٣٨) وفي إسناده خالد بن إلياس وهو متروك. وانظر تخريج الإحياء (١٩٣/٣) والترغيب والترهيب (٣٠٢/٣).

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت رقم (٢٥٧) والطبراني بنحوه مرفوعاً عن أبي الدرداء، وأبو الشيخ في التوبيخ رقم (١٣٢) وانظر إتحاف السادة المتقين (٥٦٣/٧) والفتح الكبير (١٦٠/٣).

(٢) أحمد في المسند (٥٠٩/٢) وفيه رجل لم يسمه، والطيالسي رقم (١٤٦١) وابن أبي الدنيا في الصمت رقم ٢٥٨ وأسقط الراوي الذي لم يسمه أحمد، وانظر تخريج الإحياء ١٩٤/٣، ومجمع الزوائد (٢٠٠/٤).

(٣) قال العراقي في تخريج الإحياء (٣٩٤/٣) لم أجده بتمامه هكذا، ثم ذكر له شواهد أخرى تقدم بعضها بلفظ ولا يدخل الجنة عاق والديه ولا ديوث» أخرجه أحمد (٦٩/٢، ١٢٨، ١٣٤، ٢٠١، ٢٠٣)، ٢٨/٣، ٤٤، ٣٢٦) وللنسائي من حديث عبد الله بن عمرو رقم (٥٦٧٢) بلفظ «لا يدخل الجنة منان ولا عاق ولا مدمن خمر» وللشيخين نحوه من حديث حذيفة «لا يدخل الجنة قتات» وقد تقدم ونحوه لمسلم من حديث جبير بن مطعم «لا يدخل الجنة قاطع رحم» انظر صحيح مسلم الإيمان رقم (١٥٠)، والبر والصلة (١٨ ـ ١٩) وأخرج أبو داود نحوه رقم (١٦٩٦) والترمذي رقم (١٩١٠) ولصاحب الفردوس نحوه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، ولابن حبان نحوه برقم (٤٥٥) وابن خزيمة أيضاً.

والحرص والحسد أحر من النار، والحاجة إلى القريب إذا لم تنجح أبرد من الزمهرير، وقلب الكافر أقسى من الحجر، والنمام إذا بان أمره أذل من اليتيم[1].

التنبيه الثالث: في بيان ما ينبغي لمن بلغته النميمة أن يفعله، إعلم أن كل من حُمِلت إليه النميمة وقيل له إن فلاناً قال فيك كذا وكذا وفعل فيك كذا وهو يدبر في فساد أمرك وفي ممالأة عدوك أو في تقبيح حالك أو ما يجري مجرى ذلك، فعليه من الآداب ستة:

الأدب الأول: أن لا تصدقه فيما قال لأن النمام فاسق وهو مردود الشهادة قال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة**﴾ (الحجرات: ٦) ورُوي عن عمر بن عبد العزيز أنه دخل إليه رجل فذكر عنده عن رجل شيئاً فقال عمر: إن شئت نظرنا بأمرك فإن كنت كاذباً فأنت من أهل هذه الآية: ﴿**إن جاءكم فاسق بنبأ**﴾، وإن كنت صادقاً فأنت من أهل هذه الآية ﴿**هماز مشّاءٍ بتنميم**﴾ (ن: ١١)، وإن شئت عفونا عنك، فقال: العفو يا أمير المؤمنين لا أعود إلى مثله أبداً.

الأدب الثاني: أن ينهاه عن ذلك وينصحه ويقبح إليه فعله قال الله تعالى: ﴿**وأمر بالمعروف وانه عن المنكر**﴾ (لقمان: ١٧)، وحكي أن حكيماً من الحكماء رآه بعض إخوانه وأخبره بخبر عن غيره فقال له الحكيم: قد أبطأت في الزيارة وأتيتني بثلاث جنايات بغضت إليَّ أخي وشغلت قلبي الفارغ واتهمت نفسك الأمينة، وحكي أن سليمان بن عبد الملك كان جالساً وعنده الزهري فجاءه رجل، فقال له سليمان: بلغني أنك وقعت فيَّ وقلت كذا وكذا، فقال الرجل: ما فعلت ولا قلت، فقال سليمان: الذي أخبرني كان صادقاً، فقال الزهري: لا يكون النمام صادقاً، فقال سليمان: صدقت اذهب بسلام.

الأدب الثالث: أن لا تظن بأخيك الغائب السوء لقوله تعالى: ﴿**اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم**﴾ (الحجرات: ١٢). وحُكي عن أمير المؤمنين كرم الله وجهه أن رجلاً أتاه يسعى برجل، فقال: يا هذا بحق تسأل عما قلت فإن كنت صادقاً مقتناك، وإن كنت كاذباً عاقبناك، وإن شئت أن نقيلك أقلناك، قال: أقلني يا أمير المؤمنين[2]، وقيل لمحمد بن كعب القرظي أي خصال المؤمن أوضع له؟، قال: كثرة الكلام وإفشاء

---

(١) رواه الحكيم الترمذي، انظر إتحاف السادة المتقين (١٦٣/٧).

(٢) انظر الإحياء ٣/٣٩٤.

السر وقبول قول كل أحد، وقال رجل لعبدالله بن عامر وكان أميراً: بلغني أن فلاناً أعلم الأمير أني ذكرته بسوء قال: قد كان ذلك، قال: فأخبرني ما قال لك حتى أظهر كذبه عندك، قال: ما أحب أن أشتم نفسي بلساني وحسبي أني لم أصدقه فيما قال ولا قطعت عنك إفضالاً، وذكرت السعاية عند بعض الصالحين فقال: ما ظنك بقوم يُحمد الصدق من كل أحد من الناس إلا منهم(1).

الأدب الرابع: أن يبغضه في الله فإنه بغيض عندالله ويجب بغض من يبغضه الله تعالى، واعلم أن النمام ينبغي أن يبغض فلا يوثق بصداقته وكيف لا يبغض وهو لا ينفك من الكذب والغيبة والغدر والخيانة والغل والحسد والنفاق والإفساد بين الناس والخديعة وهو ممن قد سعى في قطع ما أمر الله به أن يوصل قال تعالى: ﴿**ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض**﴾ (الرعد: ٢٥)، وقال تعالى: ﴿**إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق**﴾ (الشورى: ٤٢). والنمام منهم، وقال ﷺ: «إن من شر الناس ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه، والنمام منهم»(2). وقال ﷺ: «إن من شر الناس من اتقاه الناس لشره والنمام منهم»(3)، وقال ﷺ: «لا يدخل الجنة قاطع»(4). قيل: هو قاطع الرحم وقيل: هو القاطع الوصلة بين الناس وهو النمام.

الأدب الخامس: أن لا يحملك ما حكي لك على التجسس والبحث لتتحقق ذلك لقوله تعالى: ﴿**ولا تجسسوا**﴾ (الحجرات: ١٢)، وحُكي عن مصعب بن الزبير: نحن نرى قبول السعاية شراً من السعاية لأن السعاية دلالة والقبول إجازة، وليس من دل على

---

(1) انظر الاحياء ٣/٣٩٤.

(2) متفق عليه. البخاري في المناقب رقم (٣٤٩٤) وفي الأدب من صحيحه رقم (٦٠٥٨) والأحكام رقم (٧١٧٩)، ومسلم في البر والصلة رقم (٢٥٢٦) وأبو داود (٤٧٨٢) وأحمد (٢/٢٤٥، ٣٠٧، ٣٣٦، ٤٥٥، ٤٦٥) والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/٦٩٦) ومالك في الموطأ رقم (٦١٣) وابن أبي الدنيا في الصمت رقم (٢٧٦) الجميع من حديث عائشة والبعض عن أنس وله طرق أخرى انظر إتحاف السادة المتقين (٥٦٨/٧).

(3) أخرجه الشيخان من حديث عائشة، البخاري في الأدب من صحيحه رقم (٢١٣٢) ورقم (٦٠٥٤، ٦١٣١، ٦١٣٢) ومسلم في البر والصلة رقم (٢٥٩)، وأبو داود رقم (٤٧٧٠، ٤٧٩١) والترمذي رقم (١٩٩٦، ١٩٩٧)، وأحمد في المسند (٦/٣٨، ٨٠، ١٥٨، ١٥٩، ١٧٣) والبخاري في الأدب المفرد ص ٤ رقم (٣٣٨)، ٧٥٥، ١٣١١) وابن أبي الدنيا في الصمت رقم (٣٤٠) ورقم (٦٨٢) والطبراني في الأوسط، انظر مجمع الزوائد (١٧١٨) عن أنس.

(4) تقدم ص ١١٢ وهو جزء من الحديث المتقدم هناك.

الشيء وأخبر به كمن قبله وأجازه فاتقوا الساعي فلو كان قوله صدقاً لكان في صدقه آثماً حيث لم يحفظ الحرمة ولم يستر العورة، والسعاية هي النميمة إلا إنها إذا كانت إلى من يخاف جانبه سميت سعاية، وقد قال ﷺ: «الساعي بين الناس لغير رشده»[1]، يعني ليس ولد حلال، ودخل رجل على سليمان بن عبد الملك فاستأذن في الكلام فقال: إني مكلمك بكلام فاحتمله وإن كرهته فإن وراءه ما تحب إن قبلته، فقال له: قل، فقال له: إنه قد اتبعك أقوام واكتنفك رجال ابتاعوا دنياك بآخرتهم ورضاك بسخط ربهم خافوك في الله ولم يخافوا الله فيك فلا تأمنهم على ما أئتمنك الله عليه، ولا تصغ إليهم فيما استحفظك الله إياه فإنهم لن يألوا الأمة خسفاً والأمانة تضييعاً والأعراض تمزيقاً والحرمات انتهاكاً، أعلى قُرَبهم البغي والنميمة، وأجلّ وسائلهم الغيبة والوقيعة وأنت مسؤول عما اجترحوا، وليسوا مسؤولين عما اجترحت فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك وإن أعظم الناس عيباً بائع آخرته بدنيا غيره[2].

الأدب السادس: أن لا ترضى لنفسك ما نهيت النمام عنه فلا تحك نميمته، فيقول فلان قد حكى كذا وكذا فتكون به نماماً ومغتاباً وتكون قد أتيت بما عنه نهيت، وحكي أن رجلاً سعى بزياد الأعجم إلى سليمان بن عبد الملك فجمع بينهما سليمان للموافقة فقال له زياد: إن كنت قد قلت ما قيل فقد ائتمنتك عليه فأنت خائن، وإن كنت لم أقله فأنت كاذب، فأنت غير منفك عن الخيانة والكذب، وقال رجل لعمرو بن عبيد: إن الأسواري لا يزال يذكرك في قصصه بشر فقال له عمرو: وما رعيت حق مجالسة الرجل حيث نقلت إلينا حديثه، ولا أدّيت حقي حيث أبلغتني عن أخي ولكن أعلمه أن الموت يعمنا والقيامة تجمعنا والله يحكم بيننا وهو خير الحاكمين، ورفع بعض السعاة إلى الصاحب بن عباد رقعة نبه فيها على مال يتيم يحمله فيها على أخذه لكثرته، فكتب على ظهرها السعاية قبيحة وإن كانت صحيحة، الميت رحمه الله واليتيم جبره الله والمال ثمرة الله والساعي لعنه الله، وقال لقمان الحكيم لابنه: يا بني أوصيك بخصال إن تمسكت بهن لم تزل سيداً، أبسط خلقك للقريب والبعيد وأمسك جهلك عن الكريم واللئيم، واحفظ إخوانك وصل أقاربك وأمنهم من قبول ساع وسماع باغ يريد فسادك ويروم خداعك، وليكن

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/١٠٣ من حديث أبي موسى وله أسانيد أخرى وهذا أمثلها وفيه سهل بن عطية منكر الحديث، انظر التذكرة لابن طاهر ص ٢٥٣ رقم الحديث (٩٩٧)، وقال: سهل منكر الحديث الرواية قليل الحديث، وانظر إتحاف السادة المتقين وقال: رواه ابن عساكر والطبراني.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا عنه انظر إتحاف السادة المتقين (٥٦٦/٧).

إخوانك من إذا فارقتهم لم تغبهم ولم يغيبوك، وقال بعضهم: النميمة مبنية على الكذب والحسد والنفاق وهي أثافي الذل، وقال بعضهم: لو صح ما نقله النمام إليك لكان هو المجترئ بالشتم عليك والمنقول عنه أولى بحلمك لأنه لم يقابلك بشتمك، وعلى الجملة شر النمام عظيم فينبغي أن يتوق بالصبر والإحتمال والتعمد.

الآفة الثالثة: الكذب في القول واليمين ولا شك أن الكذب من قبائح الذنوب وفواحش العيوب ويظهر قبحه وإثمه من جهات ثلاث[1]:

الجهة الأولى: الكتاب وقد ذمه الله تعالى في كتابه الكريم، قال الله تعالى: ﴿ **ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة** ﴾ (الزمر: ٦٠). وقال تعالى: ﴿ **ومن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جآءه أليس في جهنم مثوى للكافرين** ﴾ (الزمر: ٣٢)، وقال تعالى: ﴿ **ألا لعنة الله على الظالمين** ﴾ (هود: ١٨)، وقال تعالى: ﴿ **ويل يومئذ للمكذبين** ﴾ (المرسلات: ١٥). في سورة المرسلات مراراً كثيرة، والتكذيب هو قولك للغير أنه كاذب وهو كذب لا محالة، وقوله تعالى: ﴿ **فلا تطع المكذبين** ﴾ (ن: ١٠)، وقبحه معلوم من جهة العقل والشرع خلافاً للأشعرية حيث قالوا: إن قبحه لا يعلم بالعقل، وبنوا هذا على مذهبهم الردي وهو بطلان الأحكام العقلية وزعموا أن قبحه إنما هو من جهة الشرع لا غير.

الجهة الثانية: الأخبار روى أبو بكر رضي الله عنه عن الرسول ﷺ أنه قال: «إياكم والكذب فإنه مع الفجور وهما في النار»[2]، وروى أبو أمامة عن الرسول ﷺ أنه قال: «الكذب باب من أبواب النفاق»[3]، وقال ﷺ: «كبرت خيانة أن تحدث أخاك

---

(١) انظر إتحاف السادة المتقين نفس المصدر.

(٢) أخرجه بهذا اللفظ الطيالسي ١/٣ والخرائطي في المساويء رقم ١١٠ ولابن ماجه نحوه رقم الحديث (٣٨٤٩) والنسائي في عمل اليوم والليلة واسناده حسن أحمد في المسند (١، ٣، ٥، ٦، ٧، ٨، ١١) والحاكم في المستدرك (١/٥٢٩) وابن حبان انظر موارد الظمآن رقم (١٠٦) عن أبي بكر رضي الله عنه، وابن عدي في مقدمة الكامل ١/٤٠ وابن أبي الدنيا في الصمت ص ٢٢٩ رقم الحديث (٤٤١، ٤٦٦، ٤٦٧) والخرائطي في مكارم الأخلاق وانظر تخريج الإحياء (٤/١١٧٠) رقم الحديث (٢٦٦٥) ولفظة «إياكم والكذب فإن الكذب مجانبة للايمان» وفي المساويء رقم ١٠٩، ١١٠.

(٣) الخرائطي في المساويء ص ٥٦ رقم (١١١) أخرجه ابن عدي في الكامل ٤٣/١ بسند ضعيف عن أبي أمامة ونحوه عن أبي بكر وهو المتقدم قبل هذا وفيه عمر بن موسى الوجيهي ضعيف جداً، وانظر إتحاف السادة المتقين ٥١١/٧ وانظر ميزان الاعتدال ٩٣/٢.

بحديث هو لك مصدّق وأنت به كاذب»[1]، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: لا يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب[2] عند الله كذاباً ومرّ رسول الله برجلين وهما يتبايعان شاةً ويتحالفان، يقول أحدهما: والله لا أنقصك من كذا وكذا، ويقول الآخر: والله لا أزيدك على كذا وكذا فمر بالشاة وقد اشتراها أحدهما، فقال: أوجب أحدهما بالإثم والكفارة[3]، وقال الرسول ﷺ: «الكذب ينقص الرزق»[4]، وقال ﷺ: «إن التجار هم الفجار فقيل: يا رسول الله أليس الله قد أحل البيع؟، قال: بلى ولكنهم يحلفون فيأثمون ويحدثون فيكذبون»[5].

وقال ﷺ: «ثلاثة نفر لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم: المنان بعطيته

---

(1) الخرائطي في المساوىء ص ٥٧ رقم ١١٣، أخرجه البخاري في الأدب المفرد ص ١٤٢ رقم الحديث (٣٩٣)، وأبو داود في السنن المعاريض رقم الباب ٧ من حديث سفيان بن أسيد وسكت عنه وأخرجه أحمد في المسند (٤/١٨٣) وفيه عمر بن هارون والطبراني في الكبير رقم (٦٤٠٢) من حديث النواس بن سمعان بإسناد جيد، انظر مجمع الزوائد (١/١٤٢) (٩/٩٨) وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى (١٠/١٩٩) وابن مانع، وأبو نعيم في الحلية ٦/٩٩ والبغوي وابن سعد وابن عدي في الكامل ١/٥٠ المقدمة.
الجميع من حديث النواس بن سمعان، وبعضهم من حديث سفيان بن أسيد، وضعف الحديث النووي في الأذكار انظر إتحاف السادة المتقين (٧/٥١١).

(2) متفق عليه البخاري في صحيحه كتاب الأدب الباب ٦٩ رقم الحديث ٦٠٩٤ باب قول الله ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين**﴾ ومسلم في البر والصلة رقم الحديث ١٠٣ ـ ١٠٥، وأبو داود في السنن الآداب باب التشديد في الكذب رقم (٤٩٦٨) والترمذي في البر والصلة رقم (٢٠٣٨)، وابن ماجه المقدمة رقم (٤٦) والدارمي (٢/٢٩٩ـ ٣٠٠) ومالك في الموطأ رقم ٦١٢ كتاب الكلام وما جاء في الصد، والحاكم في المستدرك ١/١٢٧ والطيالسي رقم ٢٤٧٢، وأحمد (١/٣٨٤، ٤٣٢)، وأبو نعيم في الحلية (٨/٣٧٨) والبيهقي في السنن الشهادات (١٠/١٩٥، ١٩٦، ٢٤٣) والخرائطي في المساوىء ص ٥٧ رقم ١١٥.

(3) رواه أبو الفتح الأزدي في كتاب الأسماء المفرد من حديث ناسج الحضرمي واسمه عبد الله بن ناسج والخرائطي في مساوىء الأخلاق ص ٥٨ رقم ١١٦ واسناده ضعيف ورواه البيهقي في السنن الكبرى ٣/٣٥ وابن شاهين. انظر تخريج الإحياء للعراقي (٣/١٦٨) وإتحاف السادة المتقين (٧/٥١١، ٥١٢) وعزاه إلى ابن سمعون.

(4) الخرائطي في مساوىء الأخلاق رقم ١١٧ ورواه أبو الشيخ في طبقات أصبهان من حديث أبي هريرة، ورواه القاضي أبو بكر في مشيخته واسناده ضعيف، انظر تخريج الإحياء للعراقي ٣/١٦٨ وإتحاف السادة المتقين ٧/٥١٢.

(5) أحمد في المسند (٣/٤٤٤) والحاكم في المستدرك (٢/٦) من طريق أبي سلام، والبيهقي في السنن الكبرى (٥/٢٦٦) ولابن ماجة نحوه في التجارة رقم الحديث (٢١٤٦) عن إسماعيل بن عبيد بن رفاعة عن أبيه عن جده. وانظر إتحاف السادة المتقين (٧/٥١٢).

والمنفق سلعته بالحلف الفاجر والمسبل إزاره»(١)، وقال ﷺ: «ما حلف حالف بالله فأدخل فيها مثل جناح البعوضة إلا كانت نكتة في قلبه إلى يوم القيامة»(٢)، وقال أبو ذر قال رسول الله ﷺ: ثلاثة يحبهم الله تعالى، رجل كان في فئة فنصب نحره حتى يقتل أو يفتح الله عليه أو على أصحابه، ورجل كان له جار سوء يؤذيه فصبر على أذاه حتى يفرق بينهما موت أو ظعن، ورجل كان مع رفقة في سفر أو سرية فأطالوا السرى حتى إذا أعجزهم أن يمشوا الأرض فنزلوا فتنحى يصلي حتى يوقظ أصحابه للرحيل، وثلاثة يشنأهم الله البياع الحلاف والفقير المختال والبخيل المنان»(٣)، وقال الرسول ﷺ: «ويل للذي يحدث فيكذب ليضحك به القوم ويل له ويل له»(٤).

وعن عبدالله بن جراد أنه سأل رسول الله فقال: «هل يزني المؤمن؟، قال: قد يكون، قال: يا نبي الله هل يكذب قال: لا(٥)، ثم أتبعها رسول الله بقوله: «إنما

---

(١) أخرجه البخاري في المساقاة رقم الحديث ٢٣٥٨، ٢٣٦٩ وفي الشهادات رقم ٢٦٧٢ وفي الأحكام رقم ٧٢٢١ وفي التوحيد رقم ٧٤٤٦ عن أبي هريرة، ومسلم في الإيمان رقم (١٠٦)، (١١٧) من حديث أبي ذر وأبي هريرة، وأبو داود في السنن: اللباس: الباب (٢٨) رقم الحديث ٤٠٨٧ والترمذي رقم الحديث (١٢١١) وقال: حسن صحيح، والنسائي في البيوع: الباب (٥) رقم الحديث ٤٤٦٤ وفي الزكاة رقم ٢٥٦٤ وفي الزينة: (١٠٤) رقم الحديث ٥٣٣٥، وابن ماجة: التجارة رقم (٢٢٠٧، ٢٢٠٨) والدارمي في البيوع رقم (٦٣) والطبراني في الكبير من حديث ابن عمر والخرائطي في مساوىء الأخلاق رقم ١٢٣، ١٢٥، والبيهقي في السنن الكبرى ٥/٢٦٥.

(٢) أخرجه الترمذي رقم الحديث (٣٠٢٠)، وأحمد في المسند (٣/٤٩٥) والحاكم في المستدرك (٤/٢٩٦) وصححه ووافقه الذهبي والخرائطي في مكارم الأخلاق. وهو من حديث عبد الله بن أنيس، وفي المساوىء رقم (١٢٤) والحديث ضعيف فيه هشام بن سعد: صدوق له أوهام.

(٣) الخرائطي في مساويء الأخلاق رقم (١٢٦) والطيالسي رقم (٤٦٨) رواه أحمد في المسند (٥/١٥١، ١٥٣، ١٧٦)، عن أبي ذر وفيه الأحمس: لا يعرف حالة، والترمذي رقم الحديث ٢٦٩٦ و ٢٦٩٧ وقال حديث صحيح وللنسائي نحوه باسناد جيد: السنن: قيام الليل (٣/٢٠٨) رقم (١٦١٥) وفي (٥/٨٤) رقم (٢٥٧٠) الزكاة والبيهقي (٩/١٦٠) وابن حبان انظر موارد الظمآن رقم ٣٣٣٨، ٣٣٣٩ والحاكم في المستدرك ٢/١١٣ وصححه ووافقه الذهبي ورواه البيهقي في الشعب، وابن عساكر من حديث مطرف بن عبد الله الشخير قال: بلغني عن أبي ذر. وابن حبان رقم (٣٣٣٨) والطبراني (١٦٣٧).

(٤) رواه أبو داود رقم (٤٩٩٠) والترمذي وحسنه رقم الحديث (٢٣١٥) عن أبي هريرة والنسائي في السنن الكبرى، الخرائطي في مساوىء الأخلاق رقم (١٢٨) وأحمد في المسند (٥/٥٣، ٥٧) من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده، والحاكم في المستدرك (١/٤٦) وصححه. والبيهقي في السنن (١٠/١٩٦) والطبراني في الكبير (١٩/٤٠٣) وابن المبارك في الزهد ص ٢٥٤ رقم الحديث (٧٣٣)، والبغوي في شرح السنة (١٤/٤١٣) وانظر تخريج الإحياء (٣/١٦٨).

(٥) رواه مالك في الموطأ مرسلاً ومعضلاً، وابن عبد البر في التمهيد والخطيب في المتفق والمفترق ٣/٨٧٤ وابن أبي الدنيا=

يفتري الكذب الذين لا يؤمنون» وكان رسول الله يقول في دعائه: «اللهم طهر قلبي من النفاق وفرجي من الزنا ولساني من الكذب»[1]، وقال ﷺ: «من حلف على يمين بإثم ليقتطع بها مال امرىء مسلم بغير حق لقي الله تعالى وهو عليه غضبان»[2]، وقال ﷺ: «كل خصلة يطبع أو يطوى عليها المؤمن إلا الخيانة»[3]، وقال موسى عليه السلام: يا رب أي عبادك خير عملاً، قال من لا يكذب لسانه ولا يفجر قلبه ولا يزني فرجه، وقال لقمان لإبنه: يا بني إياك والكذب فإنه شهي كلحم العصفور عما قليل يقلاه صاحبه[4]،

= في الصمت ص ٥٤٣ رقم الحديث ٤٧٤ وذكر أن السائل هو أبو الدرداء انظر تخريج أحاديث الإحياء (١٦٨/٣).

(١) ضعيف. رواه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ص ٢٠٢، والخطيب البغدادي في تاريخه (٢٦٨/٥) عن أم معبد وسنده ضعيف انظر إتحاف السادة المتقين (٥١٤/٧)، وقال العراقي: وقع في الأحياء عن أبي سعيد وإنما هو عن أم معبد عاتكة بن خالد الخزاعية الكعبية التي نزل عندها النبي ﷺ في الهجرة، والخرائطي في مساوىءالأخلاق رقم (١٣٣).

(٢) البخاري: الإيمان، والنذور رقم (٦٦٧٦، ٦٦٧٧) عن ابن مسعود والأشعث، ومسلم في الإيمان رقم (١٣٨)، وأبو داود: الإيمان والنذور رقم (٣٢٤٣) والترمذي رقم (١٢٦٩، ٢٩٩٦)، والنسائي في الكبرى: القضاء؛ وابن ماجه: الأحكام رقم (٢٣٢٣) وابن خزيمة عن ابن مسعود، وابن حبان رقم (٥٠٦٢، ٥٠٦٤) عن ابن مسعود ورقم (٥٠٦) عن الأشعث بن قيس، وأحمد في المسند (٤٢٦/١، ٣٧٧، ٣٧٩) عن ابن مسعود وفي (٢٥/٥) عن معقل والبيهقي في السنن (٤٤١٠، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٦١) من طرق في والشهادات وفي التفسير، وابن الجارود رقم (٩٢٦) والطيالسي رقم (١٠٥٠) وابن عدي في مقدمة الكامل (٤٤/١).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه من حديث أبي أمامة، وابن عدي في مقدمة الكامل من حديث سعد بن أبي وقاص ومن حديث أبي أمامة وحديث ابن عمر ورواه ابن أبي الدنيا في الصمت رقم الحديث رقم (٤٧٢، ٤٩٠) مرفوعاً ورجح الدارقطني في العلل الموقوف وقال: هو أشبه بالصواب، ورواه أبو يعلى في المسند والضياء في المختار والبزار والدارقطني في العلل والبيهقي (١٩٧/١) في السنن: الشهادات، وعبد الرزاق في المصنف رقم الحديث (٢٠٢٠١) وأحمد في المسند (٢٥٢/٥) نحوه عن أبي أمامة، ورواه ابن المبارك في الزهد ص ٢٨٥. انظر تخريج الإحياء (١٧٠/٣) واتحاف السادة المتقين (٥١٨/٧)، وفيض القدير (٤٦٢/٦) والفتح الكبير (٤٥٦/٣).

(٤) انظر الإحياء ٦١/٣. .

وقال ﷺ : «من أراد أن يلعن نفسه فليكذب»(١)، وقال عليه السلام: إن العبد ليكذب الكذبة فيتباعد عنه الملك مسيرة ميل من نتن ما جاء به(٢)، وقال أنس بن مالك قال رسول الله ﷺ : «تقبلوا لي بست أتقبل لكم بالجنة؟ قالوا: يا رسول الله وما هي؟ قال: إذا حدث أحدكم فلا يكذب وإذا وعد فلا يخلف وإذا أؤتمن فلا يخونن، وغضوا أبصاركم وكفوا أيديكم واحفظوا فروجكم»(٣)، وقال ﷺ : «إن لشيطان كحلاً ولعوقاً ونشوقاً فأما لعوقه فالكذب وأما نشوقه فالغضب وأما كحله فالنوم»(٤)، وقال رسول الله ﷺ :«ثلاثة لا يكلمهم الله تعالى ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم شيخ زانٍ وملك كذاب وعائل مستكبر(٥)، فهذه كلها أخبار دالة على قبح الكذب وذمه وحصول الوعيد عليه والله أعلم.

---

(١) الحديث لم أجده بعد البحث وفي غالب الظن أنه لا أصل له في كتب الحديث ولم أجده في كتب الموضوعات فضلاً عن غيرها.

(٢) الترمذي في السنن: أبواب البر والصلة باب ما جاء من الصدق والكذب رقم الحديث (١٩٧١) وقال: حسن غريب، وابن أبي الدنيا في الصمت رقم (٤٧٧) وأبو نعيم في الحلية ٣/٦١٩، رقم ٦١٩.

(٣) رواه أحمد في المسند ٥/٣٢٣ عن أنس، والحاكم في المستدرك (٤/٣٥٩) من حديث عباد، وساق حديث أنس شاهداً له بلفظ «اضمنوا لي...» وصححه وقال الذهبي: قلت: مرسل. وفيه سعد بن سنان ضعفه جماعة ووثقه ابن معين، وأخرجه الخرائطي في المساوىء رقم ١٥٦، ٦٠٥، والحديث رواه ابن أبي شيبة في مصنفه وأبو يعلى في المسند ٧/٢٤٩ رقم ١٥٠٢ وابن حبان ١/٢٤٥، والبيهقي ٦/٢٨٨، وانظر مجمع الزوائد ١٠/١٠١ والمطالب العالية ٢/٤١٤ رقم (٢٦١٠) وعزاه لابن منيع وانظر الترغيب والترهيب، وميزان الاعتدال وذكره الذهبي في ترجمة سعد بن سنان وجعله من منكراته. وله شواهد أخرى عن عبادة بن الصامت عند أحمد المسند ٥/٣٢٣ والمستدرك ٤/٣٥٨، ٣٥٩، وابن حبان ١/٢٤٥، والخرائطي في مكارم الأخلاق ص ٣١ والطبراني في الكبير ٨٠١٨ وانظر مجمع الزوائد ١٠/٣٠١.

(٤) الطبراني في الكبير عن سمرة رقم ٦٨٥٥، وعن أنس انظر مجمع الزوائد ٤/١٤٥، ١٠/٣٠١، وأخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث أنس بسند ضعيف، والبيهقي وابن أبي الدنيا في مكائد الشيطان ومساوىء الأخلاق برقم وفي إسناده ضعفاء كثيرون انظر اتحاف السادة المتقين ٧/٥١٦.

(٥) مسلم الإيمان ١/١١٢ ـ ١١٣ رقم ١٠٧ عن أبي هريرة والنسائي: الزكاة باب الفقير المختال ٥/٨٦ رقم ٢٥٧٥ =

الجهة الثالثة: الآثار قال أمير المؤمنين كرّم الله وجهه: أعظم الخطايا عند الله اللسان الكذوب، وشر الندامة ندامة يوم القيامة، وقال عمر بن عبد العزيز: ما كذبت كذبة مذ شددت عليَّ إزاري، وقال عمر رضي الله عنه: أحبكم إلينا ما لم نركم أحسنكم اسماً، فإذا رأيناكم فأحبكم إلينا أحسنكم خلقاً، فإذا اختبرناكم فأحبكم إلينا أصدقكم حديثاً وأعظمكم أمانة، وعن بعض أهل الصلاح قال: جلست أكتب كتاباً فمررت بحرف إن أنا كتبته زينت الكتاب وكنت قد كذبت فعزمت على تركه فناداني منادٍ من جانب البيت **﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾** (إبراهيم: ٢٧)، وقال الشعبي: ما أدري أيهما أبعد غوراً في النار الكذب أو البخل؟، وقال ابن السماك: ما أراني أؤجر على ترك الكذب لأني إنما أدعه أنفة، وقيل لبعض الزهاد: من يكذب كذبة واحدة هل يسمى فاسقاً؟ قال: نعم، وقال مالك بن دينار: قرأت في بعض الكتب، ما من خطيب إلا وتعرض خطبته على عمله فإن كان صادقاً صدق، وإن كان كاذباً قرضت شفتاه بمقراضين من نار كلما قرضتا نبتتا، وقال مالك بن دينار: الصدق والكذب يعتركان في القلب حتى يُخرج أحدهما صاحبه، وكلم عمر بن عبد العزيز الوليد بن عبد الملك في شيء، فقال له: كذبت، فقال عمر: ما كذبت منذ علمت أن الكذب يشين صاحبه[1].

تنبيه: نذكر فيه التحذير من الكذب بالمعاريض، اعلم أنه قد نقل عن السلف أن في المعاريض مندوحة عن الكذب، وقال عمر رضي الله عنه: أما في المعاريض ما يكفي الرجل عن الكذب، ورُوي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنه، وإنما أرادوا ذلك إذا اضطر الإنسان إلى الكذب، فأما إذا لم يكن هناك حاجة ولا ضرورة فلا يجوز التعريض لما فيه من إيهام الكذب ولكن التعريض يباح لأجل الحاجة والضرورة، ومثال المعاريض ما روي أن معاذاً عامل عمر استعمله فلما رجع قالت امرأته: ما جئت به مما

= وأحمد في المسند ٢/٤٣٣ - ٤٨٠، وابن حبان ٦/٢٩٧ رقم ٤٣٩٦، ٩/٢١٧ رقم ٧٢٩٣ وابن أبي الدنيا في الصمت ص ٢٤٣ رقم ٢٧٣.

(١) انظر الإحياء ٣/١٦٢.

يأتي به العمال إلى أهليهم؟ وما كان قد جاء بشيء، فقال: قد كان معي ضاغط، قالت: كنت أميناً عند رسول الله ﷺ وأبي بكر فيبعث معك عمر ضاغطاً، فقامت بذلك في نسائها واشتكت عمر، فلما سمع عمر ذلك دعا معاذاً وقال له: أبعثت معك ضاغطاً؟، قال: لم أجد ما أعتذر به إليها إلا ذلك فضحك عمر وأعطاه شيئاً فقال: ارضها به، وكان النخعي لا يقول لابنته أشترى لك سكراً بل يقول: أرأيت لو اشتريت لك سكراً؟ فإنه ربما لا يتفق، وكان إبراهيم بن أدهم إذا طلبه في الدار من يكرهه قال للجارية: قولي اطلبه في المسجد، وكان لا يقول: ليس ها هنا لئلا يكون كاذباً، وكان الشعبي إذا طُلب في البيت وهو يكرهه يخط دائرة ويقول للجارية: ضعي الأصبع فيها وقولي ليس ها هنا، وهذا كله في موضع الحاجة، فأما في غير موضع الحاجة فلا لأن هذا تعرض للكذب وإن لم يكن اللفظ كذباً وهو مكروه على الجملة[1].

نعم المعاريض إنما تباح للأغراض الحقيقية كتطييب قلب الغير بالمزاح كما نقل عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تدخل الجنة عجوز»[2]، وقال: «زوجك الذي في عينه بياض»[3]، وقال: «نحملك على ولد البعير»[4] وغير ذلك على جهة المطايبة وتقرير النفوس، فأما الكذب الصراح فهو حرام ولا نستثني منه إلا ما روته أم كلثوم عن رسول الله ﷺ قالت سمعت رسول الله ﷺ: «لا يُرَخَّص في الكذب إلا في ثلاث، الرجل يقول القول يريد به الإصلاح، والرجل يقول القول في الحرب والرجل يحدث امرأته والمرأة

---

(١) الإحياء ٣/١٦٢.

(٢) الترمذي في الشمائل مرسلاً من حديث الحسن البصري وهو ضعيف انظر مختصر الشمائل للألباني ص ١٢٨ رقم ٢٠٥. ورواه ابن الجوزي في الوفاء، وابن أبي الدنيا وحسنه الألباني بشواهده من غاية المرام بتخريج أحاديث الحلال والحرام بحديث رقم ٣٧٥، وانظر تخريج الإحياء ٣/١٦٢.

(٣) عزاه العراقي لابن أبي الدنيا، ورواه الزبير بن بكار في كتاب الفكاهة والمزاح، من حديث عبيدة بن سهم الفهري انظر تخريج الإحياء ٣/١٦٢، واتحاف السادة المتقين ٧/٥٠٠ وسيأتي ص ١٣٩ التعليق رقم (٩).

(٤) أبو داود في الأدب رقم (٤٩٩٨) والترمذي في البر والصلة رقم (١٩٩١) وفي الشمائل رقم (٢٠٣) والبخاري في الأدب المفرد رقم الحديث (٢٦٨) وأحمد في المسند ٣/٢٦٧ والبغوي في مصابيح السنة رقم (٣٦٠٥) الجميع عن أنس. وانظر مختصر الشمائل للألباني ص ١٢٦ ـ ١٢٧ وقال صحيح على شرط الشيخين واتحاف السادة المتقين ٧/٥٠٠.

تحدث زوجها[1]. قالت قال رسول الله ﷺ : «ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيراً أو نما خيراً»[2]، وقالت أسماء بنت يزيد: إن رسول الله ﷺ قال: «كل الكذب يكتب على ابن آدم إلا رجل كذب ليصلح بين اثنين»[3]، وقال الرسول ﷺ لرجل يصلح بين الناس: «يا أبا كاهل أصلح بين الناس ولو تعين بالكذب»[4] فهذه آفات الكذب وقد أوضحنا ما فيها والله أعلم.

الآفة الرابعة: الفحش والسب وبذاءة اللسان وما هذا حاله فهو مذموم ومصدره الخبث واللؤم قال ﷺ : «إياكم والفحش فإن الله تعالى لا يحب الفحش ولا التفحش»[5]، ونهى رسول الله ﷺ عن أن تسب قتلى قريش في بدر من المشركين فقال: «لا تسبوا هؤلاء فإنه لا يخلص إليهم شيء مما تقولون وتؤذون الأحياء، ألا إن البذاء

---

(١) مسلم رقم (٢٦٠٥) عن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط والخرائطي في مساوىء الأخلاق رقم (١٨٣) وأخرجه ابن جرير عنها وأبو عوانة من حديث أبي أيوب انظر اتحاف السادة المتقين ٧/ ٥٠٠.

(٢) البخاري عن أم كلثوم بنت عقبة في باب الصلح باب ليس الكاذب من يصلح بين الناس ومسلم في البر والصلة رقم (٢٦٠٥) رقم الحديث ٢٦٩٢ وهو جزء من الحديث المتقدم وأبو داود رقم (٤٨٩٩/ ٥٠٠٠) الأدب والترمذي في البر والصلة رقم (٢٠٠٤) وأحمد في المسند ٦/٤٠٣، ٤٠٤، ٤٠٦ وابن جرير وابن أبي الدنيا في الصمت رقم (٥٠٠) والطيالسي رقم (٢٢١٣) والبيهقي في السنن الكبرى في الشهادات ١٠/١٩٧ ـ ١٩٨ والخرائطي في مساوىء الأخلاق رقم (١٨١).

(٣) أحمد في المسند ٩/٤٥٥ ـ ٤٥٩ ـ ٤٦٠ ـ ٤٦١ عن أسماء بنت يزيد والترمذي وحسنه برقم (١٩٣٩) وانظر رقم (٢٠٠٣) وابن أبي الدنيا في الصمت (٤٩٩)، (٥٠٠) عنها وعن شهر بن حوشب وابن عدي في الكامل ١/٥٤، ٧/٢٧٠٠ عن عائشة والخرائطي في مساوىء الأخلاق رقم (١٨٥) وأخرجه البيهقي وأبو نعيم في الحلية ٩/٢٢ وابن جرير وانظر مجمع الزوائد ١/١٤٢ والطبراني في الكبير ٤١٩، ٤٢٠، ٤٢١، ٤٢٢ نحوه.

(٤) رواه الطبراني في الكبير انظر مجمع الزوائد ٨/ ٨٠ وانظر تخريج الإحياء ٣/١٧٨ واتحاف السادة المتقين ٧/ ٥٣٤.

(٥) مسلم ٤/١٤٧ وأبو داود رقم ٤٧٩٢ عن عائشة والنسائي في الكبرى في التفسير وأحمد في المسند ٢/١٥٩، ١٩١، ١٩٥ عن عبدالله بن عمرو والحاكم في المستدرك ١/١٨٣ من حديث أبي الدرداء ومن حديث ابن عمر وصححه ولابن حبان من حديث أبي هريرة أنظر موارد الظمآن رقم (٥٦٦٥) ولأحمد ٢/١٥٩، ٢٤١، ١٦٢، ١٩٠، ١٩١ عن أبي هريرة في ٤/١٤٧ وفي ٦/١٣٥، ٣٢٩ عن عائشة وفي ٥/٢٠٢ وابن خزيمة رقم (١٥٨٥) والبيهقي ١٠/٢٤٣ وأبو الشيخ في التوبيخ رقم (١٤١) والطبراني في الكبير ٣٩٩ عن أمامة.

لؤم»[1]، وقال ﷺ: «ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء»[2]، وقال ﷺ: «الجنة حرام على كل فاحش يدخلها»[3]، وقال ﷺ: «أربعة يؤذون أهل النار على ما بهم من الأذى يسعون بين الحميم والجحيم يدعون بالويل والثبور، رجل يسيل فوه قيحاً ودماً فيقال له: ما بال الأبعد قد آذانا على ما بنا من الأذى؟ فيقول: إن الأبعد كان ينظر إلى كل كلمة قذعة خبيثة فيستلذها كما يستلذ الرفث»[4]، وقال ﷺ: «يا عائشة لو كان الفحش رجلاً لكان رجل سوء»[5]، وقال ﷺ: «البذاء والبيان شعبتان من شعب النفاق»[6]، والبيان يحتمل كشف ما لا يجوز كشفه إما في القول وإما في العورة لأن في

---

(١) لفظ حديث الكتاب أخرجه الخرائطي في مساوىء الأخلاق رقم ٦٧، ٩٦ وأخرجه ابن أبي الدنيا مرسلاً من حديث محمد بن علي الباقر ورجاله ثقات. الصمت رقم ٣٢١ ورقم ٧١٩. وللنسائي نحوه الجنائز رقم ١٩٣٥ - ١٩٣٦ وفي القسامة أيضاً عن ابن عباس بلفظ «لا تسبوا أمواتنا فتؤذوا أحياءنا» والبيهقي ٤/٧٥ انظر تخريج الإحياء ٣/١٥٢ والقضاعي في مسنده ٢/٨٠١ رقم ٩٢٣، ٩٢٤ عن عائشة نحوه لأبي داود نحوه في السنن كتاب السنة الرقم الباب ١٠ وللترمذي من حديث المغيرة رقم ١٩٨٢ ورجاله ثقات وأحمد في المسند ٤/٢٥٢ وفي ٦/١٨٠ عن عائشة وللطبراني ٣/١١، ٥٤ عن المغيرة ومن حديث صخر الغامدي انظر مجمع الزوائد ٨/٧٦.
والدارمي في السنن الباب ٦٧ عنها وابن ماجه في المقدمة ١٠١ وله شواهد منها ما أخرجه البخاري في صحيحه الجنائز. الباب (٩٧) رقم الحديث ١٣٩٣ وفي الرقائق الباب (٤٢) رقم الحديث ٦٥١٦ ومسلم في الفضائل رقم الحديث ٢٢٠، ٢٢٢ عن عائشة.

(٢) البخاري في الأدب المفرد رقم (٣١٢، ٣٣٢) والترمذي في البر والصلة باب ما جاء في اللعنة رقم ١٩٧٧ عن ابن مسعود وقال حسن غريب ورواه موقوفاً ومرفوعاً وقال الدارقطني في العلل والموقوف أصح وأحمد (١/٤٠٥، ٤١٦) والحاكم في المستدرك ١/١٢، ١٣ وابن حبان رقم ١٩٢. وانظر تخريج الإحياء ٣/١٧٢ والمسند تحقيق أحمد شاكر رقم (٣٩٤٨)، ٣٨٣٩ وصحح الحديث.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في الصمت رقم ٣٢١، ٣٣٠، ٣٣٢ وأبو نعيم في الحلية ١/٢٨٨ وفيه ابن لهيعة وهو ضعيف.

(٤) رواه الخرائطي في مساوىء الأخلاق رقم الحديث ١٩٢ وأبو نعيم في الحلية ٥/١٦٧ والطبراني في الكبير رقم (٧٢٢٦) وابن المبارك في زوائد الزهد ص ٩٤ رقم الحديث ٣٢٨ وابن أبي الدنيا في الصمت رقم الحديث ٣٢٣ وانظر تخريج الإحياء ٣/١٥٢ واختلف في صحبه راوية شفي بن ماتع والحديث مرسل. أ

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في الصمت رقم (٣٣١) وأبو الشيخ في التوبيخ رقم (١٤٤) والطيالسي في المسند رقم (٢١٩٩) والخرائطي في مساوىء الأخلاق وهو أول حديث فيه عن عائشة وفيه محمد بن عبد الرحمن المليكي ووالده ضعيفان. انظر ميزان الاعتدال ٣/٦١٩، ٢/٥٥٠.

(٦) أخرجه الترمذي رقم الحديث (٢٠٢٧) وقال حسن غريب«، والحاكم في المستدرك ١/٨ وصححه على شرطهما من حديث أبي أمامة ووافقه الذهبي. وأحمد في المسند ٥/٢٦٩. وابن أبي الدنيا في الصمت رقم الحديث (٣٣٢).

الأمور ما لا ينبغي به لأنه يناقض المروءة، وقال ﷺ: «إن الله لا يحب الفاحش المتفحش الصياح في الأسواق»[1]، وقال رسول الله ﷺ: «إن الفحش والتفحش ليسا من الإسلام في شيىء، وإن أحسن الناس إسلاماً أحسنهم أخلاقاً»[2].

واعلم أن معنى الفحش والتفحش الذي أراده الرسول ﷺ بما ذكره من الوعيد عليه وهو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة، ويجري أكثر ذلك في ألفاظ الوقاع وما يتعلق بها فإن لأهل الفساد عبارات صريحة فاحشة يستعملونها ويصرحونها بها في الأندية ومجالس الناس ولا يكون ذلك إلا فيمن اختص بالوقاحة وغلظ الوجه وعدم المبالاة بالدين، فأما أهل الصلاح فإنهم يتحاشون عن التلفظ بها بل يكنون عنها ويدلون عليها بالرموز ويذكرون ما يتعلق بها ويقاربها، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن الله حيي كريم يعف ويكني، كنى باللمس عن الجماع والمسيس واللمس والدخول والصحبة كنايات عن الجماع وليست بفاحشة[3].

ومنها عبارات فاحشة يستقبح ذكرها ويستعمل أكثرها في الشتم والتعيير، وهذه العبارات متفاوتة في الفحش وبعضها أفحش من بعض وربما اختلفت بعبارة البلاد، وأوائلها مكروهة وأواخرها محظورة، وليس تختص هذه بالوقاع بل الكناية عن قضاء الحاجة بأن يقال خرجت البر ولا يقال خرجت للبول والتغوط والخراءة فإن هذا وما شاكله مما يستحى منه فلا ينبغي أن تذكر ألفاظه الصريحة فإنها فحش، ولهذا فإنه يستحسن في العادة الكناية عن النساء فلا يقال زوجتك ولا امرأتك ولكن يقال أم ولدك وأهل بيتك وأهل الدار وأهل الستر وأهل الحجرة.

وهكذا حال العاهات فإنه يستحي عن ذكرها فلا ينبغي أن يصرح بها لأن التصريح بها يكون من الفحش أيضاً فلا يقال هو مجذوم ولا هو أبرص وبه وجع البواسير، ولكن

---

(١) الطبراني من حديث أسامة بن زيد وابن أبي الدنيا في الصمت رقم (٣١٧)، (٣١٨) ورقم (٣٣٤)، (٣٣٦)، (٣٣٧) من حديث جابر وأبي سعيد بسند ضعيف وأخرجه ابن عدي في الكامل في ترجمة الفضل بن مبشر (٢٠٤٣١٦) وللترمذي نحوه رقم (٢٠١٧) وفي الشمائل ص ١٨٢ عن عائشة. وللبخاري في الأدب المفرد نحوه رقم الحديث (٣١٠) عن جابر. وأحمد في المسند (٢٣٦/٦)، (١٥٩/٢، ١٩١، ١٩٥) عن عائشة وعن أسامة وانظر (١٣٦/٦، ١٧٤، ٢٤٦). والطيالسي رقم الحديث ٢٠١٤ وابن حبان انظر موارداً الظمآن رقم (١٥٨).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٨٩/٥) وابن أبي الدنيا رقم (٣٣٩) ورجال إسناد أحمد صحيح وانظر تخريج الإحياء (١٥٣/٣) ومجمع الزوائد والترغيب والترهيب.

(٣) الإحياء ١٦٣/٣.

يقال في بدنه تغير المجذوم وفي بدنه تلون الأبرص ومجالسه متغيرة لمن به وجع البواسير، وحكي أن عمر بن عبد العزيز كان يتحفظ في منطقه فخرج به خراج في إبطه فقلنا: نسأله ماذا يقول، فقلنا له: من أين خرج؟ قال: من باطن اليد[1].

الآفة الخامسة: الاستهزاء والسخرية وهما محرمان مهما كانا يؤديان إلى الأذية قال الله تعالى: ﴿ **لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهم**﴾ (الحجرات: ١١) ومعنى السخربة الاستحقار والاستهانة والتبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه، وقد يكون ذلك بالمحاكاة في الفعل والقول وقد يكون بالإشارة والإيماء وإذا كان ذلك بحضرة المستهزء به لم يسم ذلك غيبة، وقال ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿ **ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها**﴾ (الكهف: ٤٩) الصغيرة التبسم بالاستهزاء بالمؤمن والكبيرة القهقهة قاصداً ذلك وهو إشارة إلى الضحك على الناس وهو من الحرام والذنوب، وعن عبدالله بن زمعة أنه سمع رسول الله ﷺ يخطب الناس فوعظهم مما يخرج من الإنسان من دبره من الصوت، وقال علام يضحك أحدهم مم يفعل[2].

وقال ﷺ: «إن المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم باب إلى الجنة فيقال لهم: هلم هلم فيجيء بكربه وغمه فإذا جاء أغلق عنه ثم يفتح له باب آخر فيقال هلم هلم فيجيء بكربه وغمه فإذا جاء أغلق دونه فما يزال كذلك حتى إن الرجل ليفتح له الباب فما يأتيه بعد أن يقال له هلم هلم يأساً منه»[3]، وقال الرسول ﷺ: «من عير أخاه بذنب قد تاب منه لم يمت حتى يعمله»[4]، وكل هذا يرجع إلى الاستحقار بالغير والضحك منه استصغاراً له واستحقاراً، وهذا إنما يحرم في حق من يتأذى، فأما من جعل نفسه مسخرة فربما يفرح بالمسخرة به وإنما المحرم الاستصغار الذي يتأذى به المستهزأ به لما فيه من التحقير والتهاون وذلك تارة يجري بأن يضحك على كلامه إذا تخبط ولم ينتظم أو على أفعاله إذا

---

(١) الإحياء ١٦٣/٣.

(٢) متفق عليه البخاري في الأدب رقم الحديث (٤٩٤٢)، (٦٠٤٢) عن عبد الله بن زمعة ومسلم في صفة الجنة رقم الحديث (٢٨٥٥) وأحمد في المسند ١٧/٤ والترمذي في التفسير رقم (٣٣٤٣) الجميع من حديث عبد الله بن زمعة.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في الصمت (٢٨٥) مرسلاً من حديث الحسن. وقال العراقي في تخريج الإحياء (١٦٢/٣) رويناه في ثمانيات النجيب من رواية أبي هدبة أحد الهالكين عن أنس.

(٤) الترمذي أبواب صفة القيامة رقم الحديث ٢٥٠٥ وقال حسن غريب وليس إسناده متصل من حديث معاذ بن جبل. وابن أبي الدنيا في الصمت رقم (٢٨٨) وانظر تخريج الإحياء (١٦٤/٣).

كانت مشوشة كالضحك على خطه أو على صنعته أو على صوته وخلقته إذا كان قصيراً أو ناقصاً بعيب من العيوب، والضحك من جملة ذلك داخل في السخرية المنهي عنها المذمومة أمثالها.

الآفة السادسة: المراء والمجادلة بالباطل وفيه تنبيهات أربعة: .

التنبيه الأول: في ذمه، وهو منهي عنه لقوله ﷺ: «ذروا المراء فإنه لا يفهم حكمته ولا يؤمن فتنته»[١]، وقال ﷺ: «من ترك المراء وهو محق بنى الله له بيتاً في أعلى الجنة، ومن ترك المراء وهو مبطل بنى الله له بيتاً في رياض الجنة»[٢]، وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ: «أول ما عهد إليّ ربي ونهاني بعد عبادة الأوثان وشرب الخمر ملاحاة الرجال»[٣]، وقال أيضاً: «ما ضل قوم إلا أوتوا الجدال وحرموا العمل»[٤]، وقال ﷺ: «لا يستكمل عبد حقيقة الإيمان حتى يدع المراء وإن كان محقاً»[٥]، وقال عليه السلام: «ست من كن فيه بلغ حقيقة الإيمان الصيام في الصيف، وضرب أعداء الله بالسيف، وتعجيل الصلاة في اليوم الدجن، والصبر على المصيبات،

---

(١) رواه الطبراني في الكبير انظر مجمع الزوائد ١/١٥٦، ٧/٢٥٩ من حديث أبي الدرداء وأنس وأبي أُمامة وواثلة. ورواه ابن أبي الدنيا في الصمت رقم (١٢٧) عن ابن مسعود موقوفاً وأبو نعيم في الحلية ٥/٣٢٥ ونسبه لعمر بن عبد العزيز، ونسبه أبو الوفاء بن مبشر بن فاتك في مختار الحكم ص ٢٧٦ للقمان الحكيم وانظر تخريج أحاديث الإحياء للعراقي ٣/١٤٦.

(٢) الترمذي رقم الحديث ١٩٩٣ في البر والصلة من حديث أنس وقال حديث حسن وأبو داود رقم الحديث (٤٧٧٩) في الأدب باب حسن الخلق من حديث أبي أمامة وابن ماجة في المقدمة باب اجتناب البدع والجدل رقم الحديث (٥١) وابن أبي الدنيا في الصمت رقم (١٤٠) والبيهقي في السنن ـ الشهادات ١٠/٢٤٩ وانظر تخريج الأحياء ١/٦٨.

(٣) أبو داود في المراسيل رقم الحديث ٥٠٦ ص ٣٤٤ من حديث عروة بن مريم برجال ثقات والطبراني في الكبير ٢٣/٥٠٥ ـ ٥٥٢ وانظر مجمع الزوائد ٨/٢٧ وقال الهيثمي فيه يحيى بن المتوكل وهو ضعيف عند الجمهور ووثقه ابن معين. وهو من حديث أم مسلمة عند الطبراني ومن حديث أبي الدرداء وأخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت رقم (١٣٤) والبيهقي في السنن الشهادات ١٠/١٩٤ وانظر تخريج الإحياء ٣/١٤٦ ورواه أبو نعيم من حديث معاذ بن جبل وابن أبي شيبة من حديث أم سلمة .

(٤) الترمذي في الجامع التفسير سورة الزخرف رقم الحديث (٣٢٥٠) وقال حسن صحيح وابن ماجه في السنن رقم (٤٨) وأحمد في المسند ٥/٢٥٢، ٢٥٦ والحاكم في المستدرك ٢/٤٤٧ ـ ٤٤٨ وقال هذا حديث صحيح الإسناد ووافقه الذهبي وابن أبي الدنيا في الصمت رقم (١٣٥).

(٥) أحمد في المسند ٢/٣٥٢، ٣٥٣، ٣٦٤ نحوه عن أبي هريرة وابن أبي الدنيا في الصمت رقم (١٣٩) بسند ضعيف.

وإسباغ الوضوء على المكاره، وترك المراء وهو صادق»[1].

وقال الزبير لابنه: لا تجادل الناس بالقرآن فإنك لا تستطيعهم ولكن عليك بالسنة، وقال عمر بن عبد العزيز: من جعل دينه عرضة للخصومات أكثر التنقل، وقال مسلم بن بشار: إياكم والمراء فإنها ساعات جهل العالم وعندها يبتغي الشيطان زلته، وقيل: ما ضل قوم بعد إذ هداهم الله إلا بالجدل، وقال مالك بن أنس: ليس هذا الجدال من الدين في شيء، وقال أيضاً: المراء يقسي القلوب ويؤرث الضغائن، وقال لقمان لابنه: يا بني لا تجادل العلماء فيمقتوك، وقال بلال بن سعد: إذا رأيت الرجل لجوجاً ممارياً معجباً برأيه فقد تمت خسارته، وقال سفيان: لو خالفت أخي في رمانة فقلت حلوة وقال حامضة لسعى بي إلى السلطان، وقال سفيان: صاف من شئت ثم أغضبه بالمراء فليرمينك بداهية تمنعك من العيش، وقال ابن أبي ليلى: لا أماري صاحبي فإما أن أكذبه وإما أن أغضبه، وقال أبو الدرداء: كفى بك إثماً أن لا تزال ممارياً، وقال عمر رضي الله عنه: لا تتعلم العلم لثلاث ولا تتركه لثلاث، فلا تتعلمه لتماري به ولتباهي به ولترآئي به، ولا تتركه حياء من طلبه ولا زهادة فيه ولا رضىً بالجهل منه، وقال عيسى صلوات الله عليه: من كثر كذبه ذهب بهاؤه وجماله، ومن لاحى الرجال سقطت مروءته، ومن كثر همه كثر سقمه، ومن ساء خلقه عذب نفسه، وقيل لميمون بن مهران: مالك لا يفارقك أخ لك، فقال: لأني لا أشاريه ولا أماريه.

التنبيه الثاني: في بيان حدِّ المراء، وإنما أخرنا الكلام في ماهيته لأن ذمه أدخل في النفع فبدأنا به وهو كل اعتراض على كلام الغير بإظهار خلل فيه إما في اللفظ وإما في المعنى، وإما في قصد المتكلم، وترك المراء إنما يكون بترك الاعتراض والإنكار، فكل كلام سمع السامع فإن كان حقاً صدق به، وإن كان باطلاً ولم يكن متعلقاً بأمور الدين فاسكت عنه، والطعن في كلام الغير تارة يكون في لفظه بإظهار خلل من جهة النحو أو من جهة اللغة العربية أو من جهة النظم والترتيب بتقديم وتأخير وذلك من طريق علوم المعاني والبيان، وتاره يكون من جهة قصور المعرفة، وتارة يكون من جهة الطغيان الجاري على اللسان، وكيفما كان فلا وجه لإظهار خلله[2].

---

(١) رواه أبو منصور الديلمي في الفردوس رقم الحديث (٣٤٨٤) عن أبي مالك الأشعري بسند ضعيف ونحوه عن أبي سعيد رقم ٣٤٨٥).

والبيهقي في الشعب وضعفه. انظر تخريج الإحياء ١٤٧/٣ وفيض القدير رقم الحديث (٤٦٥٣).

(٢) انظر الإحياء ١٤٧/٣.

وأما من جهة المعنى كأن يقول ليس الأمر كما تقول: وقد أخطأت فيه من جهة كذا وكذا وأما من جهة قصده فكأن يقول: هذا الكلام حق ولكن لم يرد صاحبه به وجه الله تعالى وإنما قصد به الرياء والسمعة وما يجري مجراه، فالواجب السكوت في مثل هذا لما فيه من السلامة عن هذه الآفات المتطرقة إلى المرآء، نعم إنما تحصل السلامة مما هذا حاله إذا كان السؤال على جهة الاستفادة لا على جهة العناد، والمذاكرة والتلطف في تعرف الصواب لا في معرض الطعن ونقص الغير بالقدح ونسبته إلى القصور والجهل وإظهار فضل نفسه، فما هذا حاله هو المحظور في الدين المثير للعداوة والبغضاء بسبب المراء.

التنبيه الثالث: في الباعث على المراء، وجملة ما يبعث على ذلك أمران، الأمر الأول: منها إظهار الفضل لنفسه والعجب بحاله وذلك يؤدي إلى تزكية النفس وهو مقتضى طغيانها وإظهار العلو والتكبر وهو من صفات الربوبيه، الأمر الثاني: الهجوم على نقص الغير بإظهار عيبه وجهالته في المسألة وهو مقتضى صفات السباع فإنه يؤدي إلى تمزيق عرضه ونقصه وأذيته، وهاتان صفتان مذمومتان مهلكتان للدين، والباعث عليهما هو المراء والجدال، فالمواظب على المراء والجدال بالباطل مقو لهذه الصفات المهلكة، وهذا هو النهاية في الكراهة بل هو معصية مهما حصل فيه إيذاء الغير وتقطيع عرضه، ولا تنفك المماراة عن الإيذاء وهيجان الغضب وتحمل المعترض على أن ينصر كلامه بما يمكنه من حق أو باطل ويقدح في المعترض بكل ما يتصور ويمكنه كذباً أو صدقاً، وعند هذا يثور الشجار بين المتمارين كما يثور التهارش بين الكلبين الضاريين فإن كل واحد منهما يجتهد في أن يعض صاحبه، بما هو أعظم نكاية وأقوى في إفحامه وقطعه.

فأما الجدال لطلب الحق وإزالة الباطل في القطعيات فهو مما ندب الله إليه بقوله: ﴿ **وجادلهم بالتي هي أحسن** ﴾ (النحل: ١٢٥) وقوله تعالى: ﴿ **ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن** ﴾ (العنكبوت: ٤٦) والتي هي أحسن هو تعريف طريق الصواب وإظهار الحق بالمجادلة المقصود بها وجه الله تعالى.

التنبيه الرابع: في بيان علاجه، والسلامة منه إنما يكون بكسر نخوة الباعث عليه وهو إظهار فضل نفسه ومحبة النقص لغيره، فإن علاج كل علة إنما تكون بإماطة أسبابها والسبب في المراء هو ما ذكرناه، وحكي أن أبا حنيفة رحمه الله تعالى قال لداود الطائي: لم آثرت الانزواء عن الناس؟ قال: لأجاهد نفسي بترك الجدال، فقال له: أحضر في مجالس العلم فلا تكلم واسمع ما يقال، قال: ففعلت ذلك فما رأيت مجاهدة أشد علي

منها لأن كل من سمع من غيره خطأ وهو قادر على كشفه له يعسر عليه الصبر عنه، وأكثر ما يحصل فيه المراء هو المذاهب والعقائد فإن المراء يعرض فيها كثيراً، وكل من ألف المراء وتعود المجادلة بالباطل فإنه يتقوى عليه سلطان الغضب والكبر وهما خصلتان مهلكتان فنعوذ بالله من استيلائهما على الأفئدة وقوة سلطانهما على القلوب.

الآفة السابعة: اللعن لحيوان أو جماد أو لإنسان[1]:

واعلم أن ذلك مذموم، واللعن عبارة عن الطرد والإبعاد وقد صار بالشرع منقولاً إلى الطرد والإبعاد عن رحمة الله تعالى وذلك غير جائز إلا على من يتصف بصفة تبعده عن رحمة الله كالكفر والفسق كما قال تعالى: ﴿**ألا لعنة الله على الظالمين**﴾ (هود: ١٨) وعلى الكافرين وعلى الكاذبين، والصفات المقتضية للعن تكون على ثلاث مراتب، المرتبة الأولى: صفة خاصة كاليهودية والنصرانية والمجوسية وعلى الزناة والشربة وآكلي الربا وأموال الأيتام والظلمة، وكل ذلك جائز، لاستحقاقهم لذلك، المرتبة الثانية: على الكفرة والفسقة وأهل الردة وغيرهم، المرتبة الثالثة: إيقاع اللعن على شخص معين، وهذه المرتبة هي أخص مما سبقها من المرتبيتين السابقتين، فكل شخص تقرر كفره جاز لعنه كما يقال فرعون ملعون وابن ملجم ملعون تقرر فسق من هذا حاله، سؤال: فإن قال قائل: إن إطلاق اللعن على كل من تقرر كفره أو فسقه، ومات مصراً على ذلك فكيف الحال فيمن ثبت كفره أو فسقه في حال الحياة هل يجوز إطلاقه عليه أم لا؟، وجوابه من وجهين أما أولاً: فلأن ذلك يجوز إطلاقه لأن الاعتبار إنما هو بالحالة التي هو عليها من كفر أو فسق فلهذا جاز لعنه مطلقاً اعتباراً بحاله، وأما ثانياً: فلا يجوز لعن الكافر والفاسق في حال حياتهما على جهة الإطلاق لأن التوبة من جهتهما ممكنة فلا يجوز الإطلاق وإنما يكون على جهة الشرط، والشرط وإن لم يكن ظاهراً فإنه يكون مضمراً[2].

وقد دل الشرع على ذم اللعن بقوله ﷺ: «المؤمن لا يكون لعاناً»[3]، وقال ﷺ:

---

(١) انظر الإحياء ٣/١٤٧.

(٢) انظر الإحياء ٣/١٤٧.

(٣) الترمذي في البروالصلة رقم (٢٠١٩) وقال حديث حسن غريب من حديث ابن عمر وابن مسعود رقم (١٩٧٧) وقال حسن غريب والحاكم في المستدرك ١/١٣ وصححه وقال يروى مرفوعاً وموقوفاً وقال الدارقطني الموقوف أصح. وله شواهد أخرى ذكرها الحاكم في المستدرك ١/١٣ وتقدم نحوه ص ١٢٣ التعليق رقم (٤).
وأخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت رقم (٢٨٣) والبخاري في الأدب المفرد رقم (٣٠٩).

«لا تدعوا بلعنة الله ولا بغضبه ولا بجهنم»[١]، وقال حذيفة: «ما تلاعن قط قوم إلا حق عليهم القول»[٢]، وقال عمران بن الحصين: بينا رسول الله ﷺ في بعض أسفاره إذا امرأة من الأنصار على ناقة فضجرت منها فلعنتها، فقال رسول الله ﷺ: «خذوا ما عليها وعروها فإنها ملعونة»[٣]، قال: فكأني أرى تلك الناقة تمشي في الناس لا يعترض لها أحد، وقال أبو الدرداء: ما لعن أحد الأرض إلا قالت الأرض لعن الله أعصانا لربه[٤]، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمع رسول الله ﷺ أبا بكر وهو يلعن بعض رقيقه، فالتفت إليه فقال: يا أبا بكر لعانين وصديقين كلا ورب الكعبة لعانين وصديقين كلا ورب الكعبة مرتين أو ثلاثاً، فأعتق أبو بكر يومئذ رقيقه وجاء إلى النبي ﷺ وقال لا أعود[٥].

وقال ﷺ: «إن اللعانين لا يكونون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة»[٦]، وقال أنس: كان رجل مع رسول الله ﷺ على بعير فلعن بعيره، فقال: يا عبد الله أتسير معنا على بعير ملعون وقال ذلك إنكاراً[٧]، وقال رجل لرسول الله ﷺ: أوصني فقال: أوصيك لا

---

(١) الترمذي رقم (١٩٧٦) في البر والصلة باب ما جاء في اللعنة من حديث سمرة وقال حسن صحيح. وأبو داود في السنن رقم الحديث (٤٩٠٦).

(٢) ذكره الغزالي في الإحياء ٣/١٥٤ من قول حذيفة بن اليمان.

(٣) مسلم في صحيحه باب النهي عن لعن الدواب في البر والصلة رقم ٨٠.
أبو داود في السنن الجهاد باب النهي عن لعن البهيمة رقم الحديث ٢٥٦١ وأحمد في المسند ٤/٤٢٩، ٤٣١ والدارمي في الإستئذان ٢/٢٨٨ وابن حبان ٧/٤٩٧ رقم (٥٧١٠).
وابن أبي الدنيا في الصمت رقم (٣٧١) وعبد الرزاق في المصنف رقم (١٩٥٣٢) عن عمران بن الحصين. ونسبه المنذري للنسائي في السنن الكبرى.

(٤) أخرج نحوه ابن أبي الدنيا في الصمت رقم (٣٨٥) عن الفضيل بن عياض وانظر تخريج الإحياء ٣/١٥٤.

(٥) ابن أبي الدنيا في الصمت رقم (٦٨٩) عن شيخه بشار بن موسى الخفان ضعفه الجمهور وكان أحمد حسن الرأي فيه انظر تخريج الإحياء ٣/١٥٤.

(٦) مسلم في البر والصلة رقم (٨٥، ٨٦) وأبو داود في الأدب رقم (٤٩٠٧) عن أبي الدرداء والبخاري في الأدب المفرد رقم (٣١٦) وأحمد ٦/٤٤٨ وابن حبان رقم (٥٧١٦) وأخرجه أبو عوانة والحاكم ١/٤٨ وانظر تخريج الإحياء ٣/١٥٤.

(٧) أخرجه مسلم في البر والصلة باب النهي عن لعن الدواب رقم الحديث (٣٨٧) عن أبي برزة الأسلمي بلفظ (لا تصحبنا على ناقة عليها لعنة) أخرجه أبو داود في الجهاد الباب رقم (٥٥) باب النهي عن لعن البهيمة عن عمران، وأخرجه أحمد في المسند (٤/٤١٩، ٤٢٠، ٤٢٣، ٤٢٩، ٤٣١) وفي (٦/٧٢، ١٣٨، ٢٥٨) وأخرجه ابن حبان في صحيحه رقم الحديث (٥٧١٣) عن أبي برزة وله من حديث جابر نحوه رقم (٥٧١٢) وأخرجه الدارمي في السنن: الاستئذان (٢/٢٨٨) رقم الباب (٤٥).
وأخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت رقم الحديث (٣٧١، ٦٦٥) من حديث أنس بسند جيد، وانظر تخريج أحاديث إحياء علوم الدين للعراقي (٣/١٥٥)، وانظر مصنف عبد الرزاق (١٠/٤١٢، ٤١٣) رقم ١٩٥٣.

تكون لعاناً[1]، وقال ابن عمر رضي الله عنه: إن أبغض عباد الله إلى الله كل طعان لعان[2]، وقال عليه السلام: «لعن المؤمن يعدل قتله»[3].

الآفة الثامنة: الخوض في الأمور الباطلة، وهو الكلام في المعاصي نحو حكاية أحوال النساء ومجالس الخمر ومقامات العشاق وتنعم الأغنياء وتجبر الملوك في مراسمهم المذمومة وأحوالهم المكروهة وحكايات مقامات المغنين فإن كل ذلك لا يحل الخوض فيه فإنه حرام، فأما الكلام فيما لا يعني أو الأكثر مما يعني فهو ترك الأولى ولا تحريم فيه، خلا أن من يكثر الكلام فيما لا يعنيه لا يؤمن عليه الخوض في الباطل، وأكثر الناس يتجالسون للتفرج بالحديث ولا يعدو كلامهم التفكه بأعراض الناس والخوض في الباطل، وأنواع الباطل لا يمكن تحصى لكثرتها وتفننها ولهذا فإنه لا مخلص منه إلا بالاقتصار على ما يعني من مهمات الدين والدنيا وفي هذا الجنس يقع من الكلمات ما يهلك، صاحبها وهو يستحقرها.

وقد قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله بها سخطه إلى يوم القيامة»[4]، وقال ﷺ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة ليضحك بها جلساءه يهوي بها أبعد من الثريا»[5]، وقال رسول

---

(1) أخرجه أحمد في المسند ٥/٧٠، والطبراني في الكبير، انظر مجمع الزوائد ٨/٧١ من طريق عبيد الله بن هوذة عن رجل عن جرموز الجهني، وفيه رجل لم يسم، وأخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني وأسقط الرجل الذي لم يسم وأخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت رقم الحديث ٦٦٦.

(2) أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت رقم الحديث ٦٦٧، وانظر تخريج أحاديث إحياء علوم الدين ٣/١٥٨.

(3) أخرجه البخاري في الأدب: الباب (٤٤) رقم الحديث ٦٠٤٧، وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان رقم الحديث ١٧٦، وأحمد في المسند ٤/٣٣ والدارمي في السنن في الديات رقم الباب (١٠) من حديث ثابت بن الضحاك وابن أبي الدنيا في الصمت رقم الحديث ٦٦٩ عن أبي قتادة، والطبراني في الكبير، والخرائطي في مساوىء الأخلاق رقم الحديث ٢٢، ٢٣ عن ثابت بن الضحاك وعن ابن مسعود، وأخرج نحوه الترمذي رقم الحديث ١٩٨٣ في البر والصلة عن ابن مسعود.

(4) أخرجه البخاري في الرقائق رقم الباب ٢٣ رقم الحديث ٦٤٧٧ عن أبي هريرة، ومسلم في الزهد رقم الحديث ٤٩ - ٥٠، والترمذي في الزهد رقم الحديث ٢٣١٤ وابن ماجة في السنن رقم الحديث ٣٩٧٠، وأحمد في المسند ٢/٢٣٦، ٣٥٥، ٣٧٩، ٤٠٢، ٥٣٣ وفي ٨١٣، وابن أبي الدنيا في الصمت رقم الحديث ٧٠ والحاكم في المستدرك ١/٤٥، ٤٦.

(5) أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت رقم الحديث ٧١ عن أبي هريرة بسند حسن وشهد له الحديث المتقدم قبله.

الله ﷺ: «أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوضاً في الباطل»[1]، وإليه الإشارة بقوله عز وجل: ﴿ **وكنا نخوض مع الخائضين** ﴾ (المدثر: ٤٥) فهذا هو الخوض في الأمور الباطلة وهو وراء ما ذكرناه في الغيبة والنميمة والفحش وغيرها ويدخل فيه الخوض في حكاية البدع والمذاهب الفاسدة، وحكاية ما جرى بين الصحابة رضي الله عنهم على وجه الطعن وإسقاط مراتبهم وكل ذلك باطل، والحديث فيه خوض في الباطل نعوذ بالله من الخوض فيما لا يعني.

الآفة التاسعة: الخصومات، وهي أيضاً مذمومة وتكون وراء المرآء والجدال فالمراء طعن في كلام الغير لإظهار خلل فيه، والجدال عبارة عن أمر يتعلق بإظهار المذاهب، فأما الخصومة فهي لجاج في الكلام ليستوفي به مالاً أو حقاً مقصوداً، وذلك تارة يكون على جهة الابتداء وتارة يكون على جهة الاعتراض، والمراء لا يكون إلا اعتراضاً على كلام سابق، وقد قالت عائشة رضي الله عنها قال رسول الله ﷺ: «إن أبغض الرجال إلى الله تعالى الألد الخصم»[2]، وقال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ: «من جادل في خصومة بغير علم لم يزل في سخط الله حتى ينزع»[3]، وقال بعضهم: إياك والخصومة فإنها تمحق الدين، ويقال: ما خاصم قط من له ورع في الدين، وقال ابن قتيبة: مر بي بشر بن عبد الله فقال: ما يجلسك ها هنا؟ قلت: خصومة بيني وبين ابن عم لي، فقال: إن لأبيك يداً وإني أريد أن أجزيك بها وإني والله ما رأيت شيئاً أذهب للدين ولا أنقص للمروءة ولا أضيع للذة ولا أشغل للقلب من خصومة قال: فقمت لأرجع، فقال خصمي: مالك؟ قلت: لا أخاصمك قال: عرفت أنه حقي قلت: لا ولكن أكرم نفسي عن الخصومة، قال: فإني أيضاً لا أطلب منه شيئاً هو لك[4].

سؤال: فإذا كان لإنسان حق ولا بد له من الخصومة في طلبه أو في حفظه مهما طلبه ظالم فكيف يكون حكمه وكيف تكون خصومته مذمومة؟ **وجوابه**: أن هذا الذم إنما

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت رقم الحديث ٧٦، ٦٧٤، عن عقبة بن عامر، ومرسلاً عن قتادة ورجاله ثقات، وأخرجه الطبراني موقوفاً عن ابن مسعود واسناده صحيح، وانظر مجمع الزوائد ١٠/٣٠٣ وقال رواه الطبراني ورجاله ثقات وأخرجه أحمد في الزهد ص ١٦٠، وانظر تخريج إحياء علوم الدين ٣/١٤٦.

(٢) أخرجه البخاري عن عائشة في صحيحه: الأحكام باب الألد الخصم رقم الحديث ٧١٨٨ وأحمد في المسند ٦/٦٣ و ٢٠٥، والبيهقي في السنن الكبرى ١٠/١٠٨.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت رقم الحديث ١٥٣ وأخرجه في ذم الغيبة أيضاً، وأخرجه الأصبهاني في الترغيب والترهيب من حديث أبي هريرة وفيه رجاء أبو يحيى وضعفه الجمهور انظر تخريج أحاديث الإحياء ٣/١٤٩.

(٤) انظر إحياء علوم الدين ٣/١٤٩.

يتناول الذي يخاصم بالباطل والذي يخاصم بغير علم ، فأما المظلوم الذي ينصر حجته بطريق الشرع من غير لدد وإسراف وزيادة لجاج على قدر الحاجة من غير قصد عناد وإيذاء ففعله ليس حراماً ، ولكن الأولى تركه إذا وجد إليه سبيلاً ، فإن ضبط اللسان في الخصومة وجريه على حد الاعتدال متعذر ، والخصومة توغر الصدر وتهيج الغضب وإذا هاج الغضب نسى المتنازع فيه وبقى الحقد بين المتخاصمين وتجددت العداوة حتى يفرح كل واحد منهما بمساءة صاحبه ويحزن بمسرته ويطلق اللسان في عرضه ، فمن ابتدأ بالخصومة فقد تعرض لهذه الأخطار وأقل ما في الخصومة هو تشوش الخاطر ، حتى أنه في صلاته يشتغل بمحاجة خصمه فلا يبقى الأمر على حد الواجب ، والخصومة مبدأ لكل شر فينبغي أن لا يفتح بابها إلا لضرورة وعند الضرورة ينبغي أن يتحفظ صاحبها عن هذه الغوائل العظيمة[1].

وقد قال تعالى : ﴿ **وقولوا للناس حسناً** ﴾ (البقرة : ٨٣) وقال ﷺ : «الكلمة الطيبة حسنة»[2]، وقال بعض الحكماء : كل كلام لا يسخط ربك إلا أنك ترضي به جليسك فلا تكن به عليه بخيلاً فلعل الله أن يعوضك به ثواب المحسنين[3].

الآفة العاشرة: التقعر في كلام بالتشدق ، وتكلف السجع والفصاحة والتصنع فيه فكل ذلك من التكلف الممقوت ، والتصنع المذموم الذي قال فيه الرسول ﷺ : «أنا والأتقياء من أمتي برءاء من التكلف»[4]، وقال ﷺ :«إن أبغضكم إلى الله تعالى وأبعدكم مني مجلساً الثرثارون المتفيهقون المتشدقون»[5]، الثرثار: المتكلم فيما لا يعني ،

---

(١) انظر إحياء علوم الدين ١٤٩/٣.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب باب طيب الكلام رقم الحديث ٦٠٢٣ عن أبي هريرة بنحوه، وأخرجه مسلم في الزكاة باب اسم الصدقة تقع على كل نوع من أنواع المعروف.
وأخرجه أحمد في المسند ٣١٦/٢، ٣٥٠، ٣٧٤ والبيهقي في السنن ١٨٨/٤ في الزكاة باب وجوب الصدقة، وابن أبي الدنيا في الصمت رقم الحديث ٣١٣.

(٣) انظر إحياء علوم الدين ١٤٩/٣.

(٤) رواه الدارقطني في الأفراد من حديث الزبير بن العوام مرفوعاً بإسناد ضعيف بلفظ «ألا إني بريء. . .» وله شاهد من حديث أنس أخرجه البخاري عن أنس من قول عمر بلفظ «نهينا عن التكلف في الاعتصام ٧٢٩٣، ولأحمد والطبراني في الكبير والأوسط عن سلمان بلفظ «لولا أنا نهينا عن التكلف لتكلفت لكم» مسند أحمد ٤٤١/٥، ولأبي نعيم في الحلية نحوه، انظر تخريج أحاديث الإحياء ١٦٥٠/٤ وقال النووي: لا يثبت. انظر المقاصد الحسنة للسخاوي ص ١٩١، وكشف الخفاء ٦٢١/١.

(٥) أخرجه الترمذي من حديث جابر رقم الحديث ٢٠١٨ وحسنه بلفظ «أبغضكم إليَّ . . .» وأخرجه أحمد في المسند من حديث أبي ثعلبة ١٩٤/٤، انظر تخريج الإحياء ١٥١/٣.

والمتفيهق: الذي يتكلم بملء فيه من قولهم الإناء إذا امتلأ، والمتشدق • الذي يكثر الكلام من غير فائدة، وقال ﷺ: «شر أمتي الذين غذوا بالنعيم يأكلون ألوان الطعام ويلبسون ألوان الثياب ويتشدقون في الكلام»(١)، وقال ﷺ: «ألا هلك المتنطعون في الكلام»(٢)، ثلاث مرات، والتنطع هو التعمق، والاستقصاء، وقال عمر: إن شقاشق الكلام من شقاشق الشيطان، ويدخل فيه كل سجع متكلف، وكذلك التفاصح الخارج عن العادة، وهكذا تكلف السجع في أثناء المحاورات لأن أثر التكلف والتصنع يظهر عليه بل ينبغي أن يقتصر في كل شيء على مقصوده ومقصود الكلام الفهم للأغراض، فما وراء ذلك تصنع مذموم، ولا يدخل في هذا تحسين ألفاظ الخطب والمواعظ والتذكير من غير إفراط ولا تطلب الغريب من الكلام لأن المقصود إنما هو تحريك القلوب وتشويقها وقبضها وبسطها، ولا شك أن لرشاقة الألفاظ تأثيراً فيه فهو لائق بهذا المقام، فأما المحاورات التي تجري في قضاء الحاجات فلا يليق بها التسجيع، والاشتغال بهذا يكون من التكلف المذموم ولا باعث عليه إلا الرياء وإظهار الفصاحة والتميز بالبراعة، وكل ذلك ينكره الشرع ويزجر عنه. (٣).

الآفة الحادية عشر: الكلام فيما لا يعنيك، إعلم أن أحسن أحوالك أن تحفظ ألفاظك من جميع الآفات كالكذب والمراء والنفاق والغيبة والنميمة، وحقه أن يتكلم بما هو مباح لا ضرر عليك فيه ولا على مسلم، خلا أنك إذا تكلمت بما ليس فيه حاجة وأنت مستغن عنه فلا حاجة لك إليه فأنت مضيع زمانك ومحاسب على لسانك ومستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، وقد قال ﷺ: «المؤمن لا يكون صمته إلا فكراً ونظره إلا عبرة

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير ١٢٦/٨ وابن أبي الدنيا في الصمت رقم الحديث ١٥٠ وأخرجه في الجوع وذم الغضب من حديث عروة بن ريم وأخرجه تمام في فوائده ٩٤٣/٢، وأخرجه البيهقي في الشعب وابن عدي في الكامل ١٩٥٦/٥، وابن عساكر من طريق عبد الإله بن حسين عن أمه فاطمة بنت رسول الله ﷺ، أخرجه أحمد في الزهد صفحة ٧٧، ٣٧٤ وإسناده حسن، وابن المبارك في الزهد صفحة ٢٦٢ وهناد السري في الزهد رقم الحديث ٩٠٤ بإسناد ضعيف فيه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الأفريقي وفيه انقطاع أخرجه أبو نعيم في الحلية ٩٠/٦، ١٢٠ وأخرجه الديلمي في الفردوس من طريق أبي هريرة أيضاً رقم الحديث ٣٦٤٧، وانظر مجمع الزوائد ٢٥٠/١٠، وتخريج الإحياء ٥١/٣ وقال العراقي فيه انقطاع وانظر الترغيب والترهيب للمنذري ١٢١/٣.

(٢) أخرجه مسلم بلفظ «هلك المتنطعون. . . رقم الحديث ٢٦٧١ عن ابن مسعود كتاب العلم باب «هلك المتنطعون. أخرجه أبو داود في السنن كتاب السنة باب لزوم السنة رقم الحديث ٤٦٠٨، أخرجه أحمد ٣٨٦/١ وابن أبي الدنيا في الصمت رقم الحديث ١٤٧.

(٣) انظر الإحياء ١٥١/٣.

ونطقه إلا ذكراً»[١]، بل رأس مال العبد أوقاته؛ ومهما صرفها إلى ما لا يعنيه ولم يدخر بها ثواباً في الآخرة فقد ضيع رأس ماله، ولهذا قال ﷺ: «من حسن إسلام العبد تركه ما لا يعنيه»[٢]، وقد ورد ما هو أشد من هذا، قال أنس بن مالك: استشهد منا غلام يوم أحد فوجد على بطنه صخرة مربوطة فمسحت أمه التراب عن وجهه وقالت: هنيئاً لك الجنة يا بني، فقال الرسول ﷺ: «وما يدريك لعله تكلم فيما لا يعنيه ويمنع مالا يضره»[٣]، وفي حديث آخر أن الرسول ﷺ فقد كعباً فسأل عنه فقالوا هو مريض فخرج رسول الله ﷺ يمشي حتى أتاه فلما دخل عليه قال: «أبشر يا كعب» فقالت أمه: هنيئاً لك الجنة يا كعب، فقال رسول الله ﷺ: من هذه المتألية على الله عز وجل، فقال: هي أمي يا رسول الله، قال: «وما يدريك يا أم كعب لعل كعباً قال مالا يعنيه أو منع مالاً يغنيه»[٤].

وعن محمد بن كعب أن رسول الله ﷺ قال: أول من يدخل هذا الباب رجل من أهل الجنة فدخل عبد الله بن سلام، فقام إليه ناس من أصحاب رسول الله ﷺ فأخبروه بذلك، فقالوا له: أخبرنا بأوثق عملك في نفسك مما ترجو به الخير فقال: إني لضعيف العمل وإن أوثق ما أرجو الله به سلامة الصدر وترك ما لا يعنيني[٥]، وقال أبو ذر قال

---

(١) قال العراقي في تخريج أحاديث الاحياء ٣/١٤١: لم أجد له أصلاً وروي محمد بن زكريا الغلابي أحد الضعفاء عن ابن أبي عباية عن أبيه قال: «خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «إن الله أمرني أن يكون نطقي ذكراً».

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد رقم الحديث ٢٣١٧ من حديث أبي هريرة وقال: غريب. وأخرجه ابن ماجة رقم الحديث ٣٩٧٦، وأخرجه أحمد في المسند ١/١ - ٢ عن الحسين بن علي، وأخرجه مالك في الموطأ ص ٥٦٣ حسن الخلق، وفيه خالد بن عبد الرحمن المخزومي ضعيف، وأخرجه ابن عدي في الكامل المجلد ٣ ص ٣/٩٠٧ وابن أبي الدنيا في الصمت رقم الحديث ١٠٧ وأخرجه أبو يعلى، والبيهقي في السنن، وقال العراقي في تخريج الاحياء ٣/١٤٢: الصحيح المرسل وانظر مجمع الزوائد ٨/١٨.

(٣) أخرجه الترمذي في الزهد من حديث أنس، وقال: غريب رقم الحديث ٢٤١٨ من تحفة الأحوذي وأخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت رقم الحديث ٧٤ و ١٠٩ بسند ضعيف فيه يحيى بن يعلى الأسلمي وهو ضعيف ورواه الطبراني عن أنس. انظر مجمع الزوائد ١٠/٣٠٣ وقال: رواه أبو يعلى وفيه يحيى بن يعلى الأسلمي. وانظر الاصابة في تراجم الصحابة لابن حجر ٨/٢٨٨.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت رقم الحديث ١١٠ من حديث كعب بن عجرة بإسناد جيد، وقال العراقي في تخريج الاحياء ٣/١٤٢ الظاهر انقطاعه في الصحابي والراوي عنه انظر الاصابة ٨/٢٨٨.

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت رقم ١١١ مرسلاً وفي إسناده أبو نجيح: أُختلف فيه. انظر تخريج الاحياء ٣/١٤٢ وأخرجه إسحاق بن راهويه وفيه ضعف وانقطاع. قال الحافظ ابن حجر في المطالب العالية ٤/١٢٠ - ١٢١: فيه ضعف وانقطاع وأصله في الصحيح.

رسول الله ﷺ : «ألا أعلمك بعمل خفيف على البدن ثقيل في الميزان، فقلت: نعم، قال: هو الصمت وحسن الخلق وترك ما لا يعنيك»[1].

وقال مجاهد سمعت ابن عباس رضي الله عنه يقول: خمس لهن أحسن من الدهم الموقفة لا تتكلم فيما لا يعنيك فإنه فضل ولا آمن عليك الوزر، ولا تكلم فيما يعنيك حتى تجد له موضعاً فإنه رب متكلم في أمر يعنيه قد وضعه في غير موضعه فتعب، ولا تمار حليماً ولا سفيهاً فإن الحليم يغلبك وإن السفيه يؤذيك، فاذكر أخاك إذا تغيب عنك بما تحب أن يذكرك به واعفه مما تحب أن يعفيك منه واعمل عمل رجل يرى أنه مجازى بالإحسان ومأخوذ بالاحترام، وقيل للقمان الحكيم: ما حكمتك؟ قال: لا أسأل عما كفيت ولا أتكلف ما لا يعنيني، وقال بعض الحكماء: أمر أنا في طلبه منذ عشرين سنة فلم أقدر عليه ولست بتارك طلبه قالوا: وما هو؟ قال: الصمت عما لا يعنيني، قال عمر رضي الله عنه: لا تتعرض لما لا يعنيك، واعتزل عدوك واحذر صديقك من القوم إلا الأمين ولا أمين إلا من خشي الله تعالى، ولا تصحب الفاجر فتتعلم من فجوره ولا تطلعه على سرك، واستشر في أمرك الذين يخشون الله وحده[2].

تنبيه: أعلم أن السبب الباعث على الكلام فيما لا يعني هو الحرص على معرفة ما لا حاجة إليه ونحو البسط في الكلام على جهة التودد وتقريب الوقت بحكايات أحوال لا فائدة فيها، وعلاج ذلك كله أن يعلم أن الموت بين يديه وأنه مسئول عن كل كلمة وأن أنفاسه معدودة عليه وعمره رأس ماله، وأن لسانه شبكة يقدر على أن يقتنص بها الحور العين فإهماله وتضييعه خسران، هذا علاجه من جهة العلم، وأما من جهة العمل فالعزلة عن الناس، وأن يلزم نفسه السكوت ليتعود اللسان ترك ما لا يعنيه، وضبط اللسان على غير المعتزل عسير جداً، والله أعلم بالصواب.

الآفة الثانية عشر: فضول الكلام، واعلم أن فضول الكلام لا ينحصر بل المهم محصور في كتاب الله تعالى﴿ **لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس**﴾ (النساء: ١١٤)، وقال ﷺ : «طوبى لمن أمسك الفضل من قوله وأنفق الفضل من ماله»[3]، وعن الحسن رضي الله عنه يقول الله تبارك وتعالى: يا ابن

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في الصمت رقم الحديث ١١٢ بإسنادٍ منقطع ورواه البزار بلفظ آخر وفيه بن الحكم وهو ضعيف، ورواه أبو يعلى والطبراني والبيهقي بزيادةٍ ورواة أبي يعلى ثقات انظر الترغيب والترهيب للمنذري ٤/٧.

(٢) انظر الإحياء ٣/١٤٢.

(٣) رواه البزار من حديث أنس بسند ضعيف، ورواه الديلمي رقم الحديث ٣٩٢٨ ورواه البغوي وابن قانع في =

آدم بسطت لك صحيفة ووكلت بها ملكين كريمين يكتبان عملك فأمل ما شئت وأكثر أو أقلل[1]، ورُوي أن سليمان بن داود عليه السلام بعث بعض عفاريته وبعث معه نفراً يخبرونه بما يقول، قال فأخبروه أنه مر على السوق ورفع رأسه إلى السماء ثم نظر إلى الناس وهز رأسه فسأله سليمان، فقال: عجيب من الملائكة على رؤوس الناس ما أسرع ما يكتبون، ومن الذين أسفل منهم ما أسرع ما يملون[2].

وقال الحسن: من كثر كلامه كثر كذبه ومن كثر كذبه كثرت ذنوبه ومن كثرت ذنوبه سآء خلقه ومن ساء خلقه عذب نفسه، وتكلم رجل عند الرسول ﷺ فقال له: كم دون لسانك من باب؟ فقال: شفتاي وأسناني، فقال: أما كان في ذلك ما يرد كلامك[3]؟، وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: أنذركم فضول الكلام، بحسب امرىء من الكلام ما بلغ به حاجته»[4]، وعن الرسول ﷺ أنه قال: «ما أوتي رجل شراً من فضل لسانه»[5]، وقال بعض الحكماء: من فتنة العالم أن يكون الكلام أحب إليه من الإستماع وإن وجد من يكفيه فلا يتكلم فإن في الإستماع سِلامة، وفي الكلام تزيناً وزيادة ونقصاناً، وقال ابن عمران: أحق ما طَهَّر الإنسان لسانه، ورأى أبو الدرداء امرأة سليطة فقال: لو كانت هذه خرساء كان خيراً لها، وقال بعض الزهاد: يهلك الناس في خلتين فضول المال وفضول الكلام، وعن بعضهم: إن الرجل يكلمني بالكلام، لجوابه أشهى إليّ من الماء البارد إلى الظمآن فأترك جوابه خيفة أن يكون فضولاً، وقال مطرف: ليعظم جلال الله فيكم ويكثر في قلوبكم فلا تذكروه عند قول أحدكم للكلب والحمار اللهم أخزه[6]، وقد نجز

= معجمي الصحابة، والبيهقي في الشعب من حديث المصري، وفي سننه ١٣٢/٤، وابن أبي الدنيا في الصمت الحديث ٤٣ و ٦٩، ورواه الطبراني في الكبير ٣١١/٨، انظر مجمع الزوائد ٢٢٩/١٠. وقال رواه الطبراني عن طريق نصيح العنسي عن ركب المصري، ولم أعرفه. وبقية رجاله ثقات. وقال البغوي عن ركب المصري لم أدر أسمع من النبي ﷺ أم لا. والحديث تقدم في ص ١٠٠.

وقال ابن منده: مجهول لا نعرف له صحبة، وضعف الحديث ابن حبان وغيره، وقال ابن عبد البر: حديث حسن، وأخرج الحديث أيضاً ابن شاهين والعسكري وتمام في فوائده والبخاري في تاريخه والبارودي، وأبو محمد الجيزي في تاريخ مصر كلهم من طريق المصري. انظر تخريج الإحياء ١٤٤/٣ وقد تقدم نحوه في ص ١٠٧ بلفظ «طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس»

(١)، (٢) أنظر الإحياء ٣/ ١٤٤.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في الصمت رقم الحديث ٩٣ عن عمر بن دينار ورجاله ثقات. أنظر تخريج الإحياء ٣/ ١٤٥.

(٤) انظر الإحياء ١٤٥.

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا مرسلاً عن عبدالله بن عباس انظر الصمت رقم الحديث ٩٤، وتخريج الإحياء ٣/ ١٥٤.

(٦) الإحياء ٣/ ١٤٥.

غرضنا من بيان فضول الكلام ومذمته والله الموفق للصواب .

الآفة الثالثة عشر: المزاح وأصله مذموم إلا قدر يسير مستثنى منه فلنذكر حكمه ونذكر مزاح الرسول ﷺ فهذان تنبيهان :

التنبيه الأول: في حكمه فاعلم أن المزاح فيه انبساط ومطايبة وطيب قلب والمنهى عنه هو الإفراط والمداومة ، فأما المداومة عليه فلأنه اشتغال باللعب ، والهزل واللعب مباح، لكن المواظبة عليه مذمومة ، فأما الإفراط فيه فإنه يورث كثرة الضحك وكثرة الضحك تميت القلب وتورث الضغينة في بعض الأحوال وتسقط المهابة والوقار فلا يخلو عن هذه الأمور ، فمن فتح باب المزاح وكان غرضه أن يضحك الناس كان ذلك مكروهاً لما قدمناه في كراهة فضل الكلام ، وقال عمر رضي الله عنه : «من كثر ضحكه قلت هيبته ، ومن مزح استخف به ، ومن أكثر من شيء عرف به ، ومن كثر كلامه كثر سقطه ومن كثر سقطه قل حياؤه ، ومن قل حياؤه قل ورعه ، ومن قل ورعه مات قلبه»[1] ، ولأن الضحك يدل على الغفلة عن الآخرة .

وقال رسول الله ﷺ : «لو علمتم ما أعلم لبكيتم كثيراً ولضحكتم قليلاً»[2] ، وقال رجل لأخيه : يا أخي هل أتاك أنك وارد النار؟ قال : نعم ، قال : فهل أتاك أنك خارج منها؟ قال : لا قال : ففيم الضحك؟ قال : فما رئي ضاحكاً حتى مات . وقال ابن عباس : من أذنب ذنباً وهو يضحك دخل النار وهو يبكي[3] ، وقال محمد بن واسع : إذا رأيت رجلاً في الجنة يبكي ألست تعجب من بكائه؟ قال : بلى قال : فالذي يضحك

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط، وفيه دريد بن مجاشع وهو مجهول وبقية رجاله ثقات. انظر مجمع الزوائد ١٠/ ٣٠٢، وأخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت رقم الحديث ٣٨٩، وأخرجه البيهقي في الشعب عن عمر موقوفاً. ورواه ابن حبان في روضة العقلاء ص ٦٥ وانظر مجمع الزوائد ١٠/ ٣٢، والقضاعي في مسند الشهاب ١/ ٢٣٨ رقم الحديث ٣٧٤ عن عمر ورواه مرفوعاً وقال: لست أحفظه، مسنداً عن النبي وإنما عن عمر. والعسكري في الأمثال من حديث ابن عمر، وأبو نعيم في الحلية ٥/ ١٤٩، وإسناده ضعيف لأن فيه إبراهيم بن الأشعث وهو ضعيف.
وأخرج ابن عساكر نحوه في تاريخ دمشق من حديث أبي هريرة وقال: غريب الإسناد والمتن. انظر تخريج الإحياء رقم الحديث ٢٥٥١ المجلد الرابع ص ١٦٣٥ تحقيق محمود بن محمد الحداد.

(٢) متفق عليه من حديث عائشة اخرجه البخاري في صحيحه: صلاة الكسوف: باب الصدقة في الكسوف رقم الحديث ١٠٤٤ و١٠٤٦ ومسلم في الصلاة رقم الحديث ١١٣. أخرجه النسائي في الصلاة كتاب السهو رقم الباب ١٠٢ رقم الحديث ١٣٦٣، والترمذي في الزهد رقم الحديث ٢٣١٣ عن أبي هريرة. وابن ماجه رقم الحديث ٤١٩١، وأخرجه الدارمي وابن حبان من حديث أنس، ويروى عن عائشة وأبي هريرة وأنس بن مالك.

(٣) انظر الإحياء ٢/ ٢٢٩.

في الدنيا ولا يدري إلى ما يصير فهو أعجب[١]، فحصل من مجموع ما ذكرناه أن المزاح مكروه إلا مقدار ما استثنى لما رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تمار أخاك ولا تمازحه»[٢]، والله أعلم.

التنبيه الثاني: في بيان مزاحه ﷺ، روى أبو هريرة رضي الله عنه أنهم قالوا: يا رسول الله إنك تداعبنا، فقال: «إني وإن داعبتكم فلا أقول إلا حقاً»[٣]، وروي أن رجلاً سأل ابن عباس فقال: هل كان رسول الله ﷺ يمزح؟، فقال ابن عباس: نعم، فقال الرجل: فما كان مزاحه؟ فقال ابن عباس: إنه ﷺ كسا ذات يوم امرأة من نسائه ثوباً واسعاً، فقال لها: البسيه واحمدي وجري ذيلاً كذيل العروس[٤]، وروى أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كان من أفكه الناس[٥]، وروى أنه كان كثير التبسم[٦]، وروى أنه أتت إليه عجوز فقال ﷺ: لا تدخل الجنة عجوز فبكت، فقال: إنك لست يومئذ بعجوز[٧] قال الله تعالى: ﴿**إنا أنشأناهنّ إنشاء فجعلناهن أبكاراً**﴾ (الواقعة: ٣٥ ـ ٣٦) وروي أن امرأة يقال لها أم أيمن جاءت الرسول ﷺ فقالت: إن زوجي يدعوك، فقال: ومن هو أهو الذي

---

(١) الإحياء نفس المصدر.

(٢) أخرجه الترمذي رقم الحديث ١٩٩٥ عن ابن عباس وقال: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه يعني من حديث ليث ابن أبي سليم وليث ابن أبي سليم ضعفه الجمهور. انظر تخريج الإحياء ٢/ ٢٢٩ وقال رواه ابن أبي الدنيا عن ابن عباس رقم الحديث ١٢٣ و٣٨٨.

(٣) أخرجه الترمذي في البر والصلة رقم الحديث ١٩٩١ قال: حسن صحيح وأخرجه في الشمائل الحديث رقم ٢٠٢. وأخرجه أحمد في المسند ٢/ ٣٤٠، ٣٦٠ عن أبي هريرة وصححه الألباني في مختصر الشمائل صفحة ١٢٦ وفي الصحيحة رقم الحديث ١٧٢٦.

(٤) أنه كسى ذات يوم امرأة من نسائه ثوباً واسعاً قال العراقي ٣/ ١٦٠: لم أقف عليه. وروى ابن عساكر والطبراني عن ابن عباس سئل: هل كان رسول الله ﷺ يداعب فقال كان فيه دعابة قليلة.

(٥) روى الترمذي في الشمائل عن جابر بن سمرة الحديث ١٩٣ قال: كان لا يضحك إلا تبسماً وأخرجه أيضاً في الجامع رقم ٣٦٤٨، وله أيضاً في الشمائل رقم ١٩٤ عن عبد الإله بن الحارث بن جزءٍ أنه قال: ما رأيت أحداً أكثر تبسماً من رسول الله.
وأخرجه في الجامع ٣٦٥٤، انظر مختصر الشمائل للألباني ص ١٢٠ ـ ١٢١.

(٦) أخرجه الترمذي في الشمائل رقم الحديث (٦) من حديث الحسن بن علي أنه سأل هند ابن أبي هالة عن أوصاف رسول الله ﷺ فذكر أنه ﷺ: كان جل ضحكه التبسم، الحديث ضعفه الألباني في مختصر الشمائل ص ١٨ لكن يشهد له ما تقدم من حديث جابر بن سمرة وعبدالله بن الحارث.

(٧) تقدم تخريجه صفحة ١٢٢ ـ أخرجه الترمذي في الشمائل مرسلاً رقم الحديث ٢٠٥ إلا أنه له شواهد وقد حسنه الألباني في مختصر الشمائل ص ١٢٨ وفي غاية المرام تخريج أحاديث الحلال والحرام رقم الحديث ٣٧٥. وأخرجه ابن الجوزي في الوفاء بأخبار المصطفى متصلاً.

بعينه بياض؟ فقالت: لا والله ما بعينه بياض، فقال: بلى إن بعينه بياضاً، فقالت: والله ما بعينه بياض، فقال: ما من أحد إلا بعينه بياض[١]، أراد به البياض المحيط بالحدقة.

وجاءت امرأة أخرى فقالت يا رسول الله: احملني على بعير فقال: نحملك على ابن البعير، فقالت: ما أصنع به لا يحملني، فقال: وهل من بعير إلا وهو ابن بعير[٢]؟ وكان يمزح معها، وقال أنس: كان لأبي طلحة ابن يقال له أبو عمير فكان رسول الله ﷺ يأتي أبا عمير فيقول يا أبا عمير ما فعل النغير[٣]؟ والنغير هو عصفور صغير، وقالت عائشة رضي الله عنها خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة بدر فقال رسول الله ﷺ: تعالي حتى أسابقك فشددت درعي على بطني ثم خططنا خطاً فقمنا عليه فاستبقنا فسبقني، فقال: هذه مكان ذي المجاز، وكان جاء يوماً ونحن بذي المجاز وأنا جارية قد بعثني أبي بشيء فقال: أعطيه فأبيت وسعيت فسعى أبي على أثري فلم يدركني، وقالت عائشة رضي الله عنها سابقني رسول الله ﷺ فسبقته فلما حملت اللحم سابقني فسبقني فقال: هذه بتلك[٤].

وقالت عائشة: كان عندي رسول الله ﷺ وسودة، فصنعت جريرة، والجريرة: طعام فيه قطع لحم وجئت به، فقلت لسودة: كلي، فقالت: لا أحبه فقلت: والله لتأكلن أو لألطخن وجهك فقالت: ما أنا بذائقته فأخذت من الصفحة شيئاً فلطخت وجهها به، ورسول الله جالس بيني وبينها فخفض لها رسول الله ﷺ ركبتيه لتستقيد مني فتناولت من

---

(١) تقدم تخريجه في صفحة ١٢٢ تعليق رقم (٣) ورواه الزبير بن بكار في كتاب الفكاهة والمزاح وعزاه العراقي وابن أبي الدنيا. انظر تخريجه أحاديث الإحياء ٣/ ١٦٢.

(٢) أخرجه أبو داود في السنن الأدب باب المزاح رقم الحديث ٤٩٩٨ والترمذي في الشمائل رقم الحديث ٢٠٣ انظر مختصر الشمائل تحقيق الألباني ص ١٢٦، وأخرجه الترمذي أيضاً في الجامع في البر والصلاح رقم الحديث ١٩٩٢ وصححه. وتقدم تخريخ ص ١٢٢ تعليق رقم ٤.

(٣) متفق عليه من حديث أنس. البخاري في الأدب رقم ٢٣٤٩، ومسلم رقم الحديث ٢١٥٠ وأبو داود في السنن رقم الحديث ٤٩٦٩ والترمذي في السنن في الصلاة ٣٣٣ وفي البر ١٩٩٠، وابن ماجة في السنن: الأدب ٢٧٢٠، والشمائل للترمذي ٢٠١، وأخرجه أحمد في المسند ٣/ ١١٥، ١١٩، ١٧١، ١٨٨، ١٩٠، ٢٠١، ٢١٢، ٢٢٢، ٢٢٣ وأخرجه النسائي في أعمال اليوم والليلة.

(٤) قال العراقي: لم أجد له أصلاً ولم تكن عائشة معه في غزوة بدر، وأخرج النسائي وابن ماجه نحوه من حديث عائشة بسند صحيح «سابقني فسبقته فلما حملت اللحم سابقني فسبقني». انظر سنن ابن ماجه رقم الحديث ١٩٧٩، وأحمد ٦/ ٢٦٤ وصححه العراقي انظر تخريج الإحياء ٣/ ١٦٢.

الصفحة شيئاً فمسحت به وجهي وجعل رسول الله ﷺ ، يضحك[1].

وروي أن رسول الله ﷺ كان يدلع لسانه للحسين بن علي رضي الله عنه فيرى لسانه فيهش إليه[2]، وروي أن الرسول ﷺ قال لصُهَيب وبه رمد وهو يأكل التمر: أتأكل التمر وأنت رمد؟ فقال: إنما آكل بالشق الآخر فتبسم ﷺ حتى بدت نواجذه[3]، وروي أن خوات بن جبير كان جالساً إلى نسوة من بني كعب بطريق مكة، وكان يقول: معي بعير شرود فلعل إحداكن تقيد لي بعيراً، فقال له الرسول ﷺ : يا أبا عبد الله ما فعل بعيرك الشارد؟، فقال يا رسول الله: قيده الإسلام فوالذي بعثك بالحق ما شرد منذ أسلمت، فقال الرسول ﷺ : اللهم أهد أبا عبدالله[4]، فهذه مطايبات يباح مثلها على الندور لا على جهة الدوام، والمواظبة عليها هزل مذموم وسبب الضحك المميت للقلب.

سؤال: فإن قال قائل: فقد نقل المزح عن رسول الله ﷺ وأصحابه فكيف ينهى عنه، **وجوابه**: أن الملائكة لا يقاسون بالحدادين ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم، إن رسول الله ﷺ يمزح ولا يقول إلا حقاً[5]، فإذا قدرت أيها المسكين على ما يقدر عليه رسول الله من أنه يمزح ولا يقول إلا حقاً فلا بأس في مزحك، ولكن من الغلط العظيم أن يتخذ الإنسان المزح ويواظب عليه ويفرط في الضحك ثم يتمسك بفعل رسول الله ﷺ فهذا قياس فاسد.

---

(١) أخرجه الزبير بن بكار في كتاب الفكاهة، وأبو يعلى في مسنده بسند جيد عن عائشة. انظر تخريج الإحياء ٣/ ١٦٢.

(٢) أخرجه أبو يعلى من حديث أم سلمة بإسناد جيد. انظر تخريج الإحياء ٣/ ١٦٣، وعند مسلم في الفضائل الحديث رقم ٦٥ من رواية الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة نحوه، بلفظ «أن الأقرع بن حابس بصر النبي يقبل الحسن قال: إني لي عشرة من الولد ما قبلت واحداً منهم».

(٣) رواه ابن ماجه في السنن رقم الحديث ٣٤٤٢ ورجاله ثقات والحاكم في المستدرك ٣/ ٣٩٩ وَ ٤/ ٤١١ وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه وفيه عبد الحميد بن، بن زياد من ولد صهيب لا يعرف له سماع عن آبائه. انظر ميزان الاعتدال ٣/ ٥٤٠.

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير من رواية زيد بن أسلم عن خوات بن جبير ورجاله ثقات. قال العراقي في تخريج الإحياء ٣/ ١٦٣: وقع فيه اختلاف وادخل بعضهم بين زيد وخوات ربيعة بن عمرو، وانظر مجمع الزوائد ٩/ ٤٠١ وأخرجه البغوي في معجم الصحابة.

(٥) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٣٤٠ وَ٣٦٠ بلفظ «إني لا أقول إلا حقاً وليس فيه يمزح». وقد تقدم في صفحة ١٣٩رقم ٤ وأخرجه الترمذي في الجامع: البر والصلة رقم ١٩٩٠ وفي الشمائل رقم الحديث ٢٠٢ وهو حديث صحيح صححه الترمذي. وأقره الألباني في مختصر الشمائل ص ١٢٦ وفي الصحيحة رقم الحديث ١٧٢٦. انظر الإحياء ٢/ ٤٦٢، وانظر الصمت لابن أبي الدنيا رقم ٣٩٧.

الآفة الرابعة عشر: الغناء والشعر وهما من الآفات المتعلقة باللسان، فأما الغناء فالذي عليه سادات أهل البيت عليهم السلام والسابقون إلى الإمامة منهم هو تحريم الغناء وكراهته وأنه مناقض للمروءة والدين وترد به الشهادة وتنقص به العدالة، وهذا هو رأي الفقهاء أبي حنيفة والشافعي ومالك ،حكي عن أبي حنيفة أنه كان يكره ذلك ويجعل سماع الغناء من الذنوب، وهكذا سائر أهل الكوفة سفيان الثوري وحماد والشعبي والنخعي وغيرهم، فأما مالك فقد نهى عن الغناء، وقال: إذا اشترى جارية فوجدها مغنية فله ردها بالعيب وهو مذهب سائر أهل المدينة، وأما الشافعي رضي الله عنه فقد حُكي عنه قال: الغناء لهو ومنكر يشبه الباطل ومن استكثر منه فهو سفيه ترد شهادته، وهذا هو المختار عندنا.

ولا اعتبار بما يحكى عن الشيخ أبي حامد الغزالي[١] من كونه مباحاً ومندوباً، وقد أورد فيه أدلة ركيكة وحكاه عن من لا عبرة بكلامه ولا يعتد بخلافه وهي محمولة في حق من فعلها على جرأة في الدين ونزول قدر في حال من تلبس بها، وعلى الجملة فإن الولوع بالغناء والتلبس به إنما هو دأب السفلة وهو مناقض للمروءة، ولقد كان للشيخ أبي حامد الغزالي غُنية عن نصرة استحباب الغناء وإباحته ومندوحة عن إيراده في الكتب الدينية فضلاً عن الإحتجاج عليه.

والذي يدل على كراهته وخطرة قوله عز وجل﴿ **ومن الناس من يشتري لهو الحديث**﴾ (لقمان: ٦)، وقد قال فيه علماء التفسير: لهو الحديث هو الغناء وهو محكي عن ابن مسعود والحسن البصري والنخعي، وقوله عز وجل ﴿ **أفمن هذا الحديث تعجبون، وتضحكون ولا تبكون، وأنتم سامدون**﴾ (النجم: ٥٩ - ٦١). قال ابن عباس: السمود: هو الغناء بلغة حمير، وروى جابر عن رسول الله ﷺ أنه قال: إن إبليس أول من ناح وأول من تغنى فجمع بين النياحة والغناء[٢]، وفي هذا دلالة على كونهما محظورين.

ورُوى أبو أمامة عن الرسول ﷺ أنه قال: «ما رفع أحد صوته يغني إلا بعث الله

---

(١) انظر الإحياء ٢/ من ٣٥٥ - ٣٦٤ ما أورده من أدلة عن الغناء.

(٢) قال العراقي في تخريج الإحياء ٢/ ٣٦٤: لم أجد له أصلاً من حديث جابر وقال السبكي في الطبقات ٦/ ٣٢١: لم أجد له إسناداً. وذكره الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الاذكار وقبله العراقي من حديث علي بن أبي طالب وعزاه إلى الفردوس للديلمي وهو فيه الحديث رقم ٤٢ مجلد ١/ ٢٧.

شيطانين على منكبيه يضربان بأعقابهما صدره حتى يمسك»[1]، ورُوى عقبة بن عامر عن الرسول ﷺ: «ثلاثة لا تعد من اللهو لهو الإنسان بفرسه ولهوه بقوسه ولهوه بامرأته»[2]، وما عدا ذلك فهو معدود في اللهو، وروى ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل»[3]، وقال عثمان: ما تغنيت ولا تمنيت، وقال الفضيل بن عياض: الغناء رقية الزنا، وقال بعضهم: الغناء رائد الفجور، وقال بعض الحكماء: إياكم والغناء فإنه يزيد الشهوة ويهدم المروءة وإنه لينوب عن الخمر ويفعل ما يفعل الخمر فإن كنتم لا بد فاعلين فأجنبوه النساء، فإن الغناء داعية الزنا[4].

وأما الشعر فهو من جملة الكلام حسنه حسن وقبيحه قبيح خلا أن التجرد له مذموم، قال رسول الله ﷺ: «لأن يمتلىء بطن أحدكم قيحاً أحب من أن يمتلىء شعراً»[5]،

---

(١) رواه الطبراني في الكبير بسند ضعيف كما قال العراقي في تخريج الإحياء ٢/ ٣٦٤. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ١١٩: رواه الطبراني بأسانيد رجال أحدها وثقوا وضعفوا. وأخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الملاهي، والحديث مداره عبيد الإله بن زحر عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة وهذا الطريق مطعون فيه عند علماء الحديث.
وله طرق أخرى عند الطبراني والبيهقي في الشعب وكلها ضعيفة. وأخرج الترمذي في السنن بنفس الطريق بلفظ «لا تبيعوا الغانيات ولا تشتروهن» رقم الحديث ١٢٨٢، وقال: وفي الباب عن عمر بن الخطاب. وحديث عمر أخرجه الطبراني في الكبير وهو حديث ضعيف. انظر مجمع الزوائد ٨/ ١١٩.

(٢) تقدم تخريجه ص ٥٨ التعليق رقم (١).

(٣) رواه أبو داود في السنن برواية بن العبد وليس في رواية اللؤلؤي. ورواه البيهقي في السنن ١٠/ ٢٢٣ موقوف ومرفوع، والمرفوع غير صحيح لأن في إسناده راو لم يسم والصحيح أنه من قول ابن مسعود وقال النووي في تهذيب الأسماء واللغات: اتفق الجمهور على ضعفه وكذلك أقره الزركشي في كتاب اللآلىء المنثورة ص ٦٢، ورواه ابن عدي عن أبي هريرة والديلمي عنه وعن أنس.

(٤) انظر الإحياء ٢/ ٣٦٥.

(٥) متفق عليه من حديث أبي هريرة. وأخرجه البخاري من حديث ابن عمر ومسلم من حديث أبي سعيد.، انظر صحيح البخاري رقم الحديث ٦١٥٤ عن ابن عمر، وعن أبي هريرة ٦١٥٥، ومسلم في كتاب الشعر من ٧ ـ ٩ عن أبي هريرة وسعد وأبي سعيد، وأبو داود رقم الحديث ٥٠٠٩ عن أبي هريرة الترمذي رقم الحديث ٢٨٥١ عن أبي هريرة و٢٨٥٢ عن سعد ومن حديث أبي هريرة وسعد بن أبي وقاص وقال: وفي الباب عن ابن عمر وأبي الدرداء وابن ماجة في الأدب رقم الحديث ٣٧٥٩ عن أبي هريرة وسعد، وأحمد ١/ ١٧٥ و١٧٧ و١٨١ و٢/ ٣٩ و٩٦ من حديث ابن عمر وسعد بن أبي وقاص.
وروى الطبراني في الكبير من حديث أبي الدرداء ومن حديث سلمان ومن حديث أوفىٰ بن مالك ومن حديث مالك ابن عمير ومن حديث ابن عمر، ورواه الضياء من حديث عمر بن الخطاب، وأبو عوانة في صحيحه، والطحاوي، وتمام، ورواه ابن عدي من حديث جابر، والطيالسي من حديث سعد، انظر تخريج إحياء علوم الدين رقم الحديث =

وعن مسروق أنه سئل عن بيت من الشعر فكرهه فقيل له في ذلك، فقال: أنا أكره أن يوجد في صحيفتي شعر، وعلى الجملة فإن إنشاد الشعر ونظمه ليس حراماً إذا لم يكن فيه هجو وأذية، وقد قال ﷺ: «إن من الشعر لحكمة»(١)، وقد أنشد الشعر بين يدي رسول الله ﷺ فلم ينكره وأمر بأن ينشد له(٢).

الآفة الخامسة عشر: في الوعد الكاذب واعلم أن اللسان يشتاق إلى الوعد ثم إن النفس بعد ذلك لا تسمح بالوفاء فيصير الوعد خلفاً وذلك من أمارات النفاق، وقد قال تعالى ﴿**يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود**﴾ (المائدة: ١٢). وقال الرسول ﷺ: «العدة دين»(٣)، وقال: «الواي مثل الدين وأفضل»(٤) والواي هو الوعد، وقد أثنى الله تعالى على نبيه إسماعيل ﷺ فقال ﴿**إنه كان صادق الوعد، وكان رسولاً نبياً**﴾ (مريم الآية: ٥٤) فيقال: إنه وعد إنساناً في موضع فلم يرجع إليه فبقي اثنين وعشرين يوماً في انتظاره، وعن عبدالله بن أبي الخميساء قال: بايعت الرسول ﷺ فوعدته أني آتيه في مكانه ذلك فنسيت يومي والغد وفي اليوم الثالث أتيته وهو في مكانه فقال: يا فتى قد شققت عليَّ أنا ها هنا منذ ثلاث أنتظرك(٥)، وقيل لبعض الزهاد: الرجل يواعد الرجل الميعاد فلا يجيء قال: ينتظره ما بينه وبينه إلى أن يدخل وقت الصلاة التي تجيء.

٢٦١٦، ٤/١٨٦٨ ـ ١٨٦٩. استخراج أبي عبدالله محمود بن محمد.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه رقم الحديث ٦١٤٥ عن أبي بن كعب أبو داود رقم الحديث ٥٠١٠ عن أبي بن كعب، والترمذي رقم الحديث ٢٨٤٤ عن عبدالله بن مسعود وقال: حديث غريب، وقد روى عن أبيّ وعائشة وبريدة، وابن ماجة رقم الحديث ٣٧٥٥ ـ ٣٧٥٦ عن أبيّ بن كعب وعن ابن عباس، وأحمد ١/ ٢٦٩ و٢٧٢ و٣٠٣، وابن حبان رقم الحديث ٥٧٥٠، والدارمي في السنن: الاستئذان رقم الباب ٦٨.

(٢) انظر إحياء علوم الدين ٣/ ١٦٥.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في الصمت رقم الحديث ٤٥٣ من حديث الحسن بن علي، ورواه أبو نعيم في الحلية ٨/ ٢٥٩ من حديث ابن مسعود. والديلمي في الفردوس رقم الحديث ٤٢٢٧ وعن علي نحوه برقم ٤٢٢٨، ورواه الطبراني في الأوسط من حديث قباب بن أشيم بسند ضعيف وبلفظ، (العدة عطية)، ورواه الخرائطي في مكارم الأخلاق مرسلاً عن الحسن ص ٣٤، وانظر تخريج أحاديث إحياء علوم الدين ٣/ ١٦٥ ومجمع الزوائد ٤/ ١٦٦، وعزاه للطبراني عن قباب بن أشيم وعن علي وابن مسعود، وضعفه الألباني في الضعيفة ـ رقم الحديث ١٥٥٤.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت رقم الحديث ٤٥٤ من رواية ابن لهيعة مرسلاً، ورواه الديلمي في الفردوس رقم الحديث ٧٢٦٣ وإسناده ضعيف لضعف ابن لهيعة وإرساله.

(٥) أخرجه أبو داود في السنن: الأدب رقم الحديث ٤٩٩٦، واختلف في إسناده، وأخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت رقم الحديث ٤٥٧، وأخرجه البيهقي في السنن: الشهادات ١٠/ ١٩٨ من طريق عبد الكريم بن عبدالله بن الشفيق وهو مجهول. ورواه الخرائطي في مكارم الأخلاق والبزار انظر تخريج إحياء علوم الدين ٣/ ١٦٦.

وكان رسول الله ﷺ إذا وعد وعداً قال: عسى[1]، وكان ابن مسعود لا يعد وعداً إلا ويقول إن شاء الله تعالى وهو الأولى ثم إذا فهم مع ذلك الجزم في الوعد فلا بد من الوفاء إلا أن يتعذر فإن كان عند الوعد عازماً على أن لا يفي فهذا هو النفاق[2]، قال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم، إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا استؤمن خان»[3]، ولقد كان رسول الله ﷺ جالساً يقسم غنائم هوازن بحنين، فوقف عليه رجل من الناس فقال: إن لي عندك موعداً يا رسول الله فقال: صدقت فاحتكم ما شئت فقال: أحتكم بمائتي ضائنة وراعيها، فقال رسول الله ﷺ: هي لك ولقد احتكمت يسيراً[4].

الآفة السادسة عشرة: كلام ذي اللسانين وذي الوجهين وهو الذي يتردد بين المتعاديين ويكلم كل واحد منهما بما يوافقه ويهواه، وقلّ ما يخلو عنه من يشاهد متعاديين وذلك عين النفاق، قال عمار بن ياسر قال رسول الله ﷺ: «من كان له وجهان في الدنيا كان له لسانان من نار يوم القيامة»[5]، وقال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ: «تجدون من شر عباد الله يوم القيامة ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بحديث هؤلاء وهؤلاء بحديث هؤلاء وفي لفظ آخر يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه، وقال أبو هريرة: لا ينبغي

---

(١) قال العراقي في تخريج أحاديث الاحياء ٣/ ١٦٦: لم أجد له أصلاً وانظر الطبقات للسبكي ٦/ ٣٣٩، وأخرج ابن أبي الدنيا عن ابن مسعود موقوفاً «كان إذا وعد وعداً قال: إن شاء الله».

(٢) انظر إحياء علوم الدين ٣/ ١٦٦.

(٣) متفق عليه من حديث أبي هريرة، أخرجه البخاري في الصحيح كتاب الإيمان: باب علامات النفاق رقم الحديث ٣٣ بلفظ (آية المنافق ثلاث) وأخرجه في الشهادات والأدب، أخرجه مسلم في صحيحه: الإيمان: باب خصال المنافق رقم الحديث ١٠٧ ورقم ١٠٨، ١٠٩ أخرجه النسائي رقم الحديث ٨/ ١١٧، الترمذي رقم الحديث ٢٦٣١ الخرائطي في مكارم الأخلاق رقم الحديث ٨٢، ٨٣ والبيهقي ١٠/ ١٦٩.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك: تفسير سورة الشعراء ٢/ ٤٠٤ من حديث أبي موسى في ٢/ ٥٧١ ذكر يوسف بن يعقوب وقال: صحيح الإسناد. وتعقب العراقي الحاكم في تصحيحه وقال: فيه نظر. انظر تخريج أحاديث الاحياء ٣/ ١٦٣.

(٥) أخرجه البخاري في الأدب المفرد رقم الحديث ١٣١٠. أخرجه أبو داود في السنن: الأدب ٤٨٥٢، والترمذي في البر والصلة رقم الحديث ( ) والدارمي في السنن ٢/ ٣١٢ الطيالسي رقم الحديث ٢١٧٥، وابن حبان، انظر موارد الضمآن رقم الحديث ١٩٧٩ وابن أبي الدنيا في الصمت رقم الحديث ٢٧٤، وأحمد في المسند ٢/ ٤٩٥، والبيهقي في الشعب ١٠/ ٦٩٦، والخرائطي في مساوىء الأخلاق رقم الحديث ٢٩٥ بإسناد ضعيف، وأخرجه ابن عساكر، والخطيب، وابن النجار، وأخرجه الطبراني، انظر مجمع الزوائد ٨/ ٨٥، ٩٥، ٩٦ وقال: رواه البزار وأبو يعلى. =

لذى الوجهين أن يكون أميناً عند الله(١).

وقال رسول الله ﷺ: «أبغض خليقة الله إلى الله يوم القيامة الكذابون المكثرون الذين يكتنزون البغضاء لإخوانهم في صدورهم فإذا لقوهم يحلفوا لهم وإذا دعوا إلى الله ورسوله كانوا بطآء وإذا دعوا الشيطان وأمره كانوا سراعاً»(٢)، وقال ابن مسعود: لا يكون أحدكم إمعة، قالوا: وما الإمعة؟ قال: يجري مع كل ريح(٣)، واتفقوا على أن ملاقاة الإثنين بوجهين نفاق، وللنفاق علامات كثيرة وهذا من جملتها، وروي أن رجلاً من أصحاب الرسول ﷺ مات فلم يصل عليه أبو حذيفة، فقال عمر: يموت رجل من أصحاب رسول الله ﷺ ولا تصلي عليه، فقال أبو حذيفة: يا أمير المؤمنين إنه منهم، قال: فنشدتك الله أنا منهم أم لا؟ قال: اللهم لا ولا أؤمن منها أحداً بعدك(٤).

سؤال: فإن قال قائل فبماذا يصير الرجل ذا لسانين وذا وجهين وما علامة ذلك وما حده؟.

وجوابه: أن الرجل إذا دخل بين المتعاديين وجامل كل واحد منهما وكان صادقاً لم يكن منافقاً وذا لسانين، فأما إذا نقل كلام كل واحد منهما إلى الآخر فهو ذو لسانين وذو وجهين وذلك يكون شراً من النميمة أو يصير نماماً بأن ينقل من أحد الجانبين فقط، فأما إذا كان ناقلاً من الجانبين جميعاً فهو شر من النمام، فأما إذا لم ينقل كلاماً ولكن حسّن لكل واحد منهما ما هو عليه من العداوة مع صاحبه فهذا ذو لسانين وهكذا إذا وعد كلاً

انظر تخريج الاحياء ٣/ ١٩٧، وأخرج له البخاري ومسلم شواهد عن أبي هريرة وهو الحديث الآتي رقم (٧) انظر البخاري في صحيحه: المناقب والأدب والأحكام، ومسلم في البر والصلة باب: ذم ذي الوجهين وهو الآتي برقم (٧)، وانظر الموطأ صفحة ٦١٣، وأحمد في المسند ٢/ ٢٤٥ و٣٠٧ و٣٣٦ و٤٥٥ و٤٦٥ و٥١٧ و٥٢٥.

(١) أخرجه البخاري في المناقب، باب قول الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنا خلقناكم من ذكر وأنثى﴾ رقم الحديث ٣٤٩٤، وأخرجه في الأدب باب: ما قيل في ذي الوجهين رقم الحديث ٦٠٥٨ ومن الأحكام: باب ما يكره في ثناء السلطان رقم الحديث ٧١٧٩ وأخرجه مسلم في البر والصلة باب: ذم ذي الوجهين رقم ٩٨ - ١٠٠، والبخاري في كتاب الأدب المفرد: باب ذي الوجهين رقم الحديث ١٣٠٩، وابن أبي الدنيا في الصمت رقم الحديث ٢٧٦ وانظر تخريج الاحياء ٣/ ١٩٧.

(٢) أخرجه الخرائطي في مساوىء الأخلاق رقم الحديث ٢٩٧ وإسناده معضل، وقال العراقي في تخريج أحاديث الاحياء ٣/ ١٩٧: لم أجد له أصلاً، وكأنه لم يطلع على كتاب الخرائطي، وعزاه صاحب كنز العمال إلى الخرائطي.

(٣) أخرجه الترمذي بلفظ «لا تكونوا إمعة تقولون إن أحسن الناس أحسنا» وهو في البر والصلة رقم ٢٠٠٧ عن ابن مسعود مرفوعاً.

(٤) هذا لفظ أثر حذيفة لعمر عندما سأله: هل ذكرني رسول الله لك أني من المنافقين؟ أورده في الاحياء ٣/ ١٩٨.

منهما بأن ينصره على الآخر، وكذلك إذا أثنى على كل واحد منهما في معاداته لصاحبه، بل طريق السلامة أن يسكت ويثني على المحق من المتعاديين ويثني في حضوره وغيبته وبين يدي عدوه.

الآفة السابعة عشر: المدح والذم فأما الذم فهو الغيبة والوقيعة وقد ذكرناه فلنذكر بيان آفات المادح وآفات الممدوح وما يتوجه على الممدوح فهذه بيانات ثلاثة:

البيان الأول: في إيضاح آفات المادح وجملتها أربع.

الأولى منها: أنه ربما يفرط في المدح فينتهي إلى الكذب، قال بعض الحكماء: من مدح إماماً أو واحداً بما ليس فيه على رؤوس الأشهاد بعثه الله تعالى يوم القيامة يتعثر بلسانه.

الثانية: أنه قد يدخله الرياء فإنه بالمدح مظهر للحب وقد لا يكون مضمراً ولا معتقداً لجميع ما يقوله فيصير بذلك مرائياً منافقاً.

الثالثة: أنه قد يقول ما لا يتحققه ولا سبيل له إلى الإطلاع عليه، وروي أن رجلاً مدح رجلاً عند الرسول ﷺ، فقال رسول الله: «ويحك قطعت عنق صاحبك إن كان لا بد أحدكم مادحاً أخاً فليقل أحسب فلاناً ولا أُزكي على الله أحداً حسيبه الله إن كان يرى أنه كذلك»[1].

وهذه الآفة إنما تتطرق إلى المدح بالأوصاف المطلقة التي تعرف بالأدلة والبراهين الشرعية كقوله هو تقي وورع وزاهد وخير وما يجري مجراه، أما إذا قال رأيته يصلي ويصوم ويتصدق ويحج فهذه أمور مستيقنة، ومن ذلك قولهم عدل ورضى فإن ذلك كله خفي لا ينبغي أن يجزم القول فيه إلا بعد خبرة باطنة.

الرابعة: أنه قد يمدح الممدوح وهو ظالم أو فاسق وذلك غير جائز، قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى ليغضب إذا مدح الفاسق»[2]، وقال الحسن: من دعا لظالم

---

(١) أخرجه البخاري ي صحيحه: الشهادات ٣/ ٢٣١ وفي الأدب: باب ما يقرأ من التمادح رقم الحديث ٦٦١، ومسلم في الزهد باب النهي عن المدح رقم الحديث ٢٢٤٥. أبو داود في الأدب رقم ٤٧٨٤، وابن ماجة رقم الحديث ٣٧٤٤ وأحمد في المسند ٥/ ٤١ وَ٤٥ و٤٦ و٤٧، والطيالسي في مسنده رقم الحديث ٢٢٤٥، والبيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ٢٤٢ وأخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت رقم الحديث ٥٩٣. الجميع من حديث أبي بكرة.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت رقم الحديث ٢٢٩. وابن عدي في الكامل ٣/ ١٣٠٧، ١٣٠٨ عن أنس وفي ٥/ ١٩١٧ عن بريدة، وأخرجه البيهقي في الشعب، وأبو يعلى في مسنده من حديث أنس وفيه أبو خلف خادم أنس وهو ضعيف متروك رواه ابن عدي بالكذب. وقال الذهبي في الميزان منكر. انظر تخريج الاحياء ٣/ ٢٠٠.

بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله في أرضه وهو مروي عن الرسول ﷺ [١].

البيان الثاني: في إيضاح آفات الممدوح وهما آفتان.

الأولى منهما: أنه يحدث فيه كبراً وعجباً وهما مهلكتان، وحكى الحسن البصري أن عمر رضي الله عنه كان قاعداً ومعه الدرة والناس حوله إذ أقبل الجارود فقال رجل: هذا سيد ربيعة فسمعها عمر ومن حوله وسمعها الجارود، فلما دنا منه خفقه بالدرة، فقال: ما لي ولك يا أمير المؤمنين، قال: ما لي ولك أما إنك قد سمعتها؟، قال: سمعتها فمه، قال: خشيت أن يخالط قلبك منها شيء فأحببت أن أطأطىء منك.

الثانية: هو أنه إذا أثنى عليه بالخير فرح به ورضي وفتر من نفسه، ومن أعجب بنفسه قل تشميره وإنما يشمر للعمل من يرى نفسه مقصراً فإذا طلعت الألسنة بالثناء عليه ظن أنه قد أدرك، ولهذا قال الرسول ﷺ: «قطعت عنق صاحبك لو سمعه ما أفلح»[٢]، وقال ﷺ: «إذا مدحت أخاك في وجهه فكأنما أمررت على حلقه الموسى»[٣]: وقال أيضاً لمن مدح رجلاً: «عقرت الرجل عقرك الله»[٤]، وقال مطرف: ما سمعت ثناء أو مدحة إلا تصاغرت إلى نفسي، وقال ﷺ: «لو مشى رجل إلى رجل بسكين مرهف لكان خيراً له من أن يثني عليه في وجهه»[٥].

وقال عمر: المدح هو الذبح، وذلك لأن الممدوح يفتر عن العمل والمدح يوجب الفتور ولأن المدح يورث الكبر والعجب وهو مهلك كالذبح ولهذا شبه به فإن سلم المادح والممدوح عن هذه الآفات لم يكن به بأس، ولهذا فإن الرسول ﷺ أثنى على نفسه بقوله: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»[٦] أي لست أقول ذلك على جهة الإفتخار كما يفعله الناس وذلك لأن افتخاره إنما هو بقربه من الله ولمكانه منه لا بكونه من ولد آدم.

---

(١) هذا من قول الحسن البصري ذكره الغزالي في الاحياء وقال: قال الحسن وساقه. ولم يخرجه العراقي. وأخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت من قول الحسن البصري رقم الحديث ٦٠٠.

(٢) تقدم تخريجه ص ١٤٦ وليس فيه لفظ (لو سمعه ما أفلح).

(٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق ص ١٤: الزوائد على الزهد. من رواية يحيى بن جابر مرسلاً. انظر تخريج أحاديث الاحياء ٣/ ٢٠٠.

(٤) قال العراقي في التخريج رقم ٣/٢٠٠: لم أجد له أصلاً. ويروى أنه من قول عمر أخرجه حميد بن زنجويه في كتابه الأدب انظر تخريج أحاديث الاحياء استخراج أبي عبدالله ابن محمود بن محمد الحداد.

(٥) قال العراقي: لم أجد له أصلاً. تخريج الاحياء ٣/ ٢٠٠.

(٦) أخرجه البخاري في الأنبياء رقم الحديث ٣٣٤٠ وفي التفسير: سورة الإسراء رقم الحديث ٤٧١٢، أخرجه مسلم. =

وقال: «أنا أول من تنشق عنه الأرض وأول شافع وأول مشفع»(١)، وقال في أمير المؤمنين كرم الله وجهه أقوالاً كثيرة في إظهار مناقبه وفضائله، وقال في أبي بكر وعمر وغيرهما من الصحابة رضي الله عنهم ما يدل على فضلهم وعلو مراتبهم عند الله تعالى، وإنما كان ذلك لبعدهم عن تلك العاهات التي ذكرناها(٢).

البيان الثالث: فيما يتوجب على الممدوح.

إعلم أن الذي يتوجب على الممدوح عند سماعه المدح أن يكون شديد التحرز عن آفة الكذب والكبر والعجب وآفة الفتور والرياء ولا ينجو عن ذلك إلا بأن يعرف نفسه ويتأمل في خطر الخاتمة ودقائق الرياء وآفات الأعمال فإنه يعرف من نفسه ما لا يعرفه المادح ولو انكشف له جميع أسراره وما يجري على خاطره لكف المادح عن مدحه، وعليه أن يظهر كراهة المدح بإذلال وعليه الإشارة بقوله ﷺ: «أحثوا في وجوه المادحين التراب»(٣).

وقال سفيان: ما يضر المدح من عرف نفسه، وأثنى رجل على رجل من الصالحين فقال: اللهم إن هؤلاء لا يعرفونني وأنت تعرفني، وقال آخر: اللهم إن عبدك هذا تقرب إليَّ بمقتك وأنا أشهدك على مقته، وأثنى رجل على عمر فقال: أتهلكني وتهلك نفسك؟ وأثنى رجل على أمير المؤمنين في وجهه وكان قد بلغه أنه يقع فيه، فقال علي: أنا دون ما قلت وفوق ما في نفسك، وقد نجز غرضنا مما أردنا ذكره في المدح والله أعلم.

الآفة الثامنة عشر: في الغفلة عن دقائق الخطأ في أثناء الكلام وفحوى الخطاب لا

= الإيمان من حديث أبي هريرة رقم الحديث ٣٢٧ وَ٣٢٨، والترمذي رقم الحديث ٢٤٣٤ و٣١٤٨ وَ٣٦١٥ في قيام الليل، وفي التفسير: الإسراء عن أبي سعيد. أخرجه ابن ماجه في الزهد رقم الحديث ٤٣٠٨ واللفظ له، وأبو داود في السنن كتاب السنة رقم الحديث ٤٦٧٣ والحاكم في المستدرك ١/ ٣٠، ٤/ ٥٧٣ من حديث جابر وصححه ومن حديث عبادة بن الصامت، والخرائطي في مكارم الأخلاق رقم ٢٥٦.
انظر تخريج إحياء علوم الدين ٣/ ٢٠١.

(١) أخرجه البخاري في الخصومات رقم الحديث ٢٤١٢ عن أبي سعيد أخرجه مسلم رقم الحديث ٢٢٧٨ في الفضائل عن أبي هريرة، وأخرجه أبو داود في كتاب السنة رقم الحديث ٤٦٧٣، أخرجه الترمذي رقم الحديث ٣٦٩٢ عن ابن عمر. أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٤٦٥ عن ابن عمر، وأخرجه ابن ماجه من حديث أبي سعيد في الزهد رقم الحديث ٤٣٠٨، والخرائطي في مكارم الأخلاق رقم ٢٥٦.

(٢) انظر الاحياء ٣/ ٢٠١.

(٣) أخرجه مسلم من حديث المقداد في الزهد رقم الحديث ٣٠٠٢ وأبو داود في الأدب رقم الحديث ٤٨٠٤، والترمذي في الزهد رقم الحديث ٢٣٩٥، وابن ماجه في الأدب رقم الحديث ٣٧٤٢ وأحمد في المسند ٦/ ٥.

سيما فيما يتعلق بالله تعالى وبصفاته ويرتبط بالأمور الدينية فلا يقدر على تقويم اللفظ في أمور الدين والتحفظ من عثراته إلا العلماء الفصحاء فمن قصر في علم أو فصاحة لم يخل كلامه عن الزلل والخطأ ولم يأمن العثرات لكن الله تعالى يعفو عنه لجهالته، وهذا وإن كان الخطأ فيه ليس كفراً ولا فسقاً فلا يخلو عن كونه معدوداً في عثرات اللسان وهفواته.

ومثاله ما قاله حذيفة قال الرسول ﷺ: «لا يقول أحدكم ما شاء الله وشئت ولكن ليقل ما شاء الله ثم شئت»[1] وذلك لأن في العطف المطلق بالواو تشريكاً وتسوية وهو على خلاف الأدب الشرعي، وقال ابن عباس: جاء رجل إلى الرسول ﷺ يكلمه في بعض الأمر فقال: ما شاء الله وشئت، فقال ﷺ: «أجعلتني لله تعالى عدلاً؟ بل ما شاء الله وحده[2]»، وخطب رجل عند رسول الله ﷺ فقال: من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى، فقال عليه السلام: «بئس خطيب القوم أنت، هلا قلت ومن يعص الله ورسوله فقد غوى»[3]، وكره قوله ومن يعصهما لما فيه من الجمع بينهما في الضمير والمساواة.

وكان بعض أهل الصلاح يكره أن يقول أعوذ بالله وبك ويختار أن يقال: أعوذ بالله ثم بك، وكره بعضهم أن يقول: اللهم اعتقنا من النار ويقول إنما يكون العتق بعد

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب رقم الحديث ٤٩٨٠، أخرجه النسائي في السنن الكبرىٰ عن حذيفة. انظر عمل اليوم والليلة رقم الحديث ٤/ ٩٨ - ٩٨٨ وابن ماجه رقم الحديث ٢١١٨ كتاب الكفارات وأحمد في المسند ٥/ ٣٨٤، ٣٩٤، ٣٩٨ من حديث حذيفة، الحاكم في المستدرك ٤/ ٢٩٧، ابن أبي شيبة في المصنف ٩/ ١١٧ رقم الحديث ٦٧٤٢، وابن السني في عمل اليوم والليلة رقم الحديث ٦٦٦، وأخرجه أحمد ١/ ٢١٤، ٢٢٤، ٢٤٧، ٢٨٣ من حديث ابن عباس، وأخرجه الضياء في المختارة. والطبراني وابن سعد. والطيالسي وابن أبي الدنيا في الصمت رقم الحديث ٣٤١، والبيهقي في السنن الكبرىٰ ٣/ ٢١٦ والطحاوي في مشكل الآثار ١/ ٩٠. انظر الصحيحة للألباني رقم الحديث ١٣٧.

(٢) أخرجه ابن ماجه في السنن الكفارات رقم الحديث ٢١١٧ أخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة انظر رقم الحديث ٩٨٤ - ٩٨٨ وابن السني في عمل اليوم والليلة رقم الحديث ٦٦٧، والدارمي في السنن رقم الحديث ٢٧٠٢. والبخاري في الأدب المفرد رقم الحديث ٧٨٣، وأحمد في المسند ١/ ٢١٤ - ٢٤٧ - ٢٨٣ عن ابن عباس وعن حذيفة ٥/ ٣٩٣. وابن أبي الدنيا في الصمت رقم الحديث ٣٤٢ واللفظ له. والبيهقي في السنن ٣/ ٢١٧ والطبراني في الكبير عن ابن مسعود وابن النجار من حديث طفيل بن ، وابن سعد في الطبقات، والطبراني وابن مندة من حديث قتيلة، وأخرجه الخطيب في المتفق والمفترق والضياء في المختارة عن جابر بن عبد الله، وانظر فتح الباري ١١/ ٥٤٠، والصحيحة للألباني رقم الحديث ١٣٩.

(٣) رواه مسلم من حديث عدي بن حاتم: كتاب الجمعة رقم الحديث ٤٨، وابن أبي الدنيا في الصمت رقم الحديث ٣٤٣، وأبو داود رقم الحديث ١٠٨٤، ١٠٨٦، وأحمد في المسند ٤/ ٢٥٦، ٣٧٩ والبيهقي ٣/ ٢١٦.

الورود، وكانوا يستجبرون من النار ويستعيذون منها، وعن ابن عباس رضي الله عنه: إن أحدكم يشرك حتى يشرك بكلب فيقول لولاه لسرقنا الليلة، وقال ﷺ: «لا تسموا العنب الكرم فإن الكرم هو الرجل المسلم»[1]، وقال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ: «لا يقولن أحدكم عبدي ولا أمتي كلكم عبيد الله تعالى وكل نسائكم إماء الله عز وجل ولكن ليقل غلامي وجاريتي وفتاي وفتاتي، ولا يقول المملوك ربي ولا ربتي ولكن يقول سيدي وسيدتي وكلكم عبيد والرب هو الله عز وجل»[2] وقال ﷺ: «لا تقولوا للمنافق سيدنا فإنه إن يكن سيدكم فقد أسخط الله تعالى»[3].

فهذه آداب كريمة قد أشار إليها صاحب الشريعة في كلام ينبغي الإقتداء به فيها والامتثال لمراسمه كما فيها أوضحناه.

الآفة التاسعة عشر: الإيضاح بقبائح عن نفسك قد سترها الله سبحانه عليك في الدنيا وأشاعتها في المجالس والمحاضر والتبجح بفعلها فما هذا حاله من أقبح الخصال وأدناها لما فيه من سقوط المروءة ورذالة الفحش، وفي الحديث عن الرسول ﷺ أنه قال: «من تضمخ بشيء من هذه القاذورات فليستتر بستر الله تعالى»[4]، وفي حديث

---

(١) أخرجه مسلم كتاب الأدب رقم الحديث (٢٢٤٩) من حديث أبي هريرة وله من حديث وائل بن حجر، وأبو داود: كتاب الأدب رقم الحديث ٤٩٧٤، ورواه الدارمي في السنن كتاب الاستئذان ٢٩٥، وأحمد في المسند ٢/ ٢٧٢، ٣١٦، ٤٦٤، ٤٧٦، ٥٩٠. ورواه البخاري من وجه آخر بلفظ «إنما الكرم قلب المؤمن» انظر كتاب الأدب باب «لا تسبوا الدهر» رقم الحديث ٦١٨٢، وباب: الكرم قلب المؤمن رقم الحديث ٦١٨٣ في كتاب الأدب المفرد رقم ٧٩٥، وأخرجه ابن عساكر والبيهقي والدارمي وأبو عوانة وابن حبان انظر تخريج الاحياء ٣/ ٢٠٢.

(٢) البخاري في صحيحه العتق باب كراهية التطاول على الرقيق رقم الحديث ٢٥٥٢ بلفظ «لا يقل...» ومسلم نحو الألفاظ في الأدب رقم الحديث ٢٢٤٩ باب حكم إطلاق لفظة العبد والرقم الخاص ١٣ ـ ١٥ وأبو داود في السنن الأدب رقم الحديث ٤٩٧٥، ٤٩٧٦.

وابن أبي الدنيا في الصمت رقم الحديث ٣٦٢ وابن السني في عمل اليوم والليلة رقم ٣٩٠، والخرائطي في مكارم الأخلاق ص ١١٤ رقم الحديث ٢٥٩ والنسائي في عمل اليوم والليلة رقم الحديث ٢٤١ ـ ٢٤٣، ورواه البخاري في الأدب المفرد رقم ٢٠٩، ٢١٠ وابن حبان في صحيحه وأحمد في المسند ٢/ ٤٦٣، ٤٨٤، ٢/ ٢١٦، ٤٢٢.

وانظر جامع الأصول ٨/ ٥٩ ـ ٦٠.

(٣) أخرجه أبو داود في السنن: الأدب رقم ٤٩٧٧ من حديث بريدة بسند صحيح، والبخاري في الأدب المفرد رقم ٧٦٠ وأحمد في المسند ٥/ ٣٤٦، ٣٤٧، والنسائي في عمل اليوم والليلة رقم ٢٤٤، وابن السني في عمل اليوم والليلة رقم ٣٩١، والحاكم في المستدرك ٤/ ٣١١ وقال صحيح الإسناد قال الذهبي: قلت الحديث ضعيف، وأخرجه البيهقي في الشعب، والضياء في المختارة، وانظر الصحيحة للألباني رقم الحديث ٤٧١.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ٢٤٤ وفي ٣٨٣ وصححه ووافقه الذهبي، وفي مختصر السنن الكبرى للبيهقي قال=

آخر: «إذا أذنب العبد ذنباً وستره الله عليه في الدنيا فالله سبحانه أجل وأعلا أن يفضحه به في الآخرة»[1]، وإذا كان الأمر كما قلناه فعليه أن يحرس نفسه عن مثل ذلك لما ذكرنا أنه من أقبح الخصال وأدناها.

الآفة العشرون: سؤال العوام عن صفات الله تعالى في عالميته وكلامه والمريدية في حقه وغيرها هل هي قديمة أو حادثة والكلام في كيفية تعلقها بمتعلقاتها، فإنه لا حاجة بهم إلى السؤال عن ذلك وحقهم الإشتغال بالعمل بما جاء به القرآن والسّنة من العبادات وأحوال المعاملات خلا أن الإقتصار على ذلك ثقيل على القلوب والفضولات خفيفة عليها والعوام يفرحون بالخوض في العلوم لأن الشيطان يخيل لهم أنهم من جملة العلماء وأهل الفضل فلا يزال يحبب إليهم ذلك حتى يتكلم بما هو كفر وهو لا يدري، خاصة فيما يتعلق بالذات القديمة والصفات الإلهية، وإنما اللائق بالعوام هو شغل أنفسهم بالعبادات والتصديق بما ورد به القرآن والتسليم لما جاءت به الرسل صلوات الله عليهم من الأمور الأُخروية والإستقامة على ذلك، وسؤالهم وبحثهم عما لا يليق بالعبادة سوء أدب وهم يستحقون بذلك المقت من الله تعالى ويتعرضون لخطر الكفر وسؤالهم كسؤال ساسة الدواب عن أسرار الملوك وهو موجب للعقوبة.

وقد نبه على ذلك الرسول ﷺ حيث قال: «أتركوني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فأتوا به ما استطعتم»[2]، وقال أنس بن مالك سأل الناس رسول الله ﷺ يوماً حتى أكثروا عليه وأغضبوه فصعد المنبر وقال: سلوني فلا تسَألوني عن شيء إلا نبأتكم به فقام إليه رجل فقال يا رسول الله: من أبي؟، فقال: أبوك حذافة، وقام إليه رجل فقال: يا رسول الله

= الذهبي: إسناده جيد وصححه السبكي أيضاً وصحح الدارقطني في العلل إرساله وانظر تخريج أحاديث الإحياء ٢/ ٢٥٤، ٢٥٥.

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ٣٨٨ من حديث علي نحوه وصححه وأقره الذهبي بلفظ «من أذنب ذنباً» وقال: وله شواهد وله نحوه من حديث أبي هريرة وصححه ٤/ ٢٤٢. وله من حديث أنس في ٤/ ٢٤٢ نحوه وصححه وتعقبه الذهبي وضعفه. وللترمذي نحوه من حديث علي في كتاب الإيمان رقم الحديث ٢٦٢٦ وله شاهد عند مسلم من حديث أبي هريرة بلفظ «لا ستر الله على عبد في الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة» انظر البر والصلة رقم الحديث ٧١ - ٧٢.

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة. البخاري في صحيحه: الاعتصام رقم الحديث ٧٢٨٨، ومسلم في الحج رقم الحديث ٤١١ - ٤١٢، والفضائل رقم ١٣١ وأخرجه الترمذي في الصلة رقم الحديث ٢٦٧٩، والنسائي في الحج رقم ٢٦١٩، وابن ماجه في المقدمة رقم الحديث ٢، وأحمد في المسند ١/ ٤٠١، ٤٢١، ٢/ ٢٤٧،

أنا في الجنة أو في النار؟ ، قال: بل في النار، فلما رأى الناس غضب رسول الله ﷺ أمسكوا فقام إليه عمر فقال: رضينا بالله رباً و بمحمد نبياً وبالإسلام ديناً ، فقال له: اجلس فإنك ما علمت لموفق[1].

وفي الحديث: «نهى رسول الله ﷺ عن القيل والقال وكثرة السؤال وإضاعة المال»[2]، وقال رسول الله ﷺ : «يوشك أن الناس يتساءلون بينهم حتى يقول أحدهم الله خلقني فمن خلق الله جل وعلا؟ ، فإذا أحسّ ذلك فليقل آمنت بالله و برسوله[3].

ولنكتف بما أوردناه في آفات اللسان ففيه كفاية لمن أراد السلامة، ومن تأمل جميع ما ذكرناه في آفات اللسان علم أنه إذا أطلق لسانه لم يسلم وعند ذلك يعرف سر قوله ﷺ : «من صمت نجا»[4] لأن هذه الآفات كلها مهالك ومعاطب وهي على طريق المتكلم فمن سكت سلم عن الكل ومن تكلم خاطر بنفسه إلا أن يكون التوفيق مقارناً له والتسديد من الله تعالى يصاحبه وهو مع ذلك لا ينفك عن الخطر، فإن كنت لا تقدر على أن تكون ممن تكلم فغنم فكن ممن سكت فسلم ، فنسأل الله تعالى عصمة في الأقوال والأفعال والبلوغ من كرمه ورحمته أقصى البغية والآمال فهو الجواد الكريم البر الرحيم .

---

(١) متفق عليه من حديث عبدالله بن حذافة وقول عمر. البخاري في العلم رقم الحديث ٩٢ ـ وفي الاعتصام ٧٢٩١، ٧٢٩٤ ومسلم في الفضائل رقم ١٣٤ ـ ١٣٧ ولمسلم من حديث أبي موسىٰ الأشعري نحوه رقم ١٣٨ الفضائل.

(٢) متفق عليه من حديث المغيرة بن شعبة ـ البخاري في الزكاة رقم الحديث ١٤٧٧ ، والاعتصام رقم ٧٢٩٢، ومسلم في الأقضية رقم ١٢، ١٣، ١٤، أحمد في المسند ٢/ ٣٢٧ نحوه من حديث أبي هريرة ٤/ ٢٤٩ عن المغيرة بن شعبة.

(٣) متفق عليه من حديث أبي هريرة. البخاري في صحيحه: بدء الخلق: باب صفة إبليس رقم الحديث ٣٢٧٦، وفي الاعتصام رقم ٧٢٩٦ عن أنس، ومسلم في صحيحه كتاب الإيمان رقم الحديث (١٣٤) باب الوسوسة في الإيمان.

(٤) تقدم تخريجه ص ٩٧ التعليق رقم (١).

الباب الرابع

مقالة المهلكات في الغضب

إعلم أن الغضب شعلة نار اقتبست من نار الله الموقدة خلا أنها لا تطلع على الأفئدة وأنها لمستكنة في الفؤاد استكان الجمر في الرماد ويستخرجها الكبر الدفين من قلب كل جبار عنيد كما يستخرج النار من الحديد وقد انكشف لأهل البصيرة الناظرين بنور اليقين، أن الإنسان ينزع منه عرق إلى الشيطان اللعين فمن اشتعلت فيه نار الغضب فقد قويت فيه قرانة الشيطان المنصوص عليها في القرآن كما قال تعالى: ﴿**خلقتني من نار وخلقته من طين**﴾ (ص: ٧٦)،فإن شأن الطين الثقل والوقار، وشأن النار التلظي والاشتعال، وحقيقة الغضب آيلة إلى غليان دم القلب لطلب الانتقام وهي قوة حاصلة في القلب فإذا حصل الغضب فله آثار أربعة:

الأول: تغير اللون بالصفرة وشدة الرعدة في اضطراب الأطراف وظهور الزبد على الأشداق واحمرار الأحداق وانقلاب المناخر واضطراب الحركة واستحالة الخلقة، ولو رأى الغضبان قبح صورته عند غضبه لسكن غضبه حياء من قبح صورته.

الأثر الثاني: في اللسان بانطلاقه بالشتم والسب والأذية وقبح الكلام الذي يستحي منه ذوو العقول ويستحي منه قائله عند فتور الغضب.

الأثر الثالث: على الأعضاء بالضرب والقتل والجرح وتمزيق الأثواب عند التمكن من غير مبالاة، فإن فات المغضوب عليه أو عجز عن التشفي فإنه يرجع الغضب على صاحبه فيمزق ثوب نفسه ويلطم نفسه وقد يضرب يده على الأرض أسفاً، وربما سار سيرة السكران والمدهوش المتحير، وربما يسقط صريعاً من شدة الدهشة، وربما كسر القصعة وضرب الحيوان وشتمه وتعاطى أفعال المجانين، إلى غير ذلك من التغييرات في أحواله.

الأثر الرابع: في القلب على المغضوب عليه وهو الحقد والحسد وإضمار المساءة وإظهار الشماتة والحزن بالسرور والغم بما يناله من الفرح وهتك الستر والاستهزاء، فهذه هي حقيقة الغُضب وما يظهر من آثاره، والمقصود يحصل بإيراد تنبيهات ستة:

التنبيه الأول
في بيان درجات الغضب

إعلم أن الناس بالإضافة إلى هذه الخصلة المهلكة للدين على درجات إفراط وتفريط واعتدال ونحن نوضح كل واحد من هذه الدرجات بكلام يخصها:

الدرجة الأولى: الإفراط وهي أن يكون الغضب غالباً على صاحبه حتى يكون الإنسان خارجاً عن سياسة العقل والدين وطاعتهمافلا يبقى للمرء معهابصيرة ولا نظر ولا فكر ولا اختيار بل يصير في صورة المضطر ولذلك سببان:

السبب الأول: في أمور غريزية جبلية، فرب إنسان هو بالفطرة مستعد لسرعة الغضب كأن صورته في الفطرة صورة غضبان ويهيج ذلك حرارة مزاج القلب لأن الغضب من النار كما أشار إليه الرسول ﷺ بقوله: «الغضب يوقد في فؤاد ابن آدم النار، ألا ترونه كيف تحمر عيناه وتنتفخ أوداجه»[1].

السبب الثاني: الأمور الاعتيادية وهو أن يخالط قوماً يتفاخرون بتشفي الغيظ وطاعة الغضب ويسمون ذلك بالشجاعة والرجْلة حتى يقول أحدهم أنا لا أصبر على ضيم ساعة واحدة ومعنى ذلك أنه لا عقل لي ولا حلم ويذكره في معرض الفخر بجهله، ومن سمع ذلك رسخ في قلبه حسن الغضب ومهما اشتدت نار الغضب وقوي اضطرابها أعمى صاحبها وأصمه عن كل موعظة فإذا أوعظ لم يسمع بل يزيده ذلك غضباً، وإن استضاء بنور عقله وراجع نفسه لم يقدر أن يزيل ذلك عن نفسه وينطفىء نور العقل بدخان الغضب فإن القلب معدن الفكر ويتصاعد عند شدة الغضب من غليان دم القلب دخان إلى الدماغ مظلم يستولي على معادن الفكر وربما يتعدى إلى معادن الحس فتظلم عينه حتى لا يبصر بعينه وتظلم عليه الدنيا بأسرها، فالسفينة في ملتطم الأمواج عند اضطراب الرياح في

---

(١) أخرجه الترمذي أبواب الفتن باب ما أخبر النبي ﷺ أصحابه بما هو كائن إلى يوم القيامة رقم الحديث ٢١٩١ من حديث طويل رواه أبي سعيد الخدري وفيه علي بن زيد بن جدعان وهو ضعيف ورغم ذلك فإن الترمذي حسنه قال: حديث حسن. ورواه أحمد في المسند ٣/ ١٩، ٦١. انظر تخريج إحياء علوم الدين ٤/ ١٨٠٧ استخراج أبي عبد الله الحداد. رواه البيهقي في السنن ٣/ ٣٦٩، ٧/ ٩١. أخرجه الحاكم في المستدرك ٥/ ٥٠٥ ومدار الحديث عن علي بن زيد. وقال عنه الذهبي: صالح الحديث.

لجة البحر أحسن حالاً وأرجى سلامة من النفس المضطربة غيظاً فنعوذ بالله من شدة الغضب .

الدرجة الثانية : وهي المقابلة لهذه الدرجة وهي التفريط وهو بطلان قوة الغضب أو ضعفها وذلك مذموم وهو الذي يقال فيه ، من الرجال من لا حمية له ولا أنفة ، ولهذا قال الشافعي : من استغضب فلم يغضب فهو حمار ، فمن فقد قوة الغضب والحمية فهو ناقص جداً وقد وصف الله الصحابة بالقوة والحمية . فقال جل وعلا : ﴿**أشداء على الكفار رحماء بينهم**﴾ (الفتح : ٢٩) وقال للرسول ﷺ ﴿**يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم**﴾ (التحريم : ٩) والغلظة إنما تكون من آثار قوة الغضب والحمية لا محالة فهذه الدرجة مذمومة ، كالدرجة الأولى .

الدرجة الثالثة : وهي درجة الاعتدال وهي المحمودة وهي حالة الغضب الذي ينتظر بها إشارة العقل والدين فينبعث حيث تجب الحمية وينطفىء حيث يحسن الحلم ، وحفظه على حد الاعتدال والاستقامة هو الذي كلف الله سبحانه بها عباده وهي الوسط التي أشار إليها الرسول ﷺ بقوله : «خير الأمور أوسطها»[١] ، فمن مال غضبه إلى الفتور والضعف حتى أحس من نفسه بطلان الغيرة وخسة النفس في احتمال الذل والضيم في غير محله فينبغي أن يعالج نفسه حتى يقوِّم غضبه ، ومن مال غضبه إلى الإفراط حتى جره إلى التهور في اقتحام الورط العظيمة والفواحش المهلكة ليغيض من سورة الغضب ويقف على الوسط من الحق بين الطرفين وهو المنهاج القويم والصراط المستقيم .

التنبيه الثاني
في بيان ذم الغضب

قال الله جل وعلا : ﴿**إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله**﴾ (الفتح : ٢٦) الآية ، فذم الكفّار بما تظاهروا من الحميّة الصادرة عن الغضب بالباطل والتعصب له ، ومدح المؤمنين بما أنعم الله عليهم من السّكينة ، وقد ظهر ذمه من جهتين .

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان مرسلاً من حديث مطرف ، وعزاه العراقي لأبي بكر الحياني في الأربعين البلدانية من حديث علي بسند ضعيف ، ورواه ابن جرير في تفسيره أيضاً من قول يزيد بن مرة الجعفي . قول مطرف ، وعن علي مرفوعاً بسند فيه مجاهيل . ورواه ابن السمعاني في ذيل تاريخ بغداد وفي إسناده من لا يعرف حاله ، ورواه الديلمي عن ابن عباس في مسند الفردوس رقم الحديث ٣٠٣٦ ، ورواه أبو يعلى في المسند بسند رجاله ثقات عن وهب بن منبه . والعسكري في الأمثال . انظر تخريج أحاديث الاحياء رقم الحديث ٢٤٤٧ و٢٥١٢ و٢٨٥٤ استخراج أبي عبد الله الحداد . وانظر الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة للسيوطي ١٠٩ ، ١١٠ .

الجهة الأولى: جهة الأخبار، روى أبو هريرة أن رجلاً قال: يا رسول الله مرني بعمل وأقل، قال: لا تغضب فأعدت عليه مرتين كل ذلك يرجع إلى لا تغضب[١]، وقال ابن عمر لرسول الله ﷺ: قل لي قولاً وأقلل لعلي أعقله قال: لا تغضب فأعدت عليه مرتين كل ذلك يرجع إلى لا تغضب[٢]، وعن عبد الله بن عمر أنه سأل رسول الله ﷺ، ماذا يبعدني من غضب الله سبحانه؟ قال: لا تغضب[٣]، وقال ابن مسعود قال رسول الله ﷺ: «ما تعدون الصرعة فيكم؟ قلنا: الذي لا يصرعه الرجال، قال: ليس ذلك ولكن الذي يملك نفسه عند الغضب[٤]، وقال الرسول ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»[٥]، وقال ابن عمر: قال رسول الله ﷺ: «من كف غضبه ستر الله عورته»[٦]، وقال سليمان بن داود عليه السلام: إياك وكثرة الغضب فإن كثرة الغضب تستخف فؤاد الرجل الحليم[٧].

---

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة في الأدب رقم الحديث ٦١١٦ ورواه أحمد في المسند ٢/ ٣٦٢، ٤٦٦. وأخرجه ابن حبان انظر موارد الظمآن ص ٤٨٤، ويروى عن أبي سعيد وعن جويرية بن قدامة في المسند ٥/ ٣٤، ٣٧٣، ٣/ ٤٨٤، ورواه الحاكم في المستدرك ٣/ ٦١٥، ورواه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن عن أبي الدرداء وفي الكبير عن أبي الدرداء وأبي سعيد.

(٢) رواه أبو يعلى بسند حسن عن ابن عمر ١٠/ ٥١ رقم الحديث ٢٧١ حسنه الحافظ في فتح الباري ١٠/ ٣٦٨، وأحمد عن خوات بن جبير في المسند ٥/ ٣٧٠ وعن الأحنف بن قيس ٥/ ٣٧٢. وابن أبي الدنيا في ذم الغضب وهذا السياق له. أخرجه الطبراني في مكارم الأخلاق، وابن عبد البر في التمهيد بإسناد حسن انظر تخريج الاحياء ٣/ ٢٠٥ والمطالب العالية ٢/ ٤٠٤ رقم الحديث ٢٥٨٦. انظر مجمع الزوائد ٨/ ٦٩ قال: رواه أبو يعلى وفيه ابن أبي الزناد وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٣) رواه أحمد في المسند ٢/ ١٧٥ عن عبدالله بن عمرو وأخرجه الطبراني في المكارم، وابن عبد البر في التمهيد بإسناد حسن وقد تقدم ورواه ابن حبان في صحيحه رقم الحديث ٢٩٦.

(٤) رواه مسلم في البر والصلة رقم الحديث ٢٦٠٨ باب: فضل من يملك نفسه عند الغضب ورواه أبو داود في الأدب باب: من كظم غيظاً رقم الحديث ٤٧٧٩، وأحمد في المسند ١/ ٣٨٢ الجميع عن عبدالله بن مسعود. انظر مجمع الزوائد ٨/ ٦٩.

(٥) متفق عليه من حديث أبي هريرة. أخرجه البخاري في الأدب رقم الحديث ٦١١٤ ومسلم في البر والصلة رقم الحديث ١٠٦ - ١٠٨ وفي الموطأ كتاب حسن الخلق رقم الحديث ١٢ وأحمد في المسند ١/ ٣٨٢، ٢/ ٢٣٦، ٢٦٨، ٥١٧.

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب العفو وذم الغضب وفي الصمت وحفظ اللسان رقم الحديث ٢١. وقال العراقي في تخريج أحاديث إحياء علوم الدين ٣/ ١٣٩ بإسناد حسن، وللطبراني في الأوسط نحوه بلفظ «من دفع غضبه دفع الله عنه عذابه» قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٧٠ فيه عبد السلام بن هلال وهو ضعيف.

(٧) انظر الاحياء ٣/ ٢٠٦.

وعن عكرمة في قوله تعالى: ﴿وسيداً وحصوراً﴾ (آل عمران: ٣٩) قال: السيد الذي لا يغلبه الغضب، وقال يحيى لعيسى عليهما السلام: لا تغضب، قال: لا أستطيع إلا الغضب إنما أنا بشر، قال: لا تقتن مالاً، قال عيسى عليه السلام: هذا وقال ﷺ: «الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الخل العسل»[١]، وقال ﷺ: «ما غضب أحد إلا أشفي على جهنم»[٢]، وقال رجل للرسول ﷺ: أي شيء أشد؟ قال: غضب الله، قال: فماذا يبعدني من غضب الله؟ قال: لا تغضب[٣].

الجهة الثانية: الآثار، قال الحسن: يا ابن آدم كلما غضبت وثبت فيوشك أن تثب وثبة تقع في النار، وعن ذي القرنين أنه لقي ملكاً من الملائكة فقال: علمني علماً أزداد به إيماناً ويقيناً، قال: لا تغضب فإن الشيطان أقدر ما يكون على ابن آدم عند الغضب، فردَّ الغضب بالكظم وسكّنْه بالتؤدة، وإياك والعجلة فإنك إن عجلت أخطأت حظك، وكن سهلاً ليناً للقريب والبعيد، وعن وهب بن منبه أن راهباً كان في صومعته فأراد الشيطان أن يضله فلم يستطع فجاءه حتى ناداه فقال: افتح فلم يجبه، فقال: افتح فلم يجبه، فقال: افتح لي فإني إن ذهبت ندمت، فلم يلتفت إليه، فقال: إني أنا المسيح، فقال الراهب: وإن كنت المسيح فما أصنع بك أليس قد أمرتنا بالعبادة والاجتهاد ووعدتنا القيامة فلو جئتنا اليوم بغير ذلك لم نقبله منك؟ فقال: إني أنا الشيطان وقد أردت أن أضلك فلم أستطع فجئتك لتسألني عما شئت فأخبرك، فقال: ما أريد أن أسألك عن شيء فولى مدبراً، فقال له الراهب: ألا تسمع؟ قال: بلى قال: فأخبرني أي أخلاق بني آدم أعون لك عليهم؟ قال: الحدة إن الرجل إذا كان حديداً قلبناه كما يقلب الصبيان الكرة.

وعن بعضهم قال: الشيطان يقول وكيف يغلبني ابن آدم وإذا رضي جئت حتى أكون في قلبه وإذا غضب طرت حتى أكون فوق رأسه، وقال جعفر بن محمد رضي الله عنه:

---

(١) رواه الطبراني في الكبير. انظر مجمع الزوائد ٨/ ٧٠ من رواية بهز بن حكيم عن أبي عن جده بسند ضعيف.
ورواه البيهقي في الشعب، وابن عساكر في تاريخه، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول ص ٦. انظر تخريج الاحياء ٣/ ٢٠٦.

(٢) أخرجه البزار في مسنده بإسناد ضعيف. انظر كشف الأستار عن زوائد البزار رقم الحديث ٢٠٥٥ عن ابن عباس في باب: صفة النار. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٧١: فيه إسماعيل بن شيبة الطائفي وهو ضعيف. وثقه ابن حبان وبقية رجاله رجال الصحيح. ورواه ابن عدي في الكامل ٦/ ٢٠٧٤ في ترجمة قدامة بن محمد بن قدامة عن ابن عباس، وقال: غير محفوظ.

(٣) تقدم تخريجه في التعليق رقم (٣) من حديث عبدالله بن عمر.

الغضب مفتاح كل شر، قال بعض الأنصار: رأس الحمق الحدة وقائدة الغضب، ومن رضي بالجهل استغنى عن الحلم، والحلم زين والجهل شين ومضرة، والسكوت عن جواب الأحمق جوابه وعن إبليس قال: ما أعجزني بنو آدم فلن يعجزوني في إثنين إذا سكر أحدهم أخذنا بحزامته فقدناه حيث شئنا وعمل لنا بما أحببنا وإذا غضب قال بما لا يعلم وعمل بما يندم، وقيل لحكيم: ما أملك فلان لنفسه! قال: إذاً لا تذله الشهوة ولا يصرعه الهوى ولا يغلبه الغضب، وقال بعضهم: إياك والغضب فإنه يصيرك إلى ذل الاعتذار، وقال بعضهم: إياك والغضب فإنه يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل، وقال عبد الله بن مسعود: انظروا إلى حلم الرجل عند غضبه وأمانته عند طمعه وليت شعري ما علمك بحلمه إذا لم يغضب؟ وما علمك بأمانته إذا لم يطمع؟

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عامله لا تعاقب عند غضبك فإذا غضبت على رجل فاحبسه حتى يسكن غضبك فإذا سكن غضبك فأخرجه وعاقبه على قدر ذنبه ولا تجاوز به خمسة عشر سوطاً، وأغلظ رجل من قريش على عمر بن عبد العزيز فأطرق عنه طويلاً ثم قال: أردت أن يستفزني الشيطان بعز السلطان فأنال منك اليوم ما تناله مني غداً، وقال بعضهم: الغضب عدو العقل، وقال وهب بن منبه: للكفر أربعة أركان الغضب والشهوة والخرق والطمع[1]، ونقتصر من ذمه على ما ذكرناه.

التنبيه الثالث
في بيان الأسباب المهيجة للغضب وإزالتها

إعلم أن الأسباب المهيجة للغضب هي الزهو والعجب والفخر والمزح والهزل والتعيير والمماراة والمضارة والغدر وشدة الحرص على المال والجاه فهذه أمور عشرة وهي بأجمعها أخلاق ردية ولا خلاص من الغضب مع بقي هذه الأسباب فلا بد من إزالة هذه الأسباب بأضدادها، أولها الزهو وإنما يزال بالتواضع، ويزال العجب بمعرفة الإنسان بنفسه وحقيقة حاله، وأما الفخر فيزال بالاعتراف بأنك من جنس عبدك لا فضل بينك وبينه لأنه من ولد آدم مثل ما أنك من ولد آدم، وإنما الفخر باكتساب الفضائل، والفخر من أكبر الرذائل، وأما المزح فيزال بالتشاغل بالمهمات الدينية التي تستوعب العمر وتفضل عليه إذا عرفها، وأما الهزل فيزال بالجد في طلب الفضائل والأخلاق الحسنة والعلوم الدينية التي تبلغك إلى سعادة الآخرة وإحرازها، وأما الهزء فيزال بالتكرم عن إيذاء الناس وبصيانة النفس أن يستهزأ بها.

---

(١) انظر الاحياء ٣/ ٢٠٧.

وأما التعيير فيزال بالحذر عن القول القبيح وصيانة النفس عن مرارة الجواب ، وأما المماراة فتزال بكسر نخوة الفضل لنفسه ، والإعراض عن عيوب الناس ، وأما المضارة فتزال بخوف الله تعالى عن ظلم الخلق وخوف المقاصة في الآخرة، وأما الغدر فيزال بالعزم على الوفاء واعتقاد أن الوفاء توأم الصدق، وأما شدة الحرص على مرتاد العيش فيزال بالقناعة وبقدر الضرورة طلباً لعز الاستغناء وترفعاً عن ذل الحاجة .

وكل خلق من هذه الأخلاق وصفة من هذه الصفات تفتقر إلى رياضة وتحمل مشقة، وحاصل رياضتها يرجع إلى معرفة غوائلها لتكون النفس راغبة عنها وتنفر عن قبحها، ثم المواظبة على مباشرة أضدادها مدة مديدة حتى تصير بالعادة مألوفة هينة على النفس فإذا أمحت عن النفس فقد زكت وطهرت عن هذه الرذائل وتخلصت عنها .

ومن أعظم البواعث على الغضب عند أكثر الجهال تسميتهم الغضب شجاعة ورجلة وعزة نفس وكبر همة وتلقيبه بالألقاب المحمودة غباوة وجهلاً ، فينبغي أن يتلى عليه حكايات أهل العفو والحلم وما استحسن منهم من كظم الغيظ، فإن ذلك منقول عن الأنبياء والحكماء وأكابر الملوك الفضلاء ، وضد ذلك منقول عن الأتراك والأكراد والجهال والأغبياء الذين لا عقل لهم ولا فضل عندهم[1] .

التنبيه الرابع
في بيان علاج الغضب عند هيجانه

إعلم أن الغضب إذا هاج فعنده يجب التثبت حتى لا يكون صاحبه مضطراً إلى العمل به على الوجه المذموم وإنما يعالج عند هيجانه بمعجون العلم والعمل فهذان نوعان :

النوع الأول : في علاجه بالعلم وذلك يكون بأمور ستة : **الأول** منها : أن يتفكر في الأخبار التي سنوردها في فضل كظم الغيظ والعفو والاحتمال ويمنعه من التشفي والانتقام، ويحكى أن عمر بن الخطاب غضب على رجل فأمر بضربه فقيل له : يا أمير المؤمنين : ﴿ **خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين** ﴾ (الأعراف : ١٩٩) ، فكان عمر يقول : خذ العفو وأمر بالعرف وكان يتأمل الآية وكان وقافاً عند كتاب الله مهما تلي عليه كثير التدبر له .

الثاني : أن يخوف نفسه بعقاب الله تعالى وهو أن يقول قدرة الله أعظم من قدرتي على هذا الإنسان فلو أمضيت غضبي عليه لم آمن من أن يمضي الله علي غضبه يوم القيامة

(١) انظر الاحياء ٣/ ٢٠٧ .

أحوج ما أكون إلى العفو وقد قال تعالى في بعض الكتب المنزلة : يا ابن آدم اذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب فلا أمحقك فيمن أمحق .

الثالث : أن يحدث نفسه عاقبة العداوة والانتقام وتشمير العدو في مقاتلته والسعي في عدم إعراضه والشماتة بمصائبه وهو لا يخلو من المصائب ، فيخوف نفسه بعواقب الغضب في الدنيا إن كان لا يخاف من الآخرة ، وإن كان يخاف من الآخرة فخوفه من انتقام الله وانتصافه يكون أعظم .

الرابع : أن يتفكر في قبح صورته عند غضبه بأن يتذكر صورة غيره في حال غضبه ويتفكر في قبح الغضب في نفسه ومشابهة صاحبه بالكلب الضاري والسبع العادي ، ومشابهة الحليم الهادىء التارك للغضب بالأنبياء والعلماء والحكماء ويخير نفسه بين أن يتشبه بالكلاب والسباع وأراذل الناس وبين أن يتشبه بالأنبياء والعلماء ، ومن العادة الميل إلى حب الاقتداء بهؤلاء إن كان قد بقي معه مسكة من عقل .

الخامس : أن يتفكر في السبب الذي يدعوه إلى الانتقام ويمنعه من كظم الغيظ ولا بد أن يكون له سبب مثل قول الشيطان له : إن هذا يحمل منك على العجز وصغر النفس والذلة والمهانة وتصير حقيراً في أعين الناس ، فإذا كان الأمر هكذا من جهة الشيطان فليقل لنفسه ما أعجب أمرك يا نفس تأنفين من الاحتمال الآن ولا تأنفين من خزي يوم القيامة إذا أخذ هذا بيدك وانتقم منك وتحذرين من أن تصغري في أعين الناس ولا تحذرين من أن تصغري عند الله وعند الملائكة والنبيين فمهما كظم الغيظ فينبغي أن يكظمه لله تعالى وذلك لعظمته عند الله ، فهذا ومثاله من معارف الإيمان حقائقه فينبغي أن يقرره في قلبه .

السادس : أن يحقق لنفسه ويضع في قلبه أنه إذا غضب صار مشاركاً لله تعالى في هذه الصفة ولا شك أن غضب الله حكمة وصواب ، وغضبه معصية وخطأ ، وإذا كان الأمر كما قررناه قُبِّح منه الغضب لأجل المشاركة كما قبح الكبر من جهتنا وهو حسن في حق الله تعالى ، فهكذا حال الغضب فإنه قبيح من العبد حسن من الله سبحانه ، فهذا ما يتعلق بعلاجه من الأمور الدينية .

النوع الثاني : في بيان علاجه بالأمور العلمية وحاصله أن تقول بلسانك أعوذ بالله من الشيطان الرجيم هكذا أمر رسول الله ﷺ أن يقال عند الغيظ[1] ، وكان ﷺ إذا

---

(١) متفق عليه من حديث سليمان بن سهد. البخاري في الأدب باب الحذر من الغضب رقم الحديث ٦١١٥ ، ومسلم =

غضبت عائشة أخذ بأنفها وقال: «يا عويش قولي اللهم رب محمد اغفر لي ذنبي وأذهب غيظ قلبي وأجرني من مضلات الفتن»[1]، ويستحب أن يقال ذلك عند الغضب فإن لم يزل بذلك فاجلس إن كنت قائماً واضطجع إن كنت قاعداً وأقرب من الأرض التي منها خلقت لتعرف بذلك ذل نفسك واطلب بالجلوس والاضطجاع السكون لتزول تلك الشرة وتتغير تلك الحالة واغتسل فإن النار لا يطفئها إلا الماء فقد قال رسول الله ﷺ: «إذا غضب أحدكم فليتوضأ بالماء البارد فإنما الغضب من النار»[2].

وقال عروة بن محمد لما استعملت على اليمن قال لي أبي: أوليت؟قلت: نعم، قال فإذا غضبت فانظر إلى السماء فوقك وإلى الأرض تحتك ثم عظم خالقهما، وغضب المهدي يوماً على رجل فقال: تلبث لا تغضبن لله بأشد من غضبه لنفسه، فقال: خلوا سبيله، وروي عن عمر رضي الله عنه أنه غضب يوماً فدعا بماء فاستنشق، فقال: إن الغضب من الشيطان وهذا يذهب الغضب، هذا تقرير علاج إزالة الغضب مع الاستعانة بتوفيق الله تعالى.

التنبيه الخامس
في بيان كظم الغيظ

قال تعالى: ﴿**والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس**﴾ (آل عمران: ١٣٤) وذكر ذلك في معرض المدح والثناء، وقال ﷺ: «من كف غيظه كف الله تعالى عنه عذابه، ومن اعتذر إلى الله قبل الله عذره، ومن خزن لسانه ستر الله عورته»[3]، وقال ﷺ:

= في البر والصلة رقم الحديث ٢٦١٠ باب فضل من يملك نفسه عند الغضب، وأخرجه أبو داود في الأدب باب: ما يقال عند الغضب رقم الحديث ٤٧٨٠ - ٤٧٨١ عن معاذ بن جبل.

والترمذي في الدعوات باب: ما يقال عند الغضب رقم الحديث٣٤٥٢ عن معاذ، ونسبه المنذري للنسائي في السنن الكبرى. ورواه ابن عدي من حديث أبي هريرة في الكامل، والطبراني في الأوسط، والصغير عن ابن مسعود. انظر مجمع الزوائد ٨/ ٧١.

(١) أخرجه ابن السني في أعمال اليوم والليلة ص ٢١٦ رقم الحديث ٤٥٥ بإسناد ضعيف. وضعفه الألباني في ضعيف الجامع رقم الحديث (٤٤٤٠) وقال السخاوي: رواه أحمد من حديث أم سلمة في حديث طويل وسنده حسن. انظر تخريج الاحياء استخراج أبي عبدالله الحداد رقم الحديث ١٠٦٢.

(٢) رواه أبو داود في كتاب الأدب باب: ما يقال عند الغضب رقم الحديث ٤٧٨٤ عن عروة بن محمد السعدي عن أبيه عن جده عطية. أخرجه أحمد في المسند مختصراً إلى قوله: فليتوضأ ٤/ ٢٢٦ وأخرجه أبو نعيم في الحلية وابن عساكر من حديث أبي مسلم الخولاني: أنه كلّم معاوية بن بشر فذكر نحوه. انظر تخريج الاحياء رقم الحديث ٢٨٦٤ استخراج أبي عبدالله محمد الحداد.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أنس بسند ضعيف، انظر مجمع الزوائد ٨/ ٦٨٠، ٧٠. وقال الهيثمي: فيه =

«أشدكم من ملك نفسه عند الغضب وأحلمكم من عفا بعد القدرة»[1]، وقال الرسول ﷺ : «من كظم غيظاً ولو شاء أن يمضيه لأمضاه ملأ الله سبحانه قلبه أمناً وإيماناً يوم القيامة»[2]، وقال ابن عمر قال رسول الله ﷺ : «ما جرع عبد قط جرعتين أفضلَ عند الله من جرعة غيظ يلقاها بحلم أو جرعة مصيبة يلقاها بصبر جميل»[3]، وقال ابن عباس قال رسول الله ﷺ : «إن لجهنم باباً لا يدخله إلا من شفى غيظه»[4]، وقال ﷺ : «من كظم غيظه وهو يقدر على أن ينفذه دعاه الله تعالى على رؤوس الخلائق فيخيره من أي

= عبد السلام بن هلال وهو ضعيف. وتقدم في ص ١٥٧ تعليق رقم (٦) وأخرجه البيهقي في الشعب مرسلاً واللفظ له. وأخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الغضب من حديث ابن عمر ورواه ابن شاهين في الترغيب. انظر ميزان الاعتدال ٢/ ٢٠٧. والخرائطي في مساوىء الأخلاق رقم الحديث ٣٣٣ عن أنس وأخرجه الدولابي في الكُنى ١/ ٤٤. وأورده ابن أبي حاتم في العلل ٢/ ١٤١ وقال: منكر، وأورده الذهبي في الميزان ٢/ ٢٠٧، وأورده ابن كثير في تفسيره ١/ ٤١٣ قال: حديث غريب وفي إسناده نظر. انظر تخريج أحاديث الاحياء ٣/ ٢١٨ وأخرج ابن أبي الدنيا نحو في ذم الغضب عن ابن عمر رقم الحديث ٢١ وفي سنده من هو مجهول.

(١) رواه البيهقي في الشعب من رواية عبد الرحمن بن عجلان ومرسلاً بسند جيد بشطره الأول.
وروى نحوه البزار في مسنده عن أنس بإسناد فيه شعيب بن وعمران القطان وثقهما ابن حبان وضعفهما غيره، وبقية رجاله رجال الصحيح. انظر مجمع الزوائد ٨/ ٦٨ ورواه الطبراني في مكارم الأخلاق من حديث أنس واللفظ له وفيه عمران القطان مختلف فيه انظر تخريج الاحياء ٣/ ٢١٩، وقال: أخرجه ابن أبي الدنيا.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الغضب عن ابن عمر بسند ضعيف فيه مسكين بن أبي سراج وتقدم نحوه ص ١٠٨ تعليق (٢) وفي التعليق (١) في نفس هذه الصفحة، ورواه أيضاً من حديث أبي هريرة بلفظ «من كتم غيظاً» وفيه راوٍ لم يسم ورواه البغوي في معجم الصحابة.
انظر ميزان الاعتدال في ترجمة عبد الجليل الفلسطيني ٢/ ٥٣٥ وأخرجه البخاري في تاريخه ٦/ ١٢٣، انظر تخريج الاحياء ٣/ ٢١٦ وله شاهد من حديث سهل بن معاذ عن أبيه عن أبي داود في الأدب رقم الحديث ٤٧٧٧ بلفظ «من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيره الله من الحور العين ما يشاء».
وأخرجه الترمذي في البر والصلة باب من كظم الغيظ ٢٠٢١ وقال: حسن غريب، وفي صفة القيامة باب فضل الرفق بالضعيف رقم الحديث ٢٤٨١ وقال: حديث حسن وابن ماجه في السنن في الزهد الحديث رقم ٤١٨٦ ورواه الطبراني والبيهقي وأبو نعيم وابن عساكر وابن أبي الدنيا في الصمت من حديث معاذ بن أنس.

(٣) رواه ابن ماجه في السنن: الزهد رقم الحديث ٤١٨٩ باب الحلم بإسناد جيد وقال المنذري في الترغيب: رواته يحتج بهم في الصحيح، وأخرجه أحمد في المسند من حديث ابن عمر ٢/ ١٢٨ بلفظ «ما تجرع عبد أفضل منه» ورواه ابن أبي الدنيا في ذم الغضب من حديث ابن عباس وفيه ضعف. ورواه ابن المبارك في الزهد عن الحسن مرسلاً.

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الغضب والبزار والبيهقي في الشعب وابن عدي في الكامل. وتقدم نحوه في ص ١٥٧ تعليق رقم (٩) بلفظ «ما غضب أحد. . .» انظر تخريج أحاديث الاحياء ٣/ ١٨٦ ضعفه وعزاه النسائي، انظر ميزان الاعتدال ٢٣٤.

الحور شاء»[1]، وهذا ما يتعلق بفضله من جهة الأخبار.

وأما الآثار فقد قال عمر رضي الله عنه: من اتقى الله سبحانه لم يشف غيظه، ومن خاف الله تعالى لم يفعل بما يريد ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون، وقال لقمان لابنه عليهما السلام: يا بني لا يذهب ماء وجهك بالمسألة ولا تشف غيظك بفضيحتك واعرف قدرك تنفعك معيشتك، وقال أيوب: حلم ساعة يدفع شراً كثيراً، واجتمع سفيان الثوري وأبو خزيمة اليربوعي والفضيل بن عياض فتذاكروا الزهد فأجمعوا على أن أفضل الأعمال الحلم عند الغضب والصبر عند الطمع، وقال رجل لعمر رضي الله عنه: ما تقضي بالعدل ولا تعطي الجزل فغضب عمر حتى عرف في وجهه، فقال له رجل: ألم تسمع الله تعالى يقول: ﴿**خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين**﴾ (الأعراف: ١٩٩) وهذا من الجاهلين فقال عمر: صدقت فكأنما كانت ناراً فأطفئت، قال محمد بن كعب: ثلاث من كن فيه استكمل الإيمان بالله إذا رضي لم يدخله رضاه في الباطل وإذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق وإذا قدر لم يتناول ما ليس له، وجاء رجل إلى سليمان عليه السلام فقال: أوصني قال: لا تغضب قال: لا أقدر قال: فإن غضبت فأمسك لسانك ويدك[2].

التنبيه السادس
في بيان فضيلة الحلم

إعلم أن الحلم أفضل من كظم الغيظ لأن الكظم عبارة عن التحلم أي تكلف الحلم ولا يحتاج إلى كظم الغيظ إلا كل من هاج غضبه ويحتاج فيه إلى مجاهدة شديدة، ولكن إذا تعود ذلك مدة صار ذلك اعتياداً فلا يهيج الغيظ وإن هاج فلا يكون في كظمه تعب والحلم ما كان بالطبع وهو دلالة على كمال العقل واستيلائه وانكسار قوة الغضب وخضوعه للعقل ولكن ابتداءه لا يكون إلا بالتحلم، وكظم الغيظ يكون تكلفاً، قال رسول الله ﷺ: «إنما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم ومن يتحر الخير يعطه ومن يتوق الشر يوقه»[3] أشار بكلامه هذا إلى أن اكتساب الحلم طريقه التحكم أولاً وتكلفه كما أن

---

(١) تقدم تعليق رقم (٣).

(٢) انظر الاحياء ٢/ ٢٢٠.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الحلم رقم الحديث ٢ بلفظ المؤلف وفي رقم ٤٢ وأخرجه الطبراني في الأوسط وفيه محمد بن الحسن بن أبي يزيد وهو كذاب وأخرجه في الكبير أيضاً وانظر مجمع الزوائد للهيثمي ١/ ١٢٨، ورواه أبو الشيخ في كتاب الحلم رقم الحديث ٢ والخطيب في تاريخ بغداد ٩/ ١٢٧ ورواه أبو نعيم في الحلية ٥/ ١٧٤، =

اكتساب العلم طريقه التعلم، وقال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ: «اطلبوا العلم واطلبوا مع العلم السكينة والحلم، لينوا لمن تُعلمون ولمن تعلمون منه ولا تكونوا من جبابرة العلماء فيغلب جهلكم علمكم»[1]، أشار بهذا الكلام إلى أن التجبر والتكبر هو الذي يهيج الغضب ويمنع الحلم واللين.

وكان من دعاء رسول الله ﷺ: «اللهم اغنني بالعلم وزيني بالحلم وكرمني بالتقوى وجملني بالعافية»[2]، وقال أبو هريرة قال الرسول ﷺ: «ابتغوا الرفعة عند الله، قالوا: وما هي يا رسول الله؟، قال: تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتحلم عمن جهل عليك»[3]، وقال ﷺ: «خمس من سنن المرسلين الحياء والحلم والحجامة والسواك والتعطر»[4]، وقال أمير المؤمنين كرم الله وجهه قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل المسلم ليدرك بالحلم درجة الصائم القائم وإنه ليكتب جباراً وما يملك إلا أهل بيته»[5]،

= ورواه البيهقي في المدخل عن أبي الدرداء موقوفاً، ورواه الدارقطني في العلل من حديث أبي الدرداء بسند ضعيف. انظر تخريج الاحياء ٣/ ٢٢٠ وأخرجه العسكري في الأمثال. انظر الفتح الكبير ٢/ ١٦١ وكنز العمال رقم الحديث ٢٩٢٦٦، ٢٩٣١٧، واتحاف السادة المتقين ١/ ٢٢٥، وجمع الجوامع للسيوطي ١/ ٢٩٤ والجامع الصغير ١/ ٦٠٣، وحسنه الألباني في الصحيحة رقم الحديث ٣٤٢. وفي صحيح الجامع ٢٣٢٤.

(١) أخرجه ابن عدي في الكامل ٤/ ١٦٤٢ في ترجمة عباد بن كثير والخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي، وآداب السامع من حديث أبي هريرة، وابن السني في رياضة المتعلمين انظر إحياء علوم الدين ٣/ ٢٢٠ وقال العراقي: سنده ضعيف وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١٢٩ رواه الطبراني في الأوسط وفيه عباد بن كثير وهو متروك. ورواه أبو نعيم في الحلية من حديث عمر وقال: غريب.

(٢) قال العراقي في تخريج الاحياء ٣/ ٢٢٠: لم أجد له أصلاً.
قلت: رواه أبو الشيخ في التنبيه عن سفيان بن عيينة مرسلاً رقم الحديث ٢٤٩، وعزاه السيوطي في الجامع الصغير رقم الحديث ١٥٣٢ للرافعي، وابن النجار في تاريخه عن ابن عمر وابن أبي الدنيا في الحلم رقم ٣ وضعفه الألباني في ضعيف الجامع رقم الحديث ١٢٧٧.

(٣) رواه الحاكم والبيهقي. انظر تخريج إحياء علوم الدين ٣/ ٢٢٠ ورواه ابن عدي من حديث ابن عمر ٧/ ٢٥٥٧ في ترجمة وازع بن نافع العقيلي وهو ضعيف وابن أبي الدنيا في الحلم رقم (٤).

(٤) رواه أبو بكر بن أبي عاصم في المثاني والآحاد. وابن أبي الدنيا في الحلم رقم ٦، الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ص ٢١٢ بسند ضعيف من رواية مليح بن عبدالله الخطمي عن أبيه عن جده ورواه الطبراني في الكبير عن ابن عباس. انظر مجمع الزوائد ٥/ ٩٢، ٢/ ٩٩، ورواه البزار أيضاً. ورواه أبو الشيخ في الحلم. والبغوي في معجم الصحابة، وأبو نعيم في معرفة الصحابة كما عزاه السيوطي لهم في جامع الجوامع ورواه البخاري في تاريخه ٨/ ١٠، ولأحمد من حديث أبي أيوب في المسند ٥/ ٤٢١ بلفظ «أربع» عن أبي أيوب، ورواه البيهقي أيضاً بلفظ «أربع» في الشعب، ورواه الترمذي وحسنه بلفظ «أربع» واسقط الحلم والحجامة وزاد النكاح رقم الحديث ١٠٨٠ في كتاب النكاح ورواه العقيلي أيضاً. انظر إرواء الغليل رقم الحديث ٧٤ وضعيف الجامع ٣/ ١٢٧.

(٥) أخرجه مالك في الموطأ رقم الحديث ١٦٣٢ عن يحيى بن سعيد أخرجه أبو الشيخ في الحلم رقم الحديث ٨ وفي=

وقال أبو هريرة إن رجلاً قال يا رسول الله : إن لي قرابة أصلهم ويقطعونني وأحسن إليهم ويسيئون إليَّ وًيجهلون علي واحلم عنهم ، قال : لئن كان كما تقول فكأنما تسقيهم الملَّ ولا يزال معك من الله ظهير ما دمت على ذلك »[1] ، الملَّ الرماد الحار ، وقال رجل من المسلمين : اللهم إنه ليس عندي صدقة أتصدق بها فأيما رجل أصاب من عرضي شيئاً فهو عليه صدقة فأوحى الله إلى الرسول ﷺ أن قد غفرت له[2] .

وقيل في قوله تعالى ﴿ **ربّانيّين** ﴾ (آل عمران : ٧٩) . أي حلماء علماء ، وعن الحسن في قوله عز وجل ﴿ **وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً** ﴾ (الفرقان : ٦٣) قال حلماء إن جهل عليهم لم يجهلوا ،وقال الرسول ﷺ : « اللهم لا يدركني ولا أدرك زماناً لا يتبعون فيه تعليم ولا يستحيون فيه من الحليم قلوبهم قلوب العجم وألسنتهم ألسنة العرب »[3] ، وقال ﷺ : « ليليني منكم أولو الأحلام والنهى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم وإياكم وهيشات الأسواق »[4] .

= الثواب أيضاً بسند ضعيف . وروى أبو داود نحوه من حديث عائشة بلفظ «إن المؤمن ليدرك» ٥/ ١٤٩ رقم الحديث ٤٧٩٨ ، وابن أبي الدنيا في الحلم رقم ٧ ، وابن حبان في صحيحه رقم الحديث ٤٧٩ عن عائشة . وأخرجه البغوي في شرح السنة انظر الترغيب والترهيب للمنذري ٣/ ٦٦٥ ، وجمع الجوامع للسيوطي ١/ ١٩٨ وضعيف الجامع رقم الحديث ١٤٥٣ ، ٢/ ٤٦ ، وانظر الصحيحة للألباني رقم الحديث ٧٩٥ ، وذكره ابن طاهر في تذكرة الموضوعات ص ١٩١ وابن حبان وصحح حديث عائشة الذي رواه أبو داود وذكر له شاهد برقم ٧٩٤ ، وانظر التواضع والخمول لابن أبي الدنيا رقم الحديث ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، وانظر مجمع الزوائد ٨/ ٢٤ .

(١) رواه مسلم في البر والصلة رقم الحديث (٢٢) وأحمد في المسند ٤٨٤ ، جميعهم من حديث أبي هريرة .

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب رقم الحديث ٤٨٨٦ عن أبي قتادة وَ٤٨٨٧ عن عبد الرحمن بن عجلان .
رواه أبو نعيم في معرفة الصحابة والبيهقي في الشعب والبزار والطبراني من رواية عبد الحي بن أبي عيسى بن جبر عن جده . ورواه ابن عبد البر وابن مندة وأبو أحمد الحاكم في الكنى ، وابن شاهين والخطيب وابن جرير ، وابن أبي الدنيا ورواية ابن عبد البر في الاستيعاب عن أبي هريرة وقال العراقي في تخريج أحاديث الاحياء ٣/ ٢٢٠ : إسناده لين ، انظر تخريج الاحياء استخراج أبي عبدالله محمود الحداد . رقم الحديث ٢٨٧٨ .

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٥/ ٣٤٠ من حديث سهل بن سعد بسند ضعيف . وأخرج الديلمي من حديث علي نحوه بلفظ «يأتي على الناس زمان» وضعفه العراقي في تخريج الاحياء ٣/ ٢٢١ وأسنده في زهر الفردوس ٤/ ٣٨٦ عن سلمان مرفوعاً رقم الحديث ٨٦٨١ .

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة رقم الحديث ١٢٣ من حديث ابن مسعود وأخرجه أيضاً بلفظ آخر وفيه زيادة «فأنتم اليوم أشد اختلافاً» عن ابن مسعود برقم (١٢٢) باب الصلاة . ولمسلم من حديث عمر بن مرة نحوه رقم الحديث ١٢٧ وَ١٢٨ . أخرجه أبو داود عن أبي مسعود الأنصاري رقم الحديث ٦٧٤ في الصلاة وأخرجه النسائي في الصلاة رقم الحديث ٨١٣ ، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٩٧٦ من حديث أبي مسعود الأنصاري ، والدارمي في السنن الصلاة رقم الباب ٥١ ، وأحمد في المسند ١/ ٤٥٧ .

قوله وهيشات الأسواق فيه احتمالان أحدهما: أن يريد التحذير عن الهيشات في الأسواق لأنها مقاعد الشيطان وأماكنهم فالوقوف في المساجد أحق وأولى، وثانيهما: أن يريد التحذير عن الهيشات إلى الأسواق لإحراز المكاسب والأرباح وفي ذلك إهمال للجهاد وتعطيل لجانبه، فعلى هذين الإحتمالين تكون فائدة الحديث ومعناه.

وقال الرسول ﷺ: «إن الله يحب الحليم الحيي المتعفف التقي ويبغض الفاحش البذيء السائل الملحف الغني»(١)، وقال ﷺ: «ثلاث من لم يكن فيه منهن فلا يعتد بشيء من عمله: تقوى تحجزه عن معاصي الله، وحلم يكف به السفيه، وخلق يعيش به في الناس»(٢)، فهذه الأخبار دالة على فضيلة الحلم كما أشرنا إليه.

وأما الآثار: فقد قال عمر رضي الله عنه: تعلموا العلم وتعلموا له السكينة والحلم، وقال أمير المؤمنين كرم الله تعالى وجهه: ليس الخير أن يكثر مالك وولدك ولكن الخير أن يكثر علمك ويعظم حلمك وأن تباهي الناس بعبادة ربك، وإذا أحسنت حمدت الله وإذا أسأت، استغفرت الله تعالى، وقال الحسن: اطلبوا العلم وزينوه بالوقار والحلم، وقال بعض الحكماء: دعامة العقل الحلم وجماع الأمر الصبر، وقال أبو الدرداء: أدركت الناس ورقاً لا شوك فيه فأصبحوا شوكاً لا ورق له(٣).

وقال أمير المؤمنين عليّ كرم الله تعالى وجهه: إن أول عوض الحليم من حلمه أن الناس كلهم أعوان له على الجاهل، وقال معاوية لعمر بن الأهتم: أي الرجال أشجع؟، قال: من رد جهلاً بحلمه، فقال: أي الرجال أسخى؟ قال: من بذل دنياه

---

(١) رواه الطبراني من حديث فاطمة بسند ضعيف، انظر تخريج إحياء علوم الدين ٣/ ٢٢١ واستخراج أبي عبدالله محمود الحداد رقم الحديث ٢٨٨٣، ولمسلم من حديث سعد بن أبي وقاص نحوه بلفظ «إن الله يحب العبد الحفي». في الزهد رقم الحديث ١١ وابن أبي الدنيا في الحلم رقم ٤٨، ورواه أحمد في المسند ١/ ١٦٨، ١٧٧ وابن ماجه من حديث عمران بلفظ «إن الله يحب عبده المؤمن» في الزهد رقم الحديث ٤١٢١ عن عمران بن حصين وفي إسناده ابن مهران لم يسمع من عمران، وموسى بن عبيد متروك. ورواه أبو نعيم في الحلية من حديث أبي هريرة ورواه أبو الشيخ في التنبيه والتوبيخ رقم الحديث ٥٤ عن عمر بن دينار. انظر اتحاف السادة المتقين ٨/ ٣١ والدر المنثور للسيوطي ١/ ٣٥٩.

(٢) تقدم تخريجه ص ٢١ تعليق رقم ٧، وأخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق رقم الحديث ١٥ عن ابن عباس، وأخرجه الطبراني في الكبير، وفي مكارم الأخلاق عن أم سلمة بسند ضعيف، وأخرجه البزار من حديث أنس وكل طرقه فيها مقال. انظر تخريج إحياء علوم الدين ٣/ ٦٦ وقال العراقي • إسناده ضعيف، وأخرجه ابن أبي الدنيا في الحلم رقم ٤٩.

(٣) انظر إحياء علوم الدين ٣/ ٢٢١، ٢٢٢.

لصلاح دينه[1] ، وقال أنس بن مالك : في قوله تعالى﴿ **فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم**﴾ (فصلت : ٣٤) ، قال : هو الذي يشتمه أخوه فيقول إن كنت صادقاً فغفر الله لي وإن كنت كاذباً فغفر الله لك ، وقال معاوية لغرابة بن أوس : بم سدت قومك يا غرابة؟ قال : كنت أحلم عن جاهلهم وأعطي سائلهم وأسير في حوائجهم ، فمن فعل فعلي فهو مثلي ، ومن جاوزني فهو أفضل مني ، ومن قصر عني فأنا خير منه .

وسب رجل ابن عباس فقال : يا عكرمة هل للرجل من حاجة فنقضيها له؟ فنكس الرجل رأسه واستحيى ، وقال رجل لعمر بن عبد العزيز : أشهد أنك من الفاسقين ، فقال له ليس تقبل شهادتك ، وعن علي بن الحسين رضي الله عنه أنه سبه رجل فرمى إليه خميصة كانت عليه وأمر له بمائة درهم ، وقال الأحنف بن قيس : إني لست حليماً ولكني أتحلم ، وقال رجل لجعفر بن محمد : إنه قد وقع بيني وبين فلان منازعة وإني أريد أن أتركه فأخشى أن يقال : إن تركي له ذل ، فقال جعفر : إنما الذليل الظالم ، وحكي أن سفيهاً ضرب قدم رجل حليم فأوجعه فلم يغضب فقيل له في ذلك ، فقال : أقمته مقام حجر وربحت الغضب .

ومر المسيح ابن مريم عليه السلام بقوم من اليهود فقالوا له شراً وقال لهم خيراً فقيل إنهم يقولون شراً وأنت تقول لهم خيراً فقال : كل منا ينفق مما عنده[2] ، وقد نجز غرضنا من ذكر فضيلة الحلم من جهة هذه الأخبار والآثار وبالله التوفيق .

---

(١) الاحياء ٣/ ٢٢١ ، ٢٢٢ .

(٢) الاحياء ٣/ ٢٢١ ، ٢٢٢ .

الباب الخامس

من المهلكات الحسد

إعلم أن الحسد لا يكون إلا على نعمة فإذا أنعم الله سبحانه على أحد نعمة فلك فيها حالتان:

الحالة الأولى: أن تكره تلك النعمة وتحب زوالها وهذه الحالة تسمى حسداً، وعلى هذا تكون ماهية الحسد وحقيقته كراهية النعمة ومحبة زوالها عن صاحبها إلى غيره.

الحالة الثانية: أن لا تحب زوالها ولا تكره وجودها ودوامها ولكنك تشتهي لنفسك مثلها وهي تسمى غبطة.

ويؤيد ما ذكرناه من هذا التقسيم ما رُوي عن الرسول ﷺ أنه قال: «المؤمن يغبط والمنافق يحسد»[1]، فأما الأول فهو حرام بكل حال إلا نعمة أصابها كافر أو فاسق وهو يستعين بها على تهييج الفتن وعلى فساد ذات البين وتشويش الدين وإيذاء الخلق فلا يضرك كراهتك لها ومحبتك لزوالها فإنك لا تحب زوالها من جهة أنها نعمة، بل من جهة أنها صارت آلة للفساد والفجور، ولو أمنت فساده لم تغمك نعمته بحال.

فهذه هي ماهية الحسد وحقيقته فإذا تمهدت هذه القاعدة فلنذكر ذم الحسد وأسبابه ونذكر علاج زواله وبيان التفرقة بين الحسد والمنافسة، فهذه تنبيهات أربعة نذكر ما فيها بمعونة الله عزّ وجل.

---

(١) قال العراقي في تخريج أحاديث الاحياء ٣/ ٢٣٦: لم أجد له أصلاً مرفوعاً وإنما هو من قول الفضيل بن عياض كذا رواه ابن أبي الدنيا في ذم الحسد.

التنبيه الأول
في ذم الحسد

إعلم أن للحسد غوائل وأخطاراً مهلكة للدين وهو أصل لكل فساد ومنبع لكل آفة وقد ورد فيه الوعيد الشديد، وظهور ذمه نوضحها بمعونة الله جل وعلا.

الجهة الأولى: الأخبار، قال رسول الله ﷺ: «الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»[1]، وقال ﷺ: «لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخواناً»[2]، وقال ﷺ: «ثلاث لا ينجو منهن أحد الظن والطيرة والحسد وسأحدثكم بالمخرج من ذلك إذا ظننت فلا تحقق وإذا تطيرت فامض وإذا حسدت فلا تبغ»[3]، وقال ﷺ: «قد دب إليكم داء الأمم من قبلكم الحسد والبغضاء أما إني لا أقول إنها الحالقة للشعر وإنما هي الحالقة للدين فوالذي نفس محمد بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولن تؤمنوا حتى تحابوا أنبئكم بما يثبت ذلك فيكم أفشوا السلام بينكم»[4]

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن الأدب ٤٩٠٣، وقال البخاري في التاريخ: لا يصح، وأخرجه ابن ماجه رقم الحديث ٤٢١٠ من حديث أنس بإسناد ضعيف فيه عيسى الحناط، ورواه ابن عدي في ترجمة عيسى الحناط ٥/ ١٨٨٧ الكامل في الضعفاء.

وأخرجه أبو الشيخ في التنبيه والتوبيخ بسند ضعيف رقم الحديث ٦١، ٦٢ وضعفه الألباني في ضعيف الجامع ٢١٩٦.

(٢) تقدم بلفظ آخر ص ١٠٣ تعليق (١).

أخرجه البخاري في الأدب رقم الحديث ٦٠٦٤ عن أبي هريرة، وعن أنس برقم ٦٠٦٧.

وأخرجه مسلم في البر والصلة رقم الحديث ٣٢٢٣٠ عن أبي هريرة والترمذي في البر والصلة رقم الحديث ١٩٣٥، وأبو داود في الأدب رقم الحديث ٤٩١٠ عن أنس.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الحسد من حديث أبي هريرة وفيه يعقوب بن محمد الزهري، وموسى بن يعقوب الزمعي: ضعفهما الجمهور. وله شاهد مرسل عند ابن أبي الدنيا أيضاً من حديث عبد الرحمن بن معاوية بإسناد ضعيف. انظر تخريج الاحياء ٣/ ٢٣٣، وله شاهد آخر من حديث حارثة بن النعمان بلفظ «ثلاث لازمات لأمتي» وذكره. أخرجه الطبراني في الكبير. انظر مجمع الزوائد ٨/ ٧٨، وأخرجه أبو الشيخ في التنبيه والتوبيخ بلفظ «في المؤمن ثلاث خصال». وذكره وسنده ضعيف.

(٤) رواه الترمذي في البر والصلة رقم ٢٥١٠ عن مولى الزبير عن الزبير ورواه ابن عدي في الكامل ٤/ ١٥١٥، ورواه الديلمي في الفردوس رقم الحديث ٣٠٧١.

ورواه ابن عبد البر في بيان العلم وفضله. ورواه أبو الشيخ في التنبيه والتوبيخ رقم الحديث ٦٥، وأحمد في المسند ١/ ١٦٥، ١٦٧ ورواه الطيالسي وأحمد بن منيع وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا وابن قانع والشاشي والبيهقي في الشعب، والضياء المقدسي ومداره على مولى الزبير واسمه خباب وفيه جهالة.

وقال ﷺ : «كاد الفقر أن يكون كفراً وكاد الحسد أن يغلب القدر» [1]، وقال ﷺ : «إنه سيصيب أمتي داء الأمم [2]، قالوا: وما داء الأمم؟، قال: الأشر والبطر والتكاثر والتنافس في الدنيا والتباعد والتحاسد حتى يكون البغي ثم الهرج»، وقال ﷺ : «لا تظهر الشماتة بأخيك فيعافيه الله جل وعلا ويبتليك» [3].

وروي أن موسى عليه السلام لما تعجل إلى ربه رأى في ظل العرش رجلاً فغبطه بمكانه، فقال: إن هذا لكريم على ربه، فسأل ربه أن يخبره باسمه، فلم يخبره باسمه وقال: أحدثك من عمله بثلاث كان لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله وكان لا يعق والديه ولا يمشي بالنميمة، وقال زكريا عليه السلام يقول الله جل وعلا: الحاسد عدو لنعمتي مسخط لقضائي غير راضٍ بقسمتي التي قسمت بين عبادي [4].

وقال ﷺ : «استعينوا على قضاء الحوائج بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود» [5]،

---

(١) أخرجه أبو مسلم والبيهقي في الشعب من رواية يزيد الرقاشي عن أنس ويزيد ضعيف، وكذلك رواه أحمد بن منيع في الأوسط بلفظ آخر «كادت الحاجة أن تكون كفراً».

ورواه أبو نعيم في الحلية ٣/ ٥٣، ٨/ ٢٥٣، وأبو علي بن السكن في مصنفه، وابن عدي في الكامل من طريق يزيد الرقاشي عن الحسن انظر ميزان الاعتدال ٤/ ١١٦ ـ ١١٧، وقال السخاوي في المقاصد: طرق الحديث كلها ضعيفة رقم الحديث ٧٠٨٩، وانظر فيض القدير ٢/ ٥٤، وقال الزركشي: يشهد له ما خرجه النسائي وابن حبان وصححه من طريق ابن الهيثم عن أبي سعيد مرفوعاً «أنه كان يقول: اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر».

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الحسد، والطبراني في الأوسط وإسناده الطبراني فيه أبو سعيد الغفاري لم يرو عنه غير حميد بن هانيء وبقية رجاله وثقوا من حديث أبي هريرة وقال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ٣/ ٢٣٤ إسناده جيد ورواه الحاكم في المستدرك، وصححه وأقره الذهبي.

(٣) أخرجه الترمذي من حديث واثلة بن الأسقع رقم الحديث ٢٥٠٦ كتاب صفة القيامة وقال: حديث حسن غريب. وأخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الحسد بزيادة وأورده ابن الجوزي في الموضوعات.

(٤) انظر الإحياء ٣/ ٢٣٤.

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا، والطبراني من حديث معاذ بسند ضعيف. وأخرجه العقيلي في الضعفاء، وابن عدي، وأبو نعيم والبيهقي في الشعب، وقال أبو نعيم: غريب من حديث غالب تفرد له عن ثور بن يزيد. ورواية العقيلي فيها سعيد بن سالم العطار قال البخاري: كان يضع الحديث.

وأورده ابن الجوزي في الموضوعات، انظر تخريج الأحياء لابن محمود رقم الحديث ٢٩٢١.

وقال ﷺ : «إن لنعم الله أعداء ، فقيل : ومن هم؟ ، قال : الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله»[1]، وقال ﷺ : «ستة يدخلون النار بستة قيل : بم يا رسول الله ومن هم؟ ، قال : الأمراء بالجور والعرب بالعصبية والدهاقون بالتكبر والتجار بالخيانة وأهل الرساتيق بالجهالة والعلماء بالحسد»[2]، الرساتيق الحوانيت والخانات.

وقال أنس بن مالك كنا جلوساً عند الرسول ﷺ : فقال : يطلع عليكم من هذا الفج رجل من أهل الجنة ، قال : فطلع علينا رجل من الأنصار ينطف لحيته من وضوءه قد علق نعليه في يده الشمال وقال في اليوم الثاني وقال في اليوم الثالث كذلك والرجل يطلع علينا في هذه الأيام ، قال فلحقته وقلت أريد أن أعرف عملك ، فقال : ما لي من عمل ولكني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين عيباً ولا حسداً على خير أعطاه الله ، فقال : هذه التي بلغت بك وهي التي لا تطاق[3].

الجهة الثانية : الآثار ، قال بعض السلف : إن أول خطيئة كانت هي الحسد حسد إبليس آدم عليه السلام على رتبته أن يسجد له فحمله الحسد على المعصية ، ويحكى عن بعض الزهاد أنه دخل على بعض الأمراء فقال : إني أريد أن أعظك بشيء ، فقال : وما ذلك؟ ، فقال : إياك والكبر فإنه أول ذنب عصي الله تعالى به وإياك والحرص فإنه أخرج آدم من الجنة ، وإياك والحسد فإن ابن آدم قابيل قتل أخاه هابيل ، وإذا ذكر أصحاب رسول الله فأمسك ، وإذا ذكر القدر فاسكت ، وإذا ذكرت النجوم فاسكت.

وحكي عن ابن سيرين أنه قال ما حسدت أحداً على شيء من أمر الدنيا لأنه إن كان

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس بلفظ: «إن لأهل النعم حساداً» وسنده ضعيف. انظر تخريج الأحياء أبي عبدالله محمود الحداد رقم الحديث ٢٩٢٢.

(٢) رواه أبو منصور الديلمي من حديث عمر ومن حديث أنس رقم الحديث ٣٤٩١ عن أبي هريرة. بإسنادين ضعيفين.
ورواه أبو نعيم من حديث عمر في الحلية. ورواه الديلمي من حديث معاوية بن حيدة. انظر تخريج إحياء علوم الدين: استخراج أبي عبدالله محمود الحداد رقم الحديث ٢٩٢٣.

(٣) أخرجه أحمد بإسناد صحيح على شرط الشيخين المسند ٣/ ١٦٦ عن أنس وله علة وهو كون الزهري لم يسمع من أنس، ورواه البزار وسمى الرجل وكان في إسناده عبدالله بن لهيعة وهو ضعيف من حديث أنس أيضاً، ورواه البزار أيضاً من حديث ابن عمر وفيه عبدالله بن قيس الرقاشي. انظر مجمع الزوائد ٨/ ٧٨، ٧٩ وانظر تخريج أحاديث الإحياء للعراقي استخراج أبي عبدالله محمود بن محمد الحداد رقم الحديث ٢٩١٤.

من أهل الجنة فكيف أحسده على الدنيا وهي حقيرة في الجنة وإذا كان من أهل النار فكيف أحسده على أمر الدنيا وهي تصير إلى النار، وقال رجل للحسن: هل يحسد المؤمن؟ ،-قال ما أنساك بأولاد يعقوب نَعَم ولكن غُمَّهُ في صدرك فإنه لا يضرك ما لم تمد له يداً أو لساناً، وقال أبو الدرداء: ما أكثر عبد ذكر الموت إلا قل فرحه وقل حسده، وقال معاوية: كل الناس أقدر على رضاه إلا حاسد نعمة فإنه لا يرضيه إلا زوالها، وقال بعض الحكماء: الحسد جرح لا يبرأ، وقال أعرابي: ما رأيت ظالماً أشبه منه بالمظلوم من حاسد يرى النعمة عليك نقمة عليه.

وقال الحسن: يا ابن آدم لِم تحسد أخاك فإن كان الذي أعطاه الله لكرامته عليه فلم تحسد من أكرمه الله عز وجل، وإن كان غير ذلك فلِم تحسد من مصيره النار، وقال بعضهم: الحاسد لا ينال من المحاسن إلا مذمة وذلاً ولا ينال من الملائكة إلا لعنة وبغضاً ولا ينال من الخلق إلا جزعاً وغماً ولا ينال عند النزع إلا شدة وهولاً ولا ينال عند الموقف إلا فضيحة ونكالاً[1]، وقد نجز غرضنا من مذمة الحسد.

التنبيه الثاني
في بيان أسباب الحسد

إعلم أن مداخل الحسد كثيرة جداً ولكنّا نشير إلى جملتها وهي سبعة:

السبب الأول: منها العداوة والبغضاء وهما أشد أبواب الحسد وأكثرها وقوعاً، فإن كل من أذله شخص لسبب من الأسباب وخالفه في غرضه بوجه من الوجوه فإنه يبغضه لا محالة قلبه ويغضب عليه وترسخ في نفسه العداوة، فإن عجز الباغض عن أن يتشفى بنفسه أحب كل نكبة تحصل له فمهما أصابت عدوه بلية فرح بها وظنها مكافأة من جهة الله تعالى على بغضه وأنها وصلت إليه من أجله ومهما أصابته نعمة ساءته، وعلى الجملة فالحسد يلزم البغض والعداوة من الحاسد لمن حسده.

السبب الثاني: التعزز، وحاصله أن يثقل على الحاسد أن يترفع عليه غيره فإذا أصاب بعض المحسودين سلطاناً أو اختص بولاية أو استفاد علماً أو مالاً وخاف أن يتكبر عليه المحسود وهو لا يطيق تكبره ولا تسمح نفسه باحتمال علوه وتفاخره عليه، فتعزز المحسود هو السبب في وقوع الحسد من غيره له.

السبب الثالث: أن يكون الحاسد في طبعه أن يتكبر على المحسود ويستصغره

(١) انظر الإحياء ٣/ ١٣٤.

ويستخدمه ويستحقره وتوقع منه الإنقياد والمتابعة له في أغراضه فإذا نال المحسود نعمة وارتفع حاله خاف أن ينقلب الحال في حقه فيترفع عليه ويستنكف عن متابعته وربما يشرئب إلى مساواته بعد أن كان دونه ، فلا جرم كان ما ذكرناه باعثاً له على حسده .

السبب الرابع : المماثلة والمساواة ، ومثالها ما أخبر الله عن الأمم الماضية في تكذيب الأنبياء عليهم السلام وردهم إذ قالوا ﴿ **ما أنتم إلا بشر مثلنا** ﴾ (يس : ١٥) وقوله تعالى ﴿ **أنؤمن لبشرين مثلنا** ﴾ (المؤمنون : ٤٧) ، وقوله جل وعلا ﴿ **ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً لخاسرون** ﴾ (المؤمنون : ٢٤) فتعجبوا من أن يفوز برتبة الرسالة والوحي والقرب من الله تعالى ، فحسدوهم وأحبوا زوال النبوة عنهم جزعاً أن يتفضل الله تعالى عليهم وهم مثلهم في الخلقة ، وقالوا متعجبين أبعث الله بشراً رسولاً؟ ، فلأجل هذه المماثلة حصل الحسد من جهتهم لما ذكرناه .

السبب الخامس : الخوف من فوت المقاصد وذلك يختص ، بمتزاحمين على مقصود واحد فإن كل واحد منهما يحسد صاحبه في كل نعمة تكون عوناً له على الإنفراد بمقصوده ، ومن هذا الجنس تحاسد الضرات في التزاحم على مقاصد الزوجية وتزاحم الأخوة في نيل الرتبة في قلب الأبوين للتوصل إلى مقاصد الكرامة والمال من جهتهما ، وهكذا تحاسد التلميذين لأستاذ واحد في نيل المنزلة في قلب الأستاذ ، وهكذا تحاسد ندماء الملك وخواصه في نيل المنزلة في قلبه للتوصل به إلى المال والجاه ، وهكذا تحاسد الواعظين فإنهما يتزاحمان على تلك البلدة والمدينة إذا كان غرضهما نيل المال والقبول عندهم ، وهكذا حال العالمين يتزاحمان على التلامذة أيهما يكون أكثر وأجمل للتوصل بذلك إلى نيل الأطماع وحقير الدنيا وكثرة الجاه وغير ذلك من الأغراض المحظورة ، وقد سبق المثل عدوك من عمل بعملك .

السبب السادس : حب الرياسة وطلب الجاه لنفسه من غير توصل إلى مال وهذا كالرجل الذي يريد أن يكون عديم النظير في فن من الفنون فإنه إذ غلب عليه حب الثناء واستفزه الفرح بما يظهر له من المدح في ألسنة الناس من أنه واحد العصر وفريد الدهر في ذلك الفن ، وأنه لا نظير له ، فإنه لو سمع بنظير له في أقصى العالم لساءه ذلك ولكان يحب موته أو زوال النعمة عنه التي بها يشاركه في تلك المنزله من شجاعة أو علم أو عبادة أو صناعة أو جمال أو ثروة أو غير ذلك مما ينفرد هو به ويفرح بسبب تفرده ، ومصداق هذا ما كان عليه علماء اليهود من إنكار معرفة نبوة الرسول ﷺ ولا يؤمنون به خيفة بطلان ما كانوا عليه من الرياسة وكثرة الأتباع لأنه مهما نسخت كتبهم بطل أمرهم .

السبب السابع: خبث النفوس وشحها بالخير لعباد الله تعالى فإنك تجد من لا يشتغل برياسة وتكبر ولا طلب مال إذا وصف عنده حسن حال عبد من عباد الله عز وجل فيما أنعم عليه فإنه يشق عليه ذلك، فإذا وصف له اضطراب أمور الناس وإدبارهم عن الدين وفوات مقاصدهم وتنغص عيشهم فرح بذلك واستر، فهو دائماً يحب الإدبار لغيره ويبخل بنعمة الله تعالى على عباده كأنهم يأخذون ذلك من ملكه وخزانته، ويقال البخيل من يبخل بمال نفسه، والشحيح هو الذي يبخل بمال غيره فهو يبخل بنعمة الله تعالى على عباد الله عز وجل الذين ليس بينه وبينهم عداوة ولا تعلق، وهذا لا سبب له إلا خبث النفس ورداءة الطبع ورذالة الهمة، وهذا لا علاج له ولهذا فإنه يعسر مقاساته.

فهذه أسباب الحسد قد قررناها، وقد يجتمع بعض هذه الأسباب أو أكثرها أو جميعها في شخص واحد، فيعظم الحسد من أجل ذلك ويقوى قوة لا يقدر معها على الإخفاء والمجاملة بل ينهتك حجاب المجاملة ويظهر العداوة بالمكاشفة وتنقطع المسالمة ويفضي إلى الشر وهلاك الدين، فنعوذ بالله من شرار الخلق المجاهرين بالعداوة والمصرحين عن أنفسهم بقلة الدين الخارجين عن زمرة المسلمين.

التنبيه الثالث
في بيان التفرقة بين الحسد المذموم والمنافسة المحمودة

إعلم أنَّا قد دللنا على تحريم الحسد وخطره بالأخبار التي نقلناها وأن هذا التحريم والكراهة تسخط لقضاء الله تعالى في تفضيل بعض عباد الله على بعض وذلك لا عذر فيه ولا رخصة، وأي معصية أعظم وأزيد عند الله من كراهتك لراحة مسلم من غير أن يكون لك فيها مضرة، وإلى هذا أشار القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿**إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها**﴾ (آل عمران: ١٢٠) وهذا الفرح شماتة والحسد والشماتة متلازمان وقال تعالى: ﴿**ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم**﴾ (البقرة: ١٠٩) وقال تعالى: ﴿**ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء**﴾ (النساء: ٨٩) فأخبر تعالى أن محبتهم لزوال النعمة إنما كان على جهة الحسد.

وذكر الله تعالى حسد إخوة يوسف وعبر عما في قلوبهم حيث قال: ﴿**إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين**﴾ (يوسف: ٨، ٩)

فلما كرهوا حب أبيه له ساءهم ذلك وأحبوا زوالها عنه فغيبوه عنه وكان ما كان من حاله وحالهم، وقال تعالى في معرض الإنكار: ﴿**أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله**﴾ (النساء: ٥٤) وقال تعالى: ﴿**وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم**﴾ (الشورى: ١٤) أي حسداً فأنزل الله العلم ليجمع بينهم ويؤلف بين قلوبهم على طاعته وأمرهم أن يتآلفوا بالعلم فتحاسدوا واختلفوا وأراد كل واحد منهم أن يتفرد بالرياسة وقبول القول فرد بعضهم على بعض.

قال ابن عباس رضي الله عنه: كانت اليهود قبل مبعث الرسول ﷺ إذا قاتلوا قوماً قالوا نسألك بالنبي الذي وعدتنا أنك ترسله وبالكتاب الذي تنزله عليه إلا نصرتنا فكانوا ينصرون، فلما بعث الرسول ﷺ من ولد إسماعيل عرفوه وكفروا به بعد معرفتهم له، فقال تعالى: ﴿**فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به**﴾ (البقرة: ٨٩) فهذا حكم الحسد بالتحريم.[1]

وأما المنافسة فليست محرمة بل هي إما واجبة وإما مندوبة وإما مباحة، فأما الواجبة فنحو المنافسة في تأدية الواجبات الشرعية والعقلية وأما المندوبة فنحو المنافسة في تأدية النوافل والقربات الدينية، وأما المباحة فنحو المنافسة في طلب الأسفار واتخاذ المآدب والولائم، إلى غير ذلك.

والبرهان القاطع على أنه لا حرج في المنافسة قوله تعالى: ﴿**وفي ذلك فليتنافس المتنافسون**﴾ (المطففون: ٢٦) وقال تعالى: ﴿**سابقوا إلى مغفرة من ربكم**﴾ (الحديد: ٢١).

وإنما تكون المسابقة عند خوف الفوت وهو كالعبدين يتسابقان إلى تأدية خدمة السيد ويجزع كل واحد منهما أن يسبقه صاحبه فيحظى عند مولاه بمنزلة لا يحظى بها الآخر وكيف وقد صرح رسول الله ﷺ في ذلك بقوله: «لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله عز وجل مالاً فسلطه على هلكته في الحق ورجل آتاه الله علماً فهو يعمل به ويعلمه

---

(١) رواه ابن إسحاق في السيرة في بلّغه عن عكرمة أو عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس وهذا إسناده منقطع.
ورواه ابن أبي حاتم في تفسيره عن طريق الضحاك عند قوله تعالى: ﴿**وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا...**﴾ انظر تخريج أحاديث الإحياء للعراقي ٣/ ٢٣٧.

الناس»[1] ، فقد عرفت بما أشرنا إليه حكم الحسد في التحريم والحظر وحكم المنافسة في الوجوب والندب والإباحة .

دقيقة : إعلم أن للحسد مراتب أربعاً :

المرتبة الأولى : المذمومة المحظورة وهي أن تحب زوال النعمة عن أخيك المسلم وإن كانت غير منتقلة إليك وهذا هو غاية الرذالة في الدين .

المرتبة الثانية : أن يكون مطلوبه غير تلك النعمة مثل رغبته في دار حسنة أو امرأة جميلة أو ولاية ظاهرة ولا يريد زوالها ممن هو مختص بها فهو طالب لعينها ولا يحب زوالها ، فهذه دون المرتبة الأولى .

المرتبة الثالثة : لا يشتهي عينها بل يشتهي لنفسه مثلها فهذه أيضاً دون المرتبة الثانية .

المرتبة الرابعة : أن يشتهي لنفسه مثلها فإن لم تصل إليه فلا يحب زوالها عنه وما هذا حاله فهو معفو عنه ؛ وقد قال تعالى : **﴿ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض﴾** (النساء : ٣٢) فتمنيه لمثل ذلك غير مذموم ، وأما تمنيه لعينه فهو مذموم .

وأما مراتب المنافسة والغبطة فهي ثلاث كما أشرنا إليه :

الأولى : منها : المنافسة في الأمور الواجبة كالإيمان والصلاة والزكاة .

والثانية : المنافسة في الأمور المندوبة كالإنفاق في وجوه القرب والصدقات وسائر النوافل .

---

(١) متفق عليه من حديث ابن عمر.
البخاري في العلم رقم الحديث ٧٣ ورواه في كتاب الأحكام والتمني والاعتصام والتوحيد انظر أرقام الأحاديث الآتية ١٤٠٩ ، ٧١٤١ ، ٧٣١٦ مسلم في كتاب صلاة المسافرين رقم الحديث ٢٦٦ - ٢٦٧ ، وعن ابن مسعود ٢٦٨ . الترمذي ١٩٣٦ في البر والصلة. والنسائي في الكبرى. وابن ماجه رقم الحديث ٤٢٠٨ عن ابن عمر أحمد بن حنبل ٢/ ٩ ، ٣٦ ، ومحمد بن نصر في كتاب الصلاة.
ورواه أحمد والشيخان وابن ماجه وابن حبان من حديث ابن مسعود بنحوه ١/ ١٥٢ وَ١/ ١٦٧ - ١٦٨ عن ابن عمر.
ورواه البخاري وأحمد من حديث أبي هريرة.
وأبو يعلى والضياء من حديث أبي سعيد. انظر تخريج إحياء علوم الدين استخراج أبي عبدالله محمود الحداد رقم الحديث ٢٩٢٧ .

الثالثة : المنافسة في الأمور المباحة كالتنعم بضروب النعم المباحة التي لا إثـم فيهـا فهذه مراتبها قد أشرنا إليها ، وقد عرفت بما ذكرنا وجه التفرقة بينهـا والله أعلم .

التنبيه الرابع
في بيان علاج الحسد وزواله

إعلم أن الحسد من أعظم الأمراض العظيمة للقلوب ونحن نشير إلى مداواة القلوب عن مرض الحسد ونستنهج في ذلك منهاجين إجمالياً وتفصيلياً .

المنهاج الأول : من جهة الإجمال وذلك إنما يكون بالعلم والعمـل فإنهمـا من أعظم ما يقع به التداوي عن آفة الحسد ، فهذان مقامان .

المقام الأول : في مداواته بالعلم ، واعلم أن العلم النافع لمرض الحسد هو أن تعرف تحقيقاً أن الحسد ضرر عليك في الدين والدنيا وأنه لا ضرر على المحسود في دينه ولا دنياه بل ينتفع بالحسد في الدين والدنيا ، ومهما عرفت هذا عن تحقيق وبصيرة ولم تكن عدو نفسك وصديق عدوك فارقت الحسد لا محالة .

أما كونه ضرراً على الذين في حقك فهو أنك بالحسد سخطت قضـاء الله تعالـى وكرهت حكمته ونعمته التي قسمها لك وعدلها بين عباده وعدله الذي أقامه في ملكه بدقيق حكمته واستنكرت ذلك وأضفت إلى نفسك هذه الشناعة والبشاعة ، وهذه منك جنـاية على حدقة التوحيد وقذى في وجه الإيمان وعينه ، وناهيك بهـا جناية على الدين مع ما ينضاف إليها من الغش لرجل من المسلمين ، وأهل الإيمان وتركت نصيحتـه وفارقـت أولياء الله وأنبياءه في حبهم الخير لعباد الله تعالى وشاركت إبليس لعنه الله وسائر الكفار في محبتهم للمؤمنين البلايا وإزالة النعم ، وهذه خبائث في القلب تأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ويمحوها كما يمحو الليل النهار .

وأما كونه ضرراً في الدنيا عليك فهو أنك تتألم بحسدك وتتعذب به ولا تزال في كمد وغمة إذ أعداؤك لا يخليهم الله عن نعم يفيضها عليهم فلا تزال تتعذب بكل نعمة تراها وتتألم لكل بلية تنصرف عنهم فتبقى طول عمرك مغموماً محزوناً متشعب القلب ضيق الصدر ، ومع ذلك إن ألمك وغمك لا يزالان يتجددان عليك مهما كثرت نعم المحسود ولو لم يكن مؤمناً بيوم القيامة والبعث والحساب لكان مقتضى العقل إذا كنت عاقلاً أن تحذر من الحسد لما فيه من ألم القلوب ، فما أحسن العاقل أن لا يكون متعرضاً لسخط

الله وعقابه من غير نفع يناله فيهلك دينه ودنياه ، اللهم أجرنا من غضبك وسخطك يا خير مستجار به .

وأما كونه لا ضرر على المحسود في دينه ولا دنياه فواضح لأن نعمته لا تزول عنه بحسدك له بل ما قدره الله تعالى من إقبال النعمة فلا بد من دوامه واستمراره فلا حيلة لك في دفعه بل كل شيء عنده بمقدار ولكل أجل كتاب ، ومهما لم تزل النعمة بالحسد لم يكن على المحسود ضرر في دنياه .

وأما كونه لا ضرر على المحسود في دينه فلأن المحسود ينتفع بالحسد في دينه لأنه مظلوم من جهتك ولا سيما إذا أخرجك الحسد إلى القول القبيح من الغيبة والقدح فيه وهتك ستره وذكر مساوئه ، فهذه هدايا تهديها إليه ، أعني أنك تهدي إليه حسناتك فكأنك أردت زوال النعمة عنه فلم تزل ، وأما منفعته في الدنيا فهو أن أهم الأغراض للخلق شنآن الأعداء وإيصال الغم إليهم وشقاؤهم وكونهم معذبين مغمومين ولا عذاب أعظم مما أنت فيه من الحسد وغاية أماني أعدائك أن يكونوا في نعمة وأنت في غم وحسرة بسببهم، وقد فعلت بنفسك ما هو مرادهم فانظر كيف انتقم الله من الحاسد إذا أراد زوال النعمة عن المحسود فلم يزلها الله تعالى منه ثم أزالها عن الحاسد من جهة أن السلامة من الإثم نعمة والسلامة من الغم والكمد نعمة وقد زالتا عنه تصديقاً لقوله تعالى : ﴿ **ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله** ﴾ (فاطر : ٤٣) وربما يبتلى بعين ما يشتهيه لعدوه وقل ما يشمت شامت بمساءة إلا ويبتلى بمثلها حتى قالت عائشة : ما تمنيت لعثمان شيئاً إلا نزل بي حتى لو تمنيت له القتل لقتلت .

فهذه هي الأدوية العلمية في زوال الحسد ، فمهما تفكر الإنسان فيها بذهن صاف وقلب حاضر انطفأت من قلبه نار الحسد وعلم أنه مهلك نفسه ومفرح عدوه ومسخط ربه ومنغص عيشه .

المقام الثاني : في مداواته بالعمل النافع .

فاعلم أن كل ما يتقاضاه الحسد من الأقوال والأفعال فينبغي أن يكلف الحاسد نفسه نقيضه فإن بعثه الحسد في القدح في المحسود فإنه يكلف لسانه المدح والثناء عليه ، وإن حمله على التكبر عليه ألزم نفسه التواضع له والاعتذار إليه ، وإن بعثه على كف الإنعام والإحسان ألزم نفسه الزيادة في الإنعام وإيصال الإحسان ، فمهما فعل ذلك عن تكلف وعرفه المحسود طاب قلبه وأحبه ، ومهما ظهر حبه عادت المحبة والموافقة لأن

التواضع والمدح والثناء وإظهار السرور تطيب به نفس المحسود ويعطف قلبه على الحاسد.

فهذه أدوية وهي نافعة جداً إلا أنها مرة غاية المرارة ولكن النفع في الدواء المر فمن لم يصبر على مرارة الدواء لم ينل حلاوة الشفاء، وإنما تهون مرارة هذا الدواء أعني التواضع للأعداء والتقرب إليهم بالمدح والثناء بقوة العلم بالمعاني التي ذكرناها وقوة الرغبة في ثواب الرضا بقضاء الله تعالى، فهذا هو الدواء على جهة الإجمال.

المنهاج الثاني: من جهة التفصيل، فهو يتبع أسباب الحسد من الكبر وغيره وعزة النفس وشدة الحرص وغير ذلك من الأسباب وسيأتي مداواة هذه الأمور في مواضعها اللائقة بها فإنها مواد هذا المرض ولا ينقمع المرض إلا بقمع المادة، فإن لم يقمع المادة لم يحصل بما ذكرناه إلا تسكين وتطفئة ولا يزال يعوده مرة بعد أخرى ويطول الجهد في تسكينه مع بقاء مواده، فإنه ما دام محباً للجاه فلا بد أن يحسد من استأثر بالجاه والمنزلة في قلوب الناس دونه ويغمه ذلك لا محالة وإنما غايته أن يهون الغم على نفسه ولا يظهر بلسانه ويده فأما الخلو عن هذا بالكلية فلا يمكنه، فهذا ما أردنا ذكره في بيان هذه الخصلة المهلكة وبالله التوفيق والعون.

الباب السادس

من المهلكات الحقد

ومعنى الحقد أن تلزم قلبك استثقال المحقود عليه وبغضه والنفار عنه على جهة الاستمرار والبقاء وسبب حصول الحقد أن الغضب إذا لزم كظمه لعجز عن التشفي في الحال رجع إلى الباطن واحتقن فيه فصار لا محالة حقداً، وقد قال ﷺ: «المؤمن ليس بحقود ولا حسود فالحقد ثمرة الغضب»[1]، فإذا فهمت معناه فلنذكر ثمراته ثم نذكر فضيلة العفو ثم نردفه بذكر فضيلة الرفق، فهذه تنبيهات ثلاثة نفصلها بمعونة الله عز وجل.

التنبيه الأول
في بيان ثمرات الحقد

وجملتها ثماني ثمرات:

الثمرة الأولى: الحسد وهو أن يحملك الحقد على أن تتمنى زوال النعمة بالمحقود عليه فتغتم بنعمة إن أصابها، وتستر بمصيبة إن نزلت به وهذا هو دأب الكفار وأهل النفاق من اليهود وسائر المشركين فإنهم في غاية الحقد والحسد للمسلمين كما قدمناه.

الثانية: أن تزيد على إضمار الحسد في نفسك وباطنك فتظهر الشماتة بما يصيبه من البلاء وتغتم بما يناله من النعماء.

---

(١) قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ١/ ٦٦ لم أقف له على أصل.

الثالثة : أن تهجره وتصارمه وتنقطع عنه وإن طالبك وأقبل عليك فلا يـزيـد إقبالـه عليـك إلا إصـراراً وبعداً .

الرابعة : أن تعتقد في نفسك استصغاره واستحقاره والتهاون به في جميع أحواله كلها ولا ترى له قدراً ولا يزن عندك قلامة ظفر .

الخامسة : أن ترسل لسانك فيه بما لا يجوز ذكره من كذب وغيبة وإفشاء سر وهتك ستر وغير ذلك من الأمور المستقبحة .

السادسة : أن تحاكيه استهزاء بـه وتسخراً منه ومفاكهة بما ينقص قدره عند الناس ويزيل هيبته ويسقط منزلته .

السابعة : إيذاؤه بالضرب والجرح وسائر ما يكون مؤلماً لجسـده من نتف الشعـر ولطم الوجه .

الثامنة : أن تمنعه من صلة رحم أو قضاء دين أو رد مظلمة .

وكل ذلك حرام لا يجوز فعله ، وأقل درجات الحقد أن تحترز من هذه الآفات الثمانية المذكورة ، ولا ينبغي أن تخرج بسبب الحقد إلى ما يكون مغضباً لله تعالى وتمتنع عما كنت تفعله من الاستخفاف والاستحقار وتفعل نقائضها من البشاشة والرفق والعناية والقيام بحاجاته والمجالسة له على ذكر الله تعالى والمعاونة له على المنفعة والدعاء له والثناء عليه والتحريض على بره ومواساته ، فهذا كله فضل عظيم وثواب جزيل ، ولما امتنع أبو بكر من الإنفاق على مسطح بن أثاثة لما تكلـم في حديث الإفـك نزل قولـه تعالى : ﴿ **ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة** ﴾ (النور : ٢٢) إلى قوله : ﴿ **ألا تحبون أن يغفر الله لكم** ﴾ (النور : ٢٢) فقال أبو بكر : بلى والله وعاد إلى الإنفاق عليه .

التنبيه الثاني
في بيان فضيلة العفو

إعلم أن العفو أن تستحق حقاً فتسقطه وتبري عنه من قصاص أو غرامة وهو عين الحلم وكظم الغيظ، فلا جرم إن أفردناه بالذكر فقد قال تعالى : ﴿ **خذ العفو** ﴾ (الأعراف : ١٩٩) وقال عز وجل : ﴿ **وأن تعفوا أقرب للتقوى** ﴾ (البقرة : ٢٣٧) وقال ﷺ : «ثلاث والذي نفسي بيده إن كنت لحالفاً عليهن ، ما نقص مال من صدقة فتصدقوا ، ولا عفـى

رجل عن مظلمة يبتغي وجه الله بها إلا زاده الله بها عزاً يوم القيامة ، ولا فتح رجل على نفسه باب مسألة إلا فتح الله له باباً من الفقر»[1] ، وقال ﷺ : «التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة فتواضعوا يرفعكم الله تعالى ، والعفو لا يزيد العبد إلا عزاً فاعفوا يعزكم الله تعالى ، والصدقة لا تزيد المال إلا كثرة فتصدقوا يرحمكم الله عز وجل»[2] ، وقالت عائشة : ما رأيت رسول الله ﷺ منتصراً من مظلمة ظلمها قط ما لم تنتهك محارم الله تعالى فإذا انتهك من محارم الله تعالى شيء كان أشدهم في ذلك غضباً ، وما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن مأثماً[3] .

وقال عقبة بن عامر: لقيت رسول الله ﷺ فبدرته يوماً فأخذت بيده أو بدرني فأخذ بيدي ، فقال : «يا عقبة ألا أخبرك بأفضل أخلاق الدنيا والآخرة تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك»[4] .

وقال ﷺ : «قال موسى عليه السلام: يا رب أي عبادك أعز عليك؟ ، قال : الذي

---

(١) رواه الترمذي من حديث أبي كبشة الأنماري، وقال: حسن صحيح رقم الحديث ٢٣٢٥ في الزهد. ولمسلم نحوه من حديث أبي هريرة رقم الحديث ٦٩ في البر والصلة وأحمد ٢/٤٣٦ عن أبي هريرة، ٤/٢٣١ عن أبي كبشة الأنماري.

(٢) رواه الأصبهاني في الترغيب والترهيب من حديث أنس وفيه بشر بن الحسين وهو ضعيف جداً: ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بلفظ «تواضعوا للعالم» رقم الحديث ٢٢٦٣ وقال العراقي: رواه أبو نعيم بلفظ «فتواضعوا يرفعكم الله». كذلك رواه ابن أبي الدنيا في ذم الغضب من حديث محمد بن عمير العبدي وفيه زيادة. ويشهد له ما رواه مسلم من حديث أبي هريرة «ما تواضع أحد إلا رفعه الله». انظر صحيح مسلم في البر والصلة رقم الحديث ٦٩. انظر تخريج الإحياء ٣/ ٢٢٧.

(٣) الشمائل للترمذي رقم الحديث ٣٠٠. والبخاري في الحدود ونحوه وفي صفة النبي والأدب كذلك. ولمسلم في الفضائل نحوه. وأبو داود في الأدب رقم الحديث ٤٧٨٥ وفي الطب. ورواه أحمد في المسند ٦/ ٣٢، ١١٤ وأبو الشيخ في أخلاق النبي ص ٣٥ ـ ٣٦.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الغضب والطبراني في مكارم الأخلاق والبيهقي في شعب الإيمان بأسانيد ضعيفة. انظر تخريج الأحياء ٣/ ٢٢٧ ورواه أحمد في المسند من حديث معاذ بن أنس ٣/ ٤٣٨ بلفظ «أفضل الفضائل. . .» ورواه أيضاً الطبراني في الكبير. انظر مجمع الزوائد ٨/١٨٩.

إذا قدر عفا[1]، ولذلك سئل أبو الدرداء من أعز الناس؟ فقال: الذي يعفو إذا قدر فاعفوا يعزكم الله تعالى[2]، وجاء رجل إلى الرسول ﷺ يشكو مظلمة فأمره الرسول ﷺ أن يجلس وأراد أن يأخذ له بمظلمته، فقال ﷺ: «إن المظلومين هم المفلحون يوم القيامة»[3] فأبى أن يأخذ مظلمته حين سمع الحديث، فنفعه الله تعالى بكلام الرسول ﷺ.

وقالت عائشة رضي الله عنها قال الرسول ﷺ: «من دعا على من ظلمه فقد انتصر»[4]، وعن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ: «إذا بعث الله الخلائق يوم القيامة نادى مناد من تحت العرش ثلاث أصوات يا معشر الموحدين إن الله قد عفى عنكم فليعف بعضكم عن بعض»[5]، وعن أبي هريرة: «أن رسول الله ﷺ لما فتح مكة طاف بالبيت وصلى ركعتين ثم أتى الكعبة وأخذ بعضادتي الباب، فقال: ما تقولون وما تظنون؟ قالوا: نقول أخ وابن عم حليم كريم قالوا ذلك ثلاثاً، فقال ﷺ: «أقول كما قال يوسف عليه السلام لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين»[6]،

---

(١) رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث أبي هريرة وفيه عبدالله بن لهيعة وهو ضعيف. انظر تخريج الإحياء ٣/ ٢٢٧.

(٢) هذا الأثر أورده صاحب إحياء علوم الدين في فضيلة العفو والإحسان ٣/ ٢٢٧ عن أبي الدرداء «أنه سئل عن أعز الناس؟» فقال: الذي يعفو إذا قدر. ولم يخرجه العراقي.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الغضب وفي كتاب العفو من رواية أبي صالح الحنفي مرسلاً. وأخرجه رسته في كتاب الإيمان انظر تخريج إحياء علوم الدين للعراقي ٣/ ٢٢٧ واستخراج أبي عبدالله محمود بن محمد الحداد رقم الحديث ٢٨٩١.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه. والترمذي في الدعوات رقم الحديث ٣٥٥٢ وقال: حديث غريب عن عائشة. وأبو يعلى، وابن أبي الدنيا في ذم الغضب.
قال الترمذي في العلل: سئل البخاري عن هذا فقال: لا أعلم أحداً رواه غير أبي صالح لكن هو من حديث ابن حمزة وضعف أبي حمزة جداً. انظر تخريج إحياء علوم الدين استخراج أبي عبدالله محمود الحداد رقم الحديث ٢٨٩٢.
(ويشهد له حديث دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب) وفي رواية «لأنصرنك ولو بعد حين».

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الحلم رقم الحديث ٥٠ من مجموعة الرسائل ص ٣٤ عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده من طريق الفرزقي من طريق ضعيف، ورواه أبو سعيد أحمد بن إبراهيم المقري في كتاب التبصرة. وروى الطبراني في الأوسط نحوه من حديث أم هانيء بإسناد ضعيف.
انظر تخريج أحاديث الإحياء للعراقي ٣/ ٢٢٧.

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في كتابه العفو وفي ذم الغضب وفيه ضعف ورواه البيهقي في دلائل النبوة ٥/ ٥٨، ورواه ابن الجوزي في الوفاء في أخبار المصطفى. وانظر تخريج الإحياء ٣/ ٢٢٨. وتحقيق محمود بن محمد ٤/ ١٨٢٥.

قال: فخرجوا كأنما نشروا من القبور فدخلوا في الإسلام.

وعن سهل بن عمر قال لما قدم رسول الله ﷺ مكة وضع يديه على باب الكعبة والناس حوله فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، ثم قال: يا معشر قريش ما تقولون ما تظنون؟ قال: قلت يا رسول الله نقول خيراً ونظن خيراً أخ كريم وابن عم رحيم، فقال ﷺ أقول كما قال أخي يوسف لا تثريب عليكم اليوم[1].

وعن أنس بن مالك قال، قال رسول الله ﷺ: «إذا وقف العباد نادى مناد ليقوم من له أجر على الله فليدخل الجنة قيل: من ذا الذي أجره على الله؟، قال: العافين عن الناس قال: فقام كذا وكذا ألفاً فدخلوها بغير حساب»[2]، وقال ابن مسعود قال رسول الله ﷺ: «لا ينبغي لوال أن يؤتى بحد إلا أقامه والله عفو يحب العفو»[3] ثم قرأ ﴿ **وليعفوا وليصفحوا** ﴾ (النور: ٢٢) فهذه الأخبار الدالة على فضل العفو وحسن موقعه عند الله تعالى.

وأما الآثار: فقد روي أن رجلاً دخل على عمر بن عبد العزيز فجعل يشكو إليه رجلاً ظلمه، فقال له عمر: إنك أن تلقى الله تعالى ومظلمتك كما هي خير لك من أن تلقاه وقد اقتصصتها وقال بعضهم: إذ أراد الله أن يتحف عبداً قيض الله له من يظلمه، وقال بعض الزهاد: إن الرجل ليظلمني فأرحمه، وهذا إحسان وراء العفو لأنه يشتغل قلبه بتعرضه لمعصية الله بالظلم وأنه يطالب يوم القيامة فلا يكون له جواب.

وقال يزيد بن ميسرة: إن ظللت تدعو على من ظلمك فإن الله يقول: إن آخر يدعو عليك أنك ظلمته فإن شئت استجبنا لك وأجبنا عليك وإن شئتما أخرتكما إلى يوم القيامة

---

(١) قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ٣/ ٢٢٨: لم أجده من حديث سهل بن سعدة بنحوه.
الحديث المتقدم عند البيهقي في الدلائل من حديث أبي هريرة ورواه أحمد بن زنجويه في كتاب الأموال من طريق ابن أبي حسين ويروى من حديث ابن عمرو وابن عباس وحديث ابن عمر أخرجه أبو الشيخ الأصبهاني، انظر تخريج أحاديث الإحياء: ابن عبدالله الحداد رقم الحديث ٢٨٩٥.

(٢) رواه الطبراني في مكارم الأخلاق من حديث أنس بسند ضعيف فيه الفضل بن يسار لا يتابع على حديثه. انظر تخريج الإحياء ٣/ ٢٢٨ وفي الأوسط رقم الحديث ٢٠١٩ وسنده ضعيف.
ورواه ابن عساكر من حديث علي من وجهٍ ضعيف أيضاً.

(٣) أخرجه أحمد ١/ ٤١٩ عن ابن مسعود ومن طريق أحمد.
ورواه الحاكم في المستدرك ٤/ ٣٨٣ وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجه. وسكت عنه الذهبي.

فيسعكما عفوي، وقال مسلم بن يسار لرجل دعا على ظالمه كل الظالم إلى ظلمه فإنه أسرع إليه من دعائك عليه إلا أن يتداركه بعمل وقمين أن لا يفعل، وعن ابن عمر عن أبي بكر، قال: بلغنا أن الله تعالى يأمر منادياً فينادي من كان له عند الله شيء فليقم فيقوم أهل العفو فيكافئهم الله سبحانه بما كان من عفوهم على الناس، وأتى هشام بن محمد إلى النعمان بن المنذر برجلين قد أذنب أحدهما ذنباً عظيماً فعفا عنه والآخره أذنب صغيراً فعاقبه، وقال: الملوك، تعفو عن العظيم اعتماداً على الفضل وتعاقب على اليسير ليس لجهلها ولكن لإدراك السياسة (١).

وعن المبارك بن فضالة قال وفد سوار بن عبد الله في وفد من أهل البصرة إلى أبي جعفر فكنت عنده إذا أتى برجل فأمر بقتله، فقلت: يقتل رجل من المسلمين وأنا حاضر، فقلت لأبي جعفر: ألا أحدثك بحديث سمعته من الحسين، قال: وما هو؟ قلت: سمعته يقول إذا كان يوم القيامة جمع الله الخلائق في صعيد واحد حيث ينفذهم البصر ويسمعهم الداعي فيقوم مناد: من له أجر على الله ويد عنده فليقم، فلا يقوم إلا من عفا، فقال: والله لقد سمعته من الحسين؟ فقلت: والله لقد سمعته من الحسين، فقال: خليا عنه، وقال معاوية: عليكم بالحلم والاحتمال حتى تمكنكم الفرصة، فإذا أمكنتكم الفرصة فعليكم بالصفح والاحتمال.

وروي أن راهباً دخل على هشام بن عبد الملك فقال للراهب: أرأيت ذا القرنين كان نبياً؟ قال: لا ولكنه إنما أعطي ما أعطي بأربع خصال كن فيه كان إذا قدر عفا وإذا وعد وفى وإذا حدث صدق ولا يجمع شغل اليوم لغد، وقال بعضهم: ليس الحليم من ظلم فحلم حتى إذا قدر انتقم ولكن من ظلم فحلم ثم قدر فعفا، وقال زياد: القدرة تذهب الحفيظة يعني الحقد والغضب، وأتي هشام برجل بلغه عنه أمر فلما أقيم بين يديه جعل يتكلم بحجته، فقال له هشام: وتكلم أيضاً، فقال الرجل لهشام: قال الله تعالى: ﴿**يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها**﴾ (النحل: ١١١) أفنجادل الله ونتكلم بين يديه، ولا نتكلم بين يديك؟ قال: بلى ويحك فتكلم.

وروي أن عمار بن ياسر دخل عليه سارق بصفين فأخذ متاعاً له فقيل له: اقطعه فإنه من أعداء الله وأعدائنا، فقال: بل أستر عليه لعل الله أن يستر عليّ يوم القيامة، وجلس ابن مسعود رضي الله عنه يبتاع متاعاً فابتاعه ثم طلب الدراهم وكانت في عمامته فوجدها وقد حلت فقال: لقد جلست وإنها لمعي فجعلوا يدعون على من أخذها ويقولون: اللهم

(١) انظر إحياء علوم الدين ٣/ ١٢٨.

اقطع يد السارق الذي أخذها، فقال عبد الله: اللهم إن كان حمله على أخذها حاجة فبارك له فيها وإن كان حمله على الذنب جرأة فاجعله آخر ذنوبه.

وقال الفضيل بن عياض: ما رأيت أزهد من رجل من أهل خراسان جلس إليَّ في المسجد الحرام ثم قام يطوف فسرقت دنانير كانت معه فجعل يبكي فقلت: على الدنانير تبكي؟ قال: لا ولكن مثلتني وإياه بين يدي الله تعالى فأشرف عقلي على إدحاض حجته فبكائي رحمة له.

وقال مالك بن دينار: أتينا منزل الحكم بن أيوب وهو على البصرة أميراً ليلاً وجاء الحسن وهو خائف فدخلنا عليه مع الحسن فما كنا معه إلا بمنزلة الفراريج، فذكر الحسن قصة يوسف وما صنع به إخوته من بيعهم إياه وطرحهم له في الجب، فقال: باعوا أخاهم وأحزنوا أباهم وذكر ما لقي من كيد النساء ومن الحبس، ثم قال: أيها الأمير ماذا صنع الله به؟ أداله منهم ورفع ذكره وأعلا كعبه وجعله على خزائن الأرض. فماذا صنع حين أكمل الله له أمره وجمع له أهله؟ قال: لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم، يعرض للحكم بالعفو عن أصحابه، قال الحكم: وأنا أقول لا تثريب عليكم اليوم ولو لم أجد إلا ثوبي لواريتكم به.

وكتب بعض الحكماء إلى صديق له يسأله العفو عن بعض إخوانه فقال: فلان هارب من زلته إلى عفوك لأنه فتك بك، واعلم أنه لن يزداد الذنب عظماً إلا ازداد العفو فضلاً، وأتى عبد الملك بن مروان ابن الأشعث بأسارى، فقال لرجاء بن حيوة: ما ترى؟ فقال: إن الله قد أعطاك ما تحب من الظفر فاعط الله تعالى ما يحب من العفو فعفا عنهم.

وروي أن زياداً أخذ رجلاً من الخوارج فأفلت منه فأخذ أخاً له، فقال: إن جئت بأخيك وإلا ضربت عنقك، فقال: أرأيت إن جئتك بكتاب من الأمير تخلي سبيلي؟ قال: نعم، قال: فأنا آتيك بكتاب من العزيز الحكيم وأقيم عليه شاهدين إبراهيم وموسى، ثم تلا ﴿**أم لم ينبأ بما في صحف موسى وإبراهيم الذي وفى ألا تزر وازرة وزر أخرى**﴾ (النجم: ٣٦ ـ ٣٨) قال زياد: خلوا سبيله هذا رجل قد لقن حجته.

وقيل: مكتوب في الإنجيل من استغفر لمن ظلمه فقد هزم الشيطان والله أعلم بالصواب.

التنبيه الثالث
في بيان فضيلة الرفق

إعلم أن الرفق محمود يضاده العنف والحدة وهما نتيجة الغضب والفظاظة فأما

الرفق واللين فهما نتيجة حسن الخلق والسلاسة وقد تكون سبب الحدة الغضب، وقد يكون سببها شدة الحرص واستيلاؤه بحيث يدهش عن التفكر من التثبت والرفق في الأمور ثمرة لا يثمرها إلا حسن الخلق، ولا يحسن الخلق إلا بضبط قوة الغضب وقوة الشهوة وحفظهما على حد الاعتدال.

ولأجل هذا أثنى رسول الله ﷺ على الرفق وبالغ فيه فقال لعائشة: «من أعطي حظه من الرفق فقد أعطي حظه من خير الدنيا والآخرة ومن حرم حظه من الرفق فقد حرم حظه من الدنيا والآخرة»[1]، وقال ﷺ: «إذا أحب الله أهل بيت أدخل عليهم الرفق»[2]، وقال ﷺ: «إن الله سبحانه ليعطي على الرفق ما لا يعطي على الخرق وإذا أحب الله عبداً أعطاه الله تعالى الرفق، وما من أهل بيت يحرمون الرفق إلا قد حرموا من محبة الله تعالى»[3].

وقال ﷺ: «عليك بالرفق يا عائشة فإنه ما حصل في شيء إلا زانه ولا نزع من شيء إلا شانه»[4]، وقال ﷺ: «إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي ما لا يعطي على

(١) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الغضب، والحكيم في نوادر الأصول ص ولمسلم نحوه عن جرير وعن عائشة في البر والصلة رقم الحديث ٧٥ ـ ٧٧. وأبو نعيم في الحلية نحوه.
والخرائطي في مكارم الأخلاق مختصراً عن جرير بن عبدالله بلفظ «من يحرم الرفق يحرم الخير» ورواه أحمد ٦/ ١٥٩ وَ٤٥١ والعقيلي في الضعفاء ٢/ ٣٢٥ ص ٧٧ ط سلفية في ترجمة عبد الرحمن بن أبي بكر المليكي. ورواه ابن النجار، والعسكري في الأمثال، والترمذي نحوه، وقال: حسن صحيح وللطبراني في الكبير، والبيهقي من حديث أبي الدرداء نحوه وللبخاري في صحيحه من حديث عائشة «يا عائشة إن الله يحب الرفق في الأمر كله».
رواه البخاري في صحيحه: الأدب رقم الحديث ٦٠٢٤ وفي الاستئذان رقم ٦٢٥٦ وفي الدعوات وفي الاستتابة.
ومسلم في كتاب السلام: الاستئذان رقم ١٠ وبنحوه ١١ ـ ١٢ وأحمد في المسند ٦/ ٣٧، ٨٥، ١٩٩ وأبو داود في السنن الأدب رقم الحديث ٤٨٠٨ نحوه والترمذي في الاستئذان ٢٧٠١، وابن ماجه في الأدب رقم ٣٦٨٩، وابن حبان في صحيحه ١/ ٣٨٠ رقم الحديث ٥٤٨. وسيأتي له شاهد من حديث جرير بن عبدالله.

(٢) رواه أحمد في المسند ٦/ ٧١، ١٠٤، ١٠٥ عن عائشة بلفظ «إذا أراد الله...» وإسناده جيد وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان بسند ضعيف انظر تخريج الإحياء ٣/ ٢٣٠ وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ١٩. رواه البزار من حديث جابر بسند صحيح. وحديث جابر أخرجه البخاري في تاريخه أيضاً.

(٣) رواه أحمد في المسند من حديث عائشة بنحوه ٦/ ٧١. ولمسلم عنها في البر والصلة نحوه رقم الحديث ٧٦ وقال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ٣/ ٢٣١. رواه الطبراني من حديث جرير بإسناد ضعيف. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ١٨: رجاله ثقات. وقال: رواه البزار من حديث أبي هريرة.

(٤) رواه مسلم في البر والصلة رقم الحديث ٧٨ ـ ٧٩، وأبو داود في الجهاد رقم الحديث ٢٤٧٨ وفي الأدب رقم ٤٨٠٨ وأحمد في المسند ٦/ ٥٨، ١١٢، ١٢٥، ٢٠٦، ٢٢٢، وابن حبان في صحيحه ١/ ٣٨١ رقم الحديث ٥٥١.

العنف»[1]، وقال ﷺ: «ارفقي يا عائشة فإن الله تعالى إذا أحب لأهل بيت كرامة دلهم على باب الرفق»[2]، وقال ﷺ: «من يحرم الرفق يحرم الخير كله»[3]، وقال ﷺ: «أيما وال ولي فلان ورفق رفق الله به يوم القيامة»[4].

وقال الرسول ﷺ: «تدرون من يحرم على النار؟ يحرم عليها كل هين لين»[5] وقال ﷺ: «التأني من الله والعجلة من الشيطان»[6]، وروي أن رسول الله ﷺ أتاه رجل فقال: يا رسول الله إن الله قد بارك فيك لجميع المسلمين فاخصصني منك بخير فقال: الحمد لله الحمد لله مرتين أو ثلاثاً ثم أقبل عليه فقال: هل أنت مستوص هل أنت مستوص؟ مرتين أو ثلاثاً فقال: نعم، قال: إذا أردت أمراً فتدبر عاقبته فإن كان رشداً

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة عن عائشة رقم الحديث ٧٧ وابن حبان عن أبي هريرة رقم ٥٥٠.
وأبو داود في الأدب رقم الحديث ٤٨٠٧ من حديث عبدالله بن المغفل وأخرجه ابن ماجه من حديث أبي هريرة في الأدب رقم الحديث ٣٦٨٨ وأخرجه البزار من حديث أنس والبيهقي وأحمد من حديث علي، والطبراني من حديث أبي أمامة، ومن حديث أنس في الأوسط رقم ٢٩٥٥.
والبخاري في الأدب المفرد من حديث عبدالله بن المغفل.
انظر تخريج أحاديث إحياء علوم الدين استخراج أبي عبدالله محمود الحداد رقم الحديث ٢٩٠٢.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الغضب مرسلاً من حديث عطاء بن يسار، ورواه أحمد من حديث عائشة وفيه انقطاع.
ورواه أبو داود مقتصراً بقوله «ارفقي».
وتقدمت له شواهد. انظر تخريج الإحياء ٣/ ٢٣١.

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة من حديث جرير بن عبدالله رقم الحديث ٧٤ وأبو داود في الأدب رقم الحديث ٤٨٠٩ عن جرير أيضاً.
وابن ماجه في الأدب رقم الحديث ٣٦٨٧، وأخرجه أحمد ٤/ ٣٦٢، ٣٦٦، وابن حبان رقم الحديث ٥٤٩ ورواه ابن خزيمة والطيالسي والطبراني والعسكري كلهم من حديث جرير.

(٤) رواه مسلم في الأمارة رقم الحديث ١٩ بلفظ «من ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به» والطبراني في الأوسط رقم ٣٦٢ عن عائشة، ورواه ابن أبي الدنيا في ذم الغضب من حديث عائشة.
انظر تخريج إحياء علوم الدين ٣/ ٢٣١.

(٥) رواه الترمذي في كتاب صفة القيامة رقم الحديث ٢٤٨٨ من حديث ابن مسعود وقال: حسن غريب. والطبراني في الكبير والأوسط رقم ٨٤١ عن جابر، وأحمد في المسند ١/ ٤١٥ من حديث جابر بن مسعود، وأبو يعلى.
وابن النجار من حديث أبي هريرة بلفظ «يحرم على النار» انظر تخريج أحاديث الإحياء استخراج أبي عبدالله محمود الحداد رقم الحديث ٢٩٠٦.

(٦) رواه أبو يعلى من حديث أنس، والترمذي من حديث سهل بن سعد وحسنه بلفظ «الأناة من الله» رقم الحديث ٢٠١٢، والطبراني في الأوسط رقم الحديث ٤٢٠ عن الزارع ورقم ٢٣٩ عن ابن عباس، والبخاري في الأدب المفرد رقم الحديث ٥٨٦ نحوه.

فاقضه ، وإن كان سوى ذلك فانته [١] ، وعن عائشة رضي الله عنها أنها كانت مع رسول الله ﷺ في سفر على بعير صعب فجعلت تضربه يميناً وشمالاً ، فقال رسول الله ﷺ : «عليك بالرفق فإنه يزين والخرق يشين» [١] ، فهذه الأخبار كلها دالة على فضيلة الرفق .

وأما الآثار : فقد روي عن عمر رضي الله عنه أن جماعة من عماله اشتكوا فأمرهم أن يوافوه فلما أتوا قام فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيتها الرعية إن عليكم حق النصيحة بالغيب والمعاونة على الخير ، أيها الرعاة إن للرعية عليكم حقاً فاعلموا أنه لا شيىء أقرب إلى الله ولا أعز من حلم إمام ورفقه ، وليس شيىء أبغض إلى الله ولا أغم من جهل إمام وخرقه واعلموا أنه من يأخذ بالعافية فيمن بين ظهرانيه يرزق العافية ممن هو دونه ، وقال وهب بن منبه : الرفق نبي الحلم ، وقال بعضهم : العلم خليل المؤمن ، والحلم وزيره ، والعقل دليله ، والعمل قيمته ، والرفق والده والبر أخوه ، والصبر أمير جنوده .

وقال : ما أحسن الإيمان يزينه العلم ! وما أحسن العلم يزينه العمل ! وما أحسن العمل يزينه الرفق ! وما أضيف شيىء إلى شيىء مثل حلم إلى علم ، وقال عمرو بن العاص لابنه عبد الله : ما الرفق؟ قال : أن تكون ذا أناة فتلاين الولاة ، قال : فما الخرق؟ قال : معاداة إمامك ، ومناوءة من يقدر على ضررك ، وقال سفيان يوماً لأصحابه : تدرون ما الرفق؟ قالوا : قل يا أبا محمد ، قال : أن تضع الأمور مواضعها الشدة في موضعها واللين في موضعه والسيف في موضعه والسوط في موضعه وروي أن عمرو بن العاص كتب إلى معاوية يعاتبه في التأني ،فكتب إليه معاوية : أما بعد فإن التفهم في الخبر زيادة رشد وإن الرشيد من رشد عن العجلة ، وإن الخائب من خاب عن الأناة ، وإن المتثبت مصيب أو يكاد أن يكون مصيباً ، وإن العجل مخطىء أو يكاد أن

---

(١) رواه ابن المبارك في الزهد والرقائق من حديث أبي جعفر مرسلاً وأبو جعفر اسمه عبدالله بن مسور الهاشمي ضعيف جداً ولأبي نعيم في كتاب الايجاز نحوه. من رواية إسماعيل الأنصاري عن أبيه عن جده وإسناده ضعيف. انظر تخريج أحاديث الإحياء ٣/ ٢٣١ وله شاهد من رواية رجل من بلي بلفظ «إذا أردت أمراً فعليك بالتؤدة حتى يريك الله منه المخرج» رواه الطيالسي في مسنده والبخاري في الأدب المفرد ص ٣٠٦ رقم ٨٨٨ والخرائطي في مكارم الأخلاق وابن أبي الدنيا في ذم الغضب، والبيهقي في شعب الإيمان. انظر استخراج أبي عبدالله محمود بن محمد الحداد رقم الحديث ٢٩٠٩ .

(٢) تقدم تخريجه من حديث عائشة ص ١٩١ تعليق رقم (١) وقد رواه الطبراني والبزار من حديث جابر، والبخاري في الأدب المفرد من حديث عبدالله بن المغفل، وابن ماجه، وابن حبان من حديث أبي هريرة وأحمد والبيهقي من حديث علي.

يكون مخطئاً، وإن من لا ينفعه الرفق يضره الخرق، ومن لا تنفعه التجارب لا يدرك المعالي.

وقال بعض الحكماء: لا تتخذ من الخدم إلا من لا بد لك منه فإن مع كل إنسان شيطاناً، واعلم أنهم لا يعطونك بالشدة شيئاً إلا أعطوك باللين ما هو أفضل منه، وقال الحسن البصري: المؤمن وقاف متأن وليس كحاطب ليل، فهذا ما أردنا ذكره في الرفق وفضله وذلك لأنه محمود في أكثر الأحوال وأغلب الأمور والحاجة قد تقع إلى العنف ولكن ذلك يكون على الندرة، وإنما الحازم من يميز مواضع العنف عن مواضع اللين فيعطي كل أمر حقه، وعلى الجملة ما أمكن ميله إلى الرفق فإن النجح معه في الأكثر[1].

---

(١) انظر إحياء علوم الدين ٣/ ٤١٩.

الباب السابع

من المهلكات : الكبر

واعلم أنا قبل الخوض فيما نريده من خواص الكبر وآفاته نذكر ماهيته لأن من المحال معرفة حكم الشيء قبل الخوض في معقوله ومفهومه والكبر خلق في النفس دال على الاسترواح والركون إلى رتبة فوق المتكبر عليه، فإن الكبر يستدعي متكبراً عليه ومتكبراً به، وبه ينفصل الكبر عن العجب فإن العجب لا يستدعي شيئاً إلا المعجب بنفسه، بل لو لم يخلق الإنسان إلا وحده تصور أن يكون معجباً ولا يتصور أن يكون متكبراً إلا أن يكون معه غيره وهو يرى نفسه فوق ذلك الغير في صفات الكمال فعند ذلك يكون متكبراً ولو رأى نفسه مثل غيره لم يكن متكبراً ولا يكفي أن يستحقر نفسه في كونه متكبراً بل إنما يدرك حقيقة الكبر باعتقادات ثلاثة، أولها: أن يرى لنفسه مرتبة، وثانيهما: أن يرى لغيره مرتبة، وثالثها: أن يرى أن مرتبة نفسه فوق مرتبة غيره فعند حصول هذه الإعتقادات الثلاثة يحصل فيه خلق الكبر وحقيقته فإذا حصلت هذه العقيدة انتفخ سحره وصار في قلبه اعتزاز وهزة وفرح وركون إلى ما اعتقده وعز نفسه من أجل ذلك فتلك الهزة والعزة والركون إلى ما اعتقده هو خلق الكبر.

ولهذا قال ﷺ : «أعوذ بالله من نفخة الكبرياء»[1] فإن الإنسان مهما رأى نفسه

---

(١) قال العراقي: لم أره بهذا اللفظ. انظر تخريج الإحياء ٣/ ٤١٩ وروى أبو داود نحوه من حديث جبير بن مطعم مرفوعاً في أثناء حديث بلفظ «أعوذ بالله من نفخه ونفثه وهمزه» رقم الحديث ٧٦٤ في الصلاة. وابن ماجه مواقيت الصلاة رقم الحديث ٨٠٧ عن جبير وعن ابن مسعود، وأحمد في المسند ١/ ٤٠٣، ٤٠٤، ٣/ ٥٠، ٤/ ٨٠، ٨١، ٨٣، ٨٥، ٦/ ١٥٦، ولأبي داود والترمذي عن أبي سعيد نحوه.

انظر سنن أبي داود رقم الحديث ٧٥٧ في الصلاة. والترمذي في المواقيت رقم الحديث ٢٤٢ وقال: هو أشهر حديث في الباب.

بهذه العين وهو الإستعظام كبر وانتفخ وتعزز فالكبر عبارة عن هذه الحالة الحاصلة للنفس من هذه الإعتقادات، ويقال لها أيضاً عزة وتعاظماً، ولهذا قال ابن عباس في قوله تعالى **﴿إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه﴾** (المؤمنين :٥٦) ؛ فقال: عظمة لم يبلغوها ففسر الكبر بتلك العظمة، ثم إن هذه العزة تقتضي أعمالاً في الظاهر والباطن فأما الأعمال الباطنة فهو ما يحصل في القلب من العزة والإهتزاز والفرح والإطمئنان، فهذه هي خلق الكبر الباطنة.

وأما الأعمال الظاهرة فإنه مهما عظم عند نفسه قدره بالإضافة إلى غيره حقر من دونه وازدراه وأقصاه عن نفسه وأبعده وترفع عليه وأقصاه عن مؤاكلته ومجالسته ورأى أن حقه أن يقوم ماثلاً بين يديه، وإن اشتد كبره استنكف عن استخدامه ولم يجعله أهلاً للقيام بين يديه وارتفع عليه في المحافل وانتظر أن يبدأه بالسلام، وإن حاج أو ناظر أنف أن يرد عليه، وإن وعظ استنكف عن القبول، وإن رد عليه شيء من قوله غضب، وإن علم لم يرفق بالمتعلمين واشتد عليهم وانتهرهم وامتن عليهم، وينظر إلى العامة كأنه ينظر إلى الحمير استجهالاً واستحقاراً لأحوالهم.

فهذا هو الكبر، وآفته عظيمة وفيه خطر على الدين عظيم كبير وفيه يهلك أكثر الخواص من الخلق، وقل ما ينفك عن العباد والزهاد والعلماء فضلاً عن عوام الناس، وكيف لا تعظم آفته وقد قال ﷺ ، : «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»[1]، وإنما صار حجاباً عن الجنة لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين كلها، وتلك الأخلاق هي مفاتيح أبواب الجنة والكبر وعزة النفس تغلق تلك الأبواب كلها لا يقدر على أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه وفيه شيء من الكبر ولا يقدر على شيء من التواضع وهو رأس أخلاق المتقين وفيه الكبر ولا يقدر على ترك الحقد وفيه الكبر، ولا يقدر أن يدوم على الصدق وفيه الكبر، ولا يقدر على ترك الغضب وفيه الكبر، ولا يقدر على كظم الغيظ وفيه الكبر، ولا معنى للتطويل فما من خلق ذميم إلا وصاحب الكبر حاصل عليه ليحفظ به الكبر، وما من خُلُق محمود إلا وهو عاجز عنه خوفاً من أن يفوته الكبر، فلهذا لم يدخل الجنة من في قلبه حبة من كبر، وشر أنواع الكبر ما يمنع من استفادة العلم وقبول الحق والإنقياد

---

(١) رواه مسلم من حديث ابن مسعود رقم الحديث من ١٤٧ - ١٤٩ في كتاب الإيمان، وأحمد من حديث ابن مسعود رقم الحديث ٤١٢ والحاكم في المستدرك ١/ ٢٦ وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجه واستدركه العراقي، الطبراني في الكبير والبزار من حديث ابن عباس انظر مجمع الزوائد ١/ ٩٨، ولمسلم والترمذي وابن ماجة من حديث ابن عباس نحوه بلفظ آخر. انظر تخريج الإحياء. استخراج عبدالله الحداد رقم الحديث ٣١٦٨ رواه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول رقم الحديث ١٩٦.

وقد وردت الآيات على ذم المستكبرين فقال تعالى: ﴿**فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين**﴾ (الزمر: ٧٢) وقوله عز وجل: ﴿**ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتياً**﴾ (مريم: ٦٩) وقال تعالى: ﴿**قلوبهم منكرة وهم مستكبرون**﴾ (النحل: ٢٢)، والقرآن العظيم محشو بذم الكبر وأهله ودال على أن السبب في استحقاق النار هو الكبر.

قال عيسى صلوات الله عليه: إن الزرع إنما ينبت في السهل دون الصفا. كذلك الحكمة توضع في قلب المتواضع ولا توضع في قلب المتكبر ألا ترون أن كل من شمخ برأسه إلى السقف شجه ومن تطأطأ أظله وأكنه، فهذا مثل يضرب لكل متكبر وأنهم يحرمون الحكمة ولهذا ذكر رسول الله ﷺ في الكشف عن ماهية الكبر فقال: «من سفه الحق وغمص الناس»[1]، وأراد بذلك جحدان الحق وازدراء الخلق ونقصهم والترفع عليهم.

فهذا ما أردنا ذكره في بيان ماهية الكبر ثم نردفه بما نريد ذكره من شرح ما يتعلق بالكبر في صورة التنبيهات ليكون أقرب، للحصر بمعونة الله عز وجل.

التنبيه الأول
في بيان ذم الكبر

وقد ظهر ذمه من جهات ثلاث:

الجهة الأولى: من كتاب الله تعالى، فقال عز وجل: ﴿**كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار**﴾ (غافر: ٣٥)، وقال تعالى: ﴿**سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق**﴾ (الأعراف: ١٤٦) وقال تعالى: ﴿**واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد**﴾ (إبراهيم: ١٥)، وقال عز وجل: ﴿**فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين**﴾ (النحل: ٢٩)، وقال: ﴿**يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين**﴾ (سبأ: ٣١)، وقال تعالى: ﴿**إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين**﴾ (غافر: ٦٠)، وقال تعالى: ﴿**قلوبهم منكرة وهم مستكبرون**﴾ (النحل: ٢٢)، وقال: ﴿**إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه**﴾

---

(١) رواه مسلم من حديث ابن مسعود كتاب الإيمان رقم الحديث ٤٧ بلفظ «الكبر بطر الحق وغمط الناس» ويروى في غير مسلم وغمط الناس ولفظ المؤلف من حديث أبي ريحانة رواه ابن سعد والبغوي والطبراني والبيهقي في الشعب وابن عساكر وأحمد في المسند. انظر مجمع الزوائد ١/ ٩٨.
كما رواه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول رقم الحديث ٢١٨، ٢١٩.

(غافر: ٥٦)، وقال عز وجل: ﴿فاستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق﴾ (القصص: ٣٩)، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذم الكبر وهونه.

الجهة الثانية: الأخبار، روى أبو هريرة عن الرسول ﷺ أنه قال: «يقول الله تبارك وتعالى: الكبر ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني أحدهما ألقيته في جهنم»[١]، وروي أنه التقى عبدالله بن عمرو بن العاص وعبدالله بن عمر على المروة فترافقا، فمضى ابن عمرو بن العاص وأقام ابن عمر يبكي، فقالوا: ما يبكيك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: قال هذا يعني عبدالله بن عمرو أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر كبه الله تعالى في النار على وجهه»[٢]، وقال الرسول ﷺ: «لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين فيصيبه ما أصابهم من العذاب»[٣].

وقال سليمان بن داود عليه السلام يوماً للطير والإنس والجن والبهائم: اخرجوا فخرجوا في مائتي ألف من الإنس ومائتي ألف من الجن، فرفع حتى سمع زجل الملائكة بالتسبيح في السموات، ثم خفض حتى مشت قدماه البحر فسمع صوتاً يقول: لو كان في قلب صاحبكم مثقال ذرة من كبر لخسف به بأبعد مما رفعته[٤].

وقال ﷺ: «يخرج من النار عنق له أذنان يسمعان وعينان يتوقدان ولسان ينطق

---

(١) رواه مسلم في البر والصلة والآداب رقم الحديث ١٣٦ عن أبي هريرة وأبي سعيد.
أبو داود رقم الحديث ٤٠٩٠ كتاب اللباس.
ابن ماجه ـ واللفظ له ـ ٢/ ١٣٩٧، والحاكم في المستدرك ١/ ٦١ والجميع من حديث أبي هريرة، وعند أبي داود من حديث أبي سعيد أيضاً وابن حبان في صحيحه. انظر موارد الظمآن ص ٤٦، وأحمد في المسند ٢/ ٣٧٦، ٤١٤، ٤٢٦، ٤٤٢. وابن أبي الدنيا في التواضع والخمول رقم الحديث ١٩٥.

(٢) أخرجه أحمد في المسند من حديث عبدالله بن عمرو، وتقدم تخريجه ص ١٩٥ تعليق رقم (١). وقال العراقي: إسناده صحيح، وزاد ورواه البيهقي في الشعب وكذلك رواه الدارقطني في الافراد وابن النجار في التاريخ. انظر تخريج الإحياء لأبي عبدالله الحداد رقم الحديث ٣١٧٠.
ورواه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول رقم الحديث ١٩٢ عن ابن مسعود.

(٣) رواه الترمذي من حديث سلمة بن الأكوع في كتاب البر والصلة باب: ما جاء في الكبر. وقال: حديث حسن غريب رقم الحديث ٢٠٠٠ وأقر الترمذي في الترغيب تحسين الترمذي. ورواه الطحاوي في مشكل الآثار ١/ ٤٥٠، والبغوي في شرح السنة ٣/ ١٦٧ وابن عدي في الكامل ٥/ ١٦٧٦، وابن أبي الدنيا في التواضع والخمول رقم الحديث ١٩٨.

(٤) انظر الإحياء ٣/ ٤١٧.

يقول: وكِّلت بثلاثة بكل جبار عنيد وبكل من دعا مع الله إلهاً آخر وبالمصورين»[1]، وقال ﷺ: «لا يدخل الجنة جبار ولا بخيل ولا سيء الملكة»[2]، وقال ﷺ: «تحاجت الجنة والنار فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين، وقالت الجنة: لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقاطهم وعجزتهم، فقال جل وعلا: إنما أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي، وقال جل وعلا للنار: إنما أنت عذابي أعذب به من أشاء ولكل واحدة منكما ملؤها[3]، وقال ﷺ: «بئس العبد عبد تجبر واعتدى ونسي الجبار الأعلى، بئس العبد عبد تجبر واختال ونسي الكبير المتعال، بئس العبد عبد سها ولها ونسي المقابر والبلى، بئس العبد عبد عتا وبغى ونسي المبدأ أو المنتهى»[4].

وعن ثابت قال: بلغنا أنه قيل لرسول الله ﷺ: ما أعظم كبر فلان!، قال: أليس بعده الموت[5]؟، وقال عبدالله بن عمرو إن رسول الله ﷺ قال: «إن نوحاً لما حضرته

---

(١) رواه الترمذي من حديث أبي هريرة وقال: حسن غريب صحيح رقم الحديث ٢٥٧٤ في صفة النار.
رواه أحمد في المسند ٢/ ٣٣٦، ٣/ ٤٠ عن أبي سعيد و١٦/ ١١٠، ورواه ابن مردويه في تفسيره والبيهقي في الشعب.

(٢) رواه أحمد في المسند ١/ ٧ عن أبي بكر، ورواه الطيالسي في مسنده رقم الصفحة ٤، ورواه الترمذي: رقم الحديث ١٩٤٦ في البر والصلة وقال: حديث غريب، وابن ماجه ٣٦٩١ في الأدب والدارقطني في الأفراد، والخطيب في ذم البخلاء وابن عساكر في التاريخ، والخرائطي في مساوىء الأخلاق رقم الحديث ٣٥٩، ٣٦٠، ٧١٢، ٧١٣ وإسناده ضعيف.
وأخرجه ابن جرير في التفسير ص ٣٠/ ٦٤.
والحديث ضعيف لأن في إسناده فرقد السنجي ضعفه البخاري وغيره.

(٣) متفق عليه من حديث أبي هريرة.
البخاري في التفسير سورة قٓ رقم الحديث ٤٨٥٠ بلفظه مسلم في باب صفة الجنة رقم الحديث ٣٦. والترمذي في صفة الجنة. الحديث رقم ٢٥٦١ وقال: حديث حسن صحيح وأحمد في المسند ٢/ ٣١٤ كلهم عن أبي هريرة.

(٤) رواه الترمذي رقم الحديث ٢٤٤٨ باب صفة القيامة عن أسماء بنت عميس وقال: ليس إسناده بالقوي.
ورواه الحاكم في المستدرك ٤/ ٣١٦ وقال: صحيح الإسناد. وتعقبه الذهبي وقال: إسناده مظلم. ورواه البيهقي في الشعب من حديث نعيم بن حمّاد وضعفه.
ورواه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول رقم الحديث ٢٠٤ بإسناد ضعيف، وابن عدي في الكامل ٤/ ١٤٢٩.
وأخرجه ابن أبي حاتم في العلل ٢/ ١١٥ عن نعيم بن حمّاد الغطفاني وقال: قال أبي هذا حديث منكر وأخرجه الطبراني في الكبير. انظر مجمع الزوائد ١٠/ ٢٣٤ وقال: فيه طلحة بن زيد الرقي وهو ضعيف.

(٥) أخرجه السهمي في تاريخ جرجان ص ٤٦٨، وابن أبي الدنيا في كتاب التواضع والخمول رقم الحديث ٢٠٥، ٢٣٠ عن ثابت البناني بسند مرسل، ورواه البيهقي في الشعب أيضاً بلفظ «ما أعظم تجبر. . .» وقال العراقي في تاريخ الإحياء ٣/ ٤١٨: مرسلٌ.

الوفاة دعا ابنيه ،وقال : إني آمركما باثنتين وأنهاكما عن اثنتين أنهاكما عن الشرك بالله والكبر وآمركما بلا إله إلا الله فإن السموات والأرض وما فيهن لو وضعت في كفة الميزان ووضعت لا إله إلا الله في الكفة الأخرى كانت أرجح منها ، ولو أن السموات والأرض وما بينهما كانتا حلقة فوضعت لا إله إلا الله عليهما لفصمتهما ، وآمركما بسبحان الله وبحمده فإنهما حلاة كل شيء وبها يوزن كل شيء[1]،وقال عيسى عليه السلام :طوبى لمن علمه الله كتابه ولم يمت جباراً[2] ، وقال الرسول ﷺ : «أهل النار كل جعظري جواظ متكبر جمّاع مناع وأهل الجنة الضعفاء»[3] ، وقال ﷺ : «إن أحبكم إليّ وأقربكم مني مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً ، وإن أبغضكم إليّ وأبعدكم مني الثرثارون المتشدقون المتفيهقون قالوا : يا رسول الله قد علمنا الثرثارين فما المتفيهقون؟ قال : المتكبرون»[4] .

وقال الرسول ﷺ : «يحشر المتكبرون يوم القيامة ذراً في صور الرجال يعلوهم كل شيء من الصغار ، ثم يساقون إلى سجن جهنم يقال له بوس تعلوهم نار الأنيار ثم يسقون من طينة الخبال وهي عصارة أهل النار»[5]، وقال أبو هريرة قال ﷺ : «يحشر الجبارون

---

(١) رواه أحمد في المسند ٢/ ١٩٦ ، ١٧٠ وفي الزهد ص ٥١ وابن أبي الدنيا في التواضع والخمول رقم الحديث ٢٠٦ عن عبدالله بن عمرو ورواه الحاكم في المستدرك ١/ ٤٩ وقال: صحيح الإسناد.
ورواه البخاري في الأدب المفرد رقم الحديث ٥٤٨ . ورواه الطبراني في الكبير. انظر مجمع الزوائد ٤/ ٤٩ وقال الهيثمي : إسناد رجاله ثقات.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول رقم الحديث ٢٠٨ عن سليمان بن المغيرة قال: قال عيسى وذكره.
انظر إحياء علوم الدين ٣/ ٤١٣ .

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول رقم الحديث ٢٢٠ . وأخرجه أحمد في المسند ٢/ ٥٠٨ من حديث أبي هريرة. ومن حديث حارثة بن وهب ٤/ ٣٠٦. وأخرجه الحاكم من حديث سراقة انظر المستدرك ص ٦١ وقال: صحيح الإسناد على شرط مسلم. وأقره الذهبي وأخرجه البيهقي قي شعب الإيمان من حديث عبدالله بن عمرو من حديث سراقة ومن حديث حارثة بن وهب الخزاعي . وأخرجه ابن قانع. انظر تخريج الإحياء ٣/ ٤١٣. ورواه البزار عن أبي هريرة انظر كشف الأستار ووعن زوائد البزار ٤/ ٢٤٣ رقم ٢٦٣١ وانظر مجمع الزوائد ١٠/ ٢٤٣ .

(٤) رواه البزار من حديث أبي هريرة. انظر كشف الأستار عن زوائد البزار ٤/ ٢٤٣ رقم (٣٦٣١) ومجمع الزوائد ١٠/ ٢٦٥ وأخرجه أحمد في المسند ٢/ ٢٥٣ ، ٣٦٨، ٤٠٣ .
أخرجه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول انظر الأحاديث ١٧٧ ، ١٧٨ ، ٢٢١ .
ورواه ابن حبان وأبو نعيم والطبراني والبيهقي والخرائطي والخطيب والضياء وابن عساكر.
وله طرق من حديث ثعلبة ومن حديث ابن مسعود، ومن حديث جابر تقدم تخريجها ص ٤١ تعليق رقم ٨.

(٥) رواه الترمذي رقم الحديث ٢٤٩٢ كتاب صفة القيامة وقال: حسن صحيح، والبخاري في الأدب المفرد ص ٢٤٢ باب الكبر، وابن المبارك في زوائد الزهد رقم الحديث ١٩١ ، وأحمد في المسند ٢/ ٣٩ وفي الزهد ص ٢٢ ، وابن أبي =

والمتكبرون يوم القيامة في صور الذر يطؤهم الناس لهوانهم على الله تعالى»[1]، وقال ﷺ : «إن في جهنم وادياً يقال له هبهب حق على الله أن يسكنه كل جبار»[2]، قال النبي ﷺ : «فإياك يا بلال أن تكون ممن يسكنه»[3]، وقال ﷺ : «إن في النار قصراً يجعل فيه المتكبرون ويطبق عليهم»[4]، وقال ﷺ : «اللهم إني أعوذ بك من نفخة الكبرياء»[5] وقال ﷺ : «من فارق روحه جسده وهو بريء من ثلاثة دخل الجنة الكبر والدين والغلو»[6] فهذه جملة ما أوردنا من الأخبار الدالة على ذم الكبر.

الجهة الثالثة: الآثار، قال أبو بكر رضي الله عنه: لا تحقرن أحداً من المسلمين فإن صغير المسلمين عند الله كبير، وقال وهب: لما خلق الله الجنة جنة عدن نظر إليها فقال: أنت حرام على كل متكبر، وكان الأحنف بن قيس يجلس مع مصعب بن الزبير على سريره فجاء يوماً ومصعب مادّ رجليه لم يقبضهما وقعد الأحنف فزحمه بعض الزحمة

= الدنيا في التواضع والخمول رقم الحديث ٢٢٣ وأخرجه في كتاب الأهوال، وأبو نعيم في الحلية ٥/ ٣٦٩ الجميع عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

(١) أخرجه البزار عن أبي هريرة انظر رفع الأستار رقم الحديث ٣٤٢٩. وضعفه الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٣٤، وأخرجه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول رقم الحديث ٢٢٤ من حديث أبي هريرة، وقال العراقي في تخريج الإحياء ٣/ ٤١٨: إسناده حسن ولكن كيف يكون إسناده حسن وفيه القاسم بن عبدالله العمري وهو متروك.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ٥٩٦ ـ ٥٩٧، وقال: هذا حديث تفرد به زاهر بن سنان عن محمد بن واسع لم يكتبه عالياً إلا من هذا الوجه. وأخرجه الدارمي رقم الحديث ٢٨١٩ وضعفه العراقي في تخريج الإحياء ٣/ ٤١٩. ورواه أبو نعيم في الحلية ٢/ ٣٥٦ وابن أبي الدنيا في التواضع والخمول رقم الحديث ٢٢٥.
ورواه أبو يعلى والطبراني. انظر الترغيب والترهيب للمنذري ٣/ ٥٧١.

(٣) انظر الإحياء ٣/ ٤١٨.

(٤) رواه البيهقي في الشعب من حديث أنس بإسناد ضعيف فيه أبان بن أبي عياش وهو ضعيف. انظر تخريج الإحياء ٤١٩١٣.

(٥) تقدم تخريجه صفحة ١٤٩ تعليق رقم (١).

(٦) رواه الترمذي في السير باب ما جاء في الغلول رقم الحديث ١٥٧٢، ١٥٧٣.
رواه النسائي.
ورواه ابن ماجه في الصدقات ٢٤١٢، جميعهم من حديث ثوبان بإسناد صحيح.
ورواه أحمد في المسند ٥/ ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٨١.
والدارمي ٢/ ١٧٧ البيوع رقم الباب ٥٢، رقم الحديث ٢٥٩٥ وابن حبان.
والحاكم في المستدرك ٢/ ٢٦ البيوع وقال حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.
وأبو يعلى والبيهقي وأبو نعيم والضياء والروياني، انظر تخريج الإحياء لأبي عبدالله محمود الحداد رقم الحديث ٣١٨٣.

فـرأى ذلك فيـه، فقال: عجباً لابن آدم يتكبر وقـد خرج من مجـرى البول مـرتين، وقال الحسن: العجب لابن آدم يغسـل الخراء كـل يوم بيـده مرتين وهـو يتكبـر يعـارض جبـار السمـوات والأرض، وقيـل في تفسيـر قـولـه تعـالى: ﴿وفي أنفسكم أفـلا تبصـرون﴾ (الذاريات: ٢١) هو سبيل الغائط والبول وقال محمد بن علي بن الحسين: مـا دخل قلب امرىء شيء من الكبر إلا نقص من عقله بقدر ما دخل من ذلك قل أو كثر، وسئل سليمان عن السيئة التي لا تنفع معها الحسنة فقال: الكبر[1].

التنبيه الثاني
في بيان ذم الإختيال وإظهار آثار الكبر في المشية وجر الأثواب

ويظهر ذمه من جهتين:

الجهة الأولى: الأخبار المأثورة، قال رسول الله ﷺ: «لا ينظر الله يوم القيامة إلى رجل جر إزاره بطراً»[2]، وقال ﷺ: «بينما رجل يتبختر في برديه قد أعجبته نفسه إذ خسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة»[3]، وقال ﷺ: «من جر ثوبه خُيَلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة»[4]، وعن عبد الله بن عمر أنه مر به رجل وعليه ثوب جديد فسمعه يقول: أي بني إرفع إزارك فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا ينظر الله تعالى إلى من جر إزاره خيلاء»[5].

وروي أن رسول الله ﷺ بصق يوماً على كفه ووضع أصبعه عليه وقال يقول الله

---

(١) انظر إحياء علوم الدين ٣/ ٤١٩.

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة، أخرجه البخاري في صحيحه كتاب اللباس رقم الحديث ٥٧٨٨ ومسلم في اللباس رقم ٤٣ ـ ٤٨، وأخرجه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول رقم ٢٣٢، ٢٣٩.

(٣) متفق عليه من حديث أبي هريرة.
البخاري في صحيحه كتاب اللباس رقم ٥٧٨٩.
ومسلم في اللباس أيضاً رقم ٥٠ ـ ٥١.
وابن أبي الدنيا في التواضع والخمول رقم ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٥٠.

(٤) متفق عليه من حديث ابن عمر.
البخاري في اللباس رقم ٥٧٩١ ومسلم في اللباس رقم ٤٢ ـ ٤٧ من حديث ابن عمر. وابن أبي الدنيا في التواضع والخمول رقم ٢٣٨، وأحمد والأربعة.

(٥) رواه مسلم في اللباس رقم ٤٥ من حديث ابن عمر والبخاري نحوه عن ابن عمر أيضاً وتقدم قبل هذا، وروى أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة نحوه أيضاً.

سبحانه: يا ابن آدم تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه إذا سويتك وعدلتك مشيت ببردين والأرض تحتك وئيد وقد جمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقي قلت: أتصدق، وأنى أوان الصدقة»[1]، وقال ﷺ: «إذا مشت أمتي المطيطاء وخدمها أبناء فارس والروم سُلِط بعضهم على بعض»[2]، وفي حديث آخر: «فقد تودع منهم»[3] وقال ﷺ: «من تعظم في نفسه واختال في مشيه لقي الله تعالى وهو عليه غضبان»[4]، فهذه هي الأخبار في ذم الإختيال.

الجهة الثانية: الآثار، رُوي عن الحسن أنه مر به إبراهيم بن الأهتم وهو أمير يريد المقصورة وعليه ثياب خز قد نضد بعضها فوق بعض على ساقه فانفرج عنها قباه وهو يمشي متبختراً إذ نظر إليه الحسن فقال: أف أف شامخ بأنفه ثانٍ لعطفه يصعر خده ينظر في عطفيه أي حميق تنظر في عطفيك في نعم غير مشكورة ولا مذكورة غير المأخوذ بأمر الله تعالى فيها ولا المؤدى حق الله منها والله أن يمشي أحدهم إلا وينظر في عطفيه، أو تخلج تخلج المجنون في كل عضو من أعضائه لله نعمة وللشيطان لعنة، فسمعه ابن الأهتم فرجع يعتذر إليه، فقال: لا تعتذر إليّ وتب إلى ربك أما سمعت قول الله عز وجل، ﴿**ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً**﴾ (الإسراء: ٣٧).

ومر بالحسن شاب عليه بزة حسنة فدعاه الحسن، فقال: يا ابن آدم معجب بشبابه

---

(١) رواه ابن ماجه في السنن الوصايا رقم الحديث ٢٧٠٧ بإسناد صحيح والحاكم في المستدرك ٢/ ٥٠٢ وقال صحيح الإسناد ووافقه الذهبي. وأحمد ٤/ ٤١٠ بإسناد صحيح والطبراني انظر مجمع الزوائد.
والبيهقي وابن سعد وابن أبي عاصم والبارودي وابن قانع وسمويه وأبو نعيم والضياء وإسناد أحمد وابن ماجه صحيح. الجميع من حديث بشر بن جحاش.

(٢) رواه الترمذي في السنن الفتن رقم الحديث ٢٢٦١ من حديث ابن عمر وقال حديث غريب وابن حبان في صحيحه ٨/ ٢٥٣ رقم الحديث ٦٦٨١ من حديث خولة.
وابن أبي الدنيا في التواضع والخمول رقم ٢٤٩، والطبراني في الأوسط رقم الحديث ١٣٢ من حديث أبي هريرة، وانظر مجمع الزوائد ١٠/ ٢٣٧.
ورواه ابن المبارك في زوائد الزهد ص ٥١ ـ ٥٢ رقم ١٨٧ عن ابن عمر وتقدم نحوه ص التعليق.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٦٣، ١٩٠ عن ابن عمر بلفظ إذا رأيت أمتي تهاب الظالم أن تقول له أنت ظالم فقد تودع منهم.

(٤) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ١١٨ والبخاري في الأدب المفرد ص ١٩٣ رقم ٥٤٩ ورواه الطبراني في الكبير انظر مجمع الزوائد ١/ ٩٨ وقال الهيثمي رجاله رجال الصحيح، وقال المنذري في الترغيب والترهيب ٤/ ٢٠ رواته محتج بهم في الصحيح وانظر فيض القدير للمناوي رقم الحديث ٨٥٩٨، وعزاه العراقي للبيهقي أيضاً انظر تخريج أحاديث الإحياء ٣/ ٤٢٠.

معجب بجماله كأن القبر قد واري بدنك وكأنك قد لاقيت عملك ، ويحك داو قلبك فإن حاجة الله إلى العباد صلاح قلوبهم ، وروي أن عمر بن عبد العزيز حج قبل أن يستخلف وهو يختال في مشيه فنظر طاووس إليه فغمز جنبه بأصبعه فقال له : ليس هذه مشية من في بطنه خروء، فقال عمر له كالمعتذر: لقد ضربت كل عضو مني على هذه المشية حتى تعلمتها ، ورأى محمد بن واسع ولده يختال فدعاه فقال: أتدري من أنت؟ أما أمك فاشتريتها بمائتي درهم وأما أبوك فلا كثر الله في المسلمين مثله ، ويروى أن مطرف بن عبدالله بن الشخير رأى المهلب يتبختر في جبة خز، فقال: يا عبدالله هذه مشية يبغضها الله تعالى ورسوله، فقال المهلب: أما تعرفني؟ قال: بلى أعرفك أو لك نطفة مذرة وآخرتك جيفة قذرة وتحمل ما بين ذلك العذرة، فمضى المهلب وترك مشيته تلك.

وأقول إن الوعيد على الكبر لعظيم وإن الخطر فيه جسيم ، وإن البلوى به لشاملة للخلق إلا على من وفقه الله واختاره ورفض العزة في كل أمر ولاحظ أمر الآخرة وعزم على إذلال نفسه تواضعاً لعظمة الله تعالى وانحطاطاً لكنه جلاله ، فنسأل الله الكريم الذي جلت عظمته وشملت رحمته أن يجعلنا من أوليائه الذين محى رسم الكبر عن قلوبهم وأزال العزة عن صدورهم فظفروا بلذة التواضع وجانبوا الشغل بنصب العزة والكبرياء وظفروا بجوار الكريم في جنات الخلد والنعيم[١] .

التنبيه الثالث
في بيان فضل التواضع

وقد ظهر من جهتين :

الجهة الأولى : قال الرسول ﷺ : «ما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً وما تواضع أحد إلا رفعه الله عز وجل»[٢] وقال ﷺ : «ما من أحد إلا معه ملكان وعليه حكمه يمسكانه فإن هو

---

(١) انظر إحياء علوم الدين ٣/ ٤٢١ .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه البر والصلة رقم الحديث ٦٩ عن أبي هريرة.
والترمذي في البر والصلة رقم الحديث ٢٠٢٩ .
وأحمد في المسند ١/ ١٩٣ عن عبد الرحمن بن عوف وعن أبي هريرة في ٢/ ٢٣٥ و٤٣٨ وعن أبي كبشة الأنماري ٤/ ٢٣١ وأخرجه مالك في الموطأ ٢/ ١٠٠ والطبراني في مكارم الأخلاق ص ٥٨ وابن أبي الدنيا في التواضع والخمول رقم الحديث ٧٤ والبغوي في شرح السنة ٦/ ١٣٣ وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله ١/ ١٤١ .
انظر تخريج الإحياء للعراقي ٣/ ٤٢١ .

رفع نفسه جبذها ثم قالا: اللهم ضعه وإن وضع نفسه قالا: اللهم ارفعه[1]، وقال ﷺ: «طوبى لمن تواضع من غير مسكنة، وأنفق مالاً جمعه من غير معصية، ورحم أهل الذل والمسكنة، وخالط أهل الفقه والحكمة»[2]، ويروى أن الرسول ﷺ صلى بقباء وكان صائماً فأتيناه بإفطاره بقدح من لبن وجعلنا فيه شيئاً من عسل فلما رفعه وذاقه وجد حلاوة العسل قلنا: يا رسول الله جعلنا فيه شيئاً من عسل فوضعه وقال: أما إني لا أحرّمه ومن تواضع لله رفعه الله ومن تكبر وضعه الله ومن اقتصد أغناه الله، ومن بذر أفقره الله تعالى، ومن أكثر ذكر الله كثيراً أحبه الله عز وجل[3].

وروي أن النبي ﷺ كان في نفر من أصحابه في بيته يأكلون فقام سائل على الباب وبه زمانة يتكره منها وضعف في حاله فأذن له، فلما دخل أجلسه رسول الله ﷺ على فخذه أو قال: على مخدة له ثم قال: أطعم فكأن رجلاً من قريش اشمأز وتكرهه فما مات ذلك الرجل حتى بلي بمثل تلك البلية[4]، وقال ﷺ: «خيرني ربي بين أمرين بين أن

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول رقم الحديث ٧٥ واللفظ له، أخرجه الخرائطي في مساوىء الأخلاق رقم الحديث ٥٥٨ وابن عدي في الكامل ٦/ ٢٣٣١ وأخرجه الطبراني في الكبير لابن عباس انظر مجمع الزوائد ٨/ ٨٣. وأخرجه البزار من حديث أبي هريرة انظر رفع الأستار ٤/ ٢٢٣. وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان من حديث أبي هريرة وابن عباس وكلا الحديثين ضعيف وأخرجه العقيلي في الضعفاء وأبو نعيم في الحلية والديلمي في زهد الفردوس ساق سنده عن ابن عباس. وحسّن الحديث المنذري في الترغيب والهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٨٨، والسيوطي في الجامع الصغير، انظر فيض القدير رقم الحديث ٧٩٨٤، وانظر الصحيحة للألباني رقم الحديث ٥٠٨٣.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول رقم الحديث ٧٦ من حديث المصري وأخرجه البزار من حديث أنس وفيه النضر بن محيرث وغيره من الضعفاء، وأخرجه الطبراني في الكبير انظر مجمع الزوائد ١٠/ ٢٢٩ و٨/٣١١، ورواه تمّام والبيهقي وابن عساكر والبخاري في التاريخ والبغوي في مجمع الصحابة والباوردي وابن القانع وقد تقدم نحوه صفحة ١٣٧ تعليق رقم (١).

(٣) أخرجه البزار من حديث طلحة بن عبيد الله عن أبيه عن جده، ورواه ابن منده وأبو نعيم في الحلية من حديث أبي هريرة، ورواه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ص ٣٧ و٧٥ ورواه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول رقم الحديث ٧٧ من حديث أبي سلمة عن أبيه عن جده ورواه الطبراني في الأوسط من حديث عائشة. انظر مجمع الزوائد ١٠/ ٣٢٥. وقال الهيثمي فيه نعيم بن مروع العنبري، ووثقه ابن حبان وضعفه غيره، وقال الذهبي في الميزان في ترجمة طلحة بن طلحة بعد أن ساق الحديث: منكر. ولأبي نعيم وأحمد من حديث أبي سعيد نحوه، ورواه ابن شاهين وابن النجار.

(٤) قال العراقي في تخريج الإحياء ٣/ ٤٢١ لم أجد له أصلاً والموجود حديث أكله مع مجذوم رواه أبو داود في السنن الطب رقم الحديث ٣٩٢٥ والترمذي في الأطعمة رقم الحديث ١٨١٧ وقال غريب وساقه من طريق أخرى عن ابن عمر موقوفاً وقال هو أثبت وأصح. =

أكون عبداً رسولاً أو ملكاً نبياً، فلم أدر أيهما اختار، وكان معي من الملائكة جبريل عليه السلام فرفعت رأسي فقال: تواضع لربك فقلت: عبداً رسولاً»(1).

وروي أن موسى عليه السلام أوحى الله إليه: إنما أقبل صلاة من تواضع لعظمتي ولم يتعظم على خلقي وألزم قلبه خوفي وقطع النهار بذكري وكف نفسه عن الشهوات من أجلي(2)، قال ﷺ: «الكرم التقوى والشرف التواضع واليقين الغنى»(3)، وقال عيسى صلوات الله عليه: طوبى للمتواضعين في الدنيا، هم أصحاب المنابر يوم القيامة طوبى للمصلحين بين الناس في الدنيا، هم الذين يرثون الفردوس يوم القيامة، طوبى للمطهرة قلوبهم في الدنيا، هم الذين ينظرون إلى الله عز وجل يوم القيامة(4)، وقال ﷺ: «إذا هدى الله عبداً للإسلام وحسن صورته وجعله في موضع غير مشين له ورزقه مع ذلك التواضع فذلك من صفوة الله عز وجل»(5)، وقال ﷺ: «أربع لا يعطيهن الله تعالى إلا

= ورواه ابن ماجه من الطب رقم الحديث ٣٥٤٢ الجميع عن جابر بن عبدالله ولمسلم والنسائي وابن ماجه نحوه من حديث الشريد بن يوسف الثقفي بلفظ (كان في وفد ثقيف رجل مجذوم فأرسل إليه رسول الله ﷺ إرجع وقد بايعناك).

(1) رواه أبو يعلى من حديث عائشة والطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس وكلا الحديثين ضعيف، انظر مجمع الزوائد ٩/ ١٩٢ وقال الهيثمي رواه البزار من حديث ابن عمر ورجاله ثقات ورواه هناد بن السري في الزهد مرسلاً عن الشعبي ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب التواضع والخمول رقم الحديث ٨٥.
وانظر إتحاف السادة المتقين ٨/ ٣٥٢، وانظر تخريج الإحياء للعراقي ٣/ ٤٢٢.

(2) انظر إحياء علوم الدين ٣/ ٤٢٢.

(3) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب التواضع والخمول رقم الحديث ١١٥ عن يحيى بن أبي كثير مرسلاً، وأخرجه في كتاب اليقين رقم الحديث ٢٢.
ورواه البيهقي في السنن الكبرى ٧/ ١٣٦ بلفظ (الحسن المال والكرم التقوى) والحاكم في المستدرك ٤/ ٣٢٥ من رواية الحسن عن سمرة قال صحيح الإسناد ورواه أحمد والترمذي بنفس اللفظ وقال حسن غريب.
ورواه ابن ماجه أيضاً وعبد بن حميد والطبراني والقضاعي والعسكري في الأمثال انظر فيض القدير رقم الحديث ٦٤٥٨ وإتحاف السادة المتقين ٨/ ٣٥٢.
وكنز العمال رقم الحديث ٥٦٣٧.

(4) انظر إحياء علوم الدين ٣/ ٤٢٢.

(5) أخرجه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول رقم الحديث ١٢١ مرسلاً عن عمرو بن عثمان قال بلغني عن النبي ﷺ وساقه بإسناد ضعيف.
وأخرج الطبراني نحوه موقوفاً عن ابن مسعود وفيه المسعودي مختلف فيه، أنظر تخريج الإحياء ٣/ ٤٢٢.
ورواه ابن النجار من حديث أنس بلفظ آخر نحوه.

من يحب الصمت وهو أول العبادة والتوكل على الله تعالى والتواضع والزهد في الدنيا»[1].

وقال ابن عباس رضي الله عنه: إن التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة فتواضعوا يرحمكم الله تعالى[2]، وروي عن الرسول ﷺ أنه كان يطعم مرة فجاء رجل أسود به جدري قد تقشر فجعل لا يجلس إلى أحد إلا قام من جنبه فأجلسه الرسول ﷺ إلى جنبه[3]، وقال ﷺ: «إنه ليعجبني أن يحمل الرجل الشيء في يده ويكون مهنأه لأهله يدفع به الكبر عن نفسه»[4]، وقال ﷺ يوماً لأصحابه: «ما لي لا أرى عليكم حلاوة العبادة، قالوا: وما حلاوة العبادة؟ قال: التواضع»[5].

الجهة الثانية: الآثار قال عمر رضي الله عنه: إن العبد إذا تواضع لله عز وجل رفع الله حكمته، وقال: انتعش رفعك الله وإذا تكبر وعدى طوره وهصه الله تعالى إلى الأرض وقال: اخسأ أخزاك الله تعالى فهو في نفسه كبير وفي أعين الناس حقير حتى إنه لأحقر من الخنزير، وحكي عن سلمان الفارسي أنه قال: تواضعوا فإن من تواضع لله عز وجل في الدنيا رفعه الله تعالى يوم القيامة أتدرون ما ظلمة النار يوم القيامة؟ قلنا: لا قال: فإنه ظلم العباد بعضهم بعضاً في الدنيا[6]، وقالت عائشة رضي الله عنها: إنكم لتغفلون عن أفضل

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ٣١١ من حديث أنس وقال صحيح الإسناد وتعقبه الذهبي لأن فيه العوّام بن الجويرية، قال ابن حبان يروي الموضوعات. انظر تخريج الإحياء للعراقي ٣/ ٤٢٢ وأخرجه الطبراني انظر مجمع الزوائد ١٠/ ٢٨٢.
ورواه البيهقي وابن عساكر من حديث أنس وصحح ابن عدي وقفه.

(٢) رواه الأصبهاني في الترغيب والترهيب من حديث أنس وفيه بشر بن الحسين وهو ضعيف جداً. ويشهد له حديث مسلم المتقدم عن أبي هريرة (ما تواضع أحد لله إلا رفعه). انظر تخريج الإحياء ٣/ ٤٢٢ وتقدم تخريجه في صفحة ١٨٥ تعليق رقم (٢).

(٣) قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ٣/ ٤٢٢ لم أجده هكذا، والمعروف حديث أكله مع المجذوم رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث جابر. قال الترمذي غريب وتقدم تخريجه في صفحة ٢٠٣ تعليق رقم (٥).

(٤) قال العراقي في تخريج الإحياء ٣/ ٤٢٢ غريب وقد ورد من حديث أبي سعيد (كان رسول الله ﷺ لا يمنعه الحياء أن يحمل بضاعة في السوق) أورده القشيري في الرسالة.
وأخرج لفظ المصنف ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول رقم الحديث ٩٦ عن عمرو الهمداني وفي إسناده من لا يعرف.

(٥) قال العراقي في تخريج الإحياء ٣/ ٤٢٢ غريب وقال ابن السبكي في طبقات الشافعية ٦/ ٣٥٢ لم أجد له إسناداً.

(٦) انظر إحياء علوم الدين ٣/ ٤٢٢.

العبادة التواضع[1]، وقال يوسف بن أسباط: يجزي قليل الورع عن كثير العمل ويجزي قليل التواضع عن كثير من الاجتهاد، وقال الفضيل وقد سئل عن التواضع: هو أن يخضع للحق وينقاد له ولو سمعته من صبي قبلته، ولو سمعته من أجهل الناس قبلته[2].

وحكي عن بعضهم أنه قال: رأس التواضع أن تضع نفسك عند من دونك في نعمة الدنيا حتى تعلمه أنه ليس لك بدنياك عليه فضل وأن ترفع نفسك عمن هو فوقك في الدنيا حتى يعلم أنه ليس بدنياه عليك فضل، وقال قتادة: من أعطي مالاً وجمالاً أو ثباتاً أو علماً ثم لم يتواضع فيه كان عليه وبالاً يوم القيامة، وقيل إن الله عز وجل أوحى إلى عيسى عليه السلام: إذا أنعمت عليك نعمة فاستقبلتها بالاستكانة أتمها عليك، وقال كعب: ما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فشكرها لله سبحانه وتواضع بها لله إلا أعطاه الله تعالى نفعها في الدنيا ورفع بها درجته في الآخرة وما أنعم الله تعالى على عبد من نعمة في الدنيا فلم يشكرها لله تعالى ولم يتواضع إلا منعه الله تعالى نفعها في الدنيا وفتح له طبقاً من النار يعذبه إن شاء أو يتجاوز عنه[3].

وقيل لعبد الملك بن مروان: أي الرجال أفضل؟ قال: من تواضع عن رفعة وزهد عن قدرة وترك النصرة عن قوة، ودخل ابن السماك على الرشيد هارون فقال: إن تواضعك في شرفك أشرف لك من شرفك، فقال له: ما أحسن ما قلت! فقال: إن أميراً أعطاه الله جمالاً في خلقته وموضعاً في حسبه وبسط له في ذات يده فعف في جماله وواسى في ماله وتواضع في حسبه كتب في ديوان الله تعالى من خالصة الله عز وجل، فدعا هارون بدواة وقرطاس وكتبه بيده، وكان سليمان بن داود عليه السلام إذا أصبح تصفح وجوه الأغنياء والأشراف حتى يجيء المساكين فيقعد معهم ويقول: مسكين مع مساكين، وقال: كما تكره أن يراك الأغنياء في الثياب الدون فكذلك فاكره أن يراك الفقراء في الثياب المرتفعة[4].

ويروى أن خرج جماعة من أهل الصلاح يتدارسون التواضع، فقال بعضهم لبعض: تدرون ما هو التواضع؟ أن تخرج من منزلك فلا تلقى مسلماً إلا ورأيت له عليك فضلاً، وقال مجاهد: إن الله تعالى لما أغرق قوم نوح شمخت الجبال وتطاولت

---

(١) نفس المصدر.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر.

(٤) إحياء علوم الدين ٣/ ٤٣٠.

وتواضع الجودي فرفعه الله فوق الجبال وجعل قرار السفينة عليه، وقال بعض الحكماء: اطلع الله على قلوب الآدميين فلم يجد قلباً أشد تواضعاً من قلب موسى عليه السلام فخصه الله من بينهم بالكلام، وعن بعض الزهاد وقد انصرف من عرفات: لم أشك في الرحمة لولا أني معهم، ومعناه أنه يخشى أنهم حرموا بسببه، ويقال: أرفع ما يكون المؤمن عند الله تعالى أوضع ما يكون عند نفسه، وقال بعضهم: الزاهد من غير تواضع كالشجرة لا تثمر[1].

وقال مالك بن دينار: لو أن منادياً ينادي بباب المسجد ليخرج أشركم رجلاً ما سبقني أحدكم إلى الباب إلا رجل بفضل قوة أو سعي، قال: فلما بلغ كلامه بعض الزهاد قال: بهذا صار مالك مالكاً، وقال الفضيل بن عياض: من أحب الرياسة لم يفلح أبداً، وحكي عن موسى بن القاسم قال: كانت عندنا زلزلة وريح حمراء فذهبت إلى محمد بن مقاتل فقلت: يا أبا عبد الله أنت إمامنا فادع الله لنا فبكى، ثم قال: يا ليتني لم أكن سبباً لهلاككم، قال: فرأيت النبي ﷺ في النوم فقال إن الله عز وجل دفع عنكم بدعاء محمد بن مقاتل[2].

وجاء رجل إلى الشبلي فقال له: ما أنت؟ وكان هذا دأبه وعادته فقال له: أنا النقطة التي تحت الباء، قال الشبلي في بعض كلامه: ذلي عطل ذل اليهود، وقال: من رأى لنفسه قيمة فليس له من التواضع نصيب، وعن رجل من الزهاد قال: رأيت أمير المؤمنين كرم الله وجهه في الجنة في المنام فقلت: يا أبا الحسن عظني فقال: ما أحسن التواضع بالأغنياءِ في مجالس الفقراءِ رغبة منهم في ثواب الله تعالى! وأحسن من ذلك تيه الفقراء على الأغنياء ثقة منهم بالله عز وجل، وقال أبو سلمان: لا يتواضع العبد حتى يعرف نفسه، وقال أبو يزيد البسطامي: ما دام العبد يظن أن في الخلق من هو شر منه فهو متكبر، فقيل له: متى يكون متواضعاً؟ فقال: إذا لم ير لنفسه مقاماً ولا حالاً، وتواضع لكل إنسان على قدر معرفته بربه ومعرفته بنفسه[3].

وقال أبو سليمان: لو اجتمع الخلق على أن يضعوني كاتضاعي عند نفسي ما قدروا عليه، وقال عروة بن الورد: التواضع أحد مصايد الشرف، وكل نعمة محسود عليها صاحبها إلا التواضع، وقال يحيى بن خالد البرمكي: الشريف إذا تنسك تواضع والسفيه

---

(١) الإحياء ٣/ ٤٣٠.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر

إذا تنسك تعاظم، وقال يحيى بن معاذ: التكبر على ذي التكبر بماله تواضع، ويقال: التواضع في الخلق كلهم حسن وهو في الأغنياء أحسن، والكبر في الخلق كلهم قبيح وهو في الفقراء أقبح[1].

وقال بعض الزهاد: النفس معجونة بالكبر والحرص والحسد فمن أراد الله هلاكه، منع منه التواضع والنصيحة والقناعة فإذا هاجت في نفسه نار الكبر أدركها التواضع مع نصر الله عز وجل، وإذا هاجت نار الحسد في نفسه أدركتها النصيحة مع توفيق الله تعالى، فإذا هاجت في نفسه نار الحرص أدركتها القناعة مع توفيق الله تعالى، فهذا ما أردنا ذكره في مدح التواضع وثناء الشرع عليه والله الموفق للصواب.

التنبيه الرابع
في بيان أسباب الكبر

إعلم أنه لا يتكبر إلا من استعظم نفسه ولا يستعظمها إلا وهو يعتقد لها صفة من الصفات الدالة على الكمال ومجامع ذلك راجع إلى كمال ديني ودنيوي ومجامع ذلك راجع إلى أسباب سبعة:

السبب الأول: العلم وما أسرع الكبر إلى العلماء! ولهذا قال ﷺ: «آفة العلم الخيلاء»[2] فلا يلبث العالم أن يتعزز بعز العلم ويستشعر في نفسه جمال العلم وكماله ويستعظم نفسه ويستحقر الناس، وجملة الأمر أن تكبر العلماء ربما كان متعلقاً بأمور الدنيا أو بأمور الآخرة فهاتان حالتان، الحالة الأولى: ما يكون في الدنيا فينظر إلى الخلق نظره إلى البهائم ويستجهلهم ويستحقر أحوالهم ويستحقر أن يبدأه بالسلام فإن بدأ أحداً بالسلام أو قام له أو أجاب له دعوة رأى ذلك صنيعة ويرى ويعتقد أنه أكرمهم وفعل لهم ما لا يستحقون إلى غير ذلك من الأمور التي يترفع بها ويتكبر عليهم فيها، الحالة الثانية: ما يكون متعلقاً بأمور الآخرة وهذا بأن يرى نفسه عند الله أعلا وأفضل فيخاف على أنفسهم أكثر مما يخاف على نفسه ويرجو لنفسه أكثر مما يرجو لهم ومن هذا حاله فهو

---

(١) نفس المصدر.

(٢) قال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ٣/ ٤٣٠ المعروف «آفة العلم النسيان وآفة الجمال الخيلاء» رواه القضاعي في مسند الشهاب ١/ ٧٨ رقم الحديث ٥١ من حديث أنس وهو ضعيف ورواه عن الشهاب أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس وفيه الحسن بن عبد الحميد الكوفي لا يدرى من هو، حدَّث عن أبيه بحديث موضوع، ورواه البيهقي من حديث علي وضعفه وله من حديث جعفر بن محمد عن أبيه عن جده.
وأخرج ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله ١/ ١٣٠ نحوه والطبراني في الكبير رقم الحديث ٢٦٨٨.

أحق بأن يسمى جاهلاً أحسن من أن يسمى عالماً لأن العلم النافع هو الذي يعرف الإنسان به نفسه[1].

السبب الثاني: العمل والعبادة وليس يخلو حال من تلبس بهما من رذيلة الكبر والعز واستمالة قلوب الزهاد والعباد ويترسخ الكبر منهم في الدين والدنيا، أما الدنيا فهو أنهم يعتقدون لأنفسهم حقوقاً على الخلق لأجل عبادتهم وزهادتهم ويتوقعون من الناس قضاء حوائجهم وتوقيرهم والتوسيع لهم في المجالس وذكرهم بالورع والتقوى وتقديمهم على سائر الناس، وأما في الدين فهو أنهم يرون الناس هالكين ويرون أنفسهم في غاية النجاة وهو الهالك تحقيقاً مهما رأى ذلك واعتقده، قال الرسول ﷺ: «إذا سمعتم الرجل يقول هلك الناس فهو أهلكهم»[2]، وإنما قال ذلك لأن هذا القول دال على الازدراء بخلق الله تعالى مغتراً بالله تعالى آمن مكره غير خائف سطوته، وكيف لا يهلك ويكفيه شراً احتقاره لغيره، قال الرسول ﷺ: «كفى بالمرء شراً أن يحقر أخاه المسلم»[3].

السبب الثالث: الكبر بالنسب والحسب، فالذي له حسب شريف يستحقر من ليس له ذلك الحسب، وإن كان أرفع منه عملاً وعلماً، وقد يتكبر بعضهم فيرى الناس له موالي وعبيداً ثم يأنف من خلطتهم ومجالستهم وثمرة ذلك على اللسان التفاخر به فيقول لغيره يا نبطي يا هندي يا رومي من أنت ومن أبوك وأنا فلان بن فلان وأنى لمثلك أن يكلمني أو ينظر إلي وإنما أتكلم مع مثلي، وهذا هو الداء الدفين الذي لا ينفك عنه من كان له حسب فاخر وأصل شريف وإن كان صالحاً عاقلاً، خلا أنه قد ربما لا يلتفت إلى ذلك عند اعتدال الأحوال وكف الغضب واستواء المزاج، فأما إذا غضب أو حمي مزاجه أطفأ ذلك نور بصيرته ونسي ما كان عليه من العقل والصلاح كما روي عن أبي ذر قال: تناولت رجلاً عند الرسول ﷺ فقلت له: يا ابن السوداء فقال الرسول ﷺ: «يا أبا ذر

---

(١) انظر إحياء علوم الدين ٣/ ٤٣٠.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: البر والصلة رقم الحديث ١٣٩ عن أبي هريرة وأبو داود في السنن: الأدب رقم الحديث ٢٩٨٣ ومالك في الموطأ كتاب الكلام رقم الحديث ٢ وأحمد في المسند ٢/ ٣٧، ٣٤٢، ٤٦٥، ٥١٧ والبخاري في الأدب المفرد رقم ٧٥٩.

(٣) رواه مسلم في البر والصلة رقم الحديث ٣٢ بلفظ (بحسب المرء من الشر...) من حديث أبي هريرة وابن ماجه في السنن: الزهد رقم ٤٢١٣ وابن أبي الدنيا في التواضع والخمول رقم الحديث ٣٠، ٣١، ٣٢ واللفظ له.

طف الصاع ليس لابن بيضاء على ابن سوداء فضل، قال أبو ذر: فاضطجعت وقلت للرجل: فطأ على خدي»[1].

السبب الرابع: التفاخر بالجمال وذلك يجري في الأكثر بين النساء، ومن ذلك ما روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: دخلت امرأة على الرسول ﷺ فقلت بيدي هكذا أي إنها قصيرة، فقال النبي ﷺ: «قد اغتبتيها»[2].

السبب الخامس: الكبر بالمال وذلك يجري بين الملوك في الخزائن وبين التجار في بضائعهم وبين الزرعة في أرضهم وبين المتجملين في لباسهم وخيولهم ومراكبهم فيستحقر الغني الفقير ويتكبر عليه ويقول له: أنت مقل ومسكين وفقير وأنا لو شئت لاشتريت مثلك واستخدمت من هو فوقك ومن أنت وما معك وأثاث بيتي يساوي جميع ما تملك وأنا أنفق في اليوم الواحد ما تأكله في السنة، وكل ذلك لاستعظامه الغني واستحقاره الفقر، وهذا منه جهل بآفة الغني وآفة الفقر وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿**فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً**﴾ (الكهف: ٣٧) حتى أجابه وقال كما حكى الله تعالى: ﴿**إن ترني أنا أقل منك مالاً وولداً فعسى ربي أن يؤتيني خيراً من جنتك ويرسل عليها**﴾ (الكهف: ٣٩ ـ ٤٠) إلى قوله: ﴿**طلباً**﴾ (الكهف: ٤١)، فكل ذلك تكثر منه بالمال والولد، ثم إن الله تعالى بين أن عاقبة أمره بإخباره عنه بما ذكر في آخر الآية، ومن ذلك تكبر قارون إذ قال الله تعالى: ﴿**فخرج عن قومه في زينته**﴾ (القصص: ٧٩) حتى قال: ﴿**يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون**﴾ (القصص: ٧٩).

السبب السادس: الكبر بالقوة وشدة البطش والتكبر فيه حاصل على أهل الضعف فأهل العافية يتكبرون على أهل المرض والزمانة، وهكذا حال الأعداء، فإن من ضعف

---

(١) أخرجه ابن المبارك في البر والصلة، انظر تخريج الإحياء للعراقي استخراج أبي عبدالله محمود الحداد رقم الحديث ٣٢٢٦.

ولأحمد في المسند ٥/ ١٦١ (أن النبي ﷺ قال له: انظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بالتقوى) وله شاهد في الصحيحين أنه ساب رجلاً فعيره بأمه... فقال له النبي ﷺ: (إنك رجل فيك جاهلية). انظر صحيح البخاري: الأيمان رقم الحديث ٣٠ ومسلم في الإيمان رقم الحديث ٣٨ ـ ٤٠.

وأخرجه أبو داود في السنن: الأدب رقم الحديث ٥١٥٧.

(٢) رواه أحمد في المسند ٦/ ١٣٦، ٢٠٦، ٢٠٧ من حديث عائشة، وابن أبي الدنيا في الصمت ٢٨٣ وفي ذم الغيبة.

وأبو الشيخ في التنبيه والتوضيح رقم الحديث ١٨٨، ١٩٧، ١٩٩ والخرائطي في مساوىء الأخلاق رقم ٢٠٣ ورواه البيهقي في الشعب وابن مردويه في تفسيره وأصله عند أبي داود في الأدب رقم الحديث ٤٨٧٥ والترمذي رقم ٢٦٢٤ عن عائشة.

عن لقاء عدوه فإن القوي منهما يتكبر بقوته على الآخر، وهكذا حال الملوك فإن الملك الضعيف يقهره الملك القوي بالأموال والجنود الكثيرة والعساكر الجمة ومن ضعف عن ذلك فالقوي يتكبر عليه، ومن عادة الملك التفاخر والتكاثر والتغالب، ولهذا أشار تعالى في تقرير الوحدانية بقوله تعالى: ﴿ **إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض** ﴾ (المؤمنون: ٩١) فالتعالي من شأن الملوك، ومن شأنهم أيضاً أن كل واحد منهم يتطاول على الآخر كما قال تعالى: ﴿ **إذاً لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً** ﴾ (الإسراء: ٤٢) فكل ما ذكره دلالة على التكبر والعلو[١].

السبب السابع: التكبر بكثرة الأتباع والأنصار والتلامذة والغلمان والعشيرة والأقارب والبنين والحفدة، ويجري ذلك بين الملوك بالمكاثرة بالجنود، وبين العلماء في المكاثرة بالدرسة والتلامذة وأهل الفائدة، وعلى الجملة فكل من هو في نعمة وأمكن أن يعتقد كمالاً وإن لم يكن في نفسه كمال أمكن أن يتكبر به، وكذلك السفلة من الخلق وساسة الدواب والجمالين وسائر أهل الفسوق من الشربة والزناة، وقد يفتخر بعضهم على بعض بكثرة ملابستهم لأنواع الفسق من الزنا وشرب المسكر وجميع أنواع الفسقية لظنهم أن ذلك كمال وإن كان مخطئاً فيه[٢].

فهذه مجامع ما يتكبر به العباد كل واحد منهم على الآخر فيتكبر من يدلي بشيء منه على من لا يدلي بشيء أو على من يدلي بما هو دونه في اعتقاده، وربما كان مثله أو فوقه عند الله تعالى كالعالم الذي يتكبر بعلمه على من هو أعلم منه لظنه أنه الأعلم ويحسن اعتقاده في نفسه[٣] والله أعلم بالصواب.

التنبيه الخامس
في بيان الأمور الباعثة على الكبر

إعلم حمانا الله وإياك عن آفة الكبر أن الكبر خلق باطن كما أشرنا إليه فأما ما يظهر من الأخلاق والأفعال فهو ثمرته ونتيجته، وجملة ما نشير إليه من الأسباب الباعثة عليه أربعة:

الباعث الأول: العجب فإنه يورث التكبر كما سنوضح القول فيه بمعونة الله تعالى

---

(١) انظر إحياء علوم الدين ٣/ ٤٢٥.

(٢) انظر إحياء علوم الدين ٣/ ٤٢٥.

(٣) انظر إحياء علوم الدين ٣/ ٤٢٥.

فإنه يورث الكبر الباطن، والكبر الباطن يورث الكبر الظاهر في كل الأعمال والأحوال[1].

الباعث الثاني: الحقد فإنه قد يحمل على التكبر من غير عجب كالذي يتكبر على من يرى أنه مثله أو فوقه ولكن قد غضب عليه بسبب سبق منه فأورثه الغضب حقداً وترسخ في قلبه فهو لذلك لا تطاوعه نفسه أن يتواضع له وإن كان عنده أنه مستحق للتواضع، فكم من رجل لا تطاوعه نفسه للتواضع لواحد من الأكابر لحقده عليه ولبغضه له ويحمله ذلك على رد الحق إذا جاءه من جهته، وعلى الأنفة من قبول نصحه، وعلى أن يجتهد في التقدم عليه وإن علم أنه لا يستحق ذلك، وعلى أن لا يستحل منه وإن ظلمه ولا يعتذر إليه وإن جنى عليه ولا يسأله عما هو جاهل به[2].

الباعث الثالث: الحسد أيضاً فإنه يوجب البغض للمحسود وإن لم يكن من جهته إبداء سبب يقتضي الغضب والحقد، ويدعو الحسد أيضاً إلى جحد الحق حتى يمتنع عن قبول النصح وتعلم العلم فكم من جاهل اشتاق إلى العلم وقد بقي في رذيلة الجهل لاستكافه أن يستفيد من واحد من أهل بلده وأقاربه حسداً أو بغياً عليه فهو يعرض ويتكبر عليه مع معرفته بأنه يستحق التواضع لفضل علمه، ولكن الحسد يبعثه على أن يعامله بأخلاق التكبر وإن كان في باطنه ليس يرى نفسه فوقه[3].

الباعث الرابع: الرياء فهو أيضاً يدعو إلى أخلاق المتكبرين حتى إن الرجل ليناظر من يعلم أنه أفضل منه وليس بينه وبينه معرفة ولا محاسدة ولا حقد ولكن يمتنع من قبول الحق منه، ولا يتواضع له بالاستفادة خيفة من أن يقول الناس: إنه أفضل منه فيكون باعثه على التكبر عليه الرياء المجرد، ولو خلا بنفسه لكان لا يتكبر عليه، فأما الذي يتكبر بالعجب والحسد والحقد فإنه يتكبر عند الخلوة مهما لم يكن معهما ثالث، بخلاف الرياء كما قررناه فإنه لا بد أن يكون على ملأ من الناس.

التنبيه السادس
في بيان حال المتكبر عليه

إعلم أن المتكبر عليه لا يخلو إما أن يكون هو الله تعالى أو رسله أو سائر الخلق

---

(١) انظر إحياء علوم الدين ٣/ ٤٢٥.

(٢) انظر إحياء علوم الدين ٣/ ٤٢٧.

(٣) انظر إحياء علوم الدين ٣/ ٤٢٧.

وقد خلق الإنسان ظلوماً جهولاً فتاره يتكبر على الخالق وتارة على أنبيائه وتارة على سائر الناس، فهذه ضروب ثلاثة:

الضرب الأول: التكبر على الله جل وعلا وذلك هو أفحش أنواع التكبر ولا مثار له سوى الجهل المحض والطغيان مثل ما كان من النمرود بن كنعان فإنه كان يحدث نفسه بأنه كان يقاتل ملك السماء، وكما يحكى عن جماعة من أهل الحماقة والجهل مثلما يحكى عن فرعون حيث ادعى الربوبيَّة وقال: ﴿**أنا ربكم الأعلى**﴾ (النازعات: ٢٤) واستنكف أن يكون عبداً لله عز وجل وأراد الصعود إلى السماء للإطلاع إلى رب السماء كما قال تعالى حكاية لقوله: ﴿**فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلي أطلع إلى إله موسى**﴾ (القصص: ٣٨ وآية غافر: ٣٦) ﴿**يا هامان ابن لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب**﴾.

الضرب الثاني: التكبر على الرسل حيث يعزز النفس ويرفعها عن الانقياد لبشر من الناس كما حكى الله تعالى في قوله تعالى: ﴿**أنؤمن لبشرين مثلنا**﴾ (المؤمنون: ٤٧) وذلك تارة يصرف عن الفكر والاستبصار فيبقى في ظلمة الجهل بكبره فيمتنع عن الانقياد وهو ظان أنه محق فيه وتارة يمتنع مع المعرفة ولكن لا تطاوعه نفسه على الانقياد للحق والتواضع للرسل كما حكى الله جل وعلا عن قولهم: ﴿**ما أنتم إلا بشر مثلنا**﴾ (يٓس: ١٥) وقوله تعالى: ﴿**ولئن أطعتم بشراً مثلكم**﴾ (المؤمنون: ٣٤)، وقوله تعالى: ﴿**لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عُتوا كبيراً**﴾ (الفرقان: ٢١)، وقال: ﴿**فاستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق**﴾ (القصص: ٣٩).

وقال وهب: قال فرعون لما قال له موسى: آمن ولك ملكك قال: أشاور هامان فشاور هامان، فقال هامان: بينما أنت رب تعبد إذ صرت عبداً تعبد فاستكبر عن عبودية الله تعالى وعن اتباع موسى[1]، وقالت قريش: ﴿**لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم**﴾ (الزخرف: ٣١) يريدون إما نزل القرآن على الوليد بن المغيرة وإما على عروة بن مسعود الثقفي فهما الرئيسان في القريتين مكة والطائف[2].

الضرب الثالث: التكبر على العباد وذلك بأن يستعظم نفسه ويستحقر غيره فتأبى نفسه عن الانقياد لهم وتدعوه إلى الترفع عليهم فيزدريهم ويستصغرهم ويأنف من مساواتهم وهذا وإن كان دون الأول والثاني فهو أيضاً عظيم لأمرين، أحدهما: أن الكبر

---

(١) انظر إحياء علوم الدين ٣/ ٤٢٨.

(٢) انظر إحياء علوم الدين ٣/ ٤٢٨.

والعزة والعظمة والعلى لا تليق إلا بالملك القادر، فأما العبد الملوك الضعيف العاجز الذي لا يقدر على شيء فمن أين يليق به الكبر فمهما تكبر العبد فقد نازع الله تعالى في صفة لا تليق إلا لجلاله، وثانيهما: أن الذي تعظم به رذيلة الكبر أنه يدعو إلى مخالفة الله تعالى في أوامره لأن المتكبر إذا أسمع الحق من عبد من عباد الله تعالى استنكف عن قبوله وشمر لجحده ولهذا فإنك ترى من تعاظم وتكبر يعد خلقه من أخلاق الكافرين والمنافقين إذ وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿**وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون**﴾ (فصلت: ٢٦) فكل من ناظر للغلبة والإفحام لا لتعليم الحق إذا ظفر به فقد شاركهم في هذا الخلق[١].

ويحمل على ذلك كله الأنفة عن قبول الحق كما قال عز وجل: ﴿**وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد**﴾ (البقرة: ٢٠٦).

وروي أن عمر لما قرأها قال: إنا لله وإنا إليه راجعون[٢] وقال ابن مسعود: كفى بالرجل إثماً إذا قيل له اتق الله أخذته العزة[٣]، وقال الرسول ﷺ لرجل: كل بيمينك، فقال: لا أستطيع، فقال: لا استطعت فما منعه إلا الكبر فما رفعها بعد ذلك إلا اعتلت يده حتى بطلت[٤].

التنبيه السابع
في بيان علاج الكبر وإزالته

إعلم أن الكبر من عظائم المهلكات ولا يخلو أحد من الخلق عن شيء منه وإزالته على الخلق من فروض الأعيان اللازمة وهو لا يزول بمجرد التمني وإنما يزول بالمعالجة والاجتهاد، وعلاجه يكون إما باستئصال أصله ونسخه وقطع شجرته من مغرسها في القلب، وإما بدفع الأسباب الجالبة له التي يتكبر بها الإنسان، فهذان مقامان:

المقام الأول: استئصال أصله وقلع آثاره، ولا يتم الشفاء من ذلك إلا بإعمال

---

(١) انظر إحياء علوم الدين ٣/ ٤٢٨.

(٢) الأثر المروي عن عمر ذكره الغزالي في الإحياء ٣/ ٤٢٩.

(٣) أخرجه وكيع وابن المنذر والطبراني والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود. انظر الدر المنثور للسيوطي ١/ ٥٧٥.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الأشربة رقم الحديث ١٠٧ عن سلمة بن الأكوع.

التقوى[1] في قطع المادة وذلك يتم بأمرين علمي وعملي، فأما الأمر العلمي: فهو أن يعرف نفسه وحقارتها ويعرف ربه وما يستحقه من العظمة والكبرياء ويكفيه ذلك في إزالة الكبر عن نفسه فإنه مهما عرف نفسه حق المعرفة عرف أنه أذل من كل ذليل وأقل من كل، قليل لا يليق به إلا التواضع والذلة والمهانة، وإذا عرف ربه عرف أنه لا تليق العظمة والكبرياء إلا لذاته، ويكفيه من ذلك آية واحدة في الدلالة على الجلال والعظمة وهي قوله تعالى: **﴿إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العلمين﴾** (الأعراف: ٥٤) فقد أشار بهذه الآية إلى العظمة بخلق هذه المكونات الباهرة بل أجمل الأمر في آخر الآية بأن الخلق والأمر بيده من الأفعال الحكيمة والأوامر السماوية التي لا مصدر لها سواه ولا يملكها إلا هو[1].

وأما معرفة الإنسان نفسه فقد أشار بها إلى آيات من كتابه وهي كافية في المطلوب وهي قوله عز وجل: **﴿قتل الإنسان ما أكفره، من أي شيء خلقه، من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره. ثم أماته فأقبره. ثم إذا شاء أنشره. كلا لما يقض ما أمره﴾** (عبس: ١٧ - ٢٣) فقد أشار عز وجل في هذه الآيات إلى أول الخلقة بقوله تعالى: **﴿من نطفة خلقه﴾** (عبس: ١٩) على جهة الاستحقار وإلى آخره بقوله عز وجل: **﴿ثم أماته فأقبره﴾** (عبس: ٢١) على جهة التهاون بحاله، وإلى وسط أمره بقوله: **﴿ثم السبيل يسره﴾** (عبس: ٢٠) ثم أشار بعد هذه الأطوار الثلاثة إلى مخالفته للأمر بسوء رأيه وقبح اختياره بقوله عز وجل: **﴿كلا لما يقض ما أمره﴾** (عبس: ٢٣) أشار بعد ذلك إلى عاقبة الأمر بالبعث والحشر: **﴿ثم إذا شاء أنشره﴾** (عبس: ٢٢).

فهذه الآيات كافية في معرفة الإنسان لحال نفسه وتفصيل أمره فقد ظهر لك أول حال الآدمي ووسطه ولو ظهر آخره والعياذ بالله ربما اختار أن يكون كلباً أو خنزيراً ليصير مع البهائم تراباً ولا يكون إنساناً يسمع خطاباً ويلقى عذاباً، فإن كان عبد الله تعالى يستحق عذاباً فالخنزير أشرف منه وأطيب وأرفع قدراً، لأن أوله تراب وآخره التراب وهو بمعزل عن الحساب والعذاب، والكلب والخنزير لا يهرب منهما أحد من الخلق ولو رأوا العبد المذنب في النار لصعقوا من وحشة ما يرون به في خلقته وقبح صورته ولو وجدوا ريحه لماتوا، ولو وقعت قطرة من شرابه الذي يسقى منه في بحار الدنيا لصارت أنتن من الجيفة، فما لمن حاله هذه والتكبر، بل ما له وللفرح في لحظة واحدة فضلاً عن البطر

---

(١) انظر إحياء علوم الدين ٣/ ٤٢٩.

والتبختر، فهذا هو العلاج العلمي القاطع لأصل الكبر والمزيل لقراره[1] والله أعلم بالصواب .

وأما الأمر العملي في علاج الكبر فهو التواضع بالعمل لله تعالى ولسائر الخلق بالمواظبة على أفعال المتواضعين كما سنقرر أخلاق المتواضعين بعد هذا بمعونة الله تعالى عز وجل وبالاقتباس من سيرة رسول الله ﷺ وأخلاق أهل الصلاح حتى إنه كان يأكل على الأرض ويقول: «أنا عبد آكل كما يأكل العبد»[2]، وقيل لسليمان: ألا تلبس ثوباً جديداً؟ فقال: إنما أنا عبد فإذا أعتقت لبست أشار بهذا إلى عتق الرقبة من العذاب في الآخرة، ولهذا أمرنا بالصلاة لما فيها من الخضوع والخشوع والانحطاط في الأرض وتعفير الخدود بالتراب عند السجود وإلصاقها بالتراب عند التيمم، كل ذلك أمر بالتواضع فجميع العبادات كلها من الصلاة والصيام والحج فيها نهاية الخضوع لعظمة الله تعالى فلينظر الإنسان في كل ما يتقاضاه الكبر من الأفعال فليواظب على نقائضها حتى يصير التواضع له خلقاً فإن القلوب لا تتخلق بالأخلاق المحمودة إلا بالعلم والعمل جميعاً، فهذا هو العلاج في قطع الكبر بالكلية وإبطال أمره[3] .

المقام الثاني: في بيان إبطاله بقطع أسبابه السبعة التي ذكرناها، فأما من يتكبر بنسبه فمداواته بأمرين أما أولاً: فقد تعزز بغيره وكماله، وقيل: من كان عزه بغيره فذله بذاته، وأما ثانياً: فلأن أباه القريب خلق من نطفه قذرة وأما أبوه البعيد فإنه مخلوق من تراب، فأما من يتكبر بالجمال فدواؤه أن ينظر إلى ما هو مشتمل عليه في باطنه وظاهره فإن القذر يحتوي على جميع أجزائه فالعذرة في جميع أمعائه والبول في مثانته والمخاط في أنفه والبصاق في فيه والوسخ في أذنيه والدم في عروقه والصديد تحت بشرته والذفر في إبطه والبول في الإحليل والغائط في الدبر، يتردد كل يوم إلى الخلاء مراراً كثيرة

---

(١) انظر إحياء علوم الدين ٣/ ٤٢٩ .

(٢) رواه ابن عدي في الكامل ٥/ ١٩٧١ عن أنس والبزار في مسنده انظر كشف الأستار عن زوائد البزار عنه رقم الحديث ٢٣٦٩، والديلمي في مسند الفردوس رقم الحديث ٣٦٢ عنه وأبو الشيخ في أخلاق النبي ص ٢١٣ من حديث عائشة وعن جابر ص ٢١٢ ورواه الدارقطني في الأفراد وابن عساكر من حديث البراء ورواه هناد في الزهد من حديث الحسن مرسلاً. ورواه أبو يعلى من حديث عائشة بسند ضعيف وعبد الرزاق في مصنفه معضلاً من رواية أيوب ومن رواية الضحاك من حديث أنس بسند ضعيف والبزار من حديث ابن عمر أيضاً.
انظر تخريج أحاديث الإحياء للعراقي ٢/ ٤٧١ .

(٣) انظر إحياء علوم الدين ٣/ ٤٤٦ .

فيخرج من باطنه ما لو رآه بعينه لاستقذره فضلاً أن يمسه أو يشمه، كل ذلك ليعرف قذارته وذله وهوانه، ثم إنه في أول خلقه خلق من الأقذار البشعة من النطفة القذرة ومن دم الحيض وجرى في مجرى البول وفي مجرى الحيض، فهذه كلها لا ينفك عنها[1].

وأما من يتكبر بالقوة والشدة فمداواة ذلك بما يعلم ويتحقق مما يسلط عليه من الأمراض والعلل وأنه لو وجع عرق واحد من بدنه لكان أعجز من كل عاجز وأذل من كل ذليل، وأنه لو يسلبه الذباب شيئاً ما استنقذه منه، وأن نملة لو دخلت أذنه قتلته، أو بقة دخلت أنفه لفات روحه، وأما من يتكبر بالغنى وكثرة المال فما هذا حاله هو أقبح أنواع التكبر لأنه تعزز بالغير وتكبر به، وكل متكبر بأمر خارج من وراء ذاته فهو جهل ظاهر لأن الأمور الخارجة من المال كالدور والعقار والدواب والفرس والأثاث كله أقرب إلى التغير والزوال[2].

وإما تكبره بالعلم فهذا أيضاً من أعظم الآفات وأبعدها عن العلاج إلا بشدة شديدة وجهد جهيد. ودواء ذلك يكون بأمرين أما أولاً: فهو أن العالم يتحقق أن الكبر إنما يليق بعظمه الله وجلاله، فإذا تكبر صار بغيضاً لله تعالى ممقوتاً، عنده، وأما ثانياً: فلأنه يعلم أن حجة الله تعالى على العلماء أوكد، وأنه يحتمل للجاهل ما لا يحتمل للعالم، وأن كل من عصى الله تعالى من غير معرفة كان أقرب ممن عصى الله عن معرفة، وقد قال ﷺ: «يؤتى بالعالم يوم القيامة، فيلقى في النار فتنزلق أقتابه فيدور كما يدور الحمار بالرحى فيطيف به أهل النار، فيقولون: ما لك؟ فيقول: كنت آمر بالخير ولا أفعله وأنهى عن الشر وأفعله[3]، وأما من يتكبر بكثرة الأتباع والأشياع والأنصار والخدم والتلامذة فكله جهل لأنهم أسرع ما يكون إلى المفارقة والانقطاع عنه في أقرب الأوقات، وأيضاً فإنه تعزز بالغير وكل ما كان من التعزز بالغير فهو نقص لا محالة[4].

---

(١) انظر إحياء علوم الدين ٣/ ٤٤٦.

(٢) انظر إحياء علوم الدين ٣/ ٤٤٦.

(٣) متفق عليه من حديث أسامة بن زيد بلفظ «نبؤني بالرجل» أخرجه البخاري في صحيحه بدء الخلق الباب ١٠ رقم الحديث ٣٢٦٧. ومسلم في الزهد رقم الحديث ٥١ وأحمد في المسند ٥/ ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٩ ولابن النجار في تاريخه بلفظ يؤتى بعلماء السوء يوم القيامة فيقذفون في نار جهنم فيدور أحدهم في جهنم... الحديث عن أنس وأخرجه أيضاً الحميدي وابن أبي عمر العدني. انظر تخريج أحاديث إحياء علوم الدين لأبي عبدالله محمود بن محمد الحداد رقم الحديث ٣٢٣٩.

(٤) انظر إحياء علوم الدين ٣/ ٤٤٧.

وإما التكبر بالورع والزهد والعبادة فمداواة ذلك أن يلزم نفسه التواضع لسائر الخلق ويعرف ما في الكبر من الخطر العظيم فلعل ذلك يدعوه إلى ترك التكبر، فهذه مجامع أسباب الكبر قد أشرنا إلى مداواتها على جهة الاختصار وهي سهلة على من وفق الله تعالى وعرفه قدر نفسه وامتحن قلبه للتقوى، فنسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن استخلصه إلى بلوغ الغاية من كرمه ورضوانه وظفر بالفوز من مزيد كرمه وإحسانه (١).

التنبيه الثامن

في بيان ما يظهر فيه من التواضع والتكبر

اعلم ان التكبر ربما يظهر في شمائل الرجل وهذا نحو صعّر وجهه ونظره شزراً وإطراقه رأسه وجلوسه متربعاً ومتكئاً، وفي أقواله حتى في صوته ونغمته، فمن المتكبرين من يجمع ذلك كله. ومنهم من يختص بشيء دون شيء وجملة ما نورده من ذلك عشرة أمور.

أولها: التكبر بأن يحب قيام الناس في وجهه وبين يديه، وقد قال ﷺ: «من أحب أن يقام في وجهه فليتبوأ مقعده من النار»(٢)، وقال ﷺ: «من أحب أن تمثل له الرجال صفوفاً فليتبوأ مقعده من النار»(٣).

وثانيها: أن لا يمشي إلا ومعه غيره لما روى أبو الدرداء: «لا يزال العبد يزداد من الله بعداً مهما مشى خلفه»(٤).

وثالثها: أن يتكبر من زيارة غيره، وروي أن سفيان قدم الرملة فبعث إليه

---

(١) انظر إحياء علوم الدين ٣/ ٤٤٧.

(٢) انظر تخريج الحديث الآتي بعد هذا فهو جزء منه.

(٣) أخرجه أبو داود في السنن الأدب باب قيام الرجل للرجل رقم الحديث ٥٢٢٩ بلفظ «من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً» وأخرجه الترمذي في السنن الأدب باب كراهية قيام الرجل للرجل رقم الحديث ٢٧٥٦، من حديث معاوية ابن أبي سفيان وحسنه وأخرجه أحمد في المسند ٤/ ٩١، ٩٣، ١٠٠ والبخاري في الأدب المفرد ص ٣٣٩، رقم الحديث ٩٧٧ بلفظ من سره أن يتمثل له عباد الله قياماً فليتبوأ بيتاً في النار، وأخرجه الدولابي في الكنى ١/ ٩٥ وأبو نعيم في أخبار أصبهان ١/ ٢١٩ والخطيب في تاريخ بغداد ١٣/ ١٩٣ والبيهقي في الأدب الكبير ص ١٩٥ - ١٩٦ رقم الحديث ٣٢٥، والطحاوي في مشكل الآثار ٢/ ٤٠، والمخلص في فوائده المنتقاة وابن جرير وابن عساكر والطبراني عن عمرو بن مرة انظر مجمع الزوائد ٨/ ٤٠ وصحح إسناده المنذري في الترغيب والترهيب وحسنه السيوطي في الجامع الصغير رقم الحديث ٨٣١٥ وانظر الصحيحة للألباني رقم الحديث ٣٥٧.

(٤) انظر إحياء علوم الدين ٢/ ٢٦١.

إبراهيم بن أدهم أن تعال فحدثنا، فجاءهم سفيان، فقالوا له: يا أبا إسحق تبعث إليه لمثل هذا، فقال: أردت أن أدري كيف تواضعه لله تعالى؟[1].

رابعها: أن يستنكف عن جلوس غيره بالقرب منه ويحب الجلوس بين يديه، والتواضع خلاف ذلك، حكى أنس بن مالك أن الوليدة من ولائد المدينة كانت تأخذ بيد رسول الله ﷺ فلا ينزع يده منها حتى تذهب حيث شاءت من نفسها[2].

وخامسها: أن يتوقى في مجلسه من المرضى والمعلولين ويتجافى عن الجلوس معهم، فما هذا حاله من الكبر، وكان عبدالله بن عمر لا يحبس عن طعامه مجذوماً ولا أبرص ولا مبتلي إلا أقعدهم على مائدته[3].

وسادسها: أن يتكبر عن تعاطي شغل في بيته والتواضع خلاف ذلك، وروي عن عمر بن عبد العزيز أنه كان يوماً يكتب فأراد السراج ينطفي فقال الضيف: نقوم فنصلحه فقال: ما كان للرجل أن يستخدم ضيفه، قالوا: فنبه العبد، قال: لا لأنها لأول نومة نامها فوضع القلم من يده وأخذ البطة وملأ السراج زيتاً، فقال الضيف: قمت أنت بنفسك، فقال: قمت وأنا عمر، وقعدت وأنا عمر خير الناس من كان لله متواضعاً[4].

وسابعها: اللباس إذ به يظهر التكبر والتواضع، قال الرسول ﷺ: «البذاذة من الإيمان»[5]، قال هارون: سألت معناً عن البذاذة، فقال: هو الدون من اللباس، وقال

---

(١) انظر إحياء علوم الدين ٢/ ٢٦١.

(٢) أخرجه ابن ماجه في السنن: الزهد رقم الحديث ٤١٧٧ من حديث أنس وفي إسناده علي بن زيد بن جدعان وأخرجه أحمد في المسند ٣/ ١٧٤، ٢١٦ وقال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ٢/ ٢٥٠ ولأبي داود والترمذي وابن ماجه نحوه من حديث أنس بسند ضعيف.
انظر سنن الترمذي أبواب صفة القيامة رقم الحديث ٢٤٩٠ وقال غريب وابن ماجه في السنن: الأدب رقم الحديث ٣٧١٦ وفيه زيد العمي وهو ضعيف.
وللطبراني في الأوسط نحوه عن أبي هريرة بإسناد حسن.
وأخرجه الحارث بن أبي أسامة وابن سعد في الطبقات الكبرى وأبو نعيم في الحلية من حديث أنس، انظر تخريج أحاديث الإحياء استخراج أبي عبدالله محمود بن محمد الحداد رقم الحديث

(٣) انظر إحياء علوم الدين ٣/ ٤٤٠.

(٤) انظر إحياء علوم الدين ٣/ ٤٤٠.

(٥) أخرجه أبو داود في السنن أول كتاب الترجل الباب رقم ١ والحديث رقم ٤١٦١ وابن ماجه في السنن الزهد رقم ٤١١٨، وابن أبي الدنيا في التواضع والخمول رقم الحديث ١٢٨، ١٢٩ من حديث أبي أمامة عن ابن كعب بن مالك عن كعب بن مالك وأخرجه الطبراني والحاكم في الكنى وفي المستدرك والبيهقي وأبو نعيم والضياء في المختارة. انظر تخريج الإحياء ٣/ ٤٤٠ واستخراج أبي عبدالله محمود الحداد رقم الحديث ٦٢٣٣، ٣٦٣٦.

زيد بن وهب: رأيت عمر بن الخطاب خرج إلى السوق وبيده الدرة وعليه إزار فيه أربع عشرة رقعة من أدم[1]، وعوتب أمير المؤمنين كرم الله وجهه في إزار مرقوع، فقال: يقتدي به المؤمن ويخشع القلب[2]، وقال عيسى صلوات الله عليه: جودة الثياب خيلاء القلب[3].

وثامنها: أن يتواضع بالإحتمال إذا سُب أو أوذي وأخِذ حقه فما هذه حاله أصل عظيم يجب أن يراعى في خلق التواضع وقد جرت به عادة السلف الصالح أعني احتمال الأذى والصبر على البلوى[4].

وتاسعها: أن يعلم أن مجامع حسن الأخلاق هو التواضع وهو سيرة رسول الله ﷺ فينبغي أن يقتدى به ويحسن أن يتعلم منه، وقد قال بعض الصحابة لأبي سعيد الخدري: ما ترى فيما أحدث الناس من المأكل والمشرب والمركب والمطعم؟، فقال: يا ابن أخي كل لله واشرب لله والبس لله، وكل شيء من ذلك دخله زهو أو مباهاة أو رياء أو سمعة فهو معصية وسرف، وعالج الخدمة في بيتك كما كان الرسول ﷺ، يعالج في بيته كأن يعلف الناقة ويخصف النعل، إلى غير ذلك من الأفعال التي يباشرها ويلابس فعلها وبالله التوفيق[5].

ولنختم كلامنا في هذا الباب بإيراد الإمتحانات الدالة على البراءة من الكبر، اعلم أن النفوس قد تعد بكونها متبرئة عن الكبر وهي كاذبة في هذه الدعوى والوعد فلا بد من إظهار الإمتحان لما فيه من استخراج الباطن وحكم القريحة والإمتحانات كثيرة لكننا نورد ما هو خاص منها، وجملة ما نورده فيها خمسة[6]:

الإمتحان الأول: أن يناظر في مسألة مع واحد من أقرانه فإن ظهر شيء من الحق

---

(١) انظر إحياء علوم الدين ٣/ ٤٤٠.

(٢) انظر إحياء علوم الدين ٣/ ٤٤٠.

(٣) انظر إحياء علوم الدين ٣/ ٤٤٠.

(٤) انظر إحياء علوم الدين ٣/ ٤٤٠.

(٥) أخرجه أحمد في المسند ٦/ ١٠٦، ١٢١، ١٦٧، ٢٤٢، ٢٦٠ ولفظه قيل لعائشة ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته قالت. كما يصنع أحدكم يخصف نعله ويرقع ثوبه، وأخرجه أبو الشيخ في أخلاق النبي ﷺ ص ٦٢ - ٦٣ عنها، وللبخاري نحوه عنها كان في مهنة أهله. انظر صحيح البخاري، وانظر تخريج أحاديث الإحياء ٢/ ٤٥٩ وقال رجال أحمد رجال الصحيح.

(٦) انظر إحياء علوم الدين ٢/ ٤٥٩.

على لسان صاحبه فثقل قبوله والإنقياد له والإعتراف به والشكر عليه حيث نبهه عليه وعرفه وأخرجه عن ظلمة الجهل به فذلك يدل على أن فيه كبراً دفيناً، فليتق الله فيه وليشتغل بعلاجه وليقرر في نفسه بأن الكبر لا يليق إلا بالله تعالى وأن يكلف نفسه قبول ذلك ويقهرها عليه[1].

الإمتحان الثاني: أن يجتمع الأقران والأعوان معك في المحافل والمشاهد وتقدمهم على نفسك وتمشي خلفهم وتجلس في المجالس النازلة، فإن ثقل ذلك عليك فأنت متكبر فلتواظب عليه حتى يسقط عنك ثقله فإنك تزايل الكبر لا محالة، وإنما يظهر في تقديم الأقران عليك، فأما تقديم الأراذل فليس يظهر في تقديمهم تواضع ولكنه يظهر بما ذكرناه والله أعلم[2].

الإمتحان الثالث: أن تجيب دعوة الفقير وتمر إلى السوق في حاجة الرفقاء والأقارب وحوائج أهل بيته فإن ثقل عليك فهو كبر، فإن هذه الأفعال من مكارم الأخلاق، والثواب عليها من جهة الله تعالى جزيل فنفور النفس عنها ليس إلا كبراً في النفس مستكناً في الباطن فليشتغل في إزالته بالمواظبة عليه مع تذكر جميع ما ذكرناه من الأمور المزيلة له وليستعن بالله تعالى[3].

الإمتحان الرابع: أن يحمل حاجة نفسه وحاجة غيره من الأهل والجيران من السوق إلى البيت، فإن أبت نفسه فهو كبر، وفي الحديث من حمل سلعته من السوق فقد بريء من الكبر[4]، وحكي عن عبدالله بن سلام أنه حمل حزمة حطب فقيل له: يأ أبا يوسف قد كان في غلمانك وبيتك من يكفيك، قال: أجل ولكني أردت أن أجرب نفسي هل تنكر ذلك أم لا؟ فلم يقنع بما أعطي من العزم حتى صدق العزم بالفعل على ترك الأنفة[5].

الإمتحان الخامس: أن تلبس الثياب النازلة الركيكة فإن نفور النفس عن ذلك دال على الكبر، وروي أن عمر بن عبد العزيز كان له مسح يلبسه بالليل[6]، وقال ﷺ: «من

---

(١) انظر إحياء علوم الدين ٢/ ٤٥٩.

(٢) انظر إحياء علوم الدين ٢/ ٤٥٩.

(٣) انظر إحياء علوم الدين ٢/ ٤٥٩.

(٤) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان من حديث أبي أمامة بلفظ من حمل بضاعته، انظر تخريج أحاديث إحياء علوم الدين للعراقي ٣/ ٤٥٦.

(٥) انظر إحياء علوم الدين ٣/ ٤٥٦.

(٦) انظر إحياء علوم الدين ٣/ ٤٥٦.

اعتقل البعير ولبس الصوف فقد برىء من الكبر»[1]، وقال ﷺ: «إنما أنا عبد آكل على الأرض وألبس الصوف وأعتقل البعير وألعق أصابعي وأجيب دعوة المملوك فمن رغب عن سنتي فليس مني»[2]، فهذا ما أردنا ذكره في باب الكبر والله أعلم.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب التواضع والخمول رقم الحديث ١٥٧ والبيهقي في شعب الإيمان من حديث أبي هريرة بسند ضعيف فيه القاسم اليعمري وهو ضعيف جداً، انظر تخريج إحياء علوم الدين ٣/ ٤٥٦.

(٢) قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ٣/ ٤٥٦ لم أجد بقيته من قوله «واعتقل البعير».

قلت: شطره الأول تقدم تخريجه من حديث أنس ص ٢١٨ رقم التعليق (٢)، وأما قوله «اعتقل البعير» تقدم تخريجه في الذي قبل هذا.

الباب الثامن

في العجب من مقالة المهلكات

واعلم أنا قبل الخوض فيما نريده من أسراره نذكر حقيقة العجب، وليس العجب يكون إلا بوصف هو كمال كالعلم والزهد والعبادة، وليس يعجب الإنسان بوصف من أوصاف الرذائل فإن الإنسان لا يعجب بالبخل ولا بسوء الخلق، وإنما يعجب بالكرم وحسن الخلائق، والعجب هو استعظام النعمة والمحبة لها والركون إليها مع إضافتها إلى المنعم، ويخرج عن هذا حالتان فإنه لا يكون معجباً فيهما.

الحالة الأولى: أن يكون خائفاً على زوالها مشفقاً على تكدرها أو على سلبها من أصلها فإنه لا يكون معجباً.

الحالة الثانية: أن لا يكون خائفاً من زوالها لكن يكون فرحاً بها من حيث إنها نعمة من جهة الله تعالى لا من حيث إضافتها إلى نفسه، فمن هذه حاله فليس معجباً، فإذا تمهدت هذه القاعدة فلنذكر ذم العجب ثم نذكر أسبابه ثم نذكر كيفية علاجه، فهذه بيانات ثلاثة:

البيان الأول
في ذم العجب

إعلم أن ذمه يظهر من جهات ثلاث:

الجهة الأولى: من كتاب الله عز وجل، قال الله تعالى: ﴿**ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم**﴾ (التوبة: ٢٥). في معرض الإنكار، وقال تعالى: ﴿**فظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله**﴾ (الحشر: ٢) عز وجل، فرد على الكفار في إعجابهم بحصونهم

وشوكتهم، وقال تعالى: ﴿**وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً**﴾ (الكهف: ١٠٤) وهذا أيضاً راجع إلى العجب بالعمل، وقد يعجب الإنسان بعمل هو مخطىء فيه كما يعجب بعمل هو مصيب فيه والله أعلم.

الجهة الثانية: الأخبار، وقد قال ﷺ: «ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه»[(١)]، وقال الرسول ﷺ لأبي ثعلبة: «إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بنفسك»[(٢)]، وقال الرسول ﷺ: «لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أشد من ذلك العجب العجب»[(٣)]، ووقى طلحة رسول الله ﷺ يوم أُحد بنفسه فأكب عليه فأصيبت كفه فكأنه أُعجب بذلك إذ فداه بروحه، فتفرس في حاله عمر حتى قال: ما زال طلحة يعرف فيه بأو منذ أصيبت كفه مع رسول الله ﷺ[(٤)]، والبأو الكبر في اللغة إلا أنه لم ينفك عنه وأنه ما أظهره ولا احتقر مسلماً، ولما كان وقت الشورى قال ابن عباس: أين أنت من طلحة؟ قال: ذلك رجل فيه نخوة، فإذا كان لا يخلص من أمثالهم فكيف حالنا ونحن الضعفاء إن لم نأخذ حذرنا ويلطف الله تعالى بنا ويعرفنا بتقصيرنا في كل أمر من أمور الدين[(٥)].

---

(١) أخرجه البزار من حديث أنس، انظر كشف الأستار عن زوائد مسند البزار ١/ ٦٠ رقم الحديث ٨١. وأخرجه الطبراني في الكبير انظر مجمع الزوائد ١/ ٩١ وله في الأوسط نحوه عن ابن عمر وفي إسناده عبدالله بن لهيعة وهو ضعيف، وأخرجه أبو نعيم في الحلية ٢/ ٣٤٣ عن أنس وعن ابن عباس ٣/ ٢١٩ وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن أنس وعن ابن عباس ٣/ ٢١٩ وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن أنس بسند ضعيف، انظر تخريج أحاديث الإحياء للعراقي.

(٢) أخرجه أبو داود في السنن: الملاحم رقم الحديث ٤٣٤١ من حديث أبي ثعلبة الخشني والترمذي في السنن تفسير سورة المائدة رقم الحديث ٣٠٥٨ وقال هذا حديث حسن غريب. وأخرجه ابن ماجه في السنن: الفتن رقم الحديث ٤٠١٤، انظر تخريج الإحياء ٣/ ٤٥٧.

(٣) أخرجه البزار في مسنده، انظر كشف الأستار عن زوائد مسند البزار ٤/ ٢٤٤ رقم الحديث ٤٦٣٣ وإسناده جيد وانظر مجمع الزوائد ١٠/ ٢٦٩ وأخرجه ابن حبان في الضعفاء ١/ ٢٤٠ في ترجمة سلام بن أبي الصهباء وهو منكر الحديث، قال ابن حبان لا يجوز الاحتجاج به إذا انفرد، وقال أحمد حسن الحديث وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان من طريق سلام المذكور، وأخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس رقم الحديث ٥١٢٦، وقال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ٣/ ٤٥٨ سنده ضعيف.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه في فضائل الصحابة رقم الحديث ٣٧٢٤ وفي المغازي غزوة أحد رقم ٤٠٦٣ من حديث قيس بن أبي حازم، وابن ماجه في المقدمة رقم الحديث ١٢٨ باب فضل طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه. والنسائي: العجب.

(٥) انظر إحياء علوم الدين ٣/ ٤٥٨.

الجهة الثالثة : الآثار، قال ابن مسعود: الهلاك في اثنتين القنوط والعجب، وقال زيد بن أسلم: لا تبروها أي لا تعتقدوا أنها بارة وهو يعني العجب، وقال مطرف: لأن أبيت نائماً وأصبح نادماً أحب إليَّ من أن أبيت قائماً وأصبح معجباً، وكان بشر بن منصور من الذين إذا رؤا ذكر الله تعالى والدار الآخرة لمواظبته على العبادة فأطال الصلاة يوماً ورجل خلفه ففطن له بشر، فلما انصرف من الصلاة قال: لا لا يعجبك ما ترى مني فإن إبليس لعنه الله قد عبد الله مع الملائكة مدة طويلة ثم صار إلى ما صار وقيل لعائشة رضي الله عنها: متى يكون الرجل مسيئاً؟ قالت: إذا ظن أنه محسن، وقد قال تعالى: ﴿ **لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى**﴾ (البقرة: ٢٦٤)، فالمن نتيجة استعظام النعمة بالصدقة واستعظام العمل هو العجب لا محالة، فظهر بما ذكرناه بيان كون العجب مذموماً[1].

ثم اعلم أن له آفات كثيرة:

الأولى :منها أن العجب يدعو إلى الكبر لأنه أحد أسبابه فيتولد من العجب الكبر ومن الكبر الآفات التي أوضحناها من قبل، هذا كله مع العباد وأما مع الله عز وجل فإنه يؤدي إلى نسيان الذنوب وإهمالها فبعض ذنوبه لا يذكرها ولا يتفقدها لظنه أنه مستغن عن تفقدها فينساها ولا يذكر شيئاً منها لإعجابه بحاله فظنه أنها تغفر له.

الثانية : أنه يستعظم أعماله ويتبجح بها ويمن على الله بها وينسى نعمة الله تعالى في التوفيق والتمكين منها، ثم إنه إن أعجب بها عمي عن آفاتها، ومن لم يتفقد آفات الأعمال كان أكثر عمله ضائعاً فإن الأعمال الظاهرة إذا لم تكن خالصة عن الشوائب لم تكن عند الله تعالى نافعة.

الثالثة : أن المعجب يغترر بنفسه ويأمن مكر الله تعالى وعذابه ويظن أنه عند الله تعالى بمكان في منزلة رفيعة[2].

الرابعة : أنه يخرجه العجب إلى أنه يثني على نفسه ويحمدها ويزكيها والله تعالى قد نهى عن ذلك بقوله تعالى: ﴿ **فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى**﴾ (النجم: ٣٢).

الخامسة : إذا كان معجباً برأيه منعه ذلك عن الإستفادة والإستشارة فيستبد بنفسه وبرأيه ويستنكف ممن هو أعلم منه وربما يعجب بالرأي الخطأ الذي يخطر له فيفرح بكونه من خاطر نفسه ولا يفرح بكونه من غيره.

---

(١) انظر إحياء علوم الدين ٣/ ٤٥٨.

(٢) انظر إحياء علوم الدين ٣/ ٤٥٩.

السادسة : أنه لا يسمع نصح ناصح ولا وعظ واعظ بل ينظر إلى غيره بعين الإستحقار ويصر على أخطائه غاية الإصرار (١).

السابعة : أنه إن كان رأيه في أمر دنيوي عميت عليه مصالحه ، وإن كان في أمر ديني لم يصب وجه الحق فيه خاصة فيما يتعلق بأصول العقائد فإنه يهلك فيه ولو اتهم نفسه ولم يثق برأيه واستضاء بنور القرآن واستعان بعلماء الدين وكان مواظباً على مدارسة العلوم وتابع سؤال أهل البصيرة لكان ذلك يوصله إلى طريق الحق ومنهاج الصواب .

الثامنة : أنه يقصر في السعي في الأعمال الصالحة لاعتقاده أنه قد فاز واستغنى ، وهذا هو الهلاك بعينه والزلل لا شبهة فيه ، فهذا ما أردنا ذكره في ذم العجب وذكر آفاته المهلكة للدين والله أعلم بالصواب (٢) .

البيان الثاني
في ذكر أسبابه

واعلم أن العجب له أسباب كثيرة وجملتها ثمانية :

السبب الأول : العجب ببدنه في جماله وصحته وقوته وتناسب أشكاله وحسن صورته وقوامه ، وعلى الجملة فإن العجب يحصل في تفاصيل الخلقة فيلتفت إلى جمال نفسه وينسى أنه نعمة من نعم الله تعالى وهو يعرضه للزوال في كل حال .

السبب الثاني : القوة والبطش كما حكى الله عز وجل عن قوم عاد حين قالوا : من أشد منا قوة ، وكما حكي عن عوج بن عنق على أنه أعجب بقوته فاقتلع جبلاً ليطبقه على قوم موسى عليه السلام وعسكره فثقبه الله تعالى في عنقه حتى صار في عنقه كالخرزة ، وقد يتكل المؤمن على قوته ويعجب بها كما حُكي عن سليمان عليه السلام أنه قال : لأطوفن الليلة بمائة امرأة لعل كل واحدة منهن تأتي بولد يجاهد في سبيل الله تعالى ولم يقل إن شاء الله تعالى فحرم ما أراده من الأولاد ، وقد يورث العجب بالقوة الهجوم في الحروب وإلقاء النفس في المهالك وتعريضها للقتل بالسيف (٣) .

السبب الثالث : العجب بالعقل والكياسة والتفطن لدقائق الأمور من مصالح الدين والدنيا وثمرته الإستبداد بالرأي وترك المشورة واستجهال الناس المخالفين لرأيه ويخرج

---

(١) انظر إحياء علوم الدين ٣/ ٤٥٩ .

(٢) انظر إحياء علوم الدين ٣/ ٤٥٩ .

(٣) انظر إحياء علوم الدين ٣/ ٤٥٩ .

إلى قلة الإصغاء إلى أهل العلم إعراضاً واستغناء بالعقل والرأي واستحقاراً لأنظارهم.

السبب الرابع: العجب بالنسب، وهذا نحو إعجاب الفاطمية والطالبية والهاشمية بأنسابهم حتى نظر بعضهم أنه ينجو لأجل شرف نسبه ولجاه آبائه وأنه مغفور له، ويتخيل بعضهم أن جميع الخلق لهم موال وعبيد وهذا غرور عظيم وخطأ فاحش فإن الرسول ﷺ لما قيل له: من أكرم الناس؟ لم يقل من ينتمي إلى نسبي ولكن قال أكثرهم ذكراً للموت وأحسنهم استعداداً له[1]، وقال تعالى: ﴿**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾ (الحجرات: ١٣)، ولما نزلت الآية أذن بلال يوم الفتح على ظهر الكعبة فقال الحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وخالد بن أسيد هذا العبد الأسود يؤذن بقوله تعالى: ﴿**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾ (الحجرات: ١٣)، وقال الرسول ﷺ: «إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وافتخارهم بالآباء، الناس كلهم من ولد آدم وآدم من تراب»[2].

السبب الخامس: العجب بنسب السلاطين الظلمة والملوك وأعوانهم وأرباب الدولة والإعراض عن نسب الدين والعلم، وهذا هو غاية الجهل ولو تفكروا في مخازيهم وانهماكهم في المعاصي لله من البغي والفساد وظلم العباد وإلى مقت الله تعالى وما أعد لهم من النكالات لتبرؤا من الإنتساب إليهم ولكان الإنتساب إلى الكلاب والخنازير أشرف من الإنتساب إليهم.

السبب السادس: العجب بكثرة العدد من الأولاد والغلمان والأقارب والأنصار والأتباع كما حكى الله تعالى عن عجب الكفار بقولهم: ﴿**وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً**﴾ (سبأ: ٣)، وكما قال المحاربون من المسلمين يوم حنين: «لن نغلب اليوم من قلة»[3]، وكيف يعجب بهم وهم يتفرقون عنه إذا مات فدفن في قبره ذليلاً مهيناً وحده

---

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن الزهد رقم الحديث ٤٢٥٩ عن ابن عمر وفي إسناده فروة بن قيس والراوي عنه مجهولان.

وأخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب ذكر الموت وهو آخر حديث فيه.

انظر تخريج أحاديث إحياء علوم الدين للعراقي ٣/ ٤٦٥ وقال أخرجه الحاكم بلفظ «أي المؤمنين أكيس» وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٢) أخرجه أبو داود في السنن: الأدب رقم الحديث ٥١١٦ من حديث أبي هريرة والترمذي في السنن المناقب باب فضل الشام واليمن رقم الحديث ٣٩٥٦ وقال هذا أصح عندنا من الحديث الأول، ويقصد بالأول نحو هذا عن أبي هريرة، وقال: وفي الباب عن ابن عمر وابن عباس. وقال: وهذا حديث حسن غريب.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ١٠١ الجهاد من حديث ابن عباس، وقال هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي ولفظه «ولن يغلب اثنا عشر ألفاً من قلة». =

لا يرافقه ولد ولا أهل ولا قريب ولا حميم فيسلمونه إلى التراب والبلى والحيات والعقارب والديدان، ولا يغني الأولاد عنه شيئاً فكيف يعجب بمن هذه حاله[1]؟.

السبب السابع: العجب بالمال كما حكي الله تعالى عن صاحب الجنتين إذ قال: ﴿**أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً**﴾ (الكهف: ٣٤)، ورأى رسول الله ﷺ رجلاً غنياً جلس إلى جنبه فقير فانقبض منه وجمع ثيابه، فقال ﷺ: «خشيت أن يعدو إليك فقره»[2]، وذلك إنما كان العجب منه بالغنى، وروي عن الرسول ﷺ أنه قال: بينا رجل يتبختر في حلة له قد أعجبته نفسه إذ أمر الله سبحانه الأرض فأخذته فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة[3]، فهذه عقوبة له على إعجابه بنفسه، وقال أبو ذر: كنت مع الرسول ﷺ في المسجد، فقال لي: يا أبا ذر ارفع رأسك فرفعت رأسي فإذا رجل عليه ثياب جياد، ثم قال: ارفع رأسك فرفعت رأسي فإذا رجل عليه خلقان، فقال: يا أبا ذر هذا عند الله خير من ميزان الأرض من هذا[4].

السبب الثامن: العجب بالرأي الخطأ، قال الله تعالى: ﴿**أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً**﴾ (فاطر: ٨)، وقال: ﴿**وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً**﴾ (الكهف: ١٠٤)، وقد أخبر رسول الله ﷺ أن ذلك يغلب على آخر الأمة[5]، وبذلك هلكت الأمم إذ افترقت فرقاً وكل معجب برأيه وكل حزب بما لديهم فرحون، وجميع أهل البدع والضلالات إنما اجترأوا عليهم لعجبهم بآرائهم، والعجب بالبدعة هو استحسان يسوق إليه الهوى، فهذه جملة الأسباب الباعثة على العجب فنسأل الله العصمة عن الضلال،

= والبيهقي في الدلائل من حديث الربيع بن أنس مرسلاً ومن حديث أنس نحوه وفيه الفرج بن فضالة ضعفه الجمهور. انظر تخريج أحاديث الإحياء ٣/ ٤٦٤.

(١) انظر إحياء علوم الدين ٣/ ٤٦٤.

(٢) رواه أحمد في الزهد ص ٤٩ ط دار الكتب العلمية.

(٣) متفق عليه من حديث أبي هريرة.
أخرجه البخاري في صحيحه: اللباس والزينة رقم الحديث ٥٧٨٩، ٥٧٩٠ بنحوه ومسلم في اللباس أيضاً رقم الحديث ٤٩ ـ ٥١ وابن ماجه في السنن: المقدمة، وأحمد في المسند ٢/ ٢٢٢، ٢٦٧، ٣١٥، ٣٩٠، ٤١٣، ٤٥٦، ٤٩٧، ٥٣١، وابن أبي الدنيا في التواضع والخمول رقم الحديث ٢٣٣ واللفظ له.

(٤) أخرجه ابن حبان في صحيحه: مناقب أهل الصفة ٢/ ٣٧ رقم الحديث ٦٨٤ من حديث طويل وفيه قال النبي ﷺ: يا أبا ذر هل تعرف فلاناً. قلت: رجل مسكين من أهل الصفة فقال: هو خير من طلاع الأرض.

(٥) قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ٣/ ٤٦٧ يدل على ذلك حديث أبي ثعلبة (إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوىً متبعاً...). وقد تقدم تخريجه ص ٢٢٥ التعليق رقم (٢).

ونعوذ به من الإغترار بخيالات الجهال، ونرغب إليه في الإلهام إلى حسن البصيرة في الدين[1].

البيان الثالث
في علاج العجب

إعلم أن علاج كل علة إنما يكون بما يقابلها من ضدها، والعجب جهل فعلاجه يكون بالمعرفة المضادة لذلك الجهل ولنا في العلاج مسلكان:

المسلك الأول: من جهة الإجمال فنقول المعنى الذي يقع فيه الإعجاب إنما هو العلم والزهد والعبادة والورع والصدق وسياسة الخلق وحسن التصرف فيهم وغير ذلك من أنواع البر وأعمال التقوى، فهذه الأمور وإن كانت حاصلة بقدرة العبد واختياره لكن الله هو الخالق للقدرة والعلم والشهوة وأكمل الأعضاء وسهل للعبد الفعل بخلق الألطاف الخفية ورغبه إلى فعلها بالثواب، ورهبه بالعقاب على الإعراض عنها، وأكمل النعمة بالعافية وجعله متمكناً من فعل ذلك بفضل الله تعالى ورحمته.

وإذا كان الأمر كما وصفناه فكيف يتطرق العجب فيمن هذه حاله؟ وهي في الحقيقة من لطف الله ورحمته، فإذن لا معنى لعجب العابد بعبادته والعالم بعلمه وزهد الزاهد لأن كل ذلك إذا حققت النظر فيه من فيضان جود الله وكرمه الواسع على خلقه، فهذا على جهة الجملة[2].

المسلك الثاني: من جهة التفصيل، وتقريره أنا نذكر كل آفة ونردفها بعلاجها، فأما الإعجاب بالجمال والهيبة والقوة والبطش فعلاجه يكون بالتفكر في أقذار باطنة في أول أمره وآخره ويتفكر في الوجوه الجميلة والأبدان الناعمة أنها كيف تمزق في التراب وتكون منتنة في القبور بحيث تستقذرها الطبائع وتنفر عنها النفوس فإذا تفكر في ذلك وأنعم فيه الفكر هان عليه الأمر وأعرض عن الإعجاب[3].

وإما الإعجاب بالقوة والبطش فعلاجه بأن حمى ساعة أو ليلة تضعف قوته وأن العرقة الواحدة تظهر نتنه ورائحته الخبيثة، والشرقة الواحدة تقتله، وأن الله تعالى إذا

---

(١) انظر إحياء علوم الدين ٣/ ٤٦٤.
(٢) انظر إحياء علوم الدين ٣/ ٤٦٤.
(٣) انظر إحياء علوم الدين ٣/ ٤٦٥.

علم منه الإعجاب ربما سلبه الله تعالى تلك النعمة الجزيلة والعافية المستقيمة بأدنى آفة يسلطها الله عليه فلا يقدر على دفعها وإزالتها عنه بحال، وأما الإعجاب بالعقل والكياسة فعلاجه يكون بشكر الله تعالى على ما رزق من العقل وأنه لم يؤت من العلم إلا قليلاً ويتفكر في حاله أنه بأدنى مرض يصيب دماغه كيف حاله في كثرة الوسوسة والهذيان بحيث يضحك منه ويستنقص عقله ويصير ضحكة للعقلاء ويسخر منه كل من رآه وسمعه فليحذر العاقل من هذه الحالة وليحمد الله تعالى على ما رزقه الله من العقل ولا يعجب بشيء منه[1].

وأما الإعجاب بالحسب فعلاجه بأن يعلم أنه مهما خالف آباءه في أفعالهم وأخلاقهم وطرائقهم وظن أنه لاحق بهم فقد جهل، وإن اقتدى بآبائه فما كان من أخلاقهم العجب بل الخوف والإزراء على النفوس واستعظام الخلق ومذمة النفس واعترافهم بالتقصير في حق الله تعالى، وإنما شرفوا بالطاعة والعلم والخصال الحميدة لا بالنسب، فليشرف، بما شرفوا به وقد ساواهم في النسب من لم يؤمن بالله واليوم الآخر فكانوا عند الله شراً من الكلاب والخنازير، ولهذا قال الله عز وجل: ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا** ﴾ (الحجرات: ١٣) ثم قال بعد ذلك: ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ (الحجرات: ١٣).

والإعجاب بنسب السلاطين الظلمة وأهل الجور دون نسب الدين والعلم، فإنما علاجه بأن يتفكر في مخازيهم وما جرى لهم من الظلم والفسق والظلم للخلق والفساد في دين الله تعالى، وأنهم عند الله في غاية الخزي والمقت ولو نظروا إلى ما أعد الله لهم من الخزي والنكال وعظيم العذاب لأجل مخالفته وعصيانه، فحق لأولاد الظلمة أن يشكروا الله تعالى على ما رزقهم من حسن الإسلام والسلامة من العذاب.

وأما الإعجاب بكثرة العدد من الأولاد والخدم والغلمان والأقارب فعلاجه يكون بالتفكر في ضعفهم وعجزهم وأن كلهم عبيد عجزة لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة ثم كيف يعجب بهم والكل إلى نفاذ وزوال بالموت والهلاك والإدبار عن الدنيا وقد قال تعالى: ﴿ **يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه** ﴾ (عبس: ٣٤ ـ ٤٦) فأي خير فيمن يفارقك في أشد الأحوال وهو القبر والقيامة ويوم الحشر[2].

---

(١) انظر إحياء علوم الدين ٣/ ٤٦٥.

(٢) انظر إحياء علوم الدين ٣/ ٤٦٥.

وأما الإعجاب بالمال فعلاجه أن يتفكر في آفات المال وكثرة حقوقه وعظيم غوائله وآفاته وإلى فضيلة الفقراء وسبقهم إلى الجنة في القيامة، ويتفكر في أن المال غادٍ ورائح ولا أصل له، ثم ينظر أن في اليهود والنصارى ودهاقين الشرك من يزيد عليه في المال، وقد قدمنا ذم الدنيا والمال من جملتها فلا وجه لتكريره[1].

وأما الإعجاب بالرأي الخطأ، فعلاجه يكون أشد من علاج غيره لأن صاحب الرأي الخطأ جاهل بخطئه ولو عرفه لتركه، وعلاج الداء الذي لا يعرف عسير، والجهل داء لا يعرف فلهذا كان دواؤه عسيراً، وإنما علاجه على الجملة بأن يكون متهماً لرأيه أبداً فلا يغتر به، والصواب لمن لم يتفرغ لاستغراق عمره في العلم ألا يخوض في المذاهب ولا يصغي إليها ولا يكون سامعاً لها ولكن يعتقد أن الله واحد لا شريك له وأن الرسول ﷺ صادق فيما جاء به وأخبر عنه ويتبع سنة السلف الصالح ويؤمن بجملة ما جاء به الكتاب والسنة من غير بحث وتنقير وسؤال عن التفاصيل بل يقول آمنا بالله وصدقنا ويكون اشتغاله بالتقوى واجتناب المعاصي وأداء الطاعات والشفقة على المسلمين وسائر الأعمال الصالحة يفعلها ويواظب عليها، فأما الذي عزم على التجرد للعلم واستغراق العمر في طلبه فأول مهم عليه الاتكال على خوف الله تعالى والعزم على الإنصاف وترك التعصب لمذهبه والميل إلى أسلافه وليعتمد على الإتقان لشروط الأدلة حتى يكون واصلاً إلى اليقين والمعرفة في أكثر المطالب وليسأل من الله توفيقاً يقود إلى الرشد ويهدي إلى طرق السلامة فلعل الله أن يفيض عليه من الأنوار الإلهية ويطلعه على حقائق المعارف اليقينية بمنه وطوله[2].

---

(١) انظر إحياء علوم الدين ٣/ ٤٦٦.

(٢) انظر إحياء علوم الدين ٣/ ٤٦٦ ـ ٤٦٧.

الباب التاسع

من مقالة المهلكات
في البخل وذم المال

فاعلم أنا قبل الخوض فيما نريده من حقائق الباب وأسراره نذكر حد البخل والسخاء فإن ذلك من المهمات، وما من إنسان إلا ويرى نفسه سخياً وربما يراه غيره بخيلاً، وقد يصدر فعل من إنسان فيختلف في حاله، فبعض الناس يقول هو بخيل، وبعضهم يقول ليس بخيلاً فلا بد من البيان للبخل الذي يوجب الهلاك وللسخاء الذي يستحق به الثناء، فنقول قد قال قائلون: حد البخل هو منع الواجب، فكل من أدى ما يجب عليه فليس بخيلاً، وهذا غير كاف فإنه إذا رد اللحم إلى القصاب والخبز إلى الخباز لنقصان حبة خردل أو بعضها فإنه يعد بخيلاً بالاتفاق، وهكذا حال من سلم إلى أولاده القدر الذي يفرضه الحاكم ثم يضايقهم في لقمة زادوها عليه أو تمرة أكلوها من ماله فإنه يعد بخيلاً، وقال آخرون: البخيل هو الذي يستضعف العطية القليلة كالحبة وما يقرب منها ويستكثر ما فوقها، وهذا لا وجه له فإنه رد إلى عماية[1].

وهكذا فإنهم تكلموا في الجود فقالوا: الجود عطاء بلا منٍّ وإسعاف على غير روية وقال بعضهم: الجود عطاء من غير مسألة، وقالوا: الجود هو السرور بالسائل والفرح بالعطاء لما أمكن، وقالوا: الجود عطاء على روية إن المال لله تعالى والعبد لله تعالى فيعطي عبد الله مال الله عز وجل على قدر رؤية الفقر، وقالوا: الجود من أعطى البعض وأبقى البعض فهو صاحب سخاء، ومن بذل الأكثر وأبقى لنفسه شيئاً فهو صاحب

(١) انظر إحياء علوم الدين ٣/ ٣٢١ - ٣٢٢.

جود، ومن قاسى الضر وآثر غيره فهو صاحب إيثار ومن لم يبذل شيئاً فهو صاحب بخل[1].

وجملة ما أوردناه من هذه الكلمات فهي غير محيطة بحقيقة البخل والجود، بل المختار أن يقال، المال خلق لحكمة ومقصود وهو صلاحه لحاجات الخلق ويمكن إمساكه عن الصرف إلى ما خلق للصرف إليه، ويمكن بذله بالصرف إلى ما لا يحسن الصرف إليه، ويمكن التصرف فيه بالعدل وهو أن يحفظ حيث يجب الحفظ ويبذل حيث يجب البذل، فالإمساك حيث يجب البذل بخل، والبذل حيث يجب الإمساك تبذير وبينهما وسط وهو المحمود، وينبغي أن يكون السخاء والجود عبارة عنه إذ لم يؤمر رسول الله ﷺ إلا بالسخاء، وقيل له على جهة التعليم: ﴿ **ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً** ﴾ (الإسراء: ٢٩) وقال تعالى: ﴿ **والذين إذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً** ﴾ (الفرقان: ٦٧) والجود وسط بين الإقتار والإسراف وبين البسط والقبض وهو أن يقدر بذله وإمساكه على قدر الواجب.

فحصل من مجموع ما ذكرناه أن البخل والسخاء موقوفان على معرفة الواجب فما هو الذي يجب بذله؟ فاعلم أن الواجب قسمان قسم واجب بالشرع، وقسم واجب من جهة المروءة والعادة، فالسخي الذي لا يمنع واجب الشرع ولا واجب المروءة، فإن منع واحداً منهما أو كلاهما كان بخيلاً لا محالة، ولكن الذي يمنع واجب الشرع هو أبخل ممن يمنع واجب المروءة، فواجب الشرع هو الزكاة وواجب المروءة هو ترك المضايقة والاستقصاء في المحقرات، فمن كثر ماله فإنه يستقبح منه الملاحقة في الدانق[1] فهذا ما أردنا ذكره في ماهية البخل والجود والسخاء وبالله التوفيق، فإذا عرفت هذا فلنذكر ما يتعلق بالباب ونجعلها تنبيهات تحيط بالمقصود بمعونة الله وتوفيقه.

التنبيه الأول
في بيان ذم البخل

قال الله تعالى: ﴿ **ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون** ﴾ (التغابن: ١٦) وقال تعالى: ﴿ **ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم** ﴾ (آل عمران: ١٨٠) وقال عز وجل: ﴿ **الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل** ﴾

---

(١) انظر إحياء علوم الدين ٣/ ٣٢٢.

(النساء: ٣٧) وقال الرسول ﷺ: «إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم حملهم على أن يسفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم»[١]، وقال ﷺ: «إياكم والشح فإنه دعا من كان قبلكم فسفكوا دماءهم ودعاهم فاستحلوا محارمهم، ودعاهم فقطعوا أرحامهم»[٢]، وقال ﷺ: «لا يدخل الجنة بخيل ولا خب ولا خائن ولا سيىء الملكة»[٣]، وفي رواية أخرى «ولا جبار ولا منان»[٤].

وقال ﷺ: «ثلاث مهلكات: شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه»[٥]، وقال ﷺ: «إن الله يبغض ثلاثة: الشيخ الزاني والبخيل المنان والفقير المختال»[٦]، وقال ﷺ: «مثل المنفق والبخيل كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من لدن ثدييهما إلى تراقيهما، فأما المنفق فلا ينفق شيئاً إلا اتسعت ووفرت على جلده حتى يخفي ثيابه وأما البخيل فلا يريد أن ينفق إلا قلصت ولزمت كل حلقة مكانها حتى أعلى تراقيه فهو يوسعها فلا تتسع»[٧]، وقال ﷺ: «خصلتان لا تجتمعان في مؤمن البخل وسوء

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه في البر والصلة رقم ٥٦ عن جابر بلفظ (اتقوا الشح . . .) وأبو داود في السنن: الزكاة رقم الحديث ١٦٩٨ واللفظ له من حديث عبدالله بن عمرو.
وأخرجه ابن حبان في صحيحه ٧/ ٣٠٧ عن عبدالله بن عمرو ومن حديث أبي هريرة ٤٨١٨ والحاكم في المستدرك ١/ ١١ و١/ ٤١٥ من حديث عبدالله بن عمرو وقال صحيح الإسناد.
وأحمد في المسند ٢/ ١٦٠، ١٩١، ١٩٥، ٤٣١ عن أبي هريرة وفي ٣/ ٣٢٣ عن جابر.

(٢) هو جزء من الحديث المتقدم وهذا اللفظ للحاكم في المستدرك ١/ ١١ و١/ ٤١٥، وانظر تخريج الإحياء ٣/ ٣١٤.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ١/ ٤، ٧ من حديث أبي بكر رضي الله عنه والترمذي في السنن: البر والصلة رقم الحديث ١٩٦٣ وحسنه ولمسلم من حديث جبير بن مطعم عن أبيه نحوه بلفظ «لا يدخل الجنة قاطع رحم» صحيح مسلم: البر والصلة رقم الحديث ١٨ وتقدم تخريجه، وابن ماجه في السنن: الأدب رقم الحديث ٣٦٩١ بلفظ «لا يدخل الجنة سيىء الملكة».

(٤) هذه الرواية جزء من الحديث المتقدم وللترمذي «ولا منان» ولم أجد في شيء من الروايات قوله « ولا جبار» ولمسلم من حديث ابن مسعود «لا يدخل الجنة من كان في قلبه ذرة من كبر».
وانظر تخريج أحاديث الإحياء استخراج أبي عبدالله محمود بن محمد الحداد رقم الحديث ٣١٧٣ ورقم ٣٠٥٥.

(٥) تقدم تخريجه ص ٢٥٥ التعليق رقم (١) من حديث أبي ثعلبة الخشني، ولأبي الشيخ في كتاب التوبة والطبراني في الأوسط نحوه من حديث أنس. انظر تخريج أحاديث الإحياء استخراج أبي عبدالله محمود الحداد رقم ٣٠٥٦.

(٦) أخرجه أحمد في المسند ٥/ ١٥٣ من حديث أبي ذر رضي الله عنه والترمذي في السنن: صفة الجنة: رقم الحديث ٢٥٦٨ وقال هذا حديث صحيح، والنسائي في السنن: في الصدقة رقم ٢٥٧٠ وابن حبان في صحيحه ٥/ ١٤٥، ٧/ ١٣٣ وأخرجه الطبراني في الكبير والحاكم والبيهقي والضياء والطيالسي أيضاً من حديث أبي ذر وللطبراني في الأوسط من حديث علي بسند ضعيف. انظر تخريج الإحياء رقم الحديث ٣٠٥٧.

(٧) أخرجه البخاري في صحيحه: الزكاة رقم الحديث وفي الجهاد رقم ٢٩١٧ وفي الطلاق رقم ٥٢٩٩ وفي اللباس=

الخلق»[1]، وقال ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر»[2].

وقال ﷺ: «إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، وإياكم والفحش إن الله تعالى لا يحب الفاحش ولا المتفحش، وإياكم والشح فإنما أهلك من كان قبلكم الشح أمرهم بالكذب فكذبوا وأمرهم بالظلم فظلموا وأمرهم بالقطيعة فقطعوا»[3]، وقال ﷺ: «شر ما في الرجل شح هالع وجبن خالع»[4]، وقتل شهيد على عهد رسول الله ﷺ فبكته باكية فقالت: واشهيداه، فقال: «ما يدريك أنه شهيد فلعله كان يتكلم فيما لا يعنيه أو يبخل بما لا ينقصه»[5] وقال جبير بن مطعم بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ ومعنا الناس مقفلين من حنين علقت رسول الله ﷺ الأعراب حتى اضطروه إلى سمرة فخطفت السمرة رداءه، فوقف رسول الله ﷺ وقال: «أعطوني ردائي لو كان لي عدد هذه العضاة نعماً

= رقم ٥٧٩٧، ومسلم في صحيحه كتاب الزكاة رقم الحديث ٧٦ - ٧٧ والنسائي في الزكاة رقم الحديث ٢٥٤٧ وأحمد في المسند ٢/ ٢٥٦، ٣٨٩، ٥٢٣.

(١) أخرجه الترمذي في السنن: البر والصلة رقم الحديث ٢/ ١٩٦ من حديث أبي سعيد وقال غريب لا نعرفه إلا من حديث صدقة بن موسى وأخرجه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول رقم الحديث ١٨٢ واللفظ له وأخرجه الطيالسي وعبد بن حميد والبزار وأبو يعلى وابن جرير في تهذيب الآثار والبيهقي في شعب الإيمان والبخاري في كتاب الأدب المفرد رقم الحديث ٢٨٢.
انظر تخريج الإحياء استخراج أبي عبدالله محمود بن محمد الحداد رقم الحديث ٣٠٥٨.

(٢) البخاري في صحيحه كتاب الجهاد رقم الحديث ٢٨٩٣ وفي الأطعمة الباب رقم ٢٨ وفي التفسير سورة النحل وفي الدعوات من حديث أنس ومسلم في صحيحه كتاب الذكر رقم الحديث ٥١، ٥٢، ٧٣.
وأبو داود في السنن: الوتر رقم الحديث ١٥٤٠، ٣٩٧٢ عن أنس، والترمذي في الدعوات رقم الحديث ٣٤٨٥ وقال هذا حديث حسن صحيح، والنسائي في السنن الاستعاذة رقم الحديث ٥٤٥٠.

(٣) تقدم تخريجه في نفس الصفحة ٢٣٧ التعليق رقم ١: فهذا جزء من ذلك الحديث بلفظ (إياكم والشح...).

(٤) أخرجه أبو داود في السنن: الجهاد باب الجرأة والجبن رقم الحديث ٢٥١١ وأحمد في المسند ٢/ ٣٠٢، ٣٢٠ عن أبي هريرة.
قال العراقي في تخريج الإحياء ٣/ ٣١٥ إسناده جيد.
وأخرجه البخاري في التاريخ والحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن جرير في تهذيب الآثار والبيهقي في شعب الإيمان، وقال ابن طاهر إسناده متصل انظر تخريج الإحياء استخراج أبي عبدالله محمود بن محمد الحداد رقم الحديث ٣٠٦٠.

(٥) أخرجه الترمذي في السنن: الزهد رقم الحديث ٢٣١٦ عن أنس وقال غريب، والبيهقي في السنن الكبرى ٣/ ٤٠٦، ٤/ ٧٦، ١٠/ ٢٨٨ من حديث أنس وأبو يعلى في مسنده من حديث أبي هريرة بسند ضعيف والبيهقي في الشعب، انظر تخريج الإحياء رقم الحديث ٣٠٦١.

لقسمته بينكم ، لا تجدوني بخيلاً ولا كذوباً ولا جباناً»[1].

وقال عمر: قسم رسول الله ﷺ قسماً فقلت: غير هؤلاء كانوا أحق منهم ، فقال: «إنهم يخيروني بين أن يسألوني الفحش أو يبخلوني ولست بباخل»[2] وقال أبو سعيد الخدري: دخل رجلان على النبي ﷺ ، فسألاه ثمن بعير فأعطاهما دينارين ، فخرجا من عنده فلقيهما عمر بن الخطاب فأثنيا وقالا معروفاً وشكرا ما صنع بهما ، فدخل عمر على رسول الله ﷺ فأخبره بما قالا ، فقال له رسول الله لكن فلاناً أعطيته ما بين عشرة إلى مائة ولم يقل ذلك ، إن أحدكم ليسألني فينطلق في مسألته متأبطها وهي نار ، فقال عمر: فلم تعطهم ما هو نار؟ فقال: يأبون إلا أن يسألوني ويأبى الله لي البخل[3].

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ : «الجود من جود الله تعالى فجودوا يجد الله لكم ، ألا إن الله تعالى خلق الجود فجعله في صورة رجل وجعل أسه راسخاً في أصل شجرة طوبى وشد أغصانها بأغصان سدرة المنتهى ودلى بعض أغصانها إلى الدنيا ، فمن تعلق بغصن من أغصانها أدخله الجنة ، ألا إن السخاء من الإيمان في الجنة ، وخلق البخل من مقته وجعل أسه راسخاً في أصل شجرة الزقوم ودلى بعض أغصانها إلى الدنيا فمن تعلق بغصن منها أدخله النار ، ألا إن البخل من الكفر والكفر في النار».

وقال ﷺ :«السخاء شجرة في الجنة فلا يلج الجنة إلا السخي ، والبخل شجرة في

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه: الجهاد رقم الحديث ٢٨٢١ وفي الخمس رقم الحديث ٣١٤٨ عن جبير بن مطعم والنسائي في السنن: الهبة رقم الحديث ٣٦٨٨ عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.
وأحمد في المسند ٢/ ١٨٤ عن أبي ثعلبة الخشني وفي ٤/ ٨٢، ٨٤ عن جبير بن مطعم ومالك في الموطأ: الجهاد رقم الحديث ٢٢.

(2) أخرجه أحمد في المسند ٣/ ٤، ١٦ عن أبي سعيد، ورواه أبو يعلى والبزار، ورجال أسانيدهم ثقات، ورواه الحاكم والضياء من حديث أبي سعيد وللحاكم من حديث جابر أيضاً. انظر تخريج الإحياء، استخراج أبي عبدالله محمود بن محمد الحداد رقم الحديث ٣٠٦٢.

(3) رواه الديلمي في الفردوس رقم الحديث
عن ابن عباس، قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ٣/ ٣١٥، لم يخرجه ولده في مسنده ولم أقف له على إسناد وقال ابن السبكي لم أجد له إسناداً، الطبقات الكبرى ٦/ ٣٤٧.
وأخرج نحوه الخطيب في كتاب البخلاء بسند فيه أبو بكر النقاش وهو صاحب مناكير. انظر تخريج الإحياء رقم الحديث ٣٠٦٣، وذكر له شواهد أخرى انظر رقم الحديث ٣٠٣٦.

النار فلا يلج النار إلا البخيل»[1] ، وقال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ : من سيدكم يا بني لحيان؟ قالوا : سيدنا الجد بن قيس إلا إنه بخيل ، فقال ﷺ : «وأي داء أدوى من البخل ولكن سيدكم عمرو بن الجموح »[2] وقال أمير المؤمنين كرم الله وجهه : إن الله ليبغض البخيل في حياته السخي عند موته[3] وقال رسول الله ﷺ : «السخي الجهول أحب إلى الله من العابد البخيل»[4] وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «لا يجتمع الإيمان والشح في قلب عبد»[5]، وقال الرسول ﷺ : «لاينبغي للمؤمن أن يكون بخيلاً ولا جباناً»[6]، وقال ﷺ : «حلف الله بعزته وجلاله وعظمته لا يدخل الجنة شحيح ولا بخيل»[7] .

وروي أن رسول الله ﷺ كان يطوف بالبيت فإذا رجل متعلق بأستار الكعبة وهو

---

(١) أخرجه أبو منصور الديلمي في الفردوس رقم الحديث ٣٥٤٣ من حديث علي ولم يخرجه ولده في مسنده وقال السبكي في الطبقات ٦/ ٣٤٧ لم أجد له إسناداً.
وأخرجه الخطيب في كتاب البخلاء والحسن بن سفيان في مسنده وابن عساكر في التاريخ من حديث عبدالله بن جراد.
وله شاهد آخر، انظر الحديث رقم ٣٠٣٢ عن أبي هريرة وعن ابن عباس رقم ٣٠٣٤، تخريج الإحياء استخراج أبي عبدالله محمود بن محمد الحداد.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ١٦٣ عن أبي هريرة وقال صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي.
رواه البخاري في الأدب المفرد رقم الحديث ٢٩٦ عن جابر بن عبدالله والطبراني في الصغير رقم الحديث ٣١٧ نحوه عن كعب بن مالك بإسناد حسن ورواه أيضاً في الأوسط. انظر مجمع الزوائد ٨/ ٣١٥ وقال الهيثمي رجاله رجال الصحيح غير شيخ الطبراني وانظر تخريج إحياء علوم الدين للعراقي ٣/ ٣١٦.

(٣) انظر إحياء علوم الدين ٣/ ٣١٦.

(٤) أخرجه الترمذي في السنن البر والصلة رقم الحديث ١٩٦١ عن أبي هُريرة نحوه وقال هذا حديث غريب وإنما يروى عن يحيى بن سعيد عن عائشة مرسل. ورواه الديلمي في مسند الفردوس رقم الحديث ٣٥٤٦ عن عائشة وانظر تخريج الإحياء ٣/ ٣١٦.

(٥) أخرجه البخاري في الأدب المفرد رقم الحديث ٢٨١ عن أبي هريرة والنسائي في السنن الجهاد رقم الحديث ٣١١٠ - ٣١١٥ وفي إسناده اختلاف. ورواه أحمد في المسند ٢/ ٢٥٦ ، ٣٤٠ ، ٣٤٢ ، ٤٤١ وروى نحوه ابن جرير في تهذيب الآثار وابن عدي في الكامل من حديث عبد الغفور بن عبد العزيز الأنصاري عن أبيه عن جده. انظر تخريج الإحياء رقم الحديث ٣٠٦٧ استخراج أبي عبدالله محمود بن محمد الحداد.

(٦) رواه الخطيب البغدادي في كتاب البخلاء من حديث جعفر معضلاً ومن حديث أبي عبد الرحمن السلمي موقوفاً. وروى هناد السري نحوه أيضاً. انظر تخريج أحاديث الإحياء استخراج أبي عبدالله محمود بن محمد الحداد رقم الحديث ٣٠٦٨ وقال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ٣/ ٣١٦ لم أره بهذا اللفظ وقال ابن السبكي في الطبقات الكبرى ٦/ ٣٤٧ لم أجد له إسناداً.

(٧) رواه الخطيب البغدادي في كتاب البخلاء من حديث ابن عمر بلفظ «الشحيح لا يدخل الجنة» وقال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ٣/ ٣١٦ لم أجده بتمامه وللترمذي نحوه من حديث أبي بكر بلفظ «لا يدخل الجنة بخيل» انظر سنن الترمذي البر والصلة رقم ١٩٦٣.

يقول: بحرمة هذا البيت إلا غفرت لي، فقال رسول الله ﷺ: وما ذنبك؟ صفه لي، فقال: هو أعظم من أن أصفه لك، فقال: ويحك ذنبك أعظم أم الأرضون؟ قال: ذنبي أعظم قال: ويحك ذنبك أعظم أم الجبال؟ قال: بل ذنبي، قال: فذنبك أعظم أم البحار؟ قال: بل ذنبي، قال: فذنبك أم السموات؟ قال: بل ذنبي، قال: فذنبك أعظم أم العرش؟ قال: بل ذنبي، قال: فذنبك أعظم أم الله؟ قال: بل الله سبحانه أعظم وأعلا، قال: ويحك فصف لي ذنبك قال: يا رسول الله إني رجل ذو ثروة من المال فإن السائل ليأتيني فيسألني فكأنما يستقبلني بشعلة من نار، فقال رسول الله ﷺ: إليك عني لا تحرقني بنارك فوالذي بعثني بالهداية والكرامة لو قمت بين الركن والمقام ثم صليت ألف ألف عام حتى تجري من دموعك الأنهار وتسقي بها الأشجار ثم مت وأنت لئيم لكبك الله في النار، ويحك ما علمت أن البخل كفر والكفر في النار، ويحك ما علمت أن الله تعالى يقول[1]: ﴿ **ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه** . ﴾ (محمد: ٣٨) ﴿ **ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون** ﴾ (الحشر: ٩، والتغابن: ١٦) فهذا من طريق الأخبار النبوية.

وأما الآثار: فقد قال ابن عباس: لما خلق الله جنة عدن قال لها: تزيني فتزينت ثم قال: أظهري أنهارك فأظهرت عين السلسبيل وعين الكافور وعين التسنيم ففجر منها في الجنان وظهرت أنهار الخمر وأنهار العسل واللبن ثم قال لها: أظهري سررك وحجالك وكراسيك وحليّل وحلك وحور عينك فأظهرت فنظر إليها، فقال: تكلمي فقالت: طوبى لمن دخلني، فقال الله: وعزتي وجلالتي لا أسكنك بخيلاً، وقالت أخت عمر بن عبد العزيز: أف للبخيل لو كان البخل قميصاً ما لبسته، ولو كان طريقاً ما سلكته، وقال محمد بن المنكدر: إذا أراد الله تعالى بقوم شراً أمر عليهم شرارهم وجعل أرزاقهم بأيدي بخلائهم وقال أمير المؤمنين كرم الله وجهه: سيأتي على الناس زمان عضوض يعض المؤمن على ما في يديه ولم يؤمر بذلك، قال الله عز وجل: ﴿ **ولا تنسوا الفضل بينكم** ﴾ (البقرة: ٢٣٧) وقال عبد الله بن عمر: الشح أشد من البخل لأن الشحيح هو الذي شح على ما في يدي غيره حتى يأخذه ويشح بما في يده فيحبسه، والبخيل هو الذي يبخل بما في يديه[2].

قال الشعبي: لا أدري أيهما أبعد غوراً في النار البخل أو الكذب وقيل: ورد على

---

(١) قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ٣/ ٣١٧ الحديث بطوله باطل لا أصل له وقال ابن السبكي في الطبقات الكبرى ٦/ ٣٤٧ لم أجد له إسناداً.

(٢) الآثار الواردة في هذه الصفحة عن ابن عباس وابن عمر وغيرهما انظر فيها إحياء علوم الدين ٣/٣١٧.

كسرى بن شروان حكيم الهند وحكيم الروم فقال للهندي : تكلم فقال : خير الناس من أُلْفِيَ سخياً وعند الغضب وقوراً وفي القول متأنياً وفي عمل الخير مجتهداً وفي الرفعة متواضعاً وعلى كل ذي رحم مشفقاً وقال للرومي : تكلم قال : من كان بخيلاً ورث عدوه ماله ومن قل شكره لم ينل النجح وأهل الكذب مذمومون وأهل النميمة يموتون فقراء ومن لم يرحم سلط عليه من لا يرحمه(١) .

وقال أبو حنيفة : لا أرى أن أعدل بخيلاً لأنه يحمله البخل على الاستقصاء فيأخذ فوق حقه خيفة من أن يغبن ومن كان هكذا لا يكون مأمون العدالة ، وقال أمير المؤمنين كرم الله تعالى وجهه : والله ما استقصى كريم قط، قال الله عز وجل : ﴿ **عرف بعضه وأعرض عن بعض** ﴾ (التحريم : ٣) وقال الجاحظ: ما بقي من اللذات إلا ثلاث ذم البخلاء وأكل القديد وحك الجرب ، وقال بشر بن الحارث : البخيل لا غيبة له ، وقال : النظر إلى البخيل يقسي القلب ولقاء البخلاء كرب على المؤمنين في قلوبهم ، وقال يحيى بن معاذ : يأبى القلب للأسخياء إلا حباً ولو كانوا فجاراً وللبخلاء إلا بغضاً ولو كانوا أبراراً وقال ابن المعتز : أبخل الناس بماله أجودهم بعرضه ، فهذه مقالة أهل الصلاح في ذم البخل(٢) .

التنبيه الثاني
في بيان علاج البخل

واعلم أن علاجه يكون بأمرين :

الأمر الأول : علمي والعلم راجع إلى معرفة آفة البخل وفائدة الجود ، ثم للعلم جهات ثلاث :

الجهة الأولى : أن يكثر التأمل لأحوال البخلاء والتعرف لطرائقهم وما يحصل من نفار الطبع عنهم واستقباحه لهم فإنه ما من بخيل إلا وهو يستقبح البخل من غيره ويستثقل كل بخيل من أصحابه فيعلم بذلك أنه مستثقل ومستقذر في قلوب الناس مثل سائر البخلاء في قلبه .

الجهة الثانية : أن يخدع نفسه في البذل بحسن الإشتهار وإطلاق الإسم بالسخاء فيبذل على قصد الرياء حتى تسمح نفسه بالبذل طمعاً في إظهار خصلة الجود فيكون قد

---

(١) انظر الإحياء ٣/ ٣١٧.

(٢) انظر الإحياء ٣/ ٣١٧.

زال عنه خبث البخل ولؤمه واكتسب خبث الرياء ولكنه ينعطف بعد ذلك في إزالة هذه الخصلة عن الرياء ويزيله بعلاجه ويستعين بالله تعالى.

الجهة الثالثة: بأن يعلم مقاصد المال لأي شيء هي؟ ولماذا جعلت؟ وما هو المقصود بها؟ فلا يحفظ من المال إلا قدر حاجته والباقي يبذله ليحصل ثواب بذله من الله تعالى.

فهذه علاجات من جهة العلم والمعرفة، فإذا عرف بنور البصيرة أن البذل خير من الإمساك في الدنيا والآخرة هاجت له رغبته في البذل إذا كان عاقلاً، فإذا تحركت الداعية فينبغي أن يجيب الخاطر الأول ولا يتوقف فإن الشيطان يعده الفقر ويخوفه ويصده عنه، وحُكي عن بعض الزهاد أنه كان في البرية فدعا تلميذاً له وقال: إنزع عني القميص وادفعه إلى فلان، فقال: ألا صبرت حتى ترجع، قال: إني لا آمن على نفسي أن تتغير.

العلاج الثاني: من جهة العمل إعلم أن البخل سببه الأقوى هو حب المال، وحب المال له سببان[1].

السبب الأول: الشهوات التي لا وصول إليها إلا بالمال مع طول الأمل، فإن الإنسان لو علم أنه يموت بعد يوم ربما كان لا يبخل بماله ولهذا فإنه يجود البخيل عند الموت لا محالة، وربما يقوم الولد مقام طول الأمل فإنه يقدر بقاءهم كبقاء نفسه فلا جرم كان بخيلاً لأجلهم، ولهذا قال ﷺ: «الولد مبخلة مجبنة»[2] يشير به إلى ما ذكرناه.

السبب الثاني: أن يحب عين المال فمن الناس من معه ما يكفيه عمره إن كان

---

(١) انظر إحياء علوم الدين ٣/ ٣١٧.

(٢) رواه أحمد في المسند ٤/ ١٧٢ من حديث يعلى العامري وله من حديث الأشعث بن قيس نحوه ٥/ ٢١١ وفيه مجالد بن سعيد.

وأخرجه ابن ماجه من حديث يعلى أيضاً في السنن الأدب رقم الحديث ٣٦٦ وإسناده صحيح ورجاله ثقات وبه نحوه من حديث يوسف بن عبدالله بن سلام في قصة الحسن والحسين وحديث الأشعث بن قيس أخرجه الطبراني وفي إسناده مجالد بن سعيد ضعيف وقد وثقه بعضهم وبقية رجاله رجال الصحيح. انظر مجمع الزوائد ٨/ ١٥٥ ورواه البزار في مسنده من حديث الأسود بن خلف كما في مجمع الزوائد. وأخرجه الحاكم في المستدرك ٣/ ٢٩٦ عن الأسود وصحح إسناده. وأخرجه أيضاً العسكري في الأمثال وللطبراني في الكبير في حديث خولة ورواه أبو يعلى والبزار من حديث أبي سعيد وفيه عطية العوفي وهو ضعيف. انظر مجمع الزوائد ٨/ ١٥٥ ورواه البغوي وابن السكن والدارقطني في الأفراد والعسكري في الأمثال وابن سعد في الطبقات من حديث يعلى العامري. انظر تخريج الإحياء استخراج أبي عبدالله محمود بن محمد الحداد رقم الحديث ٣٠٧٦.

مقتصراً على ما جرت به عادته في الإنفاق ويفضل على ذلك الألوف وهو يشح بإنفاقها ولا ولد له ومعه أموال جمة كثيرة ولا تسمح نفسه بإخراج الزكاة ولا بمداواة نفسه عند المرض وما ذاك إلا لمحبته الدنانير والدراهم ويحصل له لذة بوجودها في يده وبقدرته عليها وبكونها وراء ظهره، وربما كنزها وخبأها تحت الأرض وهو يعلم أنه يموت فتضيع أو يأخذها أعداؤه، ومع ذلك فإن نفسه لا تسمح أن يأكل أو يتصرف وهذا مرض عظيم للقلب عسر العلاج لا سيما مع كبر السن فلا يكاد يرجى علاجه[1].

فهذه أسباب حب المال، وإنما علاج كل علة بمضادة سببها فيعالج حب الشهوات بالقناعة بالقليل وبالصبر، ويعالج طول الأمل بكثرة ذكر الموت والنظر في موت الأقران والأمثال وطول تعبهم في جمع المال وضياعه بعدهم، ويعالج التفات القلب إلى الولد بأن الذي خلقه خلق معه رزقه، فكم من ولد لم يرث من أبيه مالاً وحاله أحسن ممن ورث، وينظر أيضاً في أنه جمع المال لولده يريد أن يترك ولده بخير وينقلب إلى ربه بشر وأن ولده إن كان تقياً كفاه الله أمره، وإن كان فاسقاً فيستعين بما خلف له على المعصية وترجع مظلمته عليه، ويعالج أيضاً قلبه بكثرة التأمل في الأخبار الواردة في ذم البخل ومدح السخاء وما توعد الله تعالى على البخل، وحكي أنه حمل إلى بعض الملوك قدح من فيروزج مرصع بالجواهر النفسية لم ير لها نظير ففرح الملك به فرحاً شديداً وقال لبعض الحكماء عنده: كيف ترى هذا؟ قال: أراه مصيبة أو فقراً، قال: كيف؟، قال: إن انكسر كان مصيبة لا جبر لها، وإن سرق صرت فقيراً إليه ولم تجد مثله وقد كنت قبل أن يحمل إليك في أمن من المصيبة والفقر، ثم اتفق أن القدح انكسر فعظمت به مصيبة الملك وقال: صدق الحكيم ليته لم يحمل إلينا، وقد نجز غرضنا من ذم البخل وبغضه.

ومن أعجب ما قيل من حكايات البخلاء حكي أن رجلاً بالبصرة بخيلاً وكان موسراً فدعاه يوماً بعض جيرانه وقدم إليه طباهجة ببيض، والطباهجة نوع من أنواع الطبائخ فأكل منها وأكثر وجعل يشرب الماء فانتفخ بطنه ونزل به الكرب والموت فجعل يتلوى فلما جهده الأمر وصف حاله لطبيب، فقال: لا بأس عليك تقيأ ما أكلت، فقال: هاه أتقيأ طباهجة ببيض أموت ولا أتقيأ طباهجة ببيض، وحكي أن أعرابياً أقبل يطلب رجلاً وبين يديه تين فغطى التين بكسائه فجلس الأعرابي، فقال له الرجل: هل تحسن تقرأ شيئاً

---

(١) انظر إحياء علوم الدين ٣/ ٣٢٤.

من القرآن؟ قال: نعم وقرأ والتين والزيتون، فقال• وأين التين؟ قال: تحت كسائك[1].

وحكي أن مروان بن أبي حفصة كان لا يأكل اللحم بخلاً حتى يقدم فإذا قدم أمر غلامه يشتري له رأساً فأكله فقيل له: ما تزال تأكل الرؤوس في الخريف والصيف والشتاء فلم تختار ذلك؟، فقال: نعم الرأس أزيل شعره وآكل جلده وآمن خيانة الغلام فيه ولا يستطيع أن يغبنني فيه وليس بلحم يطبخه الغلام فيقدر أن يأكل منه إن مس عيناً أو أذناً أو خداً وقفت على ذلك، وآكل منه ألواناً آكل عينه لوناً وأذنه لوناً وغلصمته لوناً ودماغه لوناً وأكفى مؤونة طبخه، فقد اجتمعت لي فيه مرافق، وخرج ابن مروان يريد الخليفة المهدي فقالت له امرأة من أهله: ما عليك إن رجعت بالجائزة، قال: إن أعطيت مائة ألف أعطيتك درهماً فأعطي ستين ألفاً فأعطاها دوانيق، واشترى لحماً بدرهم فدعاه صديق له فرد اللحم إلى القصاب بنقصان دانق وقال: أكره الإسراف، ويحكى أن محمد بن يحيى بن خالد البرمكي كان بخيلاً قبيح البخل فسئل قريب له كان يألفه فقيل له: صف لنا مائدته، فقال: هي فتر في فتر وصحافة منقورة من جني الخشخاش قال: فمن يحضرها؟ قال: الكرام الكاتبون، قال: أفما يأكل معه أحد؟ قال: بلى الذباب، فقيل له: أنت خاص به وثوبك مخرق، فقال: إي والله ما أقدر على إبرة أخيطه بها ولو ملك محمد بيتاً من بغداد إلى النوبة مملوءاً إبراً وجاءه جبريل وميكائيل ومعهما يعقوب يضمنون له إبرة وسألوه أن يعيرهم إياها يخيطون قميص يوسف الذي قد من دبر ما فعل، وهذا هو نهاية اللؤم[2]، ونقتصر على هذا القدر فلا حاجة إلى الإكثار منه ونسأل الله التوفيق والله أعلم بالصواب.

التنبيه الثالث
في بيان ذم المال وكراهة حبه

قال الله عز وجل: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله**﴾ (المنافقون: ٩)، وقال تعالى: ﴿**إنما أموالكم وأولادكم فتنة**﴾ (التغابن: ١٥)، وقال تعالى: ﴿**من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها**﴾ (هود: ١٥)، وقال تعالى: ﴿**ألهاكم التكاثر**﴾ (التكاثر: ١).

---

(١) انظر إحياء علوم الدين ٣/ ٣٢٤.

(٢) نفس المصدر الإحياء.

وأما الأخبار: فقد قال الرسول ﷺ: «حب المال والشرف ينبتان النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل»[1]، وقال ﷺ: «ما ذئبان ضاريان في زريبة المسلم بأكثر فساداً منهما من حب المال والجاه في دين الرجل المسلم»[2]، وقال الرسول ﷺ: «هلك الأكثرون أموالاً إلا من قال به من عباد الله هكذا وهكذا وقليل ما هم»[3]، وقيل: يا رسول الله أي أمتك أفضل؟ قال: الأغنياء الذين ينفقون الأموال ابتغاء وجه الله تعالى[4]، وقال ﷺ: «سيأتي على الناس قوم يأكلون أطايب الدنيا وألوانها وينكحون أجمل النساء وألوانها ويلبسون ألين الثياب وألوانها ويركبون الخيل وألوانها، بطونهم من القليل لا تشبع وأنفسهم بالكثير لا تقنع عاكفون على الدنيا يغدون ويروحون إليها، اتخذوها إلهاً دون إلههم ورباً دون ربهم، إلى أمرهم ينتبهون وهواهم يتبعون، فعزيمة

---

(١) قال العراقي في تخريج الإحياء ٣/ ٢٨٨ لم أجده بهذا اللفظ.

(٢) أخرجه الترمذي في السنن الزهد رقم الحديث ١٣٧٦ والنسائي في السنن الكبرى من حديث كعب بن مالك وقال الترمذي هذا حديث حسن صحيح.
وأخرجه أحمد في المسند ٣/ ٤٥٦، ٤٦٠ عنه أيضاً ورواه عنه أيضاً الطبراني في الكبير وله عن ابن عباس أيضاً وفي الأوسط من حديث عاصم بن عدي وأبي هريرة وأبي سعيد نحوه وللبزار وأبي يعلى من حديث أبي هريرة وللبزار أيضاً عن ابن عمر. انظر مجمع الزوائد ١٠/ ٢٥٠ وحديث ابن عمر رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق وللضياء من حديث أسامة بن زيد نحوه ولهناد السري من حديث أبي جعفر مرسلاً نحوه. انظر تخريج الإحياء استخراج أبي عبدالله محمود بن محمد الحداد رقم الحديث ٣١٠٢ وقد جمع طرق هذا الحديث الحافظ ابن رجب الحنبلي في جزء مستقل وهو مطبوع.

(٣) متفق عليه من حديث أبي ذر بلفظ «هم الآخرون فقال أبو ذر من هم فقال: هم الأكثرون أموالاً إلا من قال هكذا وهكذا... ويرى بلفظ الكثرون».
البخاري في صحيحه كتاب الإيمان والنذور رقم الحديث ٦٦٣٨ ومسلم في صحيحه الزكاة رقم الحديث ٣٠ والترمذي في الزكاة الحديث رقم ٦١٧ والنسائي في الزكاة رقم ٢٤٤٠.
ورواه ابن ماجه في السنن الزهد رقم ٤١٣٠ وابن حبان في صحيحه ١/ ٢٠٩ والضياء عنه أيضاً وأحمد في المسند ٥/ ١٥٢، ١٥٨، ١٦٩ من حديث أبي ذر وله من حديث أبي سعيد نحوه وعثمان وهو عند عبد بن حميد وأبو يعلى أيضاً وللطبراني من حديث عبد الرحمن بن أبزي نحوه ومن حديث أبي هريرة رواه ابن ماجه في السنن الزهد رقم ٤١٣١ وهناد السري في الزهد والخطيب من حديث ابن عباس وله أخرى انظر تخريج أحاديث الإحياء استخراج أبي عبدالله محمود بن محمد الحداد رقم الحديث ٢٩٨٥، ٣٠٧٨.

(٤) لفظ الحديث في الإحياء ٣/ ٢٨٩ أي أمتك أشر قال الأغنياء. وقال العراقي في تخريجه غريب لم أجده بهذا اللفظ وللطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب من حديث عبدالله بن جعفر شرار أمتي الذين ولدوا في النعيم وغذوا به يأكلون الطعام ألواناً» وفيه أحرم بن حوشب وهو ضعيف ورواه هناد السري في الزهد من رواية عروة بن ريم مرسلاً وللبزار من حديث أبي هريرة بسند ضعيف نحوه.

من محمد بن عبدالله لمن أدرك ذلك الزمان من عقب عقبكم وخلف خلفكم أن لا يسلم عليهم ولا يعود مرضاهم ولا يتبع جنائزهم ولا يوقر كبيرهم ، فمن فعل ذلك فقد أعان على هدم الإسلام»[1].

وقال ﷺ : «دعوا الدنيا لأهلها ، من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ جيفة وهو لا يشعر بها»[2]، وقال ﷺ : «يقول ابن آدم: مالي مالي وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأبقيت»[3] وقال رجل: يا رسول الله ما لي لا أحب الموت؟ فقال: هل معك من مال؟ قال: نعم يا رسول الله ، قال: قدم مالك فإن قلب المؤمن مع ماله إن قدمه أحب أن يلحقه وإن خلفه أحب أن يتخلف معه»[4]، قال ﷺ : «أخلاء ابن آدم ثلاثة واحد يتبعه إلى قبض روحه والثاني إلى قبره والثالث إلى محشره فالذي يتبعه إلى قبض روحه فماله ، والذي يتبعه إلى قبره فأهله ، والذي يتبعه إلى محشره فعمله»[5]، وقال الحواريون لعيسى: مالك تمشي على الماء ولا نقدر على ذلك؟، فقال: ما منزلة الدنانير والدراهم عندكم؟ ، قالوا: حسنة ، قال: لكنهما عندي والمدر سواء[6].

---

(١) قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ٣/ ٢٨٩ أخرجه الطبراني في الكبير والأوسط من حديث أبي أمامة من حديث طويل بلفظ ستكون رجال من أمتي يأكلون. . . بسند ضعيف ثم قال ولم أجد لباقيه أصلاً وأخرجه أبو نعيم في الحلية. انظر تخريج الإحياء استخراج أبي عبد الله محمود بن محمد الحداد رقم الحديث ٢٩٨٧.

(٢) أخرجه البزار في مسنده من حديث أنس انظر كشف الأستار عن زوائد مسند البزار ٤/ ٢٧٠ رقم الحديث ٣٦٩٥ وفيه هانيء بن المتوكل ضعفه ابن حبان وانظر مجمع الزوائد ١٠/ ٢٥٤ ورواه ابن لال في مكارم الأخلاق انظر تخريج الإحياء استخراج أبي عبدالله محمود بن محمد الحداد رقم الحديث ٢٩٨٨.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه الزهد رقم الحديث ٣، ٤ من حديث مطرف بن عبدالله الشخير عن أبيه. ومن حديث أبي هريرة والنسائي في السنن الوصايا رقم الحديث ٣٦١٣ والترمذي في الزهد رقم الحديث ٢٣٤٢ وفي التفسير سورة ألهاكم التكاثر رقم الحديث ٣٣٥٤ وأحمد في المسند ٢/ ٣٦٨، ٤١٢، ٤/ ٢٤، ٢٦.

(٤) قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء لم أقف عليه.

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك ١/ ٧٤ كتاب الإيمان عن أنس وعزاه العراقي في تخريج الإحياء ٣/ ٢٨٩ لأحمد في المسند من حديث النعمان بن بشير ولم أجده في المسند بعد البحث عنه ورواه الطبراني في الكبير والأوسط من حديث النعمان بن بشير بإسناد جيد وله في الأوسط للبزار من حديث أنس أيضاً وله في الكبير وللبزار أيضاً من حديث سمرة بن جندب وللبزار أيضاً من حديث أبي هريرة انظر مجمع الزوائد ١٠/ ٢٥١ ـ ٢٥٢ وللشيخين من حديث أنس بلفظ «يتبع الميت ثلاثة فيرجع اثنان ويبقى واحد عمله» الحديث. . . البخاري في الرقاق رقم الحديث ٦٥١٤. ومسلم في الزهد رقم الحديث ٥ والترمذي في صحيحه الزهد رقم الباب ٤٦ وأخرجه أحمد في المسند ٣/ ١١٠.

(٦) وانظر إحياء علوم الدين ٣/ ٢٨٩.

وكتب سلمان إلى أبي الدرداء: يا أخي إياك أن تجمع من الدنيا ما لا تؤدي شكره فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يجاء بصاحب الدنيا الذي أطاع الله تعالى فيها وماله بين يديه كلما تكفأ به الصراط قال له: إمض فقد أديت حق الله عز وجل فيّ، ثم يجاء بصاحب الدنيا الذي لم يطع الله تعالى فيها وماله بين كتفيه كلما تكفأ به الصراط قال له ماله: ويلك، أي لا أديت حق الله تعالى، فما يزال كذلك حتى يدعو بالويل والثبور»[1]، وقال ﷺ: «إذا مات ابن آدم قالت الملائكة: ما قدم؟ وقال الناس: ما خلف[2]؟»، وقال ﷺ: «لا تتخذوا الضيعة فتحبوا الدنيا»[3]، فهذه هي الأخبار الدالة على ذم المال.

وأما الآثار فقد روي أن رجلاً نال من أبي الدرداء سوءاً، فقال: اللهم من فعل بي سوءاً فأصح جسمه وأطل عمره وأكثر ماله، فانظر كيف رأى كثرة المال غاية البلاء مع صحة الجسم وطول العمر لأنه لا بد ذلك من أن يفضي إلى الطغيان[4]، ووضع أمير المؤمنين كرم الله تعالى وجهه درهماً على كفه فقال: أما إنك ما لم تخرج لا تنفعني[5]، ورُوي عن عمر أنه أرسل إلى زينب بنت جحش بعطائها، فقالت: ما هذا؟، قالوا: أرسل إليك عمر بن الخطاب، فقالت: غفر الله له ثم حلت ستراً كان لها فقطعته صرراً وقسمته في أهل رحمها وأيتامها ثم رفعت يديها وقالت: لا يدركني عطاء عمر بعد عامي هذا، فكانت أول نساء رسول الله ﷺ لحقت به[6]، وقال الحسن: ما أعز الدراهم أحد إلا أذلّه الله تعالى، وقيل: أول من ضرب الدينار والدرهم ورفعهما إبليس لعنه الله ثم وضعهما على جبهته ثم قبلها وقال: من أحبكما فهو عبدي حقاً[7].

---

(١) قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ٣/ ٢٩٠ ليس هو من حديث سلمان وإنما هو من حديث أبي الدرداء رواه البيهقي في شعب الإيمان وقال: إنه منقطع.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان من حديث أبي هريرة يبلغ به تخريج الإحياء ٣/ ٢٩٠.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ٣٢٢ وصحح إسناده عن ابن مسعود وأخرجه الترمذي في جامعه الزهد رقم الحديث ٢٣٢٨ وقال هذا حديث حسن وهو من طريق سمرة بن عطية عن المغيرة بن سعد الأحزم عن أبيه عن ابن مسعود ولم يخرج الستة أصحاب الكتب عن هؤلاء الثلاثة غير الترمذي وقد وثقوا. وأخرجه هناد السري في الزهد وابن المبارك وابن جرير في تهذيب الآثار وانظر تخريج الإحياء استخراج أبي عبدالله محمود بن محمد الحداد رقم الحديث ٢٩٩٣.

(٤) انظر إحياء علوم الدين ٣/ ٢٩١.

(٥) انظر نفس المصدر ٣/ ٢٩١.

(٦) نفس المصدر الإحياء ٣/ ٢٩١.

(٧) متفق عليه من حديث أنس وأبي هريرة.

وحُكي عن بعض الزهاد أنه قال: الدينار والدرهم أزمة المنافقين يقادون بها إلى النار، وقال يحيى بن معاذ: الدرهم عقرب فإن لم تحسن رقيته قتلك، قلت ٠ وما رقيته؟ قال: أخذه من حله ووضعه في حقه[1].

التنبيه الرابع
في بيان ذم الطمع والحرص
ومدح القناعة واليأس عما في أيدي الناس

إعلم أن الفقر محمود كما سنوضحه من بعد هذا في مقالة المنجيات ولكن ينبغي أن يكون الفقير قانعاً منقطع الطمع عن الخلق غير ملتفت إلى ما في أيديهم ولا حريص على اكتساب المال كيف كان، ولا يمكن ذلك إلا بأن يقنع بقدر الضرورة في المطعم والملبس والمشرب والمسكن ويقتصر على أقله قدراً وأخشنه نوعاً، ويرد أمله إلى يومه أو إلى شهره أو إلى أسبوعه ولا يشغل قلبه بما وراء الشهر، فإن تشوفت نفسه إلى الكثرة والحرص وطول الأمل فإنها تجر إلى مساوىء الأخلاق وارتكاب المنكرات الخارقة للمروءات وقد جبل ابن آدم على الحرص والطمع وقلة القناعة[2].

قال رسول الله ﷺ: «يكبر ابن آدم ويشب معه اثنتان الحرص وطول الأمل»[3]، وقال الرسول ﷺ: «طوبى لمن كان عيشه كفافاً وهدي إلى الإسلام»[4]، وقال الرسول ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العرض إنما الغنى غنى النفس»[5]، وقد نهى عن شدة

= البخاري في الرقاق رقم الحديث ٦٤٢١ وعن أبي هريرة رقم ٦٤٢٠ رقم ٢٣٣٨ ومسلم الزكاة رقم الحديث ١١٥، ١١٣ والترمذي في الزهد ٢٣٣٩ وعن أبي هريرة وابن ماجه في الزهد رقم الحديث ٤٢٣٤ وعن أبي هريرة رقم ٤٢٣٣ وأحمد في المسند ٣/ ١٩٢، ٢٥٦.

(١) انظر الإحياء ٢/ ٢٩٠.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر للإحياء.

(٤) أخرجه الترمذي في الزهد رقم الحديث ٢٣٤٩ عن فضالة بن عبيد وقال هذا حديث حسن وأحمد في المسند ٥/ ٢٥٥، ٦/ ١٩ وعزاه العراقي للنسائي في السنن الكبرى وأخرجه الحاكم في المستدرك وابن المبارك والطبراني وابن حبان ولمسلم نحوه عن عبدالله بن عمرو وبلفظ «قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما أتاه» مسلم الزكاة رقم الحديث ١٢٥ وأخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه. انظر تخريج الإحياء استخراج أبي عبدالله محمود بن محمد الحداد رقم الحديث ٣٠٠٦.

(٥) متفق عليه من حديث أبي هريرة.

أخرجه البخاري في الرقاق باب الغنى غنى النفس رقم الحديث ٦٤٤٦ ومسلم في صحيحه الزكاة رقم الحديث ١٢٠.

الحرص والمبالغة في الطلب فقال: «ألا أيها الناس أجملوا في الطلب فإنه ليس لعبد إلا ما كتب له وقُدِّر، ولن يذهب أحد من الدنيا حتى يأتيه ما كتب له في الدنيا وهي راغمة»[1]، وروي أن موسى صلوات الله عليه سأل الله عز وجل فقال: أي عبادك أغنى؟، قال: أقنعهم بما أعطي، قال: فأيهم أعدل؟، قال: من أنصف من نفسه[2].

وقال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ: «كن ورعاً تكن أعبد الناس وكن قنعاً تكن أشكر الناس، وأحب للناس ما تحبه لنفسك تكن مؤمناً»[3]، وروى أبو أيوب الأنصاري أن أعرابياً أتى الرسول ﷺ، فقال: يا رسول الله عظني وأوجز، فقال: «إذا صليت فصل صلاة مودع ولا تحدثن بحديث تعتذر منه غداً وأجمع اليأس عما في أيدي الناس»[4]، ورُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تسألوا الناس شيئاً»[5]، فهذه هي الأخبار الدالة على ذم الطمع والحرص.

وأما الآثار فقد قال عمر رضي الله عنه: الطمع فقر واليأس غنى وإنه من يئس عما في أيدي الناس استغنى عنهم، وقيل لبعض الحكماء: ما الغنى؟ قال: قلة تمنيك ورضاك بما يكفيك، وكان محمد بن واسع يبل الخبز اليابس بالماء ويأكله ويقول: من قنع بهذا لم يحتج إلى أحد[6]. وقال سفيان: خير دنياكم ما لم تبتلوا به وخير ما ابتليتم به

---

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن الزهد رقم الحديث ٢١٤٢ عن أبي حميد الساعدي وسنده ضعيف أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ٣٢٥ عن جابر وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي وأخرجه أيضاً من حديث أبي حميد الساعدي وهو أيضاً عند الطبراني والبيهقي ولابن عساكر من حديث ابن عمر نحوه.

(٢) انظر الإحياء ٣/ ٢٩١.

(٣) أخرجه ابن ماجه في الزهد رقم الحديث ٤٢١٧ عن أبي هريرة بلفظ «كن ورعاً تكن أعبد الناس» وقال البوصيري في زوائد ابن ماجه. إسناده حسن ورواه الخرائطي في مكارم الأخلاق والبيهقي في الشعب وللخرائطي من حديث الدرداء وسنده ضعيف.

(٤) أخرجه ابن ماجه في السنن الزهد رقم الحديث ٤١٧١ وإسناده ضعيف لأن فيه عثمان بن جبير مجهول.
ورواه الخرائطي في مكارم الأخلاق وابن عساكر في تاريخ دمشق والعسكري في الأمثال والحاكم في المستدرك الرقاق ٤/ ٣٢٦ وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي وفيه حماد ويقال محمد بن حميد مجمع على ضعفه وله شواهد أخرى.
انظر تخريج الإحياء استخراج أبي عبدالله محمود بن محمد الحداد رقم الحديث ٣٠١٢.

(٥) أخرجه مسلم في صحيح الزكاة رقم الحديث ١٠٨ عن عوف بن مالك من حديث طويل وأبو داود في السنن الزكاة رقم الحديث ٢٨٤٢.
وانظر تخريج الإحياء استخراج أبي عبدالله محمود بن محمد الحداد رقم الحديث ١٠١٣.

(٦) انظر الإحياء ٣/ ٢٩٧.

ما خرج عن أيديكم منها[1]، وقال ابن مسعود: ما من يوم إلا وملك ينادي: يا ابن آدم قليل يكفيك خير من كثير يطغيك[2]، وقال بعض الزهاد: إنما بطنك يا ابن آدم شبر في شبر فلم يدخلك النار؟، وقيل لحكيم: ما مالك؟، قال: التجمل في الظاهر والقصد في الباطن واليأس مما في أيدي الناس[3].

ويروى أن الله عز وجل قال: يا ابن آدم لو كانت الدنيا كلها لك لم يكن لك منها إلا القوت فإذا أنا أعطيتك منها القوت وجعلت حسابها على غيرك فأنا إليك محسن، وقال ابن مسعود: إذا طلب أحدكم الحاجة فليطلبها يسيراً ولا يأتي الرجل فيقول إنك وإنك فيقطع ظهره، فإنما يأتيه ما قسم له وقدر وما رزق، وكتب بعض بني أمية إلى أبي حازم فعزم عليه إلا ما رفع حوائجه فكتب إليه: رفعت حوائجي إلى مولاي فما أعطاني منها قبلت وما أمسك عني قنعت، وقيل لبعض الحكماء: أي شيء أسر إلى العاقل وأيها أعون على دفع الحزن؟ فقال: أسرها ما قدم من صالح العمل وأعونها له على دفع الحزن الرضى بمحتوم القدر، وقال بعض الحكماء: وجدت أطول الناس غماً الحسود وأهنأهم عيشاً القنوع وأصبرهم على الأذى الحريص إذا طمع وأخفضهم عيشاً أرفضهم للدنيا وأعظمهم ندامة العالم المفرط[4].

وقال عمر رضي الله عنه: ألا أخبركم بما استحل من مال الله عز وجل حلتان لشتائي وقيظي وما أستغنى به من الظهر به لحجتي وعمرتي، وقوتي بعد ذلك كقوت رجل من قريش لست بأرفعهم ولا بأوضعهم ووالله لا أدري أيحل لي ذلك أم لا كأنه شك في هذا القدر هل هو زيادة على الكفاية التي تجب القناعة بها، وعاتب أعرابي أخاه على الحرص فقال: يا أخي أنت طالب ومطلوب يطلبك من لا تفوته وتطلب أنت ما قد كفيته، وكل ما غاب عنك فقد كشف لك وما أنت فيه قد نقلت عنه كأنك لم تر حريصاً محروماً وزاهداً مرزوقاً[5].

وقال ابن السماك: الرجاء حبل في قلبك قيد في رجلك فأخرج الرجاء من قلبك

---

(١) نفس المصدر.
(٢) نفس المصدر الإحياء.
(٣) نفس المصدر الإحياء.
(٤) الإحياء ٣/ ٢٩٧.
(٥) الإحياء ٣/ ٢٩٧.

يخرج القيد من رجلك، وقيل لعبدالله بن سلام: ما يذهب العلوم من قلوب العلماء بعد أن عرفوها وعقلوها؟، قال: الطمع وشره النفس بطلب الحوائج، وقال بعض الحكماء: من عجيب أمر الإنسان أنه لو نودي بدوام البقاء في الدنيا لم يكن في قوى خلقته أكثر مما قد استعمله في طلب الحرص على الطمع مع قصر مدة التمتع وتوقع الزوال، وقال عبد الواحد: مررت براهب فقلت له: من أين تأكل؟، فقال: من بيدر اللطيف الخبير الذي خلق الأرحية يخلق الطحين وأشار إلى أضراسه[1].

التنبيه الخامس
في بيان العلاج في إزالة الحرص والطمع
وبيان الدواء الذي تحصل به القناعة

ومجموع ذلك راجع إلى علاجات خمسة:

العلاج الأول: الإقتصاد في المعيشة والرفق في الإنفاق، فمن أراد عزة القناعة فينبغي أن يسد على نفسه أبواب التوسعات مهما أمكنه ويرد نفسه إلى ما لا بد منه فمن كثر اتساعه لم يمكنه القناعة، وقد قال ﷺ: «إن الله يحب الرفق في الأمر كله»[2]، وقال ﷺ: «ما عال من اقتصد»[3]، وقال ﷺ: «ثلاث منجيات خشية الله تعالى في السر والعلانية والقصد في الغنى والفقر والعدل في الرضى والغضب»[4] وروي أن رجلاً أبصر أبا الدرداء يلتقط حباً من الأرض، فقال: «إن من فقهك رفقك في المعيشة»، وقال ابن عباس قال الرسول ﷺ: «الاقتصاد وحسن الصمت والهدى الصالح بضع من عشرين

---

(١) نفس المصدر الإحياء ٧/ ٢٩٧.

(٢) متفق عليه من حديث عائشة وتقدم ص ١٩١ التعليق رقم (١).

(٣) أخرجه الطبراني وأحمد في المسند ١/ ٤٤٧ من حديث ابن مسعود ورواه الطبراني من حديث ابن عباس أيضاً في الكبير والأوسط وكلاهما ضعيف.

وانظر مجمع الزوائد ١/ ٢٥٢ وقال الهيثمي رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط. وفي إسنادهم أسرار من مسلم الهجري وهو ضعيف.

والطبراني في الصغير والعسكري والقضاعي والحاكم وانظر تخريج الإحياء أبي عبدالله محمود بن محمد الحداد رقم الحديث ٣٠١٥.

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير، والبزار من حديث أنس، وإسناده ضعيف، وأخرجه البيهقي وأبو نعيم، انظر تخريج الإحياء. استخراج أبي عبدالله محمود بن محمد الحداد.

جزءاً من النبوة»[1] وفي الخبر «التدبير نصف المعيشة»[2]، وقال الرسول ﷺ: «من اقتصد أغناه الله تعالى ومن بذر أفقره الله تعالى، ومن ذكر الله عز وجل أحبه الله»[3]، وقال ﷺ: «إذا أردت أمراً فعليك بالتؤدة حتى يجعل الله فيه فرجاً ومخرجاً»[4].

العلاج الثاني: إنه إذا تيسر له في الحال ما يكفيه فلا ينبغي أن يكون شديد الاضطراب لأجل الاستقبال ويعينه على ذلك قصر الآمال وتوطين النفس بأن الرزق الذي قدر له لا بد أن يأتيه وإن لم يشتد حرصه عليه، وأن شدة الحرص ليس سبباً لحصول الأرزاق بل ينبغي أن يكون واثقاً بوعد الله تعالى لقوله تعالى: ﴿**وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها**﴾ (هود: ٦).

العلاج الثالث: أن يعرف ما في القناعة من عز الاستغناء وما في الطمع والحرص من الذل، فإذا تحقق ذلك عنده انبعثت رغبته إلى القناعة لأنه في الحرص لا يخلو من تعب وفي الطمع لا يخلو من ذل وليس في القناعة إلا ألم الصبر عن الشهوات والفضول، ومن لا يؤثر عز النفس على شهوة البطن فهو ركيك العقل ناقص الإيمان، قال الرسول ﷺ: «عز المؤمن استغناؤه عن الناس»[5]، ففي القناعة الحرية والعز ولذلك قيل: استغن عمن شئت تكن نظيره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره، وأحسن إلى من شئت تكن أميره[6].

العلاج الرابع: أن يكثر تأمله في تنعم اليهود والنصارى وأراذل الناس والحمقى من الأكراد والأجلاف من العرب ومن لا دين له ولا عقل ثم ينظر إلى أحوال الأنبياء

---

(١) انظر الإحياء ٣/ ٣٠٠.

(٢) أخرجه أبو داود في السنن من حديث ابن عباس.

(٣) أخرجه الحاكم، وأبو منصور الديلمي في الفردوس من حديث أنس وفيه خلاد بن عيسى: جَهّله العقيلي، ووثقه ابن معين انظر تخريج الإحياء للعراقي ٣/ ٣٠٠.

(٤) أخرجه البزار من حديث طلحة بن عبيد الله، وفيه عمران بن هارون البصري. قال الذهبي: شيخ لا يعرف حاله أتى بخبر منكراً انظر كشف الأستار عن زوائد مسند البزار، ومجمع الزوائد ولأحمد في المسند عن أبي سعيد نحوه ولأبي يعلى في مسنده أيضاً عنه بلفظ «ومن أكثر من ذكر الله أحبه الله» انظر تخريج أحاديث الإحياء ٣/ ٣٠٠.

(٥) رواه ابن المبارك في البر والصلة وتقدم نحوه ص ١٩١ التعليق رقم ١١.

(٦) أخرجه الطبراني في الأوسط، والحاكم في المستدرك، وصحح إسناده وأبو الشيخ في كتاب الثواب، وأبو نعيم في الحلية من حديث سهل بن سعد، وفيه زخر بن سليمان عن محمد بن عيينة وكلاهما مختلف فيه وأخرجه القضاعي في مسند الشهابي. وانظر تخريج أحاديث الإحياء ٣/ ٣٠١.

والأولياء عليهم السلام وإلى سمت الخلفاء الراشدين وسائر الصحابة والتابعين وتستمع أحاديثهم وتطالع أخبارهم وأحوالهـم وتخير عقلك بين أن تكون علـى مشابهـة أراذل الخلق أو على الاقتداء بمن هو أعز أصناف الخلق عند الله عز وجل حتى يهونُ عليك بذلك الصبر على القليل والقناعة باليسير وأنه إن تنعـم بكثـرة الأكل فالثـور والحمـار يأكلان كثيراً ، وإن تنعم بالوقاع فالخنزير أعلا رتبة منه ، وإن تزين باللبس والخيل ففي اليهود والنصارى من هو أكثر منه وأعظم حالاً في ذلك ، وإن قنع بالقليل ورضي به لم يساهمه في رتبته إلا الأنبياء[1] .

العلاج الخامس : أن يكون فاهماً ما في جمع المال من الخطر كما ذكرنا في ذمه وما يحصل فيه من هم السرقة والنهب والضياع مع ما يفوته من المدافعة عن باب الجنة إلى خمسمائة عام وإن لم يقتنع بما يكفيه التحق في زمـرة الأغنياء وخـرج عن جريدة الفقراء ، قال أبو ذر : أوصاني خليلي أن أنظر إلى من دونـي لا إلـى من هو فوقـي في الدنيا[2] ، وقال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ : «إذا نظر أحدكم إلى من فضله الله تعالى عليه في المال والخلق فلينظر إلى من هو أسفل منه ممن فضل عليه»[3] ، فبهذه الأمور يقدر على اكتساب خلق القناعة وعماد الأمر في ذلك الصبر وقصر الأمل وأن يعلم أن غاية صبره في الدنيا أيام قلائل ليتمتع دهوراً طويلة فيكون كالمريض الذي يصبر على مرارة الدواء لشدة طمعه في انتظار الشفاء والله أعلم بالصواب .

التنبيه السادس
في بيان فضيلة السخاء

إعلم أن المال إن كان مفقوداً فينبغي أن تكون حالة العبد القناعة وقلة الحرص ، وإن كان موجوداً فينبغي أن يكون حاله الإيثار والسخاء واصطناع المعروف والتباعد من الشح والبخل فإن السخاء من أخلاق الأنبياء وهو أصل من أصول النجاة ، وعنـه عبـر رسول الله ﷺ حيث قال : «السخاء شجرة من شجر الجنة أغصانها متدلية إلى الأرض من أخذ منها غصناً قاده ذلك الغصن إلى الجنة»[4] وقال جابر قال رسول الله ﷺ : «قـال

---

(١) انظر الإحياء ٣/ ٣٠٠.

(٢) حديث أبي ذر «أوصاني خليلي أن أنظر إلى من هو دوني لا إلى من هو فوقي في الدنيا».
أخرجه أحمد وابن حبان من حديث أبي ذر انظر الإحياء ٣/ ٣٠٢.

(٣) متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٤) أخرجه ابن حبان في الضعفاء من حديث عائشة. وابن عدي في الكامل والدارقطني في المستجاد من حديث أبي=

جبريل عليه السلام قال الله عز وجل: «إن هذا دين ارتضيته لنفسي ولن يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق فأكرموه بهما ما استطعتم»[١]، وفي رواية أخرى فأكرموه بهما ما صحبتموه وعن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ: «ما جبل الله ولياً إلا على السخاء وحسن الخلق»[٢] وعن جابر قيل: يا رسول الله أي الإيمان أفضل؟ قال: الصبر والسماحة[٣].

وعن عبد الله بن عمر قال، قال رسول الله ﷺ: «خلقان يحبهما الله تعالى وخلقان يبغضهما الله عز وجل، فأما اللذان يحبهما فحسن الخلق والسخاء، وأما اللذان يبغضهما فسوء الخلق والشح، فإذا أراد لعبد خيراً استعمله على قضاء حوائج الخلق»[٤] وروي عن الرسول ﷺ أنه قال لما قال له رجل: دلني على عمل يدخلني الجنة، قال: «إن موجبات المغفرة بذل الطعام وإفشاء السلام وحسن الكلام»[٥]، وقال الرسول ﷺ: «اطلبوا الفضل من الرحماء من عبادي تعيشوا في أكنافهم فإني جعلت فيهم رحمتي ولا تطلبوه من القاسية قلوبهم فإني جعلت فيهم غضبي»[٦] وعن ابن عباس رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «تجافوا عن ذنب السخي فإن الله تعالى آخذ بيده كلما عثر»[٧]، وقال

= هريرة، وأبو نعيم من حديث جابر وكلاهما ضعيف. ورواه ابن الجوزي في الموضوعات من حديثهم ومن حديث الحسين وأبي سعيد. انظر تخريج أحاديث الإحياء ٣/ ٣٠٢.

(١) أخرجه الدارقطني في المستجاد وهو ضعيف وتقدم في الذي قبله.

(٢) أخرجه الدارقطني في المستجاد أيضاً بسند ضعيف، وأخرجه ابن الجوزي في الموضوعات، ورواه ابن عدي في الكامل من رواية بقية عن يوسف بن أبي السفر عن الأوزاعي عن الزهري عن عائشة ويوسف ضعيف جداً. انظر تخريج أحاديث الإحياء ٣/ ٣٠٣.

(٣) رواه أبو يعلى في مسنده، وابن حبان في الضعفاء وفيه يوسف بن محمد بن المنكدر ضعفه الجمهور، ورواه أحمد في المسند من حديث عائشة، ومن حديث عمرو بن عتبة، وفيه شهر بن حوشب ورواه البيهقي في الزهد الكبير بلفظ «أي الأعمال أفضل... وفيه زيادة وحسن الخلق». وانظر تخريج الإحياء للعراقي ٣/ ٣٠٣.

(٤) رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس وفيه محمد بن يونس الكديمي كذبه أبو داود ويونس بن هارون وغيرهما ووثقه الخطيب البغدادي ورواه أيضاً من حديث أنس. ورواه الأصبهاني في الترغيب والترهيب من حديث عبدالله ابن عمرو موقوفاً تخريج الإحياء ٣/ ٣٠٣.

(٥) أخرجه الطبراني من حديث المقدام بن شريح عن أبيه عن جده انظر مجمع الزوائد وتخريج الإحياء ٣/ ٣٠٣.

(٦) أخرجه ابن حبان في الضعفاء، وللطبراني في الأوسط والخرائطي في مكارم الأخلاق وفيه محمد بن مروان السدي الصغير وهو كذاب. ، والحديث رواه الحاكم في المستدرك من حديث علي وصححه.

(٧) رواه الطبراني في الأوسط، والخرائطي في مكارم الأخلاق. وفيه ليث بن أبي سليم مختلف فيه ورواه الطبراني في الكبير عن ابن مسعود نحوه بإسناد ضعيف وأبو نعيم في الحلية وأورده ابن الجوزي في الموضوعات من طريق الدارقطني. انظر تخريج الإحياء ٣/ ٣٠٤.

ابن مسعود رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «الرزق إلى مطعم الطعام أسرع من السكين إلى ذروة البعير وإن الله تعالى ليباهي بمطعم الطعام الملائكة»[1].

وقال الرسول ﷺ: «إن الله جواد يحب الجواد ويحب مكارم الأخلاق ويكره سفسافها»[2]، وقال أنس إن الرسول ﷺ لم يسأل على الإسلام شيئاً إلا أعطاه فأتاه رجل فسأله فأمر له بشياه كثيرة بين جبلين من شياه الصدقة فرجع إلى قومه فقال: يا قوم أسلموا فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة»[3]، وقال الرسول ﷺ: «إن لله تعالى عباداً يخصهم بالنعم لمنافع خلقه فمن يبخل بتلك المنافع على العباد نقلها الله عز وجل منه وحولها إلى غيره»[4]، وروي أن الرسول ﷺ أتي بأسرى من بني العنبر فأمر بقتلهم وأفرد رجلاً منهم فقال عليّ كرم الله وجهه: الرب واحد والدين واحد فما بال هذا من بينهم؟ فقال الرسول ﷺ: «نزل علي جبريل عليه السلام فقال: اقتل هؤلاء واترك هذا فإن الله عز وجل شكر له سخاء فيه[5].

وقال ﷺ: «إن لكل شيء ثمرة وثمرة المعروف تعجيل السراح بالعطاء»[6]، وعن نافع عن ابن عمر قال، قال رسول الله ﷺ: «طعام الجواد دواء وطعام البخيل داء»[7]، وقال ﷺ: «من عظمت نعمة الله عليه عظمت مؤنة الناس عليه، فمن لم يحتمل تلك المؤنة عرض تلك النعمة للزوال»[8]، وقال عيسى صلوات الله عليه: استكثروا من شيء

---

(1) أخرجه ابن ماجه من حديث أنس. انظر السنن ومن حديث ابن عباس نحوه، وأخرجه أبو الشيخ في كتاب الثواب من حديث جابر وكلاهما ضعيف. وقال العراقي: في تخريج أحاديث الإحياء ٣/ ٣٠٤. لم أجده من حديث ابن مسعود.

(2) أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث طلحة بن عبيد الله بن كريز مرسلاً وللطبراني في الكبير والأوسط نحوه من حديث سهل بن سعد، وأخرجه الحاكم في المستدرك. والبيهقي وإسناده صحيح. انظر تخريج الإحياء ٣/ ٣٠٤ وصححه الألباني في الأحاديث الصحيحة رقم (٤٥).

(3) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أنس.

(4) أخرجه الطبراني في الكبير والأوسط. من حديث ابن عمر وفيه محمد بن حسان السحني فيه لين، ووثقه ابن معين، وأخرجه أبو نعيم في الحلية. انظر تخريج الإحياء ٣/ ٣٠٤.

(5) قال العراقي في تخريج الإحياء ٣/ ٣٠٤ لم أجد له أصلاً.

(6) قال العراقي لم أجد له أصلاً. تخريج أحاديث الإحياء ٣/ ٣٠٤.

(7) أخرجه ابن عدي في الكامل. والدارقطني في غرائب مالك، وأبو علي الصدفي في عواليه. وانظر تخريج الإحياء للعراقي ٣/ ٣٠٢ وقال: رجاله ثقات، وقال ابن القطان: فيه مقدام بن داود تكلم فيه أهل مصر.

(8) رواه ابن عدي في الكامل عن معاذ وفيه أحمد بن مروان مجهول وابن حبان في الضعفاء، والخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث ابن عمر بإسناد منقطع وفيه جليس بن محمد أحد المتروكين ورواه العقيلي في الضعفاء من=

لا تأكله النار قيل: وما هو؟ قال: المعروف[1]، وقالت عائشة رضي الله عنها قال الرسول ﷺ: «الجنة دار الأسخياء»[2]، وقال أبو هريرة قال الرسول ﷺ: «إن السخي قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة بعيد من النار، وإن البخيل بعيد من الله بعيد من الناس بعيد من الجنة قريب من النار، وجاهل سخي أحب إلى الله تعالى من عالم بخيل، وأدوأ الداء البخل»[3].

وقال الرسول ﷺ: «إصنع المعروف إلى من هو أهل له وإلى من ليس بأهله فإن أصبت أهله فهو أهله وإن لم تصب أهله كنت أهله»[4].

وقال الرسول ﷺ: «إن بدلاء أمتي لم يدخلوا الجنة بصلاة ولا صيام ولكن دخلوها بسخاء الأنفس وسلامة الصدور والنصح للمسلمين»[5]، وقال أبو سعيد الخدري قال رسول الله ﷺ: «إن الله جعل للمعروف وجوهاً من خلقه حبب إليهم المعروف وحبب إليهم فعاله ووجه طلاب المعروف إليهم ويسر عليهم إعطاءه كما يتيسر الغيث إلى البلدة الجديبة فيحيها ويحيي أهلها»[6] وقال رسول الله ﷺ: «كل معروف صدقة وكلما أنفق الرجل على نفسه وأهله كتبت له صدقة، وما وقى به المرء عرضه فهو صدقة، وما أنفق الرجل نفقة فعلى الله خلفها»[7] وقال ﷺ: «كل معروف صدقة والدال

= حديث ابن عباس من وجوه كلها غير محفوظة وقال أبو حاتم: حديث باطل. انظر تخريج الإحياء ٣/ ٣٠٥.

(١) الإحياء ٣/ ٣٠٥.

(٢) أخرجه ابن عدي في الكامل، والدارقطني في المستجاد وقال: لا يصح، وأورده ابن الجوزي في الموضوعات والخرائطي في مكارم الأخلاق. وقال الذهبي: حديث منكر. انظر تخريج أحاديث الإحياء ٣/ ٣٠٥.

(٣) رواه الترمذي في السنن وقال: غريب ولم يذكر منه الجملة الأخيرة قوله: «جاهل سخي» وهذه الزيادة أخرجها الدارقطني انظر تخريج الإحياء ٣/ ٣٠٥.

(٤) رواه الدارقطني في المستجاد من رواية جعفر بن محمد عن أبيه عن جده مرسلاً. انظر تخريج الإحياء ٣/ ٣٠٥.

(٥) أخرجه الدارقطني في المستجاد، وابن لال في مكارم الأخلاق من حديث أنس وفيه محمد بن عبد العزيز المبارك الدينوري أورد له ابن عدي مناكير. وقال الذهبي في ميزان الاعتدال: هو ضعيف ومنكر الحديث. ورواه الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث أبي سعيد بنحوه وفيه صالح المري متكلم فيه انظر تخريج الإحياء ٣/ ٣٠٥.

(٦) رواه الدارقطني في المستجاد من رواية أبي هارون العبدي عن أبي سعيد، وأبو هارون ضعيف.
ورواه الحاكم في المستدرك من حديث علي وصححه. انظر تخريج الإحياء ٣/ ٣٠٧.

(٧) رواه الدارقطني في المستجاد. وابن عدي في الكامل، والبيهقي في شعب الإيمان، الجميع من حديث جابر وفيه عبد الحميد بن الحسن الهلالي وثقه ابن معين وضعفه الجمهور والجملة الأخيرة في الصحيحين عند البخاري من حديث جابر وعند مسلم من حديث حذيفة. انظر تخريج الإحياء ٣/ ٣٠٥.

على الخير كفاعله والله تعالى يحب إعانة اللهفان»[1]، وقال ﷺ : «كل معروف جعلته إلى غني أو فقير فهو صدقة»[2] وروي أن الله تعالى أوحى إلى موسى ﷺ لا تقتل السامري فإنه سخي[3]، وقال جابر: بعث رسول الله ﷺ بعثاً أمر عليهم قيس بن سعد بن عبادة فنحر لهم تسع ركائب فحدثوا رسول الله فقال ﷺ : «إن الجود لمن شيمة أهل ذلك البيت»[4] فهذه الأخبار في السخاء.

وأما الآثار: فقال أمير المؤمنين كرم الله وجهه: إذا أقبلت الدنيا فأنفق منها فإنها لا تفنى، وإذا أدبرت الدنيا فأنفق منها فإنها لا تبقى وسأل[5] معاوية الحسن بن علي رضي الله عنه عن المروءة والنجدة والكرم، فقال له: أما المروءة فحفظ الرجل دينه وجدة[6] نفسه وحسن قيامه بصنيعه وحسن المنازعة والإقدام في الكراهية، وأما النجدة فالذب عن الجار، والصبر في المواطن، وأما الكرم فالتبرع بالمعروف قبل السؤال والإطعام في المحل والرأفة بالسائل مع بذل النائل[7] ورفع رجل إلى الحسن بن علي رضي الله عنه رقعة فقال: حاجتك مقضية، فقيل له: يا ابن بنت رسول الله لو نظرت في رقعته ثم رددت الجواب على قدر ذلك، فقال: لئلا يسألني الله عز وجل عن ذل مقامه بين يدي حتى أقرأ رقعته[8] وقال ابن السماك: عجباً لمن يشتري المماليك بماله ولا يشتري الأحرار بمعروفه ولين مقاله، وسئل بعض الأعراب فقيل له: من سيدكم؟ فقال: من احتمل شتمنا وأعطى سائلنا وأغضى عن جاهلنا.

وقال علي بن الحسين رضي الله عنه : من وصف ببذل ماله لطلابه لم يكن سخياً

---

(١) رواه الدارقطني في المستجاد من رواية الحجاج بن أرطأة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وحجاج ضعيف الحديث لكن لهذا الحديث شواهد ومن شواهده ما تقدم قبله انظر تخريج الإحياء ٣/ ٣٠٥.

(٢) أخرجه الدارقطني في المستجاد من حديث أبي سعيد وجابر وأخرجه الطبراني في مكارم الأخلاق، والخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث ابن مسعود وأخرجه ابن منيع من حديث ابن عمر بإسنادين ضعيفين. انظر تخريج الإحياء ٣/ ٣٠٥.

(٣) الإحياء ٣/ ٣٠٦.

(٤) أخرجه الدارقطني في المستجاد من رواية أبي حمزة الحميري عن جابر ولا يعرف إسم أبي حمزة ولا حاله. انظر تخريج الإحياء ٣/ ٣٠٦.

(٥) انظر الإحياء ٣/ ٣٠٦.

(٦) انظر الإحياء ٣/ ٣٠٦.

(٧) انظر الإحياء ٣/ ٣٠٦.

(٨) نفس المصدر.

وإنما السخي من يبتدىء بحقوق الله تعالى في أهل طاعته ولا تنازعه نفسه إلى حب الشكر له إذا كان يقينه بثواب الله تعالى تاماً[1]، وقيل للحسن البصري: ما السخاء؟ قال: أن تجود بمالك في الله تعالى، قيل: فما الحزم؟ قال: أن تمنع مالك، قيل: فما الإسراف؟ قال: الإنفاق لحب الرياسة[2]، وقال جعفر الصادق رضي الله عنه: لا مال أعود من العقل ولا مصيبة أعظم من الجهل ولا مظاهرة كالمشورة، ألا وإن الله عز وجل يقول: إني جواد كريم لا يجاورني لئيم واللؤم من الكفر والكفر في النار والجود والكرم من الإيمان وأهل الإيمان في الجنة[3].

وقال حذيفة: رب فاجر في دينه أخرق في معيشته يدخل الجنة بسماحته، ورأى الأحنف بن قيس رجلاً في يده درهم، فقال: لمن هذا الدرهم؟ فقال: لي، فقال: أما إنه ليس لك حتى تخرجه من يدك، ولقد صدق من قال في تقرير هذا المعنى

أنت للمال الذي أمسكته ... فإذا أنفقته فالمال لك

وسمي واصل بن عطاء بالغزال لأنه كان يخل إلى الغزالات والغزالين فإذا رأى امرأة ضعيفة أعطاها شيئاً، وقال الأصمعي كتب الحسن السبط إلى أخيه الحسين رضي الله عنهما يعيب عليه إعطاء الشعراء، فكتب إليه: خير المال ما وقي به العرض، وقيل لسفيان بن عيينة: ما السخاء؟ قال: البر بالإخوان والجود بالمال، وورث عبد الرحمن بن الحارث خمسين ألفاً من الفضة فبعث بها إلى إخوانه صرراً وقال: أنا أسأل لإخواني الجنة في صلاتي وأبخل عليهم بالدنيا[4].

ومن أحسن ما قيل من الشعر في هذا المعنى قول بعضهم:

لا تبخلن بدنيا وهي مقبلة ... فليس ينقصها التبذير والسرف

فإن تولت فأحرى أن تجود بها ... فالحمد منها على ما أدبرت خلف

وقال الحسن: بذل المجهود في بذل الموجود منتهى غاية الجود، وقال المهدي لشبيب بن شيبة: كيف رأيت الناس في داري؟، فقال: رأيت الداخل راجياً والخارج راضياً[5].

---

(١) نفس المصدر

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر.

(٤) نفس المصدر الإحياء ٣/ ٣٠٧.

(٥) نفس المصدر الإحياء ٣/ ٣٠٧.

ونختم هذا الباب بالكلام في حكاية الأسخياء روى محمد بن المنكدر عن أم درة وكانت تخدم عائشة رضي الله عنها أنها قالت: إن ابن الزبير بعث إليها بمال في غرارتين مائة وثمانين ألفاً فدعت بطبق وجعلت تقسمه بين الناس فلما أمست قالت: يا جارية هلم فطري فجاءتها بخبز وزيت فقالت لها أم درة: ما استطعت فيما قسمت اليوم أن تشتري لحماً بدرهم نفطر عليه، فقالت: لو ذكرتني لفعلت، وقال مصعب بن الزبير: حج معاوية فلما انصرف مر بالمدينة فقال الحسين بن علي رضي الله عنه لأخيه الحسن بن علي رضي الله عنه: لا تلقه ولا تسلم عليه، فلما خرج معاوية قال الحسن بن علي رضي الله عنه: إن علينا ديناً ولا بد من إتيانه فركب في أثره ولقيه وسلم عليه وأخبره بدينه، فمروا ببختي عليه ثمانون ألفاً قد أعيى وتخلف عن الإبل وقوم يسوقونه فقال معاوية: ما هذا؟ فذكروا له، فقال: اصرفوه بما عليه إلى أبي محمد[1].

وحكى الواقدي أن المأمون رفعت إليه رقعة من بعض الناس يذكر فيها كثرة الدين وقلة صبره عليه فوقع المأمون على ظهر رقعته إنك رجل اجتمع فيك خصلتان سخاءٌ وحياءٌ أما السخاء فهو الذي أطلق ما في يدك وأما الحياء فهو الذي منعك أن تبلغنا ما أنت عليه وقد أمرت بمائة ألف درهم فإن كنت قد أصبت فازدد في بسط يدك وإن لم أكن أصبت فجنايتك على نفسك وأنت حدثتني وكنت على قضاء حوائج الرشيد[2].

وسأل رجل الحسن بن علي رضي الله عنه حاجة فقال له: ما هذا أحق سؤالك إياي يعظم لدي ومعرفتي بما يجب لك يكثر علي ويدي تقصر عن نيلك بما أنت أهله والكثر في ذات الله تعالى قليل، وما في ملكي وفاء بشكرك فإن قبلت الميسور ورفعت عن مؤنة الاحتيال والاهتمام لما أتكلف من واجبك فعلت، فقال يا ابن بنت رسول الله ﷺ: أقبل وأشكر العطية وأعذر على المنع، فدعا الحسن وكيله وجعل يحاسبه على نفقاته حتى استقصاها فقال: هات الفاضل منها من ثلثمائة ألف فأحضر خمسين ألفاً قال: فما فعلت خمسمائة دينار قال: هي عندي قال: أحضرها فأحضرها فدفعهما - أعني الدراهم والدنانير - إلى الرجل فقال: هات من يحملها لك فأتى بحمالين فدفع الحسن رداءه لكرى

---

(١) نفس المصدر الإحياء ٣/٣٠٧.

(٢) نفس المصدر الإحياء ٣/ ٣٠٨.

الحمالين، فقال له غلمانه: والله ما عندي درهم، فقال: ولكني أرجو أن يكون لي عند الله أجر عظيم(١).

واجتمع قراء البصرة إلى ابن عباس وهو عامل البصرة فقالوا له: لنا جار صوام قوام يتمنى كل واحد منا أن يكون مثله وقد زوج بنتاً له من ابن أخيه وليس عنده ما يجهزها به، فقام عبدالله بن عباس وأخذ بأيديهم وأدخلهم داره وفتح لهم صندوقاً فأخرج منه ست بدر، فقال: احملوها فحملوها، فقال ابن عباس: ما أنصفناه أعطيناه ما يشغله عن صيامه وقيامه، أرجعوا بنا نكون عوناً له على تجهيزها، فليس للدنيا من القدر ما يشغل مؤمناً عن عبادة ربه وليس بنا من التكبر ما لا يخدم أولياء الله تعالى ففعل وفعلوا(٢).

وحكى أبو الحسن المدايني أن الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر خرجوا حجاجاً ففاتتهم أثقالهم فجاعوا وعطشوا فمروا بعجوز في خباء، فقالوا: هل من شراب؟ فقالت: نعم فأناخوا إليها وليس لها إلا شويهة في كسر الخيمة، فقالت: احلبوها وامتذقوا لبنها ففعلوا ذلك ثم قالوا لها: هل من طعام؟ فقالت: لا إلا هذه الشاة فليذبحها أحدكم حتى أهيىء لكم ما تأكلون فقام إليها أحدهم فذبحها، وكشطها، ثم هيأت لهم طعاماً فأكلوا وأقاموا حتى أبردوا، فلما ارتحلوا قالوا: نحن نفر من قريش من هذا الوجه فإذا رجعنا سالمين فألمي بنا فإنا صانعون لك خيراً، ثم ارتحلوا وأقبل زوجها فأخبرته بخبر القوم والشاة فغضب الرجل وقال: ويلك تذبحين شاتي لقوم لا تعرفينهم ثم يقولون نفر من قريش، ثم بعد مدة ألجأتهما الحاجة إلى دخول المدينة فدخلا فجعلا ينقلان البعر إليها ويبيعانه ويتعشيان بثمنه، فمرت العجوز في بعض سكك المدينة فإذا الحسن بن علي، رضي الله عنه جالس على باب داره فعرف العجوز وهي له منكرة فبعث غلامه ودعا بالعجوز فقال لها: يا أمة الله تعرفيني؟ قالت: لا، قال: أنا ضيفك يوم كذا وكذا، قالت العجوز: بأبي وأمي هو، قال: نعم ثم أمر الحسن بن علي رضي الله عنه فاشترى لها ألف شاة من شياه الصدقة وأمر لها معها بألف دينار، وبعث بها مع غلامه إلى الحسين ابن علي رضي الله عنه، فقال لها الحسين: بكم وصلك أخي؟ قالت: بألف شاة وألف دينار فأمر لها الحسين بمثل ذلك، ثم بعث بها مع غلامه إلى عبد الله بن جعفر رضي الله عنه، فقال لها: بكم وصلك الحسن والحسين؟ قالت: بألفي شاة وألفي دينار فأمر لها

---

(١) نفس المصدر الإحياء ٣/ ٣٠٨.

(٢) الإحياء ٣/ ٣٠٨.

بألفي شاة وألفي دينار وقال لها: لو بدأت بي لأتعبتهما فرجعت العجوز إلى زوجها بأربعة آلاف شاة وأربعة آلاف دينار[1].

ولنقتصر على هذا القدر في الحكاية عن فعلات الأجواد وأهل الهمم العالية التي كانت الدنيا في أعينهم أحقر من قلامة الظفر وليس لها في نفوسهم وقع ولا أثر، ومن أراد الإطلاع على هذه المكارم فعليه بمطالعة كتاب المستجاد فإنه يجد فيه ما يكفي ويشفي، وقد نجز غرضنا من باب البخل والحمد لله وحده.

---

(١) الإحياء ٣/ ٣٠٨.

الباب العاشر

من المهلكات في الرياء وذم الجاه والشهرة

إعلم أن هذه الآفات من أعظم الأخطار على الدين ، وقد قال ﷺ : «إن أخوف ما أخاف على أمتي الرياء والشهوة والشهرة الخفية»[1] ولا شك أن الرياء من الشهرة الخفية والشهوات الباطنة التي هي أخفى من دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء ، ولهذا عجز عن الوقوف على غوائله حذاق العلماء وسماسرة الفضلاء فضلاً عن عامة العباد والأتقياء وهو من أعظم غوائل النفوس و بواطن مكايد الشيطان[2] .

وهذا أعظم ما يبتلى به العلماء والعباد المشمرو ن عن ساق الجد لسلوك طريق الآخرة فإنهم لما قهروا أنفسهم وجاهدوها وفطموها عن الشهوات وصانوها عن الشبهات وحملوها بالقهر على أنواع الطاعات وتحمل أثقال العبادات ، عجزت نفوسهم عن الطمع في المعاصي الظاهرة الواقعة على الجوارح فجنحت إلى الإستراحة إلى التظاهر بالخير و إظهار العمل والعلم ليعرفوا بالخير والنسك والعبادة فاستراحوا إلى إظهار الطاعة وتوصلوا إلى اطلاع الخلق ولم يقنعوا باطلاع الخالق ، وفرحوا بحمد الناس ولم يقنعوا بحمد الله تعالى فهم ظانو ن أنهم حقيقو ن بما نالهم من عبادته المرضية[3]

---

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن من حديث شداد بن أوس.
والحاكم في المستدرك وقال صحيح الإسناد.
وتعقبه العراقي في تخريج الإحياء ٣/ ٣٠٩ وضعفه.
وأخرجه ابن المبارك في الزهد والبيهقي في شعب الإيمان مرسلاً.

(٢) انظر إحياء علوم الدين ٣/ ٣٠٩.

(٣) الإحياء ٣/ ٣٠٨.

وإنما استهوتهم هذه الشبهة الخفية التي يعمى عن دركها كل الخلق إلا أهل العقول النافذة القوية فهم يرون أنهم مخلصون في طاعة الله عز وجل ومجتنبون لمحارمه والنفس قد أبطنت هذه الآفة الردية تزييناً للعباد وتصنعاً إلى الخلق وفرحاً بما نالته من المنزلة والوقار فأحبطته بذلك وأزالت ثواب الطاعات وأجور الأعمال وهذه مكيدة لا يسلم منها إلا الصديقون ومهواة لا يرقى منها إلا المقربون، ولهذا قيل آخر ما يخرج من رؤوس الصديقين حب الرياسة.

وإذا كان الرياء هو الداء الدفين الذي هو أعظم شبك الشياطين وجبت العناية في شرح حقائقه وأسراره ولننبه فيه على بيانات هي الجامعة لأطرافه والمحيطة بمقاصده بمعونة الله تعالى عز وجل.

البيان الأول
في حقيقة الرياء والجاه

إعلم أن الرياء مشتق من الرؤية والسمعة من السماع، والرياء أصله وحقيقته طلب المنزلة في قلوب الناس بما أراه من خصال الصالحين وهو مختص بحكم العبادة لطلب المنزلة في القلوب بالعبادات وإظهارها، فحدّ الرياء هو إرادة العباد بطاعة الله تعالى والمرائي هو العابد والمراؤون هم الناس المطلوب رؤيتهم لطلب المنزلة في قلوبهم، والمراءى به هي الخصال التي قصد المرائي إظهارها، والرياء هو قصد إظهارها[1].

وأما الجاه فمعناه ملك القلوب المطلوب تعظيمها وطاعتها فكما أن الغني هو الذي يملك الدنانير والدراهم أي يقدر عليهما ليتوصل بهما إلى الأغراض والمقاصد وقضاء الشهوات وسائر الحظوظ النفسية، فهكذا حال صاحب الجاه فإنه الذي يملك قلوب الناس أي يقدر على أن يتصرف فيها ليستعمل بواسطتها أربابها في أغراضه ومآربه[2].

وكما أنه يكسب الأموال بأنواع من الحرف والصناعات فهكذا يكتسب قلوب الرجال بأنواع من المعاملات، ولا تصير القلوب مسخرة إلا بالمعارف والإعتقادات، فكل من اعتقد فيه القلب وصفاً من أوصاف الكمال انقاد له وتسخر له بحسب قوة اعتقاده وبحسب درجة ذلك الكمال عنده وليس يشترط أن يكون ذلك الوصف كمالاً في نفسه، بل يكفي أن يكون كمالا عنده وفي اعتقاده، وقد يعتقد الكمال فيما ليس كمالاً ويذعن قلبه

---

(١) الإحياء ٣/ ٣٠٨.
(٢) الإحياء ٣/ ٣٠٩.

الموصوف به انقياداً ضرورياً بحسب اعتقاده وبحسب اعتياده فإن انقياد القلب حال للقلب [1].

وأحوال القلوب تابعة لاعتقادات القلوب وعلومها وتخيلاتها، فكما أن محب المال يطلب ملك الأرقاء والعبيد، وطالب الجاه يطلب أن يسترق الأحرار ويستعبدهم ويملك رقابهم، بل الملك الذي يطلبه صاحب الجاه أعظم لأن المالك يملك العبد قهراً والعبد بما في طبعه لو خلى ورأيه انسل عن الطاعة، وصاحب الجاه يطلب الطاعة طوعاً ويبغي أن يكون له الأحرار عبيداً بالطبع والطوع من الفرح بالعبودية والطاعة فيما يطلبه فوق ما يطلبه مالك الرق بكثير.

فإذن معنى الجاه قيام المنزلة في قلوب الرجال أي اعتقادات القلوب لنعت من نعوت الكمال فيه، فبقدر ما يعتقدون من كماله تذعن له قلوبهم، وبقدر إذعان القلب تكون قدرته على القلوب، وبقدر قدرته يكون فرحه وحبه للجاه، فهذا هو معنى الجاه وحقيقته وله ثمرات كالمدح، فإن المعتقد للكمال يحصل في نفسه تعظيم من اختص بصفات الكمال من علم أو عبادة وحسن خلق أو نسب أو ولاية أو جمال في صورة أو قوة في بدن أو شيء مما يعتقده الناس كمالاً، فإن هذه الأوصاف كلها يعظم محلها في القلوب فيكون سبباً لقيام الجاه، وقد نجز غرضنا من بيان معنى الرياء والجاه وكل واحد منهما مختص بكلام يخصه فلنفرد لكل واحد منهما ما يليق به من الكلام ونجعله [2] قسمين والله الموفق للصواب.

القسم الأول
في الرياء

وإنما بدأنا به لما يتعلق به من الخطر في إحباط الأعمال وإبطالها، وفيه تنبيهات خمسة:

التنبيه الأول
في ذم الرياء

ويحصل ذلك من جهات ثلاث:

الجهة الأولى: الآيات وهذا كقوله عز وجل: **﴿فويل للمصلين الذين هم عن**

---

(١) الإحياء ٣/ ٣٠٩.

(٢) الإحياء ٣/ ٣٠٩.

صلاتهم ساهون الذين هم يراؤن ويمنعون الماعون﴾ (الماعون: ٤ - ٧)، وقوله عز وجل: ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ (الكهف: ١١٠)، وقوله تعالى: ﴿إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً﴾ (الدهر: ٩)، فأخبر أن الغرض إنما هو وجه الله تعالى لا غير، وهذا هو المراد بالإخلاص، وقوله عز وجل: ﴿والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور﴾ (فاطر: ١٠)، قال بعض المفسرين: هو الرياء، وقال تعالى في معرض الذم: ﴿يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً﴾ (النساء: ١٤٢)، ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾ (البينة: ٥)، يعني بالإخلاص بطلان الرياء المذموم، وقال تعالى: ﴿ألا لله الدين الخالص﴾ (الزمر: ٣).

الجهة الثانية: الأخبار فقد قال الرسول ﷺ حين سأله رجل فيم النجاة؟ فقال: «ألا يعمل العبد بطاعة الله تعالى يريد بها الناس»[١]، وروى أبو هريرة في حديث المقتول في سبيل الله والقاريء لكتابه والمتصدق بماله وأن الله تعالى يقول لكل واحد منهم: ما أردت وجهي بل كذبت وإنما أردت أن يقال: فلان كذا وفلان كذا فأنا لا أقبل شيئاً من أعمالكم[٢]، وروى ابن عمر: «من رآءى رآءى الله به ومن سمع سمع الله به»[٣]، وفي حديث آخر: «إن هذا لم يردني بعمله فاجعلوه في سجين»[٤]، وقال ﷺ: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر قالوا: «وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: الرياء»[٥]، وقال ﷺ: «استعيذوا بالله من جب الحزن، قيل: وما

---

(١) أورده الغزالي في الإحياء ٣/ ٣٦٤ ولم يخرجه العراقي وقال صاحب السادة المتقين ٨/ ٢٦٢ وجدته في كتاب الفقيه أبي الليث السمرقندي. ثم قال في موضع آخر ٨/ ٢٦٤ رواه ابن أبي الدنيا وهو من رواة جبلة بن اليحصبي ولم يسم صحابي الحديث وإسناده ضعيف في ص ٢٦٦.

(٢) رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة انظر تخريج الإحياء ٣/ ٣٦٤.

(٣) متفق عليه من حديث جندب بن عبدالله البخاري ومسلم ورواه الطبراني في الكبير من حديث ابن عمر. انظر مجمع الزوائد ورواه البيهقي في شعب الإيمان من حديث شيخ يكنى أبا يزيد وابن المبارك في الزهد وأحمد من طبع في مسنده من حديث عبدالله بن عمرو. تخريج الإحياء ٣/ ٣٦٤.

(٤) أخرجه ابن المبارك في الزهد، وابن أبي الدنيا في الإخلاص وأبو الشيخ في كتاب العظمة من رواة حمزة بن حبيب مرسلاً. وأورده ابن الجوزي في الموضوعات وانظر تخريج الإحياء ٣/ ٣٦٤.

(٥) أحمد والبيهقي في شعب الإيمان من حديث محمود بن العبيد والطبراني عنه وعن رافع بن خديج ورجاله ثقات. انظر مجمع الزوائد وتخريج الإحياء ٣/ ٣٦٤.

هو يا رسول الله؟ قال: «وادٍ في جهنم أعد للقرآء المرائين»[١]، وقال ﷺ: «من عمل عملاً أشرك فيه غيري فهو له كله وأنا بريء وأنا أغنى الأغنياء عن الشرك»[٢]، وقال ﷺ: «لا يقبل الله عملاً فيه مثقال ذرة من رياء»[٣]، وقال ﷺ: «إن أدنى الرياء شرك»[٤]، وقال ﷺ: «أخوف ما أخاف عليكم الرياء والشهرة الخفية»[٥]، وهي أيضاً ترجع إلى خفايا الشرك ودقائقه.

وقال ﷺ: «إن في ظل الرحمن يوم لا ظل إلا ظله رجلاً تصدق بيمينه فكاد أن يخفيها عن شماله»[٦]، وكذلك ورد أن فضل عمل السر على عمل الجهر تسعون ضعفاً»[٧]، وقال الرسول ﷺ: «إن المرء ينادى يوم القيامة يا فاجر يا غادر فأم إلى ظل عملك وحبط أجرك اذهب فجزاء عملك ممن كنت تعمل له»[٨]، وقال شداد بن أوس رأيت رسول الله ﷺ يبكي، فقلت: ما يبكيك يا رسول الله؟، فقال: «إني تخوفت على أمتي الشرك أنهم لا يعبدون صنماً ولا شمساً ولا قمراً ولا حجراً ولكن يرآؤن بأعمالهم»[٩].

وقال ﷺ: لما خلق الله تعالى الأرض مادت بأهلها فخلق الجبال فصيرها أوتاداً للأرض فقالت الملائكة: ما خلق ربنا أشد من الجبال فخلق الله تعالى الحديد فقطع الجبل ثم خلق النار فأذابت الحديد، فقالت الملائكة: ما خلق ربنا أشد من النار، ثم أمر الله تعالى الماء فأطفأ النار، ثم أمر الريح ففرقت الماء فاختلفت الملائكة فقالوا: نسأل ربنا، فقالت: يا رب ما أشد ما خلقت من خلقك! فقال الله تعالى: لم أخلق خلقاً

---

(١) الترمذي وقال غريب الزهد رقم الحديث ٢٣٨٣ وابن ماجه من حديث أبي هريرة وابن عدي في الكامل وضعفه تخريج الإحياء ٣/ ٣٦٤.

(٢) مالك في الموطأ من حديث أبي هريرة بدون قوله وأنا بريء ومسلم في صحيحه أيضاً بدونها مع تقديم وتأخر في لفظه وابن ماجة بالزيادة وإسناده صحيح تخريج الإحياء ٣/ ٣٦٤.

(٣) قال العراقي في تخريج الإحياء ٣/ ٣٦٤ لم أجده.

(٤) الطبراني والحاكم بنحوه.

(٥) تقدم ص ٢٦١ التعليق رقم ٢.

(٦) متفق عليه من حديث أبي هريرة والبخاري. مسلم رقم الحديث ١٠٣١ باب فضل إخفاء الصدقة من كتاب الزكاة ابن حبان ٧/ ٨ رقم ٤٤٦٩.

(٧) البيهقي في شعب الإيمان من حديث أبي الدرداء وضعفه وهو من رواية بقية عن شيوخه المجهولين ولابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص نحوه عن عائشة بسند ضعيف تخريج الإحياء ٣/ ٣٦٤.

(٨) أخرجه ابن أبي الدنيا من رواية جبلة اليحصبي بإسناده ضعيف ولم يذكر فيه صحابي الحديث.

(٩) ابن ماجه والحاكم.

أشد من ابن آدم حين يتصدق بصدقة بيمينه فيخفيها عن شماله (١) .

وروى عبدالله بن المبارك عن رجل قال لمعاذ : حدثني حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ فبكى معاذ حتى ظننت أنه لا يسكت ثم سكت ثم قال سمعت رسول الله ﷺ قال لي : يا معاذ قلت : لبيك بأبي وأمي أنت فقال : إني محدثك حديثاً إن أنت حفظته نفعك وإن أنت ضيعته ولم تحفظه انقطعت حجتك عند الله تعالى يوم القيامة ، يا معاذ إن الله تعالى خلق سبعة أملاك قبل أن يخلق السموات والأرض ثم خلق السموات والأرض فجعل لكل سماء من السبعة ملكاً بواباً عليها قد جللها بعظمها فتصعد الملائكة بعمل العبد من حين أصبح إلى حين أمسى له نور كنور الشمس فيقول الملك للحفظة : اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه أنا صاحب الغيبة أمرني ربي ألا أدع عمل من اغتاب الناس يجاوزني إلى غيري ، قال : ثم تأتي الحفظة بعمل صالح من أعمال العبد فتزكيه وتكثره حتى يبلغ به السماء الثانية فيقول لهم الملك الموكل بالسماء الثانية : قفوا فاضربوا بهذا العمل وجه صاحبه إنه أراد بعمله هذا عرض الدنيا ، أمرني ربي ألا أدع عمله يجاوزني إلى غيري إنه كان يفتخر على الناس في مجالسهم ، قال : وتصعد الملائكة بعمل العبد يبتهج نوراً من صدقة وصيام وصلاة قد أعجب به الحفظة به إلى السماء الثالثة فيقول لهم الملك الموكل بها : قفوا فاضربوا بهذا العمل وجه صاحبه أنا ملك الكبر أمرني ربي ألا أدع عمله يجاوزني إنه كان يتكبر على الناس في مجالسهم .

قال : وتصعد الحفظة بعمل العبد يزهر كما يزهر الكوكب الدري له دوي من تسبيح وصلاة وصوم وحج وعمرة حتى يجاوز به إلى السماء الرابعة إلى الملك الموكل بالعجب ، وهكذا الحال في السماء الخامسة الموكل بالحسد ، والملك الذي في السماء السادسة الموكل بالرحمة وفي السماء السابعة الذي لم يرد به وجه الله تعالى ولا أخلصه لوجهه .

ثم تصعد الحفظة بعمل العبد فيقفونه بين يدي الله عز وجل فيقول الله عز وجل : أنتم الحفظة على عمل عبدي وأنا الرقيب على قلبه إنه لم يردني بهذا العمل وأراد به غيري فعليه لعنتي فتقول الملائكة كلها : عليه لعنتك ولعنتنا فتقول السموات كلها : عليه لعنة الله تعالى ولعنتنا وتلعنه السموات السبع ومن فيهن .

قال معاذ : قلت يا رسول الله أنت رسول الله وأنا معاذ فعلمني ، قال : اقتد بي وإن

---

(١) الترمذي من حديث أنس وقال غريب وابن ماجه والطبراني انظر مجمع الزوائد.

كان في عملك تقصير، يا معاذ حافظ على لسانك من الوقيعة في إخوانك حملة القرآن واحمل ذنوبك عليك ولا تحملها عليهم ولا تزك نفسك بذمهم ولا ترفع نفسك عليهم ولا تدخل عمل الدنيا في عمل الآخرة، ولا تتكبر في مجلسك لكي يحذر الناس من سوء خلقك، ولا تناج رجلاً وعندك آخر، ولا تتعاظم على الناس فينقطع عنك خير الدنيا، ولا تمزق الناس فتمزقك كلاب النار يوم القيامة، قلت: بأبي وأمي فمن يطيق هذه الخصال ومن ينجو منها قال: يا معاذ إنه يسير على من يسره الله عليه[1].

وأقول إن هذا الحديث لعظيم وإن الأمر فيه لخطير وما هناك إلا رحمة الله الواسعة ولطفه الكريم فنسأل الله تعالى أن يتداركنا بلطف يسرع بنا إلى طاعته ويسوقنا إلى موارد كرمه ورحمته.

الجهة الثالثة: الآثار، روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى رجلاً يطأطىء رقبته، فقال: يا صاحب الرقبة ارفع رقبتك ليس الخشوع في الرقاب وإنما الخشوع في القلوب، ورأى أبو أمامة رجلاً يبكي في سجوده فقال: أنت أنت لو كان هذا في بيتك، وقال أمير المؤمنين كرم الله وجهه: للمرائي ثلاث علامات يكسل إذا كان وحده وينشط إذا كان في الناس ويزيد في العمل إذا اثنى عليه وينقص منه إذا ذم.

التنبيه الثاني
في بيان ما يقع به الرياء

وجملته أنواع خمسة مجامع ما يقع فيه الرياء:

النوع الأول: الرياء في الدين من جهة البدن وذلك يكون بإظهار النحول والصفار ليوهم بذلك شدة الإجتهاد وعظم الحزن على الدين وغلبة خوف الآخرة وليدل بالنحول على قلة الأكل، والصفار على سهر الليل في العبادة وتشعيث الشعر ليدل على استغراق وقته بالعبادة، فإن هذه الأمور إذا ظهرت فهي أمارة للخلق على التزكية، وهكذا خفض الصوت وإغارة العينين وذبول الشفتين دال على كثرة الصوم، فهذا رياء أهل الدين، وأما أهل الدنيا فالرياء يظهر فيهم بإظهار السمن وصفاء اللون واعتدال القامة وحسن الوجه.

النوع الثاني: الرياء بالزي والهيئة، فأما أهل الدين فرياؤهم يكون برثاثة الثياب

---

(١) حديث معاذ الطويل. ابن المبارك في الزهد عن رجل عن معاذ وأحمد في الزهد وابن الجوزي في الموضوعات انظر تخريج أحاديث الإحياء ٣/ ٣٦٧.

وإطراق الرأس للسكينة والهدوء في الحركة وإبقاء أثر السجود في الوجه وغلظ الثياب ولبس المرقعات وقصر الكم، كل ذلك يفعله تشبهاً بهيئة الصلاح والخوف لله عز وجل وهو عن كل ذلك بعيد، وأما أهل الدنيا فرياؤهم بالثياب النفيسة والمراكب العلية وضروب التوسع والتجمل في الملبس وأثاث البيوت والآلات الفضية والذهبية والحريرية وغير ذلك[١].

النوع الثالث: الرياء بالقول فمنه رياء أهل الوعظ والتذكير والنطق بالحكمة وحفظ الأخبار والآثار عن الصالحين لأجل ذكرها في المجالس إظهاراً لغزارة العلم ودلالة على شدة العناية بأقوال السلف الصالح وتحريك الشفتين بالذكر في محاضر الخلق، فهذا رياء أهل الدين، وأما أهل الدنيا فرياؤهم يكون بحفظ الأشعار والأمثال والتفاصح بالعبارات الرشيقة وإطلاق الكلمات الفصيحة وحفظ النحو والإعراب للتباهي به والتفاخر بإظهاره.

النوع الرابع: الرياء بالعمل، فأما أهل الدين فنحو الرياء بإطالة القيام في الصلاة وتكثير السجود وتطويله والركوع وإطراق الرأس وترك الإلتفات وإظهار الهدوء والسكون، وكذلك الصوم والغزو والصدقة بإطعام الطعام والإخبات وخفض الجفون، وأما أهل الدنيا فيكون بالتبختر في المشي وتحريك اليدين وتقريب الخطى والأخذ بأطراف الثياب ليدلوا بذلك على الجاه والحشمة.

النوع الخامس: الرياء بالكثرة في الأصحاب والأعوان والزائرين والمخالطين وبكثرة التلامذة ليقال إن فلاناً له حفدة وتلامذة وإن فلاناً زار فلاناً ليقال إن أهل الذين يتبركون بزيارته ويترددون إليه في قضاء حوائجهم[٢].

فهذه أنواع الرياء ومداخله وكلها محظورة إلا ما أريد به وجه الله عز وجل وخلص عن هذه الشوائب وسلم عن هذه العوارض.

التنبيه الثالث

في بيان درجات الرياء

إعلم أن بعض أبواب الرياء أشد وأغلظ من بعض واختلافه باختلاف أركانه وتفاوت الدرجات فيه يكون على حسب اختلاف أركانه، وجملتها ثلاثة.

---

(١) الإحياء ٣/ ٣٦٧.

(٢) الإحياء ٣/ ٣٦٧.

الركن الأول: المراءى به وهو الطاعات وهو ينقسم إلى الرياء بأصول العبادات وإلى الرياء بأوصافها، فهذان قسمان نفصلهما بمعونة الله عز وجل.

القسم الأول: في أصولها وهو أغلظ الرياء بالعبادات وأصولها وهي ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: الرياء بأصل الإيمان، وهذا أغلظ أبواب الرياء وصاحبه مخلد في النار وهو الذي يظهر كلمتي الشهادة وباطنه التكذيب ولكنه يرآئي بإظهار الإسلام.

الدرجة الثانية: أن يكون مصدقاً بالله تعالى ولكنه يرائي بالصلاة والزكاة والصوم فهذا دون الأول فهو يصلي إذا كان في ملأ من الناس، وإذا خلا تركها وهكذا حال الزكاة يخرجها رياء ويصوم في ظاهر الحال فإذا خلا أراد الإفطار وأحبه.

الدرجة الثالثة: لا يكون مرائياً بالإيمان ولا بالفرائض ولكنه يرائي بالنوافل والسنن فإنه لو تركها لم يهلك بتركها ولكنه يكسل في الخلوة ويظهرها للناس فهذا هو الرياء بأصولها.

القسم الثاني: الرياء بأوصافها وهي أيضاً على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: أن يرائي بفعل أي فعلٍ يكون في تركه نقصان العبادة كالذي غرضه أن يخفف في الركوع والسجود ولا يطول القراءة وإذا رآه الناس أخر الركوع والسجود وترك الالتفات ومد القعود بين السجدتين.

الدرجة الثانية: أن يرائي بفعل ما لا نقصان في تركه ولكن فعله في حكم التكملة والتتمة لعبادته كالتطويل من الركوع والسجود ومد القيام وتحسين الهيئة في رفع اليدين والمبادرة إلى التكبير وتحسين الاعتدال، وكل ذلك مفقود عند الخلوة فهذا هو الرياء[1].

الدرجة الثالثة: أن يرائي بزيادات خارجة عن نفس النوافل كحضور المساجد قبل الناس فيصير في الصف الأول وتوجهه إلى تلقاء ويمين الإمام وما يجري مجرى ذلك، وكل ذلك مما يعلم الله عز وجل أنه لو خلا بنفسه لكان لا يبالي أين وقف ولا أي وقت حضر، فهذه درجات الرياء بالإضافة إلى ما يرائي به وبعضه أشد من بعض.

---

(١) الإحياء ٣/ ٣٦٧.

الركن الثاني : المراءى لأجله فإن المرآءي مقصود لا محالة وإنما يرائي لإدراك مال أو جاه أو عرض وله درجات ثلاث :

الدرجة الأولى : وهي أشدها وأغلظها أن يكون مقصوده التمكن من معصية الله عز وجل كالذي يرائي بعباداته ويظهر التقوى والورع بكثرة النوافل والامتناع من أكل الشبهات وغرضه أن يعرف بالأمانة حتى يولى القضاء والأوقاف والوصايا ومال الأيتام ويأخذها ويأكلها.

الدرجة الثانية : نيل حظ مباح من الدنيا من مال أو نكاح أو امرأة جميلة أو شريفة كالذي يظهر الحزن والبكاء ويشتغل بالوعظ والتذكير لتبذل له الأموال وترغب في نكاحه النساء كالذي يرغب في تزوُّج بنت عالم فيُظْهِر له العلم والزهادة والعبادة ليرغب في تزويج ابنته، فهذا رياء محظور لأنه طلب بطاعة الله عز وجل أمراً مباحاً ولكنه دون الأول.

الدرجة الثالثة : أن لا يقصد نيل حظ وإدراك مال أو نكاح ولكن يظهر العبادة خيفة أن ينظر إليه بعين النقص ولا يعاب من الخاصة والزهاد ويعتقد أنه من جملة العامة كالذي يمشي فيطلع عليه الناس فيحسن المشي ويظهر التؤدة ويترك العجلة كيلا يقولوا إنه من أهل العجلة لا من أهل الوقار، فهذه درجات المراءى به [1].

الركن الثالث : قصد نفس الرياء ودرجاته أربع :

الدرجة الأولى : وهي أغلظها أن لا يكون مراده الثواب أصلاً كالذي يصلي بين الناس ولو انفرد لكان لا يصلي بل ربما يصلي من غير طهارة، فهذا جرد قصده إلى الرياء المحض فهو ممقوت عند الله عز وجل.

الدرجة الثانية : أن يكون قاصداً للثواب ولكن قصداً ضعيفاً بحيث لو كان في الخلوة لكان لا يفعله ولا يحمله ذلك القصد على العمل ولو لم يكن الثواب لكن قصد الرياء يحمله على العمل.

الدرجة الثالثة : أن يكون قصد الرياء وقصد الثواب متساويين بحيث لو كان كل واحد منهما خالياً عن الآخر لم يبعثه على العمل فلما اجتمعا انبعثت الرغبة على العمل فهذا قد أفسد مثل ما أصلح فيرجى أن يكون كفافاً لا عليه ولا له.

---

(١) الإحياء ٣/ ٣٦٧.

الدرجة الرابعة : إن يكون إطلاع الناس مقوياً ومرجحاً لنشاطه ولو لم يكن لكان لا يترك العبادة ، ولو قصد الرياء وحده لما أقدم عليه فالذي نظنه والعلم عند الله تعالى أنه لا يحبط ثوابه ولكنه ينقص منه أو يعاقب على قدر القصد في الرياء ويثاب على قدر الثواب[1] .

التنبيه الرابع
في علاج الرياء وإزالته ومحوه

إعلم أنا قد ذكرنا أن الرياء محبط للأعمال وسبب للمقت من جهة الله عز وجل وأنه من كبائر المهلكات وما هذا حاله فجدير بالتشمير في إزالته عن ساق الجد والمجاهدة في إعدامه ، وإزالته تكون إما بقلع عروقه واستئصال قاعدته ، وإما بقطع أسبابه ، فهذان مقامان نفصلهما بمعونة الله عز وجل .

المقام الأول : في قلع عروقه واستئصال أصوله وذلك يكون بالعلم والعمل ، فهذان تصرفان .

التصرف الأول : بالعلم وهو راجع إلى أمور ثلاثة أولها : أن يكون عالماً من جهة نفسه بأنه لا يحب الحمد من جهة أحد من الخلق ولا يكون له قدر عنده ، وثانيها : أن يعلم أنه لا يحب الفرار من المذام وثالثها : أن يعلم بانقطاع نفسه عن أطماع الدنيا وعما في أيدي الناس ، فهذه أمور علمية قاطعة للرياء عن التعلق به .

التصرف الثاني : العمل ودواء إزالة الرياء بالأعمال إنما هو بالتعود لنفسه بإخفاء العبادات كلها وإغلاق الأبواب دونها كما تغلق الأبواب دون الفواحش .

المقام الثاني : في بيان قطع أسبابه وإزالة عوارضه وذلك إنما يكون بأن يجاهد نفسه في قلع مغارس الرياء عن قلبه بالقناعة وقطع الطمع وإسقاط نفسه من أعين المخلوقين واستحقار مدح الخلق وذمهم عن نفسه فلا يرى لهما وزناً في قلبه فالشيطان لا يترك مجاهدته بل يعارضه بخطرات الرياء فلا تنقطع عنه نزعاته فلا بد من أن يشمر لدفع ما يعرض من خواطر الرياء وجملتها ثلاثة أولها : العلم باطلاع الخلق أو رجاء إطلاعهم على ما يفعله من أمور الطاعة ، وثانيها : هيجان الرغبة من النفس في حمدهم وحصول المنزلة عندهم ، وثالثها : قبول النفس له والركون إليه وعقد الضمير على تحقيقه

---

(١) الإحياء ٣/ ٣٦٧.

فإذن لا بد له من رفع هذه الخواطر الثلاثة[1]

واعلم أنه ليس على الإنسان إلا ما يطيقه ولا يكلف إلا وسعه من دفع هذه الخواطر فأما دفع نزعات الشيطان وقمع الطبع عن هيجانه حتى لا يميل إلى الشهوات فليس ذلك مقدوراً للإنسان بحال بل نسأل الله التوفيق والإعانة على البراءة من الرياء في كل أحواله والله أعلم.

التنبيه الخامس
في بيان ترك الطاعات خوفاً من الرياء

إعلم أن من الناس من يترك الطاعات خوفاً من أن يكون مرائياً وذلك غلط وموافقة للشيطان، بل الحق فيما يترك من الأعمال وما لا يترك لخوف الآفات ما نذكره وهو أن الطاعات نوعان:

فالنوع الأول: الطاعات اللازمة للبدن التي لا تتعلق بالغير ولا لذة في عينها كالصلاة والصيام والحج، وخطرات الرياء فيها ثلاث الأولى منها: حاصلة قبل العمل فينبعث في الابتداء لرؤية الناس وليس معه باعث من جهة الدين، فهذا ينبغي أن يترك العمل لكونه معصية لا طاعة فإنه جعل صورة الطاعة ذريعة إلى طلب المنزلة، الثانية: أن ينبعث لأجل طاعة الله ولكن يعرض من الرياء شيء مع عقد العبادة لله تعالى في أولها فلا ينبغي أن يترك العبادة لأنه قد وجد باعثاً دينياً فليشرع في العمل وليجاهد نفسه في دفع الرياء وتحصيل الإخلاص بالمعالجة التي ذكرناها، الثالثة: أن يعقد ضميره على الإخلاص فيطرأ الرياء ودواعيه، فما هذا حاله فلا ينبغي ترك العمل لأجله ولكن يرجع إلى عقد الإخلاص ويرد نفسه قهراً حتى يتم العمل[2].

النوع الثاني: ما يتعلق بالخلق وتعظم فيه الآفات والأخطار، ثم إنها على مراتب ثلاث نذكر ما يتعلق بكل واحدة منها:

المرتبة الأولى: الخلافة والإمارة والسلطنة والإمامة وهي من أفضل العبادات إذا كانت حاصلة مع العدل والإخلاص، وقد قال ﷺ: «ليوم من إمام عادل خير من عبادة الرجل وحده ستين سنة»[3] فأعظم بعبادة يوازي يوم منها ستين سنة، وقال الرسول ﷺ: «أول

---

(1) الإحياء ٣/ ٣٦٧.

(2) الإحياء ٣/ ٣٦٧.

(3) الطبراني الكبير ١/ ٣٣٧ رقم ١١٩٣٢ والبيهقي في السنن ٨/ ١٦٢ من حديث ابن عباس وانظر مجمع الزوائد=

من يدخل الجنة الإمام المقسط»[1]، وقال ﷺ: «أقرب الناس مني مجلساً يوم القيامة إمام عادل»[2]، فالإمامة والخلافة من أعظم العبادات ولم يزل أهل التقوى يحذرون منها ويتركونها ويهربون من تقلدها وذلك لما فيها من الخطر لأن بها تتحرك الخواطر وتهتز النفوس الباطنة إلى الاستيلاء وإلى محبة الدنيا وفي ذلك الخطر كله، وقد روى عن الرسول ﷺ أنه قال: «لا تسأل الإمارة فإنها يوم القيامة حسرة وندامة»[3]، وقال ﷺ: «لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها، وإن أعطيتها مع المسألة وكلت إليها»[4].

ولعل ضعيف البصيرة يرى ما ورد في فضل الإمارة مع ما ورد من النهي عنها متناقضاً وليس الأمر كما ظنه، قال مولانا الإمام المؤيد بالله أمير المؤمنين عليه السلام: والمختار أن يقال الخواص الأقوياء في الدين لا ينبغي لهم أن يمتنعوا عن تقلد الإمامة بخلاف الضعفاء فإنه لا ينبغي لهم الدخول فيها فيهلكوا ونعني بالأقوياء الذين لا تميل بهم الدنيا ولا تأخذهم في الله لومة لائم، وهم الذين قهروا أنفسهم وزهدوا في الدنيا ومن ليس بهذه الصفة فيحرم عليه الدخول في الإمامة وعلى هذا تجتمع الأخبار وتسلم عن المناقضة والله أعلم[5].

المرتبة الثانية: أهل الوعظ والفتوى والتدريس ورواة الأحاديث وجميع الإسنادات العالية وكلما يتسع من أجله الجاه فمن لا باعث له إلى ذلك إلا الجاه

= ٥/ ١٩٧ و٦/ ١٦٣ وقال رواه الطبراني في الأوسط وانظر تخريج الإحياء ٣/ ٤٠١ ونصب الراية ٣/ ٦٧ وإتحاف السادة المتقين ٥/ ٣١٤.

(١) مسلم برقم ٢٨٦٥ من حديث عياض بن حمار بلفظ أهل الجنة ثلاثة وذكر منهم إمام مقسط وأحمد في المسند ٤/ ١٦٢ والحلية ٢/ ١٦.

(٢) الأصبهاني في كتاب الترغيب والترهيب من رواية عطية العوفي وهو ضعيف وأبو نعيم في الحلية ١٠/ ١١٤ وأبو يعلى رقم ١٠٠٣ ورقم ١٠٨٨ المسند ٢/ ٣٤٣، ٢٨٥ وفيه إسحاق بن إبراهيم الديباجي ضعيف ومدار طرقه كلها على عطية العوفي.

(٣) أحمد في المسند ٣/ ٢٢، ٥٥ وأبو يعلى في المسند ٢/ ٢٨٥، ٣٤٣٤ رقم ١٠٠٣، ١٠٨٨.
والبيهقي في السنن ١٠/ ٨٨ والترمذي وقال حسن غريب وحسنه علي بن الجعد ٢/ ٢٨٥، ٢٤٣ وانظر مجمع الزوائد ٥/ ٢٣٦، ١/ ٥٧.
وابن حبان في صحيحه ٧/ ٨ رقم ٤٤٦٥.

(٤) البخاري ومسلم من حديث عبد الرحمن بن سمرة، أبو داود والترمذي بزيادة.
أحمد وابن أبي شيبة وابن عساكر وابن حبان في صحيحه ٧/ ٨ رقم ٤٤٦٣.

(٥) الإحياء ٣/ ٣٤٤.

والمنزلة عند الخلق والأكل بالدين والتفاخر والتكاثر فينبغي له الترك ويخالف الهوى إلى أن يروض نفسه ويقوى في الدين أمره ويأمن على نفسه الفتنة، ومن غرضه في أول الأمر وجه الله تعالى وتقريب الخلق ورقة قلوبهم وتعريفهم معالم الدين فينبغي أن لا يترك ذلك.

المرتبة الثالثة: جمع المال وأخذه ليفرقه على المستحقين فإن في الإنفاق وإظهار العطاء استجلاباً للعطاء وفي إدخال السرور على قلوب الخلق لذة للنفوس فالآفات فيه كثيرة، وقد اختلف العلماء في ذلك فقال قوم: إذا طلب الدنيا من الحلال وتصدق فهو أفضل من أن يشتغل بالعبادات والنوافل، وقال قوم: الجلوس في دوام ذكر الله، والأخذ والإعطاء يشغلان عن ذكر الله، وهذا التردد إنما هو في حق من يسلم من الآفات، فأما من لا يسلم من الآفات المالية فالترك له أفضل من الاشتغال بها، وقد قال عيسى عليه السلام: يا طالب الدنيا لتبر تركك لها أبر. وقد نجز غرضنا فيما نريده من ذم الرياء، ونذكر ما يتعلق بذم الجاه وهو القسم الثاني[1].

القسم الثاني
في بيان ما يتعلق بذم الجاه والشهرة
وفيه خطر عظيم ويتعلق به تنبيهات ثلاثة

التنبيه الأول
في بيان ذم الجاه وذم الشهرة

وقد ذكرنا من قبل ماهية الجاه فلا وجه لتكريره، واعلم أن أصل الجاه هو انتشار الصيت واشتهار الذكر وهو مذموم قال الله تعالى: **﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين﴾** (القصص: ٨٣) جمع بين إرادة الفساد والعلو وبين أن الدار الآخرة للخالي عن الإرادتين جميعاً، وقال تعالى: **﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها - إلى قوله - وباطل ما كانوا يعملون﴾** (هود: ١٥ - ١٦) وهذا أيضاً متناول بعمومه لحب الجاه فإنه من أعظم لذات الحياة الدنيا وأكثر زينتها، وقال ﷺ: «حب الجاه والمال ينبتان النفاق كما ينبت الماء البقل»[2]، وقال ﷺ: «ما ذئبان ضاريان أرسلا في زريبة غنم بأكثر فساداً من حب الشرف والمال في دين الرجل

---

(١) الإحياء ٣/ ٣٤٤.

(٢) قال العراقي لم أجده بهذا اللفظ. ورواه الديلمي وأبو نعيم بلفظ حب الغنى وقد تقدم ص ١٤٢ - ٢٤٣ التعليق «١».

المسلم»(١)، وقال ﷺ لعلي كرم الله وجهه: «إنما هلك الناس باتّباع الهوى وحب الثناء»(٢).

وعن جابر قال رسول الله ﷺ: «بحسب المرء من الشر إلا من عصمه الله من الشر أن يشير الناس إليه بالأصابع في دينه ودنياه (٣) إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»(٤) وقد ذكر الحسن البصري تأويلاً حسناً لهذا الحديث لما قيل له: يا أبا سعيد إن الناس إذا رأوك أشاروا إليك بالأصابع، قال: إنه لم يعن هذا وإنما عنى به المبتدع في دينه الفاسق في دنياه(٥)، قال مولانا الإمام المؤيد بالله أمير المؤمنين عليه السلام: ولقد أصاب فيما ذكره فإن الرسول ﷺ والأئمة من بعده كانوا يشار إليهم بالأصابع ولكن لما كانوا أئمة للحق وهداة للدين وسالكين لطريق الآخرة.

وقال أمير المؤمنين كرم الله وجهه: تبذل ولا تشتهر ولا ترفع شخصك لتذكر بعلم واكتم واصمت لتسلم تسر الأبرار وتغيظ الفجار، وقال إبراهيم بن أدهم: ما صدق الله من أحب الشهرة، وقال أيوب: ما صدق الله عبد إلا سرّه أن لا يشعر بمكانه، وعن بعض الزهاد أنه إذا كثرت حلقته قام خيفة من الشهرة، وعن أبي العالية أنه كان إذا جلس أكثر من ثلاثة قام، ورأى طلحة قوماً يمشون معه نحواً من عشرة فقال: رياء وطمع وفراش نار(٦).

التنبيه الثاني
في بيان فضيلة الخمول

إعلم أن مع الخمول يزكو العمل ويلتفت الإنسان إلى إصلاح أمر الآخرة، قال

---

(١) الترمذي وقال حسن صحيح والنسائي في الكبرى من حديث كعب بن مالك والطبراني في الأوسط من حديث أبي سعيد والبزار من حديث أبي هريرة انظر كشف الأستار ومجمع الزوائد وإسناد الطبراني والبزار فيهما ضعيف.

(٢) قال العراقي لم أجده بهذا اللفظ تخريج الإحياء ٣/ ٣٤٥.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب التواضع والخمول رقم الحديث ٣٠/ ٣١، ٣٢ وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان في حديث أنس بسند ضعيف أخرجه الطبراني في الأوسط والبيهقي أيضاً من حديث أبي هريرة وفيه حصين ابن عبد العزيز وهو ضعيف انظر مجمع الزوائد ١٠/ ٢٩٦ وقال العراقي حديث جابر غير معروف. انظر تخريج الإحياء ٣/ ٣٤٢.

(٤) هو جزء من الحديث المتقدم قبله. انظر تخريج إحياء علوم الدين ٣/ ٣٤٢.

(٥) الإحياء ٣/ ٣٤٥ وهو من قول الحسن البصري.

(٦) انظر الإحياء ٣/ ٣٤٢.

الرسول ﷺ: «رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره»[1] منهم البراء بن مالك، وفي حديث آخر «رب أشعث ذي طمرين قال أسألك الجنة لأعطاه الجنة ولم يعطه من الدنيا شيئاً»[2]، وقال ﷺ: «ألا أدلكم على أهل الجنة كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله تعالى لأبره وأهل النار كل متكبر جواظ»[3]، وقال أبو هريرة قال الرسول ﷺ: «إن أهل الجنة كل أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له إذا استأذنوا على الأمراء لم يؤذن لهم وإن خطبوا النساء لم ينكحوا وإذا قالوا لم ينصت لهم حوائج أحدهم تتلجلج في صدره لو قسم نوره على الناس يوم القيامة لوسعهم»[4].

وقال الرسول ﷺ: «إن من أمتي من لو أتى أحداً يسأله ديناراً لم يعطه ولو سأله درهماً لم يعطه ولو سأله فلساً لم يعطه إياه ولو سأل الله عز وجل الجنة لأعطاه إياها، ولو سأله الدنيا لم يعطه إياها وما منعه إياها لهوانه عليه بل لكرامته عليه»[5]، وروي عن الرسول ﷺ أنه قال: «إن الله يحب الأخفياء الأتقياء الذين إذا غابوا لم يفقدوا وإن حضروا لم يعرفوا، قلوبهم مصابيح الهدى ينجون من كل فتنة غبراء مظلمة»[6].

وقال محمد بن سويد: قحط الناس بالمدينة وكان فيهم رجل صالح لازم لمسجد رسول الله ﷺ فبينما هم في دعائهم إذ جاء رجل عليه طمران خلقان فصلى ركعتين وأوجز فيهما ثم قال: يا رب أقسمت عليك إلا أمطرت علينا الساعة فلم يرد يديه ولم يقطع دعاءه حتى تغيبت السماء بالغيم ومطروا حتى صاح أهل المدينة من مخافة الغرق، فقال: يا رب إن كنت تعلم أنهم قد اكتفوا فارفع عنهم وتبع الرجل صاحب الطمرين حتى عرف منزله ثم بكر إليه فخرج فقال: إني أتيتك في حاجة فقال: وما هي؟ قال: تخصني بدعوة، قال: سبحان الله أنت أنت وتسألني أن أخصك بدعوة؟ فقال: ما الذي بلغك ما رأيت؟ قال: أطعت الله فيما أمرني ونهاني فسألت الله فأعطاني[7].

---

(١) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا والديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف تخريج الإحياء ٣/ ٣٤٣.
(٣) متفق عليه من حديث حارثة بن وهب.
(٤) انظر الإحياء ٣/ ٣٤٣.
(٥) أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ثوبان بإسناد صحيح تخريج الإحياء ٣/ ٣٤٣.
(٦) أخرجه الطبراني والحاكم وقال صحيح الإسناد وضعفه العراقي في تخريج الإحياء ٣/ ٣٤٣ لأن فيه عيسى بن عبد الرحمن الدرقي وهو متروك.
(٧) انظر إحياء علوم الدين ٣/ ٣٤٣.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: كونوا ينابيع العلم مصابيح الهدى أحلاس البيوت سرج الليل جدد القلوب خلقان الثياب تعرفون في السماء وتخفون في الأرض(١)، وقال أبو أمامة قال رسول الله ﷺ: «إن أغبط أوليائي عندي عبد مؤمن خفيف المؤنة خفيف أنجاد ذو حظ من صلاة أحسن عبادة ربه وأطاعه في السر وكان غامضاً في الناس لا يشار إليه بالأصابع فمن صبر على ذلك، ثم نقر رسول الله ﷺ بيده وقال: عجلت منيته وقل تراثه وقلت بواكيه»(٢) لا يقال: فأي شهرة أعظم من شهرة الأنبياء والأئمة الراشدين وفضلاء أهل العلم والزهاد فكيف فاتتهم فضيلة الخمول لأنا نقول المذموم إنما هو طلب الشهرة ومحبتها، فأما وجودها من جهة الله تعالى من غير تكلف من جهة العبد ولا غاية فليس مذموماً على حال، فهذا ما أردنا ذكره من فضل الخمول(٣).

التنبيه الثالث
في بيان العلاج في دفع حب الجاه

إعلم أن كل من غلب على قلبه حب الجاه صار مقصور الهم على مراعاة التودد إلى الخلق مشغولاً بالمواتاة لهم(١) ولا يزال في أقواله وأفعاله وأعماله ملتفتاً إلى ما يعظم منزلته عندهم وذلك بذر النفاق وأصل الفساد ويجر إلى التساهل في العبادات وتمام علاجه يكون من طريقين:

الطريق الأول: علمي وحاصله أن يعلم السبب الذي من أجله أحب الجاه وهو كمال القدرة على أشخاص الناس وعلى استمالة قلوبهم، فينبغي أن يعالج الإنسان قلبه في حب الجاه وإزالته عن نفسه بالعلم بالآفات الطارئة وحصول الأخطار العظيمة التي تتطرق إلى أهل الجاهات في الدنيا فإن كل ذي جاه محسود ومقصود بالإيذاء وخائف على تغييره ومحترز على أن تتغير منزلته في القلوب فإنها أشد تغيراً من القدر في غليانها وهي مرددة بين الإقبال والإدبار والقبول والإعراض فكل ما كان مبنياً على قلوب الخلق يضاهي ما يبنى على الأمواج في البحر فإنه لا ثبات له بحال، فبهذا تعالج البصيرة الضعيفة بما ذكرناه من مقاساة هذه الأهوال وحصول هذه التغيرات، فأما من قويت بصيرته ونفذ إيمانه فإنه لا يلتفت إلى الدنيا ولا يعرج على شيء منها.

---

(١) انظر إحياء علوم الدين ٣/ ٣٤٣.
(٢) أخرجه الترمذي وابن ماجه وكلاهما أخرجاه بإسنادين ضعيفين تخريج الإحياء ٣/٣٤٤.
(٣) انظر الإحياء ٣/ ٣٤٤ابن علي رضي الله عنه،

الطريق الثاني: عملي فإنما يكون العمل في إسقاط الجاه عن قلوب الخلق بمباشرة أفعال يلازم على فعلها حتى يسقط من أعين الخلق وجملة ذلك أمران أحدهما: وهو الأقوى أن يعتزل عن الناس ويهجرهم إلى مواضع الخمول فإن المعتزل في بيته في البلدة التي هو فيها مشهور لا يخلو من حب المنزلة وفي الاعتزال سلامة عن ذلك، وثانيهما: أن يلابس أفعالاً لا يليق بمثله فعلها لتنقطع رغبة الناس في وصوله والهجوم عليه.

وهذه الطريقة قد اعتمدها أقوام من الصالحين والسالكين لطريق الخمول والشغل بأنفسهم، حتى روي عن بعض الزهاد أنه قصده بعض الملوك ليدخل عليه فاستدعى طعاماً وبقلاً ولحماً وأخذ يأكل بشره ويعظم اللقم ويسرع المضغ فلما رآه الملك سقط من عينه وانصرف، فقال: الحمد لله الذي صرفه عني، ومنهم من شرب شراباً حلالاً في قدح جوهر لونه لون الخمر حتى يظن أنه شرب الخمر فيسقط عن الأعين قدره ويحتقر حاله وأمره، وربما تناولوا أشياء توهم الفواحش وتناول المحظورات ليسقطوا عن أعين الناس وهذا غير جائز لمن يقتدى به من المسلمين فإنه يهون الدين في قلوب المسلمين وأما من لا يقتدى به فلا يجوز له الإقدام على محظور فأما إذا كان غير محظور فالأمر فيه سهل[1].

وقد تم غرضنا من الباب العاشر في ذم الرياء والجاه وبتمامه يتم الكلام على المقالة الثانية من المهلكات والله الموفق للصواب.

المقالة الثالثة

في بيان الصفات المنجية

وجملتها عشر التوبة والصبر والمحبة والشكر والخوف والرجاء والفقر والزهد والتوحيد والتوكل والصدق والإخلاص والمراقبة والمحاسبه والفكر إلى غير ذلك من الأوصاف التي بإحرازها تحصل النجاة ويكون الفوز في الآخرة، وتندرج هذه الأمور كلها في عشرة أبواب ونبدأ منها ببيان التوبة وهي من مهمات الدين وبها يظهر عنوان المسلمين.

---

(١) الإحياء ٣/ ٣٤٤.

الباب الأول

في بيان التوبة وشرح أسرارها وأحكامها

إعلم أن التوبة عن الذنوب بالرجوع إلى ستار العيوب ، والإنابة إلى علام الغيوب إنما هي مبدأ السالكين ورأس مال الفائزين وأول إقدام المتهجدين ومفتاح استقامة السائلين ومطلع الاصطفاء والاجتباء للمقربين كأبينا آدم عليه السلام وعلى سائر الأنبياء أجمعين ، وما أجدر الأولاد بالاقتداء بالآباء والأجداد فلا غرو إن أذنب الآدمي واجترم فهي شنشنة أعرفها من أخزم ومن أشبه أباه فما ظلم ، ولما كان موقع التوبة من الدين هذا الموقع وجب تقديمها على سائر الصفات وتمام المقصود فيها يحصل في أركان أربعة هي وافية بالمقصود بمعونة الله تعالى[1] .

الركن الأول
في بيان معناها وماهيتها وشرح أحكامها

أما معناها وماهيتها فاعلم أنه قد يقال إن التوبة حقيقتها حاصلة في معنى واحد وهو الندم لا غير وهذا هو المختار لأنه الأصل في بيان مفهومها ، ومنهم من يعتبر فيها أوصافاً ثلاثة :

أولها : العلم فإنه متعلق بالذنوب التي تكون حجاباً بين العبد وبين وصوله إلى المحبوب وهو رضوان الله والجنة .

وثانيها : الندم والأسف على ما فرط في جنب الله من إبطال طاعته والتلبس بمعصيته .

وثالثها : العزم والقصد إلى فعل يتعلق بالحال وهو ترك الذنوب وبالاستقبال وهو

---

(١) الإحياء ٣/ ٣٤٤.

العزم على ترك الذنوب في الأزمنة المستقبلة، وبالماضي فبالندم على مافات والأسف عليه واعتبار من اعتبر هذه الأمور الثلاثة في حقيقة التوبة إنما هو على جهة الكمال وإلا فالأصل هو ما ذكرناه من الندم لا غير، وإلى هذا أشار صاحب الشريعة ﷺ إلى ما قلناه بقوله: «الندم توبة»(١) فالعلم هو سبب في إثارة الندم والندم هو السبب في تحصيل القصد والتدارك للماضي والترك في الحال وفي الاستقبال بالعزم على ترك الذنوب، فهذا هو معنى التوبة.

وأما أحكامها فهي خمسة:

الحكم الأول في بيان فضلها ووجوبها:

أما فضلها: فقد قال تعالى: ﴿**إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين**﴾ (البقرة: ٢٢٢)، وقال ﷺ: «لله أفرح بتوبة أحدكم»(٢)، وفي حديث آخر: «بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل في أرض دوية مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه فنام فذهبت راحلته فطلبها فلم يجدها ثم نام فاستيقظ فإذا هي عند رأسه فقال من شدة الفرح والخجل اللهم لك الحمد أنت عبدي وأنا ربك»(٣) والأخبار والآثار في فضلها لا تخفى.

وأما وجوبها: فالعقل والنقل أما العقل فظاهر في إيجابها لما يحصل فيها من دفع الضرر العظيم وهو العقاب المستحق على مخالفة أوامر الله تعالى والملابسة لمناهيه ولا خلاص إلا بالاعتذار والمبالغة في ذلك بالتندم على ما سبق والتحزن عليه والتأسف على فعله وبها تحصل النجاة من الهلاك، وأما النقل فالكتاب كقوله تعالى: ﴿**وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون**﴾ (النور: ٣١) وقوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً**﴾ (التحريم: ٨) أي خالية عن الشوائب، وأما السنة فقوله ﷺ: «توبوا إلى الله قبل أن تموتوا»(٤) والإجماع منعقد على وجوبها من جهة الأمة.

الحكم الثاني في بيان وجوبها على الفور:

واعلم أن وجوبها على جهة الفور مما لا يستراب فيه ولا يقع فيه شك لأن معرفة

---

(١) أخرجه ابن ماجه وابن حبان والحاكم وصحح إسناده من حديث ابن مسعود ورواه الحاكم وابن حبان أيضاً من حديث أنس وقال الحاكم صحيح على شرط الشيخين تخريج الإحياء ٤/ ٤.

(٢) متفق عليه من حديث ابن مسعود وأنس ورواه مسلم من حديث النعمان بن بشر ومن حديث أبي هريرة مختصراً.

(٣) هو جزء من الحديث الذي قبله...

(٤) أخرجه مسلم من حديث الأغر المزني وابن ماجه من حديث جابر نحوه وسند ابن ماجه ضعيف تخريج الإحياء ٤/ ٥.

كون المعاصي مهلكات للنفوس أمر ناجز لا محالة والمزيل له لا بد من كونه على الفور ولأن الموت متوقع في كل حالة لا يؤمن هجومه ، والمعاصي هي السموم القاتلة ، والتوبة هي الشفاء من داء المعاصي والمزيلة لعقابها فلا بد من الإسراع بهًا خوفاً من حيلولة الموت فيحصل العطب بهلاك العقاب كما أن المريض إذا كان يخشى عليه الهلاك والزمانة ويعلم أن الدواء نافع له بلا مرية فالعقول مشيرة إلى المعالجة بالدواء بكل حال، فإذا كان هذا الاستعجال حاصلاً في العقوبة المنقطعة التي لها حد وغاية فكيف حال العقوبة السرمدية التي لا آخر لها ولا انقضاء لوقتها فالمعالجة تكون في حقها أكثر والفور لها يكون أسرع وأكثر ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿**وسارعوا إلى مغفرة من ربكم**﴾ (آل عمران: ١٣٣) ، والمغفرة لا تكون إلا بالتوبة والاعتذار فالأمر بالمسارعة إلى المغفرة أمر بالمسارعة إلى الاستغفار وهذا هو المراد بأن التوبة على الفور[١].

الحكم الثالث في بيان أن وجوبها عام في جميع الأشخاص :

إعلم أن التوبة فرض عين في حق كل شخص من الأشخاص لا يتصور أن يستغني عنها أحد من البشر كما لم يستغن عنها آدم عليه السلام أبو الخلق فلا يمكن استغناء الأولاد عنها فحلقة الولد لا تتسع لأكثر مما تتسع له حلقة الوالد.

وقد دل ظاهر الكتاب على وجوبها كما قال: ﴿**وتوبوا إلى الله جميعاً**﴾ (النور: ٣١) فالخطاب عام ونور البصيرة والعقل يرشدان إلى ذلك لأن معنى التوبة هو الرجوع عن الطريق المبعدة عن الله تعالى المقربة من الشيطان ولا يتصور إلا من عاقل ولا تكمل غريزة العقل إلا بعد كمال غريزة البصيرة وسائر الصفات المذمومة التي هي وسائل الشيطان إلى إغواء الخلق ، والشهوات جنود الشياطين ، والعقول جنود الملائكة وإذا اجتمعا وقعت المقاتلة والمصاولة بين الجندين إذ لا يقوم أحدهما للآخر فإنهما ضدان فالتطارد بينهما كالتطارد بين الليل والنهار والنور والظلمة فمهما غلب أحدهما أزعج الآخر وأظهره[٢].

وإذا كانت الشهوات تكمل في حال الصبا والشباب قبل كمال العقل فقد سبق جند الشيطان واستولى على المكان وشغله ووقع للقلب أنس وإلف لا محالة بمقتضيات الشهوات بالعادة وغلب ذلك عليه وعسر عليه النزع عنه ثم يلوح العقل بعد ذلك الذي هو حزب الله

---

(١) الإحياء ٤/ ٥.
(٢) الإحياء ٤/ ٥.

وجنده ومنقذ أوليائه من أيدي أعدائه شيئاً فشيئاً على التدريج ، فإن لم يقو ولم يكمل فقد انقاد القلب للشيطان اللعين وأنجز الخبيث موعده حيث قال : ﴿ **لأحتنكن ذريته إلا قليلاً** ﴾ (الإسراء : ٦٢) ، وإن كمل العقل وقوي كان أول شغله قمع جنود الشيطان بكسر الشهوات ومفارقة العادات ورد الطبع على جهة القهر إلى العبادات ، ولا معنى للتوبة إلا هذا وهو الرجوع عن طريق ذللت بالشهوة إلى طريق الله تعالى .

وليس في الوجود آدمي إلا وشهوته سابقة على عقله التي هي عدة الشيطان وهي متقدمة على غريزته التي هي عقله وهي عدة الملائكة ، فحصل من هذا كله أن كل من بلغ كافراً جاهلاً فعليه التوبة من جهله وكفره ، فإن بلغ مسلماً تابعاً لأبويه غافلاً عن حقيقة إسلامه فعليه التوبة عن هذه الغفلة بتفهم معنى الإسلام فإنه لا يغني إسلام أبويه ما لم يسلم في نفسه والله أعلم بالصواب[1] .

الحكم الرابع في بيان وجوبها على الدوام في كل حال :

فاعلم أن كل بشر لا يخلو عن معصية بجوارحه إذ لم يخل عنها الأنبياء كما ورد في القرآن والأخبار من خطايا الأنبياء عليهم السلام وتوبتهم وبكائهم على خطاياهم ومعاصيهم لخالقهم فإن خلا في بعض الحالات عن معصية الجوارح فلا يخلو عن الهم بالذنوب بالقلب ، فإن خلا عن الهم بالقلب فلا يخلو عن وسواس الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله فإذا خلا عنه فلا يخلو عن غفلة وتقصير في العلم بالله وبصفاته وأفعاله وكل ذلك يعد تقصيراً ، والمراد بالتوبة الرجوع ، ولا يتصور الخلو في حق الآدمي عن هذا النقص وإنما يتفاوتون في المقادير فأما الأصل فلا بد منه ، ولهذا قال ﷺ : «إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة»[2] .

وحكي عن لقمان أنه قال لابنه : إياك والغفلة عن ربك بترك التوبة عن ذنبك فإن من ترك التوبة فإنه يتعرض لخطرين عظيمين ، أحدهما : أنْ تتراكم ظلمة الذنوب على قلبه حتى تصير غالبة ولا تقبل المحو ، وثانيهما : أنْ يعاجله المرض والموت فلا يجد مهلة الاشتغال بالمحو والإزالة ، ولهذا ورد في الخبر أنَّ أكثر صياح أهل النار من التسويف[3] .

---

(١) نفس المصدر.

(٢) أخرجه مسلم من حديث الأغر المزني وللبخاري من حديث أبي هريرة وأبو داود من حديث الأغر والبيهقي في الشعب انظر تخريج الإحياء ٤/ ١٣ .

(٣) الإحياء ٣/ ١٣ .

قال بعض الزهاد: إن الله تعالى أسر إلى عبده بسرين، أحدهما: إذا خرج من بطن أمه، فيقول له: عبدي قد أخرجتك من بطن أمك إلى الدنيا طاهراً نظيفاً واستودعتك عمرك وائتمنتك عليه فانظر كيف تحفظ الأمانة وانظر كيف تلقاني وثانيهما: عند خروج روحه يقول: ماذا صنعت في أمانتي عندك هل حفظتها حتى تلقاني على العهد فألقاك على الوفاء، أو ضيعتها فتلقاني على الإضاعة فألقاك على المطالبة والعقاب؟ وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿**أوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون**﴾ (البقرة: ٤٠).

الحكم الخامس في بيان أن التوبة عند كمالها واجبة القبول:

اعلم أن المأخوذ على المكلف أن لا يواقع المعصية فإن واقعها ولم يتب فهو هالك لا محالة، وإن تاب فهل يجب على الله قبول توبته أم لا؟ من جهة العقل فيه تردد، وأكثر المتكلمين على وجوب القبول للتوبة، ومنهم من قال إن القبول لا يجب عقلاً، والمختار أنه غير واجب وقد قررناه في الكتب الكلامية، فأما الوجوب من جهة الشرع فهو ظاهر وقد دل عليه القرآن والأخبار.

أما الآيات فقوله تعالى: ﴿**وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات**﴾ (الشورى: ٢٥) وقوله تعالى: ﴿**غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب**﴾ (غافر: ٣) وقوله تعالى: ﴿**استغفروا ربكم إنه كان غفاراً**﴾ (نوح: ١٠) وإلى غير ذلك من الآيات الدالة على وجوب القبول.

وأما الأخبار فقوله ﷺ: «لله أفرح بتوبة أحدكم»[١] الحديث، والفرح وراء القبول فهو دليل على القبول وزيادة، وقال الرسول ﷺ: «إن الله يبسط يده بالتوبة لمسيء النهار إلى الليل ولمسيء الليل إلى النهار»[٢]، فبسط اليد استعارة لقبول التوبة، وقال ﷺ: «لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم لتاب الله عليكم»[٣]، وقال ﷺ: «إن العبد ليذنب الذنب فيدخل به الجنة، قيل: كيف ذلك يا رسول الله؟ قال: يكون نصب عينيه تائباً فاراً حتى يدخل الجنة»[٤] فهذا ما أردنا ذكره في بيان ماهية التوبة وبالله التوفيق.

---

(١) تقدم تخريج هذا الحديث في ص ٢٨٤ التعليق رقم ٢.

(٢) رواه مسلم من حديث أبي موسى والطبراني.

(٣) رواه ابن ماجه من حديث أبي هريرة وإسناده حسن تخريج الإحياء ٤/ ١٧.

(٤) أخرجه ابن المبارك في الزهد عن المبارك بن فضالة عن الحسن مرسلاً. وأبو نعيم في الحلية من حديث أبي هريرة وفيه صالح السري وهو ضعيف ورواه ابن أبي الدنيا في التوبة من حديث ابن عمر نحوه. وقال العراقي في تخريج =

الركن الثاني
في بيان الذنوب التي يجب التوبة عنها

إعلم أن التوبة عبارة عن ترك الذنب ومعنى الذنب هو كل ما خالف أمر الله تعالى في فعل أو كف وذلك يستدعي شرح أفعال التكليف وليس من مقصدنا، ولكنا نشير إلى جملة أقسام الذنوب ونجعلها على مراتب أربع.

المرتبة الأولى صفات الربوبية:

ونريد بكونها ربوبية أن كل من كان متلبساً فهو ينزع إلى المشاركة في الإلهية وهذا نحو الكبر والفخر والجبروتية وحب الثناء والمدح والعزة والغنى وحب دوام البقاء وطلب الاستعلاء على الخلق حتى كأنه يريد أن يقول أنا ربكم الأعلى فهذه الصفات كلها تتشعب عنها كبائر الذنوب التي غفل الخلق عنها ولم يعدوها ذنوباً وهي المهلكات العظيمة التي هي كالأمهات لأكبر المعاصي.

المرتبة الثانية الشيطانية:

وهي التي منها يتشعب الحسد والبغي والحيلة والخداع والأمر بالفساد والمكر وفيها يدخل الغش والنفاق والدعوة إلى الأمور الباطلة والمذاهب الرديئة والضلالات العظيمة، ومن تحلى بهذه الصفات فهو لا محالة أعظم حبائل الشيطان[1].

المرتبة الثالثة الصفات البهيمية:

ومنها يتشعب الشره والتكلب والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج ومنه يتشعب الزنا واللواط والسرقة وأكل مال اليتيم وجمع الحطام لأجل الشهوات لأن كل من جمع هذه الصفات فهو مشبه لأخلاق البهائم كالحمار والثور.

المرتبة الرابعة الصفات السبعية:

ومنها يتشعب الغضب والحقد والتهجم على الناس بالضرب والشتم والقتل واستهلاك الأموال ويتفرع منها جمل من الذنوب، فهذه أمهات الذنوب ومنابعها ثم تتفجر عن هذه المنابع على الجوارح فبعضها يكون على القلب خاصة كالكفر والبدعة والنفاق وإضمار الخدع للناس وبعضها على العين والسمع بالتطلع على العورات

= أحاديث الإحياء ٤/ ١٧ قال الفضيلي الحديث غير محفوظ.

(١) الإحياء ٤/ ١٧، ٤/ ٦٦.

وبالغيبة والنميمة ، وبعضها على البطن بأكل الأموال الحرام ، وبعضها على الفروج كالزنا وركوب المحرمات ، وبعضها على اليدين بالقتل والظلم والسعي بين الخلق بالباطل ، وبعضها بالرجل كالسير إلى كل محظور ، وبعضها على جميع البدن ، وللذنوب تقسيمات كثيرة لا حاجة بنا إلى ذكرها[1] .

الركن الثالث
في بيان ما يحمل الناس على ترك الذنوب

وجملة ما نشير إليه من ذلك أربعة أضرب :

الأول : ذكر ما في القرآن من الآيات المخوفة للمذنبين والعاصين ، وكذلك ما ورد من الأخبار والآثار مثل قوله ﷺ : «الطابع معلق بقائمة من قوائم العرش فإذا انتهكت الحرمات واستحلت المحارم أرسل الله الطابع فطبع على القلوب بما فيها»[2] ، وفي حديث آخر : «القلب مثل الكف المفتوحة» كلماأذنب ذنباً انقبضت أصبع حتى تنقبض الأصابع كلها فينسد على القلب فذلك هو الطبع »[3]

الضرب الثاني : حكايات الأنبياء والسلف الصالح وما جرى عليهم من المصائب من أجل الذنوب فذلك شديد النفع ظاهر الوقع في قلوب الخلق مثل آدم وحواء في عصيانهما وخروجهما من الجنة ، ومثل ما جرى لداوود من الخطيئة وما جرى لسليمان من ذلك الذنب الذي أذنبه فقد قيل : إنه سلب ملكه أربعين يوماً وأخذ خاتمه ثم رد عليه الخاتم فرجع ملكه إليه بخدمة الجن والإنس والطير والوحوش .

الضرب الثالث : أن يقرر عندهم تعجيل العقوبة في الدنيا أنه متوقع في الدنيا على مقارفة الذنوب وأنه كلما يصيب العبد من المصائب فهي بسبب جنايته فرب عبد يتساهل في أمر الآخرة ويخاف من عقوبة الله في الدنيا لفرط جهله فينبغي أن يخوف به فإن الذنوب كلها يتعجل في الدنيا شؤمها في غالب الأمر ، وقد قال ﷺ : «إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه»[4] .

الضرب الرابع : ذكر ما ورد من العقوبات على آحاد الذنوب كالخمر والزنا

---

(١) الإحياء ٤/ ١٧ .

(٢) أخرجه ابن عدي وابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عمر والحديث منكر تخريج الإحياء ٤/ ٦٦ .

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان من قول حذيفة وذكر الغزالي من قول مجاهد . انظر تخريج الإحياء ٤/ ١٦ .

(٤) أخرجه ابن حبان والحاكم وصحح إسناده من حديث ثوبان تخريج الإحياء ٤/ ٦٧ .

والسرقة والقتل والغيبة والنميمة والكبر والحسد وذلك مما لا يمكن حصره، وذكره مع غير أهله وضع للدواء في غير موضعه فينبغي أن يذكر لكل واحد ما يحتمله لما روي أنه ﷺ لما قال له رجل: أوصني، قال له: لا تغضب»[1]، وقال آخر: أوصني، فقال: «صل صلاة مودع»[2]. إلى غير ذلك من العلم بالأحوال حتى يكون الكلام نافعاً والمواعظ زاجرة.

الركن الرابع
فيما ينبغي للتائب أن يبادر إليه
إذا جرى عليه بعض الذنوب

إعلم أن الواجب عليه هو الندم والإشتغال بالتفكير بكل حسنة تضاد كل ذنب من ذنوبه كما أشرنا إليه، فإن لم تساعده النفس على العزم على الترك لغلبة الشهوة فلا ينبغي أن يترك الواجب الثاني وهو أن يدرأ بالحسنة السيئة لتمحوها، والحسنات المكفرات للسيئات أمور ثلاثة، **أولها**: القلب فيكفر بالتضرع إلى الله في سؤال المغفرة والعفو ويتذلل تذلل العبد الآبق ويكون ذله بحيث يظهر للعباد وذلك يكون بخضوع كثير وذل عظيم ويضمر في قلبه فعل الخيرات إلى المسلمين، **وثانيها**: اللسان بالاعتراف بالظلم والاستغفار فيقول: إني ظلمت نفسي وعملت سوءاً فاغفر لي ذنوبي، وكذلك يظهر من ضروب الاستغفار، **وثالثها**: الجوارح بالطاعات والصدقات وأنواع العبادات، وفي الحديث عن الرسول ﷺ أنه قال: «إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تكفرها السر بالسر والعلانية بالعلانية»[3]، ولهذا قيل: صدقة السر تطفىء ذنوب الليل وصدقة الجهر تكفر ذنوب النهار، وقد تم ما نريده من كتاب التوبة على جهة الاختصار والإيجاز والله سبحانه أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة والترمذي ولأحمد في المسند والحاكم من حديث جارية بن قدامة.

(٢) أخرجه ابن ماجة والحاكم وابن النجار في تأريخه عن ابن عمر وقال العراقي في تخريج الإحياء ٤/ ٦٩ فيه مجاهيل وانظر التفسير للمناوي ٢/ ٩١ وتقدم نحوه ص ٢٤٩ التعليق ـ ٤ ـ.

(٣) أخرجه أحمد في كتاب الزهد من حديث عطاء بن يسار مرسلاً فهو منقطع وأخرجه البيهقي في الشعب من حديث معاذ وفيه رجل لم يسم ورواه الطبراني من رواية عطاء بن يسار عن معاذ ولم يلقه. انظر تخريج الإحياء ٤/ ٥٩.

الباب الثاني

من مقالة المنجيات الصبر والشكر

وهما ركنان من أركان الإيمان كما رُوي عن الرسول ﷺ : «الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر»[1]، وكما وردت به الآثار وشهدت به الأخبار وذلك لأن المقاصد التكليفية متعلقاتها الأوامر والنواهي وهي أصول الإيمان فما كان من جهة الأوامر فهو الشكر لأن هذه الطاعات جارية مجرى الشكر لله، وما كان من جهة المناهي فهو الصبر عن المشتهيات فلنجعل الكلام على شطرين[2].

الشطر الأول

في الصبر

وقبل الخوض في مقاصده نذكر ماهيته، إعلم أن الصبر عبارة عن مخالفة الهوى والميل عن شهوات الدنيا، ويقال: إنه عبارة عن ثبات باعث الدين في مقاومة باعث الهوى وعلى هذا يكون المراد بالصبر العمل بمقتضى اليقين لأن اليقين يعرفه أن المعصية ضارة والطاعة نافعة، ولا يمكن ترك المعصية والمواظبة على الطاعة إلا بالصبر وهو استعمال باعث الدين في قهر باعث الهوى والكسل، فإذا عرفت هذا فلنذكر فضيلة الصبر ثم نذكر أقسامه ثم نردفه بما يستعان به على الصبر فهذه تنبيهات أربعة[3]:

---

(١) أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية يزيد الرقاش عن أنس ويزيد ضعيف تخريج الإحياء ٤/ ٧٦.

(٢) الإحياء ٤/ ٧٦.

(٣) الإحياء ٤/ ٧٦.

التنبيه الأول
في بيان أقسام الصبر

وله تقسيمات ثلاثة :

التقسيم الأول : باعتبار العسر واليسر إلى ما يكون شاقاً على الأنفس فلا يمكن الدوام عليه إلا بجهد جهيد وتعب وما هذا حاله يسمى تصبراً ، وتارة يكون متعلقه إما الطاعة لتأديتها وإما المعصية في الانكفاف عنها وإلى ما يكون وقوع الصبر فيه من غير شدة ولا مكابدة ويخص ذلك باسم الصبر وإذا دامت التقوى وقوي التصديق مما في العاقبة من الحسنى تيسر الصبر وسهل ، ومثال هذا التقسيم المصارعة فإن الرجل القوي يسهل عليه الصراع للضعيف بأدنى جهد ولا يحصل صراع الرجل القوي إلا بجهد عظيم ومشقة .

التقسيم الثاني : باعتبار حكمه إلى فرض ونفل ومكروه ومحرم فالصبر عن المحظورات فرض وعلى المكروهات نفل ، والصبر على الأذى المحظور محظور كمن تقطع يده أو يد ولده أو يقتله وهو يصبر على ذلك فإن هذا محظور ، والصبر المكروه هو الصبر على أذى يناله بجهة مكروهة في الشرع .

التقسيم الثالث : باعتبار قوته وضعفه ويقع على أوجه ثلاثة ، **أولها** : أن يكون الصبر قاهراً لدواعي الهوى فلا يبقى للهوى تصرف وعند هذا يقال من صبر ظفر ، والمختص بهذه الرتبة هم الأقلون الناجون ، **وثانيها** : أن تغلب دواعي الهوى ويسقط دواعي الدين والعقل بالكلية ويسلم نفسه إلى جند الشيطان فلا يجاهد ليأسه عن المجاهدة ، وهؤلاء هم الغافلون وهم الأكثرون وهم الذين حصلوا في رق الشهوات وغلبت عليهم الشهوة ، **وثالثها** : أن يكون الحرب سجالاً بين الجندين فتارة يغلب العقل وتارة يغلب الهوى وهؤلاء هم المجاهدون ، وهؤلاء هم الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم[١] .

التنبيه الثاني
في بيان ما يستعان به على تحصيل الصبر

إعلم أن الذي أنزل الداء أنزل الدواء ووعدنا بالشفاء فالصبر وإن كان شاقاً وعسيراً فتحصيله يكون بمعجون العلم والعمل فهذان طريقان :

---

(١) انظر الإحياء ٤/ ٧٦ .

الطريق الأول : الأمور العلمية وهي النافعة وتقريرها هو أن يعلم عظمة الله وما يستحقه من الجلال والكبرياء، وأن من هذه حاله فلا يمكن مبارزته بالمعصية ويعلم أيضاً ما أعد الله لأعدائه في الآخرة من العقوبة الأبدية والعذابات السرمدية التي ليس لها غاية ولا يكون لها انقضاء ولا نهاية فبهذا العلم يستعين على الصبر على الإنكفاف عن كل معصية.

الطريق الثاني : العملية ونحن نضرب مثالاً يدل على سائر الأمثلة وهو أنا نقول إذا افتقر إلى الصبر عن شهوة الوقاع مثلاً وقد غلبت عليه واستقوى أمرها بحيث لا يملك فرجه معها وإن ملك فرجه فلا يملك عينه، وإن ملك عينه فلا يملك قلبه، ونفسه لا تزال تحدثه بمقتضيات الشهوة ويصرفه ذلك عن المواظبة على الذكر والفكر وسائر الأعمال الصالحة فإذا كان الأمر كما قلناه فالإستعانة على الصبر على باعث هذه الشهوة يكون بأمور ثلاثة[1] :

أما **أولاً** : فبالصوم كما أشار إليه صاحب الشريعة صلوات الله عليه بقوله: «ومن لم يستطع منكم الباءة فعليه بالصوم»[2]، وأما **ثانياً** : فبترك الأسباب المهيجة للشهوة كالنظر فإنه يهيج الشهوة بتحريك القلب، وأما **ثالثاً** : فبالعزلة والاحتراز عن مظان وقوع ما يحرك الدواعي ويهيج البواعث على ما ذكرناه، فهذه الأمور كلها مما يستعان به على الصبر، وهكذا الحال في كل علة فإن أقسام العلل مختلفة فتكون أقسام العلاج مختلفة أيضاً لأنه إذا اختلفت العلل اختلف العلاج لكل شيء بما يليق به من الأدوية والعلاجات[3].

التنبيه الثالث
في بيان فضل الصبر

وذلك يكون من جهات ثلاث :

الجهة الأولى :الآيات القرآنية وقد قال تعالى: ﴿ **وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا** ﴾ (السجدة: ٢٤) وقال: ﴿ **وتمت كلمة ربك الحسنى على بني اسرائيل بما صبروا** ﴾ (الأعراف: ١٣٧)، وقال تعالى: ﴿ **ولنجزين الذين صبروا** ﴾ (النحل: ٩٦)، وقال: ﴿ **أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا** ﴾ (القصص: ٥٤)، وقال: ﴿ **إنما يوفى**

---

(١) انظر الإحياء ٤/ ٧٦.

(٢) متفق عليه من حديث ابن مسعود وأخرجه الطبراني في الأوسط والضياء عن أنس بإسناد حسن.

(٣) انظر الإحياء ٤/ ٧٦.

الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ (الزمر: ١٠)، وما من قُربة إلا ولها أجر مقدر إلا الصبر، وقال تعالى: ﴿واصبروا إن الله مع الصابرين﴾ (الأنفال: ٤٦)، وقد وصف الله الصابرين بأوصاف كثيرة، وذكر الصبر في نيف وسبعين موضعاً وأضاف أكثر الخيرات والدرجات إلى الصبر

الجهة الثانية: الأخبار، قال ﷺ: «الصبر نصف الإيمان»[١]، وقال ﷺ: «من أفضل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ومن أعطي حظه منهما لم يبال بما فاته من قيام الليل وصيام النهار»[٢]، وروى جابر أنه سئل ﷺ عن الإيمان فقال: «الصبر والسماحة»[٣]، وقال: «الصبر كنز من كنوز الجنة»[٤]، وسئل عن الإيمان فقال: «الصبر»[٥]، وقال أيضاً: «أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس»[٦]، وعن ابن عباس لما دخل رسول الله علىَ الأنصار فقال: أمؤمنون أنتم؟ فسكتوا، فقال عمر: نعم يا رسول الله، فقال: وما علامة إيمانكم؟ فقالوا: نشكر على الرخاء ونصبر على البلاء ونرضى بالقضاء، فقال: مؤمنون ورب الكعبة[٧]، وقال ﷺ: «في الصبر على ما يكره خير كثير»[٨]، وقال ﷺ: «لو كان الصبر رجلاً لكان كريماً والله يحب الصابرين»[٩].

الجهة الثالثة: الآثار، قال أمير المؤمنين عليه السلام: الإيمان على أربع دعائم: اليقين والصبر والجهاد والعدل، وقال: الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ولا جسد لمن لا رأس له ولا إيمان لمن لا صبر له، وكان عمر يقول: نعم العدلان ونعم العلاوة للصابرين، يعني بالعدلين الصلاة والرحمة وبالعلاوة الهدى، والعلاوة ما يحمل

---

(١) أخرجه أبو نعيم والخطيب من حديث ابن مسعود بسند حسن تخريج الإحياء ١/ ٣٠٣، ٤/ ٧٧.

(٢) قال العراقي في تخريج الإحياء ١/ ١٠١، ٤/ ٧٧ لم أقف له على أصل وفي الموضوع الآخر لم أجده هكذا بطوله وذكر له شاهد بنحوه وقال رواه ابن عبد البر من حديث معاذ.

(٣) أخرجه الطبراني في مكارم الأخلاق وابن حبان في الضعفاء وفيه يوسف بن محمد بن المنكدر ضعيف ورواه الطبراني في المعجم الكبير من رواية عبدالله بن عبيد بن عمير عن أبيه عن جده.

(٤) قال العراقي في تخريج الإحياء ٤/ ٧٧ غريب لم أجده.

(٥) أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية يزيد الرقاش عن أنس مرفوعاً ويزيد ضعيف.

(٦) قال العراقي في تخريج الإحياء ٤/ ٧٧ لا أصل له مرفوعاً وربما هو من قول عمر بن عبد العزيز هكذا رواه ابن أبي الدنيا في كتاب محاسبة النفس.

(٧) أخرجه الطبراني في الأوسط من رواية يوسف بن ميمون وهو منكر الحديث عن عطاء.

(٨) أخرجه الترمذي من حديث عائشة.

(٩) أخرجه الطبراني من حديث عائشة وفيه صحيح ابن دينار ضعفه العقيلي تخريج الإحياء ٤/ ٨٨.

فوق العدلين على البعير وأشار به إلى قوله تعالى: ﴿ **أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة**﴾ (البقرة: ١٥٧)، الآية، وقال أبو الدرداء: ذروة الإيمان الصبر للحكم والرضاء بالقدر، فهذا ما أردنا ذكره من فضيلة الصبر[١].

التنبيه الرابع
في بيان الحاجة إلى الصبر
وأن العبد لا يستغني عنه في حالة من الحالات

إعلم أن جميع ما يلقاه العبد في هذه الحياة لا يخلو من نوعين، أحدهما يوافق هواه، والآخر يخالف هواه وهو محتاج إلى الصبر فيهما.

النوع الأول: ما يوافق الهوى وهو الصحة والسلامة والمال والجاه وكثرة العشيرة واتساع الأسباب وكثرة الأتباع والأنصار وجميع ملاذ الدنيا ومشتهياتها والعبد محتاج إلى الصبر على هذه الأمور فإن لم يضبط نفسه عن الإسترسال وإلا خرج إلى البطر والطغيان.

النوع الثاني: أن لا يوافق هواه وذلك يكون على أقسام ثلاثة:

القسم الأول: ما يرتبط باختيار العبد وهي سائر أفعاله التي تكون واقعة على حسب قدرته واختياره وتوصف بكونها طاعة أو معصية، فهذان ضربان[٢].

الضرب الأول: الطاعات والعبد محتاج إلى الصبر عليها فالصبر على الطاعة شديد لأن النفوس بطبعها تنفر عن العبودية وتشتهي العلو والرفعة فيحتاج في الطاعة إلى إخلاص النية وإلى فعلها لئلا يتساهل إلى تركها وإلى حراستها بعد الفراغ منها عن الرياء.

الضرب الثاني: المعاصي فما أحوج العبد إلى الصبر عن المعاصي وقد جمع الله أنواع المعاصي في قوله تعالى: ﴿ **وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي**﴾ (النحل: ٩٠)، وقوله ﷺ: «المهاجر من هجر السوء والمجاهد من جاهد هواه»[٣]، وأشد أنواع الصبر هو الصبر عن المعاصي التي صارت مألوفة بالعادة.

---

(١) الإحياء ٤/ ٧٨.

(٢) انظر الإحياء ٤/ ٧٨.

(٣) أخرج شطره الأول ابن ماجة وشطره الثاني النسائي في السنن الكبرى كلاهما من حديث فضالة بن عبيد الله بإسنادين جيدين تخريج الإحياء ٤/ ٨٩.

القسم الثاني : ما لا يرتبط باختيار العبد وله اختيار في دفعه كما لو أوذي بفعل وقول أو بأحدهما وجني عليه في نفسه أو ماله فالصبر على ذلك بترك المكافأة تارة يكون واجباً وتارة يكون فضيلة ، قال بعض الصحابة : ما كنا نعد إيمان الرجل إيماناً إذا لم يصبر على الأذى وقال تعالى : ﴿ **ولنصبرن على ما آذيتمونا** ﴾ (إبراهيم : ١٢) ، وقال تعالى : ﴿ **ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا** ﴾ (آل عمران : ١٨٦) ، وقال تعالى : ﴿ **ودع أذاهم وتوكل على الله** ﴾ (الأحزاب : ٤٨) .

القسم الثالث : ما لا يدخل تحت الاختيار أوله وآخره وهذا نحو المصائب مثل موت الأعزة وهلاك الأموال وزوال الصحة بالمرض والعمى وفساد الأعضاء ، وعلى الجملة فسائر أنواع البلاء فالصبر على ذلك من أعلا مقامات الصبر ، قال ابن عباس رضي الله عنه : الصبر في القرآن على ثلاثة أوجه صبر على أدآء فرائض الله فله ثلثمائة درجة ، وصبر عن محارم الله وله ستمائة درجة ، وصبر في المصيبة عند الصدمة الأولى فله تسعمائة درجة ، فهذا ما أردنا ذكره فيما يحتمله الصبر والله الموفق للصواب[1] .

الشطر الثاني
من المنجيات في ذكر الشكر

واعلم أنا قبل الخوض فيما نريده من أسرار الشكر وخواصه نذكر ماهية الشكر ، واعلم أن الشكر لا بد فيه من مراعاة أمور في تمام ماهيته ، أما **أولاً** : فلا بد من العلم بالنعمة والعلم بقصد المنعم بها لتكون نعمة والعلم بصفاته التي بها يتم الإنعام ويصدر من جوده ، وأما **ثانياً** : فلا بد من التواضع للمنعم على نعمته والخضوع له ، وأما **ثالثاً** : فالعمل بموجب النعمة وهذا العمل يتعلق بالاعتراف بالقلب وبالإقرار باللسان وبالعمل بالجوارح فشكر العينين أن يستر كل عورة على كل مسلم ، وشكر الأذنين أن تستر كل عيب تسمعه ، والشكر باللسان الرضا عن الله تعالى ، فمهما حصلت هذه الأمور الثلاث حصل الشكر لا محالة ، فإذا عرفت هذا فلنذكر فضيلة الشكر ثم نردفه بكيفية الشكر في حق الله تعالى ، فهذان تنبيهان[2] .

التنبيه الأول
في فضيلة الشكر

وقد قرن الله الشكر بالذكر فقال تعالى : ﴿ **إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر**

---

(١) الإحياء ٤/ ٨٩.

(٢) الإحياء ٤/ ٨٩.

ولذكر الله أكبر﴾ (العنكبوت: ٤٥)، وقال تعالى: ﴿ **فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون** ﴾ (البقرة: ١٥٢)، وقال تعالى: ﴿ **ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم** ﴾ (النساء: ١٤٧)، وقال تعالى: ﴿ **وسنجزي الشاكرين** ﴾ (آل عمران: ١٤٥)، وقال: ﴿ **ولا تجد أكثرهم شاكرين** ﴾ (الأعراف: ١٧)، وقال تعالى: ﴿ **وقليل من عبادي الشكور** ﴾ (سبأ: ١٣)، وقد شد الله بالمزيد مع الشكر فقال تعالى: ﴿ **لئن شكرتم لأزيدنكم** ﴾ (إبراهيم: ٧)، وقال ﷺ: «أجر الطاعم الشاكر كأجر الصائم الصابر»[١]، وروت عائشة أن الرسول ﷺ توضأ وصلى ثم سجد وبكى حتى أذن بلال للصلاة، فقال: يا رسول الله كيف تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟، فقال: أفلا أكون عبداً شكوراً»[٢]، ولم لا أبكي وقد أنزل الله علي: ﴿ **إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار** ﴾ (آل عمران: ١٩٠، والبقرة: ١٦٤)، وهذا يدل على أن البكاء لا ينقطع أبداً، وروي عن الرسول ﷺ أنه قال: «ينادي مناد يوم القيامة ليقم الحمادون فتقوم زمرة فينصب لهم لواء فيدخلون الجنة فقيل: ومن الحمادون؟ قال: «الذين يشكرون الله على كل حال»[٣]، وفي حديث آخر: «على السراء والضراء»[٤]، وقال ﷺ: «الحمد رداء الرحمن»[٥]، وقيل: أوحى الله إلى أيوب عليه السلام إني قد رضيت بالشكر مكافأة من أوليائي، وأوحى الله في صفة الصابرين: «دارهم دار السلام إذا دخلوا ألهمهم الشكر وهو خير الكلام»[٦]، وقال ﷺ: «ليتخذ أحدكم لساناً ذاكراً وقلباً شاكراً»[٧]، فأمرنا باقتناء الشكر بدلاً من المال.

التنبيه الثاني

في كيفية الشكر لله تعالى

وربما ظن ظان أن الشكر في حق الله متعذر لوجهين، **أحدهما**: إن الشكر إنما

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه وأبو الشيخ من وجه آخر عن عائشة وهو عند مسلم من رواية عروة عنها مختصراً.

(٢) أخرجه البخاري تعليقاً وأسنده الترمذي وحسنه ابن ماجه وابن حبان من حديث أبي هريرة ورواه ابن ماجه أيضاً من حديث سنان بن سنة وفي إسناده اختلاف تخريج الإحياء ٤/ ١٠١.

(٣) أخرجه الطبراني وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس وفيه نفس بن الربيع ضعفه الجمهور.

(٤) هذا الحديث جزء من الحديث المتقدم قبله.

(٥) قال العراقي في تخريج الإحياء ٤/ ١٠٢ لم أجد له أصلاً وفي الصحيح من حديث أبي هريرة «نحوه» (الكبر رداؤه).

(٦) انظر الإحياء ٤/ ١٠٢.

(٧) أخرجه الترمذي وحسنه ابن ماجه من حديث عمر وفيه إنقطاع.

يكون لما يظهر فيه من النفع للمنعم وذلك مستحيل في حق الله تعالى لأنه يتعالى عن المنافع، **وثانيهما**: إن جميع ما نتعاطاه من الشكر باختيارنا فإنه لا يتم إلا بنعمة أخرى من جهة الله تعالى فكيف نشكر نعمته بنعمته وذلك يؤدي إلى تعذر الشكر في حق الله تعالى؟

الجواب: إن مثل هذا الوهم قد خطر لداود عليه السلام ولموسى صلوات الله عليه فقالا: يا رب كيف نشكرك ونحن لا نشكرك إلا بنعمة فانية من نعمك ولا نستطيع ذلك، وشكرنا لك نعمة أخرى توجب علينا الشكر لك؟، فأوحى الله إليهما: إذا عرفتما هذا فقد شكرتماني، وفي خبر آخر: إذا عرفتما أن النعم مني فقد رضيت بذلك منكما شكراً.

فأما قول السائل: إن الشكر إنما يكون لجلب النفع فجوابه أن الشكر كما يكون لجلب النفع فقد يكون غير هذا وهو اختصاصه بصفات الكمال وأنه المتعالي بصفات الكمال وأنه المتعالي بالصفات الإلهية، وأما قوله إن الشكر لايكون إلا بنعمة أخرى فهذا صحيح ولكنه لا يبطل الشكر لأنه إنما يكون على الوجه الممكن اللائق وقد أشار الشرع إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿**وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها**﴾ (إبراهيم: ٣٤).

قاعدة: نختم بها هذا الباب في معرفة الأفضل من الصبر والشكر وقد اختلف العلماء في ذلك فقال قائلون: الصبر أفضل من الشكر، وقال آخرون: الشكر أفضل، وصار صائرون إلى أنهما متساويان لأن كل واحد منهما يختص بمزيد فضل مثل الآخر، وقال آخرون: يختلف ذلك باختلاف الأحوال واستدل كل فريق بكلام ينصر به مقالته[١].

والمختار عندنا ها هنا تفصيل نشير به يكون بالبحث والتفصيل وهو أن الظواهر الشرعية دالة على تفضيل الصبر على الشكر فإنه قد وردت في الشكر أخبار في فضله فإذا أضيفت الأخبار الواردة في فضل الصبر كانت فضائل الصبر أكثر بل ربما ورد تصريح بالتفضيل في الصبر كما روي عنه ﷺ أنه قال: «من أفضل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر»[٢]، وفي الحديث «يؤتى يوم القيامة بأشكر أهل الأرض فيجزيه الله تعالى جزاء الشاكرين، ويؤتى بأصبر أهل الأرض فيقال له: أترضى أن نجزيك كما جزينا هذا

---

(١) انظر الإحياء ٤/ ١٠٢.

(٢) تقدم تخريجه ص ٢٩٦.

الشاكر فيقول: نعم يارب، فيقول الله تبارك وتعالى: كلا هذا أنعمت عليه فشكر وابتليتك فصبرت لأضعفن لك الأجر عليه»[1] فيعطى أضعاف أجر الشاكرين.

وقد قال تعالى: ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ (الزمر: ١٠) وقوله ﷺ: «الصبر نصف الإيمان»[2] ولم يقل الشكر نصف الإيمان، وكقوله: «الصوم نصف الصبر»[3] وفي حديث: «آخر الأنبياء دخولاً سليمان بن داود لمكان ملكه وآخر صحابي دخولاً عبد الرحمن بن عوف»[4] وفي لفظ آخر «يدخل سليمان الجنة بعد الأنبياء بأربعين خريفاً»[5]، وفي حديث آخر «أبواب الجنة مصراعان إلا باب الصبر فإنه مصراع واحد وأول من يدخله من أهل البلاء أيوب عليه السلام»[6]، وفي هذا دلالة على فضل الصبر.

---

(١) قال العراقي في تخريج الإحياء ٤/ ١٦٩ لم أجد له أصلاً.

(٢) تقدم تخريجه ص ٢٩٦.

(٣) أخرجه الترمذي وحسنه من حديث رجل من بني سليم وابن ماجه من حديث أبي هريرة تخريج الإحياء ١/ ٣٠٣.

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث معاذ بن جبل تخريج الإحياء ٤/ ١٧١ وقال في ٤/ ٢٤٣ فرد وفيه نكارة.

(٥) تقدم تخريجه في الذي قبله وهو جزء منه.

(٦) قال العراقي في تخريج الإحياء ٤/ ١٧٠ لم أجد له أصلاً ولا في الأحاديث الواردة في مصاريع أبواب الجنة نعرفه ثم ذكر بعض ما يروى في مصاريع أبواب الجنة.

الباب الثالث

من مقالة المنجيات في الخوف والرجاء

إعلم أن الخوف والرجاء جناحان يطير بهما المقربون إلى كل مقام محمود ومطيتان يقطع بهما من طرق الآخرة كل عقبة كؤود فلا سبيل إلى الوصول إلى قرب الرحمن وروح الجنان مع كونه بعيد الرجاء ثقيل الأعباء محفوفاً بمكاره القلوب ومشاق الجوارح والأعضاء إلا بأزمة الرجاء، ولا يصد عن نار الجحيم والعذاب الأليم المقيم مع كونه محفوفاً بلطائف الشهوات وعجائب اللذات إلا سياط التخويف وسطوات التعنيف فلا بد من شرح حقائقها وبيان خصائصها، وقد اشتمل الباب على شطرين[1].

الشطر الأول
في بيان الخوف

وقبل الخوض فيما نريده نذكر حقيقة الخوف، واعلم أن الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في المستقبل، فمن شغل قلبه بالخوف واشتعلت ناره في فؤاده فإنه قامع الشهوات ومكدر لكل لذة فتصير المعاصي المحبوبة مكروهة كما يصير العسل مكروهاً عند من يشتهيه إذا عرف أن فيه سماً فعند الخوف تحترق الشهوات بالخوف وتبادر الجوارح بالأعمال الصالحة ويحصل في القلب خشوع وذلة واستكانة ويفارقه الكبر والحسد والحقد وسائر الصفات المهلكة، بل يصير مستوعب الهمة بالخوف والنظر في خطر العاقبة فلا يتفرغ لغيره بحال ولا يكون له هم إلا المراقبة والمحاسبة والمجاهدة للنفس، فإذا عرفت هذا فالمقصود يحصل بذكر تنبيهات ستة[2].

---

(١) الإحياء ٤/ ٢٠١.

(٢) الإحياء ٤/ ٢٠١.

التنبيه الأول
في بيان فضيلة الخوف

وظهوره من جهات أربع :

الجهة الأولى : الآيات القرآنية وهي جامعة لجميع فضائل الأخلاق التي جمعها الله تعالى للخائفين ، الهدى والرحمة والعلم والرضوان ، قال تعالى : ﴿ **هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون** ﴾ (الأعراف : ١٥٤) وقال : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾ (فاطر : ٢٨) فوصفهم بالعلم لخشيتهم ، وقال تعالى : ﴿ **رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه** ﴾ (البينة : ٨) وقال تعالى : ﴿ **وخافون إن كنتم مؤمنين** ﴾ (آل عمران : ١٧٥) فأمر بالخوف وأوجبه وشرطه في الإيمان ، وكلما دل على فضيلة العلم فهو بعينه دال على فضيلة الخوف لأن الخوف هو ثمرة العلم .

الجهة الثانية : الأخبار كقوله ﷺ : «**لا أجمع على عبدي خوفين ولا أجمع له أمنين ، فإذا أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة**»[١] وقال ﷺ : «**ما من عبد مؤمن تخرج من عينيه** دموع وإن كانت مثل رأس الذباب من خشية الله عز وجل لم يصب شيئاً من حر وجهه إلا حرمه **الله** على النار»[٢] وقال ﷺ : «لا يلج النار أحد بكى من خشية **الله** تعالى حتى يعود اللبن في الضرع»[٣] وقالت عائشة : قلت يا رسول الله يدخل الجنة أحد من أمتك بغير حساب؟ قال : نعم من ذكر ذنوبه ثم بكى[٤] ، وقال : «ما من قطرة أحب إلى الله من قطرة دمع من خشية **الله** تعالى أو قطرة دم أهريقت في سبيل **الله**»[٥] ، وقال ﷺ : «اللهم ارزقني عينين هطالتين يسقيانني مذروف الدمع قبل أن يصير الدمع دماً والأضراس جمراً»[٦] وقال ﷺ : «سبعة يظلهم **الله** بظله يوم لا ظل إلا ظله»[٧] ، وذكر منهم رجلاً

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه والبيهقي في شعب الإيمان من حديث أبي هريرة ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين وابن المبارك في الزهد من رواية الحسن مرسلة .

(٢) أخرجه الطبراني والبيهقي في شعب الإيمان من حديث ابن مسعود بسند ضعيف .

(٣) أخرجه الترمذي وقال حسن صحيح والنسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة .

(٤) قال العراقي في تخريج الإحياء ٤/ ٢٠٢ لم أجد له أصلاً .

(٥) أخرجه الترمذي من حديث أبي أمامة وقال حسن غريب .

(٦) أخرجه الطبراني في الكبير وفي الدعاء ٣/ ١٤٧٩ ، ١٤٨٠ رقم الحديث ١٤٥٧ وإسناده ضعيف وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر بإسناد حسن وذكر فيه اختلاف العلماء في الراوي وهو سالم بن عبدالله بن عمر وقيل سالم بن عبدالله المحاربي وصحح الدارقطني أنه المحاربي ويدل كلام البخاري عليه وكذلك مسلم وابن أبي حاتم وغيرهم . انظر تخريج الإحياء ٤/ ٢٠٣ .

(٧) متفق عليه من حديث أبي هريرة .

خاف الله تعالى في خفية فدمعت عيناه[١]، وقالت عائشة قلت يا رسول الله: ﴿**الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة**﴾ (المؤمنون: ٦٠) هو الرجل يسرق ويزني؟ فقال: لا بل الرجل يصوم ويتصدق ويصلي ويخاف أن لا يقبل منه»[٢] والتشديدات الواردة في الأمن من مكر الله تعالى وعذابه لا تنحصر، وكل ذلك ثناء على الخوف لأن مذمة الشيء ثناء لضده الذي ينفيه وضد الخوف الأمن.

الجهة الثالثة: الآثار قال الفضيل بن عياض: من خاف الله خافه كل شيء وقيل للحسن: يا أبا سعيد كيف نصنع بمجالس يخوفوننا حتى تكاد قلوبنا تطير، فقال: والله لئن تخالط أقواماً يخوفونك حتى يدركك الأمن خير من أن تصحب قوماً يؤمنونك حتى يدركك الخوف، وقال بعض الزهاد: ما فارق الخوف قلباً إلا حزن، وقال عمر رضي الله عنه: لو نودي ليدخل النار كل الناس إلا رجل لرجوت أن أكون أنا ولو نودي ليدخل الجنة كل الناس إلا رجل لخشيت أن أكون أنا ذلك الرجل، وهذه عبارة عن غاية الخوف والرجاء واعتدالهما مع الغلبة والاستيلاء فمثل عمر ينبغي أن يساوي خوفه رجاءه[٣].

الجهة الرابعة: من جهة الاعتبار فتقريره أن يعلم أن فضيلة الشيء بقدر عنايته في الإفضاء إلى سعادة لقاء الله عز وجل إذ لا مقصود سوى السعادة، ولا سعادة للعبد إلا في لقاء الله تعالى والقرب منه فكل ما أعان عليه فله فضيلة وفضيلته بقدر عنايته، وقد ظهر أنه لا وصول إلى سعادة لقاء الله عز وجل في الآخرة إلا بتحصيل محبته والأنس به في الدنيا، ولا تحصل المحبة إلا بالمعرفة ولا تحصل المعرفة إلا بدوام الفكر، ودوام الفكر لا يحصل إلا بدوام الذكر، ولا يحصل الذكر إلا بانقلاع حب الدنيا من القلب، ولا ينقلع إلا بترك اللذات والشهوات ولا تنقمع الشهوة إلا بإيثار االخوف فالخوف هو النار المحرقة للشهوات، ونقتصر على هذا القدر من فضل الخوف[٤].

---

(١) هو جزء من الحديث الذي قبله.

(٢) أخرجه الترمذي وابن ماجه والحاكم وصحح إسناده من حديث عائشة وقال العراقي في تخريج الإحياء ٤/ ٢٠٣ متعقباً الحاكم منقطع لأن عبد الرحمن بن حازم لم يرو عن عائشة، وقال الترمذي يروي عن عبد الرحمن بن حازم عن أبي هريرة.

(٣) انظر الإحياء ٤/ ٢٠٣.

(٤) انظر الإحياء ٤/ ٢٠٣.

التنبيه الثاني
في بيان الأمور المخوفة

إعلم أن الخوف لا يكون متحققاً إلا بارتباط مكروه وجملة المكروهات أمور عشرة :

أولها : أن يكون مكروهاً لذاته وهذا نحو النار فإن الله عز وجل قد وعد بها العصاة وهي أعظم مخوف في الآخرة لأن سائر الأهوال في الآخرة بالإضافة إليها قليل ، ولولا أن الشرع قد ورد لأهل العذاب من الكفار والفساق بالنار لكنا نجوز أن الله تعالى يقطع أفئدتهم بالجوع فيمنعهم المشتهيات ويعظم لهم الشهوات .

وثانيها : المعاصي فإنها مكروهة لكونها مؤدية إلى المكروه وهو العذاب في الآخرة .

وثالثها : خوف الموت لما يلاقي فيه من المشاق العظيمة والفجائع الهائلة .

ورابعها : الخوف من حرمان التوبة قبل الموت والخوف من نقضها .

وخامسها : الخوف من الانتقاص لحق الله تعالى والوفاء بعهده وميثاقه .

وسادسها : الخوف من قساوة القلوب وتبدلها كما قال تعالى : ﴿ **فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله** ﴾ (الزمر : ٢٢) .

وسابعها : الخوف من الميل عن الاستقامة على الدين كما قال تعالى : ﴿ **فاستقم كما أمرت** ﴾ (هود : ١١٢) وقوله تعالى : ﴿ **فاستقم كما أمرت ومن تاب معك** ﴾ ﴿ **وأقم وجهك للدين القيم** ﴾ (الروم : ٤٣) وقوله تعالى : ﴿ **فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله** ﴾ .

وثامنها : الخوف من الاغترار بزخارف الدنيا ولذاتها وشهواتها .

وتاسعها : الخوف من الغفلة واطلاع الله تعالى على قبيح سريرته .

عاشرها : الخوف من سوء الخاتمة عند الموت .

فهذه كلها مخاوف عظيمة ومهالك جسيمة وأغلب هذه المخاوف على أهل التقوى إنما هو سوء الخاتمة فإن الأمر فيها خطر لأن الخاتمة تبع للسابقة وفروع تتفرع عنها ، فالخوف من المعاصي خوف الصالحين والمؤمنين ، والخوف من الله تعالى لأجل اختصاصه بالصفات العالية هو خوف الموحدين والصديقين .

التنبيه الثالث

في بيان درجات الخوف

واعلم أن درجاته ثلاث فربما كان تفريطاً وربما كان إفراطاً وتارة يكون معتدلاً، فهذه درجاته:

الدرجة الأولى: التفريط وهي القاصرة وهذا هو الجاري مجرى رقة النساء تخطر بالبال عند سماع آية من القرآن فتورث البكاء وتفيض الدموع وهكذا الحال عند مشاهدة أمر هائل، فإذا غاب ذلك السبب الهائل فإن القلب يرجع إلى الغفلة والإعراض وهذا خوف قاصر قليل الجدوى ضعيف النفع يجري مجرى العود الضعيف الذي تضرب به الدابة القوية فإنه لا يؤلمها ولا تحتفل به ولا يكون سائقاً لها إلى المقصد.

الدرجة الثانية: وهي المقابلة للأولى وهو الإفراط وهو مذموم وهو المفرط وهذا هو الذي يقوى ويخرج عن حد الاعتدال حتى يخرج إلى اليأس والقنوط وهو مانع من العمل، والغرض بالخوف أن يكون حاثاً على العمل، وهذا نحو الضرب بالعود للدابة الذي يؤثر في كسر عضو من أعضائها وفي إذهاب لحمها وجلدها فإن ما هذا حاله فإنه يبطل الغرض لا محالة.

الدرجة الثالثة: وهي المتوسطة الجارية على جهة الاعتدال، وهذا هو الخوف الذي يكون حاثاً على العمل واشتعال ناره في القلب، فحاصل الأمر أن الخوف إن لم يكن باعثاً على العمل فوجوده كعدمه مثل السوط الذي لا يؤثر في حث الدابة على السير وإن أثر وجود العمل وحصوله فهو المحمود الحاصل على نعت الاعتدال وإن زاد حتى غير الحال فهو مذموم يعدل به إلى الإفراط فهذه درجات الخوف كما فصلناه وأشرنا إليه.

التنبيه الرابع

في بيان سوء الخاتمة

إعلم أنها من جملة المخوفات العظيمة كما مر بيانه، واعلم أن سوء الخاتمة لها حالتان:

الحالة الأولى: وهي أعظم من الثانية وهي المرتبة الهائلة وهذا نحو أن يغلب على القلب عند سكرات الموت وظهور أهواله إما الشك في الرب وإما الجحود فيكون الروح مقبوضاً على هذه الحالة فيكون ما غلب على القلب من الجحود والشك حجاباً بينه وبين الله تعالى، وهذا يقتضي البعد الدائم والعذاب المخلد.

الحالة الثانية : وهي دون الأولى وحاصلها أن يغلب على القلب عند الموت أمر من أمور الدنيا وإيثار شهوة من شهواتها ويتمثل ذلك في قلبه ويستغرقه حتى لا يبقى في تلك الحال متسع لغيره فيتفق قبض روحه في تلك الحال فيكون استغراق قلبه منكسا رأسه إلى الدنيا ، وفي ذلك حصول الحجاب عن الله تعالى ومهما حصل الحجاب نزل العذاب إذ نار الله الموقدة لا تأخذ إلا المحجوبين عن الله تعالى ، فأما المؤمن السليم قلبه عن حب الدنيا المصروف إلى الله تعالى فإن النار تناديه وتقول جز يا مؤمن فإن نورك قد أطفأ لهيبي ، فهذا هو المراد بسوء الخاتمة .

التنبيه الخامس
في بيان مراتب أهل النجاة في الخوف

وهذا نحو الملائكة والأنبياء والصحابة والتابعين وغيرهم ونجعلها على مراتب أربع :

المرتبة الأولى : في بيان خوف الملائكة من الله تعالى ، إعلم أن هذا الصنف من المكونات هو أعظم خلقاً وأرفع قدراً عند الله تعالى وأعلاهم منزلة وأجلهم مكاناً ولقد وصفهم الله تعالى بالخوف فقال تعالى : ﴿**يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون**﴾ (النحل : ٥٠) وقال تعالى : ﴿**وهم من خشيته مشفقون**﴾ (الأنبياء : ٢٨) وفي الحديث عن الرسول ﷺ أنه قال : «إن لله ملكاً ما بين جنبيه خفقان الطير المسرع خمسمائة عام وإنه ليتضاءل حتى يصير كالعصفور من خشية الله تعالى»[١] وفي حديث آخر : «إن لله ملكاً ما بين شفر عينيه مسيرة مائة عام»[٢] فانظر أيها المسكين لنفسك فإذا كان هؤلاء أفضل خلق الله وأكرمهم عنده وأقربهم مكاناً إليه خوفهم منه هذا الخوف الشديد ، فكيف حالنا يا معاشر المساكين ضعفاء الأحوال وكثيري الذنوب والخطايا، كيف لا يكون خوفنا أعظم وإشفاقنا من سوء الخاتمة أتم .

المرتبة الثانية : في بيان حال الأنبياء في الخوف وهم أعظم الخلق خوفاً لله تعالى بعد الملائكة لأن خوف الله تعالى يكون على قدر معرفته ، ولا شك أن الملائكة أعلم بالله تعالى وبعدهم الأنبياء وقد روت عائشة أن رسول الله ﷺ كان إذا تغير الهواء وهبت ريح عاصفة يتغير وجهه ويقوم ويتردد في الحجرة ويخرج ،كل ذلك خوفاً من عذاب الله[٣]،

---

(١) لم يذكره صاحب الإحياء وأنا لم أجده بعد البحث.

(٢) قال القاري في الأسرار المرفوعة في الأحاديث الموضوعة ص ٧٨ رقم الحديث ٢٨٥ لم يوجد له أصل.

(٣) متفق عليه من حديث عائشة.

وقرأ رسول الله ﷺ سورة الحاقة فصعق[1] ورأى رسول الله ﷺ صورة جبريل بالأبطح فصعق»[2]، وقال ﷺ: «ما جاءني جبريل قط إلا وهو يرعد فرقاً من الجبار»[3] وقال أبو الدرداء: كان يسمع أزيز قلب إبراهيم خليل الرحمن من مسيرة يوم خوفاً من ربه[4].

وقال مجاهد: بكى داود عليه السلام أربعين يوماً ساجداً حتى نبت المرعى من دموعه وحتى غطى رأسه فنودي: يا داود أجائع فتطعم أم ظمآن فتسقى أم عار فتكسى؟ فنحب نحبة هاج العود فاحترق من حر جوفه فأنزل الله التوبة والمغفرة فقال: يا رب اجعل خطيئتي في كفي، فصارت خطيئته مكتوبة في كفه، وكان لا يبسط كفه لطعام ولا لشراب ولا لغيرهما إلا رآها فأبكته، وكان يؤتى بالقدح ثلثاه ماء، فإذا تناوله أبصر خطيئته فما يضعه على شفته حتى يفيض من دموعه، وروي عن داود عليه السلام أنه ما رفع رأسه إلى السماء حتى مات حياء من الله تعالى، وخرج داود يوماً إلى الناس يعظهم ويخوفهم فخرج في أربعين ألفاً فمات ثلاثون ألفا فما رجع إلا في عشرة آلاف[5].

وكان عيسى صلوات الله عليه يقول: معاشر الحواريين خشية الله وحب الفردوس يؤرثان الصبر على المشقة ويباعدان من النار، وبحق أقول لكم إن أكل الشعير والنوم على المزابل مع الكلاب في طلب الفردوس كبير وقيل: كان الخليل إذا ذكر خطيئته يغشى عليه فيأتيه جبريل فيقول له: الجبار يقرؤك السلام ويقول: هل رأيت خليلاً يخاف خليله؟ فيقول: يا جبريل إني إذا ذكرت خطيئتي نسيت خلتي[6].

فهذه أحوال الأنبياء في خوفهم من الله تعالى، فدونك التأمل لها والتفكر مماذا هربوا ومما أكثروا البكاء وقلقوا أشد القلق وأشفقوا أعظم الشفق.

المرتبة الثالثة: في بيان حال الصحابة رضي الله عنهم في الخوف من الله تعالى،

---

(١) رواه ابن عدي في الكامل والبيهقي في شعب الإيمان مرسلاً انظر تخريج الإحياء ٤/ ٢٢٤.

(٢) أخرجه البزار من حديث ابن عباس بسند جيد ورواه ابن المبارك من رواية الحسن مرسلاً بنحوه وله شاهد في الصحيحين عن ابن مسعود وعن عائشة.
تخريج الإحياء ٤/ ٢٢٤.

(٣) قال العراقي في تخريج الإحياء ٤/ ٢٢٤ لم أجد هذا اللفظ وروى أبو الشيخ في كتاب العظمة عن ابن عباس نحوه وفيه زميل بن سماك الحنفي يحتاج إلى معرفته.

(٤) انظر الإحياء ٤/ ٢٢٤.

(٥) الإحياء نفس المصدر.

(٦) الإحياء ٤/ ٢٢٤.

روي عن أمير المؤمنين كرم الله وجهه قال بعد فراغه من صلاة الفجر وقد علته كآبة وهو يقلب يديه ولقد رأيت أصحاب محمد ﷺ يصبحون شعثاً غبراً صفراً بين أعينهم أمثال ركب المعز قد باتوا سجداً وقياماً يتلون كتاب الله يراوحون بين أقدامهم وجباههم، فإذا ذكروا وأصبحوا مادوا كما تميد الشجر في اليوم العاصف وهطلت أعينهم بالدموع حتى تبل ثيابهم ثم إنه لم ير ضاحكاً بعد ذلك اليوم حتى ضربه ابن ملجم، وقال أبو بكر لطير: ليتني مثلك يا طير ولم أخلق بشراً، وقال عمر: من خاف الله لم يشف غيظه، وقال عثمان: وددت أني إذا مت لم أبعث(١).

وقال أبو الدرداء: ليتني كنت شجرة تعضد، وقال طلحة مثل ذلك، وقالت عائشة: ليتني كنت نسياً منسياً، وكان في وجه عمر خطان أسودان من الدموع وروي أن عمر كان يسقط من الخوف إذا سمع آية من القرآن، وأخذ يوماً نبتة من الأرض وقال: يا ليتني كنت نبتة، وقال عمران بن الحصين: وددت أني رماد تسفيني الرياح في يوم عاصف، وقال أبو عبيدة بن الجراح: وددت أني كبش يذبحني أهلي فيأكلون لحمي ويحتسون مرقي، وكان علي بن الحسين عليه السلام إذا توضأ أصفر لونه فيقال له: ما هذا الذي يعتادك عند الوضوء؟ فقال: أتدرون ما هو أتدرون بين يدي من أريد أن أقوم(٢).

المرتبة الرابعة: في بيان حال التابعين والسلف الصالح في الخوف، وروى موسى بن مسعود قال: كنا إذا دخلنا على سفيان الثوري كأن النار قد أحاطت بنا لما نرى من خوفه وجزعه، وقال مالك بن دينار: بينما أنا أطوف بالبيت إذ أنا بالجورية المتعبدة وهي متعلقة بأستار الكعبة وهي تقول: يارب كم من شهوة ذهبت لذاتها وبقيت تبعاتها، يارب أما كان لك عقوبة دون النار، فما زال ذلك مقامها حتى طلع الفجر، وروي أن الفضيل بن عياض رؤى يوم عرفة والناس يدعون وهو يبكي بكاء الثكلى المحترقة حتى إذا كادت الشمس تغرب قبض على لحيته ثم رفع رأسه إلى السماء، وقال: وأسوأتاه منك وإن غفرت.

وكان حماد إذا جلس جلس مستوفزاً على قدميه فيقال له: لو اطمأننت، فقال: تلك جلسة الآمن وأنا غير آمن لأني عصيت الله تعالى، وقال عمر بن عبد العزيز: إنما جعل الله تعالى هذه الغفلة رحمة في قلوب العباد لئلا يموتوا من خشية الله تعالى، وقال

---

(١) انظر الإحياء ٤/ ٢٢٤.

(٢) الإحياء ٤/ ٢٢٤.

مالك بن دينار: لقد هممت إذا أنا مت أن آمر أهلي أن يقيدوني ويغلوني ثم ينطلقوا بي إلى ربي كما ينطلق بالآبق إلى سيده[1].

وقال أبو حاتم الأصم: لا تغتر بموضع صالح فلا مكان أصلح من الجنة فلقي آدم فيها ما لقي، ولا تغتر بكثرة العبادة فإن إبليس بعد طول تعبده لقي ما لقي، ولا تغتر بكثرة العلم فإن بلعام كان يحسن اسم الله الأعظم فانظر ماذا لقي، ولا تغتر برؤية الصالحين فلا شخص أكبر من المصطفى ﷺ فإنه لم ينتفع به أقاربه وأعداؤه.

فتأمل يا مسكين مع كلال قريحتك وضعف بصيرتك وعمش عينك في أحوال هؤلاء الذين كانوا في الدرجة الرفيعة والمنازل العالية عند الله كيف اشتد بهم الخوف وطال بهم الحزن والبكاء فإن كان لا يؤثر في قلبك فلا عجب فإن قلوب الغافلين مثل الحجارة أو أشد قسوة، فنسأل الله العظيم الرحمة الواسعة والتدارك بألطافه الخفية، ويكفي هذا القدر في أسرار الخوف[2].

الشطر الثاني
في بيان الرجاء وشرح حقائقه

وقبل الخوض فيما نريده نذكر ماهيته ومعناه، فنقول الرجاء هو ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عندك ولكن ذلك المحبوب المتوقع لابد أن يكون له سبب فإذا كان انتظاره لأجل حصول أكثر أسبابه فاسم الرجاء صادق عليه وإن كان ذلك انتظاراً مع انحرافه عن أسبابه كلها فاسم الغرور والحمق صادق عليه دون اسم الرجاء، وإن لم تكن تلك الأسباب معلومة الوجود ولا معلومة الانتفاء فاسم التمني صادق على انتظاره لأنه انتظار من غير سبب، وعلى كل حال فلا يطلق اسم الرجاء والخوف إلا على ما يتردد في وقوعه وحصوله فلا يقال أرجو طلوع الشمس وأخاف غروبها لأن ذلك مقطوع به فلا يدخله الرجاء والخوف، فإذا تمهدت هذه القاعدة فلنذكر فضيلة الرجاء ثم نذكر الطريق إليه فهذان إيضاحان.

الإيضاح الأول
في بيان فضيلة الرجاء والترغيب فيه

روى أن الله تعالى أوحي إلى يعقوب عليه السلام أتدري لم فرقت بينك وبين

---

(١) الإحياء ٤/ ١٨٠.

(٢) الإحياء ٤/ ١٨٠.

يوسف؟ لقولك أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون فلم خفت الذئب ولم ترجني، ولم نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظى له؟، وقال ﷺ: «لا يموت أحدكم إلا وهو حسن الظن بالله»[١]، وقال ﷺ: «يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء»[٢]، ودخل ﷺ على رجل وهو في النزع فقال: كيف تجدك؟ فقال:

أجدني أخاف ذنوبي وأرجو رحمة ربي، فقال: ما اجتمعتا في قلب عبد في هذا الموطن إلا أعطاه الله ما رجا وآمنه مما يخاف[٣] وقال أمير المؤمنين كرم الله تعالى وجهه، لرجل أخرجه الخوف إلى القنوط لكثرة ذنوبه: يا هذا يأسك من الله أعظم من ذنوبك[٤]، وقال سفيان الثوري: من أذنب ذنباً فعلم أن الله تعالى قد رآه عليه ورجاه غفر الله له ذنبه لأن الله تعالى عير قوماً فقال: ﴿ **وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم** ﴾ (فصلت: ٢٣) وقال تعالى: ﴿ **وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً** ﴾ (الفتح: ١٢) وقال ﷺ: إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة ما منعك إذا رأيت المنكر أن تنكره فإن الله لقنه عز وجل حجته قال: يا رب رجوتك وخفت الناس فيقول الله تعالى: قد غفرته لك[٥].

وفي الخبر الصحيح أن رجلاً كان يداين الناس فيسامح الموسر ويتجاوز عن المعسر فلقي الله عز وجل ولم يعمل خيراً قط، فقال الله عز وجل: من أحق بذلك منا فعفا عنه»[٦]، لحسن ظنه ورجاه أن يعفو عنه مع إفلاسه من الطاعات ولما قال ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ولخرجتم إلى الصعد تلمزون صدوركم وتجأرون إلى ربكم»[٧]، فهبط جبريل وقال يقول ربكم: لم يقنط عبادي فخرج إليهم فرحاً وشوقهم»[٨]، وفي الخبر أن الله أوحى إلى داود عليه السلام أن أحبني وأحب من

---

(١) أخرجه مسلم من حديث جابر.

(٢) أخرجه ابن حبان من حديث واثلة بن الأسقع وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة.

(٣) أخرجه الترمذي وقال غريب والنسائي في السنن الكبرىٰ وابن ماجه من حديث أنس وقال النووي إسناده جيد.
انظر تخريج الإحياء ٤/ ١٨٠.

(٤) انظر الإحياء ٤/ ١٨٠.

(٥) الإحياء ٤/ ١٨٠.

(٦) أخرجه ابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري بإسناد جيد.

(٧) أخرجه مسلم من حديث أبي مسعود واتفقا عليه من حديث أبي هريرة ومن حديث حذيفة.

(٨) أخرجه ابن حبان في صحيحه من حديث أبي هريرة وأوله متفق عليه من حديث أنس وللحاكم وأحمد من حديث أنس بزيادة.
انظر تخريج الإحياء ٤/ ١٨٠.

يحبني وحببني إلى خلقي فقال: يارب كيف أحببك إلى خلقك، قال: اذكرني بالحسن الجميل واذكر آلائي وإحساني وذكرهم ذلك فإنهم لا يعرفون مني إلا الجميل»[1]، وفي الخبر أن رجلاً من بني إسرائيل كان يقنط الناس ويشدد عليهم فيقول الله تبارك وتعالى يوم القيامة: اليوم أويئسك من رحمتي كما كنت تقنط عبادي منها»[2]، ولنقتصر على هذا القدر من بيان فضيلة الرجاء ففيه كفاية لغرضنا.

الإيضاح الثاني
في بيان طريق الرجاء والوصول إليه

إعلم أن الرجاء مقام من مقامات السالكين لطريق الآخرة وحال من أحوال الطالبين لها، ويمكن تحصيله بطرق ثلاث:

الطريق الأول: الآيات الواردة وهذا كقوله تعالى: ﴿**قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً**﴾ (الزمر: ٥٣) وفي قرآءة أبي «ولا يبالي أنه هو الغفور الرحيم»[3]، وقال تعالى: ﴿**والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض**﴾ (الشورى: ٥) وأخبر تعالى أنه أعد النار لأعدائه وإنما خوف بها أولياءه فقال تعالى: ﴿**لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده**﴾ (الزمر: ١٦) وقال تعالى: ﴿**واتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة**﴾ (البقرة: ٢٤) وقال تعالى: ﴿**واتقوا النار التي أعدت للكافرين**﴾ (آل عمران: ١٣١) وقال تعالى: ﴿**فأنذرتكم ناراً تلظى. لا يصلاها إلا الأشقى الذي كذب وتولى**﴾ (الليل: ١٤ - ١٦) وقال تعالى: ﴿**وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم**﴾ (الرعد: ٦).

ويقال إن الرسول ﷺ لم يزل يسأل في أمته حتى قيل له أما ترضى وقد أنزلت[4] عليك هذه الآية: ﴿**وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم**﴾ (الرعد: ٦)، وفي تفسير قوله تعالى: ﴿**ولسوف يعطيك ربك فترضى**﴾ (الضحى: ٥) قال: «لا يرضى محمد وأحد من أمته في النار»[5]، وكان الباقر عليه السلام يقول: أنتم أهل العراق تقولون: أرجأ آية

---

(١) هو جزء من الحديث المتقدم قبل هذا وهذه رواية ابن حبان من حديث أبي هريرة.

(٢) قال العراقي في تخريج الإحياء ٤/ ١٨٠ لم أجد له أصلاً.

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان عن زيد بن أسلم مقطوعاً تخريج الإحياء ٤/ ١٨١.

(٤) أخرجه الترمذي من حديث أسماء بنت يزيد وقال حسن غريب تخريج الإحياء ٤/ ١٨٣.

(٥) انظر الإحياء ٤/ ١٨٣ وقال العراقي لم أجده بهذا اللفظ وروىٰ ابن أبي حاتم والثعلبي في تفسيرهما من رواية علي ابن زيد بن جدعان عن سعيد بن المسيب نحوه.

في كتاب الله قوله تعالى: ﴿يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً﴾ (الزمر: ٥٣) الآية، ونحن نقول: أرجأ آية في كتاب الله قوله تعالى: ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ (الضحى: ٥).

الطريق الثاني: الأخبار فقد روي عن الرسول ﷺ أنه قال: «أمتي أمة مرحومة لاعذاب عليها في الآخرة عجل عقابها في الدنيا الزلازل والفتن فإذا كان يوم القيامة دفع إلى كل رجل من أمتي رجل من أهل الكتاب فقيل له هذا فداؤك من النار»[١]، وقال ﷺ: «الحمى من فيح جهنم وهي حظ المؤمن من النار»[٢]، وقيل في تفسير قوله تعالى: ﴿يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه﴾ (التحريم: ٨) إن الله أوحى إلى نبيه ﷺ أن اجعل حساب أمتك إليك، فقال: لا يارب أنت خير لهم مني قال: إذاً لا أخزيك فيهم»[٣]، وروى أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه سأل ربه في ذنوب أمته قال: يارب اجعل حسابهم إليَّ لئلا يطلع على مساوئهم غيري، فأوحى الله إليه هم أمتك وهم عبادي وأنا أرحم بهم منك لا تجعل حسابهم إلى غيري لئلا ينظر في مساوئهم لا أنت ولا غيرك[٤]، وقال ﷺ: «حياتي خير لكم وموتي خير لكم، أما حياتي فأسن لكم السنن وأشرع لكم الشرائع وأما موتي فإن أعمالكم تعرض علي فما رأيت منها حسناً حمدت الله تعالى عليه، وما رأيت منها قبيحاً استغفرت الله لكم»[٥]، وقال ﷺ يوماً: «يا كريم العفو» فقال جبريل: تدري ما تفسير يا كريم العفو؟ هو إن عفا عن السيئات برحمته ثم بدلها بالحسنات بكرمه[٦]، وسمع رسول الله ﷺ رجلاً يقول: اللهم إني أسألك تمام النعمة، فقال: هل تدري ما تمام النعمة؟ قال: لا، قال: دخول الجنة[٧]، فقال

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن وابن ماجه من حديث أنس تخريج الإحياء ٤/ ١٨٣.

(٢) أخرجه أحمد في المسند من رواية أبي صالح الأشعري عن أبي أمامة وأبو صالح الأشعري لا يعرف. تخريج الإحياء ٤/ ١٨٣.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب حسن الظن بالله.
انظر تخريج الإحياء ٤/ ١٨٤.

(٤) قال العراقي في تخريج الإحياء ١٨٤ لم أقف له على أصل.

(٥) أخرجه البزار من حديث ابن مسعود ورجاله رجال الصحيح إلا عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي وراد ضعفه كثيرون وإن خرج له مسلم ووثقه ابن معين والنسائي. ورواه الحارث بن أبي أمامة في مسنده من حديث أنس بإسناد ضعيف.

(٦) قال العراقي في تخريج الإحياء ٤/ ١٨٤ لم أجده.

(٧) أخرجه الترمذي من حديث معاذ بإسناد حسن.
تخريج الإحياء ٤/ ١٨٤.

العلماء: قد أتم الله تعالى النعمة علينا برضاه لنا الإسلام إذ قال: ﴿**وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً**﴾ (المائدة: ٣) وفي الحديث «إذا أذنب العبد ذنباً فاستغفر يقول الله للملائكة انظروا إلى عبدي أذنب ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنوب ويأخذ بالذنب أشهدكم أني قد غفرت له»[١].

الطريق الثالث: من جهة الاعتبار، فهو يكون بالتأمل لجميع أصناف النعم التي أجراها الله عز وجل على الخلق بالإضافة إلى أنفسهم وبالإضافة إلى ما خلق حتى إذا علم لطائف نعم الله بعباده في الدنيا وعجائب حكمته التي رعاها في فطرة الإنسان حتى أعد له في الدنيا كل ما كان ضروري الوجود في دوام وجود الإنسان كالحياة والغذاء وما هو محتاج إليه كالأظفار والأصابع وما هو زينة كنقوش الحاجبين واختلاف ألوان العينين وحمرة الشفتين وغير ذلك مما لا ينثلم بعدمه غرض مقصود، وإنما تفوت مزية الكمال والعناية الإلٓهية إذا لم تكن قاصرة عن عباده في أمثال هذه الدقائق فكيف يرضى بسياقهم إلى الهلاك الأبدي والعذاب السرمدي بل إذا نظر الإنسان نظراً شافياً علم أن أمر الآخرة هكذا يكون لا محالة لأن مدبرهما واحد وهو غفور رحيم لطيف بعباده متعطف عليهم، فهذا إذا تؤمل حق التأمل من أقوى أسباب الرجاء لما يظهر من العناية بالخلق والرحمة واللطف[٢]، وقد تم الكلام فيما نريده من الرجاء والخوف برحمة الله وحسن توفيقه.

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٢) انظر الإحياء ٤/ ١٨٥.

الباب الرابع

من مقالة المنجيات في الفقر والزهد

إعلم أن الدنيا حبها رأس كل خطيئة كما تقدم شرحه ، والبغض لها والزهد عنها هو رأس كل نجاة فلا مطمع بالنجاة إلا بالإنقطاع عن الدنيا ، ولكن مقاطعتها إما أن يكون بانزوائها عن العبد ويسمى ذلك فقراً ، وإما أن يكون بانزواء العبد عنها ويسمى ذلك زهداً ولكل واحد منهما درجة في نيل السعادة الأخروية وحظ على الإعانة على الفوز والنجاة ، وتمام المقصود يحصل بذكر قسمين فيهما ما نريده من ذلك[1] :

القسم الأول
من الباب في ذكر الفقر وبيان أسراره

وقبل الخوض في ذلك نذكر ماهية الفقر ، واعلم أن الفقر عبارة عن فقد ما هو محتاج إليه أما فقد مالا حاجة إليه فإنه لا يسمى فقراً ، ولهذا فإن فقد المسك والعنبر في حق أهل الفلاحة لا يسمى فقراً لما كانوا غير محتاجين إليه ، وهم إذا فقدوا القوت والكسوة فهم فقراء إلى ذلك ، فإذا فهمت هذا لم يقع شك عليك في أن كل موجود سوى الله تعالى فهو فقير لأنه محتاج إلى دوام الوجود في كل أحواله ، وليس وجوده مستفاداً إلا من فضل الله وجوده فإن كان في الوجود موجود وليس وجوده مستفاداً من جهة أحد غيره فهو الغني المطلق ، ولا يتصور أن يكون مثل هذا الوجود إلا واحداً فليس في الوجود إلا غني واحد وكل من عداه فإنهم محتاجون إليه لتميز وجوده بالدوام ، وإلى هذا المعنى الإشارة بقوله تعالى : ﴿ **والله الغني وأنتم الفقراء** ﴾ (محمد : ٣٨) ، ولسنا نقصد بيان الفقر المطلق بل الفقر من المال على الخصوص وإلا ففقر العبد بالإضافة إلى أصناف

---

(١) انظر الإحياء ٤/ ١٨٥ .

حاجاته غير منحصر لأن حاجاته لا حصر لها ومن جملة حاجاته ما يتوصل إليها بالمال وهو الذي نريد الآن بيانه ، فهذه ماهية الفقر ، فإذا تمهدت هذه القاعدة فلنذكر اختلاف أحوال الفقراء ، ثم نردفه بذكر فضيلة الفقر ثم نذكر آداب الفقير في فقره ثم نذكر تحريم السؤال فهذه بيانات أربعة[1]

البيان الأول
في بيان اختلاف أحوال الفقراء

فنقول كل فاقد للمال فإنا نسميه فقيراً بالإضافة إلى المال الذي فقده إذا كان ذلك المال محتاجاً إليه في حقه ثم إنه يتصور أن يكون له أحوال ستة :

الحالة الأولى : وهي المرتبة العليا أن يكون بحيث لو أتاه المال لكرهه وتأذى به وهرب من أخذه مبغضاً له ومتحرزاً من شغله وشره وهذا هو الزهد واسم صاحبه يكون زاهداً لا محالة فصار الزهد درجة كمال الأبرار ، وصاحب هذه الحالة لا يعد من المقربين فلا جرم صار الزهد في حقه نقصاناً لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، وهذا لأن الكاره للدنيا مشغول بالدنيا وكراهتها كما أن الراغب فيها مشغول بها ، والشغل بما سوى الله حجاب عن الله إذ لا بعد بينك وبين الله حتى يصير البعد حجاباً فإنه أقرب إليك من حبل الوريد ، وليس حاصلاً في مكان حتى تكون السموات والأرض حجاباً بينك وبينه ، فلا حجاب بينك وبينه إلا شغلك بغيره ، وشغلك بنفسك وشهواتك شغل بغيره ، فاقطع العلائق تكون فارغاً لعبادته .

الحالة الثانية : أن يكون بحيث لا يرغب في المال رغبة يفرح بحصوله ويسر بوجوده ولا يكرهه كراهة يتأذى به ويزهد فيه لو أتاه ، وصاحب هذه الحالة يسمى راضياً لأنه غير كاره له[2] .

الحالة الثالثة : أن يكون وجود المال أحب إليه من عدمه لرغبة له فيه ولكن لم يبلغ من رغبته أن ينهض لطلبه بل إنِ أتاه عفواً صفواً أخذه وفرح به وإن افتقر إلى تعب في طلبه لم يشتغل به ، وصاحب هذه الحالة يسمى قانعاً لأنه قنع نفسه بالموجود حتى ترك الطلب مع ما فيه من الرغبة الضعيفة .

الحالة الرابعة : أن يكون تركه للطلب لعجزه وإلا فهو راغب فيه رغبة لو وجد إليه

---

(١) الإحياء ٤/ ١٨٥ .

(٢) الإحياء ٤/ ١٣٧ .

سبيلاً وإلى طلبه ولو بالتعب العظيم لطلبه إذ هو مشغول بالطلب ، وصاحب هذه الحالة يقال له الحريص ويسمى به .

الحالة الخامسة : أن يكون ما فقده من المال مضطراً إليه كالجائع الفاقد للخبز والعاري الفاقد للثوب ويسمى صاحب هذه الحالة مضطراً كيفما كانت رغبته في الطلب إما ضعيفة وإما قوية ، وقلما تنفك هذه الحالة عن الرغبة ، فهذه أحوال خمسة أعلاها الزهد كما وصفنا حاله .

الحالة السادسة : وهي أعلا من الزهد وهي أن يستوي عنده وجود المال وفقده ، فإن وجد لم يفرح به ولم يتأذ ، وإن فقد فهو كذلك ، فمن هذه حاله وإن كانت الدنيا بحذافيرها في يده وخزائنه إذ هو يرى الأموال في خزانة الله تعالى لا في يد نفسه فلا يفرق من أن يكون في يده أو في يد غيره ، وينبغي أن يسمى صاحب هذه الحالة بالمستغني لأنه غني عن فقد المال وعن وجوده ، فهذا ما أردنا ذكره من هذه الأحوال[1] .

البيان الثاني
في ذكر فضيلة الفقر مطلقاً

وظهوره يكون من جهات ثلاث :

الجهة الأولى : الآثار الدالة على فضله ، كقوله عز وجل : ﴿**للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم**﴾ (الحشر: ٨) ، وقال تعالى : ﴿**للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض**﴾ (البقرة : ٢٧٣) ، ساق الكلام في معرض المدح ثم قدم وصفهم بالفقر على وصفهم بالهجرة والإحصار مبالغة وتأكيداً في فضيلة الفقر وفيه دلالة ظاهرة على فضيلة الفقر .

الجهة الثانية : الأخبار وهي كثيرة ، قال ابن عمر: قال رسول الله ﷺ لأصحابه يوماً: أي الناس خير؟ فقالوا : موسر من المال يعطي حق الله تعالى في نفسه وماله ، فقال: نعم الرجل هذا وليس به ، قالوا : «فمن خير الناس يا رسول الله؟ ، قال : فقير يعطي جهده»[2]، وقال رسول الله ﷺ لبلال : «إلق الله فقيراً ولا تلقه غنياً»[3]،

---

(١) الإحياء ٤/ ١٣٧ .

(٢) أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف مقتصراً على المرفوع منه دون سؤاله لأصحابه وسؤالهم له. تخريج الإحياء ٤/ ٢٤٠ .

(٣) أخرجه الحاكم في كتاب علامة أهل التحقيق من حديث بلال ورواه الطبراني من حديث أبي سعيد بلفظ «مت فقيراً ولا تمت غنياً» وكلاهما ضعيف تخريج الإحياء ٤/ ٢٤٠ .

وقال ﷺ : «إن الله يحب الفقير المتعفف أبا العيال»(١)، وفي حديث آخر: «يدخل فقراء أمتي الجنة قبل أغنيائها بخمسمائة عام»(٢)، وفي حديث آخر: «بأربعين خريفاً»(٣) أي أربعين سنة، وقال ﷺ : «خير هذه الأمة فقراؤها وأسرعهاتضجعاً في الجنة ضعفاؤها»(٤)، وقال ﷺ «إن لي حرفتين اثنتين فمن أحبهما فقد أحبني ومن أبغضهما فقد أبغضني الفقر والجهاد»(٥).

وروي أن جبريل نزل على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن الله يقرئك السلام، ويقول لك أتحب أن يجعل لك هذه الجبال ذهباً وتكون معك حيث كنت؟ فأطرق رسول الله ﷺ ثم قال: يا جبريل إن الدنيا دار من لا دار له ويجمعها من لا عقل له، فقال له جبريل: «ثبتك الله بالقول الثابت»(٦)، وعن أبي رافع أنه وفد على رسول الله ﷺ، ضيف فلم يجد عنده ما يصلحه فأرسلني إلى رجل من يهود خيبر وقال: قل له محمد يقول لك سلفني أو بعني دقيقاً إلى هلال رجب، فقال: لا والله إلا برهن، فأخبرت رسول الله ﷺ بذلك، فقال: «أما والله إني لأمين في السماء وفي الأرض ولو باعني وأسلفني لأديت إليه، اذهب بدرعي هذه إليه فارهنها»(٧)، فلما خرجت نزلت هذه الآية الكريمة: ﴿**ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا**﴾ (طه: ١٣١)، تعزية له على الدنيا.

وقال ﷺ : «الفقر أزين للمؤمن من العذار الحسن على خد الفرس»(٨)، وفي

---

(١) أخرجه ابن ماجه برقم ( ) من حديث عمران بن حصين.

(٢) أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة وقال حسن صحيح.

(٣) أخرجه مسلم من حديث عبدالله بن عمر والترمذي من حديث جابر وأنس.

(٤) قال العراقي في تخريج الإحياء ٤/ ٢٤١ لم أجد له أصلاً.

(٥) قال العراقي في تخريج الإحياء ٤/ ٢٤١ لم أجد له أصلاً.

(٦) قال العراقي في تخريج الإحياء ٤/ ٢٤٢ هذا حديث ملفق من حديثين فروىٰ الترمذي من حديث أبي أمامة عرض علي ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً قلت: لا يا رب ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً وقال حسن ولأحمد من حديث عائشة «الدنيا دار من لا دار له. . . الحديث» وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب وإسناده جيد نحوه انظر تخريج الإحياء ٣/ ٢٥٣.

(٧) أخرجه الطبراني بسند ضعيف من حديث أبي رافع وابن أبي شيبة وابن مردويه والبزار وأبو يعلىٰ.

(٨) رواه الطبراني من حديث شداد بن أوس بسند ضعيف والمعروف أنه من كلام عبد الرحمٰن بن زياد بن أنعم. رواه ابن عدي في الكامل هكذا.
تخريج الإحياء ٤/ ٢٤٢.

حديث آخر: «ما العذار المذهب في خد الفرس بأحسن من الفقر في حال المؤمن»[1]، وقال ﷺ: «من أصبح آمناً في سربه معافى في جسمه معه قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها»[2]، وقال كعب الأحبار قال الله لموسى: «يا موسى إذا رأيت الفقر مقبلاً فقل مرحباً بشعار الصالحين»[3].

الجهة الثالثة: الآثار، قال أبو الدرداء: ذو الدرهمين أشد حبساً ـ أو قال: حساباً ـ من ذي الدرهم، وأرسل عمر إلى سعد بن عامر بألف دينار فجاء إلى منزله كئيباً حزيناً، فقالت امرأته: أحدث أمر؟، قال: أشد من ذلك، ثم قال: أريني درعك الخلق فشقه وجعله صرراً وفرقه ثم قام يصلي ويبكي إلى الغداة، ثم قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام حتى إن الرجل من الأغنياء ليدخل في غمارهم فيؤخذ بيده فيخرج»[4]، وقال أبو هريرة: «ثلاثة يدخلون الجنة بغير حساب، رجل يريد أن يغسل ثوبه فلم يكن له خلق يلبسه، ورجل لم ينصب له على مستوقد قدرين، ورجل دعا بشرابه فلا يقال له أيها تريد»[5]؟.

وقيل جاء رجل فقير إلى مجلس الثوري فقال له: تخط لو كنت غنياً ما قربتك، وكان الأغنياء من أصحابه يودون أنهم فقراء لكثرة تقريبه الفقراء وإعراضه عن الأغنياء، وقال بعضهم: ما رأيت الغني أذل منه في مجلس الثوري ولا رأيت الفقير أعز منه في مجلس الثوري[6]، وقال بعض الحكماء: مسكين ابن إدم لو خاف من النار كما يخاف من الفقر لنجا منهما جميعاً، ولو رغب في الجنة كما يرغب في الغنى لفاز بهما جميعاً، ولو خاف الله في الباطن كما يخاف خلقه في الظاهر لسعد في الدارين جميعاً، وقال ابن عباس: ملعون من أكرم بالغنى وأهان بالفقر، وقال لقمان لإبنه: لا تحقرن أحداً لخلقان ثيابه فإن ربك وربه واحد، وجاء رجل إلى إبراهيم بن أدهم بعشرة آلاف درهم فأبى

---

(١) هو تكملة للحديث المتقدم قبله.

(٢) أخرجه الترمذي وابن ماجه والبخاري في الأدب المفرد من حديث عبيد الله بن محصن وقال الترمذي حسن غريب.

(٣) أخرج نحوه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية مكحول عن أبي الدرداء ولم يسمع منه ورواه أبو نعيم في الحلية عن كعب الأحبار غير مرفوع بإسناد ضعيف. تخريج الإحياء ٤/ ٢٤٣.

(٤) تقدم تخريجه في ص ٣٢١ وهو صحيح أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة إلى قوله خمسمائة عام أما الزيادة هنا فهي من حديث سعد بن عامر فقد رواه أحمد في الزهد وفي إسناده يزيد بن زياد متكلم فيه.

تخريج الإحياء ٤/ ٢٤٦.

(٥) الإحياء ٤/ ٢٤٦.

(٦) الإحياء ٤/ ٢٤٧.

عليه فطلب عليه الرجل ، فقال إبراهيم : تريد أن تمحو اسمي من ديوان الفقراء بعشرة الاف لا أفعل[1].

البيان الثالث
في ذكر آداب الفقير في فقره

وجملتها آداب أربعة :

الأدب الأول : يختص بالباطن فينبغي أن لا يكون فيه كراهة لما ابتلاه الله به من الفقر أعني أن لا يكون كارهاً فعل الله من حيث إنه فعله وإن كان كارهاً للفقر وهذا كالمحجوم فإنه يكون كارهاً للحجامة لتألمه بها ولا يكون كارهاً لفعل الحجام ولا كارهاً له في نفسه ، بل ربما يتقلد منه منة وصنيعة ، ويؤيد ذلك ما رُوي عن الرسول ﷺ : «أنه قال : «يا معاشر الفقراء أعطوا الله الرضى من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم وإلا فلا»[2] ، وأرفع من هذا أن لا يكون كارهاً للفقر بل راضياً به ، وأرفع منه أن يكون طالباً له وفارحاً به لعلمه بغوائل الغنى ويكون متوكلاً في باطنه على الله تعالى واثقاً في مقدار ضرورته أنها آتية له لا محالة ، ويكون كارهاً للزيادة على الكفاف .

الأدب الثاني : أن يظهر من جهته التعفف والتجمل ولا يظهر الشكوى والفقر بل يستر فقره ويسر أنه يستر فقره ، وفي الحديث عن الرسول ﷺ : «إن الله يحب الفقير المتعفف أبا العيال»[3]، وقال تعالى : ﴿ **يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف** ﴾ (البقرة : ٢٧٣) ، وقال سفيان : أفضل الأعمال العمل عند المحنة ، وقال بعضهم : ستر الفقر من كنوز البر ، وقال أمير المؤمنين كرم الله وجهه : إن لله عقوبات بالفقر ومثوبات بالفقر فمن علامة الفقر إذا كان مثوبة أن يحسن عليه خلقه ويطيع به ربه ولا يشكو حاله ويشكر الله على فقره ، ومن علامته إذا كان عقوبة أن يسوء عليه خلقه ويعصي ربه ويكثر الشكاية ويتسخط للقضاء ، وهذا يدل على أن كل فقر فليس بمحمود بل الذي لا يتسخط أو يرضى أو يفرح بالفقر لعلمه بثمرته إذ قيل ما أُعطي عبد شيئاً من الدنيا إلا قيل له خذه على ثلاثة أثلاث شغل وهم وطول حساب[4].

---

(١) الإحياء ٤/ ٢٤٧ .

(٢) رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة وهو ضعيف جداً وفيه أحمد بن الحسن بن آبان المصري متهم بالكذب ووضع الحديث تخريج الإحياء ٤/ ٢٤٧ .

(٣) تقدم تخريجه في ص ٣٢١ التعليق رقم «٣» .

(٤) الإحياء ٤/ ٢٤٧ .

الأدب الثالث: في أعماله وهو أن لا يتواضع لغني لأجل غناه بل يتكبر عليه، قال أمير المؤمنين كرم الله وجهه: ما أحسن تواضع الغني للفقير رغبة في ثواب الله تعالى! وأحسن منه تيه الفقير على الغني ثقةً بالله، فهذه رتبة عالية، وأقل منها أن لا يخالط الأغنياء ولا يرغب في مجالستهم لأن ذلك من مبادىء الطمع، قال الثوري: إذا خالط الفقير الأغنياء فاعلم أنه مراء وإذا خالط السلطان فاعلم أنه لص، وقال بعض العارفين: إذا مال الفقير إلى الأغنياء انحلت عروته فإذا طمع فيهم انقطعت عصمته فإذا سكن إليهم ضل فينبغي أن لا يسكت عن ذكر الحق مداهنة للأغنياء وطمعاً في العطاء منهم(١).

الأدب الرابع: في أفعاله، فإن الفقير لا يفتر بسبب الفقر عن عبادته ولا يمنع بذل قليل ما يفضل عنه فإن ذلك جهد المقل وفضله أفضل من أموال كثيرة تبذل عن ظهر غنى، ورُوي عن زيد بن أسلم قال قال رسول الله ﷺ: «درهم من الصدقة أفضل من مائة ألف درهم، قيل: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: أخرج رجل من عرض ماله مائة ألف درهم فتصدق بها وأخرج رجل درهماً من درهمين لا يملك غيرهما بطيب من نفسه فصار صاحب الدرهم أفضل من صاحب مائة ألف درهم»(٢)، وينبغي أن لا يدخر مالاً بل يأخذ قدر الحاجة ويخرج الباقي، فهذه هي آداب الفقير في فقره.

البيان الرابع
في ذكر خطر السؤال من غير ضرورة

إعلم أن النهي وارد في السؤال وتشديدات كثيرة، وورد ما يدل على الرخصة كقوله ﷺ: «للسائل حق ولو جاء على ظهر فرس»(٣)، وفي حديث: «لا تردوا السائل ولو بظلف محرق»(٤)، ولو كان السؤال حراماً مطلقاً لما جاز إعانة المعتدي على عدوانه،

---

(١) الإحياء ٤/ ٢٤٧.

(٢) أخرجه النسائي من حديث أبي هريرة متصلاً وقال العراقي في تخريج الإحياء ولا أصل له من رواية زيد بن أسلم ٤/ ٢٥٦.

(٣) رواه أبو داود من حديث الحسين بن علي ومن حديث علي وفي الأول يعلى بن أبي يحيى جهله أبو حاتم ووثقه ابن حبان وفي الثاني شيخ لم يسم وسكت عليهما أبو داود. تخريج الإحياء ٤/ ٢٦١.
وقال العراقي وما ذكره ابن الصلاح في علوم الحديث أنه بلغه عن أحمد بن حنبل قال: أربعة أحاديث تدور في الأسواق ليس لها أصل منها «للسائل حق...» الحديث فإنه لا يصح عن أحمد لأنه قد أخرج حديث الحسين بن علي في مسنده.

(٤) رواه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن صحيح والنسائي من حديث أم بجير وقال ابن عبد البر حديث مضطرب. تخريج أحاديث الإحياء ٤/ ٢٦١.

ولا شك أن الإعطاء إعانة فالكاشف للغطاء فيما نحن فيه أنا نقول السؤال محرم في الأصل وإنما يباح لضرورة أو حاجة مهمة قريبة من الضرورة فإن كان منه بد فهو حرام، وإنما قلنا إن الأصل هو المنع والتحريم لأنه لا ينفك عن أمور ثلاثة:[1]

أولها: الشكوى من الله تعالى لأن السؤال إظهار الفقر وذكر لقصور نعمة الله تعالى عليه وهو عين الشكوى فكما أن العبد المملوك لو شكا وسأل لكان سؤاله تشنيعاً على سيده، فهكذا سؤال العباد فيه شناعة على الله تعالى وهذا ينبغي أن يحرم ولا يحل إلا لضرورة كما تحل الميتة.

وثانيها: أن فيه إذلالاً للسائل نفسه لغير الله تعالى، وليس للمؤمن أن يذل نفسه بل عليه أن يذل لمولاه فإن فيه العز كله، فأما سائر الخلق فإنهم عباد أمثاله فلا ينبغي أن يذل لهم إلا لضرورة، وفي السؤال إذلال للسائل بالنظر إلى المسؤول[2].

وثالثها: أنه لا ينفك عن إيذاء المسؤول غالباً لأنه ربما لا تسمح نفسه بالبذل عن طيبة قلب فإن بذل حياء من السائل أو رياء فهو حرام على الآخذ، وإن منع ربما استحيا وتأذى بالمنع في نفسه إذ يرى نفسه في صورة البخلاء ففي البذل نقصان ماله وفي المنع نقصان جاهه وكلاهما مؤذٍ والسائل هو السبب في هذا الإيذاء والإيذاء حرام إلا للضرورة، وإذا فهمت هذه المحذورات الثلاث فهمت قول الرسول ﷺ حيث قال: «مسئلة الناس من الفواحش ما أحل من الفواحش غيرها»[3] فانظر كيف سماه فاحشة، ولا يخفى أن الفاحشة إنما تباح للضرورة كما يباح شرب الخمر لمن غص بلقمة وهو لا يجد غيرها، وقال ﷺ: «من سأل عن غنى فإنما يستكثر من جمر جهنم[4]، ومن سأل وله ما يغنيه جاء يوم القيامة ووجهه عظم يتقعقع ما فيه لحم»[5]، وقال ﷺ: «المسئلة كدوح وخدوش»[6]، وقال ﷺ: «من سأل وله ما يكفيه فإنما يستكثر من جمر جهنم»[7]، وفي

(١) الإحياء ٤/ ٢٦١.

(٢) الإحياء ٤/ ٢٦٧.

(٣) قال العراقي في تخريج الإحياء ٤/ ٢٦١ لم أجد له أصلاً.

(٤) رواه أبو داود وابن حبان من حديث سهل بن الحنظلية مقتصراً على ما ذكر منه ولمسلم من حديث أبي هريرة وهو الآتي برقم (٦) في التعليق.

(٥) رواه أصحاب السنن من حديث ابن مسعود وحسنه الترمذي وضعفه النسائي والخطابي تخريج الإحياء ١/ ٢٩٥.

(٦) هو جزء من الحديث الذي قبله.

(٧) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وتقدم من حديث سهل بن الحنظلية وللطبراني والبزار من حديث مسعود بن عمر.

حديث آخر: «وما الذي يكفيه فمرة قال: «ما يغديه ويعشيه»(١)، ومرة قال: خمسون درهماً.(٢)

فهذه الألفاظ كلها صريحة في التحريم والتشديد، وبايع رسول الله ﷺ قوماً على الإسلام فشرط عليهم السمع والطاعة وأن لا يسألوا الناس شيئاً(٣)، وكان يأمر كثيراً بالتعفف ويقول: «من سألنا أعطيناه ومن استغنى أغناه الله تعالى»(٤)، قال: «ومن لم يسألنا فهو أحب إلينا»(٥)، وقال: «استغنوا عن الناس، وما قل من السؤال فهو خير»، قالوا: «ومنك يا رسول، قال: ومني»(٦).

وسمع عمر سائلاً بعد المغرب، فقال لواحد من قومه: عش الرجل فعشاه ثم سمعه ثانية، فقال: ألم أقل لك عش الرجل، فقال: قد عشيته، فنظر عمر فإذا تحت يده مخلاة مملوءة خبزاً فقال: لست سائلاً، ولكنك تاجر ثم أخذ المخلاة ونثرها بين يدي إبل الصدقة وضربه بالدرة، وقال له: لا تعد، ولولا أن سؤاله كان حراماً ما ضربه ولا أخذ مخلاته.

فائدة: إعلم أن الإدخار له ثلاث درجات، الأولى منها: وهي أفضلها وهي درجة الصديقين وهي أن لا يدخر إلا ليوم وليلة، الثانية: أن يدخر لأربعين يوماً، فإن مازاد على ذلك داخل في طول الأمل، وهذه هي درجة المتقين، وقد نبه الله تعالى على ذلك بمواعدة موسى عليه السلام أربعين ليلة ففيه رخصة، الثالثة: أن يدخر لسنة وهي أقصى المراتب وهي مرتبة الصالحين، وما زاد على ذلك فإنما هو على جهة الرخصة لأغراض تخالف الورع والحزم(٧).

تخريج الإحياء ٤/ ٢٦٢.

(١) هو جزء من حديث سهل بن الحنظلية المتقدم في التعليق رقم (٣) ولأحمد من حديث علي نحوه بإسناد حسن وللديلمي نحوه من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرج نحوه أبو داود بلفظ من سأل وله أو منه فقد ألحف في السؤال من حديث عطاء عن رجل من بني أسد متصلاً وأخرجه النسائي وأخرجه أبو داود والنسائي أيضاً وابن حبان من حديث أبي سعيد تخريج الإحياء ١/ ٢٩٥.

(٣) أخرجه مسلم من حديث عوف بن مالك الأشجعي.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في القناعة والحارث بن أبي أسامة في مسنده من حديث أبي سعيد الخدري وفيه حصين بن هلال قال العراقي في تخريج الإحياء ٤/ ٢٦٢ لم أر من تكلم فيه وباقيهم ثقات.

(٥) هو جزء من الحديث الأول وتكملته.

(٦) أخرجه البزار والطبراني من حديث ابن عباس وإسناده صحيح.

تخريج الإحياء ٤/ ٢٦٢.

(٧) الإحياء ٤/ ٢٦٩.

القسم الثاني
في الزهد

إعلم أن الزهد عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه أو مثله أو دونه بمعاوضة وبيع وغيرهما فإنما عدل عنه لرغبة عنه، وإنما عدل إليه لرغبته فيه فحاله بالإضافة إلى المعدول عنه يسمى زهداً، وبالإضافة إلى المعدول إليه تسمى رغبة وحباً فالزهد لا محالة يستدعي مرغوباً عنه ومرغوباً فيه، فكل من باع الدنيا بالآخرة فهو زاهد في الدنيا وكل من باع الآخرة بالدنيا فهو أيضاً زاهد ولكن في الآخرة خلا أن العادة جارية بتخصيص اسم الزهد لكل من زهد في الدنيا كما خصص اسم الإلحاد بكل من مال إلى الباطل من الأديان وإن كان هو الميل في وضع اللسان.

فحصل من مجموع ما ذكرناه أن الزهد عبارة عن رغبته عن الدنيا عدولاً إلى الآخرة وعن غير الله عدولاً إلى الله تعالى وهي الدرجة العليا، ولهذا قيل لابن المبارك يا زاهد قال الزاهد عمر بن عبد العزيز إذ جاءته الدنيا راغمة فتركها وأما أنا فبماذا زهدت؟، فإذا عرفت هذا فلنذكر فضيلة الزهد ثم نذكر درجات الزهد ثم نردفه بذكر علامات الزهد، فهذه إيضاحات ثلاثة[1].

الإيضاح الأول
في بيان فضيلة الزهد

ويظهر من جهات ثلاث:

الجهة الأولى: الآيات القرآنية، قال الله تعالى: ﴿**فخرج على قومه في زينته ـ إلى قوله ـ ثواب الله خير**﴾ (القصص: ٧٩، ٨٠)، نسب الزهد إلى العلماء ووصف أهله بالعلم وهو غاية الثناء، وقال تعالى: ﴿**أولئك الذين يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا**﴾ (القصص: ٥٤)، جاء في التفسير على الزهد في الدنيا، وقال تعالى: ﴿**إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً**﴾ (الكهف: ٧)، قيل: معناه، أيهم أزهد فيها، فوصف الزهد بأنه أحسن الأعمال، وقال: ﴿**من كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب**﴾ (الشورى: ٢٠) وقال تعالى: ﴿**ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا**﴾ (طه: ١٣١)، وقال تعالى: ﴿**الذين**

---

(١) الإحياء ٤/ ٢٦٩.

يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة﴾ (إبراهيم: ٣)، فيه وصف للكفار، فمفهومه أن المؤمن هو الذي يتصف بنقيضه وهو أن يستحب الآخرة على الدنيا.

الجهة الثانية: الأخبار، فما ورد في ذم الدنيا كثير كقوله ﷺ: «من أصبح همه الدنيا شتت الله عليه أمره وفرق عليه ضيعته وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له، ومن أصبح وهمه الآخرة جمع الله همه وحفظ عليه ضيعته وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة»(١)، وقال الرسول ﷺ: «إذا رأيتم العبد قد أعطي صمتاً وزهداً في الدنيا فاقربوا منه فإنه يلقن الحكمة»(٢)، وقد قال تعالى: ﴿**ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً**﴾ (البقرة: ٢٦٩) **ولهذا قيل**: من زهد في الدنيا أربعين يوماً أجرى الله تعالى ينابيع الحكمة من قلبه وأنطق بها لسانه»(٣)، وعن بعض الصحابة رضي الله عنهم قال قلنا يا رسول الله: أي الناس خير؟ قال: كل محموم القلب صدوق اللسان، قلنا: يا رسول الله وما محموم القلب؟ قال: التقي النقي الذي لا غل فيه ولا غش ولا بخل ولا حسد، قلنا: يا رسول الله فمن على أثره؟، قال: الذي يشنأ الدنيا ويحب الآخرة(٤).

ومفهومه أن شر الناس الذي يحب الدنيا وقال: إن أردت أن يحبك الله فازهد في الدنيا فجعل الزهد سبباً للمحبة، فمن أحبه الله فهو في أعلا الدرجات، فينبغي أن يكون الزهد أعلا المقامات عند الله تعالى، ومفهومه أن محب الدنيا متعرض لبغض الله تعالى، وفي خبر من طريق أهل البيت عليهم السلام قال ﷺ: «الزهد والورع يجولان في القلب كل ليلة فإن صادفا قلباً فيه الإيمان والحياء أقاما فيه وإلا ارتحلا»(٥).

ولما قال حارثة لرسول الله ﷺ: «أنا مؤمن حقاً قال: وما حقيقة إيمانك؟ قال: عزفت عن الدنيا فاستوى عندي حجرها وذهبها وكأني بالجنة والنار وكأني بعرش ربي

---

(١) أخرجه ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت بسند جيد والترمذي من حديث أنس بسند ضعيف نحوه.

(٢) أخرجه ابن ماجه من حديث أبي خلاد بسند فيه ضعف.
تخريج الإحياء ٤/ ٢٧٣.
وفي ١/ ٩٩ قال ابن خلاد.

(٣) الإحياء ٤/ ٢٧٣.

(٤) رواه ابن ماجه بسند صحيح من حديث عبدالله بن عمر دون قوله «فمن على أثره؟» ورواه بهذا اللفظ الخرائطي في مكارم الأخلاق.

(٥) قال العراقي في تخريج الإحياء ٤/ ٢٧٣ لم أجد له أصلاً.
تخريج الإحياء ٤/ ٢٧٣.

بارزاً، فقال ﷺ : «عرفت فالزم، عبد نَور الإيمان قلبه»[1]، ولما سئل رسول الله ﷺ عن معنى الشرح في قوله تعالى: ﴿**فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام**﴾ **(الأنعام: ١٢٥)**، قيل: ما هذا الشرح؟، قال: إن النور إذا دخل القلب انشرح له الصدر وانفسح، قيل: يا رسول الله هل لذلك من علامة؟ قال: التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والتزود لسكنى القبور والتأهب للموت قبل نزوله»[2]، فانظر كيف جعل الزهد شرطاً للإسلام وهو التجافي عن دار الغرور.

وقال ﷺ : «استحيوا من الله حق الحياء»[3]، قالوا: إنا نستحي، قال: «تبنون ما لا تسكنون وتجمعون ما لا تأكلون»[4] فبين أن ذلك يناقض الحياء من الله تعالى، وعن الرسول ﷺ أنه قال: «من زهد في الدنيا أدخل الله تعالى الحكمة قلبه وأنطق بها لسانه وعرفه داء الدنيا ودواءها وأخرجه منها سالماً إلى دار السلام»[5]، والله أعلم بالصواب.

الجهة الثالثة: الآثار، قال بعض الصحابة رضي الله عنهم: تابعت الأعمال كلها فلم أر في الآخرة وأمرها أبلغ من زهد الدنيا، وقال بعض الزهاد من الصحابة لبعض التابعين: أنتم أكثر أعمالاً واجتهاداً من أصحاب الرسول ﷺ وهم كانوا خيراً منكم، قيل: ولم ذلك؟، قال: كانوا أزهد منكم في الدنيا، وقال عمر رضي الله عنه: الزهادة في الدنيا راحة القلب والجسد، وقال بلال بن سعد: كفى به ذنباً عند الله تعالى أن الله يزهدنا في الدنيا ونحن نرغب فيها[6].

وقال رجل لسفيان الثوري: أشتهي أن أرى عالماً زاهداً، فقال: ويحك تلك ضالة لا توجد، وقال وهب بن منبه: إن للجنة ثمانية أبواب فإذا صار أهل الجنة إليها جعل البوابون يقولون وعزة ربنا لا يدخلها أحد قبل الزاهدين في الدنيا والعاشقين

---

(١) أخرجه البزار من حديث أنس والطبراني من حديث الحارث بن مالك وكلا الحديثين ضعيف تخريج الإحياء ٤/ ٢٧٤.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ٣١١ عن ابن مسعود.

(٣) استحيوا من الله حق الحياء يراجع تخريجه.

(٤) رواه الطبراني من حديث أم الوليد بنت عمر بن الخطاب بإسناد ضعيف.

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الدنيا من حديث صفوان بن سليم مرسلاً ولابن عدي في الكامل من حديث أبي موسى الأشعري نحوه وقال منكر. وقال الذهبي باطل ورواه أبو الشيخ في كتاب الثواب وأبو نعيم في الحلية مختصراً من حديث أبي أيوب وكلها ضعيفة، تخريج الإحياء للعراقي ٤/٢٧٥.

(٦) الإحياء تخريج العراقي ٤/٢٧٥.

للجنة، وقال يوسف بن أسباط: إني أشتهي من الله تعالى ثلاث خصال أن أموت حين أموت وليس في ملكي درهم ولا يكون عليّ درهم دين ولا على عظمي لحم فأعطي ذلك كله[1].

الإيضاح الثاني
في بيان علامات الزهد

إعلم أنه قد يظن أن تارك المال زاهد وليس الأمر كذلك، فإن ترك المال وإظهار الخشونة سهل على كل من أحب الثناء والمدح، فكم من الرهبان ردوا أنفسهم كل يوم إلى قدر يسير من الطعام ولازموا ديراً لا باب له وإنما مسرتهم معرفة الناس بحالهم ونظرهم إليهم ومدحهم لهم، فذلك لا يدل على الزهد دلالة قاطعة، بل لا بد للزاهد من ترك المال والجاه حتى يكمل الزهد في جميع حظوظ النفس في الدينا ولهذا فإنه قد ادعى جماعة الزهد ولبسوا الأصواف الفاخرة والأثواب الرفيعة كما قال بعض الزهاد في وصف المدعين للزهد حيث قال: وقوم ادعوا الزهد ولبسوا الفاخر من الثياب ليموهوا به على الناس ليهدى إليهم مثل لباسهم وهم أكلة الدنيا بالدين لم يعنوا بتصفية أسرارهم ولا بتهذيب أخلاق نفوسهم فظهرت عليهم صفاتهم بل ينبغي أن يعول في الزهد على ثلاث علامات[2]:

العلامة الأولى: أن لا تفرح بموجود ولا تحزن على مفقود كما قال تعالى: ﴿**لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم**﴾ (الحديد: ٢٣)، بل ينبغي أن يكون بالضد من ذلك وهو أن يحزن بوجود المال ويفرح بفقده، فهذه علامة الزهد في المال.

العلامة الثانية: أن يستوي عنده مادحه وذامه وهذه العلامة أمارة للزهد في الجاه، ولهذا قال بعض الزهاد: من شغل بنفسه شغل عن الناس، وهذا مقام العاملين، ومن شغل بربه شغل عن نفسه وهذا مقام العارفين إن عرفوا أنفسهم من البدايات، والزاهد لا بد له من إحراز أحد المقامين ليكون زاهداً.

العلامة الثالثة: أن يكون أنسه بالله تعالى والغالب على قلبه حلاوة الطاعة إذ لا يخلو القلب عن حلاوة المحبة، إما محبة الدنيا وإما محبة الله عز وجل وعلا وهما في القلب كالماء والهواء في القدح فإذا دخل الماء خرج الهواء وهما لا يجتمعان أبداً، وكل

---

(١) الإحياء ٤/٢٧٩.

(٢) الإحياء نفس المصدر.

من أنس بالله تعالى اشتغل به ولم يشتغل بغيره ولهذا قيل لبعضهم إلى ماذا أفضى بالزهاد الزهد؟ قال: إلى أنس بالله تعالى[1].

فحصل من مجموع ما ذكرناه أن علامة الزهد استواء الغنى والفقر والعز والذل والمدح والذم لأجل الأنس بالله تعالى، ولنورد على إثر هذه العلامات أقاويل الزهاد في علامة الزهد، القول الأول: أن يترك الدنيا ولا يبالي من أخذها، **القول الثاني**: أن علامة الزهد السخاء بالموجود، **القول الثالث**: أن يترك الدنيا لأهلها كما هي من غير تغيير بزيادة ولا نقصان فلا يقول: أبني مسجداً ولا أحدث رباطاً، **القول الرابع**: الزهد عزوف النفس عن الدنيا من غير تكلف، **القول الخامس**: الزهد علامته قصر الأمل، **القول السادس**: الزهد علامته أمور ثلاثة: عمل بلا رياء، وقول بلا طمع، وعز بلا رياسة، **القول السابع**: جعل الله الشر كله في بيت، وجعل مفتاحه حب الدنيا، وجعل الخير كله في بيت وجعل مفتاحه الزهد، وقال بعضهم: الدنيا كالعروس والذي يطلبها مثل الماشطة لها، والزاهد فيها يدنس وجهها وينتف شعرها ويحرق أثوابها، فنسأل الله تعالى أن يرزقنا من مبادىء الزهد نصيباً وإن قل فإن أمثالنا لا يستجرىء على الوصول إلى غاياته فإن رجاءنا في الله غير منقطع فإذا لاحظنا عجائب نعم الله علينا وفواضل كرمه لدينا فلا يبعد أن نعظم عليه السؤال اعتماداً منا على ما نتحققه من الجود المجاوز لكل كمال[2]

الإيضاح الثالث
في بيان درجات الزهد

إعلم أن الزهد ينقسم إلى ما يكون بالإضافة إليه في نفسه وإلى ما يكون بالإضافة إلى المرغوب عنه، وإلى ما يكون بالإضافة إلى المرغوب فيه، فهذه أنواع ثلاثة نذكر ما يختص كل واحد منها بمعونة الله تعالى:

النوع الأول: بالإضافة إليه في نفسه وله درجات ثلاث:

الدرجة الأولى: منها أن يزهد في الدنيا وهو غاية الشهوة لها وقلبه إليها مائل ونفسه إلى لذاتها ملتفتة ولكنه يجاهدها ويكفها ويستعين بالله تعالى على دفعها، فمن هذه حاله فإنه يسمى متزهداً لا زاهداً وهو مبدأ الزهد في حق من يريد الوصول إلى درجة الزهد

---

(١) الإحياء ٤/ ٢٨٠.

(٢) الإحياء ٤/ ٢٨٠.

فالزاهد يذيب نفسه أولاً في الطاعة لا في الصبر على ما فارقه لأنه قد أيس عن الرجوع إليه ، والمتزهد هو الذي يذيب نفسه على الصبر على ما قد فارقه ولا يؤمن العود إليه[1].

الدرجة الثانية : الذي يترك الدنيا طوعاً لإستحقاره إياها بالإضافة إلى ما هو طامع فيه كالذي يترك درهماً لأجل حصول درهمين فإنه لا يشق عليه ذلك وإن كان يحتاج إلى انتظار قليل ولكن هذا الزاهد يرى زهده لا محالة ويلتفت إليه كما يرى البائع المبيع ويعجبه زهده ويظن في نفسه أنه ترك شيئاً له قدر لما هو أعظم قدراً منه وهذا أيضاً نقصان .

الدرجة الثالثة : أن يزهد طوعاً ويزهد في زهده ، فلا يرى زهده إذ لا يرى في نفسه أنه ترك شيئاً إذ عرف أن الدنيا لا شيء فيكون كمن ترك خنفساً وأخذ جوهرة أو درة فلا يرى ذلك حاصلاً على نعت المعاوضة ولا يرى نفسه تاركاً شيئاً ، والدنيا بالإضافة إلى الله تعالى وإلى نعيم الآخرة أنزل قدراً وأخسه من خنفساء بالإضافة إلى جوهرة ، فهذا هو الكمال في الزهد ، ومثل هذا الزاهد آمن من خطر الإلتفات إلى الدنيا كما أن تارك الخنفساء آمن من طلب الإقالة في البيع .

النوع الثاني : بالإضافة إلى المرغوب فيه وهو أيضاً على درجات ثلاث :

الدرجة الأولى : وهي السفلى أن يكون المرغوب فيه النجاة من النار وسائر الآلام نحو عذاب القبر ومناقشة الحساب وخطر المرور على الصراط وسائر ما بين يدي العبد من الأهوال الأخروية ، كما ورد في الأخبار أن الرجل ليوقف في الحساب ما لو وردت مائة بعير عطاشاً على عرقه لصدرت رواة ، فهذا زهد الخائفين .

الدرجة الثانية : أن يزهد في الدنيا رغبة في ثواب الله ونعيمه وتحصيل اللذات الموعودة في جنته من الحور والقصور وغيره ، وهذا هو زهد الراجين فإن هؤلاء ما تركوا الدنيا إلا من أجل وجود دائم على نعيم قائم لا آخر له[2].

الدرجة الثالثة : وهي العليا أن لا يكون له رغبة إلا في الله عز وجل وفي لقائه ولا يلتفت قلبه إلى الآلام ليقصد الخلاص منها ولا إلى اللذات ليقصد نيلها والظفر بها ، بل هو مستغرق الهم بالله تعالى ، وهذا هو زهد المحبين العارفين لأنه لا يحب الله خاصة إلا من عرفه .

---

(١) الإحياء نفس المصدر.

(٢) الإحياء ٤/٢٨٠ .

النوع الثالث: بالإضافة إلى المرغوب عنه، إعلم أن كل ما يرغب عنه من شهوات الدنيا ولذاتها فهو خارج عن الحصر، وقد حصره الله في كتابه الكريم وجعله على مراتب أربع[1]:

المرتبة الأولى: جعلها سبعة في آية واحدة ﴿**زُين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا**﴾ (آل عمران: ١٤٠).

المرتبة الثانية: أن الله تعالى ردها في آية أخرى إلى خمسة فقال: ﴿**اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد**﴾ (الحديد: ٢٠).

المرتبة الثالثة: أن الله تعالى ردها في آية أخرى إلى أمرين فقال تعالى: ﴿**وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو**﴾ (الأنعام: ٣٢).

المرتبة الرابعة: أن الله تعالى رده في موضع آخر إلى واحد فقال تعالى: ﴿**وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى**﴾ (النازعات: ٤٠، ٤١)، فالهوى لفظ يجمع جميع حظوظ النفس في الدنيا، فينبغي أن يكون الزهد حاصلاً فيه، فهذا كله إشارة إلى الزهد في المرغوب عنه على جهة الإجمال.

وأما الإشارة إليه على جهة التفصيل فاعلم أن ما ينهمك فيه الناس ينقسم إلى ما يكون فضولاً وإلى المهم، فأما الفضول فنحو الخيل المسومة فهذا من الفضلات التي يستغني عنها أكثر الخلق، وأما المهم فهو أصناف خمسة المطعم والملبس والمسكن والمنكح والمال:

الصنف الأول: المطعم فأما جنسه: فأقله الخبز من النخالة وأوسطه خبز الشعير والذرة، وأعلاه البر من غير نخل، فأما إذا نخل فهو من الترفه، وأما مقداره فأقله في اليوم والليلة نصف رطل وأوسطه رطل وأعلاه مد، وأما الإدام فأقله البقل والخل والملح وأوسطه الزيت وسائر الأدهان وأعلاه اللحم، وأما وقته فأقله في اليوم والليلة أكلة، وأوسطه الغداء والعشاء أكلتان وأعلاه أن يطوي ثلاثة أيام على قدر الإمكان.

الصنف الثاني: الملبس والزهد فيه كساء غليظ يستر العورة، وأوسطه قميص

---

(١) الإحياء.

وقلنسوة ونعلان، وأعلاه قميص وسراويل وملحفة، وما زاد على ذلك فليس من الزهد في شيء.

الصنف الثالث: السكن فأعلاه أن لا يطلب موضعاً يقعد فيه ويكفيه زوايا المسجد والخانكات كأصحاب الصفة وأوسطه أن يطلب لنفسه موضعاً خاصاً من سعف أو خوص، وأدناه أن يتخذ حجرة مبنية، وما عدا ذلك فليس من الزهد في شيء.

الصنف الرابع: النكاح فإن كانت شاغلة أعني المرأة عن ذكر الله فتركها يكون زهداً، وإن كانت غير شاغلة فالنكاح لا بأس به للزاهد لما فيه من قطع النظر وإزالة الشبق وميل القلب، ولقد كان رسول الله ﷺ سيد الزهاد وكان له تسع نسوة[1]، وأمير المؤمنين كان أزهد الصحابة فمات عن أربع نسوة وبضع عشرة سرية[2].

الصنف الخامس: أثاث البيت فالزهد فيها فأقلها أن لا يستعمل إلا ما لا بد له منه وليكن من الخزف ولا يبالي كيف كان مكسوراً أو مثلوماً إذا كان فيه قضاء الحاجة وليكن الإناء مما يصلح لحوائج كثيرة يستغنى به عن غيره، وأوسطها أن يكون له أثاث بقدر الحاجة صحيح في نفسه، وأعلاها أن يكون له آلة بقدر كل حاجة من المنازل الخفيف في الحمل القليل في القيمة ليكون حائزاً لخصال الزهد ولينظر إلى سيرة رسول الله ﷺ وسيرة الصحابة بعده، ولقد كان رسول الله ﷺ ينام على حبال السرير ما فوقه شيء حتى تؤثر الحبال في جسمه الشريف»[3]، وكان له وسادة من أدم حشوها ليف»[4]، فهذا ما أردنا ذكره من أسرار الزهد وشرح أحكامه على جهة الايجاز والاختصار.

---

(١) حديث جمع ﷺ بين تسع نسوة. أخرجه البخاري من حديث أنس وفي رواية من حديثه أيضاً وهن احدى عشرة.

(٢) يعني أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٣) الحديث كان ينام على الحصير ليس تحته شيء غيره. متفق عليه من حديث عمر رضي الله عنه.

(٤) كان له فراش من أدم حشوه ليف، متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها. وأبو داود والترمذي وقال حسن صحيح وابن ماجه. ولفظ المصنف لأصحاب السنن تخريج الإحياء ٤/٢٩٥.

الباب الخامس

من مقالة المنجيات في المراقبة والمحاسبة

وهما حالان من أحوال المقربين ومنزلتان من منازل المتقين وقد قال تعالى: ﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين** ﴾ (الأنبياء: ٤٧)، وقال تعالى: ﴿ **ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها** ﴾ (الكهف: ٤٩)، وقال تعالى؛ ﴿ **يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه** ﴾ (المجادلة: ٦)، وقال تعالى: ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره** ﴾ (الزلزلة: ٧، ٨)، وقال تعالى: ﴿ **يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه** ﴾ (آل عمران: ٣). وقال تعالى: ﴿ **واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه** ﴾ (البقرة: ٢٣٥)، فلنذكر المراقبة ثم نردفها بالمحاسبة فهذان مقامان[1]:

المقام الأول
في المراقبة

إعلم أن حقيقة المراقبة هي ملاحظة الرقيب وانصراف الهمة إليه، فمن احترز من أمر من الأمور بسبب غيره يقال إنه يراقبه ويراعي جانبه، ونعني بهذه المراقبة حالة للقلب تثمر المعرفة بالله تعالى وتلك الحالة تثمر أعمالاً في الجوارح بالطاعة والانكفاف عن المعصية، فحاصل معنى المراقبة اشتغال القلوب بالله تعالى وأنه مطلع على السرائر عالم

---

(١) الإحياء ٤/٢٩٥.

بالضمائر محيط بحقائق الأعمال وإلى هذا ترجع حقيقة المراقبة ومعناها، فإذا عرفت هذا فلنذكر فضيلة المراقبة ودرجاتها وكيفيتها، فهذه تنبيهات ثلاثة[١].

التنبيه الأول
في بيان فضلها

وقد قال تعالى: ﴿**أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت**﴾ (الرعد: ٣٣)، وقال تعالى: ﴿**ألم يعلم بأن الله يرى**﴾ (العلق: ١٤)، وقال تعالى: ﴿**إن الله كان عليكم رقيباً**﴾ (النساء: ١)وقال تعالى: ﴿ **والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون، والذين هم بشهادتهم قائمون**﴾ (المعارج: ٣٢، ٣٣)، وقال تعالى: ﴿ **يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور**﴾ (غافر: ١٩)، وقال الرسول ﷺ: «أعبد الله كأنك تراه فإن لم تره فإنه يراك»[٢]، وقال ﷺ لرجل يوصيه: «إذا أردت أمراً فتدبر عاقبته فإن يك رشداً فأمضه وإن يك غياً فانته»[٣].

وقال عمر رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا»[٤]، وكتب عمر إلى بعض عماله: حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدة[٥]، وقال لقمان: إن المؤمن أبصر العاقبة فأمن الندامة، وقال ﷺ: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله»[٦]، ودان نفسه أي حاسبها، ويوم الدين هو يوم الحساب، وقوله: ﴿**أءنا المدينون**﴾ (الصافات: ٥٣)، أي لمحاسبون.

وسئل ذو النون: بم ينال العبد الجنة؟، فقال بخمس استقامة ليس فيها روغان، واجتهاد ليس معه سهو، ومراقبة الله تعالى في السر والعلانية وانتظار الموت بالتأهب له،

---

(١) الإحياء ٤/٢٩٥.

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة ورواه مسلم من حديث عمر أيضاً.

(٣) ذكره الغزالي في الإحياء ٤/٤٩٢ من حديث عبادة بن الصامت في ٤/٥٠٢ أيضاً. وعزاه السيوطي في الجامع الصغير لابن المبارك في الزهد من حديث أبي جعفر بن مسور الهاشمي. قال المناوي في التيسير ١/٦٩ مرسل، وقال في المغني أحاديث عبدالله بن مسور موضوعة.

(٤) الإحياء ٤/٤٩٢.

(٥) الإحياء ٤/٤٩٣.

(٦) أخرجه أحمد والترمذي، وابن ماجه عن شداد بن أوس وأخرجه الحاكم وصححه ولم يوافقه الذهبي فضعفه لأن فيه ابن أبي مريم واه، المقاصد ص ٣٢٩ رقم (٨٥٠).

ومحاسبة النفس قبل أن تحاسب وقال بعض الحكماء: لم يتزين القلب بشيء أفضل ولا أشرف من علم العبد بأن الله شاهده حيث كان، وسئل بعضهم عن قول الله تعالى: ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه﴾ (البينة: ٨)، قال: معنى ذلك لمن راقب الله وحاسب نفسه وتزود لمعاده، وقال بعض الزهاد لمن يعظه: لئن كنت عصيت الله خالياً فظننت أنه يراك فقد اجترأت على أمر عظيم وإن كنت تظن أنه لا يراك فقد كفرت[١].

وقال سفيان الثوري: عليك بالمراقبة ممن لا يخفى عليه خافية وعليك بالرجاء ممن يملك الوفاء، وعليك بالحذر ممن يملك العقوبة، ويحكى أن الله تعالى قال للملائكة أنتم موكلون بالظواهر وأنا رقيب على البواطن كلها والله أعلم[٢].

التنبيه الثاني
في بيان درجاتها

وهي منقسمة بالإضافة إلى أهلها إلى درجات ثلاث:

الدرجة الأولى: درجة المقربين من أهل الصدق وهي مراقبة التعظيم والإجلال لخالقهم وهو أن يصير القلب مستغرقاً بملاحظة ذلك الجلال الأكبر ومنكسراً تحت الهيبة والكبرياء فلا يبقى هناك متسع إلى غيره، وهذه مراقبة عظيمة لا يستقل بها إلا الآحاد والأفراد فإنها مقصورة على القلوب أما الجوارح فإنها تتعطل عن الإلتفات إلى المباحات فضلاً عن المحظورات وإذا تحركت بالطاعات كانت كالآلات المستعمل بها فلا تحتاج إلى تدبير في حفظها على سنن السداد، فإذا صار القلب مستغرقاً بالعبودية صارت الجوارح جارية على جهة الطاعة والانقياد.

الدرجة الثانية: مراقبة الصديقين وهؤلاء هم الذين غلب عليهم يقين الإطلاع من الله عز وجل على بواطنهم وظواهرهم ولكن لم تدهشهم ملاحظة الجلال بل بقيت قلوبهم على حد الاعتدال متسعة للالتفات إلى الأحوال والأعمال، إلا أنها لا تخلو مع ممارسة الأعمال عن المراقبة لله عز وجل خلى أنهم قد غلبهم الحياء من الله تعالى فلا يقدمون ولا يحجمون إلا بعد الثبات ويمتنعون عما تقع فيه المناقشة عند الله تعالى.

الدرجة الثالثة: مراقبة أهل الصلاح وهؤلاء لا يخلون أنفسهم عن المراقبة لكنها

---

(١) الإحياء ٤/٤٩٣.

(٢) الإحياء ٤/٤٩٤.

نكون تارة بعد تارة ووقتاً بعد وقت فالأغلب على أحوالهم ملابسة الأعمال الظاهرة لكنهم لا يخلون قلوبهم عن الإلتفات إلى الله تعالى والمراقبة لجلاله، وهكذا تختلف مراتب الخلق في مراقبة الله تعالى، ومن كان في هذه الحالة فإنه محتاج إلى مراقبة الله تعالى في جميع حركاته وسكناته وخطراته ولحظاته[1].

التنبيه الثالث
في كيفية المراقبة

فتارة تكون قبل العمل وتارة تكون في حال العمل، فهاتان حالتان:

الحالة الأولى: ما يكون قبل العمل فلينظر العامل ما ظهر له وتحرك من أجله خاطره ووقع في نفسه أهو لله تعالى خاصة أو هو في متابعة هوى النفس وموافقة الشيطان فإن كان لله أمضاه وعاجل في فعله، وإن كان لغير الله تعالى استحيا من الله وانكف عنه ولازم نفسه على رغبته فيه وهمته به وميله إليه وعرف نفسه سوء فعلها وسعيها في فضيحتها وإنها عدوة نفسها، وهذا إنما يكون في بداية الأمر، وفي الحديث: «أنه ينشر للعبد في كل حركة ثلاثة دواوين فالديوان الأول لِمَ؟ والثاني كيف؟ والثالث لِمن؟ فقوله لِمَ؟ أراد ما الداعي لك إلى فعله؟ وقوله كيف أراد بعلم أو جهل؟ وقوله لمن أراد لله أو لغيره؟ وهو سؤال الإخلاص[2].

الحالة الثانية: ما يكون في حال العمل وذلك يكون بتفقد أحوال العمل ليقضي حق الله فيه ويحسن النية في إتمامه وإكمال صورته وخلوص القصد حتى يكون مرضياً لله تعالى في كل أفعاله فإن أفعال العبد لا يخلو حالها إما أن يكون طاعة أو معصية أو مباحة، فإن كان في معصية راقب الله تعالى في الإنكفاف عنها، وإن كان في طاعة راقب الله في الإخلاص والإكمال لها، وإن كان مباحاً فمراقبته بمراعاة الأدب وتأدية الشكر لله تعالى.

المقام الثاني
في المحاسبة

إعلم أن المحاسبة هي مطالعة القلب وإعمال اللسان وإعمال الجوارح فلو رمي العبد في كل معصية يحدثها حجراً في داره مدة قريبة من عمره لامتلأت الدار ولكنه يتساهل في حفظ ذلك والملكان يحفظانه كما قال تعالى: ﴿**أحصاه الله ونسوه**﴾

(١) الإحياء ٤/٤٩٥ وما بعدها.
(٢) الإحياء ٤/٤٩٧.

(المجادلة: ٦)، وحُكي عن بعض الحكماء المراقبين لأحوالهم أنه حسب عمره فإذا هو ابن ستين سنة فحسب أيامها فإذا هي أحد وعشرون ألف يوم وخمسماية يوم فصرخ بأعلى صوته وقال: يا ويلتاه ألقى الله بأحدوعشرين ألف وخمسمائة ذنب كيف؟ وفي كل يوم عشرة ألف ذنب فخر مغشياً عليه فإذا هو ميت، فسمعوا هاتفا يقول: يا لك ركضة إلى الفردوس الأعلى، فهكذا تكون محاسبة أهل الحزم لأنفسهم، فإذا عرفت هذا فلنذكر فضل المحاسبة ثم نذكر معاقبة النفس على تقصيرها[1]، ثم نذكر توبيخ النفس وعناءها، فهذه إيضاحات ثلاثة نفصلها بمعونة الله تعالى.

الإيضاح الأول
في بيان فضيلة المحاسبة

قال الله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد**﴾ (الحشر: ١٨)، فهذه إشارة إلى المحاسبة على ما مضى من الأعمال، وقال تعالى: ﴿**إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله**﴾ (البقرة: ٢٨٤)، وأقول إن هذه الآية أعظم آية في المؤاخذة، ولما نزلت الآية بكى عبدالله بن عمر رضي الله عنه، فقال له ابن عباس: يرحم الله أبا عبد الرحمن إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿**لا يكلف الله نفساً إلا وسعها**﴾ (البقرة)٢٨٦)، وفي الخبر عن الرسول ﷺ أنه قال: «ينبغي أن يكون للعبد ثلاث ساعات، ساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يخلو بأهله، وساعة يلهو بقوسه وفرسه»[2].

وقال ﷺ: «إني لأتوب إلى الله في اليوم مائة مرة»[3] وإنما تكون التوبة لأجل محاسبة النفس على الذنوب قال الله تعالى: ﴿**إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون**﴾ (الأعراف: ٢٠١)، وعن عمر أنه كان يضرب قدميه بالدرة ويقول ماذا عملت اليوم؟ وعن بعض الزهاد أنه قال: لا يكون العبد من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة الشريك لشريكه، والشريكان يتحاسبان بعد العمل[4].

وفي حديث أبي طلحة أنه لما شغله الطائر في صلاته فتدبر شغله فجعل حائطه صدقة لله تعالى ندماً ورجاء للعوض مما فاته[5]، وفي حديث ابن سلام أنه حمل حزمة من

---

(١) الإحياء ٤/٥٠٠.

(٢) ساعة يخلو بأهله وساعة يلهو بقوسه أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم وصححه من حديث أبي ذر، أنظر تخريج الإحياء ٤/٥٠١.

(٣) إني لأتوب إلى الله في اليوم مائة مرة. رواه مسلم من حديث الأغر المزني.

(٤) الإحياء ٤/٥٠٢.

(٥) الإحياء ٤/٥٠٢.

حطب فقيل له: يأ أبا يوسف قد كان في بنيك وغلمانك ما يكفيك، فقال: أردت أن أجرب قلبي هل ينكره[1] وقال الحسن: المؤمن قوام على نفسه يحاسبها لله تعالى، وإنما خف الحساب على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة[2].

وقال أنس بن مالك: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقد خرجت معه حتى دخل حائطاً فسمعته يقول وبيني وبينه جدار وهو في الحائط: عمر بن الخطاب أمير المؤمنين بخ بخ والله لتتقين الله أو ليعذبنك»[3]، وقال مالك بن دينار: رحم الله عبداً قال لنفسه: ألست صاحبة كذا؟، ألست صاحبة كذا؟ ثم زمها ثم خطمها ثم ألزمها كتاب الله، وهذا من معاتبة النفس كما ترى والله أعلم[4].

الإيضاح الثاني
في بيان معاقبة النفس على التقصير

وإذا حاسب الإنسان نفسه فلم يسلم عن مقارفة معصية وارتكاب تقصير في حق الله تعالى فلا ينبغي أن يهملها فإنه إذا أهملها سهل عليه ملابسة المعاصي وأنست بها وعسر فطامها وكان ذلك سبب هلاكها بل ينبغي أن يعاقبها، فإذا أكل لقمة فيها شبهة لشهوة نفس فينبغي أن يعاقب البطن بالجوع، وإذا نظر إلى غير محرم ينبغي أن يعاقب العين بمنع النظر، وكذا يعاقب كل طرف من الأطراف يمنعها عن شهواتها[5].

هكذا كانت عادة السالكين لطريق الآخرة، فقد رُوي عن بعض العباد أنه كلم امرأة فلم يزل حتى وضع يده على فخذها فوضع يده في النار حتى نَشَّت، وروي أنه كان رجل من بني إسرائيل يتعبد في صومعته فمكث زماناً طويلاً فأشرف ذات يوم فإذا هو بامرأة فافتتن بها وهم بها فأخرج رجله لينزل إليها فأدركه الله لسابقة عمله، فقال: ما هذا الذي أريد أن أصنع؟ فرجعت إليه نفسه وعصمه الله تعالى فندم فلما أراد أن يعيد رجله إلى الصومعة قال: هيهات هيهات رِجل تريد أن تعصي الله تعود معي في صومعتي لا يكون والله ذلك فتركها معلقة تصيبها الأمطار والرياح والشمس والثلج حتى تقطعت

---

(١) الإحياء ٤/٥٠٢.

(٢) الإحياء ٤/٥٠٢.

(٣) الإحياء ٤/٥٠٣.

(٤) الإحياء ٤/٥٠٣.

(٥) الإحياء ٤/٥٠٤.

وسقطت فشكر الله له ذلك فأنزل الله في الكتب ذكره، ورُوي عن بعض الزهاد أنه تكشفت له جارية فنظر إليها فرفع يده فلطم عينيه حتى خرجت وقال: إنك لَلَحّاظة إلى ما يضرك، فهكذا كانت عادتهم في الحزم على أنفسهم والعجب أنا نعاقب العبيد والإماء والأهل والأولاد على ما يفعلون ويصدر منهم من سوء الخلق ونخاف إن تجاوزنا عنهم ألغوا وطغوا ثم إنا نهمل أنفسنا وهي أعظم الأعداء لنا وأشد طغياناً فهي أحق بالمعاقبة[1].

الإيضاح الثالث
في بيان توبيخ النفس ومعاتبتها

إعلم أن أعدى عدو لك هي نفسك التي خلقت بين جنبيك وقد خلقت أمارة بالسوء أمارة بالشر فرارة عن الخير فإنك مأمور بتزكيتها وتقويمها وقودها بسلاسل العبر إلى عبادة ربها وخالقها وتمنعها عن شهواتها وفطامها عن لذاتها فإن أهملتها شردت وجمحت ولم تظفر بها بعد ذلك، وإن لازمتها بالتوبيخ والمعاتبة والعذل والملامة فلا تغفلن عنها ساعة واحدة عن تذكيرها وعتابها، ولا تشتغل بوعظ غيرك ما لم تشتغل أولاً بوعظ نفسك، فقد أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام: عظ نفسك فإن اتعظت فعِظ الناس وإلا فاستح مني، وقال تعالى: ﴿**وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين**﴾ (الذاريات: ٥٥)، وسبيلك أن تقبل عليها فتقرر عندها جهلها وحماقتها فإنها تعذر بفطنتها وهدايتها وتشد أنفها واستنكافها إذا نسبت إلى الحمق.

فيقول لها: ما أعظم جهلك! تدعين الحكمة والفطنة وأنت أشد الناس عداوة وحمقاً أما تعرفين ما بين يديك من الجنة والنار وأنت صائرة إلى إحداهما على القرب فما لك تفرحين وتضحكين وتشتغلين باللهو وأنت مطلوبة لهذا الخطب الجسيم وعساك اليوم تختفين أو غداً وأراك ترين الموت بعيداً ونراه قريباً، أما تعلمين أن كل ما هو آت قريب، وأن البعيد ما ليس بآت، أما تعلمين أن الموت يأتي بغتة من غير تقديم رسول ومن غير مواعدة ومواطأة، وأنه لا يأتي في شتاء دون صيف ولا في صيف دون شتاء ولا في نهار دون ليل ولا في ليل دون نهار، ولا يأتي في الصبا دون المشيخ ولا في المشيخ دون الصبا، بل كل نفسٍ يمكن أن يأتيها الموت بغتة فإن لم يكن الموت فجأة فالمرض لا محالة فجأة ثم إن المرض يفضي إلى الموت فما لك لا تستعدين للموت وهو أقرب من حبل الوريد.

فهكذا معاملة أهل الزهد والعبادة في عتاب أنفسهم وتوبيخها فإن مطلبهم من

(١) الإحياء ٤/٥٠٥.

المناجاة الإسترضاء ومقصودهم من المعاتبة التنبيه والاسترعاء فمن أهمل المعاتبة والمناجاة لم يكن لنفسه مراعياً ويوشك ألا يكون الله تعالى عنه راضياً، فنسأل الله تعالى معرفة محققة بأحوال النفس وغرورها[1].

---

(١) الإحياء ٤/٥١٧.

الباب السادس

في بيان التوكل من مقالة المنجيات

وهو مقام عظيم من مقامات الأبرار، وقبل الخوض فيما نريده من بيان مقاصده وأحكامه نذكر مقالة الشيوخ في حقيقة التوكل، قال ذو النون: التوكل هو خلع الأرباب وقطع الأسباب، فقوله خلع الأرباب إشارة إلى التوحيد، وقوله قطع الأسباب إشارة إلى الأعمال وتعليقها بالله تعالى، وقال بعض الزهاد: هو التعلق بالله تعالى في كل الأحوال، وقال آخرون: التوكل اضطراب بغير سكون وسكون بغير اضطراب، وأراد بقوله سكون من غير اضطراب أراد به سكون القلب إلى الله تعالى، وقوله اضطراب من غير سكون إشارة إلى فزعه إلى الله تعالى وابتهاله وتضرعه، وحُكي عن أبي بكر الدقاق أنه قال التوكل ثلاث درجات التفويض ثم التسليم ثم الصبر، والمختار في حقيقة التوكل أنه إلقاء الأمور إلى الله تعالى في كل الأحوال، فإذا عرفت هذا فلنذكر فضيلة التوكل ثم نذكر حال الإدخار ثم نردفه بذكر آداب المتوكلين في أمتعتهم، فهذه تنبيهات ثلاثة.

التنبيه الأول
في بيان فضيلة التوكل

وظهوره من جهات ثلاث:

الجهة الأولى: الآيات القرآنية، وهذا كقوله تعالى: ﴿ **وعلى الله فتوكلوا** ﴾ (المائدة: ٢٣)، وقوله تعالى: ﴿ **على الله توكلنا** ﴾ (الأعراف: ٨٩)، وقوله تعالى: ﴿ **وعلى الله فليتوكل المؤمنون** ﴾(آل‌عمران: ١٢٢)، وقوله تعالى: ﴿ **ومن يتوكل على الله فهو حسبه** ﴾ (الطلاق: ٣)، وقوله تعالى: ﴿ **وعلى الله فليتوكل المتوكلون** ﴾ (إبراهيم: ١٢)، وقوله تعالى: ﴿ **إن الله يحب المتوكلين** ﴾(آل‌عمران: ١٥٩)، وقال تعالى: ﴿ **ومن**

يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم﴾ (الأنفال: ٤٩)، وقال تعالى: ﴿إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم﴾ (الأعراف: ١٩٤)، أراد أن كل ما سوى الله فهو عبد مسخر فكيف تطلب منه حاجتك وتتوكل عليه؟، وقال تعالى: ﴿إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق﴾ (العنكبوت: ١٧)، وكلما ذكره الله تعالى في القرآن من التوحيد فهو تنبيه على قطع الملاحظة من الأغيار، والتوكل على الواحد القهار.

الجهة الثانية: الأخبار، فقد قال ﷺ فيما رواه عنه ابن مسعود: «رأيت الأمم بالموسم فرأيت أمتي قد ملأوا السهل والجبل فأعجبني كثرتهم وهيئتهم فقيل لي: أرضيت؟ فقلت: نعم، فقال: ومع هؤلاء سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب، قيل: ومن هم يا رسول الله؟ قال: الذين لا يكتوون ولا يتطيرون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون، فقام عكاشة بن محصن فقال: ادع الله يا رسول الله أن يجعلني منهم، قال: أنت منهم، فقام آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: سبقك بها عكاشة[1]، وقال ﷺ: «لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً»[2]، وقال ﷺ: «من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤنة ورزقه من حيث لا يحتسب ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها»[3]، ورُوي عن الرسول ﷺ أنه كان إذا أصاب أهله خصاصة قال: قوموا إلى الصلاة فبهذا أمرني ربي حيث قال[4]: ﴿وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها﴾ (طه: ١٣٢)، وقال ﷺ: «لم يتوكل من اكتوى واسترقى»[5].

الجهة الثالثة: الآثار، قال سعيد بن جبير: لدغتني عقرب فأقسمت عليّ أمي لترقيني فناولت يدي الراقي التي لم تلدغ، وقال بعض الحكماء العلماء: لا يشغلنك

---

(١) حديث ابن مسعود باللفظ الذي ساقه المصنف، رواه أحمد بن منيع بإسناد حسن واتفق عليه الشيخان من حديث أنس.

(٢) أخرجه بهذا اللفظ الترمذي والحاكم وصححاه من حديث عمر رضي الله عنه تخريج الإحياء ٤/٣٠٣.

(٣) أخرجه الطبراني في الصغير وابن أبي الدنيا من طريق البيهقي في الشعب من رواية الحسن عن عمران بن حصين ولم يسمع منه وفيه إبراهيم بن الأشعث تكلم فيه أبو حاتم تخريج الإحياء ٤/٣٠٣.

(٤) طه الآية. والحديث الوارد في سبب نزول الآية أخرجه أبو داود في سبب نزولها ساقه المصنف. وأخرجه الطبراني في الأوسط من حديث محمد بن حمزة عن عبدالله بن سلام ومحمد حمزة أن يوسف بن عبدالله بن سلام لم يسمع من جد أبيه/ تخريج الإحياء ٤/٣٠٤.

(٥) أخرجه الترمذي وحسنه النسائي والطبراني واللفظ له إلاّ أنه قال من حديث المغيرة بن شعبة/ تخريج الإحياء ٣٠٤/٤.

المضمون من الرزق لك عن المفروض من العمل عليك،وقرأ بعض الزهاد: ﴿ **وتوكل على الحي الذي لا يموت**﴾ (الفرقان: ٥٨)، إلى آخرها، فقال: لا ينبغي للعبد بعد هذه الآية أن يلجأ إلى أحد غير الله تعالى، قال يحيى بن معاذ: في وجود العبد الرزق من غير طلب دلالة على أن الرزق مأمور بطلب العبد، وقال إبراهيم بن أدهم: سألت بعض الرهبان من أين تأكل؟ فقال: ليس العلم عندي ولكن سل ربي من أين يطعمني؟، وقال بعضهم: متى رضيت الله وكيلاً وجدت إلى كل خير سبيلاً، وقال أويس القرني رضي الله عنه: أف لهذه القلوب لقد خالطها الشك فما تنتفع بالموعظة[1].

التنبيه الثاني
في بيان حكم الادخار

إعلم أن النفوس خلقت مطبوعة على الحرص ومطيعة له ويكاد أن يكون ذلك مناقضاً للتوكل، فمن حصل له مال بإرث أو كسب أو بسبب من الأسباب فله في ادخاره ثلاثة أحوال:

الحالة الأولى: أن يأخذ قدر حاجته منه في الوقت فيأكل إن كان جائعاً ويلبس إن كان عارياً ويشتري إن كان محتاجاً إليه ويفرق الباقي في الحال ولا يأخذ ولا يدخر إلا المقدار الذي يستحقه ويحتاج إليه، فهذا هو الوفاء بموجب التوكل تحقيقاً وهي الدرجة العليا.

الحالة الثانية: المقابلة لهذه وهي المخرجة عن حدود التوكل أن يدخر لسنة فما فوقها، فهذا ليس من التوكل في ورد ولا صدر، وقد قيل: إنه لا يدخر من الحيوانات إلا ثلاثة الفأرة والنملة وابن آدم وهو أحرصها وأعظمها في الإدخار[2].

الحالة الثالثة: أن يدخر لأربعين يوماً فما دونها فهذا هل يوجب حرمانه عن المقام المحمود الموعود في الآخرة للمتوكلين؟ فيه تردد، وقد ذهب بعض الزهاد إلى أنه يخرجه عن حد التوكل وذهب آخرون إلى أنه لا يخرج بهذا القدر عن حد التوكل، وقال آخرون: لا يخرج بالزيادة على الأربعين، عن حد التوكل، والمختار أن التوكل بترك الإدخار لا يتحقق إلا بقصر الأمل فالشأن كله في تقصير الأمل فمن طال أمله كثر حرصه

---

(١) هذه الآثار أوردها الغزالي في الإحياء ٤/٣٠٤ ـ ٣٠٥.
(٢) الإحياء ٤/٣٤٣.

ومن قل أمله قل حرصه وحسن عمله وزكا[1].

التنبيه الثالث
في بيان آداب المتوكلين في تصرفاتهم وأحوالهم

إعلم أن للمتوكلين آداباً نذكرها:

الأدب الأول: أن يغلق بابه ولا يستقصي في أسباب الحفظ كالتماسه الجيران بالحفظ لمتاعه ونحو جمعه بمغاليق كثيرة، فلقد كان مالك بن دينار لا يغلق بابه ولكن يشده بخيط ويقول لولا الكلاب ما شددته.

الأدب الثاني: أن لا يترك في البيت متاعاً يحرص عليه من السراق فيكون سبباً في سرقهم وإقدامهم عليه لأن إمساكه له يكون داعياً لهيجان رغبتهم فيه.

الأدب الثالث: أن كلما يضطر إلى تركه في البيت ينبغي أن ينوي عند خروجه الرضا بما يقضيه الله تعالى من تسليط سارق عليه ويقول في نفسه ما أخذه السارق فهو منه في حل وسعة أو هو في سبيل الله تعالى، فإن كان فقيراً فهو عليه صدقة وإن لم يشترط فهو أولى.

الأدب الرابع: إذا وجد المال قد سرق فينبغي أن لا يحزن بل يفرح إن أمكنه ذلك ويقول لولا أن الخيرة كانت في ذلك لما سلبه الله تعالى، ثم إنه إذا لم يجعله في سبيل الله فلا يبالغ في طلبه ولا في إساءة الظن بالمسلمين وإن كان قد جعله في سبيل الله فيترك طلبه فإنه قد قدمه ذخيرة لنفسه للآخرة فإن أعيد عليه فالأولى أن لا يقبله بعد جعله لله، وإن قبله فهو ملكه في ظاهر الشرع لأن الملك لا يزول بالنية، ولكنه غير محبوب عند المتوكلين[2].

الأدب الخامس: وهو أقل الدرجات أن لا يدعو على السارق الذي ظلمه بالأخذ فإن فعل بطل توكله ودل ذلك على كراهته وتأسفه على ما فات وبطل زهده، وإن بالغ في الدعاء بطل أجره فيما أصيب به، ففي الخبر «من دعا على ظالم فقد انتصر»[3]، وحكي عن الربيع بن خثيم أنه سرق له فرس وكان ثمنه عشرين ألفاً وكان قائماً يصلي فلم يقطع صلاته ولم ينزعج بطلبه فجاء قوم يعزونه فقال: أنا قد كنت رأيته وهو يحله، قيل: فما

---

(١) الإحياء ٤/٣٤٣.

(٢) الإحياء ٤/٣٥٠.

(٣) أخرجه الترمذي عن عائشة بإسناد ضعيف، التيسير للمناوي ٢/٤١٦.

منعك أن تزجره؟ قال: كنت فيما هو أحب إليّ من ذلك يعني الصلاة، قال: فجعلوا يدعون على السارق، فقال: لا تفعلوا وقولوا خيراً فإني قد كنت جعلته صدقة عليه[1].

الأدب السادس: أن يكون مغتماً لأجل السارق في عصيانه وتعرضه لعقاب الله ويشكر الله إذ جعله مظلوماً ولم يجعله ظالماً، وجعل ذلك نقصاناً في دنياه لا في دينه، فقد شكى بعض الناس إلى عالم أنه قطع عليه الطريق وأخذ ماله، فقال له: إن لم يكن غمك أنه قد صار في المسلمين من يستحل هذا أكثر من غمك بما نقص من مالك فما نصحت المسلمين، وسرق من بعض أهل الزهادة دنانير وهو يطوف بالبيت فرآه أبوه وهو يبكي ويحزن فقال: أعلى الدنانير تبكي؟ فقال: لا والله ولكن على المسكين فإنه يسأل يوم القيامة ولا تكون له حجة.

وقد نجز غرضنا مما أردناه من معاني التوكل وأحكامه، ونشرع الآن في النية التي بها صلاح الأعمال بمعونة الله تعالى[2].

---

(١) الإحياء ٤/٣٥٠.

(٢) الإحياء ٤/٣٥٠.

الباب السابع

من علوم الكتاب في المنجيات النية

وهي عبارة عن الإرادة والقصد فالإرادة تطلق على العزم والقصد والنية والعزم ما كان سابقاً على الفعل ليكون سبباً في تحقيق فعله والقصد عبارة عما كان مقارناً للفعل، والنية لا بد فيها من المقارنة للفعل لكنها تختص بالعبادات ولهذا يقال نية الصلاة ولا يقال قصد الصلاة، والعزم لا يجوز إطلاقه على الله تعالى لما فيه من إيهام الخطإ في حقه، والنية لا يجوز إطلاقها على الله تعالى من أجل إيهام الخطإ أيضاً، فكل حركة أو سكون أو فعل اختياري فإنه لا يتم إلا بأمور ثلاثة القدرة والعلم والإرادة، فالقدرة تراد لإيجاد الفعل وتحصيله لأنها هي المؤثرة في وجود الفعل، وأما العلم فيراد لإحكام الأفعال كلها فلا بد من العلم بحقيقة الحركة ليتأتى من العبد إيجادها لأن من المحال أن يوجد بالقدرة ما لا يعلم حقيقته، وأما الإرادة فيحتاج إليها من أجل تحصيل وجوه الأفعال عند الإيجاد، فهذه الأمور الثلاثة لا بد منها في وجود الفعل.

وهل تكون الداعية مشترطة في وجود الفعل أم لا فيه تردد بين المتكلمين، والمختار عندنا أنه لا بد للفعل من الداعية في حق العالم بالفعل دون الساهي، وقد يكون حصول الفعل بباعث واحد كما لو رأى سبعاً فقام من موضعه فإنه لا باعث له على القيام إلا رؤية الأسد لا غير، وقد يكون بباعثين، ويكون على أوجه ثلاثة[1]:

أولها: أن يكون الداعيان بحيث لو انفرد كل واحد منهما لكان كافياً كما لو سأله فقير قريب له حاجة، فإن كل واحد من القرابة والفقر كاف لو انفرد في قضاء الحاجة.

وثانيها: أن يكون كل واحد منهما قاصراً عن البعث لكن حصل التأثير بالاجتماع،

---

(١) الإحياء ٤/٣٥٠.

ومثاله أن يسأله فقير فلا يعطيه ويسأله قريبه فلا يعطيه ويجيء من اجتمع فيه الأمران فيعطيه فيكون الباعث على الإعطاء هو المجموع لا غير[١].

وثالثها: أن يكون كل واحد منهما كافياً دون الآخر لكن أحدهما يصير عاضداً ومعيناً لا غير، فهذا يكون تأثير الباعث على الفعل والداعية في حق الله تعالى ليس إلا العلم بالمصلحة والداعي في حق الواحد منا هو العلم والظن والاعتقاد، وهذا القدر كاف في مقدار غرضنا فلنذكر فضل النية ثم نذكر أقسام الأفعال بالإضافة إليها ثم نردفه بمعنى قوله ﷺ: «نية المؤمن خير من عمله»[٢] فهذه إيضاحات ثلاثة.

الإيضاح الأول
في بيان فضيلة النية

وقد ظهرت من ثلاث جهات:

الجهة الأولى: من جهة الكتاب الكريم وهذا كقوله تعالى: ﴿**يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر**﴾ (البقرة: ١٨٥)، وقال تعالى: ﴿**يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم**﴾ (النساء: ١٦) وقال تعالى: ﴿**ذلك خير للذين يريدون وجهه**﴾ (الروم: ٣٨) فالإرادة من جهة الله تعالى على جهة الامتنان والفضل بالنعم الغامرة لأنها لا تكون نعماً إلا بالقصد والإفضال والإنعام والإرادة من جهتنا، ورد الثناء عليها من الله تعالى وفي هذا دلالة على فضيلة النية وكونها من أعظم الأفعال وأفضلها.

الجهة الثانية: الأخبار وقد قال ﷺ: «الأعمال بالنيات ولكل أمري ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[٣] وقال ﷺ: «أكثر شهداء أمتي أهل الفرش فرب قتيل بين الصفين الله أعلم بنيته»[٤] وقال ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[٥] وإنما نظر إلى القلوب لأنها مظنة النية ومحلها، وقال ﷺ: «إن العبد ليعمل أعمالاً حسنة فتصعد بها الملائكة في صحف

---

(١) الإحياء ٤/٣٥٤ ـ ٣٥٥.

(٢) أخرجه الطبراني من حديث سهل بن سعد، ومن حديث النواس بن سمعان وكلاهما ضعيف تخريج الإحياء ٤/٤٥٦.

(٣) متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أحمد من حديث ابن مسعود وفيه عبدالله بن لهيعة وهو ضعيف.

(٥) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

مختمة فتلقى بين يدي الله تعالى فيقول: ألقوا هذه الصحيفة فإنه لم يرد بها وجهي ثم ينادي الملائكة اكتبوا له كذا اكتبوا له كذا، فيقولون: يا رب إنه لم يعمل شيئاً، فيقول: إنه نواه إنه نواه»[١]، وقال ﷺ: «الناس أربعة: رجل آتاه الله علماً ومالاً فهو يعمل بعلمه في ماله فيقول رجل: لو آتاني الله ما آتاه لعملت كما يعمل فهما في الأجر سواء، ورجل آتاه الله مالاً ولم يؤته علماً فهو يتخبط بجهله في ماله فيقول رجل: لو آتاني الله مثل ما آتاه لعملت كما يعمل فهما في الوزر سواء»[٢]، ألا ترى كيف شركه بالنية في محاسن عمله ومساوئه.

وفي حديث أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى غزوة تبوك قال: إن بالمدينة أقواماً ما قطعنا وادياً ولا وطئنا موطئاً يغيظ الكفار ولا أنفقنا نفقة ولا أصابنا مخمصة إلا شاركونا في ذلك وهم بالمدينة، قالوا: كيف ذلك يا رسول الله وليسوا معنا؟ قال: حبسهم العذر فشركونا بحسن النية»[٣] وفي حديث ابن مسعود «من هاجر يبتغي شيئاً فهوله فهاجر رجل فتزوج امرأة منا فكان يسمى مهاجر أم قيس»[٤]، وفي الحديث: «إن رجلاً قتل في سبيل الله فكان يسمى قتيل الحمار لأنه قاتل رجلاً ليأخذ سلبه وحماره فقتل على ذلك فأضيف إلى نيته»[٥] وفي حديث عبادة عن النبي ﷺ: «من غزا وهو لا ينوي إلا عقالاً فله ما نوى»[٦] وقال أُبيٌّ: استعنت رجلاً يغزو معي، فقال: لا حتى تجعل لي جعلاً فجعلت له، فذكرت ذلك للرسول ﷺ، فقال: ليس له من دنياه ولا من آخرته إلا ما جعلت له[٧].

وفي حديث ابن عمر: «من كانت الدنيا نيته جعل الله فقره بين عينيه وفارقها أرغب ما يكون إليها، ومن تكن الآخرة نيته جعل الله غناه في قلبه وجمع عليه ضيعته وفارقها أزهد ما يكون فيها»[٨]، وفي حديث أم سلمة أن رسول الله ﷺ ذكر جيشاً يخسف بهم في

---

(١) أخرجه الدارقطني من حديث أنس بإسناد حسن.

(٢) أخرجه ابن ماجه من حديث أبي كبشة الأنماري بسند جيد وأخرج نحوه الترمذي وقال حسن صحيح تخريج الإحياء ٤/٤٥١.

(٣) أخرجه البخاري مختصراً، وأبو داود.

(٤) أخرجه الطبراني بإسناد جيد.

(٥) قال العراقي في تخريج الإحياء ٤/٤٥١ لم أجد له أصلاً في الموصولات وإنما رواه أبو إسحاق في السنن من وجه مرسل.

(٦) أخرجه النسائي من حديث عبادة بن الصامت.

(٧) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين. ولأبي داود من حديث يعلى بن أمية نحوه. تخريج الإحياء ٤/٤٥٢.

(٨) أخرجه ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت بإسناد جيد دون قوله «وفارقها أرغب ما يكون فيها» ودون قوله «فارقها أزهد ما يكون فيها» وفيه زيادة قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ٤/٤٥٢ ولم أجده من حديث عبدالله بن عمر.

البيداء، فقلت: يا رسول الله يكون فيهم المكره والأجير، فقال: يحشرون على قدر نياتهم»[1] وقال عمر سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما يقتتل المقتتلون على النيات»[2].

الجهة الثالثة: الآثار فقد قال عمر رضي الله عنه: **أفضل الأعمال** أداء ما افترض الله والورع عما حرم الله وصدق النية فيما عند الله، وكتب سالم إلى عمر بن عبد العزيز، إعلم أن عون الله للعبد على قدر النية فمن تمت نيته تم عون الله له وإن نقصت نقص بقدره، وقال بعض السلف: رب عمل صغير تعظمه النية، ورب عمل كبير تصغره النية[3] وحكي عن داود الطائي أنه قال: التزهد التقوى فلو تعلقت كل جوارحه بالدنيا لردته نيته يوماً إلى نية صالحة وكذلك الجاهل بعكس ذلك، وعن سفيان الثوري: كانوا يتعلمون النية قبل ما يتعلمون العمل وما دمت تنوي الخير فأنت بخير[4].

وقال بعض الصالحين: إن نعم الله عليكم أكثر من أن تحصى وإن ذنوبكم أخفى من أن تعلموها ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين يغفر الله لكم ما بين ذلك، وكان بعض الزهاد يطوف على العلماء ويقول: من يدلني على عمل لا أزال فيه عاملاً لله تعالى فإني لا أحب أن تأتي علي ساعة من ليل أو نهار إلا وأنا عامل من عمال الله، فقيل له: قد وجدت حاجتك فاعمل الخير ما استطعت فإذا فترت أو تركته فهم بعمله فإن الهمام بالخير كفاعله[5] فهذه غاية ما نورده في فضل النية.

الإيضاح الثاني
في بيان انقسام الأفعال بالإضافة إلى النية

إعلم أن الأعمال وإن انقسمت أقساماً كثيرة من قول وفعل وحركة وجلب نفع ودفع ضرر وفكر وذكر وغير ذلك مما لا يمكن إحصاؤه فإنها ترجع إلى ثلاثة أقسام: طاعات ومعاص ومباحات، فهذه ثلاثة أقسام نذكرها بمعونة الله تعالى:

---

(١) أخرجه مسلم وأبو داود.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص والنية من حديث عمر بإسناد ضعيف، «إنما يبعث» وأخرجه تمام في فوائده، ولابن ماجه نحوه من حديث أبي هريرة، وفيه ليث بن أبي سليم مختلف فيه، أنظر تخريج الإحياء ٤/٤٥٢.

(٣) أنظر الإحياء ٤/٤٥٣.

(٤) أنظر الإحياء ٤/٤٥٣.

(٥) أنظر الإحياء ٤/٤٥٣.

القسم الأول: المعاصي وهي لا تتغير عن موضوعاتها بالنية فلا ينبغي أن يفهم الجاهل ذلك من عموم قوله ﷺ: «الأعمال بالنيات»(١) ويظن أن المعصية تنقلب طاعة بالنية كالذي يغتاب إنساناً مراعاة لطيب قلب غيره أو يطعم فقيراً من مال غيره ظلماً وعدواناً أو يبني مدرسة أو خانكة أو رباطاً بمال حرام ظلمه على غيره، فهذا كله جهل والنية لا تأثير لها في ذلك فإنها لا تخرج الفعل عن كونه ظلماً وحراماً بل إذا قصد الخير على خلاف مقتضى الشرع كان ذلك شراً آخر فإن عرفه فهو معاند للشرع وإن جهله فهو عاص بجهله إذ طلب العلم فريضة على كل مسلم والخيرات إنما عرف كونها خيرات بالشرع فكيف يمكن أن يكون الشر خيراً هيهات لذلك، وقد قال ﷺ: «لا يعذر الجاهل على الجهل ولا يحل للعالم أن يسكت عن علمه»(٢) وحكي عن أحمد بن حنبل أنه هجر بعض أصحابه فتردد إليه سنين كثيرة فأعرض عنه وصار لا يكلمه فلم يزل يسأله عن تغيره وهو يذكره حتى قال له: بلغني أنك طينت حائط دارك من جانب الشارع فقد أخذت سمك الطين وهو أنملة من شارع المسلمين فلا تصلح لتعلم العلم(٣).

القسم الثاني: الطاعات وهي مرتبطة بالنيات في أصل صحتها وفي تضاعيف فضلها، أما الأصل فنحو أن ينوي بها عبادة الله لا غيره، فإن نوى الرياء صارت معصية، وأما تضاعف الفضل فككثرة النيات الحسنة فإن الطاعة الواحدة يمكن أن ينوي بها خيرات كثيرة فتكون له بكل نية حسنة وثواب إذ كل واحدة منها حسنة ثم تضاعف كل حسنة عشر أمثالها كما وردت به الآية، ومثاله: القعود في المسجد فإنه طاعة ويمكن أن ينوي فيه نيات حتى يصير من فضائل أعمال المتقين ويبلغ به درجات المقربين، وجملتها أمور ثمانية:(٤)

أما أولاً: فتعظيم بيت الله، وأما **ثانياً**: فينتظر الصلاة، وأما **ثالثاً**: فكف السمع والبصر عن المعصية، وأما **رابعاً**: فخلاص عن الشواغل الدنيوية في دخول المسجد، وأما **خامساً**: فالتجرد لذكر الله تعالى، وأما **سادساً**: فإفادة علم بمعروف ونهي عن منكر،

---

(١) تقدم تخريجه قريباً في ص ٣٥٤ التعليق رقم (١).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط وابن السني وأبو نعيم في رياضة المتعلمين من حديث جابر بسند ضعيف دون قوله «لا يعذر الجاهل على الجهل». أنظر تخريج أحاديث الإحياء ٤/٤٥٩، وقال في ١/١٨ كتاب العلم هو من حديث جابر بسند ضعيف. بلفظ لا ينبغي بدل ولا يحل.

(٣) الإحياء ٤/٤٥٨ - ٤٥٩.

(٤) الإحياء ٤/٤٦١.

وأما **سابعاً**: فأن يستفيد أخاً في الله، وأما **ثامناً**: فأن يترك الذنوب حياء من الله تعالى، فهذه طرق تكثر النيات، وقس عليه سائر الطاعات إذ ما من طاعة إلا وهي محتملة للنيات الكثيرة، وإنما يحضر في قلب العبد بقدر جده وجهده في اكتساب الخيرات وإرادته لتضاعف الحسنات والله أعلم[1].

القسم الثالث: المباحات وما من شيء من المباحات إلا ويمكن خروجه عن كونه مباحاً بالنية، وما من شيء من ملابسها إلا ويحتمل نية أو نيات يصير بها من محاسن القربات وينال بها معالى الدرجات، فما أعظم حسرة من يغفل عنها، ويتعاطى تعاطي البهائم المهملة عن شهوة وغفلة ولا ينبغي للعبد أن يستحقر الخطرات ويتهاون بالخطوات واللحظات، فكل ذلك يسأل عنه يوم القيامة لِمَ فعلها؟ وما قصد بها؟، هذا كله في مباح محض لا تشوبه كراهة[2].

ولهذا قال ﷺ في صفة الدنيا: «حرامها عقاب وحلالها حساب»[3] وفي حديث معاذ بن جبل: «إن الرجل ليسأل يوم القيامة عن كل شيء حتى عن كحل عينيه وعن فتات الطيب بيده وعن لمس ثوب أخيه بيده»[4] وفي حديث آخر: «من تطيب لله جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك ومن تطيب لغير الله جاء يوم القيامة وريحه أنتن من الجيفة»[5] ولا شك أن استعمال الطيب مباح لكن لا بد فيه من النية.

سؤال: فإذا كان الطيب مباحاً فكيف يكون مثاباً عليه، وكيف يدخله العقاب **وجوابه**: أنه إذا قصد به الرياء والسمعة والتفاخر والتكاثر والتنعم بلذات الدنيا ويقصد به الرياء إلى غير ذلك فهو حرام لا يجوز استعماله وإن قصد به وجه الله واتباع السنة واقتفاء أثر الرسول ﷺ في ذلك فإنه يستحق عليه الثواب لا محالة لأنه قصد به وجه الله وطلب حسن ثوابه[6].

---

(١) الإحياء ٤/٤٦٢.

(٢) الإحياء ٤/٤٦٢.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب من طريقه موقوفاً على علي بن أبي طالب رضي الله عنه بإسناد منقطع بلفظ وحرامها النار، قال العراقي في تخريج الإحياء ٣/٢٧٤ ولم أجده مرفوعاً.

(٤) قال العراقي في تخريج الإحياء ٤/٤٦٢، لم أجد له إسناداً.

(٥) هو تكملة للحديث الذي قبله من حديث معاذ وتقدم ما قاله العراقي.

(٦) الإحياء ٤/٤٦٢.

الإيضاح الثالث
في بيان مراده ﷺ بقوله :
«نية المؤمن خير من عمله ونية الفاسق شر من عمله»

وفيه معانٍ ثلاثة :

المعنى الأول : أن يكون مراده أن النية لما كان لا أثر للعمل إلا بالنية فهي التي تصلحه ويكون مقبولاً معها فلا جرم كانت النية أفضل من العمل .

المعنى الثاني : أن يكون المراد أن نية المؤمن خير وهي من جملة عمله ، ونية الفاسق شر وهي من جملة عمله وعلى هذا لا وجه للأفضلية على هذا التأويل وإنما الغرض أن نية المؤمن مع عمله خيران ، ونية الفاسق مع عمله شران .

المعنى الثالث : أن يكون المراد أن نية المؤمن خير وهي من جملة عمله ونية الفاسق شر وهي من جملة عمله من غير تفصيل في هذا المعنى كما ترى[1] .

والمختار عندنا تفصيل نشير إليه يكون معنى رابعاً وحاصله أنا نقول كل طاعة فإنها تنتظم من نية وعمل والعمل من جملة الخيرات ولكن النية من جملة الطاعات خير من العمل إذ لكل واحد منهما أثر في المقصود وأثر النية أكثر من أثر العمل فمعناه نية المؤمن من جملة طاعاته خير من عمله الذي هو من جملة طاعاته[2] ، والغرض أن للعبد اختياراً في النية وفي العمل وهما عملان والنية من الجملة وهي أفضلها ، فهذا معناه كما ترى والله أعلم .

---

(١) تقدم تخريج الحديث «نية المؤمن خير من عمله» ص ٣٥٣ من هذا الكتاب ، الحاشية رقم (٢) .
(٢) الإحياء ٤/٤٥٦ .

الباب الثامن

في الصدق وهو من جملة المنجيات

إعلم أن الصدق يطلق على معانٍ ومن المحال حدّه بماهية واحدة لأن مفهوماتها متغايرة فلا يعقل اندراجها تحت ماهية واحدة، وهو يستعمل في خمسة معانٍ صدق في القول، وصدق في النية، وصدق في العزم، وصدق في الوفاء، وصدق في العمل، فإذا عرفت هذا فلنذكر فضيلة الصدق ثم نذكر مراتبه، فهذان تنبيهان.

التنبيه الأول
في بيان فضيلة الصدق

قال الله تعالى: ﴿**رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه**﴾ (الأحزاب: ٢٣)، وقال تعالى: ﴿**فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم**﴾ (محمد: ٢١)، وقال تعالى: ﴿**وكونوا مع الصادقين**﴾ (التوبة: ١١٩)، وقال تعالى: ﴿**أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون**﴾ (البقرة: ١٧٧).

وقال الرسول ﷺ: «إن الصدق يهدي إلى البر والبر يهدي إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإن الكذب يهدي إلى الفجور والفجور يهدي إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً»[١]، ويكفي في فضيلة الصدق أن الصديق مشتق منه وأن الله تعالى وصف الأنبياء في معرض المدح والثناء فقال تعالى: ﴿**واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً**﴾ (مريم: ٤١)، وقال: ﴿**واذكر في**

---

(١) إن الصدق يهدي إلى البر والبر يهدي متفق عليه.
من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

الكتاب **إدريس إنه كان صديقاً نبياً﴾** (مريم : ٥٦) ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما : «أربع من كن فيه فقد ربح ، الصدق والحياء وحسن الخلق والشكر»[١] .

وقال بشر بن الحارث : من عامل الله بالصدق استوحش من الناس ، وقال بعض الحكماء : إجعل الصدق مطيتك والحق سيفك والله تعالى غاية مطلبك ، وقال رجل لحكيم : ما رأيت صادقاً ، فقال له : لو كنت صادقاً عرفت الصادقين ، وقال بعض الزهاد : وجدنا دين الله مبنياً على ثلاثة أركان على : الحق والصدق والعدل ، فالحق على الجوارح والعدل على القلوب ،والصدق على العقول وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : يا داود من صدقني في سريرته صدقته عند المخلوقين في علانيته ،وقال بعضهم : أجمع الفقهاء والعلماء على ثلاث خصال : أنها إذا صحت ففيها النجاة ولا يتم بعضها إلا ببعض ، الإسلام الخالص عن البدعة والهوى والصدق لله تعالى في الأعمال ، وطيب المطعم[٢] .

وقال وهب بن منبه : وجدت على حاشية التوراة اثنين وعشرين حرفاً كان صلحاء بني إسرائيل يجتمعون فيقرأونها : لا كنز أنفع من العمل ، ولا مال أربح من الحلم ، ولا حسب أوضع من الغضب ، ولا قرين أزين من العمل ، ولا رفيق أشين من الجهل ، ولا شرف أعز من التقوى ، ولا كرم أوفر من ترك الهوى ، ولا عمل أفضل من الفكر ، ولا حسنة أعلا من الصبر ، ولا سيئة أخزى من الكبر ، ولا دواء أكبر من الرفق ، ولا داء أوجع من الخرق ، ولا رسول أعدل من الحق ، ولا دليل أنصح من الصدق ، ولا فقر أذل من الطمع ، ولا عناء أشقى من الجمع ، ولا حياة أطيب من الصحة ، ولا معيشة أهنأ من العفة ، ولا عبادة أحسن من الخشوع ، ولا زهد خير من القنوع ، ولا حارس أفضل من الصمت ، ولا غائب أقرب من الموت[٣] .

التنبيه الثاني
في بيان مراتب الصدق

وجملتها خمس :

المرتبة الأولى : صدق اللسان وذلك إنما يكون في الإخبار ، والخبر إما أن يكون

---

(١) الإحياء ٤/٤٥٦ .

(٢) الإحياء ٤/٤٨٠ وما بعدها .

(٣) الإحياء ٤/٤٨١ وما بعدها .

متعلقاً بالماضي أو بالمستقبل وفيه يدخل الوفاء بالوعد والخلف فيه وحق على كل عبد أن يحفظ ألفاظه فلا يتكلم إلا بالصدق وهذا هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها، فمن حفظ لسانه عن الإخبار عن الأشياء على خلاف ما هي عليه فهو صادق، ويتعلق بهذه المرتبة فائدتان:

الأولى منهما: جواز المعاريض عند الحاجة إليها وتقتضيه المصلحة في بعض الأحوال وفي تأديب الصبيان والنسوان وما يجري مجراهم وفي الحذر من الظلمة، فمن اضطر إلى شيء من ذلك فصدقه أن يكون نطقه فيه لله تعالى فيما يأمر الحق به ويقتضيه الدين[1].

الفائدة الثانية: أن يراعي معنى الصدق في ألفاظه التي يناجي بها ربه كقولك: وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض، فإن قلبه إن كان منصرفاً إلى غير الله تعالى مشغولاً بأماني الدنيا وشهواتها فهو كاذب، وكقوله: ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾ (الفاتحة: ٥)، فإن لم يكن صادقاً في ذلك قاصداً وجه الله تعالى فإنه يكون كاذباً[2].

المرتبة الثانية: الصدق في النية والإرادة ويرجع ذلك إلى الإخلاص وهو أن لا يكون له باعث في الحركات والسكنات إلا الله تعالى فإن مازجه شيء من حظوظ النفس بطل صدق النية وصاحبه يجوز أن يسمى كاذباً.

المرتبة الثالثة: صدق العزيمة فإن الإنسان قد يقدم العزم على العمل فيقول في نفسه: إن رزقني الله مالاً تصدقت به أو ببعضه أو إن لقيت عدواً في سبيل الله قاتلته ولا أبالي وإن قتلت، وإن أعطاني الله ولاية عدلت فيها ولا أعصى الله تعالى بظلم أو ميل إلى خلق، فهذه العزيمة قد تصادفها عزيمة من نفسه حازمة، وقد يكون في عزمه نوع ميل وتردد فيكون مضاداً للعزيمة وإن كان الصدق ها هنا عبارة عن التمام والقوة كما يقال لفلان شهوة صادقة، ويقال للمريض شهوة كاذبة فقد يطلق الصدق ويراد به هذا المعنى[3].

المرتبة الرابعة: الوفاء بالعزم فإن النفس قد تستحوذ بالعزم في الحال إذ لا مشقة في الوعد والعزم فإن المؤنة فيه خفيفة فإذا حقت الحقائق وحصل التمكن وهاجت

---

(١) الإحياء ٤/٤٨٢.
(٢) الإحياء ٤/٤٨٢.
(٣) الإحياء ٤/٤٨٤.

الشهوات انحلت العزيمة وغلبت الشهوة ولم يتفق الوفاء بالعزم وهذا يضاد الصدق فيه ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ **رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه** ﴾ (الأحزاب : ٢٣) ، ووقف رسول الله ﷺ على مصعب بن عمير وقد سقط على وجهه يوم أحد شهيداً وكان صاحب لواء رسول الله ﷺ[1] فقال ﷺ : ﴿ **رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر** ﴾ (الأحزاب : ٢٣) .

المرتبة الخامسة : الصدق في الأعمال وهو أن يجتهد حتى لا تدل أعماله الظاهرة على أمر في باطنه لا يتصف هو به إلا بأن يترك الأعمال ولكن بأن يستجر الباطن إلى تصديق الظاهر وهذا يخالف ما ذكرناه من قبل في المراتب السابقة ، فهذه أعمال تعرب بلسان الحال عن الباطن إعراباً هو فيه كاذب وهو مطالب بالصدق في الأعمال وكذلك فإن الإنسان قد يمشي على هيئة السكون والوقار وليس باطنه موصوفاً بذلك الوقار ، فهذا غير صادق في عمله وإن لم يكن ملتفتاً إلى الخلق ولا ينجو من هذا إلا باستواء السريرة والعلانية وأن يكون في باطنه مثل ظاهره أو خيراً من ظاهره ، ومن خيفة ذلك اختار بعضهم تشويه الظاهر ولبس ثياب الأشرار كيلا يظن به الخير بسبب ظاهره فيكون كاذباً في دلالة الظاهر على الباطن ، فهذا ما أردنا ذكره في حقائق الصدق وأسراره والله الموفق للصواب[2] .

---

(١) حديث وقف رسول الله ﷺ يوم أحد على مصعب بن عمير وقد سقط على وجهه شهيداً وكان صاحب لواء رسول الله ﷺ فقال ﷺ : ﴿ **رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه** . . . ﴾ الآية. أخرجه الحاكم وصححه وتعقبه الذهبي من حديث أبي هريرة وأبي ذر وأخرجه البيهقي في الدلائل من حديثهما.

(٢) الإحياء ٤ / ٤٨٥ وما بعدها.

الباب التاسع

في الإخلاص من المنجيات

إعلم أن كل شيء يتصور أن يشوبه غيره فإذا صفا عما يشوبه وخلص منه كان خالصاً ويسمى الفعل المخلص المصفى إخلاصاً قال الله تعالى : ﴿ **من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين** ﴾ (النحل : ٦٦) ، وخلوص اللبن بأن لا يكون فيه شوب من الفرث والدم ومن كل ما يمكن أن يمتزج به ، والإخلاص يضاد الإشراك فمن ليس مخلصاً فهو مشرك ، فإذا تمهدت هذه القاعدة فلنذكر أقاويل العلماء في حقيقة الإخلاص ثم نذكر فضل الإخلاص ثم نذكر حكم العمل المشوب فهذه بيانات ثلاثة نفصلها ونذكر ما فيها بمعونة الله تعالى(١) .

البيان الأول
في ذكر أقاويل العلماء في ماهية الإخلاص

وإنما أوردناه ليطلع الناظر على أن الإخلاص بحر عميق دقيق غامض إلا على من وفقه الله ولطف به بالألطاف الخفية فليكن العبد على ثقة من أمره وبصيرة من حاله .

فقال **الأول**: الإخلاص فقد رؤية الإخلاص لأن كل من شاهد في إخلاصه الإخلاص فقد احتاج إخلاصه إلى إخلاص ، وحاصل هذه المقالة الإشارة إلى تصفية العمل عن العجب بالفعل فإن الإلتفات إلى الإخلاص والنظر إليه عجب والعجب من جملة الآفات والخالص ما صفا عن جميع الآفات ، فهذا القائل قد تعرض لآفة واحدة .

---

(١) الإحياء ٤/ ٤٦٨ .

وقال **الثاني** : الإخلاص أن يكون سكون العبد وحركته كلها لله وهذه كلمة جامعة محيطة بالغرض المقصود(١) .

وقال **الثالث** : الإخلاص صدق النية مع الله عز وجل ، وهذا قريب من الذي قبله فإن كل واحد منهما قد جعل الأعمال لله تعالى ، وهذا كله هو الغرض المقصود فإنها متى كانت لله تعالى فقد فرغ الأمر كله لله .

وقال **الرابع** : الإخلاص هو أن لا يريد صاحبه عليه عوضاً في الدارين جميعاً ، وفي هذا إشارة إلى أن حظوظ النفس وإيثار مرادها آفة الإخلاص عاجلاً وآجلاً والعمل لأجل تنعم النفس بالشهوات في الجنة معلول ، بل الحقيقة أن لا يراد بالعمل إلا وجه الله ، ولهذا قيل لبعضهم : أي شيء أشد على النفس؟ ، فقال : الإخلاص إذ ليس لها فيه نصيب(٢) .

وقال **الخامس** : الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق ، وهذا إشارة إلى آفة الرياء وهي مهلكة للأعمال كما مر تقريره .

وقال **السادس** : الإخلاص هو أن لا يطلع على العمل شيطان فيفسده ولا ملك فيكتبه ، وهذا إشارة إلى مجرد الإخفاء وأنه هو الإخلاص عند هذا القائل لأن كل ما ظهر للخلق خرج عن الإخلاص .

القول **السابع** : الإخلاص ما استتر عن الخلائق وصفا عن العلائق وهذا جمع للمقاصد لأنه يتناول أموراً هي الأصل في الإخلاص .

القول **الثامن** : الإخلاص هو إخراج الخلق عن معاملة الرب وهذا أيضاً فيه إشارة إلى إخراجه يعني العمل عن الرياء وجعله لله لا يشوبه شائب .

القول **التاسع** : الإخلاص الذي يعمل لله لا يحب أن يحمد عليه ، وهذا أيضاً فيه تعرض لبراءته عن الرياء ، وإنما خصه بذكر الحمد لأنه من أقوى الأسباب المشوشة للإخلاص ، وهذا يحكى عن عيسى صلوات الله عليه لما سأله الحواريون عن الإخلاص ، ويحكى عن الجنيد أنه قال : الإخلاص من تصفية الأعمال عن الكدورات ، وقال الفضيل : ترك العمل من أجل الناس رياء والعمل من أجل الناس شرك ،

---

(١) الإحياء ٤/٤٧٤ وما بعدها.

(٢) الإحياء ٤/٤٧٥ .

والإخلاص أن يعافيك الله منهما، وقال بعضهم: الإخلاص دوام المراقبة ونسيان الحظوظ كلها[1].

وهذا فيه البيان الشافي والغرض الكافي، وأعجب الأقوال وأحسنها إحاطة بالغرض المقصود ما أُثر عن صاحب الشريعة ﷺ إذ كان معلم الخير والمحيط بالأسرار الدينية والمستولي على معرفة الحقائق الإلاهية حيث سئل عن الإخلاص فقال: «أن تقول ربي الله ثم تستقيم كما أُمرت»[2].

فقد أشار بهذه المقالة إلى إحراز التوحيد إذ هو الأصل في الإخلاص وإلى الإستقامة على الأمر وهو الأصل في إخلاص العمل عن كل ما يشوبه فهذه هي الغاية في معرفة حقيقة الإخلاص.

البيان الثاني
في ذكر درجات الشوائب والآفات المكدرة للإخلاص

إعلم أن الآفات المشوشة للإخلاص بعضها جلية وبعضها خفية وبعضها ضعيفة مع الجلاء وبعضها قوية مع الخفاء، وجملة ما نشير إليه من ذلك درجات أربع:

الدرجة الأولى: الرياء وهي أظهر مشوشات الإخلاص فنقول: الشيطان يدخل هذه الآفة على المصلي مهما كان مخلصاً في صلاته ثم نظر إليه جماعة أو دخل عليه داخل بأن يقول له: حسن صلاتك حتى ينظر إليك هذا الحاضر بعين الوقار والصلاح ولا يزدريك ولا يغتابك فتخشع جوارحه وتسكن أطرافه ويحسن صلاته، وهذا هو الرياء الظاهر ولا يخفى ذلك على أهل الفطانة.

الدرجة الثانية: إن يكون السالك لطريق الآخرة قد فهم هذه الآفة وأخذ منها حذره فصار لا يطيع الشيطان فيها بحال ولا يلتفت ويستمر في صلاته كما كان فيأتيه في معرض الخير فيقول له: أنت متبوع مقتدى به ومنظور إليك وما تفعله يؤثر عنك ويتأسى بك فيكون لك ثواب أعمالهم إن أحسنت وعليك الوزر إن أسأت فأحسن صلاتك بين

---

(١) الإحياء ٤/٤٧٥.

(٢) قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ٤/٤٧٥ لم أره بهذا اللفظ. وللترمذي وصححه وابن ماجه من حديث سفيان بن عبدالله الثقفي قلت: يا رسول الله حدثني بأمر أعتصم به قال: «قل ربي الله ثم استقم» وهو عند مسلم بلفظ قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك قال «قل آمنت بالله ثم استقم».

يديه فعساه يقتدي بك في الخشوع وتحسين العبادة، فهذا أغمض من الأول وقد ينخدع به من لا ينخدع بالأول[1].

الدرجة الثالثة: وهي أدق مما قبلها أن يحدث الإنسان نفسه في ذلك ويتنبه لكيد الشيطان ويعلم أن مخالفته بين الخلوة والمشاهدة للغير هو محض الرياء ويتحقق أن الإخلاص أن تكون صلاته في الخلوة مثل صلاته في الملا ويستحي من نفسه ومن ربه أن يتخشع لمشاهدة خلقه تخشعاً زائداً على عادته فيقبل على نفسه في الخلوة ويحسن صلاته في الخلوة على الوجه الذي يرتضيها في الملأ ويصلي في الملأ أيضاً كذلك، فهذا أيضاً في الرياء غامض لأنه حسن صلاته في الخلوة ليحسن صلاته في الملأ فلا يكون قد فرق بينهما بالتفاته في الخلوة والملأ إلى الخلق بل الإخلاص أن تكون مشاهدة البهائم لصلاته ومشاهدة الخلق واحدة فكأن هذا لم تسمح نفسه بإساءة الصلاة بين أظهر الناس ثم يستحي من نفسه أن يكون في صورة المرائين، فحاصل الأمر الخطر في هذا أنه حسن صلاته في الخلاء ليحسنها في الملأ، وهذا من المكايد الخفية للشيطان[2]

الدرجة الرابعة: وهي أدق وأخفى، وحاصلها أن ينظر إليه الناس وهو في صلاته فيعجز الشيطان أن يقول له: اخشع لأجلهم فإنه قد عرف أنه يفطن لذلك فعند هذا يقول له الشيطان: تفكر في عظمه الله وجلاله ومن أنت واقف بين يديه واستح من أن ينظر الله إليك وإلى قلبك وهو غافل عنه فيحضر بذلك قلبه وتخشع جوارحه ويظن أن ذلك عين الإخلاص، وهو عين المكر والخداع فإن خشوعه لو كان لنظره إلى جلال الله تعالى لكانت هذه الخطرة ملازمة في الخلوة ولكان لا يختص خطورها بحالة حضور غيره، وعلامة الأمن من هذه الآفة أن يكون هذا الخاطر ممن يألفه في الخلوة كما يألفه في الملأ، فما دام يفرق بين أحواله بين مشاهدة إنسان ومشاهدة بهيمة فهو خارج عن صفو الإخلاص غير سالم من خفي الرياء وهو أخفى في قلب ابن آدم من دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء ولا يكاد يسلم من كيد الشيطان إلا من دق نظره وسعد بعصمة الله تعالى وتوفيقه وحسن هدايته لأن الشيطان مستمر في الإغواء للخلق والاستزلال لهم عن طريق الجنة في كل حركة من الحركات فنستعيذ بالله من كيده[3].

---

(١) الإحياء ٤/٤٧٥.

(٢) الإحياء ٤/٤٧٦.

(٣) الإحياء ٤/٤٧٦.

البيان الثالث
في ذكر فضيلة الإخلاص

قال الله تعالى: ﴿**وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين**﴾ (البينة: ٥) وقال تعالى: ﴿**ألا لله الدين الخالص**﴾ (الزمر: ٣) وقال تعالى: ﴿**إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله**﴾ (النساء: ١٤٦) وقال تعالى: ﴿**فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً**﴾ (الكهف: ١١٠) نزلت فيمن يعمل لله ويحب أن يحمد عليه[١] وقال ﷺ يقول الله تعالى: «الإخلاص سر من سري أودعه قلب من أحببت من عبادي»[٢] وقال أمير المؤمنين كرم الله وجهه: لا تهتموا لقلة العمل واهتموا للقبول فإن رسول الله ﷺ قال لمعاذ بن جبل: «أخلص العمل يجزيك منه القليل»[٣]، وقال ﷺ: «ما من عبد أخلص لله تعالى أربعين يوماً إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»[٤].

وقال ﷺ: «يسئل يوم القيامة ثلاثة: رجل آتاه الله العلم فيقول الله: ماذا صنعت فيما علمت؟ فيقول: يارب كنت أقوم آناء الليل والنهار، فيقول الله تعالى: كذبت وتقول الملائكة: كذبت بل أردت أن يقال فلان عالم ألا فقد قيل ذلك، ورجل آتاه الله مالا فيقول الله تعالى: قد أنعمت عليك فماذا صنعت؟ فيقول: يارب كنت أتصدق آناء الليل والنهار، فيقول الله سبحانه: كذبت وتقول الملائكة: كذبت بل أردت أن يقال فلان جواد ألا فقد قيل ذلك، ورجل قتل في سبيل الله فيقول الله تعالى: ماذا صنعت؟ فيقول: يارب أمرت بالجهاد فقاتلت حتى قتلت فيقول الله تعالى: كذبت وتقول الملائكة: كذبت بل أردت أن يقال فلان شجاع ألا فقد قيل[٥].

قال أبو هريرة ثم وضع رسول الله ﷺ يده على فخذي وقال: يا أبا هريرة أولئك أول خلق يعذبهم الله في نار جهنم يوم القيامة[٦] فدخل راوي الحديث على معاوية وروى فبكى

---

(١) الإحياء ٤/٤٧٦.

(٢) رواه أبو القاسم القشيري في الرسالة من حديث علي بن أبي طالب بسند ضعيف ورواه القزويني في جزء من سلسلاته وفيه متروكان. أنظر تخريج الإحياء ٤/٤٦٨.

(٣) أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث معاذ بإسناد منقطع.

(٤) أخرجه ابن عدي ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات عن أبي موسى.

(٥) يسئل يوم القيامة ثلاثة رجل أتاه الله العلم. رواه مسلم وأحمد والنسائي عن أبي هريرة.

(٦) ثم وضع رسول الله يده على فخذه وقال أولئك هم أول خلق يعذب في نار جهنم. (هذا جزء من الحديث المتقدم قبله.

حتى كادت تخرج نفسه(١) ثم قال: صدق الله: **﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها﴾** الآية (هود: ١٥).

وكان معروف الكرخي يحدث نفسه ويقول: يا نفسي أخلصي تُخَلَّصِي، وقال بعض الزهاد: المخلص من يكتم حسناته كما يكتم سيئاته، وقال بعضهم: طوبى لمن صحت له خطوة واحدة لا يريد بها إلا وجه الله تعالى، وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري: من خلصت نيته كفاه الله ما بينه وبين الناس، وكتب بعض الأولياء إلى أخ له فقال: أخلص النية في أعمالك يكفك القليل من العمل، وقال أبو أيوب: تخليص النيات على العمال أشد عليهم من جميع الأعمال(٢).

وحكي أن رجلاً كان يخرج في زي النساء ويخص موضعاً فيه عرس أو مأتم يجتمع فيه النساء فاتفق أنه حضر يوماً موضعاً فيه مجمع للنساء فسرقت درة فصاحوا أن أغلقوا الباب حتى نفتش فكانوا يفتشون واحدة واحدة حتى بلغت النوبة إليه وإلى امرأة فدعا الله تعالى مخلصاً من قلبه وقال: إن نجوت من هذه الفضيحة فأنا لا اعود إلى مثل هذا فوجدت الدرة مع تلك المرأة فصاحوا أن أطلقوا الحرة فقد وجدنا الدرة(٣).

وقال بعضهم: إخلاص ساعة فيه نجاة الأبد ولكن الإخلاص عزيز، وقال بعض الحكماء: مراد الله من عمل الخلائق كلها الإخلاص فقط، وقد تم غرضنا من الإخلاص وفضله.

---

(٣) الإحياء ٤/ ٤٧٠ ـ ٤٧١.

(٢) الإحياء ٤/ ٤٧١.

(٣) الإحياء ٤/ ٤٧٠.

الباب العاشر

من المنجيات في التفكر

وهو الذي وقع به الاختتام من المقالة الثالثة من ذكر الصفات المنجيات التي يكون بحصولها الفوز بجوار الله تعالى في دار كرامته وينجو من عقابه وسخطه، وقبل الخوض فيما نريده من خواصه وأسراره نذكر ماهية التفكر.

إعلم أن التفكر هو مبدأ الخيرات ومفتاح لها فالنظر والفكر والتأمل والتدبر والروية كلها متقاربة خلا أن النظر والفكر إنما يطلقان من جهة أن فيهما معرفة ثالثة، فمن ليس يطلب هذه المعرفة لا يسمى ناظراً ولا متفكراً وباقي الأسماء في الفكر مترادفة، والفكر ما أحرز علوماً خمسة: **أولها**: العلم بالمقدمات الحاصلة في القلب فإنها أصل لتحصيل العلوم بالفكر، **وثانيها**: إحراز العلم بترتيبها أعني أن يكون بعضها عقيب بعض ليحصل الغرض المطلوب من الإنتاج للفكر[١]، **وثالثها**: العلم بلزوم المطلوب عند تلك المقدمات فإنه لا ينفك عنها بحال، **ورابعها**: العلم بصحة ذلك الترتيب فإنه ما لم يحصل العلم بصحة الترتيب والنظام فلا ثمرة هناك للفكر، **وخامسها**: العلم بأن كل ما لزم عن المطلوب الصحيح فهو صحيح، فمتى حصلت هذه العلوم الخمسة في كل فكر ونظر فإنه يوصل إلى العلم لا محالة، فإذا كانت المقدمات كلها يقينية فالنتيجة يقينية لا محالة، وإن كانت المقدمات ظنية أو بعضها كانت النتيجة ظنية، فالعلم والظن حاصلان مهما حصلت هذه المقدمات لا محالة، فإذا عرفت هذا فلنذكر فضيلة الفكر ثم نذكر مجاريه، فهذان تقريران[٢].

---

(١) الإحياء ٤/٤٧١.

(٢) الإحياء ٤/٥٢٥.

التقرير الأول
في بيان فضيلة الفكر

إعلم أن التفكر هو مفتاح الأنوار الإلآهية ومبدأ البصيرة في إحراز العلوم الدينية وهو شبكة العلوم ومقتنص الحقائق، وقد ورد الشرع بالثناء عليه كما قيل: «**تفكر ساعة** أفضل من عبادة ستين سنة، وقد أمر الله بالتفكر في كتابه الكريم فقال في معرض المدح والثناء: ﴿**ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً**﴾ (آل عمران: ١٩١)، قال ابن عباس رضي الله عنه: إن قوماً تفكروا في الله عز وجل فقال الرسول ﷺ: «تفكروا في خلق الله تعالى ولا تفكروا في ذاته فإنكم لن تقدروا قدره»[١]، وعن الرسول ﷺ: «إنه خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرون فقال: مالكم لا تتكلمون؟ فقالوا: نتفكر في خلق الله، فقال: فكذلك فافعلوا تفكروا في خلقه ولا تتفكروا فيه فإن بهذا المغرب أرضاً بيضاء نورها بياضها أو بياضها نورها مسيرة الشمس أربعين يوماً بها خلق من خلق الله سبحانه لم يعصوا الله طرفة عين قالوا: يا رسول الله فأين الشيطان منهم؟ قال: ما يدرون خلق الشيطان أم لا، قالوا: من ولد آدم؟ قال: لا يدرون خلق آدم أم لا»[٢].

وعن عطاء قال: انطلقت أنا وعبد الله بن عمير إلى عائشة رضي الله عنها فقلنا لها: أخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله، قال: فبكت وقالت: كل أمر رسول الله كان عجباً أتاني في ليلتي حتى مس صدره صدري قال: ذريني أتعبد لربي فقام إلى القربة فتوضأ منها ثم قام يصلي فبكى حتى بل لحيته ثم سجد حتى بل الأرض ثم اضطجع على جنبه حتى أتى بلال يؤذنه لصلاة الصبح، فقال: يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: ويحك يا بلال وما يمنعني من أن أبكي وقد أنزل الله علي في هذه الليلة: ﴿**إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب**﴾ (آل عمران: ١٩٠) ثم قال: ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها[٣]، فقيل

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية بإسناد ضعيف، ورواه الأصبهاني في الترغيب والترهيب من وجه آخر أصح منه ورواه الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشُعب من حديث ابن عمر وقال إسناده فيه نظر، قال العراقي في تخريج أحاديث ٥٢٦/٤ فيه الوازع بن نافع متروك وأسانيده كلها ضعيفة. وأبو الشيخ العظمة ٢١٦/١.

(٢) قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ٥٢٦/٤ رويناه في جزء من حديث عبدالله بن سلام.

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه من حديث عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء به. وهو عند مسلم من رواية عروة عن عائشة مقتصراً، وأخرجه أبو الشيخ في أخلاق النبي ﷺ من وجه آخر ضعيف، لأن فيه أبو جناب واسمه يحيى بن أبي حبة ضعفه الجمهور ورواه ابن الجوزي في الوفاء. أنظر تخريج الإحياء ١٠١/٤، ٥٢٧.

للأوزاعي: ما غاية التفكر فيهن؟ قال: تقرأهن وتعقلهن[1].

وعن أم أبي ذر بعد موت أبي ذر سئلت عن حالة ابنها فقالت: كان نهاره أجمع في ناحية يتفكر، وعن الحسن البصري قال: تفكر ساعة خير من قيام ليلة، وعن الفضيل بن عياض قال: التفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك، وقيل لإبراهيم بن أدهم: إنك تطيل الفكر فقال: الفكر مخ العقل، وعن طاووس قال الحواريون لعيسى ابن مريم عليه السلام: يا روح الله هل على الأرض مثلك؟ قال: نعم من كان منطقه ذكراً وصمته فكراً ونظره عبرة فإنه مثلي[2].

وقال الحسن: من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو ومن لم يكن سكوته فكراً فهو سهو ومن لم يكن نظره اعتباراً فهو لهو[3]، وقال ﷺ: «أعطوا أعينكم حظها من العبادة، قالوا: يا رسول الله وما حظها من العبادة؟ قال: النظر في المصحف والتفكر فيه والاعتبار عند عجائبه[4] وقال بعض الحكماء: لو تطالعت قلوب المتقين بفكرها إلى ما قد ذخر في حجب الغيوب من خير الآخرة لم يصف لهم في الدنيا عيش ولم تقر لهم في الدنيا عين[5].

وقال عمر بن عبد العزيز: الفكرة في نعم الله عز وجل من أفضل العبادة وعن ابن عباس: ركعتان مقتصرتان في تفكر خير من قيام ليلة بلا قلب، وقال بشر: لو تفكر الناس في عظمة الله ما عصوا الله، وقال بعض الحكماء: عودوا عيونكم البكاء وقلوبكم التفكر وقال: التفكر في الدنيا حجاب عن الآخرة وعقوبة لأهل الولاية، والفكر في الآخرة يورث الحكمة ويحيي القلوب[6].

التقرير الثاني
في بيان مجاري الفكر

إعلم أن مجاري الفكر كثيرة وليس يخلو حاله إما أن يكون جارياً في أمر الدين أو في غير ذلك، فأما ما يتعلق بغير الدين فلا حاجة بنا إلى ذكره والذي نتعرض لذكره إنما هو

---

(١) الإحياء ٤/٥٢٧.
(٢) الإحياء ٤/٥٢٧.
(٣) الإحياء ٤/٥٢٧.
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في التفكر ومن طريقه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب العظمة ١/٢٢٦ بإسناد ضعيف يراجع
(٥) التعليق. تخريج الإحياء ٤/٥٢٧.
(٦) الإحياء ٤/٥٢٧.

ما يتعلق بأمر الدين ، ثم إما أن يكون متعلقاً بالنظر في جلال الله أو يكون متعلقاً بأفعال العبد، فهذان قسمان يكونان متعلقين للفكر نذكر ما يتعلق بكل واحد منهما ونبدأ بما يتعلق بالله [1].

القسم الأول: في التفكر في جلال الله وعظمته وكبريائه إعلم أن عقول العقلاء وأفهام الفضلاء لا تقدر على الغوص في بحار الجلال والكبرياء وهي عاجزة عن الوصول والإحاطة بكنه حقائق الصفات الحسنى وكيف تقوى القوة البشرية على مثل هذا التفتيش وأنى تطيق نور الشمس أبصار الخفافيش ، ولنا فيه مقامان :

المقام الأول: من التفكر في ذات الله تعالى ومعاني صفاته وأسمائه وهذا مما منع منه العقل والشرع فأما الشرع فقوله : «تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذاته»[2] وأما العقول فلأنها تتحير فلا تطيق مد النظر إليه بل سائر الخلق أحوال أبصارهم بالإضافة إلى جلال الله وكبريائه كحال بصر الخفاش بالإضافة إلى نور الشمس فإنها لا تطيقه البتة بل يختفي نهاراً ويبرز ليلاً وهكذا حال الإنسان بالنسبة إلى ذاته وكنه عظمته كالتحديق إلى قرص الشمس فإنه يورث التغير في العين ويكسب العمش فيها ، فهكذا النظر في ذات الله تعالى يورث الحيرة والدهشة واضطراب العقل[3].

فالصواب أن لا يتعرض لمجاري الفكر في ذات الله تعالى وصفاته فإن أكثر العقول لا تحتمله بل القدر اليسير الذي صرح به العلماء وهو أن الله تعالى مختص بالصفات الإلٰهية كالقادرية والعالمية والحيية وسائر الصفات الذاتية وأنه تعالى مقدس عن المكان والجهة ومنزه عن الحصول في الأحياز والأماكن وأنه ليس داخل العالم ولا خارجه ولا متصل بالعالم ولا منفصل عنه وقد اعتاص فهم هذا على كثير حتى ظنوا من سوء نظرهم واعتقادهم أنه لا يعقل إلا ما كان مختصاً بالأعضاء والجوارح لما لم يشاهدوا سوى ذلك في العالم فظنوا لحمقهم وتجاهلهم أن الجلال والعظمة والكبرياء في هذه الأعضاء فالوهم يتقاضى منهم ذلك وخلقت الطباع مطيعة للأوهام وبنوا هذا على ما يشاهدون من أحوالهم وما شعروا أن الجلال والكبرياء غير ما توهموه بظنونهم وأوهامهم فإن البرهان العقلي قد قام على ذلك .

---

(١) الإحياء ٤/ ٥٣٠ ـ ٥٣١ .

(٢) أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في العظمة ١/ ٢١٥ يراجع التعليق وتقدم في صفحة ٣٧٢ من تخريجه وهذا جزء منه، أنظر كشف الخفاء ١/ ٣٧١ .

(٣) الإحياء ٤/ ٥٣٨ ـ ٥٣٩ .

ولما كان النظر في ذات الله خطراً من الوجه الذي ذكرناه اقتضى أدب العقل والشرع أن لا نتعرض لمجاري النظر فيه ونعدل إلى المقام الثاني لما فيه من السلامة عن هذا الخطر العظيم.

المقام الثاني: وهو النظر في أفعاله وعجائب صنعه وبدائع خلقه فإنها دالة على جلاله وكبريائه وتقدسه وتعاليه وتدل على كمال علمه وحكمته وعلى نفوذ قدرته ومشيئته، فكل ما في الوجود مما سوى الله تعالى مما لا يقدر عليه غيره فهو فعل من أفعاله وخلقه وكل ذرة من الذرات من جوهر وعرض وغير ذلك مما يتركب منهما ففيه عجائب وغرائب تظهر بها حكمة الله وقدرته وجلاله وعظمته، وإحصاء ذلك وحصره غير ممكن لأنه لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن ينفد عشر العشر من ذلك[1].

ولكنا نشير إلى جمل ليكون ذلك لما عداه كالمثال فنقول: الموجودات المخلوقة منقسمة إلى ما لا يعرف أصلها فلا يمكننا التفكر فيها وكم من الموجودات التي لا نعملها كما قال تعالى: ﴿ **سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون** ﴾ (يونس: ٣٦) وإلى ما نعرف أصلها وجملتها ولا نعرف تفاصيلها فلا يمكن أن نتفكر في تفاصيلها ثم إنها منقسمة إلى ما ندركه بحس البصر وإلى ما لا ندركه بالبصر، أما الذي لا يدرك بالبصر فنحو الملائكة والجن، والشياطين، والعرش والكرسي ومجال الفكر فيها مما يغمض[2].

فلنعد إلى الأقرب إلى الأفهام وهي المدركات بحس البصر وهذا نحو السماء والأرض وما بينهما فالسماوات مشاهدة بكواكبها وشمسها وقمرها وحركتها ودورانها في طلوعها وغروبها والأرض مشاهدة بما فيها من جبالها ومعادنها وأنهارها وبحارها وحيوانها ونباتها وما بين السماء والأرض وهو الجو مدرك بغيومها وأمطارها وثلوجها ورعودها وبروقها وصواعقها وشهبها وعواصف ريحها، فهذه هي الأجناس المدركة من السماوات والأرض وما بينهما.

ثم إنها تنقسم إلى أقسام وتشتمل على عجائب جمة لا يحيط بحصرها إلا الله تعالى ومن أعجبها في الحكمة وأدخلها في الصنعة خلق الإنسان فإنه مخلوق من النطفة وأقرب شيء إليك نفسك. فيا من هو غافل عن نفسه وجاهل بها كيف تطمع في معرفة غيرها وقد

---

(١) الإحياء ٤/٥٣٩.

(٢) الإحياء نفس المصدر.

أمرك الله بالتدبير لكتابه الكريم؟ ، فانظر الآن إلى هذه النطفة وهي قطرة من الماء قذرة مهينة لو تركت ساعة ليضربها الهوى فسدت وأنتنت كيف أخرجها الله تعالى من الصلب والترائب وكيف جمع بين الذكر والأنثى وألقى بينهما الألفة والمحبة في قلوبهم؟ وكيف قادتهم سلسلة المحبة والشهوة إلى الإجتماع؟[1] .

وكيف استحلب دم الحيض من أعماق العروق وجمعها في الرحم ، ثم كون خلق المولود من النطفة وسقاه بدم الحيض وغذاه به حتى أنماه وتربى وكبر ، وكيف جعل النطفة البيضاء مشرقة علقة حمراء ثم صيّرها مضغة؟ ، ثم كيف قسم أجزاء النطفة وهي متشابهة متساوية إلى العظام والأعصاب والعروق والأوتار واللحم؟ ، ثم كيف ركب من اللحم الأعصاب والعروق والأعضاء الظاهرة فدور الرأس وشق السمع والبصر والأنف والفم وسائر المنافذ ، ثم مد اليد والرجل وشرخ رؤوسها بالأصابع ثم قسم الأصابع بالأنامل؟ ، ثم كيف ركب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والطحال والرئة والرحم والمثانة والأمعاء كل واحد منها على شكل مخصوص ومقدار معلوم .

ثم كيف قسم كل عضو من هذه الأعضاء بأقسام أخر فركب العين من سبع طبقات لكل طبقة وصف مخصوص وهيئة مخصوصة لو فقدت طبقة منها أو زالت صفة من صفاتها بطلت العين عن الإبصار؟ ، فلو ذهبنا نَصِف ما في آحاد هذه الأعضاء من العجائب والآيات لانقضت فيه الأعمار ، ثم انظر الآن إلى العظام وهي أجسام قوية صلبة كيف خلقها من نطفة نحيفة رقيقة ثم جعلها قواماً للبدن وعماداً له ثم قدرها مقادير مختلفة وأشكالاً مختلفة فمنها صغير ومنها كبير وطويل ومستدير ومجوف ومصمت وعريض ودقيق ، ولما كان الإنسان محتاجاً إلى الحركة بجملة بدنه وببعض أعضائه للتردد في حاجاته ولم يجعل عظمه عظماً بل عظاماً كثيرة بينها مفاصل حتى تتيسر الحركة وقدر شكل كل واحد منها على وفق الحركة المطلوبة ثم وصل مفاصلها وربط بعضها إلى بعض بأوتار فهذه نبذة من عجائب خلقتك التي لا يمكن استقصاؤها وموضعها كتب التشريح[2].

ثم انظر إلى الأرض كيف جعلها فراشاً وقراراً ، ثم انظر إلى السماء كيف سواها سقفاً مرفوعاً ، وهكذا سائر العجائب المخلوقة من النبات والحيوانات والجبال وغير ذلك من المخلوقات والمصنوعات ، فسبحان من أنشأها بحكمته ودبرها بقدرته ولنقبض ها هنا

---

(١) الإحياء ٤/٥٤١ ـ ٥٤٣.

(٢) الإحياء ٤/٥٤٦.

أعنة الكلام في هذا النمط فإنه بحر لا ساحل له وجو لا غاية لمتنفسه، ونسأل الله العظيم أن يرزقنا حسن البصيرة للتفكر في عجائب الحكمة.

القسم الثاني: في التفكر في صفات نفسه وأفعاله ليكون على ثقة من أمره وحقيقة من حاله وإحراز النجاة لنفسه فيعرف الطاعة ليكون آتياً بها ويتحقق المعصية ليكون مجتنباً لها ويميز الأمور المهلكة فيحذر من التلبس بها ويحيط بالصفات المنجية ليكون محرزاً لها، فإذاً جملة ما يشتمل عليه هذا القسم أنواع أربعة نفصلها بمعونة الله تعالى:

النوع الأول: في المعاصي، وإنما بدأنا بها لما فيها من الخطر فينبغي للإنسان أن يكون مكثراً للتفكر في أحوال نفسه فينظر في حاله على الجملة ثم في جوارحه هل هو في الحال ملابس للمعصية فيتركها، أو لابسها بالأمس فيتداركها بالندم والتوبة، أو هو متعرض لها في نهاره فيستعد للإحتراز والتباعد عنها فينظر في اللسان وما فيه من التعرض للكذب والغيبة والنميمة وتزكية النفس والإستهزاء والمماراة والخوض في الأمور الباطلة إلى غير ذلك من المكارة، ويتفكر في سمعه أنه لا يصغي إلى الكذب واللهو وفضول الكلام، وينظر في عينيه وأنه لا يطلع على عورات المسلمين ولا يرى شيئاً من المحرمات.

ثم ينظر في بطنه وأنه لا يدخله إلا الحلال ولا يملأه من أكل السحت والحرام فإن ذلك كله معصية عند الله تعالى ومقو للشهوة التي هي سلاح الشيطان، ثم يتفكر في مطعمه وملبسه ومسكنه وما يكتسبه، ويتفكر في طرق الحرام ومداخله ويحترز منها غاية الإحتراز وأن أكل الحلال هو أساس العبادات، فهكذا يكون تفكره في أحواله فمهما حصل التفكر في هذه الأمور والمجانبة للمحذورات منها فقد حفظ عما ذكرناه[1].

النوع الثاني: في الطاعات فينظر أولاً، في الفرائض المكتوبة عليه أنه كيف يؤديها وكيف يحرسها عن النقصان والتقصير وكيف يجبر نقصانها إذا حصل بكثرة النوافل ثم يرجع بعد ذلك إلى أعضائه فيتفقدها عضواً عضواً ويتفكر في الأفعال المتعلقة بها فيقول في نفسه: العين خلقت للنظر في ملكوت السماوات والأرض وغيره ويستعملها في طاعة الله تعالى، وينظر في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وأنا قادر على أن أشغل العين بطاعة الله في مطالعة القرآن والسنة فلم لا أفعله وأنا قادر عليه وأنا قادر على أن أنظر إلى فلان المطيع بعين التعظيم فأدخل السرور على قلبه، وأنظر إلى فلان الفاسق بعين التحقير فأزجره عن معصية الله فلم لا أفعله؟، ويقول في سمعه: إني قادر على استماع كلام كل

---

[1] الإحياء ٤/٥٣٧.

ملهوف واستماع كل حكمة واستماع كل قراءة وذكر وموعظة فما لي أعطله وأهمله، وهكذا يتفكر في لسانه ويقول: أنا قادر على أن أتقرب إلى الله بالتعليم والوعظ والتودد إلى قلوب أهل الصلاح وبالسؤال عن أحوال الفقراء وإدخال السرور على قلب كل صالح، ويتفكر في ما يده من المال فيقول: أنا قادر على أن أتصدق بالمال الفلاني فيفتش عن أعضائه وجملة بدنه وأمواله وغلمانه وأولاده فيطيع الله تعالى في ذلك كله وقس على هذا سائر الطاعات[١].

النوع الثالث: وهي الصفات المهلكة التي محلها القلب فيعرفها كما ذكرناه من قبل وهي استيلاء الشهوة والغضب والبخل والكبر والعجب والرياء والحسد وسوء الظن والغفلة والحقد والجزع والهلع وغير ذلك من الصفات ويتفقد قلبه عن هذه الأمور فإن غلب على ظنه أن قلبه متنزه عنها فإنه يتفكر في كيفية امتحانه عنها ويستشهد بالعلامات عليها فإن النفس أبداً تعد بالجزم من نفسها وتكذب فإذا كانت مدعية للتواضع والبراءة من الكبر فينبغي أن يجرب نفسه بحمل حزمة من حطب في السوق كما كان الأولون يجربون أنفسهم به، وإذا ادعت الحلم فليتعرض للغضب يناله من غيره، ثم يجربها في كظم الغيظ وكذلك سائر الصفات فإذا رآها زائلة عن نفسه حمد الله على زوالها وإن وجد نفسه حاصلة عليها اجتهد في الإزالة لها ومحوها عن نفسه بكل ممكن يجد إليه سبيلاً، ثم إذا وجد في نفسه شره الطعام وكثرة الأكل تفكر في أن هذه الصفة صفة البهائم، ولو كان في شهوة الطعام والوقاع تقدم كمال لكان ذلك من صفات الملائكة كالعلم والقدرة ولكنه بصفة البهائم أشبه وعن الملائكة المقربين أبعد، وهكذا يكون تحرزه من الصفات المهلكة للدين بما ذكرناه والله أعلم[٢].

النوع الرابع: وهي الصفات المنجية وهذا نحو التوبة والندم على الذنوب والصبر على البلاء والشكر على النعماء والخوف والرجاء والزهد في الدنيا والإخلاص والصدق في الطاعات كلها ومحبة الله تعالى وتعظيمه والرضا بأفعاله والشوق إليه والخشوع لعظمته والتواضع لجلاله فليتفكر العبد كل يوم في قلبه ما الذي يستفيده من هذه الصفات التي هي مقربة إلى الله تعالى، فإذا افتقر إلى شيء فليعلم أنها أحوال لا يثمرها إلا العلوم وأن العلوم لا يثمرها إلا التفكرات فإذا أراد أن يكتسب لنفسه التوبة فليفتش أولاً عن

---

(١) الإحياء ٤/٥٣٦.

(٢) الإحياء ٤/٥٣٤.

ذنوبه ليحرزها وليعظمها في قلبه ثم لينظر إلى ما ورد عليها من الوعيد الشديد وليحقق في نفسه أنه متعرض لسخط الله وغضبه ومقته بملابستها حتى ينبعث له الندم والأسف، فهذه مجاري أفكار العلماء والصالحين، فإذا فرغوا منها ارتقوا إلى النظر في جلال الله وعظمته، وهذا القدر كافٍ في التنبيه على مجاري فكر العبد في صفات نفسه المحبوبة والمكروهة عند الله تعالى، وبتمامه يتم الكلام على المقالة الثالثة في بيان الصفات المحمودة المنجية بحمد الله ومنه.

المقالة الرابعة

من علوم الكتاب في بيان الأمور المعتادة نحو الأدب في الأكل والشرب والنكاح وأحكام الكسب وطلب الحلال وغير ذلك مما يكون معتاداً للخلق ولا بد لهم منه بحكم الضرورة فإن فيه قوام الأجسام وبه تحصل الإستعانة على العبادة، ولهذا قال بعض السلف: الأكل من الدين وعليه نبه رب العالمين بقوله: ﴿**كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً**﴾ (المؤمنون: ٥١)، ويشتمل على أبواب عشرة نفصلها بمعونة الله تعالى[1].

---

(١) الإحياء ٤/٥٣٤.

الباب الأول

في بيان آداب الأكل

ويشتمل على تنبيهات أربعة:

التنبيه الأول
في بيان ما لا بد للمنفرد منه
من الآداب مما يكون قبل الأكل

فهذه أحوال ثلاثة:

الحالة الأولى: في الآداب قبل الأكل وجملتها آداب سبعة:

أولها: أن يكون الطعام حلالاً طيبةً مكاسبه، **وثانيها**: غسل اليد، **وثالثها**: السفرة الموضوعة على الأرض، **ورابعها**: الجلوس إما على ظهور قدميه وإما نصب رجله اليمنى وجلس على اليسرى، **وخامسها**: أن ينوي بأكله تقوى الله والتقوي على طاعته ولا يقصد التنعم بالأكل، **وسادسها**: الرضاء بكل موجود من الرزق من غير كراهة، **وسابعها**: كثرة الأيدي على الطعام.

الحالة الثانية: في الأدب حالة الأكل فيبدأ بالتسمية ويأكل باليمين ويبدأ بالملح ويختم به ويصغر اللقمة ويجود مضغها ولا يذم مأكولاً قط ويأكل مما يليه إلا الفاكهة فإنه يجيل يده ولا يأكل من ذروة القصعة ولا يقطع اللحم بالسكين ولا يمسح يده بالخبز ويأكل ما تساقط ولا ينفخ في الطعام الحار ولا يجمع بين التمر ونواه في الطبق ولا يكثر الشرب في حالة الأكل إلا إذا غص بلقمة ويأخذ الكوز بيمينه ويسمي عند الشرب ويمص الماء ولا يشرب قائماً ولا يتنفس في الكوز، ويحمد الله بعد الفراغ من الأكل والشرب.

الحالة الثالثة : ما يستحب بعد الطعام فيمسك قبل الشبع ويلعق أصابعه ويمسحها بالمنديل ثم يغسلها ويلتقط فتات الطعام بعد الفراغ من الأكل ويخلل أسنانه ويلفظ ما خرج من أسنانه ويرمي به ويتمضمض بعد الخلال ويقرأ بعد الطعام سورة الإخلاص وسورة قريش ويكثر الحمد والشكر بعد الفراغ ويغسل يده وأصابعه ويقصدها بالدلك وينقي فمه والحنك واللسان بالماء واليد والشفة بالأشنان(١) .

التنبيه الثاني
في بيان ما يستحب من الأدب
بسبب الإشتراك والإجتماع في الأكل

وهي سبعة ، **أولها** : يستحب أن لا يبتدىء بالأكل ومعه من هو أحق منه بالتقدم قبله من سن أو فضل ، **وثانيها** : يكره السكوت ويستحب الكلام بالحمد والشكر وسير الصالحين ، **وثالثها** : أن يرفق برفيقه في الأكل فلا يستأثر بأكثر منه ، **ورابعها** : أن لا يحوج رفيقه إلى أن يقول له كل ، **وخامسها** : الغسل في الطشت لهم جميعاً ، **وسادسها** : أن لا ينظر إلى أصحابه ولا إلى أكلهم ويشتغل بنفسه ولا يمسك يده قبل قيام أصحابه ، **وسابعها** : أن لا يفعل ما يستقذره غيره فلا ينفض يده في القصعة ولا يقدم رأسه عند أكل اللقمة ، وإذا خرج شيء من فيه صرف وجهه عن الطعام ، ولا يغمس اللقمة الدسمة في الخل ، ولا يغمس ما فضل من اللقمة(٢) .

التنبيه الثالث
في آداب الزائرين في تقديم الطعام

وجملتها خمسة ، **أولها** : أن لا يدخلوا إلا بإذن ولا يقصدوا وقت الطعام ، **وثانيها** : أن لا يتكلف لهم ويقدم ما حضره ويكره أن يستقرض إذا لم يملك شيئاً ، **وثالثها** : أن الزائر لا يقترح شيئاً ولا يتحكم بشيء بعينه لأنه ربما شق عليه ، **ورابعها** : يستحب أن يشهي المزور أخاه بما فيه إكرام له ، **وخامسها** : أن لا يستأذن في تقديم الطعام بل يقدمه إن كان عنده شيء من غير مؤاذنة(٣) .

---

(١) الإحياء ٢/٣ ـ ٤ .

(٢) الإحياء ٢/٩ .

(٣) الإحياء ٢/١١ .

التنبيه الرابع
في آداب الضيافة

وجملتها ستة، **أولها**: الدعوة فيستحب أن يقصد بالدعاء الأبرار ولا يقصد الفساق، **وثانيها**: الإجابة فلا يفرق بين الفقير والغني ولا يمتنع من الإجابة إلا لعذر شرعي ويحضر إن كان صائماً ويقصد وجه الله تعالى في الإجابة، **وثالثها**: الحضور فإذا دخل المجلس لم يتصدر وإن رأى منكراً غيره كاستعمال الأواني المفضضة والمذهبة واستعمال الديباج والحرير وتغيير صور الحيوانات، **ورابعها**: إحضار الطعام فيستحب تعجيله ولا ينتظر الأقل من المدعوين، ويستحب ترتيب الأطعمة فتقدم الفاكهة أولاً ثم اللحم ثم الثريد ثم الحلوى بعد ذلك، **وخامسها**: أن لا يبادر برفع المائدة قبل الاستيفاء حتى يرفعوا الأيدي، **ويقدم** من الطعام قدر الكفاية وإن ما دون ذلك لؤم وتقصير، **وسادسها**: الإنصراف فيخرج مع الضيف إلى باب الدار وينصرف الضيف وهو طيب النفس ولا يخرج الضيف إلا برضا صاحب الدار.

تكملة للباب: الأكل أربعة أنحاء: بإصبع واحدة من المقت وبإصبعين من الكبر وبثلاث من السنة وبأربع وخمس من الشره.

وأربع تقوي البدن: أكل اللحم وشم الطيب وكثرة الغسل من غير جماع ولبس الكتان.

وأربع توهن البدن: كثرة الجماع وكثرة الهم وشرب الماء على الريق وكثرة أكل الحموضة.

وأربعة تقوي البصر: استقبال القبلة والكحل عند النوم والنظر إلى الخضرة والنظافة في اللباس[1].

وأربع تضعف البصر: النظر إلى القذر والنظر إلى المصلوب والنظر إلى فرج المرأة واستدبار القبلة.

وأربعة تزيد في الجماع: أكل العصافير وأكل الإطريفل وأكل الفستق وأكل الجرجير.

---

(١) الإحياء ٢/١٥ ـ ١٦ وما بعدها.

والنوم على أربعة أنحاء: على القفا نوم الأنبياء وعلى اليمين نوم العلماء وعلى اليسار نوم الملوك وعلى الوجه نوم الشياطين.

وأربع تزيد في العقل: ترك فضول الكلام والسواك ومجالسة العلماء والعمل بالعلم.

وأربع من العبادة: الوضوء في كل حال وكثرة السجود ولزوم المساجد وكثرة قراءة القرآن[1].

(١) الإحياء ٢/٢٦.

الباب الثاني

في ذكر آداب النكاح

وهو معين على الدين وحصن من الزلل والخطإ وهو سنة سيد المرسلين وبه تقع المباهاة لأمته على أمم جميع النبيين وتنحصر أسراره في بيانات شافية نشرحها ونفصلها بمعونة الله تعالى.

البيان الأول
في بيان فضله والترغيب فيه

وقد اختلف في حكمه فقال قائلون: الأفضل فعله، وقال آخرون: الأفضل تركه، والمختار ما عليه الأكثر من العلماء في فضل فعله قال تعالى: ﴿ **وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم**﴾ (النور: ٣٢) وقال تعالى: ﴿ **فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن**﴾ (البقرة: ٢٣٢) وقال تعالى في مدح الرسل: ﴿**وجعلنا لهم أزواجاً وذرية**﴾ (الرعد: ٣٨) ويقال: إن الله تعالى لم يذكر في كتابه الكريم من الأنبياء عليهم السلام إلا المتأهلين بالنكاح، وقد قيل: إن يحيى تزوج ولم يجامع، وأما عيسى فإنه سينكح إذا نزل الأرض ويولد له[1].

وأما الأخبار: فقوله ﷺ: «النكاح سنتي فمن أحب فطرتي فليستن بسنتي»[2] وقال: «تناكحوا تكثروا فإني أباهي بكم الأمم يوم القيامة»[3] وقال: «من رغب عن سنتي

---

(١) الإحياء ٢/٢٨.

(٢) أخرجه أبو يعلى في مسنده من حديث ابن عباس بسند جيد بتخريج الإحياء ٢/٢٨.

(٣) أخرجه أبو بكر بن مردويه في تفسيره من حديث ابن عمر وإسناده ضعيف وأخرجه عبد الرزاق في مصنفه والحديث الصحيح بلفظ تزوجوا الولود فإني مكاثر بكم الأمم، أخرجه الحاكم وصححه وابن حبان وأحمد والبيهقي عن أنس وهو عند أبي داود والنسائي والبيهقي من حديث معقل بن يسار، إرواء الغليل ٦/١٩٥.

فليس مني»[1]، وقال ﷺ: «من ترك النكاح مخافة العيلة فليس منا»[2]، وقال ﷺ: «من كان ذا طول فليتزوج ومن استطاع منكم الباءة فليتزوج[3] فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج»[4]، وقال: «إذا جاءكم من ترضون حسبه ودينه فزوجوه إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير»[5] وقال ﷺ: «من نكح لله وأنكح لله استحق ولاية الله»[6].

وأما الآثار: فقد قال عمر رضي الله عنه: لا يمنع من النكاح إلا عجز أو فجور، وقال ابن عباس: لا يتم نسك الناسك حتى يتزوج، وكان ابن مسعود يقول: لو لم يبق من عمري إلا عشرة أيام لأحببت أن أتزوج ولا ألقى الله عزباً، وكان عمر يكثر النكاح ويقول: لا أتزوج إلا لأجل الولد[7] وقال سفيان: كثرة النساء ليس من الدنيا لأن علياً عليه السلام كان من أزهد الصحابة وكان له أربع نسوة وسبع عشرة سرية، وقيل لإبراهيم ابن أدهم: طوبى لك فقد تفرغت للعبادة بالعزوبة فقال: لروعة منك بسبب العيال أفضل من جميع ما أنا فيه، فقال: ما الذي يمنعك من النكاح؟ فقال: ما لي حاجة في امرأة وما أريد أن أغر امرأة بنفسي، وقيل: فضل المتأهل على المتعزب كفضل المجاهد على القاعد وركعة من متأهل أفضل من سبعين ركعة من عزب[8].

البيان الثاني
في بيان فوائد النكاح وآفاته

وفيه خمس فوائد:

الأولى: الولد وهو الأصل وله وضع النكاح والمقصود بقاء النسل وأن لا يخلو العالم عن جنس الإنس.

---

(١) متفق عليه من حديث أنس.

(٢) رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي سعيد بسند ضعيف وللدارمي في مسنده والبغوي في معجمه وأبي داود في المراسيل نحوه من حديث أبي نجيح تخريج الإحياء ٢/٢٨.

(٣) أخرجه ابن ماجه من حديث عائشة بسند ضعيف.

(٤) متفق عليه من حديث ابن مسعود.

(٥) أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة ومن حديث أبي حاتم المزني. وحسنه. ورواه أبو داود في المراسيل وأعله ابن القطان بالإرسال والضعف أنظر تخريج الإحياء ٢/٢٩ فقد قال العراقي نقلاً عن الترمذي قال البخاري غير محفوظ وقال أبو داود إنه خطأ.

(٦) أخرجه أحمد بسند ضعيف من حديث معاذ بن أنس تخريج الإحياء ٢/٢٩.

(٧) الإحياء ٢/٢٩.

(٨) الإحياء ٢/٢٩ ـ ٣٠.

الثانية : التحصن عن الشيطان وكسر توقان النفس ورفع غوائل الشهوة وغض البصر وحفظ الفرج.

الثالثة : ترويح النفس وتأنيسها بالمجالسة والنظر والملاعبة إراحة للقلب وتقوية على العبادة.

الرابعة : تفريغ القلب عن تدبير المنزل والتكفل بمعالجة المعيشة من الطبخ والطحن والكنس وغسل الآنية فإن الإنسان لو لم تكن له شهوة في الوقاع فإنه يتعذر عليه معيشته وحده.

الخامسة : مجاهدة النفس ورياضتها بالرعاية والقيام بحقوق الزوجات والصبر على أخلاقهن واحتمال الأذى منهن والسعي في إصلاحهن وإرشادهن إلى طريق الدين والاجتهاد في كسب الحلال لأجلهن(١).

وأما الآفات فثلاث:

الأولى : العجز عن طلب الحلال فإن ذلك يتيسر لكل واحد لاسيما في هذه الأوقات مع اضطراب المعايش وصعوبتها والنكاح سبب للتوسع في الطلب والإطعام من الحرام وفيه هلاكه وهلاك الآكل.

الثانية : القصور عن القيام بحقوقهن والصبر على أخلاقهن واحتمال الأذى منهن.

الثالثة : أن يكون الأهل والولد شاغلين له عن الله تعالى وجاذبين له إلى طلب الدنيا وتدبير حسن المعيشة للأولاد بكثرة جمع المال وادخاره لهم وطلب التكاثر والتفاخر وكل ما يشغل عن الله تعالى من أهل وولد فهو مشؤوم على صاحبه ولا شك أنه يثور من النكاح أنواع من الشواغل من هذا الجنس يستغرق القلب والفؤاد فينقضي الليل والنهار ولا يتفرغ القلب للتفكر في الآخرة وأعمالها، فهذه مجامع الآفات والفوائد(٢).

البيان الثالث
في بيان ذكر ما يراعى حالة العقد

ويراعى في صحة العقد أمور أربعة:

---

(١) الإحياء ٢/٣١.

(٢) الإحياء ٢/٤٢.

الأول منها: إذن الولي فإن لم يكن فالإمام أو حاكمه.

الثاني: رضاء المرأة إذا كانت بالغة بكراً كانت أو ثيباً إلا إذا كانت صغيرة وزوجها غير الأب والجد.

الثالث: حضور شاهدين ظاهري العدالة،

الرابع: الإيجاب والقبول في المجلس.

وأما آدابه فهي ستة: [1].

أولها: الخطْبة إلى الولي بعد انقضاء العدة وأن لا يسبقه خاطب آخر.

وثانيها: الخُطْبة قبل العقد والتحميد قبل الإيجاب والقبول فيقول الولي: الحمد لله والصلاة على محمد زوجتك ويقول الزوج: الحمد لله والصلاة على محمد قبلت نكاحها منك.

وثالثها: استحباب النظر إليها قبل النكاح.

ورابعها: إحضار جمع من أهل الصلاح.

وخامسها: أن ينوي بنكاحه تحصين الفرج وغض البصر وطلب الولد.

وسادسها: يستحب العقد في المسجد.

وإما الخصال المطيبة للمعيشة فهي ثمان.

الأولى: الدين والصلاح فإن الدين من أهم المقاصد وأجلها ولهذا قال ﷺ: «عليك بذات الدين تربت يداك»[2].

الثانية: حسن الوجه فذلك أيضاً مطلوب لأن به يحصل التحصين.

الثالثة: حسن الخلق وذلك أصل مهم فإن سوء الخلق وبذاءة اللسان تكدر المعيشة ويعظم الضرر بها.

الرابعة: أن تكون خفيفة المهر وقد نهي عن المغالاة في المهور.

الخامسة: أن تكون ولوداً ودوداً ويكره نكاح العقيم.

---

(١) الإحياء ٢/٤٦.

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة.

السادسة : أن تكون بكراً فإن في البكارة فوائد كثيرة .

السابعة : أن تكون حسيبة من أصل كريم لقوله ﷺ : «إياكم وخضراء الدمن»[1] وهي المرأة الحسناء في البيت السوء .

الثامنة : أن لا تكون من القرابة القريبة فإن ذلك يقلل الشهوة ، قال الرسول ﷺ : «لا تنكحوا القرابة القريبة»[2].

البيان الرابع
في ذكر الموانع من النكاح

وجملتها إحدى عشرة :

أولها : أن تكون منكوحة للغير .

وثانيها : أن تكون معتدة عن الغير .

وثالثها : أن تكون كافرة إما مرتدة أو مجوسية أو وثنية أو زنديقة لا تنتسب إلى كتاب ولا إلى نبي فإن كانت كتابية يهودية أو نصرانية ففيه تردد بين العلماء والقوى جواز نكاحها لظاهر الآية .

ورابعها : أن تكون مملوكة والزوج حر قادر على طول الحرة غير خائف عنتاً .

وخامسها : أن تكون مملوكة للناكح فإنه لا يجوز وطؤها بالنكاح ويجوز بملك اليمين .

وسادسها : أن تكون قريبة للزوج بأن تكون من أصوله وفروعه أو فروع أول أصوله أو من أول فرع من كل أصل بعده أصل ويعني بالأصول الأمهات والجدات وبالفروع البنات وبنات البنين، وبفروع أول أصوله الأخوات وبنات الإخوة، وبأول فرع من كل أصل بعده العمات والخالات دون أولادهن .

وسابعها : أن تكون محرمة بالرضاع فإنه يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب من الأصول والفروع كما سبق .

---

(١) رواه الدارقطني في الافراد والرامهرمزي في الأمثال من حديث أبي سعيد الخدري قال الدارقطني تفرد به الواقدي وهو ضعيف تخريج الإحياء ٢/٥٣. وانظر كشف الخفاء ١/٣١٩ ـ ٣٢٠.

(٢) لا تنكحوا القرابة القريبة تخريج الإحياء ٢/٥٢ ـ ٥٣.

وثامنها: تحريم المصاهرة، والربيبة لا تحرم إلا بالدخول بالأم، وهل تحرم الأم بالعقد على البنت أو بالدخول بها تردد، القوي أنها لا تحرم إلا بالدخول بالنبت[1].

وتاسعها: أن تكون المنكوحة خامسة.

وعاشرها: أن تكون تحت الناكح أختها.

وحادي عاشرها: أن تكون محرمة بحج أو عمرة والزوج كذلك، فهذه كلها محرمات النكاح[2].

البيان الخامس
في ذكر آداب المعاشرة في النكاح

وفيه نظران:

النظر الأول: في بيان ما على الزوج: وعليه مراعاة وظائف عشر:

الأولى: منهن: الوليمة، وهي مستحبة قال الرسول ﷺ لعبد الرحمن «أولم ولو بشاة»[3].

الثانية: حسن الخلق معهن واحتمال الأذى ترحماً عليهن لقصور عقولهن قال الله تعالى: ﴿**وعاشروهن بالمعروف**﴾ (النساء: ١٩).

الثالثة: أن يزيد على الاحتمال بالمداعبة وإظهار المزاح فإنه يطيب قلوب النساء.

الرابعة: إن لا ينبسط في الرعاية وحسن الخلق لها بالموافقة لها باتباع هواها إلى حد يفسد خلقها ويسقط هيبته بالكلية بل يراعي في ذلك حد الاعتدال فلا يدع الهيبة والانقباض مهما رأى منكراً ولا يفتح باب المساعدة على المنكرات البتة، بل مهما رأى ما يخالف الشرع والمروءة تنمر وامتعض[4].

الخامسة: الاعتدال في الغيرة وهو أن لا يتغافل عن مبادىء الأمور التي يخشى

---

(١) الإحياء ٢/٤٧.

(٢) الإحياء ٢/٤٧.

(٣) متفق عليه من حديث أنس.

(٤) الإحياء ٢/٥٨.

غوائلها ولا يبالغ في إساءة الظن والتعنت لأن إساءة الظن والتعنت ربما يثير من طبع المرأة ما ليس عندها ويغيرها بما ليس من خلقها.

السادسة: الاعتدال في النفقة فلا ينبغي أن يقتر عليهن في الإنفاق ولا ينبغي أن يسرف بل يقتصد في الأمر كله.

السابعة: أن يتعلم الزوج من علم الحيض وأحكامه ما يحترز به الاحتراز الواجب، ويعلم زوجته أحكام الصلاة والعبادات وما يقضي منها في حال الحيض وما لا يقضي.

الثامنة: إذا كان له زوجات فينبغي أن يعدل بينهن في القسمة ولا يميل إلى بعضهن، فإن خرج إلى سفر وأراد أن يأخذ واحدة قرع بينهن تطييباً للنفوس[1].

التاسعة: آداب الجماع، فيستحب التسمية عند الابتداء ويقرأ: ﴿**قل هو الله أحد**﴾ (الإخلاص: ١) ويكبر ويهلل وينحرف عن القبلة وليستتر ولا يأتيها في الحيض وإن انقضى الحيض فلا يأتيها حتى تغتسل، إلى غير ذلك من الآداب المستقصاة في علم الفقه.

العاشرة: آداب الولادة، يكره فرحه بالذكر وحزنه بالأنثى، ويؤذن في أذن الولد ويسميه ويعق عنه شاتين عن الغلام وشاة عن الجارية[2].

النظر الثاني: في بيان ما على الزوجة من حقوق الزوج والقول الشافي فيه أن النكاح نوع رق وهي رقيقة فعليها طاعة الزوج مطلقاً في كل ما طلب منها في نفسها مما لا معصية فيه، وعليها القعود في بيتها لازمة لمغزلها ولا تكثر صعودها وإطلاعها قليلة الكلام لجيرانها، ولا تتفاخر على الزوج بجمالها ومالها، ولا تزدري زوجها لقبحه أو فقره، وعليها ملازمة الصلاح في الغيبة لزوجها والرجوع إلى اللعب والانبساط، وأسباب اللذة في حضور زوجها، ولا ينبغي أن تؤذي زوجها بحال.[3]

---

(١) الإحياء ٢/ ٦٠ ـ ٦١.

(٢) الإحياء ٢/ ٦٣.

(٣) ٢/ ٧٢. الإحياء.

الباب الثالث

في بيان آداب الكسب وطلب المعاش

إعلم أن الله قد جعل الآخرة دار الثواب والدنيا دار التحيل والاضطراب والتشمير والاكتساب فالدنيا مزرعة الآخرة ومدرجة إليها والاقتصاد محمود والإسراف مذموم ولن ينال رتبة الاقتصاد ما لم يلازم في طلب المعيشة مسلك الرشاد، واعلم أن الكلام في أنواع الكسب ووجوه المكاسب والكلام في عقد البيع وأنواع التجارات وعقود المعاوضات نحو بيع المرابحة والصرف والسلم وغير ذلك من أنواع المعاوضات طويل ولكنا نقصر همنا على ما يتعلق بأمر الآحرة من ذلك، فنذكر فضل الكسب وما ينبغي فعله مما يتعلق بإحراز الدين، فهذان تقريران[1].

التقرير الأول
في بيان فضل الكسب

قال الله تعالى: ﴿ **وجعلنا النهار معاشاً**﴾ (النبأ: ١١)، ذكره في معرض الامتنان على الخلق، وقال تعالى: ﴿**وجعلنا لكم فيها معايش**﴾ (الأعراف: ١٠)، وقال: ﴿**ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم**﴾ (البقرة: ١٩٨)، وقال: ﴿**وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله**﴾ (المزمل: ٢٠)، وقال: ﴿ **فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله**﴾ (الجمعة: ١).

وأما **الأخبار**، فقوله ﷺ: «من الذنوب ما لا يكفره إلا هم نفقة العيال»[2]، وفي

---

(١) ٢/٧٧. الإحياء.

(٢) الإحياء ٢/٧٩.

حديث اخر: «إلا طلب المعيشة»[1]، وقال: «التاجر الصدوق يحشر يوم القيامة مع الصديقين والشهداء»[2]، وقال ﷺ: «من طلب الدنيا حلالاً تعففاً عن المسألة وسعياً على عياله وتعطفاً على جاره لقي الله وجهه كالقمر ليلة البدر»[3]، وقال ﷺ: «إن الله يحب العبد يتخذ المهنة يستغني بها عن الناس ويبغض العبد يتعلم العلم يتخذه مهنة»[4]، وفي حديث آخر: «إن الله يحب العبد المحترف»[5]، وقال ﷺ: «أحل ما أكل العبد من كسبه وكل بيع مبرور»[6]، وقال ﷺ: «عليكم بالتجارة فإنها تسعة أعشار الرزق»[7]، وروي أن عيسى عليه السلام قال لرجل: ما تصنع؟ قال: أتعبد، قال: من يعولك؟ قال: أخي، قال: أخوك أعبد منك[8].

وأما **الآثار**، فقد قال لقمان الحكيم لابنه: يا بني استعن بالكسب الحلال على الفقر فإنه ما افتقر أحد قط إلا أصابته ثلاث خصال رقة في دينه وضعف في عقله وذهاب مروءته، وأعظم من هذه الخصال الثلاث استخفاف الناس به، وقال عمر رضي الله عنه: لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول: اللهم ارزقني وقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة، وكان زيد بن أسلم في أرضه فقال له عمر: أصبت استغن عن الناس يكن أصون لدينك وأكرم لك عليهم، وقال ابن مسعود: إني لأكره أن أرى الرجل فارغاً لا في أمر دنياه ولا في أمر آخرته[9]، وسئل إبراهيم عن التاجر الصدوق هو أحب إليك

---

(١) هو جزء من الذي قبله وهو بنحو لفظ الخطيب في المتشابه ١ / ١٢٤.

(٢) أخرجه الترمذي والحاكم إنه من مراسيل الحسن ولابن ماجه والحاكم نحوه من حديث ابن عمر تخريج الإحياء ٢ / ٧٨.

(٣) أخرجه أبو الشيخ في كتاب الثواب وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشُعب من حديث أبي هريرة بسند ضعيف تخريج الإحياء ٢ / ٧٨.

(٤) قال العراقي في تخريج الإحياء ٢ / ٧٨ لم أجده هكذا وروى أبو منصور الديلمي في مسندالفردوس من حديث علي «إن الله يحب أن يرى عبده تعباً في الحلال» وفيه محمد بن سهل العطار، وقال الدرقطني: يضع الحديث.

(٥) أخرجه الطبراني وابن عدي وضعفه من حديث ابن عمر تخريج الإحياء ٢ / ٧٨.

(٦) أخرجه أحمد من حديث رافع بن خديج ورواه الحاكم من رواية سعيد بن عمير عن عمه وقال الحاكم: صحيح الإسناد. ورواه البيهقي من هذا الوجه مرسلاً، وقال هو المحفوظ وحكاه عن البخاري ورواه أحمد والحاكم من رواية جميع بن عمير عن خاله أبي بردة وجُميع ضعيف. تخريج الإحياء ٢ / ٧٨.

(٧) رواه إبراهيم الحربي في غريب الحديث من حديث نعيم بن عبد الرحمن ونعيم ذكر في الصحابة ولا يصح وقيل إنه تابعي والحديث مرسل ورجاله ثقات.

(٨) الإحياء ٢ / ٧٩.

(٩) الإحياء ٢ / ٧٩.

أم المتفرغ للعبادة؟ ، قال: التاجر أحب إليّ لأنه في جهاد، وقال عمر: ما من موضع يأتيني الموت أحب إليّ من موطن أتسوق فيه لأهلي أبيع وأشتري[1].

التقرير الثاني
في بيان ما يجب على التاجر في إحراز دينه

إعلم أنه لا ينبغي للتاجر أن يشغله معاشه عن إصلاح معاده فيكون عمره ضائعاً وصفقته خاسرة وما يفوته من الربح في الآخرة لا يفي به ما يناله من الدنيا بل ينبغي أن يشفق على دينه وعلى نفسه بحفظ رأس ماله ورأس مال دينه، فيراعي في ذلك أموراً سبعة:

الأول منها: حسن النية والعقد في ابتداء التجارة فينوي بها الاستعفاف عن السؤال وكف الطمع عن الناس.

الثاني: أن يقصد بالقيام في صنعته وتجارته فرضاً من فروض الكفاية فإن الصناعات لو تركت لبطلت المعايش وهلك الخلائق فانتظام أمر الكل بتعاون الكل وتكفل كل فريق بعمل ولو أقبلوا كلهم على صنعة واحدة لتعطلت البواقي[2].

الثالث: أن لا يمنعه سوق الدنيا عن سوق الآخرة وأسواق الآخرة المساجد، قال الله تعالى: ﴿**رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة**﴾ (النور: ٣٧).

الرابع: أن لا يقتصر على هذا بل يلازم ذكر الله في السوق ويشتغل بالتسبيح والتهليل وذكر الله في السوق بين الغافلين.

الخامس: أن لا يكون الحرص على السوق غالباً عليه ولا يشتد حرصه على ذلك بأن يكون أول داخل وآخر خارج، وأن يركب البحر في التجارة فإنه يقال من ركب البحر فقد استقصى في طلب الرزق.

السادس: أن لا يقتصر على اجتناب الحرام بل يتقي مواضع الشبهة ومظان الريبة ولا ينظر في الفتاوي بل يستفتي نفسه فما وجد فيه حرارة تركه وما طابت به نفسه فعله.

السابع: أنه ينبغي أن يراقب جميع مجاري معاملته مع كل أحد من معامليه فإنه مراقب ومحاسب فليعد الجواب ليوم الحساب والعقاب في كل فعله وقوله، فقد قيل: إن

---

(١) الإحياء ٢/٧٨ - ٧٩.

(٢) الإحياء ٢/١٠٦.

التاجر يوقف يوم القيامة مع كل رجل كان باعه شيئاً وقفة ويحاسب مع كل واحد ممن عامله، فهذا ما أردنا ذكره من المعاملة والعدل والإحسان والشفقة على أهل الدين من التجار والله علم[1].

(١) الإحياء ٢/١٠٦ ـ ١٠٧.

الباب الرابع

في الحلال والحرام وبيان مواقعهما

إعلم أن طلب الحلال فريضة على كل مسلم وهذه الفريضة من بين سائر الفرائض أعصاها على النفوس فهماً وعقلاً وأثقلها على الجوارح حملاً وفعلاً وأدقها بياناً وأقلها جرياناً ومن أجل ذلك اندرست بالكلية عملاً وعلماً وصار غموض علمها سبباً لاندراس عملها إذ ظن بعض الجهال أن الحلال قد صار مفقوداً وأن السبيل دون الوصول إليه لا يزال مسدوداً وأنه لم يبق من الطيبات إلا الماء الفرات وإلا الحشيش والنبات في الأرض الموات، وما عدا ذلك فقد اجتثته الأيدي العادية وأفسدته المعاملات الفاسدة، وهيهات هيهات بل الحلال بيِّن والحرام بيِّن وبين ذلك مشتبهات ولا تزال هذه المراتب الثلاث مفترقات كيفما انقلبت الأحوال فلا جرم عظمت العناية في تقرير هذا الباب وذكر ما يليق بالكتب الوعظية وما عدا ذلك فهو محال على الكتب الفقهية، والذي نذكره هنا إيضاحات أربعة[1].

الإيضاح الأول
في بيان فضيلة الحلال ومذمة الحرام

قال الله تعالى: ﴿**كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً**﴾ (المؤمنون: ٥١)، أمر بأكل الطيبات قبل العمل وهو المراد بالحلال، وقال تعالى: ﴿**ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل**﴾ (البقرة: ١٨٨)، وقال تعالى: ﴿**إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً**﴾ (النساء: ١٠)، وقال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين**﴾ (البقرة: ٢٧٨)، ثم قال تعالى:

---

(١) الإحياء ١١٣/٢.

﴿وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم﴾ (البقرة: ٢٧٩)، والآيات الواردة في الحلال والحرام كثيرة لا تحصى.

وأما **الأخبار**، فقد روى ابن مسعود عن الرسول ﷺ أنه قال: «طلب الحلال فريضة على كل مسلم»[(١)]، وقال: «من سعى على عياله من حله فهو كالمجاهد في سبيل الله ومن طلب الدنيا حلالاً في عفاف كان في درجة الشهداء»[(٢)]، وقال ﷺ: «من أكل حلالاً أربعين يوماً نوّر الله قلبهُ وأجرى ينابيع الحكمة من قلبه»[(٣)]، وفي رواية أخرى: «زهده الله في الدنيا»[(٤)]، وروي أن سعداً سأل رسول الله ﷺ أن يسأل الله له أن يجعله مجاب الدعوة، فقال: «أطب طعمتك تستجب دعوتك»[(٥)]، ولما ذكر رسول الله الحريص في الدنيا قال: «رب أشعث أغبر مشرد في الدنيا بالأسفار مطعمه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام يرفع يديه ويقول: يا رب يا رب فأنى يستجاب له»[(٦)]؟، وفي حديث ابن عباس: «إن لله ملكاً على بيت المقدس ينادي كل ليلة من أكل حراماً لم يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً»[(٧)] فقيل: الصرف النافلة والعدل الفريضة، وقال ﷺ: «من اشترى ثوباً بعشرة دراهم وفي ثمنه درهم حرام لم يقبل الله منه صلاته ما دام عليه»[(٨)]، وقال ﷺ: «كل لحم نبت من الحرام فالنار أولى به»[(٩)].

---

(١) أخرجه الطبراني والبيهقي في الشُعب من حديث ابن مسعود بسند ضعيف دون قوله على كل مسلم. وللطبراني في الأوسط من حديث أنس «واجب على كل مسلم» وإسناده ضعيف تخريج الإحياء ١/٢٩١، ٢/١١٢ ورواه الديلمي أيضاً في مسند الفردوس.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة ولأبي منصور الديلمي في مسند الفردوس نحوه وإسنادهما ضعيف تخريج الإحياء ٢/١١٤.

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث أبي أيوب ولابن عدي نحوه من حديث أبي موسى وقال حديث منكر. أنظر تخريج الإحياء ٢/١١٤ وتقدم نحوه في ص ٣٢٩.

(٤) هو جزء من الحديث الذي قبله.

(٥) أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس، قال العراقي في تخريج الإحياء ٢/١١٤ وفيه من لا أعرفه.

(٦) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وهو بنحوه هذا.

(٧) قال العراقي في تخريج الإحياء ٢/١١٤ لم أقف له على أصل، ولأبي منصور الديلمي في مسند الفردوس نحوه من حديث ابن مسعود وهو منكر.

(٨) رواه أحمد في مسنده من حديث ابن عمر بسند ضعيف.

(٩) أخرجه الترمذي من حديث كعب بن عجرة وحسنه وضعفه غيره، وأخرجه ابن عدي في الكامل (٥/١٩٣٦)، وابن حبان في المجروحين (٢/٥٥) والبيهقي في الشعب عن أبي بكر.

وأما **الآثار**، فـروي أن عمر شرب لبناً من إبل الصدقة فأدخل إصبعه وتقيأ، وقالت عائشة: إنكم تغفلون عن أصل العبادة الورع، وقال عبدالله بن عمر: لو صليتم حتى تكونوا كالحنايا وصمتم حتى تكونوا كالأوتار لم يقبل الله ذلك منكم إلا بورع حاجز، وقال الفضيل بن عياض: من عرف ما يدخل بطنه كتبه الله صديقاً فانظر عند من تفطر يا مسكين، وقيل لإبراهيم بن أدهم: لِمَ لا تشرب من ماء زمزم؟ فقال: لو كان لي دلـو لشربت، وقال سفيان الثوري: من أنفق من الحرام في طاعة الله كان كمن طهر الثوب بالبول والثوب لا يطهره إلا الماء والذنب لا يكفره إلا الحلال[1].

وقال يحيى بن معاذ: الطاعة خزانة من خزائن الله ومفتاحها الدعاء وأسنانها لقم الحلال، وقال ابن عباس: لا يقبل الله صلاة امرىء في جوفه حرام[2]، وقـال بعض الحكماء: من أكل من الشبهة أربعين يوماً أظلم قلبه وهو تأويل قوله تعالى: ﴿**كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون**﴾ (المطففين: ١٤)، وقال بعض الزهاد: من أكل الحرام عصت جوارحه شاء أم أبى، ومن كانت طعمته حلالاً أطاعت جوارحه ووفقت للخير، وقال بعض السلف: إن أول لقمة يأكلها العبد حلالاً يغفر له بهـا ما سلف من ذنوبه، ومن أقام نفسه مقام ذل في طلب الحلال تساقطت عنه ذنوبه كما يتساقط ورق الشجر، وعن أمير المؤمنين كرم الله وجهه أنه لم يأكل طعاماً بعد قتل عثمان ونهب الدار إلا مختوماً عليه حذراً من الشبهة، وعن بعض الزهاد من لم يبال بما يأكل لم يبال الله من أي أبواب النار أدخله[3].

الإيضاح الثاني
في بيان مداخل الحلال والحرام وأصنافهما

إعلم أن تفصيل الحرام والحلال إنما يليق بكتب الفقه، والذي نذكره ها هنا هو ما يخص طالب الآخرة وما ينبغي من التلبس به واستعماله وطلبه، ونحن الآن نشير إلـى مجامعه في تقسيم حـاصـر وهو **أن** المـال إنمـا يحرم إما لمعنى في عينه أو لخلل في وجه اكتسابه، فهذان قسمان:

القسم الأول: ما يحرم لصفة في عينه كالخمر والخنزير والكلـب وتفصيلـه أن

---

(١) الإحياء ٢/١١٥.

(٢) الإحياء ٢/١١٥.

(٣) الإحياء ٢/١١٦.

الأعيان المأكولة على وجه الأرض تكون على أوجه ثلاثة:

أولها: المعادن كالملح والطين وجميع ما يخرج منها فلا يحرم أكله إلا من حيث المضرة بالآكل وفي بعضها ما يجري مجرى السمن والخبز لو كان يضر لحرم أكله، والطين الذي يعتاد أكله إلا من جهة المضرة فما لا يضر يجوز أكله[1].

وثانيها: النباتات فإنه لا يحرم منها إلا ما كان مزيلاً للعقل كالبنج والخمر وسائر المسكرات أو مزيلاً للحياة نحو السمومات كلها أو مزيلاً للصحة كالأدوية في غير وقتها.

وثالثها: الحيوانات فأما حيوان البحر فكله مأكول، وأما حيوان البر فما كان منها لا يذكى فذكاته صيده كالجراد والشظوة، وما كان منها يذكى فإنما يحل إذا ذكي ذكاة شرعية وروعي فيه شروط الذابح والآلة، وما لم يذبح ذبحاً شرعياً فهو حرام كما هو مذكور في كتاب الصيد ولا يحل لنا إلا ميتتان السمك والجراد.

القسم الثاني: ما يحرم لخلل يعرض فيه وذلك يكون على نوعين:

النوع الأول: تحريمه من جهات ثلاث[2]:

الأولى: أن يكون أخذه على جهة الإكراه من صاحبه كالأموال المأخوذة على جهة الظلم والمصادرة فما هذا حاله حرام كما أشار إليه ﷺ بقوله: «لا يحل مال امرىء مسلم إلا بطيبة من نفسه»[3].

الثانية: المال المأخوذ على جهة الرضا لكنه على جهة محظورة ومنفعة مكروهة كأجرة البغي وحلوان الكاهن والأجرة على الغناء.

الثالثة: أن تكون هذه المنفعة واجبة كالأجرة على الجهاد في الله تعالى فما هذا حاله من هذه الأمور فهو حرام لا يجوز تناوله.

النوع الثاني: تحليله وذلك يكون من جهات ست:

الأولى منها: ما لا مالك له كالمعادن وإحياء الموات والاحتطاب والاحتشاش.

الثانية: المأخوذ قهراً ممن لا حرمة له كالغنيمة والفيء فإنها حلال للمسلمين بشرط

---

(١) الإحياء ٢/ ١١٧.

(٢) الإحياء ٢/ ١١٨ - ١١٩.

(٣) الإحياء ٢/ ١١٨ - ١١٩.

جريها على قانون الشرع من صحة القسمة وإخراج خمسها[1] .

الثالثة : ما يؤخذ قهراً من مالكه من غير رضاه إما بإذن الإمام أو بإذن الحاكم كسائر الأمور المحكوم بها على من أنكرها بالبينة .

الرابعة : ما يؤخذ على جهة التراضي بمعاوضة وهذا نحو البيع والشراء والإجارة والقرض والشركة وغيرها .

الخامسة : ما يؤخذ بالتراضي من غير عوض وهو حلال إذا روعي شرط المعقود عليه وهذا نحو الهبة والصدقة والوصية .

السادسة : ما يحصل من غير اختيار كالميراث إذا كان الموروث قد أخذه من حله ، فهذه جميع مداخل الأموال في التحريم والتحليل قد أشرنا إلى جملتها ليكون السالك لطريق الآخرة على حقيقة من أمره وبصيرة في حاله[2] .

الإيضاح الثالث
في بيان درجات الورع في الحلال والحرام

إعلم أن الحلال كله طيب وبعضه أطيب من بعض ، والحرام كله خبيث وبعضه أخبث من بعض ، قال مولانا الإمام يحيى بن حمزة عليه السلام : فتقول الورع يكون على درجات أربع نفصلها بمعونة الله تعالى :

الدرجة الأولى : ورع العدالة وهذا هو الذي يجب الفسق باقتحامه ويسقط العدالة بأخذه ويستحق اسم الظلم ويتعرض للوعيد بالنار ، وهذه هي مداخل الأموال الظلمية .

الدرجة الثانية : ورع الصالحين وهو الامتناع عما يتطرق إليه احتمال التحريم ولكن المفتي يرخص في تناوله بناء على الظاهر[3] .

الدرجة الثالثة : ورع المتقين وهو الذي لا تحرمه فتوى ولا شبهة في حله لكنه يخاف أداؤه إلى محرم وهو ترك ما لا بأس به حذار ما به البأس .

الدرجة الرابعة : ما لا بأس به أصلاً ولا يخاف منه أن يؤدي إلى ما به البأس ولكنه

---

(۱) الإحياء ٢/١١٩ .

(۲) الإحياء ٢/١٢٠ .

(۳) الإحياء ٢/١٢٠ ـ ١٢١ .

يتناول لغير الله ولغير التقوى وهذا هو ورع الصديقين فهذه درجات الورع تكون كما أشرنا إليها والله أعلم[1]

الإيضاح الرابع
في بيان ما يحل من مخالطة أمراء الظلم والجور والسلاطين

واعلم أن لصاحب الدين معهم ثلاثة أحوال:

الحالة الأولى: وهي حالة النجاة، والسلامة أن تعتزلهم فلا يرونك ولا تراهم وهو الواجب إذ لا سلامة إلا فيه فعليك أن تعتقد بغضهم على ظلمهم وطردهم وإبعادهم واستحقاقهم للبراءة واللعن لما هم فيه من الظلم للخلق والجور ولا تأسف على مفارقتهم ولا تستخبر عن أحوالهم.

الحالة الثانية: أن يدخل عليك الظالم زائراً فهذه دون الأولى لكن فيه تعرض للمعصية أيضاً فجواب السلام لا بد منه إذا سلم عليك، وأما القيام في وجهه للإكرام فلا يحرم لأنه في مقابلة إكرامك بالدخول عليك ولأنه إكرام للعلم والدين فلا بأس به ولكن يتوجه عليك أمور ثلاثة التعريف له بجهله لإقدامه على الظلم والجور والتخويف له فيما هو مستجري عليه من ظلم الخلق والإرشاد له إلى ما هو غافل عنه من معصية الله تعالى في خلقه، فهذه الأمور كلها لازمة لمن دخل عليه الظالم لا محالة[2].

الحالة الثالثة: وهي أخطرها في الدين وهي مذمومة من جهة الشرع وقد ورد فيها تشديدات وتغليظات تواردت بها الأخبار والآثار وقد رُوي عن الرسول ﷺ: أنه قال: «أبغض القراء إلى الله الذين يزورون الأمراء»[3]، وفي حديث آخر: «خير الأمراء الذين يأتون العلماء، وشر العلماء الذين يأتون الأمراء»[4]، وفي حديث آخر: «العلماء أمناء الرسل على عباد الله ما لم يخالطوا السلطان فإذا فعلوا ذلك الفعل فاحذروهم أو فاعتزلوهم»[5]، وعلى الجملة فالداخل على السلطان متعرض لمعصية الله تعالى، إما

---

(١) الإحياء ٢/١٢٢.

(٢) الإحياء ٢/١٨١.

(٣) أورده الغزالي في الإحياء ٢/١١٨ وقال العراقي تقدم في العلم ولم أجده بعد البحث ولعله جزء من الحديث الآتي بعده.

(٤) أخرجه ابن ماجه بالشطر الثاني نحوه من حديث أبي هريرة بسند ضعيف تخريج الإحياء ١/٩٦ العلم.

(٥) أخرجه العقيلي في الضعفاء وابن الجوزي في الموضوعات من حديث أنس تخريج الإحياء ١/٩٦، وفي ٢/١٨١ قال =

بفعله بالدخول عليهم ، وإما بقوله فيدعو للظالم ويثني عليه ، وإما بسكوته عن النكير عليهم ، وإما باعتقاده فيكاد لا يسلم إذا رأى ما هو عليه من النعمة من اعتقاد رديّ ، وفي اعتزالهم سلامة من هذه الأخطار كلها فلا جرم كان واجباً[1].

= العراقي أخرجه العقيلي في الضعفاء في ترجمة حفص الأسلمي وقال حديثه غير محفوظ، ولكن لم أجده في الضعفاء المطبوع في الترجمة المذكورة.

(١) الإحياء ٢ / ٢٠٠ .

الباب الخامس

في بيان آداب الصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق

إعلم أن الأخوة في الله تعالى وفي الدين من أفضل القربات وألطف ما يستعان به على الطاعات في مجاري العادات، ولها شروط يلتحق المتصاحبون بالمتحابين في الله، وفيها حقوق بمراعاتها تصفو المودة وتظهر المحبة، وبالمحافظة عليها تنال الدرجات العالية عند الله، فلنذكر فضيلة الصحبة والأخوة ثم نردفه بالكلام في بيان حقوقها ثم نذكر الصفات المعتبرة فيمن تختار صحبته، فهذه تقريرات ثلاثة:[1]

التقرير الأول
في بيان فضيلة الأخوة والصحبة

إعلم أن الألفة والصحبة ثمرة حسن الخلق والمنافرة والتفرق ثمرة سوء **الخلق**، فحسن الخلق يوجب التحاب والتآلف، وسوء الخلق يوجب التدابر وقد مضى فيه ما فيه كفاية، وقد قال تعالى مظهراً نعمته على الخلق بمنة الألفة: ﴿**لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم**﴾ (الأنفال: ٦٣) وقال تعالى: ﴿**فأصبحتم بنعمته إخواناً**﴾ (آل عمران: ١٠٣) أي بالألفة. ثم ذم التفرقة وزجر عنها فقال تعالى: ﴿**واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا**﴾ (آل عمران: ١٠٣) إلى قوله: ﴿**لعلكم تهتدون**﴾ (آل عمران: ١٠٣).

وقال ﷺ: «إن أقربكم مني مجلساً يوم القيامة الذين يألفون ويؤلفون»[2]، وقال

---

(١) الإحياء ٢/٢٠٠.

(٢) رواه الطبراني في مكارم الأخلاق من حديث جابر بسند ضعيف.

في الثناء على الأخوة في الدين: «من أراد الله به خيراً رزقه أخاً صالحاً إن نسي ذكّره وإن ذكر أعانه»[1]، وقال ﷺ: «المؤمن إلف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف»[2] وقال ﷺ: «مثل الأخوين إذا التقيا كمثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى وما التقى مؤمنان قط إلا أفاد الله أحدهما من صاحبه خيراً»[3].

وقال في الترغيب في الأخوة في الله: «من آخى أخاً في الله رفعه الله درجة في الجنة لا ينالها بشيء من عمله»[4] وقال أبو إدريس الخولاني لمعاذ بن جبل: إني أحبك في الله، فقال: أبشر ثم أبشر فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**تنصب لطائفة من الناس كراس حول العرش ومنابر من نور يوم القيامة وجوههم كالقمر ليلة البدر يفزع الناس** ولا يفزعون ويخاف الناس ولا يخافون وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون» فقيل: من هؤلاء يا رسول الله؟ قال: هم المتحابون في الله[5].

وروى أبو هريرة عن الرسول ﷺ قال: «إن حول العرش منابر من نور عليها قوم لباسهم نور ووجوههم نور ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيون والشهداء، فقالوا: يا رسول الله صفهم لنا، فقال: هم المتحابون في الله المتجالسون في الله المتزاورون في

---

(١) قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ٢/٢٠١ غريب بهذا اللفظ والمعروف أن ذلك في الأمير، رواه أبو داود من حديث عائشة «إذا أراد الله بالأمير خيراً جعل له وزير صدق إن نسي ذكره وإن ذكر أعانه» والحديث ضعفه ابن عدي ولأبي عبد الرحمن السلمي في آداب الصحبة نحوه من حديث علي «من سعادة المرء أن يكون إخوانه صالحين» تخريج أحاديث الإحياء ٢/٢٠١.

(٣) رواه أحمد والطبراني من حديث سهل بن سعد والحاكم من حديث أبي هريرة وصححه... تخريج الإحياء ٢/٢٠١.

(٣) رواه السلمي في آداب الصحبة وأبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس، وفيه أحمد بن غالب الباهلي كذاب وهو من قول سلمان الفارسي. أنظر تخريج أحاديث الإحياء ٢/٢٠١.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الإخوان ص ١١١ من حديث أنس ولفظه ما أحدث عبدٌ أخاً في الله إلا أحدث الله له درجة في الجنة» وإسناده ضعيف وسيأتي بهذا اللفظ قريباً للمؤلف ص ٤٠٦ تخريج الإحياء ٢/٢٠٢ وإتحاف السادة ٦/١٧٤ والديلمي في الفردوس وأبو نعيم في الحلية.

(٥) أخرجه أحمد والحاكم في حديث طويل وقال حديث صحيح على شرط الشيخين من حديث أبي إدريس الخولاني، وهو عند الترمذي من رواية أبي مسلم الخولاني عن معاذ وقال الترمذي حديث حسن صحيح ولأحمد من حديث أبي مالك الأشعري نحوه وفيه شهر بن حوشب مختلف فيه. أنظر تخريج الإحياء ٢/٢٠٢.

الله[1] وقال ﷺ : «ما تحاب اثنان في الله إلا كان أحبهما إلى الله أشدهما حباً لصاحبه»[2]، ويقال: إن الأخوين في الله إن كان أحدهما أعلى مقاماً من الآخر رفعه الله إلى مقامه وأنه يلحق به كما تلحق الذرية بالأبوين[3]، وقال ﷺ : «إن الله تعالى يقول حقت محبتي للذين يتزاورون من أجلي ووجبت محبتي للذين يتباذلون من أجلي ووجبت محبتي للذين يتناصرون من أجلي»[4].

وقال: «إن الله تعالى يقول يوم القيامة أين المتحابون لجلالي؟ اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي»[5] وقال ﷺ : «المتحابون في الله على عمود من ياقوتة حمراء في رأس ذلك العمود سبعون ألف غرفة يشرفون على أهل الجنة يضيء حسنهم لأهل الجنة كما تضيء الشمس لأهل الدنيا فيقول أهل الجنة انطلقوا بنا ننظر المتحابين في الله يضيء حسنهم لأهل الجنة كما تضيء الشمس لأهل الدنيا عليهم ثياب سندس خضر مكتوب على جباههم المتحابون في الله»[6].

وقال ﷺ : «أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله»[7]، وقال ﷺ : «إن لله ملكاً نصفه من النار ونصفه من الثلج يقول: اللهم كما ألفت بين الثلج والنار ألف بين عبادك الصالحين»[8]، وقال ﷺ : «ما أحدث أحد أخاً في الله إلا أحدث الله له درجة في الجنة»، [9] وقال ﷺ : «ما زار رجل رجلاً في الله شوقاً إليه ورغبة في لقائه إلا ناداه

---

(١) أخرجه النسائي في سننه الكبرى ورجاله ثقات. تخريج الإحياء ٢/٢٠٢. ابن أبي الدنيا الإخوان ص ٩٣ رقم ٧، ص ٩٠ رقم ٥.

(٢) أخرجه ابن حبان والحاكم من حديث أنس وقال صحيح الإسناد.

(٣) الإحياء ٢/٢٠٢.

(٤) أخرجه أحمد من حديث عمرو بن عنبة وحديث عبادة بن الصامت ورواه الحاكم وصححه. الإخوان لابن أبي الدنيا ص ٩٤ رقم ٨.

(٥) أخرجه مسلم. أنظر الإخوان لابن أبي الدنيا ص ٩٥ رقم ٩.

(٦) رواه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول من حديث ابن مسعود بسند ضعيف تخريج الإحياء ٢/٢٠٤.

(٧) رواه أحمد من حديث البراء بن عازب وفيه ليث بن أبي سليم.

(٨) رواه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب العظمة (٢/٧٥٠) من حديث معاذ بن جبل والعرباض بن سارية بسند ضعيف تخريج الإحياء ٢/٢٠٤ وتسديد القوس ١/٧٨ وتنزيه الشريعة ١/٢٤٨.

(٩) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الإخوان (ص ١١١) عن أنس وإسناده ضعيف الكلام عليه في ص ٤٠٤ التعليق رقم (٩) وهو حديث ضعيف وانظر المطالب ٣/١٠ وكنز العمال رقم ٢٤٦٤٥ والديلمي بإسناد ضعيف إتحاف ٦/١٧٨ الألباني ضعيف الجامع ٥/٧٥ رقم ٤٩٨٤.

ملك من خلفه طبت وطاب مسعاك وطابت لك الجنة»[1] وفي أخبار داود عليه السلام قال: يارب كيف لي أن يحبني الناس كلهم وأسلم فيما بيني وبينك؟ قال: خالق الناس بأخلاقهم وأحسن فيما بيني وبينك، وفي حديث آخر: خالق أهل الدنيا بأخلاق أهل الدنيا وخالق أهل الآخرة بأخلاق أهل الآخرة[2].

وأما الآثار قال أمير المؤمنين كرم الله وجهه: عليكم بالإخوان فإنهم عدة في الدنيا والآخرة ألا تسمع إلى قول أهل النار: ﴿ **فما لنا من شافعين ولا صديق حميم** ﴾ (الشعراء: ١٠١) وقال عبد الله بن عمر: لو صمت النهار لا أفطره وقمت الليل لا أنامه وليس في قلبي حب لأهل طاعة الله وبغض لأهل معصية الله ما نفعني ذلك شيئاً، وقال بعض الزهاد عند موته: اللهم إني إذا كنت أعصيك كنت أحب من يطيعك فاجعل في[3] ذلك قربة إليك، وقال الحسن بن علي: يا ابن آدم لا يغرنك قول من يقول المرء مع من أحب فإنك لن تلحق بالأبرار إلا بأعمالهم فإن اليهود والنصارى يحبون أنبياءهم وليسوا معهم.

وقال الفضيل بن عياض، في بعض كلامه: هاه تريد أن تسكن الفردوس وتجاور الرحمن في داره مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، بأي عمل عملته؟ بأي شهوة تركتها؟ بأي غيظ كتمته؟ بأي رحم قاطع وصلتها؟ بأي زلة لأخيك غفرتها؟ بأي قريب باعدته في الله؟ بأي بعيد قربته في الله؟ ويروى أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام هل عملت لي عملاً قط؟[4]، فقال: إلّهي صليت لك وصمت وتصدقت وزكيت، فقال: إن الصلاة لك برهان والصوم جنة والصدقة ظل والزكاة نور فأي عمل عملت لي؟ قال موسى: إلّهي دلني على عمل هو لك، قال: يا موسى هل واليت لي ولياً أو عاديت لي عدواً قط؟ فعلم موسى أن أفضل الأعمال الحب في الله والبغض في الله[5].

---

(١) أخرجه ابن عدي من حديث أنس دون قوله «شوقاً إليه ورغبةً في لقائه» وللترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة من عاد مريضاً أو زار أخاً في الله ناداه مناد من السماء... الحديث وقال الترمذي غريب تخريج أحاديث الإحياء ٢٠٣/٢.

(٢) الإحياء ٢٠٣/٢.

(٣) الإحياء ٢٠٤/٢.

(٤) الإحياء ٢٠٤/٢.

(٥) الإحياء ٢٠٤/٢.

التقرير الثاني
في بيان حقوق الصحبة والأخوة

إعلم أن عقد الأخوة رابطة بين الشخصين كعقد النكاح الرابط بين الزوجين وكما يقتضي النكاح حقوقاً يجب الوفاء بها قياماً بحق النكاح كما سبق تقريره فهكذا عقد الأخوة فلأخيك عليك حق هو من شأن الأخوة وكمالها، وجملتها ثمانية.

الحق الأول: في المال ومتى كانت الأخوة صادقة فله في المال مراتب أربع: أن تؤثره على نفسك وهذه هي النهاية، وأن تنزله منزلة نفسك وهذه بعدها، وأن تنزله منزلة ولدك، وأن تنزله منزلة عبدك، ولهذه المراتب أحكام شرحها يطول[1].

الحق الثاني: في الإعانة بالنفس في قضاء الحاجات والقيام بها قبل السؤال، قال جعفر بن محمد: إني لأسارع إلى قضاء حوائج أعدائي مخافة أن أردهم فيستغنوا عني، فهذا في الأعداء فكيف حال الأصدقاء، وقضى ابن شبرمة حاجة لبعض إخوانه كبيرة فجاءه بهدية، فقال: ما هذه؟، فقال: لما أسديته إليَّ، فقال: خذ ما لك عافاك الله، إذا سألت أخاك حاجة فلم يجهد نفسه في قضائها فتوضأ للصلاة وكبر عليه خمس تكبيرات[2] وعده في الموتى وقرأ هذه الآية: ﴿**والموتى يبعثهم الله**﴾ (الأنعام: ٣٦).

الحق الثالث: باللسان بالنطق والنطق في حقه يكون بالدعاء له بأحب أسمائه إليه في غيبته وحضرته وتثني عليه بمحاسن أحواله وأن تشكره على صنيعه في حقك وأن تذب عنه في حال غيبته عنك، قال عمر: ثلاث يصفين لك ود أخيك أن تسلم عليه إذا لقينه وتوسع له في المجلس وتدعوه بأحب أسمائه إليه، ومن صفو المحبة أن تخبره بمحبتك له وقد قال الرسول ﷺ: «إذا أحب أحدكم أخاه فليخبره»[3] وإنما أمر بالإخبار لأن ذلك يوجب زيادة حب فإنه إذا عرف أنك تحبه أحبك بالطبع لا محالة وإذا عرفت أنه يحبك زاد حبك له[4].

الحق الرابع: السكوت عنه وذلك أن تسكت عن ذكر عيوبه في حضرته وغيبته فتسكت عن كل أمر يكرهه جملة وتفصيلاً وتسكت عن الرد عليه فيما يتكلم فلا تماره ولا

---

(١) الإحياء ٢ / ٢٢١.

(٢) الإحياء ٢ / ٢٢١ ـ ٢٢٣.

(٣) رواه أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح والحاكم من حديث المقدام بن معد يكرب تخريج الإحياء ٢ / ٢٣٠.

(٤) الإحياء ٢ / ٢٢١.

تناقشه ولا تجسس عن أخباره وعيوبه وأن تسكت عن أسراره التي يلقيها إليك ، وإذا رأيته في طريق أو في حاجة لم تفاتحه بذكر غرضه أو صدوره فإن ذلك ربما يثقل عليه ، وأن تسكت عن ذكر أقاربه بما يسوءهم ، وأن تسكت عن قدح غيره فيه ، قال أنس : كان رسول الله ﷺ لا يواجه أحداً بما يكرهه[1]، وقال ﷺ : «إن الله يكره لكم البيان كل البيان يعني التصريح بالمساوىء كلها»[2]، وقال بعض الزهاد: المؤمن يطلب المعاذير والمنافق يطلب العثرات والله أعلم[3].

الحق الخامس : العفو عن الزلات والهفوات ، والصديق إذا هفا فليس يخلو حاله إما أن تكون هفوته في دينه بارتكاب معصية أو في حقك بتقصيره في الأخوة ، فإذا كانت الهفوة في الدين فعليك التلطف له في نصحه بما يقيم أوده ويجمع شمله ويعيده إلى الصلاح والاستقامة ، فإن أصر على الخطيئة وكره أن يرعوي فهل يقطع أو يواصل فيه تردد بين العلماء والقوي المصارمة في الله تعالى ، وإما أن تكون زلته في حقك بما يوجب الوحشة فالأولى العفو والاحتمال في كل ما يحتمل تنزيله على وجه حسن ويتصور تمهيد عذر فيه قريب أو بعيد فهو واجب لحق الأخوة[4].

الحق السادس : الدعاء للأخ في حياته وبعد وفاته بكل ما يحبه لنفسه وأهله ومن يتعلق به فتدعو له كما تدعو لنفسك ولا تفرق بين نفسك وبينه في دعائك فإن دعاءك له دعاء لنفسك على التحقيق ، قال ﷺ : «إذا دعا الرجل لأخيه بظهر الغيب قالت الملائكة : ولك مثل ذلك»[5] وفي حديث آخر: «يستجاب للرجل في أخيه ما لا يستجاب

---

(١) أخرجه أبو داود والترمذي في الشمائل والنسائي في عمل اليوم والليلة من حديث أنس وإسناده ضعيف ٢/٢٢٥ تخريج الإحياء ٢/٤٨١ . ولفظه كان لا يشافه امرء بما يكرهه .

(٢) هذا الأثر ذكره الغزالي في الإحياء ٢/٢٢٦ ولم يسنده ولم يخرجه العراقي ، والحديث في هذا الباب قوله ﷺ : «إن من البيان لسحراً» أخرجه الطبراني في الأوسط والحاكم في المستدرك من حديث أبي بكرة ورواه الحاكم أيضاً من حديث ابن عباس بسند ضعيف ، وحديث البذاءة والبيان شعبتان من النفاق أخرجه الترمذي وقال حسن غريب والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين من حديث أبي أمامة . قال العراقي في تخريج الإحياء ٢/٢٢٦ سند ضعيف .

(٣) الإحياء ٢/٢٣٣ .

(٤) الإحياء ٢/٢٣٤ - ٢٣٧ .

(٥) أخرجه مسلم من حديث أبي الدرداء .

له في نفسه»[1] وفي حديث آخر: «دعوة الأخ لأخيه في الغيب لا يرد»[2].

الحق السابع: الوفاء والإخلاص ومعنى الوفاء والثبات على الحب والإدامة له إلى الموت وبعد الموت مع أولاده وأصدقائه فإن الحب إنما يراد للآخرة فإن انقطع قبل الموت حبط العمل وضاع السعي ولهذا قال ﷺ في السبعة الذين يظلهم الله تعالى في ظله: «رجلان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا»[3] وقال بعضهم: «قليل الوفاء بعد الوفاة خير من كثير في الحياة، وروي أنه ﷺ أكرم عجوزاً دخلت عليه فقيل له في ذلك، فقال: «إنها كانت تأتينا أيام خديجة وإن كرم العهد من الدين»[4].

الحق الثامن: التخفيف وترك التكلف ومعنى ذلك أن لا يكلف أخاه ما يشق عليه فيريح على نفسه من مهماته وحاجاته ويرفهه عن أن يحمل شيئاً من أعبائه ولا يستمد منه من جاه ولا من مال ولا يكلفه التواضع له ولا التفقد لأحواله والقيام بحقوقه بل لا يقصد بمحبته إلا الله تعالى تبركاً بدعائه واستئناساً بلقائه واستعانة به على دينه وتقرباً إلى الله بالقيام بحقوقه، وقال بعضهم: من اقتضى من إخوانه ما لا يقتضونه فقد ظلمهم، ومن اقتضى منهم مثل ما يقتضونه فقد أتعبهم، ومن لم يقتض منهم فهو المتفضل عليهم، فهذا ما أردنا ذكره من حقوق الصحبة على جهة الاختصار والإيجاز[5].

التقرير الثالث
في بيان الصفات المعتبرة فيمن تختار صحبته

إعلم أنه لا يصلح للصحبة كل إنسان، قال الرسول ﷺ: «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل»[6] فلا بد من تميزه بخصال يرغب في صحبته من أجلها، وجملة ما نذكره من ذلك خمس خصال:

الخصلة الأولى: العقل فإنه رأس المال وهو الأصل فلا خير في صحبة الأحمق وإلى القطيعة والوحشة ترجع، والأحمق قد يضرك وهو يريد نفعك وإعانتك من حيث لا

---

(١) قال العراقي في تخريج الإحياء ٢/٢٣٧ لم أجده بهذا اللفظ ولأبي داود والترمذي وضعفه من حديث عبدالله بن عمرو «إن أسرع الدعاء إجابة دعوة غائب لغائب».

(٢) أخرجه الدارقطني في العلل من حديث أبي الدرداء وهو عند مسلم إلا أنه قال مكان «مستجابة» «لا ترد».

(٣) متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٤) أخرجه الحاكم من حديث عائشة وقال صحيح على شرط الشيخين وليس له علة، أنظر تخريج الإحياء ٢/٢٣٨.

(٥) الإحياء ٢/٢٠٤.

(٦) أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه والحاكم وقال صحيح من حديث أبي هريرة تخريج الإحياء ٢/٢١٧.

يدري، ولهذا قيل: مقاطعة الأحمق قربان إلى الله، وقال سفيان الثوري: النظر إلى وجه الأحمق معصية مكتوبة، ونريد بالعاقل الذي يفهم الأمور على ما هي عليه إما بنفسه وإما إذا فهم فهم[1].

الخصلة الثانية: حسن الخلق فلا بدّ من اعتباره إذ رب عاقل يدرك الأشياء على ما هي عليه ولكنه إذا غلب عليه غضب أو شهوة أو بخل أو جبن أطاع هواه وخالف ما هو المعلوم عنده لعجزه عن قهر ما هو مجبول عليه فلا خير في صحبته[2].

الخصلة الثالثة: الدين فلا خير في صحبة الفاسق المصر على فسقه لأن كل من يخاف الله فإنه لا يصر على كبيرة، وكل من لا يخاف الله فإنه لا تؤمن غائلته ولا يوثق بمصادقته بل يتغير بتغير الأغراض، وقد قال تعالى: ﴿**ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً**﴾ (الكهف: ٢٨) وقال تعالى: ﴿**واتبع سبيل من أناب إلي**﴾ (لقمان: ١٥) وقال تعالى: ﴿**فأعرض عمن تولى عن ذكرنا**﴾ (النجم: ٢٩) وفي مفهوم ذلك زجر عن صحبة الفاسق.

الخصلة الرابعة: البخل فلا ينبغي صحبة البخيل فإن صحبته تزري ولم يكن نافعاً لنفسه فيكون نافعاً لغيره، قال بعض الزهاد: النظر إلى البخيل يقسي القلب ولقاء البخيل كرب على قلوب المؤمنين، وقال ﷺ: «إن الله خلق البخل من مقته وجعل أسه في أصل شجرة الزقوم»[3] وقال ﷺ: «أي داء أدوى من البخل»[4] وقال الرسول ﷺ: «شر ما في الرجل شح هالع وجبن خالع»[5].

الخصلة الخامسة: الحرص على الدنيا فأما الحريص عليها فصحبته سم قاتل لأن الطباع مجبولة على التشبه والاقتداء، بل الطبع يسرق من الطبع من حيث لا يدري صاحبه، فمجالسة الحريص تحرك الحرص ومجالسة الزاهد تزهدك في الدنيا، فمن أجل ذلك تكره صحبة طلاب الدنيا ويستحب صحبة الراغبين في الآخرة، قال أمير المؤمنين

---

(١) الإحياء ٢/٢١٧ - ٢٢٠.

(٢) الإحياء ٢/٢١٨.

(٣) قال العراقي في تخريج الإحياء ٣/٣١٥ أخرجه الديلمي في مسند الفردوس ولم يخرجه ولده في مسنده ولم أقف له على إسناد.

(٤) أخرجه الحاكم من حديث أبي هريرة وقال صحيح الإسناد على شرط مسلم وللطبراني نحوه في الصغير من حديث كعب بن مالك بإسناد حسن تخريج الإحياء ٣/٣١٦.

(٥) أخرجه أبو داود من حديث جابر بسند جيد تخريج الإحياء ٣/٣١٥.

كرم الله وجهه: أحيوا الطاعات بمجالسة من يستحى منه، وقال لقمان لابنه: يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك فإن القلوب تحيا بالحكمة كما تحيا الأرض الميتة بوابل المطر، فأما أهل البدع والضلالات من أصحاب الأهواء ففي صحبتهم خطر عظيم وهو خوف السراية للبدعة إليك وتعدي شؤمها إلى نفسك، والمبتدع يستحق المقاطعة والمهاجرة فكيف تؤمن صحبته، وقال عمر: لا تصحب الفاجر فتتعلم من فجوره ولا تطلعه على سرك، واستشر في أمرك أهل الدين الذين يخشون الله في كل أمورهم[1].

---

(١) الإحياء ٢/٢١٥ ـ ٢١٦.

الباب السادس

في بيان الحب في الله والبغض فيه

إعلم أن ما هذا حاله فهو غامض دقيق فالحب عبارة عن ميل الطبع إلى الشيء الملتذ به فإن تأكد الميل فهو العشق وهو المحبة المفرطة، والبغض عبارة عن نفرة الطبع عن الشيء المؤلم المتعب فإذا قوي سمي مقتاً، فلنذكر ما يتعلق بالمحبة ثم نذكر ما يتعلق بالبغض فهاتان مرتبتان:

المرتبة الأولى
ما يتعلق بالمحبة

ويقع على وجوه أربعة:

الوجه الأول: حبك للشيء لذاته وما هذا حاله فهو ممكن وهو أن يكون في ذاته محبوباً لك على معنى أنك تلتذ برؤيته ومعرفته ومشاهدته والتفكه بأخلاقه لأنك تستحسنه فإن كل جميل لذيذ في حق كل من أدرك جماله وكل لذيذ فهو محبوب، ثم إن ذلك المستحسن إما أن يكون هو الصورة الظاهرة أعني حسن الخلقة وتمام القد وجمال الهيئة، وإما أن يكون هو الصورة الباطنة أعني حسن الأخلاق ونحو غزارة العلم وفصاحة اللسان وحسن المنطق، وكل ذلك مستحسن عند كل طبع سليم وعقل مستقيم ويلتذ به ويكون معجباً[1].

الوجه الثاني: أن يكون حبه لغير ذاته والمحبوب غير ذاته ولا شك أن الوسيلة إلى المحبوب محبوبة وما يحب لغيره كان ذلك الغير هو المحبوب بالحقيقة، ولهذا فإن

---

(١) الإحياء ٢/٢١٢.

الناس يحبون الذهب والفضة ولا غرض لهم فيهما إذ هما لا يطعمان ولا يشربان ولكنهما وسيلة إلى كل محبوب وغرض مطلوب فمن الناس من يحب غيره كما يحب الذهب والفضة من جهة أنهما وسيلتان إلى الغرض فيحبه لأنه يتوصل به إلى نيل جاه أو مال أو علم كما يحب الرجل سلطاناً لانتفاعه بماله أو جاهه.

الوجه الثالث: أن يحبه لا لذاته بل لغيره وذلك ليس راجعاً إلى حظوظ الدنيا بل يرجع إلى حظوظ في الآخرة فهذا أيضاً ظاهر لا غموض فيه وذلك كمن يحب أستاذه وشيخه في الآخرة وإحراز السعادة الأخروية فما هذا حاله يكون من جملة المحبين في الله، وهكذا في الآخرة وإحراز السعادة الأخروية فما هذا حاله يكون من جملة المحبين في الله، وهكذا فإنه يحب تلميذه لأنه يتلقف منه العلم وينال بواسطته رتبة التعليم ويترقى إلى درجة التعظيم في ملكوت السماء كما قال عيسى عليه السلام: من علم وعمل وعلم فذلك يدعى في ملكوت السموات عظيماً والله أعلم[1].

الوجه الرابع: أن يحب لله وفي الله لا لينال منه علماً ولا عملاً، وما هذا حاله فهو أعلى الدرجات وأدقها وأغمضها، وهذا القسم ممكن فإن من آثار الحب أن يتعدى من المحبوب إلى كل من يتعلق به ولو بعد، فمن أحب الله تعالى وغلب على قلبه حبه واستولى عليه حتى انتهى إلى كل حالة في الاشتهار فإنه يتعدى إلى كل موجود سواه من آثار قدرته، ومن أحب إنساناً أحب صنعته وخطه وجميع أفعاله، ولهذا فإن رسول الله ﷺ كان إذا وقع المطر استمطر وأناله جسمه، وقال: هذا قريب العهد بربه[2] وإذا حصل من الفواكه باكورة مسح بها وجهه وأكرمها وقال: إنها حديثة بربها[3].

المرتبة الثانية
في بيان ما يتعلق بالبغض

واعلم أن كل من أحب في الله فإنه لا بد أن يبغض في الله، فإنك إن أحببت إنساناً لأنه مطيع لله ومحبوب عنده، فإن عصاه فلا بد من أن تبغضه لأنه عاص لله ممقوت عنده، فهما متلازمان كما ترى، ثم إن أهل البغض هم أهل العداوة من الكفار والفساق وهم على صفات مختلفة وأحوال متباينة لأن المخالف لأمر الله لا يخلو حاله إما أن يكون

---

(١) الإحياء ٢/٢١٢.

(٢) الإحياء ٢/٢١٦.

(٣) الإحياء ٢/٢١٦.

مخالفاً في عقيدته أو في عمله فهاتان حالتان:

الحالة الأولى: أن يكون مخالفاً في عقيدته وتقع على أوجه ثلاثة:

الوجه الأول: منها: أن يكون كافراً فإن كان محارباً فهو مستحق للقتل والاسترقاق وليس بعد هذين إهانة، وإن كان مرتداً وجب قتله، وإن كان ذمياً فلا يجوز إيذاؤه إلا بالإعراض والتحقير له والإهانة إلى غير ذلك من الأذايا.

الوجه الثاني: المبتدع الذي يدعو إلى بدعته، فإن كانت البدعة بحيث يكفر بها فأمره أشد من الذمي لأنه لا يقر بجزية ولا يسامح بعقد ذمة، وإن كانت بدعته بحيث لا يكفر بها فأمره أخف من حكم الكافر ولكن النكير عليه أشد لأن شر الكافر مقصور عليه وشر هذا يتعدى.

الوجه الثالث: المبتدع العامي الذي لا يقدر على الدعاء ولا يخاف الاقتداء به وأمره أهون والأولى أن لا يعالج بالتغليظ والإهانة، بل يلطف به في النصح فإن قلوب العوام سريعة التقلب فيعرض عنه لأن في الإعراض زجر له عن بدعته.

الحالة الثالثة: أن يكون مخالفاً في عمله ثم يقع ذلك على أوجه ثلاثة:

الوجه الأول: وهو أشدها ما يتضرر به الناس كالظلم والغضب وشهادة الزور والغيبة والنميمة فهؤلاء الأولى هو الإعراض عنهم وترك مخالطتهم والانقباض عنهم وطردهم وإيحاشهم من جهة أن معصيتهم شديدة لما فيها من إيذاء الخلق.

الوجه الثاني: الذي يفسق بشربِ المسكر وإتيان فاحشة الزنا وترك الصلاة، فمن هذا حاله فإنه يضرب الحد على ارتكابه المعصية، فإن صودف على هذه المعصية وجب منعه بالضرب والحبس وغير ذلك، وإذا نزع عن ذلك وعلم أن ذلك له عادة فالواجب وعظه، وإن تحقق أن نصحه يمنع من العود فالواجب نصحه.

الوجه الثالث: أن تكون عنايته في الدعاء إلى الفسق والفجور وسائر المعاصي من الغناء وشرب المسكر والزنا بإحضار الآلات وتسهيلها وتهيئة الغناء بإحضار آلات اللهو والعيدان، فإن من هذه حاله يفسد على الناس أديانهم ويجتاحها فإن هذه معصية عظيمة فالواجب هو الإهانة له والإعراض والمقاطعة له حتى ينزع عما هو فيه من الدعاء إلى المعاصي. وقد تم غرضنا مما نريده من المحبة والبغض في الله تعالى[1].

---

(١) الإحياء ٢/٢١٦.

الباب السابع

في بيان الحقوق اللازمة للمسلمين لبعضهم على بعض لأجل الإسلام والدين

إعلم أن الإنسان إما أن يكون وحده أو يكون معه غيره وإذا تعذر عيش الإنسان إلا بمخالطة من هو من جنسه لم يكن بد من إدراك أدب المخالطة، والمخالطة لا بد لها من رابطة، واعلم أن أعم الروابط رابطة الإسلام فإنها من أقوى الروابط وقد عظم الله حرمتها ورفع شأنها وهي الأخوة في الدين، وقد اتخذ ﷺ أمير المؤمنين كرم الله وجهه أخاً له حيث قال: «علي بن أبي طالب أخي ووزيري وقاضي ديني»[1] وقال له: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي»[2].

فأما الخلة فهي فوق الصحبة والأخوة ولم يكن له أحد خليلاً، وقال: «لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن صاحبكم خليل الله»[3] لأن الخليل هو الذي تتخلل المحبة جميع أجزاء قلبه ظاهراً أو باطناً وتستوعبه، ولم يكن يستوعب قلبه ﷺ سوى حب الله، فكان ﷺ حبيب الله وخليل الله، وقد روي أنه صعد المنبر فرحاً مستبشراً

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير عن ابن عمر بلفظ «علي أخي في الدنيا والآخرة» ذكره المناوي في الجامع الأزهر المجلد الثاني (في حرف العين) وأخرجه صاحب مسند الفردوس بلفظ «علي يقضي ديني» ولا أظنها تصح، وحديث علي أخرجه النسائي وأبو داود وابن ماجه من حديث حبشي بن جنادة مرفوعاً بلفظ «علي مني وأنا من علي لا يؤدي عني إلا أنا وعلي» كشف الظنون ١/٢٣٦ برقم (٦١٢).

(٢) متفق عليه من حديث سعد بن أبي وقاص وهو حديث متواتر، أنظر قطف الأزهار للسيوطي ص ٢٨١.

(٣) متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري وابن عباس وللبخاري عن ابن الزبير ولمسلم عن ابن مسعود وجندب البجلي وذكره السيوطي في قطف الأزهار المتناثرة في الأحاديث المتواترة ص ٢٧٥ إنه حديث متواتر.

فقال: «إن الله قد اتخذني خليلاً فأنا حبيب الله وأنا خليل الله»[1].

وإما الإيثار فهو الإلقاء بالنفس والوقاية بها كما كان من أبي بكر في الغار من وقايته بنفسه عن نهش الحية، وكا كان من أبي طلحة إذ جعل شخصه وقاية لشخصه الكريم صلوات الله عليه[2]، ونحن الآن نبدأ بذكر حق أخوة الإسلام لأنها العامة والنافعة، وجملة ما نذكره من ذلك آداب ثلاثون:

أولها: أن يسلم عليه إذا لقيه ويجيبه إذا دعاه ويشمته إذا عطس ويعوده إذا مرض ويشهد جنازته إذا مات ويبر قسمه إذا أقسم[3].

وثانيها: أن يحب لكافة المسلمين ما يحب لنفسه ويكره لهم ما يكره لنفسه[4].

وثالثها: أن لا يؤذي أحداً من المسلمين بفعل ولا قول.

ورابعها: أن يتواضع لكل مسلم ولا يتكبر عليه فإن الله لا يحب كل مختال فخور.

وخامسها: أن لا يسمع فيه كلام متكلم ولا يصغي إلى بلاغات الناس في بعضهم بعض ولا يبلغ بعضهم ما يسمع من بعض.

وسادسها: أن لا يزيد في هجره على ثلاث في ترك رد السلام.

وسابعها: أن يحسن إلى من قدر عليه منهم ما استطاع، ولا يميز بين الأهل وغيرهم.

وثامنها: أن لا يدخل على أحد إلا بإذنه ويستأذنه ثلاثاً فإن لم يؤذن له انصرف.

وتاسعها: أن يخالق الجميع بخلق حسن ويعاملهم بأحسن طرائقهم.

وعاشرها: أن يوقر المشايخ ويرحم الصبيان والنسوان.

وحادي عاشرها: أن يكون مع كافة الخلق منطلق الوجه كثير البشرى.

---

(١) أخرجه الطبراني من حديث أبي أمامة بسند ضعيف بدون قوله «أنا حبيب الله وأنا خليل الله» تخريج الإحياء ٢/٢٤٧.

(٢) قصة النار معروفة مشهورة ولم أجد في الأحاديث التي ذكره نزول النبي ﷺ في النار، ذكر نهش الحية، والحديث في مسند أحمد ١/٣٣١ من حديث ابن عباس وفيه ١/٣٤٨.

(٣) كما ورد في ذلك عدة أحاديث منها ماروراه البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «حق المسلم على المسلم خمس فذكرها» وفي رواية لمسلم حق المسلم ست وفي حديث البراء المتفق عليه سبع وذكر منها إبرار القسم، وانظر رياض الصالحين للنووي ص ١٢٢.

(٤) كما ورد في حديث أنس عند البخاري ومسلم قال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

وثاني عاشرها : أن لا يعد مسلماً وعداً إلا ويفي له ولا يخلفه .

وثالث عاشرها : أن ينصف الناس من نفسه .

ورابع عاشرها : أن يزيد في رفعة من يذل نفسه ويزيده على علو منزلته وينزل الناس منازلهم[1] .

وخامس عاشرها : أن يصلح ذات البين بين المسلمين مهما وجد إلى ذلك سبيلاً .

وسادس عاشرها : أن يستر عورات المسلمين كلهم كما وردت به السنة .

وسابع عاشرها : أن يتقي مواضع التهمة صيانة لقلوب الناس عن التهم ولا يستفهم عن الغيبة .

وثامن عاشرها : أن يكون ساعياً لكل من له حاجة من المسلمين إلى من كانت له منزلة فيسعى في قضاء حوائجهم بما يقدر عليه .

وتاسع عاشرها : أن يصافح كل من وجد من المسلمين عند السلام عليه .

والعشرون : أن يصون عرض أخيه المسلم ونفسه وماله عن ظلم غيره مهما قدر عليه ويرد عنه ويناضل .

الحادي والعشرون : أن يشمت العاطس إذا قال الحمد لله .

الثاني والعشرون : أنه إذا بلي بذي خلق سيىء فينبغي أن يجامله ويتقيه .

الثالث والعشرون : أن يتجنب مخالطة الأغنياء ويختلط بالمساكين .

الرابع والعشرون : النصيحة لكل مسلم والجهد في إدخال السرور على قلبه .

الخامس والعشرون : أن يعود مرضاهم والدعاء لهم وإظهار الرأفة والرحمة لهم .

السادس والعشرون : أن يشيع جنائزهم وأن يقف حتى يدفن الميت كما ورد في الخبر[2] .

السابع والعشرون : أن يزور قبورهم والمقصود هو الدعاء والاعتبار وترقيق القلوب بزيارة القبور .

---

(١) لحديث عائشة انزلوا الناس منازله .

(٢) لحديث اتباع الجنائز .

الثامن والعشرون : خفض الجناح ولين العريكة والتواضع للمسلمين .

التاسع والعشرون : أن لا يستصغر أحداً من المسلمين حياً كان أو ميتاً .

الثلاثون : أن يكون عائداً إليهم بكل منفعة دافعاً لكل مضرة مهما كان قادراً على ذلك متمكناً منه .

فهذه جملة كافية تنبه على آداب المعاشرة مع عموم الخلق ، والجملة الجامعة لمحاسن الآداب مع عموم الخلق أن لا يستحقر أحداً ولا ينظر إلى أهل الدنيا بعين التعظيم لهم في حال دنياهم فإن الدنيا صغيرة عند الله تعالى صغير ما فيها ، ومهما عظم حال أهل الدنيا في نفسك فقد عظمت الدنيا في عينك فتسقط من عين الله .

ولا تبذل لهم دينك لتنال من دنياهم فتصغر في أعينهم ثم تحرم دنياهم ، فإن لم تحرم كنت قد استبدلت الذي هو أدنى بالذي هو خير ، ولا تعادهم حتى تظهر العداوة فيطول الأمر عليك في المعاداة ويذهب دينك ودنياك فيهم ويذهب دينهم فيك إلا إذا رأيت منكراً في الدين فعاد الفاعلين له على ذلك وانظر إليهم بعين الرحمة لهم لتعرضهم لمقت الله وسخطه وعقوبته لعصيانهم فحسبهم جهنم يصلونها وبئس المصير ، فلا تحقد عليهم ولا تسكن إليهم في مودتهم وثنائهم في وجهك وحسن بشرهم لك فإنك إن طلبت حقيقة ذلك لم تجد إلا في المائة واحداً وربما لا تجده ، ولا تشك إليهم أحوالك فيكلك الله إليهم ولا تطمع أن يكونوا لك في السر كما هم لك في العلانية فذلك طمع كاذب وأنّى تظفر به[1] .

ولا تطمع فيما في أيديهم فتستعجل الذل ولا تنال الغرض ، ولا تطل عليهم بكثرة استغنائك عنهم فإن الله يلجئك إليهم عقوبة لك على التكبر عليهم بإظهار الاستغناء ، وإذا سألت أحداً منهم حاجة فقضاها فهو أخ مستفاد فإن لم يقضها فلا تعاتبه فإنه يصير عدواً تطول عليك مقاساته ، ولا تشتغل بوعظ من لا ترى فيه مخايل القبول فإنه لا يسمع منك ويعاديك ، وليكن وعظك تعريضاً وإرسالاً من غير تخصيص على شخص بعينه ، ومهما رأيت منهم كرامة وخيراً فاشكر الله الذي سخرهم لك ، واستعذ بالله أن يكلك إليهم[2] .

وإن بلغك عنهم غيبة أو رأيت منهم شراً أو أصابك منهم ما يسوءك فكل أمرهم إلى الله واستعذ بالله من شرهم ولا تشغل نفسك بالمكافأة لهم فيزيد الضرر ويضيع العمر ،

---

(١) الإحياء ٢ / ٢٧٢ .

(٢) الإحياء ٢ / ٢٧٠ .

ولا تقل لهم لم تعرفوا موضعي ، واعلم أنك لو سألت ربك يجعل لك في قلوبهم موضعاً فإن الله هو المحبب والمبغض إلى القلوب ، وكن فيهم سميعاً لحقهم أصم عن باطلهم ، نطوقاً بحقهم صموتاً عن مساوئهم ، واحذر صحبة أكثر الناس فإنهم لا يقيلون عثرة ولا يغفرون زلة ولا يسترون عورة ويحاسبون على النقير والقطمير ويحسدون على القليل والكثير ينتصفون ولا ينصفون ويؤاخذون على الخطإ والنسيان ولا يعفون يعيرون الإخوان بالتهمة والبهتان فصحبة أكثرهم خسران وقطيعتهم رجحان ، إن.رضوا فظاهرهم الملق وإن سخطوا فباطنهم الحنق لا يؤمنون في حنقهم ولا يرجون في كثرة الملق فصحبة أكثرهم خسران وقطيعتهم رجحان فهم ظاهرهم ثياب وباطنهم ذئاب يقطعون بالظنون ويتغامزون خلفك بالعيون ويتربصون بصديقهم من الحسد ريب المنون ويحصون عليك العثرات في صحبتهم ليجبهوك بها في غضبهم ووحشتهم ، فلا تعول على مودة من لم تخبره حق الخبرة منهم فإن صحبته مرة في دار أو موضع واحد فتجربه في عزله وولايته وغناه وفقره أو تسافر معه أو تعامله في الدنانير والدراهم أو تقع في شدة فتحتاج إليه ، فإن رضيته في هذه الأحوال فاتخذه أباً لك إن كان كبيراً أو ابناً إن كان صغيراً أو أخاً إن كان مثلاً ، مصداق ذلك كله قوله ﷺ : «وجدت الناس أخْبَر تقله[1]» وقوله ﷺ : «كلكم طف الصاع»[2] وقوله ﷺ : «الناس كإبل مائة لا توجد فيها راحلة»[3] فليكن همك حفظ هذه الآداب والصبر على التخلق بها ، واسأل الله في كل الأحوال يحسن لك الخيرة في عاقبة أمرك لتظفر بالسعادة الأخروية والإحراز لخواتيم الخير وبالله التوفيق .

---

(١) رواه ابن عدي في الكامل من طريق بقية بن الوليد عن أبي بكر بن أبي مريم عن عطية بن قيس عن أبي الدرداء، وبقية بن الوليد وأبو بكر بن أبي مريم ضعيفان وأخرجه الطبراني في الكبير وأبو يعلى في المسند وأبو نعيم في الحلية كلهم عن أبي الدرداء وكذلك القضاعي في مسندالشهاب وضعفه ابن عدي وقال ابن الجوزي لا يصح وضعفه الهيثمي في مجمع الزوائد. أنظر المقاصد ص ٢٥ ، ٢٦ .

ومعنى الحديث اختبر الشخص تبغضه وتقله: من القلي وهو البغض.

(٢) لم أجد هذا الحديث بعد البحث الكثير عنه.

(٣) متفق عليه من حديث ابن عمر.

الباب الثامن

في بيان الحقوق للوالدين والأولاد وسائر الأرحام والأقارب

إعلم أن لكل واحد من هؤلاء حقاً يخالف الآخر لكن أخص الأرحام وآكدها وأمسها وأقربها هو حق الولادة فلا محالة أن الحق يتضاعف فيها، فنذكر حقوق الوالدين على الأولاد ثم نردفه بحقوق الأولاد على الوالدين، ثم نذكر حقوق سائر الأقارب، فهذه ثلاثة أصناف[1].

الصنف الأول
حق الوالدين على أولادهما

فقد قال تعالى: ﴿**فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً واخفض لهما جناح الذل من الرحمة**﴾ (الإسراء: ٢٣ - ٢٤) إلخ الآية فالله تعالى قد جمع في هذه الآية بين آداب خمسة نهي عن التأفيف ونهي عن نهرهما وأمر بالقول الكريم لهما، وأمر بخفض الجناح في حقهما وأمر بالدعاء لهما بالرحمة، وقال تعالى: ﴿**وبالوالدين إحساناً**﴾ (**الإسراء: ٢٣**).

وقال ﷺ: «لن يجزي ولد والده حتى يجده مملوكاً فيشتريه فيعتقه»[2]، وقال ﷺ: «بر الوالدين أفضل من الصلاة والصيام والحج والعمرة والجهاد في سبيل الله»[3] وقال ﷺ: «من أصبح مرضياً لأبويه أصبح له بابان مفتوحان إلى الجنة، ومن

(١) الإحياء ٢/٢٧٥.

(٢) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة تخريج الإحياء ٢/٢٧٥.

(٣) قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ٢/٤٧٥، لم أجده هكذا. وروى أبو يعلى والطبراني في الصغير والأوسط من =

أمسى مثل ذلك، ومن أصبح مسخطاً لهما أصبح له بابان مفتوحان إلى النار، ومن أمسى مثل ذلك وإن كان واحداً فواحد وإن ظلما وإن ظلما»[1] وقال ﷺ: «الجنة يوجد ريحها من مسيرة خمسمائة عام، ولا يجد ريحها عاق ولا قاطع رحم»[2] وإنه قال: «بر أمك وأباك وأختك وأخاك ثم أدناك فأدناك»[3].

ويروى أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام: من بر والديه وعقني كتبته باراً ومن عق والديه وبرني كتبته عاقاً، وقيل: لما دخل يعقوب على يوسف عليهما السلام لم يقم له فأوحى الله إليه أتتعاظم أن تقوم لأبيك وعزتي لا أخرجت من صلبك نبياً[4]، وقال ﷺ: «ما على أحد إذا أراد أن يتصدق بصدقة أن يجعلها عن أبويه إذا كانا مسلمين فيكون لوالديه أجرها ويكون له مثل أجرهما من غير أن ينقص من أجورهما شيء»[5].

قال مالك بن ربيعة: «بينا نحن عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من بني سلمة قال: يا رسول الله هل بقي علي شيء من بر والدي أبرهما به بعد وفاتهما؟ قال: نعم الصلاة عليهما والاستغفار لهما وإيفاء عهدهما وإكرام صديقهما وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما»[6] وقال ﷺ: «إن من أبر البر صلة الرجل ود أبيه»[7] وقال ﷺ: «بر الوالدة على الوالد ضعفان»[8] وقال ﷺ: «الوالدة أسرع إجابة»[9] قيل: يا رسول الله

= حديث أنس «أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: إني أشتهي الجهاد ولا أقدر عليه، قال: هل بقي من والديك أحد؟ قال: أمي، قال: قابل الله في برها، فإذا فعلت ذلك فأنت حاج ومعتمر ومجاهد» وإسناده حسن.

(١) أخرجه البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس، قال العراقي في تخريج الإحياء ٢ / ٢٧٥ لا يصح.

(٢) أخرجه الطبراني في الصغير من حديث أبي هريرة دون قوله «القاطع» وهي في الأوسط من حديث جابر وإسنادهما ضعيف.

(٣) أخرجه النسائي من حديث طارق المحاربي وأخرجه أحمد والحاكم ولأبي داود ونحوه من حديث كليب بن منفعة عن جده وله وللترمذي والحاكم وصححه من حديث بهز بن حكم عن أبيه عن جده نحوه. وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة نحوه تخريج الإحياء ٢ / ٢٧٥.

(٤) الإحياء ٢ / ٢٧٥ ـ ٢٧٦ قول موسى عليه السلام.

(٥) أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده بسند ضعيف دون قوله «إذا كانا مسلمين» تخريج الإحياء ٢ / ٢٧٦.

(٦) أخرجه أبو داود وابن ماجه وابن حبان والحاكم وقال صحيح الإسناد تخريج الإحياء ٢ / ٢٧٦.

(٧) أخرجه مسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٨) قال العراقي في تخريج الإحياء ٢ / ٢٧٦ غريب بهذا اللفظ وتقدم من حديث بهز بن حكيم وحديث أبي هريرة بهذا المعنى.

(٩) قال العراقي في تخريج الإحياء ٢ / ٢٧٦ لم أقف له على أصل.

ولم ذاك؟ قال: هي أرحم من الأب ودعوة الرحم لا تسقط»[1] وسأله رجل فقال: يا رسول الله من أبر؟ قال: والديك، قال: ليس لي والدان، فقال: بر ولدك فكما أن لوالديك حقاً عليك فلولدك حق عليك»[2].

وقال ﷺ: «رحم الله والداً أعان ولده على بره أي لم يحمله سوء العقوق على سوء عمله»[3] وقد قيل: ولدك ريحانتك سبعاً وخادمك سبعاً ثم هو عدوك أو شريكك[4] وقال أنس بن مالك: الغلام يعق عنه يوم السابع ويسمى ويماط عنه الأذى، فإذا بلغ ست سنين أدبه، فإذا بلغ سبع سنين عزل فراشه، فإذا بلغ ثلاث عشرة ضرب على الصلاة، فإذا بلغ ست عشرة زوجه، ثم أخذ بيده قال قد أدبتك وعلمتك وأنكحتك وأعوذ بالله من فتنتك في الدنيا والآخرة»[5] وقال ﷺ: «من حق الولد على والده أن يحسن اسمه ويحسن أدبه»[6]، وقال ﷺ: «كل غلام مرتهن بعقيقته أو جارية»[7].

الصنف الثاني
وهو حق الولد على الوالد

فقد روي أن الأقرع بن حابس رأى الرسول ﷺ يقبل ولده الحسن فقال: إن لي عشرة من الولد ما قبلت واحداً منهم، فقال له: «من لا يرحم لا يرحم»[8]، وقال الرسول ﷺ يوماً لعائشة: «اغسلي أسامة فجعلت أغسله وأنا أنفة، ثم أخذه وغسل وجهه ثم قبله وقال: قد أحسن بنا إذ لم تكن جارية»[9] ونظر يوماً إلى الحسن وهو يعثر

---

(١) بقية الحديث المتقدم.

(٢) قال العراقي في تخريج الإحياء ٢/٢٧٦ أخرجه أبو عمر النوقاتي في كتاب معاشرة الأهلين من حديث عثمان بن عفان دون قوله «فكما أن لوالديك»... الخ وهذه القطعة رواها الطبراني من حديث ابن عمر وقال الدرقطني في العلل الأصح وقفه على ابن عمر.

(٣) أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الثواب من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه ومن حديث ابن عمر رضي الله عنهما بسند ضعيف ورواه النوقاتي من رواية الشعبي مرسلاً تخريج الإحياء ٢/٢٧٦.

(٤) الإحياء ٢/٢٧٦.

(٥) أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الضحايا والعقيقة وفي إسناده من لم يسمع تخريج الإحياء ٢/٢٧٧.

(٦) أخرجه البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس ومن حديث عائشة وضعفهما تخريج الإحياء ٢/٢٧٧.

(٧) أخرجه أصحاب السنن من حديث سمرة وقال الترمذي حسن صحيح تخريج الإحياء ٢/٢٧٧.

(٨) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة.

(٩) قال العراقي تخريج الإحياء ٢/٢٧٧ لم أجده هكذا ولأحمد من حديث عائشة «أن أسامة عثر بعتبة الباب فدُمي فجعل النبي ﷺ يمصه ويقول: «لو كان أسامة جارية لحليتها ولكسوتها حتى أنفقها» وإسناده صحيح.

في ثيابه وهو على منبره فنزل وحمله[1] وقرأ قوله تعالى: ﴿ **إنما أموالكم وأولادكم فتنة** ﴾ (التغابن: ١٥).

وقال عبد الله بن شداد بينما رسول الله ﷺ يصلي بالناس إذ جاء الحسن فركب عنقه وهو ساجد فأطال السجود بالناس حتى ظنوا أنه حدث أمرفلما قضى صلاته قالوا: قد أطلت حتى ظننا أنه حدث أمر، فقال: إن ابني هذا قد ارتحلني فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته[2] وقال عليه السلام: «ريح الولد من ريح الجنة»[3].

وحكي عن معاوية أنه دخل إليه الأحنف بن قيس فلما دخل عليه قال: يا أبا بحر ما تقول في الولد؟ فقال: إنهم ثمار قلوبنا وعماد ظهورنا ونحن لهم أرض ذليلة وسماء ظليلة وبهم نصول على كل حيلة فإن طلبوا فأعطهم وإن غضبوا فأرضهم يمنحوك ودهم ويحبوك جهدهم، ولا تكن عليهم ثقلاً فيملوا حياتك ويحبوا وفاتك ويكرهوا قربك، فقال له معاوية: لله أنت يا أحنف لقد دخلت علي وأنا مملوء غيظاً على يزيد، فلما خرج الأحنف من عنده رضي عن يزيد وبعث إليه بمائتي ألف درهم ومائتي ثوب، وأرسل يزيد إلى الأحنف بمائة ألف درهم ومائة ثوب قاسمه على الشطر[4] فهذه الأخبار كلها دالة بتأكد[5] حق الوالدين وكيفية القيام بحقهما.

الصنف الثالث
في بيان حقوق الأقارب والأرحام

قال الرسول ﷺ: «يقول الله تعالى أنا الرحمٰن وهذه الرحم شققت لها اسماً من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها أبتته»[6] وقال ﷺ: «من سره أن ينسأ له في أثره ويوسع له في رزقه فليصل رحمه»[7] وفي رواية أخرى: «من سره أن يمد له في عمره

---

(١) أخرجه أصحاب السنن من حديث بريدة في الحسن والحسين معاً يمشيان ويعثران وقال الترمذي حسن غريب تخريج الإحياء ٢/٢٧٧.

(٢) رواه النسائي من رواية عبدالله بن شداد عن أبيه وقال فيه الحسن أو الحسين على الشك. ورواه الحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين.

(٣) أخرجه الطبراني في الصغير والأوسط وابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عباس وفيه مندل بن علي وهو ضعيف تخريج الإحياء ٢/٢٧٨.

(٤) أنظر الإحياء ٢/٢٧٨.

(٥) الحديث متفق عليه من حديث عائشة.

(٦) متفق عليه من حديث أنس والرواية الأخرى لمسلم أيضاً.

ويوسع له في رزقه فليصل رحمه»[1] وقيل لرسول الله ﷺ: «أي الناس أفضل؟ فقال: «أتقاهم وأوصلهم للرحم وآمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر»[2].

وقال أبو ذر: أوصاني خليلي ﷺ بصلة الرحم وإن أدبرت وأمرني أن أقول الحق وإن كان مراً»[3] وقال ﷺ: «إن الرحم معلقة بالعرش وليس الواصل بالمكافىء ولكن الواصل الذي إذا انقطعت رحمه وصلها»[4] وقال ﷺ: «إن أعجل الطاعة ثواباً صلة الرحم حتى إن أهل البيت ليكونون تجاراً فتنمو أموالهم ويكثر عددهم إذا وصلوا أرحامهم»[5] وقال زيد بن أسلم: لما خرج رسول الله ﷺ إلى مكة عرض له رجل فقال: إن كنت تريد النساء البيض والنوق الأدم فعليك ببني مدلج فقال ﷺ: «إن الله قد منعني من بني مدلج لصلتهم الرحم»[6] وقالت أسماء بنت أبي بكر: قدمت إليّ أمي فقلت يا رسول الله: إن أمي قدمت علي وهي مشركة أفأصلها؟ قال: نعم وفي رواية أخرى: «أفأعطيها؟ قال: نعم صليها»[7].

وقال ﷺ: «الصدقة على المساكين صدقة وعلى الرحم ثنتان»[8] فلما أراد أبو طلحة أن يتصدق بحائط له كان يعجبه عملاً بقوله تعالى: ﴿**لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون**﴾ (آل عمران: ٩٢) قال: يا رسول الله هي في الفقراء والمساكين؟ فقال ﷺ: «وجب أجرك أقسمها في أقاربك»[9]، وقال ﷺ: «أفضل الصدقة على ذي الرحم

---

(١) جزء من الحديث المتقدم.

(٢) رواه أحمد والطبراني من حديث درة بنت أبي لهب بإسناد جيد تخريج الإحياء ٢/٢٧٤.

(٣) رواه أحمد وابن حبان في صحيحه من حديث أبي ذر تخريج الإحياء ٢/٢٧٤.

(٤) أخرجه الطبراني والبيهقي من حديث عبدالله بن عمرو وهو عند البخاري دون قوله «الرحم معلقة بالعرش» وهي عند مسلم من حديث عائشة تخريج الإحياء ٢/٢٧٤.

(٥) أخرجه ابن حبان من حديث أبي بكرة، والخرائطي في مكارم الأخلاق ص ٤٨ والبيهقي في الشعب من حديث عبد الرحمن بن عوف بسند ضعيف تخريج الإحياء ٢/٢٧٤.

(٦) رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق وقال العراقي في تخريج الإحياء ٢/٢٧٤ مرسل صحيح.

(٧) حديث أسماء بنت أبي بكر متفق عليه.

(٨) أخرجه الترمذي وحسنه والنسائي وابن ماجه من حديث سلمان بن عامر الضبي وفيه «وعلى ذي الرحم صدقة وصلة».

(٩) حديث أبي طلحة حديث متفق من حديث إسحاق بن عبدالله بن أبي طلحة عن أنس بن مالك رضي الله عنه تخريج أحاديث الكشاف لابن حجر ٤/٢٧.

الكاشح»[1]، وهو في معنى قوله: «أفِضل الفضائل أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتصفح عمن ظلمك»[2] وروي أن عمر كتب إلى عماله أن مروا الأقارب أن يتزاوروا ولا يتجاوروا، قال ذلك لأن التجاور يوجب التزاحم على الحقوق وربما أورث الوحشة وقطيعة الرحم[3].

---

(١) أخرجه أحمد والطبراني من حديث أبي أيوب وفيه الحجاج بن أرطأة ورواه البيهقي من حديث أم كلثوم بنت عقبة، أنظر تخريج الإحياء ٢/٢٧٥.

(٢) أخرجه أحمد من حديث معاذ بن أنس بسند ضعيف وللطبراني نحوه من حديث أبي أمامة. تخريج الإحياء ٢/٢٧٥.

(٣) أنظر الإحياء ٢/٢٧٥.

الباب التاسع

في بيان حق الجوار

إعلم أن الجوار يقتضي حقاً وراء ما تقتضيه أخوة الإسلام فيستحق الجار المسلم ما يستحقه كل مسلم وزيادة بالمجاورة، قال ﷺ: «الجيران ثلاثة جار له حق واحد، وجار له حقان، وجار له ثلاثة حقوق. فالجار الذي له ثلاثة حقوق هو الجار المسلم ذو الرحم فله حق الجوار وحق الرحم، وأما الذي له حقان فالجار المسلم له حق الجيرة والإسلام، وأما الذي له حق واحد فالجار المشرك»[١]. فانظر كيف أثبت للمشرك حقاً بحق الجوار، وقد قال ﷺ: «أحسن مجاورة من جاورك يكن مسلماً أو مشركاً»[٢]، وقال ﷺ: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»[٣]، وقال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره»[٤]، وقال ﷺ: «لا يؤمن عبد حتى يأمن أخوه بوائقه وجاره بوادره»[٥] وقال ﷺ: «أول خصمين يوم القيامة جاران»[٦].

وقال ﷺ: «إذا أنت رميت كلب جارك فقد آذيته»[٧]، وروي أن رجلاً جاء إلى

---

(١) أخرجه الحسن بن سفيان والبزار في مسنديها، وأبو الشيخ في كتاب الثواب وأبو نعيم في الحلية من حديث جابر. وابن عدي من حديث عبدالله بن عمر وكلاهما ضعيف. تخريج الإحياء ٢/٢٧٠.

(٢) رواه البيهقي في الشعب، والخرائطي في مكارم الأخلاق ص ٣٩ من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف وهذا لفظ الخرائطي. وانظر التيسير للمناوي ٢/٢٢٣ - ٢٢٤.

(٣) متفق عليه من حديث عائشة وابن عمر تخريج الإحياء ٢/٢٧٠.

(٤) متفق عليه من حديث أبي شريح.

(٥) أخرجه البخاري من حديث أبي شريح.

(٦) أخرجه أحمد والطبراني من حديث عقبة بن عامر بسند ضعيف تخريج الإحياء ٢/٢٧٠.

(٧) قال العراقي في تخريج الإحياء ٢/٢٧٠ لم أجد له أصلاً.

ابن مسعود فقال: إن لي جاراً يؤذيني ويشتمني ويضيق عليّ، فقال: اذهب فإن هو عصى الله فيك فأطع الله تعالى فيه[1]، وقيل لرسول الله ﷺ: إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل ولكنها تؤذي جيرانها، فقال ﷺ: «هي في النار»[2]، وروى الزهري أن رجلاً أتى النبي ﷺ يشكو جاره فأمر النبي ﷺ: أن ينادي على باب المسجد: ألا إن أربعين داراً جوار، قال الزهري: أربعون هكذا وأربعون هكذا وأربعون هكذا وأربعون هكذا إلى الأربع جهات[3].

وقال ﷺ: «اليُمن والشؤم في المرأة والمسكن والفرس فيُمن المرأة خفة مهرها ويسر نكاحها وحسن خلقها، وشؤمها غلاء مهرها وعسر نكاحها وسوء خلقها، ويُمن المسكن سعته وحسن جوار أهله، وشؤمه ضيقه وسوء جوار جهله، ويمن الفرس تذلله وحسن خلقه وشؤمه صعوبته»[4] واعلم أنه ليس حق الجوار كف الأذى فقط بل احتمال الأذى فإن الجار مذ كف أذاه فليس في ذلك قضاء حق ولا يكفي احتمال الأذى بل لا بد من الرفق وابتداء الخير والمعروف إذ يقال إن الجار الفقير يتعلق بجاره الغني يوم القيامة ويقول: يا رب سل هذا لم منعني معروفه وسد بابه دوني؟[5].

وبلغ ابن المقفع أن جاراً له يريد أن يبيع داره في دين ركبه وكان يجلس في ظل داره فقال: ما قمت إذاً بحق ظل داره إن باعها معدماً فدفع إليه ثمن الدار وقال: لا تبعها، وشكا بعضهم كثرة الفئران في بيته فقيل له: لو اقتنيت هراً فقال: أخشى إن سمع الفأر صوت الهر فيهرب إلى دار الجيران فأكون قد أحببت لنفسي ما لا أحبه لهم. وجملة حق الجار أن تبدأه بالسلام ولا تطل معه الكلام ولا تكثر عن حاله السؤال وتعوده في المرض وتعزيه في المصيبة وتقوم معه في العزاء وتهنيه في الفرح وتظهر الشركة في

---

(١) أنظر الإحياء ٢/٢٧٠. أثر ابن مسعود هذا.

(٢) أخرجه أحمد والحاكم من حديث أبي هريرة وقال صحيح الإسناد.

(٣) أخرجه أبو داود في المراسيل ووصله الطبراني من رواية الزهري عن ابن كعب بن مالك عن أبيه ورواه أبو يعلى من حديث أبي هريرة وقال: «أربعون ذراعاً» قال العراقي في تخريج الإحياء ٢/٢٧١ وكلاهما ضعيف.

(٤) أخرجه مسلم من حديث ابن عمر وله من حديث سهل بن سعد نحوه وللترمذي من حديث حكيم بن معاوية ورواه ابن ماجه أيضاً وقال محمد بن معاوية. وللطبراني من حديث أسماء بنت عميس وحديث حكيم بن معاوية وحديث أسماء كلاهما ضعيف.
أنظر تخريج الإحياء ٢/٢٧١.

(٥) الإحياء ٢/٢٧١.

السرور معه وتصفح عن زلاته ولا تتطلع من السطح على عوراته ولا تضايقه بوضع الجذع على جداره ولا في مصب الماء في ميزابه ولا تطرح التراب في فنائه ولا تضيق طريقه إلى الدار ولا تتبعه النظر فيما يحمله إلى داره وتستر ما ينكشف لك من عوراته وتنعشه من صرعته إذا نابته نائبة، ولا تغفل عن ملاحظة داره عند غيبته ولا تستمع عليه كلامه وتغض بصرك عن حرمه، ولا تديم النظر إلى خادمه وتتلطف لولده في كلمته وترشده إلى ما يجهله من أمر دينه ودنياه[1].

وروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال قال رسول الله ﷺ: «أتدرون ما حق الجار؟ إن استعان بك أعنته وإن استنصر بك نصرته وإن استقرضك أقرضته وإن افتقر عدت إليه، وإن مرض عدته، وإن مات اتبعت جنازته، وإن أصابه خير هنأته، وإن أصابته مصيبة عزيته، ولا تستطل عليه بالبناء فتحجب عليه الريح إلا بإذنه، وإن اشتريت فاكهة فاهد له فإن لم تفعل فأدخلها سراً ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده، ولا تؤذه بقتار قدرك إلا أن تغرف له منها، أتدرون ما حق الجار؟، والذي نفسي بيده لا يبلغ حق الجار إلا من رحمه الله»[2].

وعن عبدالله بن عمر أنه أمر غلاماً يسلخ له شاة فقال: يا غلام إذا سلخت فابدأ بجارنا اليهودي حتى قال مراراً فقال له: كم تقول هذا!. فقال: إن رسول الله ﷺ لم يزل يوصينا بالجار حتى خشيت أنه سيورثه»[3]، وكان الحسن البصري لا يرى بأساً أن تطعم اليهودي والنصراني من أضحيتك»[4]، وقال أبو ذر: أوصاني خليلي ﷺ فقال: «إذا طبخت قدراً فأكثر ماءها ثم انظر بعض أهل بيت من جيرانك فاغرف لهم منها»[5]، وقالت عائشة: خلال المكارم عشر تكون في الرجل ولا تكون في أبيه وتكون في العبد ولا تكون في سيده يقسمها الله لمن أحب، صدق الحديث وصدق العقد وإعطاء السائل والمكافأة بالصنائع وصلة الرحم وحفظ الأمانة والتذمم للجار والتذمم للصاحب وقراء الضيف ورأسهن الحياء[6].

---

(١) الإحياء ٢/٢٧٢.

(٢) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده بطوله أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق ص ٤٠ ـ ٤١ وابن عدي في الكامل وهو ضعيف أنظر تخريج الإحياء ٢/٢٧٢.

(٣) أخرجه أبو داود والترمذي وقال حسن غريب. وانظر تخريج الإحياء ٢/٢٧٢.

(٤) الإحياء ٢/٢٧٢.

(٥) رواه مسلم.

(٦) الإحياء ٢/٢٧٣ أثر عائشة رضي الله عنها. وهو في مكارم الأخلاق للخرائطي ص ٤١.

وقال ﷺ : «سعادة المرء المسكن الواسع والجار الصالح والمركب الهني»[1]، وقال عبدالله : «قال رجل : يا رسول الله كيف لي أن أعلم إذا أحسنت أو أسأت؟ ، قال : إذا سمعت جيرانك يقولون قد أحسنت فقد أحسنت ، وإن سمعتهم يقولون قد أسأت فقد أسأت»[2]، وقال جابر قال رسول الله ﷺ : «من كان له جار في حائط أو شريك فلا يبعه حتى يعرضه عليه»[3]، وقال رسول الله ﷺ : «لا يمنعن أحدكم جاره أن يضع خشبته في حائطه»[4]، وكان أبو هريرة يقول : مالي أراكم عنها معرضين والله لأرمين بها بين أكتافكم»[5]، وقد ذهب بعض العلماء إلى ذلك ، وقال : من أراد الله به خيراً عسّله» ، قيل : وما عسله؟ قال : حببه إلى جيرانه»[6]، وقد نجز غرضنا مما نريده من ذكر ما ورد في حق الجار والله الموفق للصواب .

---

(١) رواه أحمد من حديث نافع بن الحارث وسعد بن أبي وقاص وحديث نافع أخرجه الحاكم وقال صحيح الإسناد. تخريج الإحياء ٢/٢٧٣ .

(٢) رواه أحمد والطبراني من حديث عبدالله بن مسعود وإسناده جيد تخريج الإحياء ٢/٢٧٣ .

(٣) أخرجه ابن ماجه والحاكم دون ذكر «الجار» وقال الحاكم صحيح الإسناد وهو عند الخرائطي في مكارم الأخلاق ص ٤٣ بلفظ المصنف ولابن ماجه من حديث ابن عباس نحوه ورجاله رجال الصحيح . أنظر تخريج الإحياء ٢/٢٧٣ .

(٤) متفق عليه من حديث أبي هريرة تخريج الإحياء ٢/٢٧٣ .

(٥) أنظر الإحياء ٢/٢٧٣ وهو جزء مما تقدم .

(٦) حديث من أراد الله به خيراً عسَّلَهُ . الحديث أخرجه أحمد من حديث أبي عتبة الخولاني، ورواه الخرائطي في مكارم الأخلاق ص ٤٣ والبيهقي في الزهد من حديث عمرو بن الحمق . ولفظ المصنف للخرائطي وقال في تخريج الإحياء ٢/٢٧٣ إسناده جيد .

الباب العاشر

في بيان حقوق المماليك

إعلم أن ملك النكاح قد سبق بيان حقوقه في آداب النكاح فأما ملك اليمين فهو يقتضي حقوقاً في المعاشرة ولا بد من مراعاتها، ولقد كان آخر ما أوصى به رسول الله أن قال: «اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم أطعموهم مما تأكلون واكسوهم مما تلبسون ولا تكلفوهم ما لا يطيقون فما أحببتم فأمسكوا وما كرهتم فبيعوا ولا تعذبوا خلق الله فإن الله ملككم إياهم ولو شاء لملكّهم إياكم»[1]، وقال ﷺ: «للمملوك طعامه وكسوته بالمعروف ولا يكلف من العمل ما لا يطيق»[2]، وقال ﷺ: «لا يدخل الجنة خبٌّ ولا متكبر ولا خائن ولا سيء الملكة»[3]، وقال عبدالله بن عمر: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كم يعفى عن الخادم؟، فصمت رسول الله ﷺ وقال: «اعف عنه كل يوم سبعين مرة»[4].

---

(١) قال العراقي في تخريج الإحياء ٢ / ٢٧٩ هو مفرق في عدة أحاديث. فروى أبو داود من حديث علي رضي الله عنه «اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم» وفي الصحيحين من حديث أنس «وما ملكت أيمانكم» ولهما من حديث أبي ذر «أطعموهم مما تأكلون وألبسوهم مما تلبسون ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم». ولفظ مسلم وفي رواية لأبي داود «من لايمكم من مملوكيكم فأطعموهم مما تأكلون واكسوهم مما تلبسون ومن لم يلايمكم منهم فبيعوه ولا تعذبوا خلق الله تعالى». وقال العراقي إسناده صحيح. وانظر سنن أبي داود (رقم الحديث ٥١٦١، ٥/٣٦١).

(٢) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

(٣) أخرجه أحمد مجموعاً والترمذي مفرقاً وابن ماجه مقتصراً على قوله «سيء الملكة» من حديث أبي بكر وليس عند أحد منهم «متكبر» وزاد أحمد والترمذي البخيل والمنان وهو ضعيف، وحسَّن الترمذي أحد طريقيه. أنظر تخريج الإحياء ٢ / ٢٧٩.

(٤) أخرجه أبو داود والترمذي وقال الترمذي حسن صحيح غريب تخريج الإحياء ٢ / ٢٧٩.

وكان عمر رضي الله عنه يذهب إلى العوالي كل يوم سبت فإذا وجد عبداً في عمل لا يطيقه وضع عنه منه»[1]، ويُروى عن أبي هريرة أنه رأى رجلاً على دابته وغلامه يسعى خلفه فقال له: يا عبدالله احمله فإنما هو أخوك وروحه مثل روحك فحمله ثم قال: لا يزال العبد يزداد من الله بعداً ما مُشي خلفه»[2]، وقالت جارية لأبي الدرداء: إني سممتك منذ سنة وما عمل فيك شيئاً، فقال: لم فعلت ذلك؟ فقالت: أردت الراحة منك فقال: اذهبي فأنت حرة لوجه الله تعالى»[3]، وقال الزهري: متى قلت للمملوك أخزاه الله فهو حر[4].

وقيل للأحنف بن قيس: ممن تعلمت الحلم؟، قال: من قيس بن عاصم. قيل: فما بلغ من حلمه؟ قال: بينما هو جالس في داره إذ أتته خادمة له بسفود عليه شواء فسقط السفود من يدها على ابن له فعقره فمات فدهشت الجارية فقال: «ليس يسكن روع هذه الجارية إلا العتق فقال: أنت حرة لا بأس عليك»[5]، وكان عون بن عبدالله إذا عصاه غلامه قال له: ما أشبهك بمولاك، مولاك يعصي مولاه وأنت تعصي مولاك، وأغضبه يوماً فقال: إنما تريد أن أضربك فأنت حر[6]، وكان عند ميمون بن مهران ضيف نزل به فاستعجل على جاريته بالعشاء فجاءت مسرعة ومعها قصعة مملوءة فعثرت وأراقتها على رأس سيدها ميمون، فقال: يا جارية أحرقتني فقالت: يا معلم الخير ومؤدب الناس ارجع إلى ما قال الله تعالى، قال: وما قال؟، قالت: ﴿ **والكاظمين الغيظ** ﴾ (آل عمران: ١٣٤)، فقال: قد كظمت غيظي، قالت: ﴿ **والعافين عن الناس** ﴾ (آل عمران: ١٣٤)، قال: قد عفوت عنك، قالت: زد فإن الله يحب المحسنين قال لها: أنت حرة لوجه الله تعالى[7].

وقال ابن المنكدر: إن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ ضرب عبداً له فجعل العبد يقول: أسألك بالله أسألك بالله فسمع رسول الله ﷺ صياح العبد فانطلق إليه فلما

---

(١) أثر عمر في الإحياء ٢/ ٢٧٩.

(٢) أنظر الإحياء ٢/ ٢٧٩ أثر أبي هريرة.

(٣) الإحياء ٢/ ٢٧٩ أثر أبي ذر.

(٤) أثر الزهري والأحنف بن قيس في الإحياء ٢/ ٢٨٠.

(٥) أثر الزهري والأحنف بن قيس في الإحياء ٢/ ٢٨٠.

(٦) أنظر الإحياء ٢/ ٢٨٠.

(٧) أنظر الإحياء ٢/ ٢٨٠.

رأى رسول الله ﷺ أمسك يده ، فقال رسول الله : سألك بالله فلم تعف فلما رأيتني أمسكت يدك ، قال : فإنه حرّ لوجه الله تعالى ، فقال : لو لم تفعل لسفعت وجهك النار[1]، وقال ﷺ : «العبد إذا نصح لسيده وأحسن عبادة ربه فله أجره مرتين»[2]، ولما عُتِق أبو رافع بكى وقال : كان لي أجران فذهب واحد»[3] ، وقال ﷺ : «عرض عليّ أول ثلاثة يدخلون الجنة وأول ثلاثة يدخلون النار ، فأما أول ثلاثة يدخلون الجنة فالشهيد ، وعبد مملوك أحبّ عبادة ربه ونصح لسيده ، وعفيف متعفف ذو عيال ، وأول ثلاثة يدخلون النار أمير مسلّط وذو ثروة لا يعطي حق الله وفقير فخور»[4] .

وعن أبي مسعود الأنصاري بينا أضرب غلاماً لي سمعت صوتاًمن خلفي اعلم أبا مسعود مرتين فالتفت فإذا رسول الله ﷺ فألقيت السوط فقال : الله لله أقدر عليك منك على هذا[5]، وقال ﷺ : «إذا ابتاع أحدكم الخادم فليكن أول شيء يطعمه الحلوى فإنه أطيب لنفسه»[6] رواه معاذ بن جبل ، وقال ﷺ : «إذا أتى أحدكم غلامه بطعامه فليجلسه معه فإذا لم يفعل فليناوله أكلة في يده وليقل : «كل هذه»[7]، ودخل رجل على سلمان وهو يعجن فقال : يا أبا عبدالله ما هذا؟ قال : بعثنا العامل في عمل فكرهنا أن نجمع له بين عملين»[8]، وقال ﷺ : «من كانت عنده جارية فعلّمها وأحسن إليها ثم أعتقها وتزوجها فذلك له أجران»[9]، وقال ﷺ : «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»[10].

وجملة حق المماليك أن يشركه في طعمته وكسوته ولا يكلفه فوق طاقته ولا ينظر إليه بعين الكبر والإزدراء وأن يعفو عن زلّته وتتفكر عند غضبك عليه لهفوته أو جنايته في

---

(١) أخرجه ابن المبارك في كتاب الزهد مرسلاً وفي رواية لمسلم من حديث أبي مسعود نحوه، تخريج الإحياء ٢/٢٨٠ .

(٢) متفق عليه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) أنظر الإحياء ٢/٢٨٠ .

(٤) أخرجه الترمذي وقال حسن وابن حبان من حديث أبي هريرة تخريج الإحياء ٢/٢٨٠ .

(٥) رواه مسلم من حديث أبي مسعود الأنصاري تخريج الإحياء ٢/٢٨١ .

(٦) أخرجه الطبراني في الأوسط والخرائطي في مكارم الأخلاق بسند ضعيف من حديث معاذ. تخريج الإحياء ٢/٢٨١ .

(٧) متفق عليه مع اختلاف لفظه قال العراقي في تخريج الإحياء ٢/٢٨١ وهو في مكارم الأخلاق للخرائطي بلفظ المصنف.

(٨) الإحياء ٢/٢٨١ .

(٩) متفق عليه من حديث أبي موسى.

(١٠) متفق عليه من حديث ابن عمر.

معاصيك وخيانتك في حق الله تعالى وتقصيرك في طاعته مع أن قدرة الله عليك فوق قدرتك عليه، وقال ﷺ: «ثلاثة لا يسأل عنهم رجل فارق الجماعة أو عصى إمامه فمات عاصياً فلا يسأل عنه، وامرأة غاب عنها زوجها، وقد كفاها مؤنة الدنيا فتبرجت بعده فلا يسأل عنها، ورجل ينازع الله رداءه ورداؤه الكبرياء»، وبتمامه يتم الكلام على المقالة الرابعة من مقالة العادات(١).

المقالة الخامسة
في بيان أخلاق النبوة وذكر المعجزات الباهرة

إعلم أن الغرض بهذه المقالة هو الإشارة إلى آداب الرسول ﷺ، وأخلاقه المأثورة عنه فيحصل في ذلك غرضان:

الغرض الأول: الإفصاح بما خصه الله تعالى به من الأخلاق الزاكية والشمائل المرضية التي لم تختص بأحد قبله، **والغرض الثاني**: تجديد الإيمان وتأكيده بمشاهدة أخلاقه الكريمة التي تشهد آحادها على القطع أنه أكرم خلق الله وأعلاهم عنده رتبة وأجلهم قدراً فكيف إذا حصل مجموعها فيكون أدخل في الدلالة وأظهر في الكشف والإبانة، فنذكر **أولاً**: ما خصه الله به من الخلائق الشريفة، ثم نذكر **ثانياً**: خلقه وصورته وما خصه الله به من الكمال، ثم نذكر **ثالثاً**: ما أيّده الله به من المعجزات الظاهرة والآيات الباهرة، فهذه ثلاثة أقسام نفصلها بمعونة الله تعالى: (٢)

القسم الأول
في بيان خلائقه وشمائله التي أكرمه الله بها

وقد اشتمل على أنواع عشرة:

النوع الأول: في بيان تأديب الله إياه بالقرآن، كان الرسول ﷺ كثير الضّراعة والابتهال إلى الله أن يزينه بمحاسن الأخلاق، وكان يقول: «اللهم حسّن خُلُقي كما حسنت خَلْقي اللهم جنبني منكرات الأخلاق»(٣)، فاستجاب الله تعالى دعاءه فأنزل عليه

---

(١) أخرجه الطبراني والحاكم وصححه من حديث فضالة بن عبيد، أنظر تخريج الإحياء ٢/٢٨١.

(٢) الإحياء ٢/٤٥٦.

(٣) أخرجه أحمد من حديث ابن مسعود ومن حديث عائشة وإسنادهما جيد وحديث ابن مسعود رواه أيضاً ابن حبان. تخريج الإحياء ٢/٤٥٦.

القرآن وكان خُلقه القرآن، قال بعض الصحابة: دخلت على عائشة فسألتها عن أخلاق رسول الله ﷺ، فقالت: أما تقرأ القرآن؟ قلت: بلى، قالت: كان خلق رسول الله ﷺ القرآن[1]، وقد أدبه الله بمثل قوله: ﴿**خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين**﴾ (الأعراف: ١٩٩)، وقوله تعالى: ﴿**إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون**﴾ (النحل: ٩٠)، وقال تعالى: ﴿**واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور**﴾ (لقمان: ١٧)، وقوله تعالى: ﴿**ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور**﴾ (الشورى: ٤٣)، وقوله تعالى: ﴿**فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين**﴾ (المائدة: ١٣)، وقوله تعالى: ﴿**وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم**﴾ (النور: ٢٢)، وقوله تعالى: ﴿**ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم**﴾ (فصلت: ٣٤)، وقوله تعالى: ﴿**والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين**﴾ (آل عمران: ١٣٤)، وقوله تعالى: ﴿**اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم**﴾ (الحجرات: ١٢)، وقوله تعالى: ﴿**ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً**﴾ (الحجرات: ١٢).

ولما انكسرت رباعيته يوم أحد فجعل الدم يسيل على وجهه وهو يمسحه ويقول: كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعوهم إلى ربهم[2]؟ فأنزل الله تعالى: ﴿**ليس لك من الأمر شيء**﴾ (آل عمران: ١٢٨)، وأمثال هذه التأديبات كثيرة في القرآن غير منحصرة وهو ﷺ هو المقصود الأول بالتأديب والتهذيب ثم منه تشرق الأنوار على كافة الخلائق فإنه ﷺ أُدّب بالقرآن ولهذا قال عليه السلام: «بعثت لأُتمّم مكارم الأخلاق»[3]، ثم إن الله تعالى لما أكمل له خلقه أثنى عليه بقوله: ﴿**وإنك لعلى خلق عظيم**﴾ (سورة ن آية: ٤)، فسبحانه ما أعظم شأنه وأجل امتنانه، فانظر إلى عميم فضله كيف أعطى ثم من بعده حمد وأثنى، ثم إنه ﷺ أخبر أن الله يحب مكارم الأخلاق بقوله ﷺ: «إن الله يحب مكارم الأخلاق ويكره سفسافها»[4]، فقد خصه الله تعالى بالصفات العالية بحسن المعاشرة ولين العريكة وكرم الطبيعة وبذل المعروف وإطعام الطعام

---

(١) كما ورد ذلك في حديث عائشة الذي أخرجه مسلم. قالت: «كان خلقه القرآن».

(٢) أخرجه مسلم من حديث أنس وذكر البخاري تعليقاً. تخريج الإحياء ٢/٤٥٧.

(٣) أخرجه أحمد والحاكم والبيهقي من حديث أبي هريرة وقال الحاكم صحيح على شرط مسلم.

(٤) أخرجه البيهقي من حديث سهل بن سعد متصلاً ومن رواية طلحة بن عبيد الله بن كريز مرسلاً ورجالها ثقات. أنظر تخريج الإحياء ٢/٤٥٧.

وإفشاء السلام وعيادة المريض إلى غير ذلك من الصفات المحمودة والخلائق المفقودة في غيره من سائر الخلق، فهذه جملة ما أشار إليه القرآن من تأديباته عليه السلام[1].

النوع الثاني: في بيان جملة من محاسنه ﷺ ولقد كان الرسول ﷺ مخصوصاً من الله تعالى بكريم الخصال وشريف الشمائل وحسن المعاشرة ولين الجانب وبذل المعروف وإطعام الطعام وإفشاء السلام وعيادة المريض وحسن الجوار مسلماً كان أو كافراً وإجابة الطعام والعفو والإصلاح والجود والكرم والسماحة وكظم الغيظ واجتناب ما حرمه الإسلام من اللهو والباطل والغناء والمعازف كلها وكل ذي وتر والكذب والغيبة والنميمة والبخل والشح والجفاء والمكر والخديعة وسوء الظن وقطيعة الأرحام وسوء الخلق والتكبر والفخر والإختيال والإستطالة والبذخ والفحش والتفاحش والحقد والحسد والطيرة والبغي والعدوان والظلم، ولقد كان ﷺ أحلم الناس[2]، وأشجعهم وأعدل وأعف الناس لم تمس يده امرأة لا يملك رقها أو عصمة نكاحها أو تكون ذات محرم منه[3]، وكان أسخى الناس لا يبيت عنده دينار ولا درهم[4]، وإن فضل ولم يجد من يعطيه وفاجأه الليل لم يأو إلى منزله حتى يبرأ منه إلى من يحتاج إليه[5]، ولا يأخذ مما آتاه الله إلا قوت عامه من أيسر ما يجد من التمر والشعير ويضع ذلك في سبيل الله تعالى[6]، ولا يسأل شيئاً إلا أعطاه[7] ثم يعود على قوت عامه فيؤثر منه حتى ربما احتاج قبل انقضاء العام إن لم يأته شيء من فضل الله[8].

---

(١) الإحياء ٢/٤٥٧.

(٢) كان أشجع الناس متفق عليه من حديث أنس. وحديث «كان أحلم الناس» أخرجه أبو الشيخ في كتاب أخلاق النبي ﷺ من حديث عبد الرحمن بن أبزي وهو مرسل، وحديث كان «أعدل الناس» أخرجه الترمذي في الشمائل من حديث علي بن أبي طالب في صفة النبي ﷺ من حديثه الطويل. وانظر تخريج الإحياء ٢/٤٥٨ مجموعة هذه الأحاديث من أخلاقه وصفاته. وحديث أعف الناس متفق عليه من حديث عائشة.

(٣) هو من حديث عائشة أيضاً.

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أنس ورجاله ثقات، تخريج الإحياء ٢/٤٥٨. وفي الصحيحين كان أجود الناس وهو من حديث ابن عباس.

(٥) أخرجه أبو داود من حديث بلال.

(٦) متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب.

(٧) رواه الطيالسي والدارمي من حديث سهل بن سعد ولمسلم نحوه عن أنس تخريج الإحياء ٢/٤٥٩.

(٨) رواه نحوه الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث ابن عباس.

وكان يخصف النعل ويرقع الثوب ويخدم في مهنة أهله[١] ويقطع اللحم معهن[٢]، وكان أشد الناس حياء لا يثبت بصره في وجه [٣] أحد، يجيب دعوة الحر والعبد[٤]، ويقبل الهدية ولو أنها جرعة لبن أو فخذ أرنب ويكافي عليها[٥] ويأكلها ولا يأكل الصدقة[٦]، ولا يستكبر عن إجابة الأمة والمسكين[٧]، يغضب لربه ولا يغضب لنفسه[٨]، وينفذ الحق وإن عاد ذلك بضرر عليه وعلى أصحابه، وعرض عليه الإنتصار بالمشركين على المشركين وهو في قلة وحاجة إلى إنسان واحد يزيده في عدد من معه فأبى، وقال إنا لا نستنصر بالمشركين[٩]، ووجد من فضلاء أصحابه قتيلاً بين اليهود فلم يكن من جهته حيف عليهم ولا زاد على من الحق عليه بل وداه بمائة ناقة من عنده وإن أصحابه لمحتاجون إلى بعير واحد يتقوون به على أمورهم[١٠].

وكان يعصب الحجر على بطنه من الجوع[١١] ومرة يأكل ولا يرد ما وجد، ولا يتورع من مطعم حلال إن وجد تمراً من دون خبز أكله، وإن وجد شواء أكله، وإن وجد خبز برّ أكله أو شعير أكله، وإن وجد حلواً أو عسلاً أكله[١٢]، وإن وجد لبناً دون خبز أكله واكتفى به، وإن وجد بطيخاً أو رطباً أكله[١٣]، ولا يأكل متكئاً[١٤]، ولا على خوان[١٥] متدلية باطن

---

(١) رواه أحمد من حديث عائشة ورجاله رجال الصحيح.

(٢) أخرجه أحمد من حديث عائشة وفي الصحيحين نحوه أنظر تخريج الإحياء ٢/٤٥٩.

(٣) أخرجه الشيخان من حديث أبي سعيد الخدري.

(٤) أخرجه الترمذي وابن ماجه والحاكم من حديث أنس وهو ضعيف تخريج الإحياء ٢/٤٥٩.

(٥) أخرجه البخاري من حديث عائشة ومن حديث أم الفضل فهما حديثان ومن حديث أنس.

(٦) متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٧) أخرجه النسائي والحاكم من حديث عبدالله بن أبي أوفى بسند صحيح.

(٨) أخرجه الترمذي في الشمائل من حديث هند بن أبي هالة.

(٩) رواه مسلم من حديث عائشة.

(١٠) متفق عليه من حديث سهل بن أبي حثمة ورافع بن خديج.

(١١) متفق عليه من حديث جابر.

(١٢) هذا معروف من أخلاقه ﷺ، وهو في الترمذي من حديث أم هانيء وقال حسن غريب ولمسلم من حديث أنس نحوه ومن حديث جابر أيضاً. أنظر تخريج الإحياء ٢/٤٦٠.

وللترمذي من حيث أم سلمة وللشيخين من حديث عائشة وللترمذي وصححه وابن ماجه من حديث ابن عباس وللنسائي من حديث عائشة في هذه الأخلاق أنظر تخريج الإحياء ٢/٤٦٠.

(١٣) جزء مما تقدم قبله.

(١٤) رواه البخاري من حديث أبي جحيفة وأصحاب السنن أيضاً.

(١٥) رواه البخاري من حديث أنس ما أكل على خوان ولا في سكرجة.

قدميه[1]، ولم يشبع من خبز برّ ثلاثة أيام متوالية حتى لقي[2] الله إيثاراً على نفسه لا فقراً ولا بخلاً يجيب الوليمة[3].

أشد الناس تواضعاً وأسكتهم من غير تكبر، وأبلغهم من غير تطويل وأحسنهم بشراً لا يهوله شيء من أمور الدنيا يلبس ما وجد فمرة شملة ومرة برد حبرة يمانياً والحبرة ما ليس مخيطاً وسطه من شقتين ومرة جبة صوف يتختم بالورق مرة في خنصره الأيمن وهو الأكثر ومرة في خنصره الأيسر، يركب ما وجد وأمكنه مرة فرساً ومرة بعيراً وتارة بغلة ومرة حماراً، وتارة يمشي راجلاً حافياً بلا رداء ولا عمامة ولا قلنسوة، يحب الطيب ويكره الرائحة الخبيثة، ويجالس الفقراء ويؤاكل المساكين، ويكرم أهل الفضل في أخلاقهم، ويتألف أهل الشرف بالبر لهم، فهذه جملة من أخلاقه الطيبة على جهة الإجمال ونردفه بما يكون منها على جهة التفصيل بمعونة الله تعالى[4].

النوع الثالث: في بيان كلامه وضحكه، كان عليه السلام أفصح الناس منطقاً وأحلاهم كلاماً[5]، ويقول: أنا أفصح العرب[6]، وإن أهل الجنة يتكلمون بلغة الرسول ﷺ[7]، وكان نزر الكلام سمح المقالة إذا نطق ليس بمهذار، وكان كلامه كخرزات النظم[8]، قالت عائشة: لا يسرد كسردكم هذا، كان كلامه قليلاً وأنتم تنثرون الكلام نثراً[9]، وكان أوجز الناس كلاماً وبذلك جاءه جبريل وكان مع الإيجاز يبلغ حيث أراد[10]، وينتهي إلى كل غاية من مقصوده، وكان يتكلم بجوامع الكلم لا فضول ولا

---

(١) قال العراقي في تخريج الإحياء ٢/٤٦١ لا أعرفه من فعله وذكر نحوه.

(٢) وقال العراقي في تخريج الإحياء ٢/٤٦١ هذا معروف من أخلاقه. وفي الحديث الذي رواه الطبراني في الأوسط أنه ﷺ قال: «لو دعيت إلى كراع لأجبت» وإسناده ضعيف.

(٣) أنظر تخريج هذه الأحاديث في تخريج الإحياء للعراقي ٢/٤٦١ فهي منقولة منه.

(٤) الإحياء ٢/٤٦١.

(٥) أخرجه أبو الحسن الضحاك في الشمائل وابن الجوزي في الوفاء بإسناد ضعيف من حديث بريدة.

(٦) أخرجه الطبراني في الكبير من حديث أبي سعيد الخدري وإسناده ضعيف. والحاكم من حديث عمر تخريج الإحياء ٢/٤٦٧.

(٧)) أخرجه الحاكم من حديث ابن عباس وصححه، بلفظ كلام أهل الجنة عربي.

(٨) أخرجه الطبراني عن أم معبد وفي الصحيحين نحوه من حديث عائشة.

(٩) قال العراقي في تخريج الإحياء ٢/٤٦٧، اتفق الشيخان على أول الحديث أما الجملتان الأخيرتان، فرواهما الخلعي في فوائده بإسناد منقطع.

(١٠) أخرجه عبد بن حميد من حديث عمر بسند منقطع، والدارقطني من حديث ابن عباس بإسناد جيد وشطره الأول متفق عليه تخريج الإحياء ٢/٤٦٧.

تقصير، كلام يتبع بعضه بعضاً، بين كلامه توقف يحفظه سامعه ويعيه[1]، وكان جهير الصوت أحسن الناس نغمة[2]، وكان طويل السكوت لا يتكلم في غير حاجة[3] ولا يقول المنكر ولا يقول في الرضا والغضب إلا الحق[4]، ويعرض عمن يكلمه بغير جميل[5] ويكني عما اضطره الكلام إليه مما يكره[6]، وكان إذا سكت تكلم جلساؤه ولا يتنازع عنده الحديث[7] ويعظ بالجد والنصيحة[8].

ويقول: «لا تضربوا القرآن بعضه ببعض فإنه أُنزل على وجوه»[9]، وأراد أنكم لا تجعلوه متناقضاً فإنه يمكن حمله على وجوه غير متناقضة متلائمة، وكان أكثر الناس تبسماً وضحكاً في وجوه أصحابه وتعجباً مما تحدثوا به وخلطاً لنفسه بهم[10]، وربما ضحك حتى تبدو نواجذه[11] وهو نهاية ضحكه إذا استغرق في ضحكه[12]، وربما ضحك حتى تبدو أنيابه[13]، وربما ضحك فبدت ثناياه[14]، وكان ضحك أصحابه عنده التبسم اقتداء به وتوقيراً له[15]، ولقد جاءه أعرابي يوماً وهو متغير اللون ينكره أصحابه فأراد أن يسأله

---

(١) رواه الترمذي في الشمائل من حديث هند بن أبي هالة وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة «بعثت بجوامع الكلم» ولأبي داود من حديث جابر نحوه وفيه شيخ لم يسم وله وللترمذي من حديث عائشة وإسناده حسن. تخريج الإحياء ٢/٤٦٧ - ٤٦٨.

(٢) أخرجه الترمذي والنسائي في الكبرى من حديث صفوان بن عسال. وأخرجه أحمد وللشيخين نحوه من حديث البراء.

(٣) أخرجه الترمذي في الشمائل من حديث هند بن أبي هالة.

(٤) أخرجه أبو داود من حديث عبدالله بن عمر ورواه الحاكم وصححه.

(٥) أخرجه الترمذي في الشمائل من حديث علي الطويل في صفته ﷺ.

(٦) رواه البخاري من حديث عائشة. وقوله «خذي فرصة ممسكةً فتطهري بها» متفق عليه من حديث عائشة تخريج الإحياء ٢/٤٦٨.

(٧) أخرجه الترمذي في الشمائل من حديث علي الطويل.

(٨) أخرجه مسلم من حديث جابر. وانظر الإحياء مع تخريج الإحياء للعراقي ٢/٤٦٨ وما بعدها.

(٩) أخرجه الطبراني من حديث عبدالله بن عمر بإسناد حسن تخريج الإحياء ٢/٤٦٨.

(١٠) أخرجه الترمذي من حديث عبدالله بن الحارث بن جزء وله في الشمائل نحوه من حديث علي وفي الصحيحين نحوه من حديث جرير.

(١١) متفق عليه من حديث ابن مسعود.

(١٢) هي رواية من الحديث المتقدم.

(١٣) تكملة لحديث الضحك.

(١٤) تكملة لحديث الضحك.

(١٥) أخرجه الترمذي في الشمائل من حديث هند بن أبي هالة في أثناء حديثه الطويل.

فقالوا: لا تفعل يا أعرابي فإنا ننكر لونه، فقال: دعوني فوالذي بعثه بالحق نبياً لا أدعه حتى يبتسم فقال: يا رسول الله بلغنا أن المسيح الدجال يأتي الناس بالثريد وقد هلكوا جوعاً أفترى بأبي أنت وأمي أن أكف عن ثريده تعففاً وتنزهاً حتى أهلك هزالاً أم أضرب في ثريده حتى إذا تضلعت آمنت بالله وكفرت به فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه ثم قال: يغنيك الله بما يغني عباده المؤمنين[1].

وكان من أحسن الناس تبسماً وأطيبهم نفساً ما لم ينزل عليه قرآن أو يذكر الساعة أو يخطب خطبة موعظة، وكان إذا سُرّ أو رضي فهو أحسن الناس رضاً وكأن وجهه قطعة قمر، وإن وعظ وعظ بجد، وإن غضب ولم يكن يغضب إلا لله لم يقم لغضبه شيء، وهكذا كان في أموره كلها، وإذا نزل به أمر فوّض أمره إلى الله وتبرأ من الحول والقوة إلا به واستنزل الهدى من عند ربه ويقول: «اللهم أرني الحق حقاً وارزقني اتباعه، وأرني المنكر منكراً وارزقني اجتنابه، وأعذني من أن يشبه عليّ فأتبع هواي من غير هدىً منك، واجعل هواي تبعاً لطاعتك، وخذ رضا نفسك من نفسي في عافية، واهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي إلى صراط مستقيم»[2].

النوع الرابع: في بيان أخلاقه عند الطعام، كان الرسول ﷺ، يأكل ما وجد[3]، وكان أحبّ الطعام إليه ما كان على صفف[4]، والصفف ما كثرت عليه الأيدي، وكان إذا وضع الطعام قال: «بسم الله اللهم اجعله نعمة مشكورة تصل به نعمة الجنة»[5]، وكان كثيراً إذا جلس يأكل يجمع بين ركبتيه وبين قدميه وتكون الركبة فوق الركبة والقدم فوق القدم ويقول: «إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد»[6]، وكان لا يأكل الحار ويقول: إنه غير ذي بركة وإن الله لم يطعمنا ناراً فأبردوه[7]، وكان يأكل مما

---

(١) قال العراقي هو حديث منكر لم أقف له على أصل. وأنظر تخريج الإحياء ٢/٤٦٨ - ٤٦٩.

(٢) قال العراقي في تخريج الإحياء ٢/٤٦٩ لم أقف لأوله على أصل، وروى المستغفري في الدعوات نحوه من حديث أبي هريرة ولمسلم من حديث عائشة بلفظ «أهدني لما اختلف فيه».

(٣) تقدم في ص ٤٣٧ من هذا الكتاب في التعليق رقم (٣) من حديث أم هانيء وغيرها.

(٤) أخرجه أبو يعلى والطبراني في الأوسط وابن عدي في الكامل من حديث جابر بسند حسن تخريج الإحياء ٢/٤٧٠.

(٥) قال العراقي في تخريج الإحياء ٢/٤٧٠، أما التسمية فرواها النسائي بإسناد صحيح برواية من خدم النبي ﷺ ثمان سنين أما بقية الحديث فلم أجده.

(٦) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه من رواية أيوب تخريج الإحياء ٢/٤٧٠.

(٧) أخرجه البيهقي من حديث أبي هريرة بإسناد صحيح تخريج الإحياء ٢/٤٧٠.

يليه[1] ويأكل بأصابعه الثلاث[2]، وربما استعان بالرابعة [3] ولم يكن يأكل بإصبعين ويقول: «إن ذلك أكل الشياطين»[4]، وجاءه عثمان بن عفان بفالوذج فأكل منه وقال: ما هذا يا أبا عبدالله؟ فقال: بأبي وأمي أنت يا رسول الله نجعل السمن والعسل في البرمة ونضعها على النار ثم نغليه، ثم نأخذ مخّ الحنطة إذا طحنت فنلقيه على السمن والعسل ثم نسوطه حتى ينضج فيأتي كما ترى، فقال رسول الله ﷺ: «إن هذا طعام طيب»[5]، وكان يأكل خبز الشعير غير منخول[6] ويأكل القثاء الرطب بالملح[7].

وكان أحب الفواكه إليه الفاكهة الرطبة البطيخ والعنب[8]، وكان يأكل البطيخ بالخبز والسكر[9]، وربما أكله بالرطب [10] ويستعين باليدين جميعاً، وأكل يوماً رطباً كان في يمينه وكان يحفظ في يساره فمرت شاة فأشار إليها بالنوى فأكلته وهو في كفه الأيسر

---

(1) أخرجه أبو الشيخ ابن حبان من حديث عائشة وفي إسناده رجل لم يسم، تخريج الإحياء ٢ / ٤٧٠.

(2) أخرجه مسلم من حديث كعب بن مالك.

(3) رواه أبو بكر الشافعي في الغيلانيات من حديث عامر بن ربيعة وفيه من هو هالك. ونحوه عن الزهري مرسلاً في مصنف ابن أبي شيبة، تخريج الإحياء ٢ / ٤٧٠.

(4) أخرجه الدارقطني في الافراد من حديث ابن عباس بسند ضعيف.

(5) المعروف حديث عثمان في الخبيص. رواه البيهقي في الشعب ٢ / ٢٩٥ القسم الثاني ٥ / ٣٧ من حديث ليث بن أبي سليم وهو منقطع ورواه أيضاً هو الطبراني في الثلاثة مجمع الزوائد والحاكم في المستدرك ٤ / ١٠٩ ـ ١١٠ وصححه ووافقه الذهبي من حديث عبدالله بن سلام. أما حديث الفالوذج فرواه ابن ماجه بإسناد ضعيف من حديث ابن عباس وقال ابن الجوزي إنه باطل لا أصل له. تخريج الإحياء ٢ / ٤٧١. ومجمع الزوائد ٥ / ٣٧ حديث الخبيص ومجمع البحرين ٣ / ٣٨٤ ورواه الحارث منقطعاً أنظر إتحاف السادة ٧ / ١١٧. والمطالب العالية ص ٣٤٥ المسندة.

(6) أخرجه البخاري من حديث سهل بن سعد.

(7) متفق عليه من حديث عبدالله بن جعفر. أما قوله بالملح فهو من حديث عائشة، أخرجه أبو الشيخ وفي وإسناده من هو كذاب، ورواه ابن عدي وفي إسناده رجل متروك، أنظر تخريج الإحياء ٢ / ٤٧١.

(8) أخرجه أبو نعيم في الطب النبوي من حديث أمية بن زيد. وأخرجه ابن عدي في الكامل والطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب من حديث أنس وابن عدي من حديث عائشة وكلها ضعيفة. تخريج الإحياء ٢ / ٤٧١.

(9) قال العراقي في تخريج الإحياء ٢ / ٤٧١. أما أكل البطيخ فلم أره. وإنما حديث أكل العنب بالخبز، رواه ابن عدي من حديث عائشة وإسناده ضعيف وأما أكله بالسكر فلم أر له أصلاً إلا في حديث منكر معضل رواه أبو عمر النوقاتي في كتاب البطيخ وفيه كذاب.

(10) أخرجه الترمذي والنسائي من حديث عائشة. وحسنه الترمذي وابن ماجه من حديث سهل بن سعد تخريج الإحياء ٢ / ٤٧١. والحديث أخرجه ابن عدي والعقيلي من حديث العباس ومن حديث عبدالله بن عباس وكلاهما ضعيف.

وهو يأكل بيمينه حتى فرغ وانصرفت[١]، وكان ربما أكل العنب خرطاً[٢] يُرى زلاله على لحيته كحدر اللؤلؤ وهو الماء الذي يقطر منه، وكان أكثر طعامه التمر والماء[٣]، وكان يجمع اللبن والتمر ويسميهما الأطيبين[٤]، وكان أحب الطعام إليه اللحم وقال: «هو يزيد في السمع وهو سيد الطعام في الدنيا والآخرة، ولو سألت ربي أن يطعمنيه كل يوم لفعل»[٥]، ويأكل الثريد باللحم والقرع[٦]، وكان يحب القرع ويقول: «إنها شجرة أخي يونس»[٧] قالت عائشة رضي الله عنها: كان يقول: «إذا طبختم قدراً فأكثروا فيه من الدباء فإنه يشد قلب الحزين»[٨]، وكان يأكل لحم الطير الذي يصاد، وكان لا يتبعه ولا يصيده ويحب أن يصاد له ويؤتى به فيأكله[٩]، وكان إذا أكل اللحم يطأطئ إليه رأسه ويرفعه إلى فيه رفعاً ثم ينهشه انتهاشاً[١٠]، وكان يأكل الخبز والسمن[١١]، وكان يحب من الشاة الذراع والكتف»[١٢]ومن البذر الدباء ومن الأصباغ الخل[١٣]ومن التمر العجوة، ودعا في العجوة بالبركة وقال: «هي من الجنة وشفاء من السُم والسحر»[١٤].

وكان يحب من البقول الهندباء والباذروج والبقلة الحمقاء التي يقال لها

---

(١) رواه أحمد من حديث عبدالله بن جعفر أما حديث الشاة فرواه أبو بكر الشافعي في الفوائد من حديث أنس بإسناد ضعيف.

(٢) ابن عدي في الكامل بسند ضعيف فيه سلمان بن الربيع الكوفي وكادح بن رحمة متروك. والبيهقي في السنن القسم الثاني ٢/٢٩٩. وانظر الموضوعات لابن الجوزي ٢/٢٨٧. والمجروحين لابن حبان ١/٢٩٠. واللآلىء ٢/٢١١. والضعيفة للألباني ١/١٤١.

(٣) رواه البخاري من حديث عائشة.

(٤) أخرجه أحمد من رواية إسماعيل بن خالد ورجاله ثقات.

(٥) أخرجه أبو الشيخ والترمذي من حديث جابر.

(٦) مسلم من حديث أنس.

(٧) أخرجه النسائي وابن ماجه من حديث أنس.

(٨) أبو بكر الشافعي في فوائده.

(٩) أخرجه الترمذي من حديث أنس وهو ضعيف من حديث الطير، وهو في المستدرك.

(١٠) رواه أبو داود من حديث صفوان بن أمية.

(١١) متفق عليه من حديث أنس.

(١٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(١٣) الإحياء ٢/٤٧١.

(١٤) رواه البزار والطبراني في الكبير من حديث عبدالله بن الأسود.

الرجلة[١]، وكان يكره الكليتين لمكانهما من البول[٢]، ولا يأكل من الشاة سبعاً الذكر والأُنثيين والمرارة والمثانة والغدد والحيا» وهو الفرج والدم[٣] وكان لا يأكل الثوم ولا البصل ولا الكراث[٤]، وما ذم طعاماً قط لكن إن أعجبه أكل وإن كرهه تركه وإن عابه لم يُبَغضه إلى غيره[٥]،وكان يعاف الضب [٦] والطحال [٧] ولا يحرمهما، وكان يلعق آخر الصحفة ويقول: «آخر الطعام بركة» [٨] ، وكان يلعق أصابعه من الطعام حتى تحمر [٩] ، وكان لا يمسح يده بالمنديل حتى يلعق أصابعه واحدة واحدة ويقول: «إنه لا يدري في أي الأصابع البركة»[١٠]، فإذا فرغ قال: «اللهم لك الحمد أطعمت واسبغت وأسقيت وأرويت ، لك الحمد غير مكفور ولا مودع ولا مستغنى عنه»[١١] ، وكان إذا أكل الخبز واللحم خاصة غسل يديه غسلاً جيداً ثم يمسح بفضل الماء على وجهه[١٢] .

وكان يشرب في ثلاث دفعات له فيها تسميات وفي أواخرها ثلاث تحميدات[١٣]، وكان يمص الماء مصاً ولا يعب[١٤] عباً ويعب اللبن عباً وربما كان يشرب بنفس واحد حتى

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة ولأبي الشيخ من حديث ابن عباس ومن حديث أبي هريرة ومن حديث أنس أنظر تخريج الإحياء ٢/٤٧٣ ـ ٤٧٤ في تخريج هذه الأحاديث المتقدمة كلها. أخرجه أبو نعيم في الطب من حديث ابن عباس وهو حديث ضعيف.

(٢) قال العراقي في تخريج الإحياء ٢/٤٧٣ رويناه في جزء من حديث أبي بكر ابن محمد بن عبدالله بن الشخير. من حديث ابن عباس وفيه أحد الكذابين.

(٣) أخرجه ابن عدي والبيهقي من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف تخريج الإحياء ٢/٤٧٣ .

(٤) رواه مالك في الموطأ عن الزهري عن سليمان بن يسار مرسلاً ووصله الدارقطني في غرائب مالك عن الزهري عن أنس وفي الصحيحين من حديث جابر نحوه ولمسلم من حديث أبي أيوب نحوه أيضاً. تخريج الإحياء ٢/٤٧٣ .

(٥) متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٦) حديث الضب في الصحيحين من حديث ابن عباس.

(٧) أخرجه البيهقي موقوفاً على زيد بن ثابت تخريج الإحياء ٢/٤٧٣ .

(٨) أخرجه البيهقي في الشُعب من حديث جابر ولمسلم من حديث أنس نحوه.

(٩) رواه مسلم من حديث كعب بن مالك تخريج الإحياء ٢/٤٧٣ .

(١٠) رواه مسلم من حديث جابر.

(١١) أخرجه الطبراني بسند ضعيف وهو في البخاري من حديث أبي أمامة.

(١٢) رواه أبو يعلى من حديث ابن عمر بسند ضعيف.

(١٣) أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة. ولمسلم نحوه عن أنس.

(١٤) أخرجه الطبراني والبغوي وابن عدي من حديث بهز وهو حديث ضعيف.

يفرغ[٧][١] وكان لا يتنفس في الإناء بل ينحرف عنه[٢] ،وكان يدفع فضل سؤره إلى من عن يمينه[٣] وإن كان من عن يساره أجل رتبة قال للذي على يمينه السُّنّة أن تعطى فإن أحببت آثرتهم[٤] ، وأُتي بإناء فيه عسل ولبن فأبى أن يشرب منه وقال: «شربتان في شربة وإدامان في إناء واحد ثم قال لا أُحرمه لكني أكره الفخر والحساب بفضول الدنيا غداً وأُحب التواضع ، وأن من تواضع لله تعالى رفعه الله»[٥] وكان في بيته أشد حياء من العواتق[٦] لا يسألهم طعاماً ولا يشتهي عليهم إن أطعموه أكل وما أعطوه قبِل وما سقوه شرب[٧]، وكان ربما قام فأخذ ما يأكل ويشرب بنفسه[٨]، فهذه جملة من أدبه في طعامه وشرابه .

النوع الخامس : في بيان آدابه وأخلاقه في اللباس ، كان ﷺ يلبس ما وجد من إزار ورداء وقميص وجبة وغير ذلك[٩]، وكان يعجبه الثياب الخضر»[١٠]، وكان أكثر لباسه البياض ويقول: «ألبسوها أحياءكم وكفنوا فيها موتاكم»[١١]، وكان يلبس القباء المحشو للحرب وغير المحشو[١٢] وكان له قباء من سندس فتحس خضرته على بياض لونه[١٣]، وكانت ثيابه كلها مشمّرة فوق الكعبين ويكون الإزار فوق ذلك إلى نصف

---

(١) أخرجه أبو الشيخ من حديث زيد بن أرقم بإسناد ضعيف والحاكم وصححه عن أبي قتادة.

(٢) أخرجه الحاكم من حديث أبي هريرة وقال صحيح الإسناد.

(٣) متفق عليه من حديث أنس.

(٤) متفق عليه من حديث سهل بن سعد.

(٥) رواه البزار من حديث طلحة بن عبيد الله وسنده ضعيف. وانظر هذه الأحاديث في تخريج الإحياء ٢/ ٢٧٤.

(٦) رواه البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد.

(٧) في الصحيحين من حديث عائشة وللنسائي وأبي داود.

(٨) أخرجه أبو داود من حديث أم المنذر بنت قيس وإسناده حسن وللترمذي وصححه ابن ماجه من حديث كَبشة.

(٩) متفق عليه من حديث عائشة ولهما من حديث أنس نحوه.

(١٠) الإحياء ٢/ ٢٧٤.

(١١) وأخرجه ابن ماجه والحاكم من حديث ابن عباس وقال الحاكم صحيح الإسناد. ولأصحاب السنن من حديث سمرة وقال الترمذي حسن صحيح وأخرجه الحاكم وصححه على شرط مسلم.

(١٢) أخرجه البخاري ومسلم من حديث المسور بن مخرمة والطريق التي فيها أنه لبسه، علقها البخاري.

(١٣) أخرجه أحمد من حديث أنس وفي الصحيحين نحوه عن أنس.

الساق[1]، وكان قميصه مشدود الإزار[2]. وربما حل الإزار في الصلاة[3] وغيرها، وكانت له ملحفة مصبوغة بالزعفران وربما صلّى بالناس فيها وحدها[4] وربما لبس الكساء وما عليه غيره[5]، وكان له كساء ملبد يلبسه ويقول: «إنما أنا عبد ألبس كما يلبس العبد»[6].

وكان له ثوبان لجمعته خاصة سوى ثيابه في غير الجمعة[7]، وربما لبس الإزار الواحد ليس عليه غيره يعقد عليه طرفيه بين كتفيه، وربما آثر به الناس على الجنائز[8]، وربما صلّى في بيته بالإزار الواحد ملتحفاً مخالفاً بين طرفيه[9]، وقد يكون ذلك الإزار الذي جامع فيه يومئذ[10]، وكان ربما صلى بالليل بالإزار ويرتدي ببعض الثوب مما يلي هدبه ويلقي البقية على بعض نسائه فيصلي كذلك[11]، ولقد كان له كساء أسود فوهبه قالت أم سلمة: بأبي وأمي ما فعل ذلك الكساء الأسود، قالت ما رأيت شيئاً قط كان أحسن من بياضك على سواده[12]، وقال أنس: وربما يصلي الظهر في شملة عاقداً بين طرفيها[13]، وكان يتختم[14] وربما خرج وفي خاتمه خيط مربوط يذكر به الشيء [15]وكان

---

(1) رواه أبو الفضل محمد بن طاهر في كتاب التصوف من حديث عبدالله بن بسر وإسناده ضعيف. وأخرجه الحاكم من حديث ابن عباس وصححه. والترمذي في الشمائل.

(2)) رواه أبو داود والبيهقي والترمذي في الشمائل من رواية معاوية بن قرة بن أياس عن أبيه. والبيهقي نحوه عن زيد بن أسلم. وابن خزيمة في صحيحه وأعله البخاري كما نقله عنه الترمذي في العلل.

(3) أنظر الإحياء ٢/٢٧٤.

(4) أخرجه أبو داود والترمذي من حديث قيلة بنت مخرمة.

(5) رواه ابن ماجه وابن خزيمة من حديث ثابت بن الصامت.

(6) أخرجه الشيخان من حديث عائشة. وللبخاري من حديث عمر نحوه وفي الباب عن أنس وابن عمر.

(7) أخرجه الطبراني في الصغير والأوسط من حديث عائشة بسند ضعيف.

(8)) أخرجه الشيخان من حديث عمر، وللبخاري عن جابر نحوه.

(9)) قال العراقي لم أقف عليه، تخريج الإحياء ٢/٤٧٦.

(10) رواه أبو يعلى من حديث معاوية بإسناد حسن ورواه الطبراني في الأوسط.

(11) أخرجه أبو داود من حديث عائشة وسنده ضعيف.

(12) قال العراقي في تخريج الإحياء ٢/٤٧٦. لم أقف عليه من حديث أم سلمة، ولمسلم من حديث عائشة نحوه، ولأبي داود والنسائي نحوه والحاكم وصححه على شرط مسلم وابن سعد في الطبقات بزيادة فيه.

(13) أخرجه البزار وأبو يعلى وإسناد البزار صحيح وابن ماجه من حديث عبادة بن الصامت وهو عند ابن عدي ولكن إسناده ضعيف.

(14) الشيخان من حديث أنس وابن عمر.

(15) أخرجه ابن عدي من حديث واثلة بسند ضعيف.

يختم به على الكتب ويقول: الخاتم على الشيء خير من التهمة[1].

وكان يلبس القلانس تحت العمائم وبغير عمامة، وربما نزع قلنسوته من رأسه فجعلها سترة بين يديه ثم يصلي إليها[2]، وربما لم تكن العمامة فيشد العصابة على رأسه وعلى جبهته[3]، وكانت له عمامة تسمى السحاب فوهبها لعلّي فربما طلع عليّ فيها فيقول ﷺ: «أتاكم عليّ في السحاب»[4]، وكان إذا لبس ثوباً لبسه من ميامنه[5] ويقول: «الحمد لله الذي كساني ما أُواري به عورتي وأتجمل به في حياتي»[6]، فإذا نزع ثوبه نزعه من مياسره[7]، وكان له ثوب لجمعته خاصة سوى ثيابه لغير الجمعة[8]، وكان إذا لبس جديداً أعطى خَلِقَ ثيابه مسكيناً ويقول: «ما من مسلم يكسو مسلماً من سمل ثيابه لا يكسوه إلا لله تعالى إلا كان في ضمان الله تعالى وحرزه، وخيره ما واراه حياً وميتاً»[9]، وكان له فراش من أدم حشوه ليف طوله ذراعان أو نحوه وعرضه ذراع وشبر أو نحوه[10]، وكانت له عباءة تفرش له حيثما انتقل تثنى له طاقين تحته[11]، وكان ينام على الحصير الذي ليس تحته شيء[12].

ومن أخلاقه الكريمة تسمية دوابه وسلاحه ومتاعه فكان اسم رايته العقاب[13]

---

(١) الشيخان من حديث أنس.

(٢) الطبراني والبيهقي في الشُعب وأبو الشيخ من حديث ابن عمر ولأبي الشيخ من حديث ابن عباس. إسنادهما ضعيف ولأبي داود والترمذي من حديث ركانة وقال الترمذي غريب وليس إسناده بالقائم.

(٣) أخرجه الترمذي من حديث ابن عباس.

(٤) أخرجه ابن عدي وأبو الشيخ من حديث جعفر بن محمد عن أبيه عن جده مرسل ضعيف جداً، ولأبي نعيم في الدلائل من حديث ابن عمر.

(٥) أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة ورجاله رجال الصحيح وقد اختلف في رفعه.

(٦) أخرجه الترمذي وقال غريب وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث عمر بن الخطاب.

(٧) أخرجه أبو الشيخ من حديث ابن عمر وله من حديث أنس وسندهما ضعيف وهو في الصحيحين من حديث الانتعال من حديث أبي هريرة.

(٨) تقدم تخريج الحديث في ص ٤٤٢ السابقة التعليق رقم (١٤).

(٩) رواه الحاكم والبيهقي في الشعب من حديث عمر وقال البيهقي أنه غير قوي. وللترمذي وابن ماجه نحوه وهو أصح. تخريج الإحياء ٤٧٧/٢.

(١٠) متفق عليه من حديث عائشة ولأبي الشيخ من حديث أم سلمة وفيه من لم يسمع. تخريج الإحياء ٤٧٨/٢.

(١١) أخرجه ابن سعد في الطبقات وأبو الشيخ من حديث عائشة وكلاهما لا يصح وللترمذي في الشمائل نحوه من حديث حفصة وهو منقطع.

(١٢) متفق عليه من حديث عمر.

(١٣) أخرجه الطبراني من حديث ابن عباس وفيه من اتهم بوضعه.

وإسم سيفه الذي يشهد به الحروب ذو الفقار[١]، وكان له سيف يقال له المخذم واخر يقال له الرسوب وآخر يقال له القضيب [٢]. وكانت قبيعة سيفه من الفضة [٣] بالقاف والباء بنقطة من أسفلها والياء بنقطتين من أسفلها وهي فعيلة بوزن صحيفة، وكان يلبس المنطقة من الأدم فيها ثلاث حلق من فضة [٤]، وكان إسم قوسه الكتوم [٥] وجعبته الكافور[٦]، وكان إسم ناقته القصوى[٧] وهي التي يقال لها العضباء وإسم بغلته الدلول وقيل الدلدل[٨]، وإسم حماره يعفور[٩]، وإسم ناقته التي يشرب لبنها غيثة[١٠].

وكان له مطهرة من فخار يتوضأ منها ويشرب منها[١١]، فيرسل الناس أولادهم الصغار الذين قد ميزوا فيدخلون على رسول الله فلا يدفعون عنه وإذا وجدوا في المطهرة ماء شربوا منه ومسحوا على وجوههم منه وأجسادهم يبغون بذلك البركة، فهذه خلائقه في اللباس[١٢].

النوع السادس: في بيان عفوه مع القدرة، ، كان ﷺ أحلم الناس وأرغبهم في العفو مع القدرة على الإنتقام»[١٣] حتى إنه أُتي بقلائد من ذهب وفضة فقسمها بين أصحابه، فقام رجل من أهل البادية فقال: يا محمد لئن أمرك الله أن تعدل فما أراك تعدل، فقال: ويحك من يعدل عليك بعدي، فلما ولى قال: ردّوه عليَّ رويداً[١٤].

---

(١) أخرجه الطبراني من حديث ابن عباس وفيه من أتهم بوضعه.

(٢) الإحياء ٢/٤٧٧.

(٣) أنظر الإحياء ٢/٤٧٨.

(٤) قال العراقي لم أقف له على أصل، ولابن سعد وأبي الشيخ نحوه من رواية محمد بن علي بن الحسين مرسلاً.

(٥) الإحياء ٢/٤٧٧.

(٦) قال العراقي لم أجد له أصلاً. ولابن أبي خيثمة في تاريخه نحوه. أنظر تخريج الإحياء ٢/٤٧٨، وقال العراقي تقدم من حديث ابن عباس نحوه.

(٧) الإحياء ٢/٤٧٨.

(٨) الإحياء ٢/٤٧٨.

(٩) الإحياء ٢/٤٧٨.

(١٠) أخرجه الطبراني من حديث ابن عباس، وللبخاري من حديث أنس نحوه ولمسلم من حديث جابر نحوه والحاكم من حديث علي. وللبخاري من حديث معاذ، أنظر تخريج الإحياء ٢/٤٧٩.

(١١) قال العراقي في تخريج الإحياء ٢/٤٧٩، لم أقف له على أصل.

(١٢) الإحياء ٢/٤٧٩.

(١٣) تقدم تخريج حديث كان أحلم الناس ص ٤٣٦ التعليق رقم (١).

(١٤) أخرجه أبو الشيخ من حديث ابن عمر بسند جيد. تخريج الإحياء ٢/٤٧٩.

وروي جابر أنه عليه السلام كان يفيض للناس يوم حنين من فضة في ثوب بلال، فقال له رجل: يا نبي الله اعدل، فقال: ويحك من يعدل إذا لم أعدل لقد خبت إذاً وخسرت إن كنت لا أعدل، فقام عمر فقال: ألا أضرب عنقه فإنه منافق، فقال: معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي [1]، وكان الرسول ﷺ في حرب فرأوا من المسلمين غرّة فجاء رجل حتى قام على رحل النبي ﷺ بالسيف فقال: من يمنعك مني؟، فقال: الله تعالى قال: فسقط السيف من يده فأخذ الرسول ﷺ السيف فقال: من يمنعك مني؟، فقال: كن خير آخذ، فقال: قل أشهد أن لا إله إلا الله، فقال الأعرابي: لا أقاتلك ولا أكون معك ولا مع قوم يقاتلونك فخلّى سبيله فجاء إلى قومه فقال: جئتكم من عند خير الناس [2].

وروى أنس أن يهودية أتت الرسول ﷺ بشاة مسمومة ليأكلها فجيء بها إلى الرسول ﷺ فسألها عن ذلك، فقالت: أردت قتلك، فقال: ما كان الله ليسلطك على ذلك، قالوا: فلا تقتلها [3] قال: لا، وسحره رجل من اليهود فأخبره جبريل عليه السلام بذلك حتى استخرجه وحلّ عقده فوجد لذلك خفة وما ذكر ذلك لليهودي ولا أظهر عليه قط [4].

وقال أمير المؤمنين كرم الله وجهه: بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد فقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ بخاءين بنقطتين من أعلاهما ـ فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها فانطلقنا تتعادى بنا خيلنا حتى أتينا روضة خاخ فوجدنا المرأة فقلنا: أخرجي الكتاب فقالت: ما معي كتاب، فقلنا: لتخرجن الكتاب أو لننزعنّ الثياب فأخرجته من عقاصها فأتينا به الرسول ﷺ وكان الكتاب كتبه حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس من المشركين بمكة يخبرهم أمراً من أمر الرسول ﷺ فقال: يا حاطب ما هذا؟ فقال: يا رسول الله لا تعجل علّي كنت امرءاً ملصقاً في قومي وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمونهم ويحمون أهليهم فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب أن أتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتي ولم أفعل ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني، فقال الرسول ﷺ صدقكم، فقال عمر: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال له

---

(١) رواه مسلم.

(٢) متفق عليه من حديث جابر نحوه وأخرجه أحمد ولفظ المصنف قريب منه. تخريج الإحياء ٢/٤٧٩.

(٣) أخرجه مسلم من حديث أنس والبخاري من حديث أبي هريرة. والدارمي ١/٣٤ ـ ٣٥ رقم ٦٨ وأبو داود مرسلاً والبيهقي في السنن الكبرى متصلاً ٧/١١٣.

(٤) أخرجه النسائي (٤٠٨٠) بإسناد صحيح من حديث زيد بن أرقم وقصة سحره ﷺ في الصحيحين من حديث عائشة.

الرسول ﷺ : إنه شهد بدراً وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اصنعوا ما شئتم فقد غفرت لكم[١].

وقسم الرسول ﷺ قسمة فقال رجل من الأنصار: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فاحمر وجهه وقال: رحم الله أخي موسى قد أُوذي أكثر من هذا فصبر[٢]، وكان الرسول ﷺ يقول: لا يبلغني أحد منكم من أصحابي شيئاً فإني أُحب أن أخرج إليكم وأنا سليم القلب[٣]، فهذا ما أردنا ذكره من عفوه.

النوع السابع: في بيان إغضائه عما يكرهه، وكان ﷺ رقيق البشرة لطيف الظاهر والباطن، يعرف في وجهه غضبه ورضاه[٤]، وكان إذا اشتد وجده لا يوجد منه أكثر من مسّ لحيته[٥]، وكان لا يؤاخذ بما يكره، دخل عليه رجل وعليه صفرة ولم يقل له شيئاً حتى خرج فقال لبعض القوم: «لو قلتم لهذا أن يدع هذه الصفرة»[٦]، وبال أعرابي في المسجد بحضرته فهمّ به الأصحاب، فقال عليه السلام: «لا تزرموه أي لا تقطعوا عليه البول»، ثم قال: «إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من القذر من البول والخلاء»، وفي رواية: «سددوا وقاربوا وبشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا»[٧].

وجاء أعرابي يوماً وطلب منه شيئاً فأعطاه الرسول ﷺ .وقال: أحسنت إليك؟، فقال الأعرابي: لا ولا أجملت فغضب المسلمون وقاموا إليه فأشار إليهم أن كفوا ثم قام ودخل منزله وأرسل إلى الأعرابي وزاده شيئاً ثم قال: أحسنت إليك؟ فقال: نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً، فقال له الرسول ﷺ : «إنك كنت قلت ما قلت وفي نفس أصحابي شيء من ذلك فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب من صدورهم ما فيها عليك قال: نعم فلما كان من الغداة أو من العشيّ جاء فقال الرسول ﷺ: إن هذا الأعرابي قال ما قال فزدناه فزعم أنه قد رضي لذلك، قال الأعرابي: نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً، فقال الرسول ﷺ : «إن مثلي ومثل هذا الأعرابي كمثل رجل كانت له ناقة فشردت عليه فاتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفوراً فناداهم صاحب الناقة خلّوا بيني وبين

---

(١) متفق عليه من حديث علي.

(٢) متفق عليه من حديث ابن مسعود.

(٣) أخرجه أبو داود والترمذي من حديث ابن مسعود وقال الترمذي غريب من هذا الوجه.

(٤) أخرجه أبو الشيخ من حديث ابن عمر.

(٥) أخرجه أبو الشيخ من حديث عائشة بإسناد حسن. تخريج الإحياء ٢/٤٨١.

(٦) أخرجه أبو داود والترمذي في الشمائل والنسائي في عمل اليوم والليلة من حديث أنس وإسناده ضعيف.

(٧) متفق عليه من حديث أنس.

ناقتي فإني أرفق بها وأعلم فتوجه لها صاحب الناقة بين يديها وأخذ لها من قمام الأرض فردها هوناً هوناً حتى جاءت واستناخت وشد عليها رحلها واستوى عليها، وإني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار[١]، فهذا ما أردنا ذكره من إغضائه عما يكرهه وحلمه عنه.

النوع الثامن: في بيان سخائه وجوده ﷺ، كان ﷺ أجود الناس وأسخاهم وكان في شهر رمضان كالريح المرسلة وقيل كالريح العاصف لا يمسك شيئاً[٢]، وكان أمير المؤمنين كرم الله وجهه إذا وصف رسول الله ﷺ قال: كان أجود الناس كفاً وأوسع الناس صدراً وأصدق لهجة وأوفى ذمة وألينهم عريكة وأكرمهم عشيرة، ومن رآه بديهة هابه ومن خالطه وعرفه أحبه، يقول ناعته: لم أر قبله ولا بعده مثله وما سئل شيئاً قط إلا أعطاه[٤]، وإن رجلاً أتاه فسأله فأعطاه غنماً بين جبلين فرجع إلى قومه فقال أسلموا فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة وما سئل قط فقال لا[٥].

وحمل إليه سبعون ألف درهم فوضعها على حصير، ثم قام إليها يقسمها فما ردّ سائلاً حتى فرغ منها[٦]، وجاءه رجل فسأله فقال: ما عندي شيء ولكن ابتع عليّ فإذا جاءنا شيء قضيناه، فقال عمر: يا رسول الله ما كلفك الله ما لا تقدر عليه فكره ذلك الرسول ﷺ فقال الرجل: أنفق ولا تخش من ذي العرش إقلالاً فتبسم الرسول ﷺ وعُرف السرور في وجهه[٧]، ولما قفل من حنين جاءت الأعراب يسألونه حتى اضطروه إلى شجرة فاختطفت رداؤه، فقال: أعطوني ردائي فوقف وقال: لو كان لي عدد هذه العضاة نعماً لقسمته بينكم ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذاباً ولا جباناً، فهذا ما أردنا ذكره من وصف جوده وكرمه صلوات الله وسلامه عليه.

---

(١) الحديث بطوله أخرجه البزار وأبو الشيخ في أخلاق النبي ﷺ من حديث أبي هريرة وإسناده ضعيف. أنظر تخريج الإحياء ٢/٤٨١.

(٢) أخرجه الشيخان من حديث أنس ولهما من حديث ابن عباس أيضاً.

(٣) رواه الترمذي وقال إسناده متصل تخريج الإحياء ٢/٤٨٢.

(٤) متفق عليه من حديث أنس ومن حديث جابر نحوه أيضاً.

(٥) متفق عليه من حديث جابر.

(٦) رواه أبو الحسن ابن الضحاك في الشمائل من حديث الحسن مرسلاً وللبخاري تعليقات من حديث أنس نحوه، ووصله عمر بن محمد بن البحري في صحيحه. تخريج الإحياء ٢/٤٨٢.

(٧) أخرجه الترمذي في الشمائل من حديث عمر وفيه موسى بن علقمة الفروي لم يروه غير أبيه هارون. تخريج الإحياء ٢/٤٨٢.

النوع التاسع: في بيان شجاعته ﷺ، كان عليه السلام أنجد الناس وأشجعهم[٢] قال علّي عليه السلام: لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ بالرسول ﷺ وهو أقربنا إلى العدو وكان من أشد الناس يومئذ بأساً[٢]، وقال أيضاً: كنا إذا احمر البأس ولقي القومُ القومَ اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه[٣]، وقيل كان ﷺ قليل الكلام قليل الحديث فإذا احمر البأس تبسم[٤]، وكان من أشد الناس بأساً، وكان الشجاع منا هو الذي يقرب منه في الحرب لقربه من العدو[٥].

وقال عمران بن الحصين: ما لقي الرسول ﷺ كتيبة إلا كان أول من يضرب[٦] وكان قوي البطش[٧] ولما غشيه المشركون نزل عن بغلته فجعل يقول: أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب، فما رأى يوماً كان أشد بأساً منه[٨]، وروي أنه كان في المدينة ليلة فزع فركب الرسول ﷺ فرساً لأبي طلحة وكان قطوفاً فأدركه الناس وهو راجع فقال: ما رأينا من فزع وإن وجدناه لبحراً يعني الفرس، ويقال: إنه زال عنه عيبه واتسع جريه من تلك الليلة ببركة ركوبه ﷺ [٩] وكان هذا الفزع في المدينة لما جاءه الخبر أن ناساً من العرب استاقوا إبل الصدقة وقتلوا الراعي وقد كان أمرهم فشربوا من ألبانها وأبوالها من أجل الوباء ففعلوا ما فعلوا فخرج وظفر بهم فأخذهم فسمل أعينهم وطُرحوا في الرّمضاء حتى ماتوا حتف أنفهم[١٠].

---

(١) أخرجه الدارمي (١/٣٣ رقم ٦٠) من حديث ابن عمر بسند صحيح. وللشيخين نحوه من حديث أنس تقدم. ولأبي الشيخ نحوه ص ٥٩ من حديث عمران بن الحصين.

(٢) أخرجه أبو الشيخ في أخلاق النبي ﷺ ص ٥٧ ـ ٥٨ بإسناد جيد من حديث علي.

(٣) أخرجه النسائي بإسناد صحيح ولمسلم نحوه من حديث البراء.
أبي الشيخ أخلاق النبي ﷺ ص ٥٨.

(٤) أخرجه أبو الشيخ مرسلاً تخريج الإحياء ٢/٤٨٣.

(٥) أخرجه مسلم من حديث البراء.

(٦) أخرجه أبو الشيخ من حديث عمران وقال العراقي وفيه من لم أعرفه تخريج الإحياء ٢/٤٨٣.

(٧) أخرجه أبو الشيخ أيضاً من رواية أبي جعفر معضلاً، وللطبراني في الأوسط من حديث عبدالله بن عمر وسنده ضعيف تخريج الإحياء ٢/٤٨٣.

(٨) متفق عليه من حديث البراء دون قوله فما رؤي أحد يومئذ أشد منه، فهي الزيادة لأبي الشيخ (ص ٦١) من حديث علي في قصة بدر تخريج الإحياء ٢/٤٨٣.

(٩) أخرجه أحمد في المسند (٢/٢٩١)، (٣/١٤٧، ١٨٥) من حديث أنس. البخاري في الأدب رقم الحديث ٦٠٣٣. وأبي الشيخ في أخلاق النبي ﷺ ص ٥٨.

(١٠) متفق عليه من حديث أنس. البخاري (٧/١٠٧) ومسلم رقم ١٦٧١.

النوع العاشر: في بيان تواضعه ﷺ، كان الرسول عليه السلام أشد الناس تواضعاً مع علو منصبه[1] قال ابن عامر: رأيته يرمي الجمرة على ناقة صهباء لا ضرب ولا طرد ولا إليك إليك[2]، وكان يركب الحمار موكفاً على قطيفة[3]، وكان مع ذلك يستردف[4]، وكان يعود المريض ويتبع الجنازة ويجيب دعوة المملوك[5]، ويخصف النعل ويرقع الثوب، وكان يصنع مع أهله في حاجتهم[6]، وكان أصحابه لا يقومون له لما عرفوا من كراهته لذلك[7]، وكان يمر على الصبيان فيسلم عليهم[8]، وأُتي الرسول ﷺ برجل فأرعد من هيبته فقال: هوّن عليك فلست ملكاً إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد[9]، وكان يجلس بين أصحابه مختلطاً بهم كأنه أحدهم فيأتي الغريب فلا يدري أيهم هو حتى يسأل عنه حتى طلبوا منه أن يجلس مجلساً يعرفه الغريب فبنوا دكاناً من طين فكان يجلس عليه[10].

وقالت عائشة رضي الله عنها: كُل جعلني فداك متكئاً فإنه أهون عليك فأصغى برأسه حتى كادت تصيب جبهته الأرض، ثم قال: «بل آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد»[11]، وكان لا يأكل على خوانٍ ولا في سكرجة حتى لحق بالله[12]، وكان لا يدعوه أحد من أصحابه إلا يقول له: لبيك[13]، وكان إذا جلس مع الناس فإن تكلموا في

---

(١) أخرجه أبو الحسن ابن الضحاك في الشمائل من حديث أبي سعيد الخدري وإسناده ضعيف. تخريج الإحياء ٤٨٣/٢.

(٢) أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث قدامة بن عبدالله بن عمار وقال الترمذي: حسن صحيح. وفي كتاب أبي الشيخ عبدالله بن عامر. تخريج الإحياء ٤٨٣/٢.

(٣) متفق عليه من حديث أسامة بن زيد.

(٤) أنظر الإحياء ٤٨٣/٢.

(٥) أخرجه الترمذي وضعفه والحاكم وصحح إسناده من حديث أنس. قال العراقي في تخريج الإحياء ٤٨٣/٢ منقطع.

(٦) أخرجه أحمد في المسند من حديث عائشة.

(٧) الترمذي وصححه من حديث أنس.

(٨) متفق عليه من حديث أنس.

(٩) الحاكم من حديث جرير وقال صَحيح على شرط الشيخين.

(١٠) أخرجه أبو داود والنسائي من حديث أبي هريرة وأبي ذر.

(١١) أخرجه أبو الشيخ من رواية عبدالله بن عبيد بن عمير عنها، بسند ضعيف عنها تخريج الإحياء ٤٨٤/٢.

(١٢) تقدم تخريج هذا الحديث ص ٤٣٧، التعليق رقم ٥) أخرجه البخاري من حديث أنس.

(١٣) أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة من حديث عائشة وفيه حسين بن علوان متهم بالكذب، وللطبراني نحوه بإسناد جيد، من حديث محمد بن حاطب.

معنى الآخرة أخذ معهم وإن تحدثوا في طعام وشراب تحدث وإن تحدثوا في الدنيا تحدث معهم رفقاً بهم وتواضعاً»[1] ، وكانوا يتناشدون الشعر بين يديه أحياناً ويذكرون أشياء من أمر الجاهلية فيضحكون فيبتسم هو إذا ضحكوا ولا يزجرهم إلا عن حرام»[2] ، وقد نجز غرضنا مما أردنا من ذكر أخلاقه الزاكية وشمائله الرائقة التي فاق فيها على كل الخلائق .

القسم الثاني
في بيان صورته الكريمة وخلقته الشريفة

فنذكر صورته ولونه وشعره ووجهه وتركيبه ، فهذه أمور خمسة نذكرها واحداً واحداً ونورد المحاسن التي اختص بها كل واحد من هذه التراكيب .

أما صورته فكان ﷺ في خلقته لم يكن بالطويل الممعط ولا بالقصير المتردد كان ينسب إلى الربعة إذا مشى وحده ومع ذلك فلم يكن يماشيه أحد ينسب إلى الطول إلا طاله رسول الله ﷺ ، ولربما اكتنفه الطويلان فيطولهما فإذا فارقاه نسبا إلى الطول ونسب هو إلى الربعة ويقول ﷺ : «جعل الخير كله في الربعة»[3] .

وأما لونه فكان ﷺ أزهر اللون ولم يكن بالأدم يعني لم يكن كثير الخضرة[4] وكان ليس شديد البياض والأزهر هو الأبيض الناصع الذي لا تشوبه صفرة ولا حمرة ولا شيء من الألوان ، ونعته عمه أبو طالب فقال :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل[5]

ونعته بعضهم بأنه مشرب بحمرة[6] ، ويقال : إنما كان المشرب بالحمرة منه ما ظهر

---

(1) أخرجه الترمذي في الشمائل من حديث زيد بن ثابت دون ذكر الشراب وفيه سليمان بن خارجة تفرد عنه الوليد ابن أبي الوليد وذكره ابن حبان في الثقات ، أنظر تخريج الإحياء ٢/٤٨٤ .

(2) أخرجه مسلم من حديث جابر بن سمرة دون قوله «ولا يزجرهم إلا عن حرام» تخريج الإحياء ٢/٤٨٤ .

(3) أخرجه أبو نعيم في الدلائل من حديث عائشة وفيه صبيح بن عبدالله الفرغاني منكر الحديث قاله الخطيب ، تخريج الإحياء ٢/٤٨٥ . وللترمذي وحسنه وأبي داود وابن ماجه نحوه من حديث أم هانيء . وفي الصحيحين من حديث البراء في وصف شَعر الرسول ﷺ . وقد تقدم حديث علي في صفة رسول الله ﷺ . وحديث أبي هالة .

(4) لم يكن بالأدم يعني لم يكن كثير الخضرة .

(5) أخرجه ابن إسحاق من حديث عائشة وهو في المسند من حديثها وفيه علي بن زيد بن جدعان مختلف فيه ، تخريج الإحياء ٢/٤٨٥ وللبخاري تعليقاً من حديث ابن عمر نحوه .

(6) ونعته بعضهم بأنه مشرب بحمرة ، جزء مما قبله يخرج .

للشمس كالرقبة والوجه والأزهر الصافي من الحمرة ما تحت الثياب منه، وكان عرقه في وجهه كاللؤلؤ أطيب من المسك الأذفر[١].

وأما شعره فكان ﷺ رجل الشعر حسنه ليس بالسبط المسترسل ولا بالجعد القطط كان إذا مشطه بالمشط كأنه حبك الرمل[٢]، وقيل: كان شَعره يضرب منكبه وأكثر الرواية أنه كان إلى شحمة أُذنيه[٣] وربما جعله غدائر أربعاً يخرج كل أُذن من بين غديرتين وربما جعل شعره على أذنيه فتبدو سوالفه تتلألأ[٤]، وكان شيبه في الرأس واللحية تسع عشرة شَعرة ما زاد على ذلك، وفي رواية: ما مات وفي رأسه ولحيته إلا عشرون شعرة بيضاء[٥].

وأما وجهه فكان أحسن الناس وجهاً وأنورهم لا يصفه واصف إلا شبهه بالقمر ليلة البدر[٦]، وكان يرى رضاه وغضبه في وجهه لصفاء بشرته[٧]، وكانوا يقولون هو كما وصفه صاحبه أبو بكر حيث يقول:

أميناً مصطفى للخير يدعو كضوء البدر زايله الظلام[٨]

وكان واسع الجبهة أزجّ الحاجبين والزجج طول الحاجبين إلى مخصر العينين سابغهما، وكان أبلج ما بين الحاجبين كأنما بينهما الفضة المخلصة، وكان عيناه كحلاوين أدعجهما، وكان في عينيه مزج من حمرة، وكان أهدب الأشفار حتى يكاد يلتبس من كثرتها، وكان أقنى العرنين أي مستوي الأنف، وكان مفلج الأسنان أي متفرقها وكان إذا افتر ضاحكاً افترعن مثل سنا البرق إذا تلألأ، وكان من أحسن عباد الله شفتين وألطفهم ختم فم، وكان أسيل الخدين صليهما ليس بالطويل الوجه ولا بالمكلثم، كثّ اللحية وكان يعفي لحيته ويأخذ من شاربه[٩].

---

(١) هو جزء من حديث عائشة عند أبي نعيم في دلائل النبوية وتقدم.

(٢) جزء من الحديث المتقدم قبله.

(٣) أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث أم هانيء وهو في الصحيحين من حديث البراء «له شَعر يبلغ شحمة أذنيه» وتقدم حديث علي في صفته ﷺ وحديث ابن أبي هالة.

(٤) تقدم وهو جزء من حديث علي وابن أبي هالة في صفته ﷺ.

(٥) كل هذا ورد في وصفه من عائشة عند أبي إسحاق في السيرة ومن حديث علي وابن أبي هالة. وفي الأحاديث المتقدمة.

(٦) هو جزء مما تقدم.

(٧) الإحياء ٢/٤٨٥.

(٨) الإحياء ٢/٤٨٥.

(٩) الإحياء ٢/٤٨٥.

وأما سائر تركيب خلقته فكان من أحسن الناس عنقاً لا ينسب إلى الطول ولا إلى القصر ما ظهر منه للشمس والرياح فكأنه إبريق فضّة مشرب ذهباً يتلألأ بياض الفضة في حمرة الذهب[1]، وكان عريض الصدر لا يعدو لحم بعض بدنه بعضاً كالمرايا في استوائه وكالقمر في بياضه، موصول ما بين لبّته وسرّته بشعر منقاد كالقضيب لم يكن في صدره ولا بطنه شعر غيره[2]، وكانت له عكن ثلاث يغطي الإزار منها واحدة ويظهر اثنتين[3]، وكان عظيم المنكبين أشعرهما ضخم الكراديس أي رؤوس العظام من المنكبين والمرفقين والوركين[4]، وكان واسع الظهر ما بين كتفيه خاتم النبوة وهو مما يلي منكبه الأيمن فيه شامة سوداء تضرب إلى الصفرة حولها شعرات متواليات كأنها من عرف فرس[5]، وكان عبل العضدين والذراعين طويل الزندين رحب الراحتين سائل الأطراف كأن أصابعه قضبان الفضة[6]، كفه ألين من الحرير كأن كفّه كف عطار طيباً مسّها الطيب أو لم يمسّها يصافح المصافح فيظلّ يجد ريحها[7]، ويضع يده على رأس الصبيّ فيعرف من بين الصّبيان بريحها على رأسه[8]، وكان عبل ما تحت الإزار من الفخذ والساق[9]، وكان معتدل الخلق في السّمن بَدُنَ في آخر زمانه[10]، وكان لحمه متماسكاً يكاد يكون على الخلق الأول لم يضرّه السن[11].

وأما مشيه فكان ﷺ يمشي كأنما يتقلع من صخر وينحدر من صبب يخطو تكفؤاً ويمشي الهوينى بغير تبختر والهوينى تقارب الخطو[12]، وكان يقول: أنا أشبه الناس

---

(1) الإحياء ٢/٤٨٥.
(2) أنظر الإحياء ٢/٤٨٥.
(3) أنظر الإحياء ٢/٤٨٥.
(4) أنظر الإحياء ٢/٤٨٥.
(5) أنظر الإحياء ٢/٤٨٦.
(6) أنظر الإحياء ٢/٤٨٦.
(7) أنظر الإحياء ٢/٤٨٦.
(8) أنظر الإحياء ٢/٤٨٦.
(9) أنظر الإحياء ٤٨٦.
(10) أنظر الإحياء ٢/٤٨٦.
(11) تكملة لما تقدم من صفة الإحياء ٢/٤٨٦.
(12) الإحياء ٢/٤٨٦.

بآدم وكان أبي إبراهيم أشبه الناس بي خَلْقاً وخلقاً[1]، وكان يقول: إن لي عند ربي عشرة أسماء[2].

فأما أسماؤه فهو أحمد وهو محمد وهو الماحي الذي يمحو الله به الكفر وهو العاقب الذي ليسّ بعده أحد وهو الحاشر الذي يحشر العباد على قدمه» [3]، وقال ﷺ: «أنا رسول الرحمة ورسول التوبة ورسول الملاحم والمقتفي الذي اقتفيت الناس جميعاً وأنا قثم» [4]، قال بعض العلماء: القثم الكامل الجامع لكل خير، فهذا ما أردنا ذكره من التبرك بإيراد خلقته الكريمة وتركيب صورته الشريفة.

القسم الثالث

في بيان معجزاته وآياته الدالة على صدقه

إعلم أن كل من شاهد أحواله ﷺ وأصغى إلى سماع أخباره المشتملة على أخلاقه وأفعاله وأحواله وعاداته وسجاياه وسياسته لأصناف الخلق وهدايته إلى ضبطهم وتألّفه لجميع الخلق وقوده إياهم إلى طاعته مع ما يُحكى من عجائب أجوبته في مضايق الأسئلة وبدائع تدبيراته في مصالح الخلق ومحاسن إشاراته في تفصيل ظاهر الشرع الذي يعجز الفقهاء والفضلاء عن إدراك أوائل دقائقها في طول أعمارهم لم يبق معه ريب ولا شك في أن ذلك لم يكن مكتسباً بحيلة تقوم بها القوة البشرية بل لا يتصور ذلك إلا باستمداد من تأييد سماوي وقوّة إلهية وأن ذلك كله لا يتصور لكذاب ولا ملبس بل كانت شمائله وأحواله شاهدة وقاطعة بصدقه حتى إن العربي القح كان يراه فيقول: والله ما هذا بوجه كذّاب وكان يشهد له بالصدق بمجرد شمائله[5].

فكيف حال من شاهد أخلاقه ومارس أحواله في جميع مصادره وموارده؟، وإنما أوردنا بعض أخلاقه لتعرف محاسن الأخلاق وليقع التنبيه لصدقه وعلو منصبه ومكانته العظيمة عند الله تعالى إذ أتاه جميع ذلك وهو رجل أميّ لم يمارس شيئاً من العلوم ولم

---

(١) الإحياء ٢/٤٨٦.

(٢) الإحياء ٢/٤٨٦.

(٣) الإحياء ٢/٤٨٦.

(٤) أخرجه ابن عدي من حديث علي وجابر وأسامة بن زيد وابن عباس وعائشة بإسناد ضعيف وله ولأبي نعيم في الدلائل من حديث الطفيل نحوه وإسناده ضعيف وفي الصحيحين من حديث جبير بن مطعم نحوه ولمسلم نحوه من حديث أبي موسى ولأحمد من حديث حذيفة نحوه وسنده صحيح. أنظر تخريج الإحياء ٢/٤٨٦.

(٥) الإحياء ٢/٤٨٦ ـ ٤٨٧.

يطالع الكتب ولم يسافر قط في طلب علم ولم يزل بين أظهر الجهّال من الأعراب يتيماً صغيراً ضعيفاً مستضعفاً فمن أين حصلت له محاسن الأخلاق واختص بأسرار الآداب ومعرفة مصالح الفقه دون غيره من سائر العلوم فضلاً عن معرفته بالله وملائكته وكتبه وغير ذلك من خواص النبوة لولا صريح الوحي ومن أين للبشر الإستقلال بذلك؟ ، فلو لم يكن له إلا هذه الأمور الظاهرة لكان فيه كفاية في الدّلالة على صدقه ، وقد ظهر من آياته ومعجزاته ما لا يستريب فيه محصل ، وقد ذكر الشيخ محمود الخوارزمي أنها ثلاثة آلاف معجزة فلنذكر من جملتها ما استفاضت فيه الأخبار واشتملت عليه كتب الصّحاح[١] :

المعجزة الباهرة الأولى : القرآن ، الباقية بين الخلق ، الذي لا يفنى على وجه الدهر ، وليس لنبي معجزة باقية سواه إذ تحدى به بلغاء العرب وفصحاء الخلق ، وجزيرة العرب يومئذ مملوءة بالآلاف منهم والفصاحة صنعتهم وبها منافستهم ومباهاتهم ، وكان ينادي بين أظهرهم أن يأتوا بمثله أو بعشر سور أو بسورة من مثله وقال لهم : ﴿**لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً**﴾ (الإسراء : ٨٨) ، وقال ذلك تعجيزاً لهم فعجزوا عن ذلك وصَدَفوا حتى عرّضوا أنفسهم للقتل ونساءهم وذراريهم للسّبي وما استطاعوا معارضته ولا أن يقدحوا في جزالته وحسنه ، ثم انتشر ذلك بعده في أقطار العالم شرقاً وغرباً قرناً بعد قرن وعصراً بعد عصر ، وقد انقرض من اليوم قريباً من ثماني مائة سنة فلم يقدر أحد منهم على معارضته فأعظم بغباوة من ينظر في أحواله ثم في أقواله وأفعاله ثم في أخلاقه ثم في معجزاته ثم في استمرار شرعه إلى الآن ثم في انتشاره في أقطار العالم ثم في إذعان الملوك في الأرض في عصره وبعد عصره مع ضعفه ويتمه ثم يتمارى بعد ذلك في صدقه! ، وما أعظم توفيق من آمن به واتبعه وصدّق وتأسّى به! فنسأل الله أن يوفقنا للإقتداء به في الأقوال والأفعال والخلائق وأن يفيض علينا من أنواره ويرزقنا حسن الإتباع له في كل آثاره.

المعجزة الثانية : انشقاق القمر له بمكة لماّ سألته قريش آية فوقف نصفه على رأس جبل أبي قبيس ودخل نصفه من كمّه[٢]، وقد جاء مصداق هذه الآية في القرآن فقال تعالى : ﴿**اقتربت الساعة وانشقّ القمر**﴾ (القمر : ١) ، وإنما لم يتواتر العلم بهذه المعجزة مع

---

(١) الإحياء ٢/٤٨٧ .

(٢) متفق عليه من حديث ابن مسعود وابن عباس وأنس .

ظهورها لأنها كانت ليلية اقترحها المشركون على الرسول ﷺ وأكثر الناس كان نائماً تحت ظلال السقوف وربما يظنّ أنه سقوط نجم فلهذا لم تتواتر كغيرها من المعجزات الظاهرة.

المعجزة الثالثة: إطعام النفر الكثير في منزل جابر من الطعام القليل والقصة مشهورة[1] في الخندق فقد قيل ثمانين رجلاً من صاع وعناق وهو ولد المعز، ومرة أكثر من ثمانين رجلاً من أقراص شعير حملها أنس بن مالك في يده[2]، ومرة أهل الخندق أي الجيش من تمر يسير ساقته بنت بشر في خمارها فأكلوا كلهم حتى شبعوا وفضل[3]، ثم نبوع الماء من بين أصابعه الكريمة فشرب العسكر كلهم وهم عطاش[4]، وتوضأوا من قدح صغير[5]، وفي عين تبوك وكان لا ماء فيها فشرب الجيش منها وهم ألوف[6]، ومرة أمر عمر بن الخطاب أن يزود أربعمائة راكب من تمر كمربض البعير وهو موضع مبركه فزودهم كلهم منه[7]، وبقي منه» ومن ذلك أنه رمى بقبضة من تراب في أعين الجيش فعميت أبصارهم[8] وقال فيه تعالى تصديقاً له: ﴿**وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى**﴾ (الأنفال: ١٧) ومن ذلك حنين الجذع الذي كانْ يخطب عليه لما تحول إلى المنبر حنّ فضمّه إليه فسكت[9].

المعجزة الرابعة: إخباره بعلوم الغيب وهذا نحو ما أخبره عثمان من أنه تصيبه

---

(١) متفق عليه من حديث أنس. ومتفق عليه من حديث جابر. أنظر الإحياء ٢ /٤٨٧.

(٢) أخرجه مسلم من حديث أنس ولأبي نعيم في الدلائل نحوه.

(٣) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة من طريق ابن إسحاق حدثنا سعيد بن ميناء عن ابنه بشير بن سعد وإسناده جيد. تخريج الإحياء ٢ /٤٨٧.

(٤) الإحياء ٢ /٤٨٧.

(٥) متفق عليه من حديث أنس في ذكر الوضوء فقط ولأبي نعيم من حديثه بزيادة قوله «قدح صغير» وإسناده جيد وللبزار واللفظ له والطبراني في الكبير من حديث ابن عباس نحوه «فنبع الماء من بين أصابعه». تخريج الإحياء ٢ /٤٨٨.

(٦) أخرجه مسلم من حديث معاذ في قصة عين تبوك من حديث سلمة بن الأكوع في قصة الحديبية. وللبخاري من حديث البراء وللشيخين من حديث جابر ولمسلم من حديث ابن أبي أوفى نحو هذا وإن اختلفت الرواية في العدد ٢ /٤٨٨.

(٧) أخرجه أحمد من حديث النعمان بن مقرن وحديث دكين بن سعيد بإسنادين صحيحين. الإحياء ٢ /٤٨٨.

(٨) أخرجه مسلم من حديث سلمة بن الأكوع من دون ذكر سبب نزول الآية وهي عند ابن مردوية من حديث جابر وابن عباس تخريج الإحياء ٢ /٤٨٨.

(٩) أخرجه البخاري من حديث جابر وسهل بن سعد تخريج الإحياء ٢ /٤٨٨.

بلوى بعدها الجنة [1] ، وأخبر أن عمّاراً تقتله الفئة الباغية[2] ، وأخبر أن الحسن يصلح الله به بين فئتين من المسلمين عظيمتين[3] ، وأخبر بموت النّجاشي في الحبشة[4] ، وأخبر بقتل الأسود العنسي ليلة قتله في صنعاء[5] ، وأخبر بأن فاطمة أول من يلحق به من أهله[6] ، وأخبر نساءه بأن أطولهنّ يداً أسرعهنّ لحاقاً به[7] ، وكانت زينب بنت جحش الأسدية أطولهنّ يداً بالصدقة وأوّلهن لحاقاً به[8] ، وأخبر بأن أبي بن خلف يكون قتيلاً له فخدشه يوم أحد خدشاً لطيفاً فمات منه[9] .

المعجزة الخامسة : أنه تفل في عيني أمير المؤمنين كرّم الله وجهه وهو أرمد فبرىء من وقته وبعثه بالراية في خيبر[10] ، وأصيبت رجل بعض أصحابه فمسحها بيده فصحّت من وقتها[11] ، ودعا على رجل قطع صلاته بالمرور بين يديه فقال : «اللهم اقطع أثره فانقطعت رجله» ، وقال لرجل يأكل بيمينه فقال : ما أستطيع فقال : لا استطعت فانقطعت يده[13] ، وخطب امرأة من أبيها فقال : إنها برصاء اعتذاراً من أبيها ، فقال الرسول ﷺ : فلتكن كذلك فبرصت[14] ، ومشى الحكم بن العاص مشية يحاكي فيها مشية رسول الله ﷺ على جهة الإستهانة ، فقال الرسول ﷺ : كذلك فكن ، فلم يزل

---

(١) متفق عليه من حديث أبي موسى وفيه بشر النبي ﷺ عثمان بالجنة على بلوى تصيبه .

(٢) أخرجه مسلم من حديث أبي قتادة وأم سلمة والبخاري من حديث أبي سعيد . تخريج الإحياء ٢/٤٨٨ .

(٣) أخرجه البخاري من حديث أبي بكرة .

(٤) في الصحيحين من حديث أبي هريرة وهو مذكور في السيرة . تخريج الإحياء ٢/٤٨٩ .

(٥) متفق عليه من حديث عائشة وفاطمة .

(٦) أخرجه مسلم من حديث عائشة وفي الصحيحين أن سودة كانت أولهن لحوقاً به قال ابن الجوزي وهذا غلط من بعض الرواة . تخريج الإحياء ٢/٤٩٠ .

(٧) هو جزء من الذي قبله .

(٨) أخرجه البيهقي في الدلائل من رواية سعيد بن المسيب ومن رواية عروة مرسلاً تخريج الإحياء ٢/٤٩٠ .

(٩) متفق عليه من حديث علي ومن حديث سهل بن سعد أيضاً .

(١٠) رواه البخاري في قصة تفل أبي رافع . تخريج الإحياء ٢/٤٩٠ .

(١١) الحديث أخرجه أبو داود في السنن رقم الحديث ٧٠٥ ، ٧٠٧ وقال المنذري فيه مجهول وضعفه عبد الحق والقطان

(١٢) وقال الذهبي في الميزان ٢/١٥٤ موضوع .

(١٣) رواه مسلم من حديث سلمة بن الأكوع ولم يذكر فيه أن يده انقطعت .

(١٤) ذكرها ابن الجوزي في التلقيح وسماها جمرة بنت الحارث بن عوف المزني وتبعه الدمياطي أنظر تخريج الإحياء ٢/٤٩١ .

يرتعش حتى مات [1] إلى غير ذلك من الآيات الظاهرة والمعجزات الباهرة، ولنقتصر على هذا القدر من ذكرها ففيه كفاية على مقصدنا والله الموفق للصواب.

المقالة السادسة
في العزلة من علوم الكتاب

إعلم أن العزلة فيها خير كثير وسلامة عظيمة من كل شر ولهذا قال الحكماء: الحكمة عشرة أجزاء تسعة منها في الصمت وواحد منها في العزلة، ثم إن الناس مختلفون فيها اختلافاً كثيراً في إيثار العزلة والخلطة وفي كل واحد منهما فائدة وآفة، ونحن نذكر الاختلاف ثم نذكر فوائدها وآفاتها، فهذه تنبيهات ثلاثة:

التنبيه الأول
في نقل المذاهب والأقاويل وحجة كل فريق

فنقول: أما الصدر الأول من الصحابة رضي الله عنهم فلم يكن من جهتهم كلام في الاعتزال، أما في أيام الرسول ﷺ فلا وجه للعزلة لأن الخير كله إنما هو بمخالطته ورؤيته وكلامه والأخذ عنه، وأما بعد وفاته فلم يؤثر عنهم الاعتزال لأنهم كانوا مجتهدين في نصرة الدين وإحياء معالمه فلأجل هذا افترقوا في البلاد بعد موته ﷺ للدعاء إلى الله تعالى ولحياة الدين، وإنما يؤثر الخلاف في أيام التابعين ومن بعدهم إلى يومنا هذا، وقد افترق الناس فيها على فرق ثلاث نفصلها بمعونة الله تعالى:

الفريق الأول: وهم الذين ذهبوا إلى اختيار العزلة وفضلها، هذاهو المحكي عن سفيان الثوري وإبراهيم بن أدهم والفضيل بن عياض وداود الطائي وسليمان الخواص ويوسف بن أسباط وحذيفة وبشر الحافي واحتج هؤلاء على نصرة مذهبهم بحجج ثلاث [2]:

الحجة الأولى: بقوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام حيث قال:

---

(1) أخرجه البيهقي في الدلائل من حديث هند بن خديج بإسناد جيد وللحاكم في المستدرك من حديث عبد الرحمن ابن أبي بكر نحوه ولم يسم الحكم وقال صحيح الإسناد. تخريج الإحياء ٢/ ٤٩١.

(2) أنظر الإحياء ٢/ ٢٨٤ - ٢٨٥.

﴿ وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقياً فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحق ويعقوب وكلاً جعلنا نبياً ﴾ (مريم : ٤٨ ، ٤٩) ، فحصل له ما حصل ببركة العزلة .

الحجة الثانية : قوله تعالى في قصة موسى : ﴿ وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون ﴾ (الدخان : ٢١) ، وقوله عز وجل في قصة أصحاب الكهف : ﴿وإذا اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله ﴾ (الكهف : ١٦) ، وهذا كله في معرض المدح والثناء بالاعتزال .

الحجة الثالثة : قوله ﷺ لعامر الجهني وقد قال له : ما النجاة؟ ، قال له : «ليسعك بيتك وأمسك عليك لسانك وابك على خطيئتك»[١] ، وقال ﷺ لمّا قيل له : من أفضل الناس؟ قال : «مؤمن مجاهد في سبيل الله تعالى بنفسه وماله ، قيل : ومن؟ ، قال : رجل معتزل في شعب من الشّعاب يعبد ربه ويدع الناس من شره»[٢] ، وقال ﷺ : «ألا أنبئكم بخير الناس فأشار بيده نحو المغرب وقال : رجل أخذ بعنان فرسه في سبيل الله ينتظر أن يغير أو يغار عليه ، ألا أنبئكم بخير الناس ـ وأشار نحو الحجاز ـ رجل في غنيمة له يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويعلم حق الله في ماله اعتزل شرور الناس[٣] .

الفريق الثاني : وهم الذين ذهبوا إلى اختيار الخلطة وفضلها واستكثار المعارف بالإخوان والتحبب إلى المؤمنين والإستعانة بآرائهم في المهمات كما أشار إليه بقوله تعالى : ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ﴾ (المائدة : ٢) ، وإلى هذا ذهب سعيد بن المسيب والشعبي وابن أبي ليلى وهشام بن عروة وابن شبرمة وشريح وشريك بن عبدالله وابن عيينة وابن المبارك وهو رأي الشافعي وأحمد بن حنبل وجماعة ولهم على هذا حجج ثلاث :

الحجة الأولى : قوله تعالى : ﴿ ولا تكونوا كالذين تفرّقوا ﴾ (آل عمران : ١٠٣) ، وقوله تعالى : ﴿ وألّف بين قلوبهم ﴾ (الأنفال : ٦٣) ، فامتن عليه بالسبب المؤلف ونهاهم عن التفرّق ومفهومه الإجتماع على الدّين ونصرته[٤] .

---

(١) أخرجه الترمذي عن عقبة بن عامر الجهني وقال حسن وتقدم .

(٢) متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري .

(٣) أخرجه الطبراني من حديث أم مبشّر وفيه ابن إسحاق رواه بالعنعنة وأخرجه الترمذي والنسائي مختصراً عن ابن عباس وقال الترمذي حسن . وفي رواية الطبراني أشار إلى المشرق بدل «المغرب» تخريج الإحياء ٢ /٤٥٨ .

(٤) الإحياء ٢ /٣٨٢ .

الحجة الثانية: قوله ﷺ: «المؤمن إلف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف»[1]، وقوله ﷺ: «من فارق الجماعة فمات فميتته جاهليه»[2]، وقوله ﷺ: «من فارق الجماعة ولو قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه»[3].

الحجة الثالثة: قوله ﷺ: «لا يحل للمؤمن أن يهجر أخاه فوق ثلاث»[4]، وقال: «من هجر أخاه ستة أيام فهو كسفك دمه»[5]، قالوا: والعزلة هجرة بالكلية فلا جرم كان الأفضل خلاف ذلك، فهذا منتهى كلام الفريقين في بيان الأفضلية في العزلة والخلطة.

الفريق الثالث: الذين ذهبوا إلى التفصيل وحاصل ما قالوه هو أن الحكم عليهما مطلقاً بلا تفصيل خطأ بل ينبغي أن ينظر إلى الشخص وأحواله وإلى الخليط وحاله وإلى الباعث على مخالطته وإلى الفائت بسبب مخالطته ويقاس الفائت بالحاصل، فعند هاتين يتبين الحق ويتضح الأفضل، وإلى هذا يشير بعض الحكماء بكلامه حيث قال: الإنقباض عن الناس مكسبة للعداوة والإنبساط إليهم مجلبة لقرناء السوء فكن بين المنقبض والمنبسط، وهكذا يكون حال الإعتدال في المخالطة والعزلة، ويختلف ذلك بالأحوال، وبملاحظة الفوائد والآفات يتبين الأفضل، وهذا هو المختار اللائق بالنظر الصحيح فإن خير الأمور أوسطها، وكلا طرفي قصد الأمور ذميم، وهذا الذي ذكرناه واخترناه هو رأي الشافعي وغيره من العلماء أعني التفصيل الذي ذكرناه.

ونذكر على إثر هذا الفوائد والآفات التي تظهر من جهة العزلة والمخالطة والله الموفق للصّواب[6].

التنبيه الثاني
في ذكر فوائد العزلة

وهي منقسمة إلى فوائد دينية ودنيوية.

---

(١) رواه أحمد والطبراني من حديث سهل بن سعد والحاكم من حديث أبي هريرة وصححه. تخريج الإحياء ٢/٢٠١.

(٢) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

(٣) أخرجه أبو داود في السنن (رقم الحديث ٤٧٥٨) ٥/١١٨ من حديث أبي ذر وليس فيه كلمة «قيد».

(٤) متفق عليه من حديث أنس.

(٥) أخرجه أبو داود من حديث خراش العلمي وإسناده صحيح وفيه من هجر أخاه سنة، السنن رقم الحديث ٤٩١٥ (٥/٢١٥) تخريج الإحياء ٢/٢٨٥.

(٦) أنظر الإحياء ٢/٢٨٤ ـ ٢٨٥.

أما الدينية، فهي التمكن من الطاعات في الخلوة بالمواظبة على العبادة والفكرة والخلاص من الرياء والغيبة والنميمة التي تحصل بالمخالطة.

وأما الدنيوية، فهي الإنحراف عن النظر في زهرة الحياة الدّنيا وإقبال الخلق عليها وطمعه في الناس وطمعهم فيه والسلامة عن التأذي بالخلق وزوال الراحة بالخلطة، وجملة ما يرجع إليها من ذلك ست فوائد:

الفائدة الأولى: الفراغ للعبادة والفكر والأنس بمناجاة الله تعالى عن مناجاة الخلق، والاشتغال بالكشف عن أسرار الله تعالى في أمر الدين والدّنيا والتفكر في ملكوت السموات والأرض فإن ذلك يستدعي فراغاً ولا فراغ مع المخالطة فالعزلة وسيلة إليه، ولهذا قال بعض الحكماء: لا يتمكن أحد من الخلوة إلا بالتمسك بكتاب الله والمتمسكون بكتاب الله هم الذين استراحوا من الدنيا بذكر الله وعاشوا بذكر الله وماتوا بذكر الله ولقوا الله بذكر الله، ولا شك أن هؤلاء لا تمنعهم المخالطة عن الذكر والفكرة فالعزلة أحق بهم وأولى[1].

الفائدة الثانية: التخلص بالعزلة عن المعاصي التي يتعرض الإنسان لها غالباً بالمخالطة ويسلم منها في الخلوة وهي أربعة: الغيبة والنّميمة والرّياء والسّكوت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك من الإستراق من الأخلاق الردية والأعمال الخبيثة التي يوجبها الحرص على الدنيا فإن الاحتراز عن هذه الأمور مع المخالطة لا يكاد يسلم منها إلا الصديقون ومع العزلة يمكن السّلامة منها.

الفائدة الثالثة: الخلاص من الفتن والخصومات وصيانة الدين والنفس عن الخوض فيها والتعرض لأخطارها وقلّ ما تخلو البلاد عن تعصبات وفتن وخصومات والمعتزل عنهم في سلامة منهم، وروى عبدالله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ لمّا ذكر الفتن ووصفها فقال: «إذا رأيت الناس مرجت عهودهم وخفّت أماناتهم وكانوا هكذا وشبك بين أصابعه، فقلت: فما تأمرني يا رسول الله؟ فقال: إلزم بيتك وأملك عليك لسانك وخذ ما تعرف ودع ما تنكر وعليك بأمر الخاصة ودع أمر العامة»[2].

الفائدة الرابعة: البراءة عن شرّ الناس فإنهم يؤذونك بالغيبة مرة ومرة بسوء الظن

---

(١) ٢/٢٨٨ الإحياء.

(٢) أخرجه أبو داود في السنن رقم الحديث ٤٣٤٣ (٤/٥١٣) والنسائي في عمل اليوم والليلة بإسناد حسن من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص تخريج الإحياء ٢/٢٩٦.

ومرة بالإقتراحات والأطماع الكاذبة التي يعسر الوفاء بها وتارة بالنّميمة والكذب ، وربما يرقبون منك الدّخول فيها ويرون منك من الأقوال والأفعال ما لا تبلغ عقولهم كنهه فيتخذون ذلك ذخيرة عندهم يدّخرونها لوقت تظهر فيه فرصة الشر فإذا حصلت العزلة استغنيت عن جميع ذلك كله ، ولا شك أن كل من اختلط بالناس وشاركهم في أعمالهم لم ينفك من حاسد يحسده وعدو يكيده ، وفي العزلة السلامة[١].

الفائدة الخامسة : أن ينقطع طمع الناس عنك وينقطع طمعك منهم ، أما انقطاع طمع الناس فيك ففيه كل الغرض فإن رضاء الناس غاية لا تنال فاشتغال المرء بإصلاح نفسه أولى ، ومن أهون الحقوق وأيسرها حضور الجنازة وعيادة المريض وحضور الولائم والإملاكات وفيها تضييع الأوقات والتعرض للآفات ، ثم إنه قد تعوق عن بعضها العوائق وتستثقل فيها المعاذير ولا يمكن إظهار كل الأعذار فيقولون قمت بحق فلان وقصرت في حق فلان فيصير ذلك سبباً للعداوة ، وأما انقطاع طمعك عنهم فهو أيضاً فائدة جزيلة فإن كل من نظر إلى زهرة الدنيا وزينتها تحرك حرصه وانبعث طمعه ولا يرى إلا الخيبة في أكثر الأطماع فيتأذى به ، ومهما اعتزل لم يشاهد وإن لم يشاهد لم يشته ولم يطمع ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **ولا تمدن عينيك إلى ما متّعنا به أزواجاً منهم** ﴾ (طه : ١٣١) .

الفائدة السادسة : البراءة عن مشاهدة الثقلاء وأهل الحماقة ومقاساة أخلاقهم فإن رؤية الثقيل هو العمى الأصغر، قيل للأعمش: لِمَ عمشت عيناك؟ قال: من النظر إلى الثقلاء ويُحكى أنه دخل عليه أبو حنيفة فقال له : في الخبر: «من سلب الله كريمتيه عوّضه ما هو خير منهما»[٢] فما الذي عوضك؟ قال: في فيّ معرض المطايبة والمطارحة بالمفاكهة عوّضني عنهما أنه كفاني رؤية الثقلاء وأنت منهم ، وحُكي عن ابن سيرين قال: سمعت رجلاً يقول نظرت إلى ثقيل فغشي علي ، وقال جالينوس: لكل شيء حمّى وحمىّ الرّوح النظر إلى الثقلاء ، وقال الشافعي رضي الله عنه : ما جالست ثقيلاً إلا وجدت الجانب الذي يليه كأنه أثقل علّي من الجانب الآخر، فهذه فوائد العزلة[٣].

---

(١) الإحياء ٢/٢٩٦ .

(٢) أخرجه الطبراني بإسناد ضعيف من حديث جرير بلفظ «من سلبته كريمتيه عوضته عنهما الجنة» وله ولأحمد نحوه من حديث أبي أمامة بإسناد حسن. وللبخاري من حديث أنس نحوه تخريج الإحياء ٢/٣٠٠ .

(٣) الإحياء ٢/٣٠٠ .

التنبيه الثالث
في بيان آفات العزلة

إعلم أن من المقاصد الدينية والدنيوية والأعمال الأُخروية ما لا يستفاد إلا بالاستعانة بالغير ولا يحصل ذلك إلا بالمخالطة وكلما يستفاد بالمخالطة يفوت بالعزلة وفواتها من آفات العزلة ، فانظر إلى فوائد المخالطة والدواعي إليها ونحن نوردها بصورة الفوائد وجملتها ست :

الفائدة الأولى : التعلم والتعليم وهما من أعظم العبادات في الدنيا ولا يتصور ذلك إلا بالمخالطة خلا أن العلوم كثيرة وبعضها عنه مندوحة وبعضها ضروري فالمحتاج إلى التعليم لما هو فرض عليه عاصٍ بالعزلة وإن تعلم الفرض وكان لا يتأتى منه الخوض في العلوم ورأى الإشتغال بالعبادة فليعتزل فأما العزلة قبل التعليم ففيها غاية الخسران لما فيها من الجهل وأما التعليم ففيه ثواب عظيم صحّت فيه نية العالم والمتعلم ، فإن كان القصد إنما هو إقامة الجاه والاستكثار بالأصحاب والأتباع فإنه هلاك الدين وإبطال الآخرة(١)

الفائدة الثانية : النفع والانتفاع أما الانتفاع بالناس فإنه يحصل بالكسب والمعاملة وذلك لا يتأتى إلا بالمخالطة والمحتاج إليه يضطر إلى ترك العزلة فيقع في جهاد من الخلطة إن طلب موافقة الشرع فيه ، وأما النفع فهو أن ينتفع الناس إما بماله وإما ببدنه فيقوم بحاجتهم على جهة الإحتساب ففي النهوض بقضاء حوائج المسلمين ثواب وذلك لا ينال إلا بالمخالطة ومن قدر عليه مع القيام بحدود الشرع فهو أفضل من العزلة إن كان لا يشتغل في عزلته إلا بنوافل الصّلوات والأعمال البدنية لأن ذلك واجب على الكفاية أعني الإشتغال بما يحتاج إليه المسلمون(٢) .

الفائدة الثالثة : الأنس والاستئناس وهو غرض من يحضر الولائم في العرسات وجميع الدعوات ومواضع المعاشرة ، والأنس يحصل في خلطة من ينتفع به في الدين في أقواله وأفعاله كالأُنس بالعلماء وأهل الصلاح الملازمين للتقوى فإنه يحصل به تحريك الدواعي للنشاط في العبادة فإن القلوب إذا أُكرهت عميت ومهما كان في الوحدة وحشة

---

(١) الإحياء ٢/٣٠١ .

(٢) الإحياء ٢/٣٠٣ .

وفي المجالسة أنس يروح القلب كان هو الأولى لأن الرفق في العبادة من خير العبادة ولهذا قال ﷺ: «عليكم من العمل بما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا»[1] فالأنس بالغير وإيناسك للغير حاصلان بالخلطة فلهذا كان ولهذا قال ﷺ: «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل»[2] وليحرص أن يكون حديثه عند الملاقاة عن أحوال الدين لا غير.

الفائدة الرابعة: نيل الثواب وإنالته أما نيله فبحضور الجنائز وعيادة المرضى وحضور العيدين وحضور الجمعة والجماعة في سائر الصلوات فإنه لا رخصة في تركها إلا لعارض من مطر أو ريح أو غير ذلك، وكذلك في حضور الدعوات والإملاكات ثواب من جهة أنه إدخال على قلب المسلم سروراً، وأما إنالته فهو أن يفتح الباب ليعوده المسلمون ويعزوه في المصائب أو يهنّوه على النعيم فإنهم ينالون بذلك ثواباً، وكذلك إذا كان من العلماء فأذن لهم في الزيارة فإنهم ينالون ثواب الزيارة بسببه لأنه بالتمكين صار سبباً في ذلك فينبغي أن يوزن ثواب هذه المخالطة بآفاتها التي ذكرناها فعند ذلك قد ترجح الخلطة وقد ترجح العزلة[3].

الفائدة الخامسة: التواضع فإنه من أفضل المقامات لأهل الصلاح ولا يقدر عليه مع الوحدة، وقد يكون الكبر سبباً في اختيار العزلة فكم من معتزل في بيته والباعث له على الإعتزال التكبر ومانعه عن المحافل أن لا يوقر ولا يقدم أو يرى الترفع عن مخالطتهم أرفع لمحله وأبقى لطراوة ذكره بين الناس، وقد يعتزل خيفة من أن تظهر فضائحه لو خالط فلا يعتقد فيه الزهد والاشتغال بالعبادة فيتخذ البيت ستراً على قبائحه إبقاءاً على اعتقاد الناس في زهده وتعبده من غير استغراق وقت في الخلوة بذكر أو فكر، وعلامة هؤلاء أنهم يحبون أن يُزاروا ولا يحبون أن يزوروا ويفرحون بقرب العوام والسلاطين وأهل الأمر إليهم ويحبون اجتماعهم على أبوابهم[4].

الفائدة السادسة: حصول التجارب فإنها لا تنفك عن الخلطة ولا تعقل إلا بها وهي مستفادة منها في مصالح الخلق ومجاري مخالطتهم فإن الخلطة والممارسة أصلان

---

(١) أخرجه الطبراني عن عمران بن الحصين بإسناد حسن، التيسير للمناوي ٢/١٤٦.
(٢) أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه والحاكم من حديث أبي هريرة وقال صحيح.
(٣) أنظر الإحياء ٢/٣٠٤.
(٤) الإحياء ٢/٣٠٧.

في تفهم مصالح الدين والدنيا فإنه لا خير في عزلة من لم تحنكه التجارب، فالصبي إذا اعتزل بقي غمراً جاهلاً بل ينبغي أن يشتغل بالتعليم وتحصل معه التجارب بسماع الأحوال فلا يحتاج إلى المخالطة إلا في أول الأمر،ومن أهم التجارب أن يجرب نفسه وأخلاقه وصفات باطنه وذلك كله لا يقدر عليه مع الخلوة، فهذه فوائد العزلة وآفاتها قد ذكرناها في صورة الفوائد، وقد ذكرنا فيما سبق أن الطريق الأسد والمسلك الأرشد هو الطريق الوسط باتباع المصالح والمفاسد في العزلة والخلطة فكلما كان مقرباً إلى الله تعالى سالماً عن جميع الشوائب فهو الحق والأولى والله أعلم بالصواب.

ولنختم هذه المقالة بذكر جمل من آداب المجالسة والمعاشرة مع أصناف الخلق ملتقطة من كلام الحكماء[1].

إذا أردت حسن المعيشة فالق صديقك وعدوك بوجه الرضا من غير ذلة ولا هيبة من جهتهم، وتوقَر من غير تكبر، وتواضع من غير مذلة وكن في جميع أمورك في أوسطها، ولا تنظر في عطفيك ولا تكثر الإلتفات ولا تقف على الجماعات.

وإذا جلست فلا تستوفز وتمكن في مجلسك وتحفظ من شبك أصابعك والعبث بلحيتك وخاتمك وتخليل أسنانك وإدخال إصبعك في أنفك وكثرة بصاقك وتنخّمك وطرد الذّباب عن وجهك وكثرة التمطي والتثاؤب في وجوه الناس وفي الصلاة وغيرها، وليكن مجلسك هادئاً وحديثك منظوماً مرتباً واصغ إلى الكلام الحسن ممن حدّثك من غير إظهار تعجّب مفرط ولا تسأله إعادته، واسكت عن المضاحك في الحكايات ولا تحدث عن إعجابك بولدك وجاريتك ولا بشعرك وتصنيفك وسائر ما يحصل من جهتك، ولا تَزيَّنْ تزيُّنَ المرأة ولا تبذل تبذّل العبد وتوقّ كثرة الكحل والإسراف في الدهن، ولا تلح في الحاجات ولا تشجع أحداً على ظلم، ولا تعلم ولدك ولا أهلك فضلا عن غيرهم مقدار ما هو لك وأخفهم من غير عنف ولِن لهم من غير ضعف، ولا تهازل أمتك ولا عبدك فيسقط وقارك.

وإذا خاصمت فتوقر وتحفّظ من جهلك وتفكر في حجّتك ولا تكثر الإشارة بيديك ولا تكثر الإلتفات إلى من وراءك ولا تجثُ على ركبتيك وإذا سكن غضبك فتكلم.

وإن قربت إلى سلطان فاحذر منه وكن على حدّ السّنان وإن استرسل إليك فلا تأمن انقلابه عليك وارفق به رفقك بالصبيّ، وكلمه بما يشتهيه ولا يحملنّك لطفه بك أن تدخل

---

(١) الإحياء ٢/٣٠٧.

بينه وبين أهله وولده وحشمه وإن كنت لذلك مستحقاً عنده فإن سقطة الداخل بين الملك وأهله سقطة لا تنعش وزلة لا تقال[1].

وإياك وصديق العافية فإنه أعدى الأعداء، ولا تجعل مالك أكرم من عرضك.

وإذا دخلت مجلساً فالأدب البداية بالتسليم وترك التخطي لمن سبق والجلوس حيث اتّسع وحيث يكون أقرب إلى التواضع وأن تحيي بالسلامُ من قرب منك عند الجلوس ولا تجلس على الطريق وإذا جلست فعليك بادابها من غضّ البصر ونصرة المظلوم وإغاثة الملهوف وإرشاد الضّال وردّ السلام وإعطاء السائل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وإياك ومجالسة الملوك فإن فعلت ذلك واضطررت إليه فأدبه ترك الغيبة ومجانبة الكذب وصيانة السر وقلة الحوائج وتهذيب الألفاظ والإقلال في الخطاب والمذاكرة بأخلاق الملوك وقلة الملاعبة وكثرة الحذر منهم وإن أظهروا المودة ولا تجشأ بحضرته ولا تتخلّل بعد الأكل عنده، وعلى الملك أن يحتمل كل شيء إلا إفشاء السر والقدح في الملك والتعرض للحرم.

ولا تجالس العامة فإن فعلت فأدبه ترك الخوض معهم في حديثهم وقلة الإصغاء إلى أراجيفهم والتّغافل عما يجري من سوء ألفاظهم وقلة اللقاء لهم مع الحاجة إليهم[2].

وإياك أن تمازح لبيباً أو غير لبيب فإن اللبيب يحقد عليك والسّفيه يجترىء عليك ويسقط المنزلة عند الحكيم ويمقته الصالحون ويميت القلب ويباعد عن الرب ويكسب الغفلة ويورث الذّلة، وبه تظلم السرائر وتموت الخواطر وتكثر العيوب وتظهر الذّنوب، وقد قيل: إن المزاح لا يكون إلا من سخف أو بطر، ومن بلي بمزاح في مجلس فكثر فيه اللغط فليذكر الله، قال ﷺ: «من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه فقال عند أن يقوم من مجلسه: سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك إلا غفر الله له ما كان في مجلسه ذلك»[3]

---

(١) الإحياء

(٢) الإحياء

(٣) رواه الترمذي وقال حسن صحيح من حديث أبي هريرة.

وقد نجز غرضنا مما أردنا ذكره من باب العزلة واشتماله على ما أودعنا فيه وبالله التوفيق .

المقالة السابعة
في الغرور من علوم الكتاب

إعلم أن مفتاح السعادة الأخروية هو التيقظ والفطنة ومنبع الشّقاوة الأخروية هو الغرور والغفلة فلا نعمة لله على عباده أعظم من الإيمان والمعرفة ، ولا وسيلة لديه سوى انشراح الصّدر بنور البصيرة ولا نقمة على القلب أعظم من الكفر والمعصية ولا أدعى إليهما سوى عمى القلب لظلمة الجهالة ولا باعث لهما إلا غلبة الهوى واستحكام الضلالة فالأكياس وأرباب البصائر قلوبهم كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دريّ يتوقد في الليل والصبّاح ، والمغرورون الغافلون قلوبهم كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض ، وأهل التقوى هم الذين أراد الله أن يشرح صدورهم للإسلام والهدى ، والمغرورون هم الذين أراد الله أن يضلّهم فجعل صدورهم ضيّقة كأنما تصعد في السماء وأهل الضلالة هم الذين لم تنفتح بصائرهم فيكونون بهداية أنفسهم مسترشدين فاستهواهم الغيّ فأصبحوا في بحار الجهالة والغيّ متردين[1] .

فإذا تمهدت هذه القاعدة فاعلم أن الغرور هو سكون النفس إلى ما يكون موافقاً للهوى ويميل إليه الطبع عن شهوة وشبهة وخدعة من الشيطان فمن اعتقد أنه على خير في العاجل أو في الآجل عن شبهة فاسدة فهو مغرور لا محالة ، وأكثر الناس يظنون بأنفسهم خيراً وهم مخطئون فلنذكر ذم الغرور ثم نردفه بأصناف أهل الغرور فهذان تقريران نفصلهما بمعونة الله تعالى .

التقرير الأول
في بيان ذمْ أهل الغرور

قال الله تعالى : ﴿ لا تغرنّكم الحياة الدنيا ولا يغرّنكم بالله الغرور﴾ (لقمان : ٣٣) ، وقال تعالى : ﴿ ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرّتكم الأماني حتى جاء أمر الله

---

(١) الإحياء ٣/٤٦٨ ـ ٤٦٩ .

وغرّكم بالله الغرور ﴾ (الحديد: ١٤) ، وقال ﷺ : «حبذا نوم الأكياس ونظرهم كيف يغلبون سهر الحمقى واجتهادهم ، ولمثقال ذرّة من صاحب تقوى ويقين أفضل من ملء الأرض من المغترّين»[١] ، وقال ﷺ : «الكيّس من دان لنفسه هواها وعمل لما بعد الموت ، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني»[٢]، وكل ما ورد في فضل العلم وذمّ الجهل فهو دليل على ذمّ الغرور لأن الغرور عبارة عن بعض أنواع الجهل ، وأشد الغرور غرور الكفار فهم الذين غرّتهم الحياة الدنيا وغرهم بالله الغرور، وغرور العصاة الفسّاق من أهل الإسلام[٣] .

فأما الكفّار فالغرور من جهتهم هو أنهم جحدوا النبوة والرسالة وأنكروا الأمور الأخروية كما حكى الله عنهم بقوله : ﴿ **وما أظن الساعة قائمة** ﴾ (الكهف : ٣٦) ، وكما حكى الله عن عبدالله بن أمية وهو ابن عمة الرسول حيث قال : ﴿ **وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً أو يكون لك بيت من زخرف** ﴾ (الإسراء : ٩٠) ،إلى آخر الآيات ، وكما رُوي عن خبّاب بن الأرت قال : كان لي دين على العاص بن وائل السّهمي فجئت أتقاضاه فلم يقضه فقلت : إني آخذه في الآخرة ، فقال : إذا صرت إلى الآخرة فإن لي هناك مالاً وولداً أقضيك منه[٤] ، فأنزل الله : ﴿ **أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأُوتين مالاً وولداً أطلع الغيب** ﴾ (مريم : ٧٧ ، ٧٨) ، وقال الله تعالى فيه : ﴿ **ولئن أذقناه رحمة منّا من بعد ضرّاء مسّته ليقولنّ هذا لي وما أظن الساعة قائمة** ﴾ (فصلت : ٥٠) ، وتارة يغترّون بتأخير العذاب كما قال تعالى : ﴿ **ويقولون في أنفسهم لولا يعذّبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير** ﴾ (المجادلة : ٨) ، وتارة ينظرون إلى المؤمنين وهم فقراء شعث غبر فيزدرون بهم ويستحقرونهم ويقولون : ﴿ **أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا** ﴾ (الأنعام : ٥٣) ، ويقولون : ﴿ **لو كان خيراً ما سبقونا إليه وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم** ﴾ (الأحقاف: ١١)، إلى غير ذلك من الغرورات الكاذبة والأماني الباطلة التي قنعوا بها وغرّتهم الأماني فيها.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب اليقين (٥، ٤ رقم ٨) من حديث أبي سعيد الكندي أنه بلغه عن أبي الدرداء نحوه وفيه انقطاع. وفي بعض الروايات أبي الورد بدل أبي الدرداء. وقال العراقي لم أجده مرفوعاً. تخريج الإحياء ٤٠٧/٣ .

(٢) حديث الكيس أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث شداد بن أوس.

(٣) الإحياء ٤٠٧/٣ .

(٤) متفق عليه من حديث خباب بن الأرت تخريج الإحياء ٤٧٤/٢ .

وأما العصاة والفسّاق من أهل القبلة فغاية غرورهم أنهم قالوا إن الله كريم وإنا نرجو عفوه وكرمه واتّكلوا على ذلك وأهملوا الأعمال الصالحة التي يرجى بها الفوز عند الله تعالى ويحسبون ذلك بتسمية تمنّيهم واغترارهم رجاءً ويظنون أن الرجاء مقام محمود في الدين وأن نعمة الله واسعة ورحمته شاملة وكرمه عميم وأنّ معاصي العباد في بحار رحمته الواسعة وأنهم مؤمنون موحدون فيرجونه بوسيلة الإيمان وربما كان مدار رجاءهم التمسّك بصلاح الآباء وعلوّ مرتبتهم كاغترار العلويّة بنسبهم ومخالفتهم لطريق سيرة رسول الله لسيرة آبائهم في الخوف والتقوى والورع وظنّوا أنهم أكرم على الله تعالى من آبائهم لأن آباءهم كانوا في غاية الورع والتقوى كانوا خائفين وهم في غاية الفجور والفسق والظلم والجور، فهذا هو نهاية الغرور بالله تعالى وما دروا أن الله تعالى يحب المطيع ويبغض العاصي وأن نوحاً لم ينفع ولده وأن الرسول ﷺ لم ينفع والدته حيث استأذن في الزيارة لقبرها والاستغفار لها فأذن له في الزيارة ولم يأذن في الاستغفار[1]، وقيل للحسن البصري: قوم يقولون نرجو الله ويضيعون العمل، فقال: هيهات هيهات تلك أمانيهم يترجون فيها، من رجا شيئاً طلبه ومن خاف شيئاً هرب منه، وعن بعض أهل الصّلاح أنه قال: سجدت البارحة حتى سقطت ثنيتاي فقال له رجل: إنّا لنرجوا الله فقال له: هيهات هيهات من رجا شيئاً طلبه ومن خاف شيئاً هرب منه، فهذا غرور الفريقين[2].

التقرير الثاني
في بيان المغترين وتقسيم فرقهم

واعلم أن المغترين فرق كثيرة فنجمعهم في مراتب أربع:

المرتبة الأولى
المتحملون للعلم والمتصفون به

وأهل الغرور منهم أصناف عشرة:

الصّنف الأول: الذين أحكموا الأمور الشرعية والعقلية وتعمقوا فيها واشتغلوا بها

(١) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

(٢) الإحياء ٣/٤٧٦.

وأهملوا تفقد الجوارح وحفظها من المعاصي وإلزامها بالطاعات واغتروا بما لفقوه من العلوم وظنّوا أنهم عند الله بمكان وأنهم بلغوا مبلغاً لا يعذبهم الله وأنهم لا يطالبون بذنب ويشفعون في الخلق يوم القيامة فهذا وما شاكله غرور كاذب وأماني باطلة.

الصنف الثاني: الذين أحكموا العلم والعمل فواظبوا على الطاعات الظاهرة وتركوا المعاصي خلا أنهم لم يفتقدوا قلوبهم عن الصفات المذمومة المهلكة من الحسد والرياء وطلب الرّياسة والعلو وإرادة السوء بالأقران وطلبوا الشهرة في البلاد والعباد وربما لم يعرف بعضهم أن ذلك مذموم مهلك فهو مكبّ على ذلك غير محترز منه ولا يلتفت إلى قوله ﷺ: «أدنى الرياء الشّرك الخفيّ»[١] وقوله ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبّة من كبر»[٢] إلى غير ذلك من الوعيد على هذه الصفات المذمومة فهذا غرور في عدم الاحتراز فيما هذا حاله وصفته.

الصنف الثالث: تحققوا هذه الأخلاق الباطنة وعلموا أنها مذمومة من جهة الشرع خلا أنهم لعجبهم بأنفسهم يظنون أنهم منفكون عنها وأنهم أرفع قدراً من أن الله يبتليهم بذلك وإنما يبتلي به العوام دون من بلغ مبلغهم في العلم، ثم إذا ظهرت على أحدهم مخايل الكبر والرياسة وطلب العلوّ والشرف قال ما هذا كبر وإنما هو طلب العز للدّين وإظهار شرف العلم ونصرة دين الله وإرغام أُنوف المخالفين من أهل البدع فهذا غرور[٣].

الصنف الرابع: أحكموا العلوم وطهّروا الجوارح وزينوها بالطاعات واجتنبوا ظاهر المعاصي وتفقدوا أخلاق النفس وصفات القلب من الرياء والحسد والكبر وطلب العلو وجاهدوا أنفسهم في التبرؤ منها وقلعوها من القلوب وأزالوا منابتها الجلية الواضحة ولكنهم معدودون من جملة المغتريّن حيث بقوا منها بقايا في زوايا القلوب هي مصايد للشيطان ومكايد للنفس والهوى، وربما غمض مدركها فلم يفطنوا لها ومثالها: من يريد تطييب الأرض عما يفسدها من الحشيش فربما يجتهد في قلع الظاهر وتبقى بقايا كامنة تحت الأرض وربما ظهرت فأفسدت الزرع فإن لم يستلحقها بالبحث عن أغوارها بطل الزرع، وهذا الصنف والذي قبله كثير الدوران تعظم البلوى بهما لا يكاد ينجو منهما إلا من وفقه الله تعالى.

---

(١) الإحياء ٣/٤٨٢.

(٢) الإحياء ٣/٤٨٢.

(٣) الإحياء ٣/٤٨٣.

الصنف الخامس : الذين اقتصروا على علم الفتاوى والحكومات والمخاصمات وتفاصيل المعاملات الدنيوية الجارية بين الخلق لمصالح المعايش وخصصوا إسم الفقه بها وسموه الفقه وعلم المذهب وربما ضيعوا الأعمال الظاهرة والباطنة ولم يتفقدوا الجوارح ولم يحرسوا ألسنتهم عن الغيبة والبطن عن أكل الحرام والبعد عن المشي إلى السلاطين وأرباب الظلم والجور، ولا حرسوا قلوبهم عن الرياء والحسد والكبر وسائر المهلكات، فهذا لا محالة غرور مهلك[1].

الصنف السادس : هم الذين اشتغلوا بعلم الكلام والمجادلة في الأهواء والرد على المخالفين وتتبع مناقضاتهم واستكثروا من معرفة المقالات المختلفة واشتغلوا بتعلم الطريق في مناظرة أولئك وإفحاماتهم وزعموا أنه لا يكون لعبد إيمان بالله إلا بأن يتعلم جدلهم واعتقدوا أنه لا أحد أعرف بالله تعالى وبصفاته منهم ، وأنه لا إيمان إلا لمن يعتقد مذاهبهم الكلامية وعباراتهم الجدلية ، فظنّوا أنهم فازوا بالعلم النافع ، فما هذا حاله غرور أيضاً فإن القرن الأول من الصحابة رضي الله عنهم كانوا من أعظم الخلق إيماناً وأصدقهم عقيدة فلم يلتفتوا إلى ذلك وأعرضوا عنه[2].

الصنف السابع : جعلوا شغلهم الوعظ وأعلاهم حالة من يتكلم في أخلاق النفوس وصفات القلب من الخوف والرجاء والصبر والشكر والتوكل والزهد واليقين والإخلاص والصدق ونظائرها وهم مغرورون من جهة أنهم إذا تكلموا على هذه الصفات ودعوا الخلق إليها فقد صاروا موصوفين بها وحاصلين عليها وهم في غاية البعد عنها إلا قدراً يسيراً لا ينفك عوام المسلمين عنها ، فهذا هو غاية الغرور.

الصنف الثامن : الذين قنعوا بحفظ كلام الزهاد وأحاديثهم في ذم الدنيا فهم يحفظون الكلمات على وجوهها ويؤدّونها من غير إحاطة بمعانيها فيفعل ذلك بعضهم على المنابر وبعضهم في المحاريب وبعضهم في الأسواق وكل منهم يظن أنه إذا تميز بهذا القدر عن أهل السوق والجند والديوان فقد فاز بالغرض وأفلح وصار مغفوراً له وأمن من عقاب الله تعالى ، وهذا أيضاً غرور فإن حفظ كلام الزهاد وإعادته من ظاهر قلبه لا يكفيه ولا يكون منتفعاً إلا بالعمل فقد صار في غرور كاذب.

الصنف التاسع : الذين استغرقوا أوقاتهم في علم الحديث أعني سماعه وجمع الروايات الكثيرة وطلب الأسانيد العالية الغريبة ، مهمة أحدهم أن يدور في البلاد ويرى

---

(١) الإحياء ٣/٤٨٤.

(٢) الإحياء ٣/٤٨٤ ـ ٤٨٦.

الشيوخ ويقول: أنا أروي عن فلان وقد لقيت فلاناً ومعي من الأسانيد الغريبة ما ليس مع أحد من الخلق فهؤلاء في غاية الغرور أيضاً فإنهم ليس معهم شيء من معاني السنة فعلمهم قاصر ليس معهم إلا النقل ويظنون أنه يكفيهم والأمر على خلاف ذلك.

الصّنف العاشر: قوم اشتغلوا بعلم النحو واللغة والشّعر وغريب اللغة واغترّوا به وزعموا أنهم قد غفر لهم وأنهم من علماء الأُمة لأن قوام الدّين بالكتاب والسنّة، وقوام الكتاب والسنّة إنّما هو بعلم النّحو واللغة فأفنى هؤلاء أعمارهم في دقائق النحو واللغة وفي صناعة الشّعر وهذا غرور أيضاً فإنه يكفي في علم الكتاب والسنة ما يمكن قيام الإعراب به والوصول إلى معانيها وما عداه فضل لا حاجة إليه، فهذا ما أردنا ذكره من هذه الفرق المغترين بما ذكرناه.

المرتبة الثانية

السالكون مسلك العبادة والعمل

ثم إن أَهل الغرور منهم أصناف عشرة:

الصّنف الأوّل: أهملوا علم الفرائض واشتغلوا بالفضائل والنوافل وربّما تعمّقوا في الفضائل حتى خرجوا إلى العدوان والسّرف كالذي تغلب عليه الوسوسة في الوضوء فيبالغ فيه ولا يرتضي الماء المحكوم بطهارته في فتوى ويقدّر الإحتمالات البعيدة قريبة[1] في النّجاسة، فما هذا حاله غرور، وربّما اشتغل بتطهير الأعضاء حتى فات الوقت، ومع ذلك فإنه ربما أكل الحرام المحض ولو انقلب هذا الاحتياط من الماء إلى الطعام لكان أحسن وأولى[1].

الصّنف الثاني: الذين غلبت عليهم الوسوسة في نيّة الصلاة فلا يدعه الشيطان حتى يعتقد نيّة صحيحة بل يشوش على أحدهم حتى تفوته الجماعة وتخرج الصّلاة عن الوقت، وإن أتم تكبيره كان في قلبه تردّد في صحّة نيّته وقد يوسوسون في التكبيرة حتى ينتهي بهم الحال إلى تغيير صيغة التكبيرة بشدّة الاحتياط فيه يفعلون ذلك في أوّل الصلاة ثم يغفلون في أثناء الصلاة عن الخشوع وإحضار القلوب في العبادة، فهذا غرور هؤلاء وهو واقع كما ترى.

الصنف الثالث: الذين غلبت عليهم الوسوسة في إخراج حروف الفاتحة وسائر

---

(١) الإحياء ٣/٤٩٦ ـ ٤٩٧.

الأذكار من مخارجها فلا يزال أحدهم يحتاط في التشديد والفرق بين الظاء والضّاد وتصحيح مخارج الحروف في جميع صلاته لا يهمّه غيره ولا يتفكر فيماسواه غافل عن جميع معاني القرآن، فهذا غرور هؤلاء وهو من أقبح الغرور.

الصّنف الرابع: الذين اغتروا بقراءة القرآن فصاروا يهزّونه هزّاً، وربما يختمونه في اليوم والليلة مرّة وربّما يزيد أحدهم على ذلك فألسنتهم تجري به وقلوبهم تتردّد في أودية الأماني وأعمال الدّنيا ولا يتفكرون في معاني القرآن ولا يزدجرون بزواجره ولا يقفون عند أوامره ونواهيه ولا يتّعظون بمواعظه، فهؤلاء ظنّوا أن المقصود هو الهمهمة والهذر بألفاظه، فهذا من الغرور.

الصّنف الخامس: الذين اغتروا بالصّوم وربّما صاموا الدهر كله أو صاموا الأيام الشريفة وهم في ذلك لا يحفظون ألسنتهم عن الغيبة والنّميمة وخواطرهم من الرّياء وبطونهم من أكل الحرام عند الإفطار وألسنتهم من الهذيان بأنواع الفضولات طول النّهار وكل منهم يظنّ بنفسه الخير فيهمل الفرض ويطلب النّفل ثمّ لا يقوم بحقّه وهذا نهاية الغرور[1].

الصّنف السّادس: الذّين اغترّوا بالحج فيخرجون إلى الحج من غير خروج من المظالم وقضاء الدّيون واسترضاء الوالدين وطلب الزّاد الحلال، وقد يفعلون ذلك بعد سقوط حجّة الإسلام ويضيّعون في الطريق الصّلاة والفرائض. ويعجزون عن طهارة الأثواب والبدن فلا يحترزون عن الرّفث والخصام في الطرقات، وربّما جمع بعضهم الحرام وأنفقه على رفقته في الطريق وهو يطلب بذلك الرّياء والسّمعة فيعصي الله في كسب الحرام أولاً وفي إنفاقه في الرياء ثانياً وهو مع ذلك يظن أنه على خير وهو مغرور.

الصنف السابع: الذين تصدروا بزعمهم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وينكر على الناس ويأمرهم وينسى نفسه، وإذا أمرهم بالخير أعنف عليهم وطلب الرياسة والعزّ، وإذا باشر منكراً فردّ عليه غضب وقال أنا محتسب فكيف ينكر عليّ، وقد يجمع الناس في مسجده ومن تأخر عنه أغلظ عليه القول وإنما غرضه الرّياء والسّمعة والرّياسة، فهذا قد حاز الغرور.

الصنّف الثامن: أقوام جاوروا بمكة والمدينة واغترّوا بذلك ولم يراقبوا قلوبهم ولم يطهّروا ظواهرهم وبواطنهم فصارت قلوبهم متعلقة ببلادهم ملتفتة إلى قول أهل بلادهم أنّ فلاناً

---

(١) الإحياء ٣/٤٩٧.

مجاور بمكة والمدينة وأحدهم يتمدّح ويقول: قد جاورت بمكة كذا وكذا سنة ويحبّ أن يعرفه الناس بذلك، ثم إنه يجاور ويمدّ عين الطمع إلى أوساخ أموال النّاس، فإذا جمع شيئاً منها شحّ عليه وأمسكه ولم تسمح نفسه بلقمة يتصدق بها على فقير فيظهر منه الرّياء والبخل والطمع وجملة من الخصال المهلكة(١).

الصنف التاسع: أقوام زهدوا في المال وقنعوا من اللباس والطّعام بالدون ومن المساكن بالمساجد وظنّوا أنهم قد أدركوا رتبة الزّهاد وهم مع ذلك في غاية المحبّة للرياسة والجاه إما بالعلم وإما بالوعظ أو بمجرد الزهد فقد تركوا أهون الأمرين وهو اللّباس والمطعم وتلبسوا بأعظم المهلكين حبّ الرياسة وحب الجاه، فهؤلاء مغرورون لأنّهم ظنّوا أنّهم من الزهاد وهم أبعد ما يكون من طرائقهم.

الصّنف العاشر: أقوام حرصوا على النوافل ولم يعظم عندهم الإعتداد بالفرائض فترى أحدهم يفرح بصلاة الضّحى وصلاة الليل وأمثال هذه النوافل ولا يجد للفريضة لذّة ولا يشتدّ حرصه على المبادرة لها في أوّل الوقت وينسى قوله ﷺ: «ما تقرّب إليّ المتقربون بمثل أداء ما افترضت عليهم»(٢) يرويه عن الله عزّ وجل، فما هذا حاله فمعدود في الغرور، فهذه مجامع الغرور لهذه الفرق قد عرفناها، والسّالم في الدّين من عرفها وبعد عنها بتوفيق الله تعالى.

المرتبة الثالثة
أهل التصوف

وهم أصناف في الغرور ونذكر منها عشرة:

الصّنف الأوّل: متصوّفة أهل زماننا هذا فإنهم اغتروا بالزيّ والمنطق والهيئة فتشبّهوا بالصّادقين من الصّوفية كالجنيد والشّبلي وأبي يزيد البسطامي وغيرهم وفارقوهم في الخوف والخشية والصّدق، فليس لهؤلاء حظّ من التصوف إلا لبس المرقّعات وتنفّس الصعداء وأهملوا أنفسهم عن الخوف والمجاهدة(٣).

الصّنف الثاني: الذين ازدادوا على هؤلاء في الغرور لأنه شقّ عليهم الإقتداء بهم في بذاذة الثّياب والرّضا بالدّون وأرادوا أن يتظاهروا باسم التصوّف ولم يجدوا بدّاً من

---

(١) الإحياء ٣/٤٩٩ ـ ٥٠٠.

(٢) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة.

(٣) الإحياء ٣/٥٠٠.

التزيي بزيّهم فتركوا لبس الخزّ والحرير والإبريسيم وطلبوا المرقعات الفاخرة والفوط الرفيعة والسّجادات المصبوغة ولبسوا من الثّياب ما هو أرفع قدراً من الحرير وظنّوا أنهم متصوفة وهم مغرورون .

الصّنف الثالث : ادّعوا علوم المعرفة ومشاهدة الحق ومجاورة المقامات والأحوال ولا يعرفون هذه الأمور إلا بالأسماء ومجرّد العبارات ولا يحيطون بشيء من معانيها بل قد تلقّنوا من كلمات الصّوفية وهم يرددونها ويظنون أن ذلك أعلى من علم الأولين والآخرين فهم ينظرون إلى الفقهاء والمفسرين وأهل الحديث وجميع أصناف العلماء بعين الإزدراء فضلاً عن العوام حتى إن أهل الحرف والصّناعات يلازمونهم ويحفظون منهم كلمات رائقة وليس معهم سواها فهم مغرورون .

الصّنف الرابع : وقعوا في الإباحة وطووا بساط الأحكام ورفضوا الفصل بين الحلال والحرام ، وزعم هؤلاء أن الله غنيّ عن العلم والعمل فلم أُتعب نفسي؟ ، وبعضهم يقول : لم يكلف الله تعالى إلا تطهير القلوب لا غير عن الشهوات وعن حبّ الدّنيا من غير حاجة إلى هذه التكاليف الظاهرة وإنما المقصود عمل القلوب بأن تكون والهة إلى الله تعالى فهذا غرور كاذب[1] .

الصّنف الخامس : الذين أحسنوا الأعمال الظاهرة وطلبوا الحلال واشتغلوا بتفقد القلب وصاروا يدّعون المقامات العظيمة من الزهد والتوكل والرضا والحب لله تعالى من غير وقوف على هذه المقامات وشروطها وعلاماتها لكنّه ربّما تخيّل في الله خيالات بدعية كفرية فيدعي معرفة الله وهو جاهل ، ويدعي الإخلاص وهو في غاية البعد منه .

الصّنف السادس : الذين ضيّقوا على أنفسهم أمر القوت حتى طلبوا الحلال الخالص وأهملوا تفقّد القلب والجوارح في غير هذه الخصلة ولم يدروا أنّ الله تعالى كما هو طالب للحلال فهو طالب لإحراز هذه الخصال والحصول على الطاعات واجتناب المعاصي وأن طلب الحلال غير كافٍ فاعتقاده أنه كافٍ غرور لا محالة .

الصّنف السابع : الذين اشتغلوا بالمجاهدة وتهذيب الأخلاق وتطهير النفس عن سائر العيوب وصاروا يتعمقون فيها ويشغلون أعمارهم في البراءة عن العيوب ، فهم في جميع أحوالهم مشغولون بالفحص عن عيوب النفس ومعرضون عن المقصود ، ومثالهم كمن اشتغل عن عوائق الحج ولم يسلك طريق الحج ، فهؤلاء مغرورون أيضاً .

---

(١) الإحياء ٣/٥٠١ ـ ٥٠٢ .

الصّنف الثامن: الذين ادعوا حسن الخلق والتواضع والسماحة وقصدوا لخدمة أهل التصوف فجمعوا أقواماً وتكلفوا خدمتهم وأعدّوا ذلك شبكة للرياسة وجمع الأموال وإنما غرضهم التكبر وهم يظهرون الخدمة، وبعضهم يأخذ أموال السلاطين وينفقها عليهم وبعضهم يأخذ الأموال لينفقها في طريق الحج ويزعم أن غرضه البر وإنما غرضه الرياء والسمعة وعلامة ذلك أنهم يهملون أوامر الله تعالى ظاهراً وباطناً، فهذا نهاية الغرور.

الصنف التاسع: الذين انفتحت لهم الأبواب إلى معرفة الله تعالى لكنهم قصروا نفوسهم وقعدوا عن الوصول إلى المقصود فصاروا فيما فعلوه بمنزلة من قصد ملكاً من الملوك يريد مشاهدته وخدمته فصادف على بابه روضة معجبة فأعجبته فقعد فيها واشتغل عن مواصلة الملك وخدمته فهؤلاء حالهم كما ذكرناه[1].

الصنف العاشر: الذين جدوا وجهدوا على إرادة الوصول إلى طاعة الله والفوز بقربه فأفيضت عليهم أنوار الهداية فظنوا لما أُفيض عليهم من تلك الأنوار أنهم وصلوا ولم يصلوا فاغترّوا بالوصول ولم يحصل لهم الوصول، فهذا غرور لكنه غرور ليس فيه خطر لأنهم طلبوا التمام فقصروا عن بلوغ الغاية، فهذا ما أردنا ذكره من ذكر المتصوفة.

المرتبة الرابعة
في بيان غرور أهل الأموال

والمغترون منهم أصناف ستة:

الصنف الأول: يحرصون على بناء المساجد والرّباطات والمدارس والخانكات والقناطر وإصلاح الطرقات وما يظهر للناس كافة من المناهل وحفر الآبار ويطلبون بذلك الفخر والرّياء والسّمعة وما قصدهم بذلك وجه الله وعلامة ذلك أنه لو أنفق أحدهم درهماً في خفية ما رضي بذلك، فغرورهم حاصل من وجهين، **أحدهما**: أنهم إنما بنوها من الأموال المكتسبة من الربا والمظالم وأنواع الحرام، **وثانيها**: إظهار الرّياء في كلّ ما فعلوه.

الصنف الثاني: الذين اكتسبوا المال من وجوه الحلال وأنواع التجارات لكنهم مغرورون من وجهين **أحدهما**: أنه ربما كان في جواره وفي بلده ناس من الفقراء فلا يصرف إليهم درهماً واحداً مع الحاجة العظيمة وإنما يصرفها في المساجد، **وثانيها**: أنه يصرف ذلك إلى زخرفة المساجد وتزيينها بالنقوش الذهبية والفضية وهو منهيّ عن ذلك

---

(١) الإحياء ٣/٥٠٢ ـ ٥٠٤.

وشاغلة لقلوب المصلّين ومختطفة أعينهم عن الخشوع في الصلاة وحضور القلب[1].

الصّنف الثالث: الذين ينفقون الأموال النفيسة في الصدقات وعلى الفقراء والمساكين ويطلبون بذلك المحافل والمجامع من أجل الشكر وإشادة الذكر، ويخصون بذلك من كان من الفقراء عادته الشكر والإفشاء بذكر المعروف، ومن كان منهم خامل الذكر فإنهم لا يعولون عليه، فهذا غرور عظيم الخطر قلّ من سلم منه من أهل الأموال.

الصّنف الرابع: الذين يحفظون الأموال ويمسكونها بحكم البخل بها ثم إنهم يشتغلون بالعبادات البدنيه التي لا يحتاج فيها إلى نفقة كقيام الليل وصيام النهار وختم القرآن وقراءته، ثم إنهم مع ذلك مغرورون لأن البخل المهلك قد استولى عليهم في بواطنهم فهو محتاج إلى قمعه بإخراج المال فقد اشتغل بطلب فضائل هو مستغن عنها وعليه خطر عظيم في عدم إنفاقها في مصارفها وهو غافل عنه فهذا غرور.

الصنف الخامس: الذين غلب عليهم البخل فلا تسمح نفوسهم إلا بأداء الزكاة فقط من غير زيادة لكنهم يخرجونها من المال الخشن والجنس الرديء الذي يرغبون عنه ولا يحبونه، ومع ذلك يطلبون من الفقراء من يخدمهم ويتردد في حاجاتهم ومن يحتاجون إليه في المستقبل للإستسخار في خدمتهم، فما هذا حاله يكون فيه غرور ونقص من أجورهم وأنهم لم يعطوها لله ولا أخلصوها لوجهه الكريم[2].

الصنف السادس: الذين اغتروا من الأغنياء بحضور مجالس الذكر واعتقدوا أن ذلك يغنيهم ويكفيهم واتخذوا ذلك عادة ويظنون أن لهم على مجرّد السماع للوعظ دون العمل ودون الإتعاظ أجراً عظيماً وهم مغرورون لأن فضل مجالس الذكر إنما يكون محصّلاً للخير إذا كان مرغّبا في الخير، فإذا لم يكن مهيّجاً للرغبة فلا خير فيه، وربما يغتر بما يسمعه من الواعظ من فضل حضور مجالس الذّكر وفضل البكاء، وربما تدخله رقة كرقة النساء فيبكي، وربما يسمع كلاماً رقيقاً مخوّفاً فلا يزيد على تصفيق يديه ويقول يا سلام سلّم ونعوذ بالله وسبحان الله ويظنّ أنه قد أتى بالخير وهو مغرور كما ذكرناه، فهذه جميع أصناف الفرق المغترّة بما هم عليها على التّفصيل الذي أشرنا إليه.

سؤال: ما ذكرته من مداخل الغرور أمر عظيم لا مخلص منه لأحد ولا يمكن

---

(١) الإحياء ٣/٥٠٦ ـ ٥٠٧.

(٢) الإحياء ٣/٥٠٦ ـ ٥٠٧.

الإحتراز منه وهذا يوجب اليأس من رحمة الله فلا يسلم أحد من هذه الآفات.

وجوابه: أن السلامة سهلة على من وفقه الله للخير ولطف به، بالألطاف الخفيّة فإنه أمر سهل لا محالة، ثم إن طريق النجاة تحصل بأمور ثلاثة: **أولها**: العقل فإنه يميّز بين الحسن والقبيح ويستعمله فإنه هو النور الأصلي، ولقد كان رسول الله ﷺ إذا وصف له الرجل بالعبادة وأُثني عليه بضروب من الثناء لا يسأل إلا عن عقله فيقول: كيف عقله[1]؟ فإن الأحمق يصيب بحمقه أعظم من فجور الفاجر وإنما يقرب الناس على قدر عقولهم.

وثانيها: العلم ونعني به أن يكون عالماً بالله وعالماً بنفسه وعالماً بحال الدّنيا ويعلم حال الآخرة، فإذا أدرك هذه الأمور كلها كان ذلك سبباً للنجاة.

وثالثها: العمل ونعني بذلك أن يجتهد في فعل ما يقربه إلى الله تعالى وما يقرّبه إلى الجنة وما يباعده من النار، وجميع ذلك قد شرحناه في المنجيات والمهلكات[2].

المقالة الثامنة
في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من علوم الكتاب

إعلم أنهما قطبان من أقطاب الّدين وهما المهمان اللذان بعث الله بهما جميع النبيين، فلو طوي بساطهم وأُهمل رعاية حقهما لتعطلت النبوة واضمحلت الديانة وعمّت الفتنة وفشت الضّلالة وشاعت الجهالة وانتشر الفساد واتسع الخرق وخربت البلاد، وقد كان الذي خشينا أن يكون فإنا لله وإنّا إليه راجعون، وقد اندرس من هذا القطب عمله وعلمه وانمحى بالكلية حكمه ورسمه، واستولت على القلوب مداهنة الخلق وبطلت عنها مراقبة الخالق واسترسل الناس في اتباع الشهوات وانهمكوا في مواقعة الشبهات وعزّ على بسيط الأرض مؤمن صادق لا تأخذه في الله لومة لائم، فمن سعى في تلافي هذه الفترة وانتعاش هذه العثرة مجدداً لهذه السنة الداثرة محيياً بسيفه ولسانه هذه الآثار الغابرة ناهضاً بأعبائها ومشّمراً في إحيائها كان مستأثراً من بين سائر الخلق بإحياء سنّة أفضى الزمان إلى إماتتها ومشيداً بإحياء قربة تتضاءل درجات القرب دون ذروتها

(١) الإحياء ٣/٥٠٩ ـ ٥١٢.

(٢) الإحياء ٣/٥٠٩.

وفاز عند الله بالحظ الأكبر وظفر من جهته بالنصيب الأجزل الأوفر، ونحن الآن نشير إلى ما نريد أن نذكره من حالها على جهة الإيجاز لأن كتابنا هذا لا يتسع لأكثر مما نورده من ذلك في أبواب أربعة[1].

---

(١) الإحياء ٢/٣٩١.

الباب الأول

في بيان وجوبهما والإشارة إلى فضلهما

ويدل على ذلك بعد انعقاد الإجماع عليه الآيات والأخبار والآثار فهذه جهات ثلاث :

الجهة الأولى: الآيات كقوله تعالى : ﴿**ولتكن منكم أُمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون**﴾ (آل عمران : ١٠٤)، وقال تعالى : ﴿ **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر**﴾ (التوبة : ٧١) ، وقال : ﴿**لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون**﴾ (المائدة : ٧٨) ،وهذا غاية التشديد لأنه علل استحقاقهم لما قاله من اللعنة بتركهم إنكار المنكر، وقال تعالى : ﴿ **كنتم خير أُمة أُخرجت للنّاس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر**﴾ (آل عمران : ١١٠) ، وفي هذا دلالة على فضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذ نبّه أنهم إنّما كانوا خير أُمة من أجل ذلك .

وقال تعالى : ﴿ **فلمّا نسوا ما ذكّروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون**﴾ (الأعراف : ١٦٥) ، فبيّن أنهم إنما استفادوا النجاة من أجل نهيهم عن السوء ، وقال تعالى : ﴿ **الذّين إن مكنّاهم في الأرض أقاموا الصّلاة وآتوا الزّكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور**﴾ (الحج : ٤١) ، فقرن ذلك بالصّلاة والزكاة في نعت الصالحين والمؤمنين ، وقال تعالى : ﴿ **وتعاونوا على البّر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان**﴾ (المائدة : ٢) ، وقال تعالى : ﴿**لولا ينهاهم الرّبانيّون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السّحت**

لبئس ما كانوا يصنعون﴾ (المائدة: ٦٣)، وقال تعالى: **﴿فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض﴾** (هود: ١١٦)، فهذه الآيات كلّها دالة على الاهتمام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وأما الأخبار فكثيرة كقوله ﷺ: «ما من قوم يعملون بالمعاصي إلا أوشك أن يعمّهم الله بعذاب من عنده»[١]، ورُوي عن الرسول ﷺ، أنه قال لأبي ثعلبة الخشني: «يا أبا ثعلبة مر بالمعروف وانه عن المنكر فإذا رأيت شحّاً مطاعاً وهوى متّبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بنفسك ودع العوام، إنّ من ورائكم فتناً كقطع الليل المظلم للمتمسّك فيها بمثل الذي أنتم عليه أجر خمسين منكم»، قيل: بل منهم يا رسول الله، قال: لا بل منكم لأنكم تجدون على الخير أعواناً وهم لا يجدون عليه أعواناً»[٢]، وقال رسول الله ﷺ: «لتأْمرنّ بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم[٣]» ومعناه تسقط مهابتهم من أعين الأشرار فلا يخافونهم.

وقال رسول الله ﷺ: «يا أيها النّاس إنّ الله تعالى يقول: تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر فأْمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل أن تدعوا فلا يستجاب لكم»[٤]، وقال ﷺ: «ما أعمال البّر عند الجهاد في سبيل الله إلا كنفثة في بحر لجيّ»[٥]، وما جميع أعمال البرّ والجهاد في سبيل الله عند الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر إلا كنفثة في بحر لجيّ وقال ﷺ: «إن الله ليسأل العبد ما منعك إذ رأيت المنكر أن تنكره فإذا ألقن الله العبد حجتّه قال: يا ربّ وثقت بك وفرقت من الناس»[٦]، وقال ﷺ: «إيّاكم والجلوس على الطرقات، قالوا: ما لنا بدّ إنما هي مجالسنا نتحدث فيها، قال: فإذا أبيتم إلا ذلك فاعطوا الطريق حقها، قالوا: وما حقّ الطريق؟ قال: غضّ البصر

---

(١) أخرجه أصحاب السنن وقال الترمذي حسن صحيح. تخريج الإحياء ٢/٢٩١.

(٢) أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه وأخرجه ابن ماجه أيضاً.

(٣) أخرجه البزار من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة وكلاهما ضعيف. وللترمذي من حديث حذيفة نحوه وقال حديث حسن تخريج الإحياء ٢/٣٩٣.

(٤) أخرجه أحمد والبيهقي من حديث عائشة ولابن ماجه عنها أيضاً نحوه وفي إسناده لين.

(٥) رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس مقتصراً على الشطر الأول من حديث جابر بإسناد ضعيف. والشطر الأخير فرواه علي بن معبد في كتاب الطاعة والمعصية من رواية يحيى بن عطاء مرسلاً أو مفصلاً تخريج الإحياء ٢/٣٩٣. وقال العراقي ولا أدري من يحيى بن عطاء.

(٦) أخرجه ابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري بإسناد جيد تخريج الإحياء ٢/٢٩١.

وكفّ الأذى وردّ السلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[١]، وقال ﷺ: «كلام العبد كله عليه لا له إلا أمراً بمعروف أو نهياً عن منكر أو ذكراً لله تعالى»[٢]، وقال ﷺ: «إن الله لا يعذب الخاصة بذنوب العامّة حتى يُرَى المنكر بين أظهرهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكرونه»[٣].

وروى أبو أُمامة عن الرسول ﷺ أنه قال: كيف أنتم إذا طغى نساؤكم وفسق شبابكم وتركتم جهادكم؟، قالوا: وإن ذلك كائن يا رسول الله؟، قال: نعم والذي نفسي بيده وأشدّ منه سيكون، قالوا: وما أشد منه يا رسول الله؟، قال: كيف بكم إذا أنتم لم تأمروا بمعروف ولا تنهون عن منكر، قالوا: أو كائن ذلك يا رسول الله؟ قال: نعم والذي نفسي بيده وأشدّ منه، قالوا: وما أشد منه يا رسول الله؟، قال: كيف أنتم إذا رأيتم المعروف منكراً والمنكر معروفاً؟ قالوا: أو كائن ذلك يا رسول الله؟ قال: نعم والذي نفسي بيده وأشدّ منه، قالوا: وما أشد منه يا رسول الله؟، قال: كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف، قالوا: أو كائن ذلك يا رسول الله؟، قال: نعم والذي نفسي بيده وأشدّ منه سيكون يقول الله: بي حلفت لأُتيحنّ فتنة يصير الحليم فيها حيران[٤].

وقال أبو عبيدة بن الجراح قلت: يا رسول الله أي الشّهداء أكرم على الله تعالى؟ قال: «رجل قام إلى والٍ جائر فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر فقتله فإن لم يقتله فالقلم لايجري عليه بعد ذلك وإن عاش ما عاش»[٥]، وقال الحسن البصري: قال رسول الله ﷺ: «أفضل شهداء أمتي رجل قام إلى إمام جائر فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر فقتله على ذلك»[٦] فذلك الشّهيد منزلته في الجنّة بين حمزة وجعفر، وقال عمر بن

---

(١) متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري.

(٢) أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أم حبيبة وقال الترمذي حديث غريب ولفظه «كل كلام ابن آدم عليه لا له، إلا ثلاثة... الحديث» تخريج الإحياء ١/٩٩ العلم.

(٣) أخرجه أحمد من حديث عدي بن عميرة وفيه من لم يسم. والطبراني من حديث أخيه العرض بن عميرة. قال العراقي في تخريج الإحياء ٢/٣٩٤ وفيه من لم أعرفه.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا بإسناد ضعيف دون قوله «كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف». ورواه أبو يعلى من حديث أبي مقتصراً على البعض منه. وإسناده ضعيف تخريج الإحياء ٢/٢٩٤.

(٥) أخرجه البزار دون قوله «فإن لم يقتله إلى آخره» والزيادة قال العراقي في تخريج الإحياء ٢/٣٩٦ منكره والحديث فيه أبو الحسن غير مشهور لا يعرف.

(٦) قال العراقي في تخريج الإحياء ٢/٣٩٧ لم أجده من حديث الحسن وللحاكم وصحح إسناده من حديث جابر «سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله».

الخطاب سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بئس القوم قوم لا يأمرون بالقسط وبئس القوم قوم لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر»[١].

وقال أبو ذرّ الغفاري قال أبو بكر: يا رسول الله هل من جهاد غير قتال المشركين؟ فقال رسول الله: نعم يا أبا بكر إنّ لله تعالى مجاهدين في الأرض أفضل من الشهداء أحياء يرزقون يمشون على الأرض يباهي الله بهم الملائكة وتزين لهم الجنّة كما تزيّن أم سلمة لرسول الله ﷺ، فقال أبو بكر: ومن هم؟ قال: «هم الآمرون بالمعروف والنّاهون عن المنكر والمحبوّن في الله والمبغضون في الله والذي نفسي بيده إن العبد منهم ليكون في الغرفة فوق الغرفات فوق غرف الشّهداء للغرفة ثلثمائة ألف باب منها الياقوت والزّمرد الأخضر على كل باب نور، وإنّ الرّجل منهم ليتزوج ثلثمائة ألف حورية قاصرات الطرف عين كلّما التفت إلى واحدة منهن فنظر إليها تقول له: أتذكر يوم كذا؟ أتذكر يوم كذا؟ أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر كلّما التفت إلى واحدة ذكرت له مقاماً أمر فيه بمعروف ونهى عن منكر[٢].

وأما الآثار فقد قال أبو الدرداء: لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلّطن الله عليكم سلطاناً ظالماً لا يجلّ كبيركم ولا يرحم صغيركم فيدعو عليه خياركم فلا يستجاب لهم وينتصرون فلا ينصرون ويستغفرون فلا يغفر لهم، وسئل حذيفة عن ميّت الأحياء فقال: هو الذي لا ينكر المنكر بيده ولا بلسانه ولا بقلبه[٣]، وقال مالك بن دينار: كان حبر من أحبار بني إسرائيل يغشى الرّجال والنّساء منزله يعظهم ويذكرهم بأيام الله عز وجل فرأى بعض بنيه يوماً غمز بعض النّساء، فقال: مهلاً مهلاً يا بنيّ فسقط من سريره فانقطع نخاعه وأُسقطت امرأته وقتل بنوه في الجيش، فأوحى الله إلى نبيّ زمانه أن أخبر فلاناً الحبر أنّي لا أُخرج من صلبك صديقاً أما كان من غضبك لي إلا أن قلت: مهلاً مهلاً يا بنيّ[٤]؟.

وقال حذيفة: يأتي على النّاس زمان لا يكون بينهم جيفة أخبث إليهم من مؤمن

---

(١) قال العراقي في تخريج الإحياء ٢/٣٩٧. رواه أبو الشيخ ابن حبان من حديث جابر بسند ضعيف. وأما حديث عمر فأشار إليه أبو منصور الديلمي بقوله وفي الباب. ورواه علي بن معبد في كتاب الطاعة والمعصية من حديث الحسن مرسلاً.

(٢) قال العراقي في تخريج الإحياء ٢/٣٩٦ هذا الحديث بطوله لم أقف له على أصل وهو منكر.

(٣) أنظر هذه الآثار في الإحياء ٢/٣٩٧.

(٤) الإحياء ٢/٣٩٧ - ٣٩٨.

يأمرهم وينهاهم، وأوحى الله تعالى إلى يوشع بن نون إني مهلك من قومك أربعين ألفاً من خيارهم وستين ألفاً من شرارهم، فقال: يا رب هؤلاء الأشرار فما بال الأخيار؟، قال: إنهم لم يغضبوا لغضبي وواكلوهم وشاربوهم، وقال بلال بن سعد: إن المعصية إذا أُخفيت لم تضر إلا صاحبها وإذا أُعلنت فلم تغير أضرت بالعامة، وقال كعب الأحبار لأبي مسلم الخولاني: كيف منزلتك في قومك؟، قال: حسنة، قال كعب الأحبار: إن التوراة تقول غير ذلك، قال: ما تقول؟ قال: تقول إن الرّجل إذا أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ساءت منزلته عند قومه، قال: صدقت التوراة وكذب أبو مسلم[1].

وقال أمير المؤمنين كرّم الله وجهه: أوّل ما تغلبون عليه من الجهاد الجهاد بأيديكم ثم الجهاد بألسنتكم ثم الجهاد بقلوبكم فإذا لم يعرف القلب المعروف وينكر المنكر نكس فجعل أعلاه أسفله، وقيل للفضيل: ألا تنهى وتأمر فقال: إنّ قوماً أمروا ونهوا فكفروا وذلك أنهم لم يصبروا على ما أُصيبوا، وقيل للثّوري ألا تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فقال: إذا انفتق البحر فمن يقدر أن يسكنه[2].

---

(٢) الإحياء ٢/٣٩٧ ـ ٣٩٨.

(٣) الإحياء ٢/٣٩٧ ـ ٣٩٨.

الباب الثاني

في بيان درجاتهما في الأمر والنهي بهما

وجملتها درجات ثمان :

الدرجة الأولى منهـا : التعـرّف ونعني به طلب المعرفة بجريان المنكر وذلك منهّى عنه وهو التجسس وهو منهيّ عنه فلا ينبغي أن يسترق السّمع على دار غيره ليسمع صوت المزمار ونغم الأوتار والبربط والدّرع ، ولا أن يستنشق ليدرك رائحة الخمر من دار جاره ولا من غيرها ، ولا أن يمسّ ما في ثوبه ليعرف شكل المزمار والعود ولا أن يستخبر جاره ليخبره ما يجري في دار الجيران .

نعم لو أخبره عدلان ابتداء من غير استخبار بأن فلاناً شرب الخمر في داره أو بأنّ في داره خمراً معدّة للشّرب فله عند ذلك أن يدخل داره من غير استئذان ولا يلزمه ذلك الإستئذان ويجوز له تخطي ملكه بالدخول للتوصل إلى دفع المنكر مثل كسره بالضرب والمنع مهما احتيج إلى ذلك ، وإن أخبره عدل واحد ففي جواز الهجوم على داره بقوله نظر واحتمال والأولى أن يمنع من ذلك لأن لداره حرمة فلا يدخل داره بغير إذنـه ولا يسقط حقّ المسلم بما ثبت له فيه حق إلا بشاهـدين ، فهـذا أحـق ما يجعـل معياراً في ذلك[1] .

الدرجة الثانية : التعريف فإن المنكر قد يقدم عليه المقدم بجهله فإذا عرف وجب عليه تركه كالعامي الجلف فإنه يصلي ولا يحسن الركوع والسّجود فيعلم ذلك لجهله لأن هذا ليس بصلاة ولو رضي بأنه لا يكون مصلياً لترك الصّلاة فيجب تعريفه باللطف من غير

---

(١) الإحياء ٢ / ٤٢٠ .

عنف لأن في ضمن التعريف نسبته إلى الحمق والجهل والتّجهيل إيذاء، وقلما يرضى الإنسان بأن ينسب إلى الجهل بالأمور ولا سيما بالشّرع ولذلك ترى الذي يغلب عليه الغضب كيف يغضب إذا نبّه على الخطأ والجهل وكيف يجتهد في مجاهدة الحق بعد معرفته خيفة أن تنكشف له عورة جهله، والطباع أحرص على ستر عورة الجهل منها على ستر العورة الحقيقية لأن الجهل قبيح في صورة النفس وسواد في وجهها وصاحبه ملوم عليه، وقبح السّوأتين يرجع إلى صورة البدن والنّفس أشرف من البدن وقبحها أشدّ من قبح البدن.

الدرجة الثالثة: النهي بالوعظ والنّصح والتخويف بالله تعالى وذلك فيمن يقدم على الأمر وهو عالم بكونه منكراً أو في حق من أصرّ عليه بعد أن عرف كونه منكراً كالذي يواظب على الشّرب أو على الظلم أو على اغتياب المسلمين أو ما يجري مجراه فينبغي أن يوعظ ويخوف بالله تعالى وتورد عليه الأخبار الواردة في الوعيد عليها ويحكي له سيرة السّلف وعادة الأبرار المتّقين، وكل ذلك بشفقة ولطف من غير عنف وغضب بل ينظر إليه نظر المترحّم عليه ويرى إقدامه على المعصية مصيبة على نفسه لأن المسلمين كنفس واحدة.

ثم ها هنا آفة عظيمة على المنكر وهي أن لا يعجب بنفسه فيقصد بالوعظ عز نفسه بالعلم وذلّ غيره بالجهل ولكن يقصد وجه الله بالوعظ والتذكير وليحمد الله على ما نزّهه من هذه المعصية[١].

الدرجة الرابعة: السّب والتّعنيف بالقول الغليظ الخشن وذلك يعدل إليه عند العجز عن المنع باللّطف وظهور مباديء الإصرار والإستهزاء بالوعظ والنّصح، ولسنا نعني الكلام الفاحش فلا نعيره بما فيه نسبة إلى الزّنا ومقدّماته بل نخاطبه بما لا يعدّ من جملة الفحش كقوله: يا فاسق يا أحمق يا جاهل ألا تخاف الله تعالى وتقول: يا جلف يا غبي وما يجري هذا المجرى فإن كل فاسق فهو أحمق وجاهل ولولا حمقه وجهله لما عصى الله، بل كلّ من ليس كيّساً فهو أحمق، فالكيس من شهد له الرّسول ﷺ بالكياسة حيث قال: «الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنّى على الله تعالى الأماني»[٢].

---

(١) الإحياء ٢/٤٢١.

(٢) تقدم تخريج الحديث قريباً في ص ٤٦٩ في بحث الغرور.

الدرجة الخامسة: التغيير باليد وذلك نحو كسر الملاهي وإراقة الخمور وإزالة الحرير من رأسه وعن بدنه ومنعه من الجلوس عليه ودفعه عن الجلوس على مال الغير وإخراجه من الدّار المغصوبة، ونحو إخراجه من المسجد إذا كان جنباً، فأما معاصي اللّسان والقلب فلا يمكن تغييرها بالمباشرة لأن ذلك غير ممكن، ولا ينبغي أن يأخذ برأسه ولا برجله عند إخراجه من المسجد ولا يأخذ بلحيته فإنه لا حاجة إلى مثل هذه الأمور لأن التغيير حاصل من دون ذلك[1].

الدرجة السّادسة: التّهديد والتّخويف كقولك دع هذا وإلا كسرت رأسك وإلا ضربت عنقك وذلك ينبغي أن يكون مقدماً على الضّرب، ولا يجوز أن يتهدّده إلا بما يعلم أنه يقدم عليه ويمكن تحقيقه لأن الضرب للرقبة والكسر للرأس يجوز فعله في إزالة المنكرات، ولا يجوز أن يتهدد بوعيد لا يجوز تحقيقه نحو أن يقول: لأنهبنّ دارك أو لأقتلنّ ولدك أو لأسبينّ امرأتك، فإن ما هذا حاله إن قاله من غير عزم فهو كذب وإن قاله مع العزم فهو حرام، نعم إذا تعرّض لوعيده بالضّرب والاستخفاف فله العزم عليه إلى حد معلوم يقتضيه الحال وله أن يزيد في الوعيد على ما عزمه في الباطن إذا علم أنّ ذلك يقمعه ويردعه وليس ذلك من الكذب المحذور بل المبالغة في ذلك معتادة.

الدرجة السابعة: مباشرة الضّرب باليد والرجل مما ليس فيه شهرة سلاح وذلك جائز للآحاد بشرط الضّرورة والاقتصار على قدر الحاجة في الدفع، فإذا اندفع المنكر فينبغي أن يكف والقاضي قد يحتاج إلى الإيذاء بالحبس على من ثبت عليه الحق فإن أصرّ المحبوس وعلم الحاكم قدرته على أداء الحق وكونه معانداً عن أدائه فله أن يلزمه الأداء بالضرب على قدر ما يراه، فإن احتاج المنكر إلى إشهار السّلاح وكان يعلم أن شهر السّلاح يكفّه عن ذلك فله أن يكفّه.

وإن احتاج إلى الجرح بالسّلاح فلا بأس أن يتعاطى ذلك كما لو قبض فاسق على امرأة وكان بينه وبين المنكر نهر حائل أو مكان مرتفع فله أن يوتر قوسه ويقول له: خلّ عنها أو لأرمينّك، فإن لم يخل عنها فله أن يرميه، وينبغي له أن لا يقصد المقتل بل يرمي السّاق والفخذ وما أشبه ذلك، وهكذا فإنه يسلّ في وجهه السّيف ويقول: أترك هذا المنكر وإلا ضربت رأسك، وكلّ ذلك عناية وتوصّل إلى دفع المنكر، ودفعه واجب بكل ممكن ولا فرق في ذلك بين ما يتعلّق بحقّ الله تعالى نحو شرب المسكر وبين ما يتعلق بحقّ

---

(١) الإحياء ٢/٤٢١.

الآدميين نحو الظلم والزنا وسائر المنكرات[1].

الدرجة الثامنة: أن لا يقدر على دفع المنكر بنفسه ويحتاج إلى أعوان يشهرون السّلاح ويأخذونَ أهبة القتال وربما يستمد الفاسق بأعوانه ويؤدي ذلك إلى أن يتقابل الصّفان ويتقاتلا، فهل يكون ذلك إلى الإمام أو يكون إلى آحاد الناس هذا ممّا وقع فيه تردد؛ فقال قائلون: لا يشتغل به آحاد الناس لأنه يؤدي إلى تحريك الفتن وهيجان الفساد وخراب البلاد، وهذا هو رأي أئمة الزيديّة والمعتزلة، وقال آخرون: يجوز ذلك لآحاد الرعيّة لأنه إذا جاز للآحاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولم تفصل الأدلة بين منكر ومنكر.

والمختار هو الأول لأن آحاد الرعيّة لا يمكنهم ذلك وإنما أمره إلى الإمام لأن ولايته عامة وليس على يده يد إلا يد الله وهو متأهل بالقوة للحرب والقتال وإهراق الدّماء، فأما آحاد الرعية فهم يضعفون عن ذلك وربما وقع الإستنكاف لآحاد الرعية على بعضهم بعض فيؤدي إلى ثوران الفتنة واتصال القتال من غير حاجة، ويُحكى عن الشيخ أبي حامد الغزالي جواز تولّي ذلك لآحاد الرعيّة حتى قال: يجوز الكف عن المنكر بالقتل والقتال للآحاد، والقويّ ما اخترناه آنفاً، فهذا ما أردنا ذكره من ذكر درجات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كيفية تعاطيه والله أعلم[2].

---

(١) الإحياء ٢/٤٢٢.

(٢) الإحياء ٢/٤٢٤، ٤٢٨.

الباب الثالث

في بيان المنكرات المألوفة في العادات

واعلم أنّا نشير إلى جمل منها يستدلّ بها على أمثالها إذ لا مطمع في حصرها وضبطها وإنما ذكرنا هذه لأنها تعرض كثيراً، ونورد في ذلك مقامات ستة:

المقام الأول
في منكرات المساجد

إعلم أن المنكرات منقسمة إلى مكروهة وإلى محظورة فإذا قلنا: هذا منكر مكروه فالمراد به أن المنع منه مستحب والسّكوت عليه مكروه وليس حراماً، وإذا قلنا: منكر محظور أو قلنا منكر مطلقاً فنريد بالمحظور المحرّم الذي لا يجوز السّكوت عليه مع القدرة ويشتمل على صور سبع.

الصورة الأولى: ترك الطمأنينة في الركوع والسجود وهو منكر مبطل للصلاة فيجب النهي عنه على رأي الزيدية والشافعية، فأمّا الحنفي فذلك مذهبه فلا ينكر عليه، ومن رأى رجلاً يسيء صلاته فسكت فهو شريك له في الإثم.

الصورة الثانية: قراءة اللحن في القرآن يجب النهي عنها ويجب تلقين الصّحيح، فإن كان المعتكف في المساجد يضيّع أكثر أوقاته ويشتغل في المباحات وجب الإنكار عليه إذا كان الإعتكاف واجباً، والذي يكثر اللحن في القرآن إن كان قادراً على التعلّم أُمر به فإنه عاصٍ بتركه وإن كان لا يطاوعه لسانه فإن كان أكثر قراءته لحناً فليترك وليجتهد في تعلّم سورة الفاتحة والإخلاص وإن كان الأكثر صحيحاً وليس يقدر على التسوية فلا بأس بقراءته لكنه يخفض صوته.

الصورة الثالثة : تطويل الأذان وتمديده ولحنه وانحرافه عن صوب القبلة وكثرة المؤذّنين بحيث يضطرب الحال في الأذان فلا يفهم معناه لتداخل الأصوات واجتماعها، فكل ذلك منكرات مكروهة، وهكذا حال الأذان قبل الصبح لأن ذلك يشوش الصوم والصلاة على الناس، فإن كان يعرف بالتذكير قبل الفجر فلا بأس، ولا بأس بالأربعة فما دونها إذا أذّنوا في وقت واحد، ويكره تعاقبهم في أوقات متعاقبة بعد طلوع الفجر فيمنع منه[1].

الصورة الرابعة : لبس الخطيب للديباج والحرير أو ممسكاً للسيف الذي فيه حلية الذّهب فإنه يفسق بذلك فالإنكار عليه واجب، فأما الثياب الزّرق فلا تكره لكن الأفضل البياض، ويكره للخطيب أن يضرب درجات المنبر بالسيف عند صعوده فإنما تفعله الجبابرة وأهل التكبر.

الصورة الخامسة : كلام القصاص والوعاظ الذين يمزجون كلامهم بالكذب في الأخبار يجب إنكاره وهكذا حال أهل البدع من المجبرة والمشبهة يمنعون عن ذكر التشبيه والجبر ويجب إنكاره عليهم، ولا يمكن من الوعظ إلا من كان خائفاً لله تعالى ظاهره الورع والصلاح، فأما من كان متزيناً في ثيابه وهيئته وحركاته كثير التغزّل في الوعظ ويحضر مجلسه النساء فإنه يمنع من ذلك لما فيه من إظهار الفتنة وحصول الرّيبة، ويجب منع النساء من حضور المساجد في هذا الزمان، وقراءة القرآن مع التمديد والإلحان على وجه يغير نظم القرآن منكر يجب إنكاره وقد أنكره جماعة من السلف.

الصورة السادسة : الجلوس في يوم الجمعة لبيع الأدوية في المساجد منكر لا يمكنون منه، وقيام السؤال وإنشاد الشّعر مكروه في المسجد لا حاجة إليه تنزّه المساجد عنه، والمتولّي للمسجد يمنع من اشتغل فيه بالوراقة والخياطة وغير ذلك من الأمور المباحة والبيع والشراء لا يمكنون منه.

الصورة السابعة : دخول المجانين والصّبيان والسّكارى المساجد منكر يجب منعهم لأنه يؤدي إلى تنجيس المساجد ولا بأس بدخول الصّبي إذا لم يلعب ولا يحرم عليه اللعب في المسجد ولا السكوت على لعبه إلا إذا اتّخذ المسجد ملعباً منع منه[2].

---

(١) الإحياء ٢/٤٢٨ ـ ٤٣٠.

(٢) الإحياء ٢/٤٣٠.

المقام الثاني
في بيان منكرات الأسواق

ويشتمل على صور خمس.

الصورة الأولى: الكذب في المرابحة، وإخفاء العيوب في جميع المبيعاتُ منكر يجب إنكاره لما فيه من الخيانة، وهكذا حال المكيال والميزان إذا وقع فيهما تغيير وزيادة يجب التعهد له والتفقّد لأحواله ويجب ذلك على الإمام.

الصورة الثانية: ترك الإيجاب والقبول والاكتفاء بالمعاطاة وصورته أن ينقد إليه الثمن غير ذكر لفظي إيجاب وقبول إلا فيما كان من المحقرات فإنه يغتفر فيه ترك الإيجاب والقبول، وهكذا حال البيوع الفاسدة فيما بين الخلق يجب إنكاره لأنه منحرف عن قواعد الشريعة وإن كان موجباً للملك على ما هو مقرر في كتب الفقه.

الصورة الثالثة: بيع الملاهي التي تستعمل للغناء كالطبل والدّف والمزمار وأنواع العيدان الموترة بالشّعر والإبريسم والعصب وغير ذلك من الملاهي فكله محرم يجب إنكاره على صاحبه، وهكذا حال الحيوان المصور في أيام العيد لأجل الصّبيان يجب إنكاره.

الصورة الرابعة: الأواني المتخذة من الذهب والفضة فإنه محرم استعمالها ويجب النكير على من استعملها، وهكذا بيع ثياب الحرير وقلانس الحرير المحبوكة بالذهب التي لا تصلح للرجال ويعلم بعادة البلد أنه لا يشتريه إلا الرجال فكل ذلك محظور[1].

الصورة الخامسة: بيع الثياب الخلقة المقصورة التي يلبّس على الناس بقصارتها ويخيل إليهم أنها جديدة، فهذا الفعل لا محالة حرام والمنع منه واجب، وهكذا جميع أنواع التلبيسات التي تفعل للخداع والمكر، وفي الحديث عن رسول الله ﷺ: «ليس منّا من غشّ»[2]، وقوله ﷺ: «ملعون من خان مسلماً أو غره»[3]، وذلك يطول إحصاؤه فليقس ما لم نذكره بما ذكرناه.

---

(١) الإحياء ٢/٤٣٢.

(٢) رواه مسلم (جـ ١/٦٩ كتاب الإيمان) من حديث أبي هريرة بلفظ «من غشنا فليس منا» ولفظ المصنف رواه العسكري عن علي. أنظر كشف الخفاء ٢/٣٦٧ وأحمد في المسند (٢/٤١١) عن أبي هريرة.

(٣) لم أجده بهذا اللفظ. وهو بلفظ «ملعون من ضار مؤمناً أو مكر به» أخرجه الترمذي عن أبي بكر وقال غريب.

المقام الثالث
في بيان منكرات الشوارع

وهي مشتملة على صور خمس:

الصورة الأولى: وضع الأسطوانات التي يحفظ فيها الماء بين السكك للشرب متّصلاً بالأبنية وهكذا غرس الأشجار في الأزقة وإخراج الرّواشن والأجنحة ووضع الأخشاب على الجدران بين السكك إذا كان فيه مضرّة وهكذا حال الحبوب والأطعمة على الطرقات، فكلّ ذلك منكر إذا كان يؤدي إلى تضييق الطرقات واستضرار المارّة فإن كانت الطرقات واسعة فلا وجه للمنع، وهكذا ربط الدّواب من الخيل والبغال والجمال بحيث يضيق على المارة ولا يؤمن ضررها وتنجّس المارّة منكر يمنع منه، نعم يجوز وضع الأحمال والأطعمة في الشوارع في القدر القريب حتى ينقل إلى السوق ووضع الدواب في الطريق في مقدار الركوب والنزول لا غير وذلك لأن الشوارع مشتركة المنفعة وليس لأحد أن يختص بها إلا بقدر الحاجة الداعية القريبة التي ذكرناها.

الصورة الثانية: مرور الدّواب وعليها الشوك بحيث تخرق أثواب المارّة فذلك منكر، وإن أمكن شدّها وضمّها بحيث لا تخرق أو أمكن العدول بها إلى موضع واسع فلا بأس في ذلك لأن الحاجة داعية لأهل البلد إلى مثل ذلك، نعم لا تترك ملقاة على الشوارع والسكك إلا بقدر مدّة النقل لا غير، وهكذا تحميل الدّواب من الأحمال ما لا تطيقه منكر يجب منعه[1].

الصورة الثالثة: ذبح القصّابين في الشوارع وبالقرب من الحوانيت، وتلويث الطرقات بالدماء والأرواث منكر يجب منعهم عنه، بل من حقّه أن يتخذ مكاناً في دكانه يذبح فيه لما فيه من الإضرار بالمارّة وتضييق الطريق وتعفينها بإراقة الدّماء واستقذار الطباع من القاذورات التي تهراق منها، وهكذا طرح القمامة في الطرقات وجلف الرّمان والدّباء وقشر الموز ورش الماء لأنه يؤدي إلى التزلق والتعثر للمارة وربما سقط المار فانكسرت رجله أو جرح نفسه، وكلّ ذلك من المنكرات فيجب منعه.

الصورة الرابعة: الموازيب المخرجة في الشوارع الضيقة فإن ذلك ينجس المارة ويخشى منه الزّلق في الطرقات، وهكذا إخراج البالوعات في الطرقات فإنه يمنع منها لما

---

(١) الإحياء ٤٣٣/٢.

فيها من الضرر بالمارة وتعفين الطريق بإرسال الأمواه المتغيرة فيها، فأما ما كان متعلقاً بالمطر فليس يختص به واحد دون غيره بل إنما يجب ذلك على الإمام في إصلاح الطرقات وتعهدها وإصلاح أحوالها فذلك من جملة المصالح الدّينية وكلما كان ضرر يضاف إلى شخص بعينه فإنه يجب عليه إزالته، وما كان الضّرر غير لاحق بالآحاد فهو من المصالح الموكلة إلى الإمام[1].

الصورة الخامسة: ربط الكلاب الضارية على الأبواب منكر يجب منعه لما فيه من الأذية للمسلمين ويؤدّي إلى تنجيس الطريق فيحصل من ربط الكلاب ضرران أحدهما خشية العقر منهنّ وثانيهما تنجيس الطرقات وبسط ذراعيه في الطرقات الضيقة.

المقام الرابع
في بيان منكرات الحمامات

وهو مشتمل على صور خمس:

الصورة الأولى: ما يحصل من صور الحيوانات التي هي في جدران الحمامات وبيوتها الداخلة والخارجة فإنما هذا حاله يجب تغييره ويكفيه في تغييره قطع رؤوسها وفصلها وتشويه وجوهها بحيث تبطل صورها ولا يمنع من صور الأشجار وسائر النّقوش فإنها مباحة، فإن لم يمكن تغييره فإنه يعدل إلى حمام آخر فإن مشاهدة المنكر غير جائزة.

الصورة الثانية: كشف العورات والنظر إليها في الحمامات ومن جملتها كشف **العورة للدلاّك للفخذ وما تحت السّرة ومن جملتها إدخال اليد تحت الإزار فإن مسّ العورة في** الغير حرام كالنظّر إليها، وهكذا الانبطاح للدلاّك على الوجه لتغميز الأعجاز والأفخاذ، فما هذا حاله فإنه مكروه وإن كان مع حائل، ولكنه لا يكون محظوراً إذا لم يخش حركة الشّهوة، وهكذا كشف العورة للحجّام[2].

الصورة الثالثة: غمس الأيدي والأواني النجسة في المياه القليلة في الحياض الصغيرة وغسل الأُزر وغسل الطيسان والقداح في الحوض وماؤه قليل فإنه منجس للماء على رأي الأكثر من أئمة الزيدية والشافعية والحنفية فإنهم يذهبون إلى تنجيس الماء القليل وإن لم يتغير بالنجاسة إلا مالك وهو مُحكى عن الإمام القاسم من أئمة أهل البيت عليهم السلام، فإن اجتمع زيديّ ومالكي فليس للزيدي منع المالكي من ذلك إلا بطريق

---

(١) الإحياء ٢/٤٣٣.
(٢) أنظر الإحياء ٢/٤٣٣ ـ ٤٣٤.

الإلتماس واللطف وهو أن يقول إني محتاج إلى الماء فاغسل يدك أولاً ثم اغمسها في الماء وأنت مستغن عن إيذائي وتنجيس الماء عليّ لأن ما هذا حاله من جملة المسائل الخلافية والمضطربات الإجتهادية، والمختار عندنا أن الماء القليل لا ينجس إلا بما يغيره من النجاسات من لون أو طعم أو ريح كما قاله الإمام القاسم ومالك وقد نصرناه في الكتب الفقهية.

الصورة الرابعة: أن يكون في مداخل بيوت الحمام ومجاري مياهها حجارة ملس مزلقة يزلق فيها الغافلون، فما هذا حاله منكر يجب تغييره وقلعه وإزالته وينكر على الحمّامي إهماله فإنه يفضي إلى السقوط وقد تؤدّي السقطة إلى انكسار الرجل أو اليد، وهكذا ترك الصابون والسدر المزلق على أرض الحمّام منكر، ومن فعل ذلك وخرج وتركه على حاله من دون تغيير له وزلق فيه إنسان فانكسرت رجله أو يده فالضمان واجب لا محالة، وعلى من يكون الضمان فيه تردد، فيمكن أن يقال إنه على من تركه ويمكن أن يقال إنه على الحمّامي، والأقرب أنه على من تركه لأنه أخص به وأليق والله أعلم[1].

الصورة الخامسة: دخول النساء الحمامات مكروه إلا لحائض أو نفساء أو مريضة، وهل يجب إنكاره عليهنّ أم لا فيه تردّدوالأقرب أنه لا ينكر عليهنّ في الحمّامات إلا ما ينكر على الرجال فيها من جميع ما ذكرناه، فأما مجرد منعهنّ عن الحمّامات فلا وجه للمنع إلا أن يتعلق به منكر وجب إزالة ذلك المنكر دون دخول الحمّام، فهذا ما أردنا ذكره في المنكرات المتعلقة بالحمّامات والله أعلم.

المقام الخامس
في بيان منكرات الضيافة

ويتعلق بها صور ست:

الصورة الأولى: فرش الحرير للرجال وتهيئة المجامر الفضية والذهبية والشرب فيهما واستعمال الذريرة فيهما ووضع ماء الورد فيهما أو فيما رأسه منهما، وهكذا وضع الألوان في صحائف الذّهب والفضّة ووضع الحلوى في قداحهما فإن ذلك كله محظور لا يجوز فعله.

الصورة الثانية: إسدال الستور عليها صور الحيوانات، وهكذا حال الانية من الصفر في الأطباق والطيسان والمرافع للكيزان إذا كان فيها الصور المطعّمة بالفضة

---

(١) الإحياء ٢/٤٣٤.

والذهب فإنه منكر يجب التنزه عنه، وهكذا الشّمعدانات المطعّمة بالتصوير للحيوانات فلا يجوز استعماله للشّرب ولا لغيره، وهكذا حال الملاعق الفضية والمكاحل من الذهب والفضة فالكراهة فيه شديدة وقد ورد عليه الوعيد فيجب إنكاره.

الصورة الثالثة: سماع الأوتار وأنواع العيدان والطارات وجميع أنواع الملاهي وسماع غناء القينات واجتماع النساء على السطوح للنظر إلى الرجال خاصة مهما كان في الرجال شباب يخاف الفتنة منهم، فكل ذلك محظور لا يجوز فعله ومنكر ويجب تغييره، ومن عجز عن تغييره لزمه الخروج منه ولم يجز له الجلوس فلا رخصة في مجالسة المنكرات ومشاهدتها، فأما الصور على البسط والنمارق والزرابي المفروشة فليس منكراً، وقد يستعملون على رؤوس السّرر والمجامر والمرافع المقبّبة على مثال الطيور وأشكالها وذلك حرام لا يجوز تركه، وقد حُكي عن أحمد بن حنبل أنه خرج من الضيافة من أجل ذلك(١).

الصّورة الرابعة: أن يكون الطعام حراماً أو كانت الدراهم حراماً أو اللحوم حراماً مغصوبة لمالك معيّن أو كانت البسط والثياب المفروشة حراماً، فهذا من أشدّ المنكرات وأعظمها خطراً، وهكذا إذا كان في البيوت من يتعاطى شرب الخمر فلا يجوز الحضور، وإن تركوا الشّرب فإنّه لا يجوز مجالسة الفسّاق في حال ملابستهم الفسق والفجور ولا خلاف فيه، وإنّما التردّد في مجالسته بعد فراغه من فسقه فإنه يجب على المسلمين طردهم وإبعادهم وهجرانهم، وإن كان فيهم من يلبس الحرير ويتعاطى لبس خواتم الذّهب فإنه لا يجوز مجالسته.

الصّورة الخامسة: أن يكون في مجالس الضّيافة من يتحدّث عن الجبر والتّشبيه والرّؤية ويصف الله بالأعضاءِ والجوارح فما هذا حاله منكر يجب تغييره ولا يجوز الوقوف عليه وهم يتحدّثون فيه، فإن لم يقدر على إسكاته فالخروج واجب عليه، وهكذا من كان يقصد الإعجاب بالفحش والكذب والكلامات القبيحة فإنه منكر، فإن كان يتكلّم بالمزح فليس بمنكر كما لو قال قد طلبتك في المسجد ألف مرّة وأعدت الحديث على أذنيك سبعين مرّة لأن المقصود من هذه هو المبالغة والعرف يقضي به(٢).

---

(١) الإحياء ٢/٤٣٤.
(٢) الإحياء ٢/٤٣٧.

الصورة السادسة: إضاعة المال والإسراف فهذان منكران متعلّقان بالمال، أما الإضاعة فنحو إغراقه في البحر وتحريقه بالنار بغير فائدة ولا غرض، وهكذا صرفه في أنواع الفساد والمناكير المحظورة لأنها فوائد محظورة وهي كالمعدومة، وأما الإسراف فقد يطلق ويراد به صرف المال في النوائح والمنكرات وهذا مثل الإضاعة، وقديطلق على صرفه في الأمور المباحة ومثاله من لا يكون معه إلا ما به يعيش هو وأولاده وأنفقه في وليمة فإن ما هذا حاله يجب إنكار الأمرين جميعاً أعني الإضاعة والإسراف كما قال تعالى: ﴿**ولا تبسطها كلّ البسط**﴾ (الإسراء: ٢٩)، فنهى عن ذلك وحرّمه، وقال: ﴿**ولا تبذر تبذيراً إن المبذّرين كانوا إخوان الشّياطين**﴾ (الإسراء: ٢٦ ـ ٢٧)، وقال تعالى: ﴿**والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا**﴾ (الفرقان: ٦٧)، فإن كان وحده وله قوّة على التوكل جاز ذلك وكان مستحبّاً وإن كان يتكفّف الناس كان محظوراً مكروهاً، وأمثال هذه المنكرات كثيرة لا يمكن حصرها فقس على ذلك منكرات الجوامع ومجالس القضاة ومدارس الفقهاء.

المقام السادس
في بيان المنكرات العامة التي لا يختص بها شخص دون شخص

اعلم أن كل قاعد في بيته أينما كان فليس خالياً في هذا الزّمان عن منكر من حيث التقاعد عن إرشاد الخلق وتعليمهم معالم الدين وحملهم على المعروف فأكثر الناس جاهلون بأحكام الشرع في شروط الصلاة والزكاة في البلاد والأمصار والمدن فكيف بالبوادي والقرى، وهكذا حال الأجلاف من العرب والأكراد وأهل المواشي الذين يقعدون في الجبال وبطون الأودية وسائر أصناف الخلق فالواجب أن يكون في كل مسجد ومحلّة من البلاد فقيه يعلّم الناس معالم الدين والواجب على كل فقيه فرغ من فرض عينه أن يتفرغ لفرض الكفاية وأن يخرج إلى من جاوره من أهل السّواد ومن العرب فيعلمهم دينهم وفرائض شرعهم فالمعلوم أن الإنسان لا يولد عالماً وأن الله ما أخذ على الجهّال أن يتعلموا حتى أخذ على العلماء أن يعلّموا، والحجّة على الفقهاء أشد لأنّ قدرتهم على ذلك أظهر وهي بضاعتهم لأن المحترفين وأهل الصناعات لو تركوا حرفهم لبطلت المعايش وتعطلت الأرزاق وأن العلماء ورثة الأنبياء[1].

فحق على كل مسلم أن يبدأ بنفسه فيصلحها بالمواظبة على الفرائض وترك

---

(١) الإحياء ٢/٤٣٦ ـ ٤٣٧.

المحرّمات ثم يعلّم أهل بيته وأقاربه، ثم يتعدّى بعد الفراغ من ذلك إلى جيرانه ثم أهل محلّته ثم إلى أهل بلده من الأعراب المكتنفين لبلدته، وهكذا إلى الأقرب فالأقرب والأدنى فالأدنى، فإن قام به الأقرب سقط عن الأبعد، فإن لم يكف هذا وإلا عمّ الحرج للجميع، وهذا أحق أعني تعريف الخلق والقيام بالأمور الواجبة على الكفاية من الشّغل بالدقة في العلوم والتعمّق في غوامض العلوم لأن هداية الخلق أعظم من ذلك، ولهذا فإن الأنبياء صلوات الله عليهم ما بعثهم الله تعالى إلا لهداية الخلق وتعريفهم ما لا يعرفون، قال الرسول ﷺ: «من تعلّم العلم ليعلّمه لم يكن بينه وبين الأنبياء إلا درجة النّبوة»، فهذا ما أردنا ذكره في إنكار هذه المنكرات.

الباب الرابع

في بيان كيفية الإنكار
على الأمراء والسلاطين وأهل الجور وأمرهم بالمعروف

وقد ذكرنا فيما سبق درجات الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر وأنّ أوّله: التعريف، وثانيه: الوعظ، وثالثه: التخشين في القول، ورابعه: المنع بالقهر والحمل على الحق والعقوبة، والجائز من جملة ذلك مع السّلاطين والظلّمة وأهل الجور الرّتبتان الأوّلتان وهما التعريف والوعظ، وأما المنع بالقهر فليس ذلك لآحاد الرعيّة فإنّ ذلك يحرّك الفتنة ويهيّج الشرّ ويكون ما يتولد منه المحذور أكثر لا محالة، وإنما المتولّي لذلك هو الإمام فإنه القادر على ذلك والمنتقم لله تعالى منهم وللمسلمين فيما ظلموا العباد وأكثروا الفساد في الأرض والبلاد وأباحوا المحارم وأكثروا المظالم، وأمّا التّخشين في القول كقولك يا ظالم ويا من لا يخاف الله يا فاسق يا جبّار يا جائر وما أشبه ذلك، فذلك إن كان لا يحرّك فتنة يتعدى شرّها إلى غيره لم يسقط وجوبه وإن كان لا يخاف إلا على نفسه فهو جائز بل مندوب إليه فلقد كان عادة العلماء من السّلف الصالح التعرض للأخطار والتصريح بالإنكار من غير مبالاة بهلاك المهج والتعرض لأنواع العذاب رغبة فيما عند الله وإعزازاً لدينه وعلماً منهم بأن هذا شهادة.

قال الرسول ﷺ: «خير الشّهداء حمزة وجعفر ثم رجل قام إلى ظالم فأمره ونهاه فقتله على ذلك[1]»، وقال الرسول ﷺ: «أفضل الجهاد كلمة حقّ بين يدي سلطان جائر وإنّ من قتل على ذلك فهو شهيد[2]»، أقْدَموا على ذلك موطنين أنفسهم على الهلاك ومتحملين

(١) أخرجه الحاكم من حديث جابر وقال حديث صحيح الإسناد.

(٢) أخرجه ابن ماجه عن أبي سعيد الخدري. وله ولأحمد عن أبي أمامة وللنسائي وأحمد من حديث طارق بن شهاب البجلي وإسناد النسائي صحيح، أنظر التيسير للمناوي ١/١٨٢.

لأنواع العذاب وصابرين عليه محتسبين لما يبذلونه في الله ، ونحن الآن نورد من تلك القصص ما يدلّ على أنّهم صدقوا الله تعالى في تعريض أنفسهم للحتف ونفوسهم للسيف وأنهم لم يخافوا في الله لومة لائم وجملتها قصص عشر:

القصّة الأولى : محكيّة عن أمير المؤمنين كرّم الله وجهه قال: كانت قريش قد أمعنت في كيد الرّسول ﷺ وبلوغ الغاية في مضرّته لما كان من جهته وأمره في بطلان شركهم ومحو آثارهم وتسفيه أحلامهم فيما كانوا عليه من عبادة الأوثان والأصنام فدخل يوماً موضعاً ينام فيه فهمّوا بقتله في ذلك الموضع فجاءه جبريل فأخبره بما اجتمعوا عليه وما وقع في أنفسهم من ذلك وقال لأمير المؤمنين يضطجع فوق فراشه فاضطجع وخرج الرسول ﷺ ففدى نفس الرّسول بنفسه وجعل حوباءه دون حوباء النبي»[1] فأبطل الله كيدهم وخيّب أمرهم فيما همّوا وعلموا أن الرسول قد نجا منهم وأنه لا غرض لهم إلا فيه ونزلت الآية تذكيراً للنّعمة عليه وإعظاماً للمنّة الواصلة إليه فقال تعالى: ﴿ **يا أيّها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ همّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكفّ أيديهم عنكم** ﴾ (المائدة: ١١) ، ففاز أمير المؤمنين بالحظ الأوفر وحصلت السّلامة لهما والحمد لله.

القصة الثانية : محكيّة عن أبي بكر قال: «بينما الرسول ﷺ بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فأخذ بكم رسول الله ﷺ ولفّ ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً فجاء أبو بكر فأخذ بمنكبه ودفعه عن الرسول ﷺ وقال: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبيّنات من ربكم» هذه رواية عن ابن عمر[2]،وفي رواية أُخرى: «أن قريشاً اجتمعوا في الحجر فقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم هذا الرجل وما بلغكم منه حتى إذا ناداكم بما تكرهون تركتموه فبينما هم كذلك إذ طلع الرّسول ﷺ فوثبوا إليه وثبة رجل واحد فأحاطوا به يقولون: أنت الذي تقول كذا أنت الذي تقول كذا لما كان بلغهم من عيب آلهتهم ودينهم ، فقال: نعم أنا الذي أقول ذلك فلقد رأيت منهم رجلاً أخذ بمجامع ردائه فقام أبو بكر دونه يقول: ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول ربّي الله؟ فانصرفوا عنه ، وإن ذلك لأشدّ ما رأيت قريشاً بلغت من الرسول ﷺ[3].

القصة الثالثة : ما رُوي أن معاوية حبس العطاء عن المسلمين فقام إليه أبو مسلم الخولاني فقال له: يا معاوية إنه ليس من كدّك ولا من كد أبيك ولا من كدّ أُمك فغضب

---

(١) وردت من طرق كثيرة في السيرة وقد روى أحمد في المسند (١/٣٣٨) من حديث ابن عباس نحوه.

(٢) رواه البخاري من حديث طويل عن عبدالله بن عمرو.

(٣) رواه البخاري من حديث طويل عن عبدالله بن عمرو.

معاوية ونزل عن المنبر وقال لهم: مكانكم ثم خرج وقال: إن أبا مسلم كلّمني بكلام أغضبني وإني سمعت رسول الله يقول: الغضب من الشيطان والشيطان خلق من النار وإنما تطفأ النار بالماء فإذا غضب أحدكم فليغتسل»[1] وإني دخلت فاغتسلت وصدق أبو مسلم ليس من كدّي ولا من كدّ أبي فهلموا إلى عطائكم، فانظر إلى غضب أبي مسلم لله تعالى ولم يستح عن نصيحة في الدين لمعاوية، ثم انظر إلى إنصاف معاوية من نفسه وإعطاء الحقّ أهله، ولقد كان شيطاناً في الحلم والإغضاء والصّبر في المكاره، ولله درّ من قال: من حلم ساد ومن ساد استفاد[2].

القصة الرابعة: حُكي عن الأصمعي قال دخل عطاء بن أبي رباح على عبد الملك بن مروان وهو جالس على سريره وحواليه الأشراف من كلّ بطن وذلك بمكة في وقت حجةّ في خلافته فقام إليه وأجلسه معه على السرير وقعد معه على السرير وقال له: يا أبا محمد ما حاجتك؟ فقال له: اتق الله في حرم الله وحرم رسوله فتعاهدهما بالعمارة واتّق الله في أولاد المهاجرين والأنصار فإنك بهم جلست هذا المجلس واتق الله في أهل الثغور فإنهم حصون المسلمين، وتفقد أمور المسلمين فإنك وحدك المسؤول عنهم، واتق الله فيمن على بابك فلا تغفل عنهم ولا تغلق بابك دونهم، فقال له عبد الملك، أفعل، ثم نهض فقام فقال له ما قال فقبض عليه عبد الملك فقال: يا أبا محمد إنما سألتنا حاجة لغيرك وقد قضيناها فما حاجتك؟، فقال: ما لي إلى مخلوق حاجة. ثم خرج، فقال عبد الملك: هذا وأبيك الشّرف هذا وأبيك الشّرف[3].

القصة الخامسة: رُوي أن الوليد بن عبد الملك قال لحاجبه يوماً: قف على الباب فإذا مرّ بك رجل فأدخله ليحدثني فمرّ به عطاء بن أبي رباح وهو لا يعرفه فقال له: يا شيخ ادخل على الوليد ـ وسمّاه بأمير المؤمنين ـ فإنه أمرك بذلك فدخل وعنده عمر بن عبد العزيز فقال: السلام عليك يا وليد فغضب الوليد على حاجبه فقال له: ويلك أمرتك أن تدخل عليّ رجلاً يحدّثني ويسامرني فأدخلت عليّ رجلاً لم تصف نفسه أن يسميني بالإسم الذي اختاره الله لي، فقال الحاجب: ما مرّ بي غيره، ثم قال لعطاء: اجلس ثم أقبل

---

(١) قال العراقي في تخريج الإحياء ٢/٤٣٩ رواه أبو نعيم في الحلية وابن عساكر وفيه من لا أعرفه من حديث أبي مسلم الخولاني. ورواه أبو داود من حديث عطية العدي دون قوله بالماء البارد.

(٢) الإحياء ٢/٤٤٠. وأحمد في المسند بلفظ إن الغضب من الشيطان وإن الشيطان من النار والماء يطفىء النار وساقه عن عروة بن محمد بن عطية.

(٣) الإحياء ٢/٤٤٠.

عليه يحدّثه فقال: إن في جهنم وادياً يقال له هبهب أعدّه الله لكل إمام جائر في حكمه فصعق الوليد من قوله وكان جالساً على عتبة باب المجلس فوقع على قفاه إلى باب المجلس، فقال عمر لعطاء: قتلت أمير المؤمنين فقبض عطاء على يد عمر بن عبد العزيز فغمزه غمزة شديدة وقال: يا عمر إن الأمر جد فجد ثم انصرف، قال عمر: فمكثت عشرين سنة أجد ألم غمزته في ذراعي، فانظر إلى نصح عطاءٍ فلم يراقب أحداً ولا التفت إلى تجبّر الوليد ولا وزن عنده قلامة ظفر، ولله درّ علماء الآخرة كيف كانوا على الفجّار أشدّ من حريق النار(١).

القصة السادسة: يُحكى عن الحجاج أنه دعا بفقهاء البصرة وفقهاء الكوفة، قال صاحب الرّواية: فدخلنا عليه ودخل الحسن البصري آخر من دخل فقال الحجاج: يا أبا سعيد إليّ إليّ ثم دعا بكرسي فوضع إلى جنب كرسيه فقعد عليه فجعل الحجاج يذاكرنا ويسألنا إذ ذكر عليّاً كرّم الله وجهه فنال منه ونلنا معاونة له وفرقاً من سوطه وشرّه والحسن ساكت عاضّ على إبهامه فقال: يا أبا سعيد ما لي أراك ساكتاً، قال: ما عسيت أن أقول، قال: أخبرني برأيك في أبي تراب، قال: سمعت الله يقول: ﴿**وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتّبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه**﴾ (البقرة: ١٤٣)، فعليّ ممن هدى الله ومن أهل الإيمان ما أقول؟ ابن عمّ رسول الله ﷺ وختنه وأحبّ الناس إليه صاحب سوابق مباركات سبقت له من الله تعالى لن تستطيع أنت ولا أحد من الناس أن يحظرها عليه ولا يحول بينه وبينها، والله ما أجد فيه قولاً أعدل من هذا، فبسر وجه الحجّاج وتغيّر وقام عن السرير مغضباً فدخل بيتاً خلفه وخرجنا، قال عامر الشّعبي: فأخذت بيد الحسن وقلت: يا أبا سعيد أغضبت الأمير وأوغرت صدره، قال: إليك عنّي يا عامر يقول الناس عامر الشعبي فقيه أهل الكوفة أتيت شيطاناً من شياطين الإنس تكلمه بهواه وتقاربه في رأيه ويحك يا عامر هلاّ اتّقيت إن سئلت فصدقت وإن سكت فسلمت، قلت: يا أبا سعيد قد قلتها وأنا أعلم ما فيها، قال: فذلك أعظم في الحجّة عليك وأشدّ في التّبعة(٢).

وبعث الحجاج إلى الحسن فقال: أنت الذي تقول قتلهم الله قتلوا عباد الله على الدّرهم والدّينار؟ قال: نعم، قال: ما حملك على هذا، قال: ما حمل الله على العلماء من المواثيق ليبيُنّنه للنّاس ولا يكتمونه. فقال: يا حسن أمسك لسانك وإيّاك أن يبلغني عنك

---

(١) أنظر الإحياء ٢/٤٤١.

(٢) أنظر الإحياء ٢/٤٤١.

ما أكره فأُفرّق بين رأسك وجسدك ، ولله درّ الحسن البصري لقد كان شديد الشكيمة على الفسقة عظيم الأنفة على الدّين لم تأخذه في الله لومة لائم في التعريف ولا حكّ في صدره شيء من التخويف ، ولقد عزّ في هذه الأزمنة من يكالم الظلمة ويصول على الفسقة وما ذاك إلا للتهاون في أمر الله تعالى وضعف الهمم عن الإقبال إلى الآخرة ، فنسأل الله عفواً غامراً في التقصير في حقه وجوداً شاملاً من كرمه وفضله[1] .

القصة السابعة : حُكي أن حطيطاً الزيات جيء به إلى الحجاج فقال له : أنت حطيط الزيات؟ ، قال : نعم سل عمّا بدا لك فإني عاهدت الله عند المقام على ثلاث خصال إن سئلت لأصدقنّ وإن ابتليت لأصبرنّ وإن عوفيت لأشكرنّ ، قال : فما تقول فيّ؟ قال : إنك من أعداء الله في الأرض تنتهك المحارم وتقتل بالظنة ، قال : فما تقول في عبد الملك أمير المؤمنين؟ قال : هو أعظم منك جرماً وإنما أنت خطيئة من خطاياه ، فقال الحجاج : ضعوا عليه العذاب ، فانتهى به العذاب إلى أن شقّوا له القصب ثم جعلوه على لحمه وشدّوه بالحبال ثم جعلوا يمدّون قصبة قصبة حتى انحلوا لحمه فما سمعوه يقول شيئاً ، فقيل للحجاج : إنه في آخر رمق فقال : اطرحوه في السّوق ، قال جعفر : فأتيته أنا وصاحب لي فقلنا : حطيط ألك حاجة؟ ، فقال : شربة ماءٍ ، فأتوه بشربة فشرب ثم مات وكان عمره ثماني عشرة سنة رحمه الله تعالى ، ولقد خط الله لحطيط في لوحه المحفوظ أنه من الذين قال فيهم : ﴿ **فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلاً** ﴾ (الأحزاب : ٢٣) ، .

القصة الثامنة : يُحكى عن الحارث المحاسبي قال : كنت ليلة قاعداً في محرابي فإذا أنا بفتى حسن الوجه طيّب الرائحة فسلّم عليّ وقعد بين يدي فقلت له : من أنت؟ قال : أنا واحد من السياحين أقصد المتعبدين ولا أرى لك اجتهاداً فأي شيء عملك؟ قال : قلت له كتمان المصائب واستجلاب الفوائد قال : فصاح وقال : ما علمت أنّ أحداً بين جنبي المشرق والمغرب هذه صفته قال حارث : فأردت أن أزيد عليه فقلت له : أما علمت أن أهل القلوب يجملون أحوالهم ويكتمون أسرارهم ويسألون الله تعالى كتمان ذلك عليهم فمن أين تعرفهم؟ قال : فصاح صيحة غشي عليه فمكث عندي يومين لا يعقل وقد أحدث في ثيابه فعلمت إزالة عقله وأخرجت له ثوباً جديداً وقلت له : هذا كفني قد آثرتك به فاغتسل وأعد صلاتك ، فقال : هات الماء ، واغتسل وصلّى ثم التحف بالثوب

---

(١) الإحياء ٢/٤٥٣ .

وخرج فقلت له: إلى أين تريد؟ فقال لي: قم معي، فلم يزل يمشي حتى دخل على المأمون فسلّم عليه ثم قال: يا ظالم وأنا ظالم إن لم أقل لك يا ظالم استغفر الله من تقصيري فيك أما تتّقي الله فيما قد ملّكك وتكلم بكلام كثير ثم أقبل يريد الخروج وأنا جالس بالباب فأقبل عليه المأمون فقال له: من أنت؟ قال: رجل من السيّاحين تفكرت فيما عمل الصديقون قبلي فلم أجد لنفسي حظاً فتعلقت بموعظتك لعلّي ألحقهم فأمر من ضرب عنقه فأخرج وأنا قاعد بالباب ملفوفاً في ذلك الثوب ومنادياً ينادي: من ولي هذا فليأخذه؟؟ قال حارث: فاختليت عنه فأخذه أقوام غرباء فدفنوه وكنت معهم لا أُعلمهم بحاله، فهذه أفعال من رمى إلى الآخرة ببصره وتجافى عن الدنيا بسمعه واشتاق إلى لقاء الله ومن أحبّ لقاء الله أحبّ الله لقاءَه[1].

القصة التاسعة: عن أحمد بن إبراهيم المقري قال: كان أبو الحسين سفيان الثّوري رجلاً قليل الفضول لا يسأل عمّا لا يعنيه ولا يفتش عمّا لا يحتاج إليه. وكان إذا رأى منكراً غيّره ولو كان فيه تلفه فنزل ذات يوم يتطهر للصلاة إذ رأى زورقاً فيه ثلاثون دنّاً فسأل الملاّح فقال: ما هذه؟ فقال: هذه ثلاثون دنّاً خمراً للمتعضد يريد أن يتممّ بها مجلسه فأخذ سفيان عموداً وصعد الزورق فلم يزل يكسرها دنّاً دنّاً حتى أتى على آخرها إلا دناً واحداً والملاّح يستغيث فركب صاحب الجيش فقبض على الثوري وأشخصه إلى حضرة المعتضد وكان المعتضد سيفه قبل كلامه فلم يشك الناس أنه سيقتله[2].

قال الثوري: فأدخلت عليه وهو جالس على كرسيّ جديد وبيده عمود يقلّبه، فلمّا رآني قال: من أنت؟؟ قلت: محتسب، قال: ومن ولاك الحسبة؟ قلت: الذي ولاك الإمامة، قال: فأطرق إلى الأرض ساعة ثم رفع رأسه إليّ وقال: ما حملك على ما فعلت؟ قال: شفقة منيّ عليك إذ بسطت يدي إلى صرف مكروه عنك فقصرت عنه فأطرق مفكرا في كلامي ثم رفع رأسه فقال: كيف تخلّص هذا الدّن من سائر الدّنان فقلت: في تخليصه علة أُخبرك بها إن أذنت لي، قال: هات، فقلت: إني أقدمت على الدّنان بمطالبة الحقّ سبحانه بذلك وعمر قلبي شاهد الإجلال للحق وخوف المطالبة فغابت هيبة الخلق عني وأقدمت عليها بهذه الحال إلى أن صرت إلى هذه الدن فاستشعرت نفسي كبراً كيف أقدم على مثلك؟ فامتنعت ولو أقدمت عليه بالحالة الأولى وكان ملء الدنيا دناناً لكسرتها[3].

---

(١) الإحياء ٢/٤٥٣ وسيأتي بهذا الحديث في ص ٥٢٥ وهو متفق عليه من حديث عبادة بن الصامت.

(٢) الإحياء ٢/٤٥٤.

(٣) الإحياء ٢/٤٥٤.

فقال المعتضد: اذهب فقد أطلقنا يدك تغير على ما أحببت أن تغيره من المنكر، فقلت له: نقص التغيير لأني كنت أُغير عن الله وأنا الآن أُغير شرطيّاً، فقال له المعتضد: ما حاجتك؟، قال: تأمر بإخراجي سالماً، فأمر بذلك وخرج إلى البصرة فكان أكثر أيامه بها خوفاً من أن يسأل حاجة فيسألها المعتضد فأقام بالبصرة إلى أن توفي المعتضد ورجع إلى بغداد، فانظر إلى المقاصد الموفقة كيف كانت سبباً للنجاة ووصلة إلى موافقة أمر الله تعالى، فهذه مراقبة أهل التقوى والله أعلم[1].

القصة العاشرة: يُحكى عن الشّافعي قال حدثني محمد بن علي قال: إني لحاضر مجلس أبي جعفر الدّوانيقي وفيه ابن أبي ذئيب، وكان والي المدينة الحسن بن زيد، فقال له أبو جعفر: ما تقول في الحسن بن زيد؟ قال: أشهد أنه يحكم بغيرِ الحق ويتبع هواه، فقال: قد سمعت يا حسن ما قال فيك وهو الشيخ الصّالح، فقال: يا أمير المؤمنين سله عن نفسك، قال: ما تقول فيّ يا ابن ذئيب؟، قال: تعفيني عن هذا، قال: سألتك بالله إلا ما أخبرتني، قال: سألتني بالله كأنك لا تعرف نفسك فقال: والله لتخبرني، فقال: أشهد أنك أخذت المال من غير حقه فجعلته في غير أهله وأشهد أن الظلم ببابك فاشٍ، قال: فحبا أبو جعفر من موضعه حتى وضع يده في قفا ابن أبي ذئيب فقبض عليه، ثم قال: أما والله لولا أني جالس ها هنا لأخذت فارس والروم والترك منك بهذا المكان، فقال: يا أمير المؤمنين قد ولي أبو بكر وعمر فأخذا بالحق وقسما بالسوية وأخذا بأقفاء فارس والروم وأصغر آنافهم فخلّى أبو جعفر قفاه وخلّى سبيله وقال: والله لولا أنّي أعلم أنك صادق لقتلتك، فقال ابن ذئيب: والله يا أمير المؤمنين إني لأنصح لك من أبيك المهدي[2].

ولنقتصر على هذا القدر من التنبيه على ما كان من علماء الدين في القوة في دين الله تعالى والصّلابة على نفوذ أمر الله تعالى، فهذه كانت سيرة العلماء وعاداتهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقلة مبالاتهم بسطوة السّلاطين وأُمراء الجور والظلمة لكنهم اتكلوا على فضل الله أن يحرسهم ورضوا بحكم الله أن يرزقهم الشّهادة فلما أخلصوا فيه النية أثر كلامهم في القلوب القاسية فليّنها وأزال قساوتها[3].

وأما الآن فقد قيّدت الأطماع ألسنة العلماء فسكتوا وإن تكلموا لم تساعد أقوالهم

---

(١) الإحياء ٢/٤٥٤ ـ ٤٥٥.

(٢) الإحياء ٢/٤٤٣ ـ ٤٤٤.

(٣) أنظر الإحياء ٤/٥٥٦ وما بعدها.

أفعالهم فلم ينجحوا ولو صدقوا الله وصدقوا حقّ العلم لأفلحوا ففساد الرعية بفساد الملوك وفساد الملوك بفساد العلماء، وفساد العلماء باستيلاء حبّ الجاه والمال ومن استولى على قلبه حبّ الدنيا لم يقدر على الإحتساب وإنفاذ أمر الله تعالى على الأسافل والأراذل فضلاً عن الملوك والأكابر فالله المستعان على مكابدة الشدائد في هذه الأزمنة فلقد قلّ المعين على زوال المنكر ونصرة الدّين، وكما أنّ الموت هو خاتمة الأعمار وفيه طيّ الصحف المتضمنة للأعمال فلنجعل خاتمة كتابنا هذا الكلام في الموت وما يتعلق به من أهوال القيامة والله الموفق للصّواب[1].

المقالة التاسعة
في بيان مقدمات الموت
وتوابعه إلى حين نفخ الصور

إعلم أن المنهمك في الدّنيا المنكبّ على غرورها المحب لشهواتها يغفل قلبه لا محالة عن ذكر الموت فلا يذكره وإذا ذكره كرهه ونفر عنه فأولئك هم الذين عناهم الله تعالى بقوله: ﴿**قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم**﴾ (الجمعة: ٨)، والناس في الدنيا إما منهمك أو تائب أو عارف فأما المنهمك فلا يذكر الموت وإن ذكره فيذكره للتأسف على دنياه لا غير، وأما التائب فإنه يكثر ذكر الموت لينبعث به من قلبه الخوف والخشية فيفي بتمام التوبة، وأمّا العارف فإنه يذكر الموت دائماً لأنه موعد لقائه لحبيبه والمحّب لا ينسى قط موعد اللقاء ولهذا قال حذيفة لما حضرته الوفاة: حبيب جاء على فاقة لا أفلح من ندم، وهذه المقالة مشتملة على أبواب سبعة هي وافية بالمقصود والبغية مما نريد ذكره بمعونة الله تعالى[2].

---

(١) أنظر الإحياء ٤/٥٥٦ وما بعدها.

(٢) الإحياء ٤/٥٥٦.

الباب الأول

في بيان فضل ذكر الموت وتحقيقه في القلب

إعلم أن الموت أمره هائل وخطره جسيم وغفلة الناس عنه بقلة ذكرهم له ومن ذكره منهم فليس يذكره بقلب فارغ بل بقلب مشغول لكن يتوجّه ذكره من طرق ثلاث :

الطريق الأول : أن يكثر ذكر أشكاله وأقرانه الذين مضوا قبله فيتذكر موتهم ومصارعهم تحت التراب ويتذكر صورهم في مناصبهم وأحوالهم ويتأمل كيف محا التّراب الآن محاسن صورهم وكيف تبدّت أجزاؤهم في قبورهم وكيف أرملوا نساءهم وأيتموا أولادهم وضيّعوا أموالهم وأخلت منهم مساجدهم ومجالسهم وانقطعت آثارهم فمهما تذكّرهم رجلاً رجلاً وفصل في قلبه أحوالهم وكيفية موتهم انغرس في قلبه ذكر الموت وتحقّقه لا محالة[1].

الطريق الثاني : أن يتذكّر حال نفسه ويتذكر نشاطه وتودّده وأمله للعيش واشتياقه إليه ونسيانه للموت وانخداعه بمواتاة الأسباب وركونه إلى القوّة والشباب وميله إلى الضحك واللهو وغفلته عما يراد منه من الموت الذّريع والهلاك السّريع وأنه كيف كان يتردد وقد تهدّمت رجلاه ومفاصله وكيف كان ينطق وقد أكل الدّود لسانه وكيف كان يضحك وقد أكل التراب أسنانه وأنه كيف كان يدبّر لنفسه ما لا يحتاج إليه عشر سنين في وقت لم يكن بينه وبين الموت إلا شهر واحد وهو غافل عما يراد به[2].

الطريق الثالث : دخول المقابر ومشاهدة المرضى هو الذي يحدث ذكر الموت في القلب حتى يغلب عليه بحيث يصير نصب عينيه فعند ذلك يوشك أن يستعدّ له ويتجافى عن دار الغرور وإلا فالذكر بظاهر القلب وعذبة اللسان قليل الجدوى في التّحذير والتنبيه ،

(٢) الإحياء ٤/٥٥٦.

(١) الإحياء ٤/٥٥٦.

ومهما طاب قلبه بشيء من الدّنيا فينبغي أن يتذكّر في الحال أنه لا بدّ من مفارقته، وأما فضيلته فقد قال ﷺ: «أكثروا من ذكر هادم اللذات»(١) أي نغّصوا به اللذات حتى ينقطع ركونكم إليها فتقبلون على الله تعالى وقال ﷺ: «لو أنّ البهائم تعلم من الموت ما تعلمون ما أكلتم منها سميناً»(٢)، وقالت عائشة: يا رسول الله هل يحشر مع الشّهداء أحد؟ قال: نعم من يذكر الموت في اليوم والليلة عشرين مرة»(٣).

وقال ﷺ: «تحفة المؤمن الموت»(٤)، وإنما قال هذا لأن الدّنيا سجن المؤمن إذ لا يزال فيها في عناءٍ من مقاساة نفسه ورياضة شهواته ومدافعة شيطانه، فالموت إطلاقه والإطلاق تحفة، وقال ﷺ: «الموت كفارة لكل مسلم»(٥) وأراد بهذا المسلم حقاً والمؤمن صدقاً الذي يسلم الناس من يده ولسانه وتحقق فيه أخلاق المؤمنين ولم يتدنس بالمعاصي إلا باللمم والصغائر فالموت يطهره ويكفّره بعد اجتنابه للكبائر وإقامته للفرائض، وقال أنس: قال ﷺ: «أكثروا من ذكر الموت فإنه يمحص الذنوب ويزهد في الدنيا»(٦)، وقال ﷺ: «كفى بالموت واعظاً»(٧).

وخرج رسول الله ﷺ إلى المسجد فإذا قوم يتحدّثون ويضحكون فقال: «اذكروا الموت أما والذي نفسي بيده لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً»(٨)، وذكر عند رسول الله ﷺ رجل فأحسنوا الثناء عليه فقال: كيف كان ذكر صاحبكم للموت؟ قالوا: ما كنا نكاد نسمعه يذكر الموت قال: فإنّ صاحبكم ليس هناك(٩)، وقال ابن عمر: أتيت الرّسول ﷺ عاشر عشرة فقال رجل من الأنصار: من أكيس الناس وأكرم النّاس يا

---

(١) أخرجه الترمذي وقال حسن، والنسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه البيهقي في الشُعب من حديث أم حبيبة الجهنية والديلمي في مسند الفردوس.

(٣) الإحياء ٤/٥٥٩.

(٤) رواه ابن المبارك والطبراني والحاكم وأبو نعيم عن ابن عباس كشف الخفاء ١/٣٥٢.

(٥) أخرجه أبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب والخطيب في التاريخ من حديث أنس. قال العراقي في تخريج الإحياء ٤/٥٥٩. قال ابن العربي حسن صحيح وضعفه ابن الجوزي وذكر العراقي أنه جمع فيه جزء.

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت بإسناد ضعيف جداً تخريج الإحياء ٤/٥٥٩.

(٧) أخرجه الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث عمار بن ياسر بسند ضعيف وهو من مشهور من قول الفضل بن عياض واه. البيهقي في الزهد عنه. تخريج الإحياء ٤/٥٥٩.

(٨) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من حديث ابن عمر بسند ضعيف تخريج الإحياء ٤/٥٥٩.

(٩) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من حديث أنس بسند ضعيف وابن المبارك في الزهد عن مالك بن مغول بلاغاً. تخريج الإحياء ٤/٥٦٠.

رسول الله؟ قال: «أكثرهم ذكراً للموت وأشدّهم استعداداً له أُولئك الأكياس ذهبوا بشرف الدنيا والآخرة»(١).

وأما الآثار: فقد قال الحسن رضي الله عنه: فضح الموت الدّنيا فلم يترك لذي لبّ فرحاً، وقال الرّبيع: ما غائب ينتظره المؤمن خيراً من الموت، وكان يقول: لا تشعروا بي أحداً وسلوني إلى ربي سلاً، وكتب رجل من الحكماء إلى بعض إخوانه: «يا أخي احذر الموت في هذه الدار قبل أن تصير إلى دار تتمنى فيها الموت فلا تجده، وكان ابن سيرين إذا ذكر عنده الموت مات كل عضو منه، وكان عمر بن عبد العزيز يجمع كلّ ليلة جماعة من الفقهاء فيتذاكرون الموت والقيامة والآخرة ثم يبكون كأن بين أيديهم جنازة، وقال بعض الزّهاد: شيئان قطعا عنّي إرادة الدّنيا الموت والوقوف بين يدي الله عزّ وجلّ، وقال كعب: من عرف الموت هانت عليه مصائب الدّنيا وهمومها، وقال أشعث: كنّا ندخل على الحسن فإنما همّه النّار وذكر الموت وأمر الآخرة، وكان عيسى عليه السّلام إذا ذكر الموت عنده يقطر جلده دماً(٢).

وكان داود عليه السلام إذا ذكر الموت والقيامة بكى حتى تنخلع أوصاله وإذا ذكرت الرّحمة رجعت إليه نفسه، وقال مطرّف بن الشّخير: إن هذا الموت قد بغّض إلى أهل النعيم نعيمهم فاطلبوا نعيماً لا موت فيه، وقال عمر بن عبد العزيز لعنبسة: أكثر من ذكر الموت فإن كنت واسع العيش ضيّقه عليك وإن كنت ضيّق العيش وسّعه عليك، وكان الرّبيع بن خيثم قد حفر قبراً في داره وكان ينام في اللحد كل يوم مرّات يستديم به ذكر الموت ويقول: لو فارق قلبي ذكر الموت لفسد(٣).

---

(١) أخرجه ابن ماجه مختصراً في الزهد وابن أبي الدنيا بإسناد جيد. تخريج الإحياء ٤/٥٦٠. الزهد لابن المبارك ص ٩٢ رقم ٢٧٢.

(٢) أنظر هذه الآثار في الإحياء ٤/٥٦٠ - ٥٦١.

(٣) أنظر الإحياء ٤/٥٦٠ - ٥٦١.

الباب الثاني

في بيان قصر الأمل

قال رسول الله ﷺ لعبدالله بن عمر: «إذا أصبحت فلا تحدّث نفسك بالمساء وإذا أمسيت فلا تحدّث نفسك بالصّباح وخذ من حياتك لموتك ومن صحّتك لسقمك فإنك يا عبد الله لا تدري ما اسمك غداً»(١)، وروى أمير المؤمنين عليه السلام عن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «إن أشدّ ما أخاف عليكم خصلتان الهوى وطول الأمل فأمّا اتباع الهوى فإنه يعدل عن الحق وأمّا طول الأمل فإنه يورث الحب للدنيا»، ثم قال: «ألا إنّ الله تعالى يعطي الدّنيا من يحب ويبغض وإذا أحب عبداً أعطاه الإيمان لأنّ للدنيا أبناء وللدّين أبناء فكونوا من أبناء الدّين ولا تكونوا من أبناء الدّنيا، ألا وإنّ الدنيا قد ارتحلت مولّية، ألا وإنّ الآخرة قد ارتحلت مقبلة، ألا وإنكم في يوم ليس فيه حساب ويوشك أن تكونوا في يوم حساب ليس فيه عمل»(٢).

وقال الرّسول ﷺ وقد اطلع على الناس ذات عشّية فقال: «أيّها النّاس أما تستحيون؟ قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: تجمعون ما لا تأكلون وتأملون ما لا تدركون وتبنون ما لا تسكنون»(٣)، وقال أبو سعيد الخدري اشترى أُسامة بن زيد من زيد بن ثابت وليدة بمائة دينار إلى شهر فسمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا تعجبون من

---

(١) أخرجه ابن حبان ورواه البخاري من قول ابن عمر في آخر حديث «كن في الدنيا كأنك غريب» تخريج الإحياء ٥٦٢/٤.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب قصر الأمل من حديث علي ومن حديث جابر نحوه وكلاهما ضعيف. تخريج الإحياء ٥٦٢/٤.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا ومن طريقه البيهقي في الشعب بإسناد ضعيف. تخريج الإحياء ٥٦٢/٤.

أسامة اشترى إلى شهر إن أسامة لطويل الأمل والذي نفسي بيده ما طرفت عيناي إلا ظننت أن شفراي لا يلتقيان حتى يقبض الله روحي، ولا رفعت طرفي فظننت أني واضعه حتى أُقبض، ولا لقمت لقمة إلا ظننت أني لا أسيغها حتى أُغصّ بها من الموت ثم قال: يا بني آدم إن كنتم تعقلون فعدّوا أنفسكم في الموتى فو الذي نفسي بيده[1]: **﴿إنّما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين﴾** (الأنعام: ١٣٤).

وعن ابن عباس رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ كان يخرج يهريق الماء فيمسح بالتراب فأقول: يا رسول الله إنّ الماء منك قريب فيقول: ما يدريني لعلي لا أبلغه[2]، وقال الرسول ﷺ: **«يكبر ابن آدم ويشبّ معه خصلتان الحرص وطول الأمل»**[3]، وقال ﷺ: **«نجا أوّل هذه الأمة باليقين والزّهد ويهلك آخر هذه الأمّة بالبخل والأمل»**[4]، وقال الحسن قال رسول الله ﷺ: «أكلكم يحبّ أن يدخل الجنّة؟ قالوا: نعم يا رسول الله، قال: قصّروا من الأمل وثبتوا آجالكم بين أبصاركم واستحيوا من الله حقّ الحياء»[5]، وكان ﷺ يقول في دعائه: «اللهم إنّي أعوذ بك من دنيا تمنع خير الآخرة وأعوذ بك من حياة تمنع خير الممات وأعوذ بك من أمل يمنع خير العمل»[6].

وأما الآثار فقد قال بعض الزّهاد: لو علمت متى أجلي لخشيت ذهاب عقلي ولكنّ الله سبحانه منّ على عباده بالغفلة عن الموت ولولا الغفلة ما تهنوا بعيش ولا قامت بينهم الأسواق، وقال الحسن: السّهو والأمل نعمتان عظيمتان على بني آدم ولولاهما ما مشى المسلمون في الطريق، وقال الثوري: بلغني أن الإنسان خلق أحمق لولا ذلك لم يهنه العيش، وقال بعض الحكماء: إنّما عمرت الدنيا بقلّة عقول أهلها، وقال سلمان: ثلاث أعجبتني حتى أضحكتني مؤمل الدّنيا والموت يطلبه وغافل وليس بمغفول عنه وضاحك

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب قصر الأمل والطبراني في مسند الشاميين وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب بسند ضعيف. تخريج الإحياء ٤/٥٦٢.

(٢) رواه ابن المبارك في الزهد وابن أبي الدنيا في كتاب قصر الأمل والبزار بسند ضعيف.

(٣) رواه مسلم عن أنس ولابن أبي الدنيا نحوه عن أنس. وإسناده صحيح تخريج الإحياء ٤/٥٦٣.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب قصر الأمل من رواية ابن لهيعة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. الإحياء ٤/٥٦٣.

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب قصر الأمل من حديث الحسن مرسلاً. تخريج الإحياء ٤/٥٦٣.

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب قصر الأمل من رواية حوشب عن النبي ﷺ قال العراقي في تخريج الإحياء. وفي إسناده ضعف وجهالة ولا أدري من حوشب.

ملء فيه لا يدري أساخط عنه ربّ العالمين أم راض، وثلاث أحزنتني حتى أبكتني فراق محمد وحزبه والأحبة وهول المطلع والوقوف بين يدي الله تعالى لا أدري إلى الجنّة يؤمر بي أو إلى النار[١].

وحُكي عن بعض أهل الصّلاح أنه سأل الله تعالى أن يرفع عنه الأمل فذهبت عنه شهوة الطعام والشراب، ثـ دعا ربّه أن يردّ إليه الأمل فرجع إليه شهوة الطعام والشّراب، وقيل للحسن البصري: يا أبا سعيد ألا تغسل قميصك؟ فقال: الأمر أعجل من ذلك، وقال الحسن: الموت معقود بنواصيكم والدّنيا تطوى من وراءكم، وقال بعضهم إنما أنا كرجل مادّ عنقه والسّيف عليه ينتظر متى تضرب عنقه؟ وقال داود الطائي: لو أمّلت أن أعيش شهراً لرأيتني قد أتيت عظيماً وكيف أؤمّل ذلك وأرى الفجائع تغشى للخلائق في ساعات الليل والنهار[٢].

وكتب رجل إلى أخ له: «أما بعد فإن الدنيا حلم والآخرة يقظة والمتوسط بينهما الموت ونحن في أضغاث أحلام والسلام»[٣]، وكتب أخ إلى أخ له: «إن الحزن على الدّنيا طويل والموت من الإنسان قريب وللنقص منه في كل يوم نصيب وللبلى في جسمه دبيب فبادروا قبل أن ينادى بالرحيل والسّلام»، وقال الحسن رضي الله عنه: كان آدم عليه السلام قبل أن يخطو أمله خلف ظهره وأجله بين عينيه فلّما عصى وأصاب الخطيئة حوّل فجعل أمله بين عينيه وأجله خلف ظهره[٤].

---

(١) مجموعة هذه الآثار أنظر الإحياء ٤/٥٦٤ ـ ٥٦٥.

(٢) مجموعة هذه الآثار أنظر الإحياء ٤/٥٦٤ ـ ٥٦٥.

(٣) مجموعة هذه الآثار أنظر الإحياء ٤/٥٦٤ ـ ٥٦٥.

(٤) مجموعة هذه الآثار أنظر الإحياء ٤/٥٦٤ ـ ٥٦٥.

الباب الثالث

في بيان سكرات الموت وشدائده
وما يستحب من الأحوال عند الموت

إعلم أنه لو لم يكن بين يدي العبد المسكين كرب ولا هول ولا عذاب سوى سكرات الموت لكان جديراً بأن ينغض عليه عيشه ويكدّر عليه سروره وتفارقه شهوته وغفلته وحقيق بأن تطول فيه فكرته ويعظم استعداده لا سيما وهو في كلّ نفس بصدده كما قال بعض الحكماء: كرب بيد سواك لا تدري متى يغشاك، وقال لقمان لابنه: يا بنيّ أمر لا تدري متى يلقاك استعد له قبل أن يفجأك، والعجب أن الإنسان لو كان في أرغد عيش وأهنأه منغمساً في أعظم اللّذات وأطيب مجالس اللّهو وانتظر أن يدخل عليه بعض الشطّار يضربه بالسّياط لتكدّرت عليه لذّته وفسد عليه عيشه وهو في كل ساعة بصدد أن يدخل عليه ملك الموت يجذبه نفسه بسكرات النّزع وهو في غاية الغفلة فما لهذا سبب إلاّ الجهل والغرور، وشدّة الألم في سكرات الموت لا يعلمها على الحقيقة إلا من ذاقها وطعمها[1].

فأما من لم يدركها فإنما يعرفها بالقياس وهو أن كل عضو لا روح فيه لا يحس بالألم فإذا كان فيه الرّوح تألم فالمدرك للألم هو الرّوح فمهما أصاب العضو جرح أو

---

(١) الإحياء ٤/٥٧٢.

حريق فإنه يسري الألم إلى الرّوح فإذا كان المنزوع هو الرّوح فإنه يستغرق الألم جميع الأجزاء وكلّ مفصل من المفاصل ومن أصل كل شعرة وبشرة من القرن إلى القدم فلا تسأل عن كربه وألمه حتى قالوا: إن الموت أشدّ من ضرب السّيف ونشر بالمناشير وقرض بالمقاريض لأنّ قطع البدن بالسّيف إنّمايؤلم لتعلقه بالروح وإنما يستغيث المضروب ويصيح لبقاء قوّته في قلبه وفي لسانه، فأمّا المحتضر فقد انقطع صوته لأن الكرب قد بالغ فيه وتصاعد على قلبه وغلب على كل موضع فيه فهدّ كل قوة وأضعف كل جارحة فلم يترك لها قوّة الإستغاثة، أمّا العقل فقد غشيته وشوشة، وأمّا اللّسان فقد أبكمه، وأمّا الأطراف فقد أضعفها ويودّ لو قدر على الإستراحة بالأنين والصّياح ولكنه لا يقدر على ذلك فإن بقيت له قوّة سمعت له عند نزع الروح وجذبها خوار وغرغرة من حلقه وصدره، وقد تغيّر لونه وأزبد حتى ظهر على وجهه التراب الذي هو أصل فطرته وقد جذب منه كل عرق على حياله[1].

فالألم منتشر في داخله وخارجه حتى ترتفع الحدقتان إلى أعالي أجفانه وتتقلص الشّفتان ويقصر اللسان إلى أصله وترتفع الأثنيان إلى أعالي مواضعهما وتخضرّ أنامله فلا يسأل عن بدن يجذب منه كل عرق من عروقه، ثم يموت كلّ عضو من أعضائه على التدريج فتبرد أوّلاً قدماه ثم ساقاه ثم فخذاه وبكلّ عضو سكرة بعد سكرة وكربة بعد كربة حتى يبلغ بها إلى الحلقوم، فعند ذلك ينقطع نظره عن الدّنيا وأهلها ويغلق عنه باب التّوبة وتحيط به الحسرة والنّدامة، قال الرسول ﷺ: «تقبل توبة العبد ما لم يغرغر»[2].

فعند هذا تبدو صفحة وجه ملك الموت فلا يسأل عن طعم مرارة الموت وكربه عند ترادف سكراته، ولهذا قال ﷺ: «اللهم هوّن على محمد سكرات الموت»[3]، وقال عيسى عليه السلام: يا معشر الحواريين ادعوا الله أن يهوّن عليّ هذه السّكرة يعني الموت فقد خفت الموت مخافة أوقعني خوفي من الموت في الموت، وقالت عائشة: لا أغبط أحداً يهون عليه الموت بعد الذي رأيت من شدة موت رسول الله ﷺ[4]، ورُوي

---

(١) الإحياء ٤/٥٧٣.

(٢) أخرجه الترمذي من حديث ابن عمر وحسنه وأخرجه ابن ماجه أيضاً تخريج الإحياء ٤/٥٧٣. وقال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ٤/٤٠٠ وأخرجه ابن حبان والحاكم وأحمد وأبو يعلى والطبراني وفي إسناده عبد الرحمن بن ثابت ابن ثوبان مختلف فيه.

(٣) أخرجه ابن ماجه في السنن الجنائز نحوه عن عائشة وفيه اللهم أعني على سكرات الموت. رقم الحديث ١٦٢٣. وأحمد في المسند ٦/٦٤، ٧٠، ٧٧، ١٥١.

(٤) أخرجه الترمذي في الجنائز (رقم ٧٧٩) وأخرجه النسائي في الجنائز باب شدة الموت عن عائشة، وقال الترمذي =

عنه ﷺ أنه كان يقول: «اللهم إنك تأخذ الرّوح من بين العصب والأنامل، اللهمّ فأعني على الموت وهوّنه عليّ»(١)، فهذه سكرات الموت على أولياء الله وأحبابه من أهل خاصته وأنبيائه، فكيف حالنا ونحن المنهمكون في المعاصي والغافلون عن صلاح أحوالنا وتتوالى علينا مع سكرات الموت بقية الدّواهي؟ وجملتها ثلاث(٢):

الداهية الأولى: مشاهدة صورة ملك الموت ودخول الرّوع والخوف منه على القلب فلو رأى صورته التي يقبض عليها روح العبد المذنب أعظم الرّجال قوة لم يطق رؤيته، فقد رُوي عن الخليل صلوات الله عليه أنه قال لملك الموت: هل تستطيع أن تريني صورتك التي تقبض فيها روح الفاجر؟ فقال: إنك لا تطيق ذلك، فقال: بلى، قال: فأعرض عنيّ ثم التفت فإذا هو رجل أسود قائم الشعر منتن الرائحة أسود الثياب يخرج من فيه ومناخره لهب النّار والدّخان فغشي إبراهيم ثم أفاق وقد عاد ملك الموت إلى صورته الأولى، فقال: يا ملك الموت لو لم يلق الفاجر عند رؤيتك إلا صورة وجهك لكان حسبه(٣).

الداهية الثانية: مشاهدة الملكين الحافظين، قال وهب بن منبّه بلغنا أنه ما من ميت يموت حتى يتراءى له ملكاه الكاتبان لعمله فإن كان مطيعاً قالا له: جزاك الله عنا خيراً فرب مجلس صدق أجلستنا وعمل صالح أحضرتنا، وإن كان فاجراً قالا له: لا جزاك الله عنّا خيراً فربّ مجلس غير صدق أجلستنا وربّ عمل غير صالح أحضرتنا وكلام قبيح أسمعتنا فلا جزاك الله عنّا خيراً، فذلك الذي يرى الميّت عند شخوص بصر المحتضر إليهما ولا يرجع إلى الدنيا أبداً(٤).

الدّاهية الثالثة: مشاهدة العصاة مواضعهم من النار وخوفهم قبل المشاهدة فإنّهم في حال السّكرات وقد تخاذلت قواهم واستسلمت للخروج أرواحهم ولن تخرج أرواحهم ما لم تسمع نغمة ملك الموت بإحدى البشريين إمّا أبشر يا عدو الله بالنار،

= سألت أبا زرعة عن هذا الحديث وقلت له من عبد الرحمن بن العلاء فقال: هو العلاء بن اللجلاج وإنما عرفه من هذا الوجه.

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من حديث طعمة بن غيلان الجعفي وهو معضل سقط منه الصحابي أو التابعي. تخريج الإحياء ٤/٥٧٤.

(٢) أنظر الإحياء ٤/٥٧٦ ـ ٥٧٧.

(٣) أنظر الإحياء ٤/٥٧٦ ـ ٥٧٧.

(٤) أنظر الإحياء ٤/٥٧٦ ـ ٥٧٧.

وإما أبشريا وليّ الله بالجنة، وعن هذا خوف أرباب العقول وأهل الأحلام، وقد قال ﷺ: «لن يخرج أحدكم من الدّنيا حتى يعلم أين مصيره وحتى يرى مقعده من الجنة أو النار»[١]، وقال ﷺ: «من أحب لقاء الله أحبّ الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه، فقالوا: كلّنا نكره الموت فقال: ليس ذلك بذاك إن المؤمن إذا كشف له عما هو قادم عليه أحبّ لقاء الله وأحبّ الله لقاءه»[٢].

ورُوي أن حذيفة بن اليمان قال لإبن مسعود وهو لاماً به في آخر الليل: قم فانظر أي ساعة من الليل هي، فقام ابن مسعود ثم جاءه فقال: قد طلعت الحمراء، فقال حذيفة: أعوذ بالله من صباح إلى النار[٣]، ودخل مروان على أبي هريرة فقال مروان: اللهمّ خفّف عنه، فقال أبو هريرة: اللهمّ شدّد ثم بكى أبو هريرة وقال: والله ما أبكى حزناً على الدّنيا ولا جزعاً من فراقكم ولكن أنتظر إحدى البشريين من ربّي بجنة أو نار[٤]، ورُوي في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى إذا رضي عن عبده قال: يا ملك الموت اذهب إلى فلان فأتني بروحه لأُريحه حسبي من عمله قد بلوته فوجدته حيث أحب فينزل ملك الموت ومعه خمسمائة من الملائكة معهم قضبان الرّيحان وأُصول الزعفران كل واحد منهم يبشرة ببشارة سوى بشارة صاحبه وتقوم الملائكة صفّين لخروج روحه معهم الرّيحان»[٥].

وقال الحسن: لا راحة للمؤمن إلا في لقاء الله، ومن كانت راحته في لقاء الله فيوم الموت يوم سروره وفرحه وأمنه وعزّه وشرفه، وقال محمد بن واسع عند الموت: يا إخوتاه عليكم السّلام إلى النار أو يغفر الله، وتمنّى بعضهم أن يبقى في النزع ولا يبعث لثواب ولا عقاب، فخوف سوء الخاتمة قد قطع قلوب العارفين فهي من الدّواهي العظيمة عند الموت، فنسأل الله تعالى أمناً من عذابه وبشارة من عنده بعظيم ثوابه.

وأما ما يستحب للمحتضر عند الموت فاعلم أن المستحب لكل من يموت هو

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من رواية رجل لم يسم عن علي موقوفاً وفي الصحيحين من رواية عبادة بن الصامت ما يشهد له. أنظر تخريج الإحياء ٤/٥٧٧.

(٢) متفق عليه من حديث عبادة بن الصامت.

(٣) أثر حذيفة وأبي هريرة أنظر الإحياء ٤/٥٧٧.

(٤) أثر حذيفة وأبي هريرة أنظر الإحياء ٤/٥٧٧.

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث تميم الداري بإسناد ضعيف وللنسائي نحوه من حديث أبي هريرة بإسناد صحيح أنظر تخريج الإحياء.

الهدوء والسكون ومن لسانه أن يكون ناطقاً بالشهادة ومن قلبه أن يكون حسن الظنّ بالله تعالى، فهذه أمور ثلاثة[1]:

أولها: الحالة فقد رُوي عن الرسول ﷺ أنه قال: «ارقبوا الميت عند ثلاث إذا رشح جبينه وذرفت عيناه ويبست شفتاه فهو من رحمة الله تعالى قد نزلت به، وإذا غطّ غطيط البكر واحمّر لونه وأزبدت شفتاه فهو من عذاب الله قد نزل به»[2].

وثانيها: انطلاق بالشّهادة فهو من علامة الخير، قال الرسول ﷺ: «لقنوا موتاكم لا إله إلا الله»[3]، وقال عمر: احضروا موتاكم وذكّروهم فإنهم يرون ما لا ترون ولقنوهم لا إله إلا الله، وقال عثمان: إذا احتضر الميّت فلقّنوه لا إله إلا الله[4].

وثالثها: حسن الظن بالله تعالى فهو مستحب في هذا الوقت، وقد قال ﷺ حاكياً عن الله: «أنا عند ظنّ عبدي بي فليظنّ بي ما شاء»[5]، ودخل الرسول ﷺ على شاب وهو يجود بنفسه، فقال: كيف تجدك؟ فقال: أرجو الله وأخاف ذنوبي، فقال ﷺ: «ما اجتمعا في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله تعالى الذي يرجوه وأمّنه من الذي يخافه»[6]، ومرض أعرابي فقيل له: إنك تموت فقال: إلى أين ذُهب بي قالوا: إلى الله، قال: فما كراهتي أن أذهب إلى من لا يرجى الخير إلا منه، وقد نجز غرضنا من بيان سكرات الموت ودواهيه والله أعلم[7].

---

(١) أنظر الإحياء ٤/٥٧٧ ـ ٥٧٨.

(٢) أخرجه الترمذي في نوادر الأصول من حديث سلمان ولا يصح. تخريج الإحياء ٤/٥٧٨.

(٣) رواه مسلم عن أبي سعيد وعن أبي هريرة (جـ ٣/ ٣٧) الجنائز وأبو داود والنسائي عن أبي سعيد وعائشة. أنظر قطف الأزهار المتناثرة في الأخبار المتواترة للسيوطي ص ١١٦.

(٤) الإحياء ٤/٥٧٨. أثر عمر وعثمان.

(٥) متفق عليه من حديث أبي هريرة. البخاري في التوحيد ومسلم في التوبة.

(٦) أخرجه الترمذي في الجنائز (رقم ٩٨٣) عن أنس وقال حسن غريب. وابن ماجه (٤٢٦١) من حديث أنس، الزهد.

(٧) أنظر الإحياء ٤/٥٧٩.

الباب الرابع

في بيان الحسرة عند لقاء ملك الموت

سأل إبراهيم عليه السلام ملك الموت واسمه عزرائيل وله عينان في وجهه وعين في قفاه، فقال: يا ملك الموت إذا كان نفس بالمشرق ونفس بالمغرب ووقع الوفاة بأرض والتقى الرّوحان كيف تصنع؟ قال: أدعو الأرواح بإذن الله فتكون بين إصبعي هاتين، قال: ودحيت لي الأرض فتركت مثل الطشت بين يدي أتناول منها حيث أشاءُ، قال وهو الذي بشّره بأنّه خليل الله، وقال سليمان بن داود لملك الموت: ما لي أراك لا تعدل بين الناس تأخذ هذا وتدع هذا، فقال: ما أنا بذلك أعلم منك إنما هي صحف أو كتب تلقى إليّ وفيها أسماء[1].

وقال وهب بن منبّه: كان ملك من الملوك أراد أن يركب إلى أرض فدعا بثياب فلبسها فلم تعجبه فطلب غيرها حتى لبس ما أعجبه بعد مرّات، وكذا طلب دابة تعجبه حتى أتى بدواب فركب أحسنها، فجاء إبليس فنفخ في منخره نفخة فملأه كبراً ثم سار وسارت معه الخيول وهو لا ينظر إلى الناس كبراً فجاءه رجل رثّ الهيئة فسلّم فلم يرد عليه السّلام فأخذ بلجام دابته فقال له: أرسل اللّجام فقد تعاطيت أمراً عظيماً، قال: إن لي إليك حاجة، قال: اصبر حتى أنزل، قال: لا الآن فقهره على لجام دابته، فقال: اذكرها قال: هي سر فأدنى إليه رأسه فساره فقال: أنا ملك الموت فتغيّر لون الملك واضطرب لسانه فقال: دعني حتى أرجع إلى أهلي وأقضي حاجة وأودّعهم، قال: لا والله لا ترى أهلك ومالك أبداً فقبض روحه وخرّ كأنه خشبة. ثم مضى فلقي عبداً مؤمناً في تلك

---

(١) الإحياء ٤/٥٧٩ - ٥٨٠.

الساعة فسلم عليه فرد عليه السلام فقال: إن لي إليك حاجة أذكرها في أُذنك فقال: هات، فسارّه فقال: أنا ملك الموت، فقال: مرحباً وأهلا بمن طالت غيبته فو الله ما كان لي في الأرض غائب أحبّ إليّ منك أن ألقاه، فقال ملك الموت: اقض حاجتك التي خرجت لها، فقال: ما لي حاجة أكبر عندي ولا أحب من لقاء الله تعالى، قال: فأخبرني على أي وجه وحالة أقبض روحك؟، قال: تقدر على ذلك، قال: نعم إني أُمرت بذلك، قال: فدعني حتى أتوضأ وأصلي واقبض روحي وأنا ساجد فقبض روحه وهو ساجد[1].

وقال بكر بن عبد الله المزني: جمع رجل من بني إسرائيل مالاً فلما أشرف على الموت قال لبنيه: أروني أصناف أموالي فأُتي بشيء كثير من الخيل والرقيق وغيره فلما نظر إليها بكى تحسّراً عليها فرآه ملك الموت وهو يبكي فقال: ما يبكيك؟ فو الذي خوّلك ما أنا بخارج حتى أفرِّق بين روحك وبدنك، قال: فالمهلة حتى أفرّقه، قال: هيهات هيهات انقطعت عنك المهلة فهلاّ كان ذلك قبل حضور أجلك فقبض روحه[2].

ورُوي أن رجلاً جمع مالاً فأوعى ولم يدع صنفاً من المال إلا اتّخذه وابتنى قصراً وجعل عليه بابين وثيقين وجمع عليه حرساً من غلمانه ثم جمع أهله وصنع لهم طعاماً وقعد على سريره ورفع إحدى رجليه على الأُخرى وهم يأكلون، فلما فرغوا قال: يانفس انعمي لسنين قد جمعت لك ما يكفيك، فلم يفرغ من كلامه حتى أقبل عليه ملك الموت في هيئة رجل عليه خلقان من الثياب في عنقه مخلاة يشبه المساكين فقرع الباب قرعة عظيمة قرعاً أفزعه وهو على فراشه فوثب إليه الغلمان وقالوا له: ما شأنك؟ فقال: ادعوا إلي سيدكم، فقالوا: وإلى مثلك يخرج مولانا قال: نعم، فأخبروه بذلك، فقال: هلاّ فعلتم به وصنعتم، فقرع الباب قرعة أشد من الأولى فوثب إليه الحرس فقال: أخبروه أنّي ملك الموت فلما سمعوه أُلقى عليهم الرعب وألقى على مولاهم الذّل واقتمع، قال: قولوا له قولاً ليّناً وقولوا له هل تأخذ معه أحداً فدخل عليه فقال له: اصنع بمالك ما أنت صانع فإني لست بخارج حتى آخذ روحك، فأمر بماله فوضع بين يديه فقال حين رآه: لعنك الله من مال شغلتني عن عبادة ربّي ومنعتني أن أتخلّى لربي فأنطق الله المال فقال له: لم تسبّني؟ وقد كنت تدخل على السلاطين بي وتطرد المقلين عن أبوابك استحقاراً

---

(١) الإحياء ٤/ ٥٨٠.
(٢) الإحياء ٤/ ٥٨٠.

لهم وكنت تنكح المنعمات وتجلس مجالس الملوك بي وترد المتّقين عن ذلك وتنفقني في سبيل الشر فلا أمتنع منك ولو أنفقتني في سبيل الخير نفعتك، خلقت أنا وابـن آدم من تراب فمنطلق ببر ومنطلق بإثم؟ ثم قبض ملك الموت روحه وسقط[1].

وقال وهب بـن منبّه: قبض ملك الموت روحاً لجبّار من الجبابرة قيل ما في الأرض مثله ثم عرج به إلى السماء فقالت الملائكة له ـ أي لملك الموت ـ لمن كنت أشد رحمة ممن قبضت روحه؟ قال: أمرت بقبض روح امرأة في فلاة من الأرض وقد ولدت مولوداً فرحمتها لغربتها ورحمت ولدها لصغره وكونه في فلاة ولا متعهد له فقالـت الملائـكة: الجبار الذي قبضت روحه الآن هو ذلك المولود الذي رحمتـه، فقـال ملك المـوت: سبحان الله اللّطيف لما يشاء.

قال زيد الرّقاشي: بينما جبّار من الجبابرة من بني إسرائيل جالس في منزله قد خلا ببعض أهله إذ نظر إلى شخص قد دخل من باب بيته فثار إليه فزعاً مغضباً فقال له: من أنت ومن أدخلك علّي داري؟، فقال: أما الذي أدخلني عليك الدار فربّها وأمّا أنا فأنا الذي لا يمنع مني الحجّاب ولا أستأذن على الملوك ولا أخاف صولة السّلاطين ولا يمتنع مني كل جبار عنيد ولا شيطان مريد، قال: فسقط في يد الجبار وارتعد حتى سقط مكبّاً على وجهه ثم رفع رأسه إليه متحيراً متذلّلاً، فقال له: أنت إذاً ملك الموت، قال: أنا هو، قال فهل أنت ممهلي حتى آخذ عهداً؟، قال: هيهات انقطعت مدتـك وانقضـت أنفاسك ونفدت ساعتك فليس لي إلى تأخيرك سبيل، قال: فإلى أين تذهب بي؟ قال: إلى عملك الذي قدمته وإلى بيتك الذي مهدته، قال: فإني لم أقدم عملاً صالحاً ولم أُمهد حسناً، قال: فإلى لظى نزّاعة للشّوى ثم قبض روحه فسقط بين أهله فمن بين صائح وباك، قال يزيد الرقاشي: لو يعلمون سوء المنقلب كان العويل على ذلك أكثر[2].

---

(١) الإحياء ٤/٥٨٠ ـ ٥٨١.

(٢) الإحياء ٤/٥٨١ ـ ٥٨٢.

الباب الخامس

في بيان وفاة الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده

إعلم أن في رسول الله ﷺ أُسوة حسنة وقدوة مستحسنة حيّاً وميتاً وفعلاً وقولاً فإن جميع أحواله عبرة للناظرين وبصيرة للمستبصرين إذ لم يكن أحد أكرم على الله تعالى منه لأنه كان خليل الله وحبيبه وصفيّه ورسوله ونبيه، وجملة ما نذكره من ذلك وفيات خمس[1]:

الوفاة الأولى
وفاة رسول الله ﷺ

لمّا اختاره الله تعالى لجواره وأقام في الدنيا مقدار تبليغ الرسالة ونقله الله إلى رحمته فانظر هل أمهله ساعة عند انقضاء مدّته؟ وهل أخّره لحظة بعد حضور منيّته؟ لا بل أرسل الله الملائكة الكرام الموكلين بقبض أرواح الأنام فجروا بروحه الزكية لينقلوها وعاجلوها ليرحّلوها عن جسده الطاهر إلى رحمة ورضوان وخيرات حسان بل إلى مقعد صدق في جوار الرحمن فاشتد عند ذلك في النّزع كربه وظهر أنينه وترادف قلقه وارتفع حنينه واضطربت في الانقباض والانبساط شماله ويمينه حتى بكى لمصرعه من حضره وانتحب لشدة حاله من شاهد منظره، فهل رأيت منصب النبوة دافعاً عنه مقدوراً؟، وهل راقب الملك فيه أهلا وعشيراً؟، وهل سامحه إذ كان للحق نصيراً وللخلق بشيراً ونذيراً هيهات هيهات بل امتثل ما كان به مأموراً واتبع ما وجد في اللوح المحفوظ مسطوراً فهذا

---

(١) الإحياء ٤/٥٨٢ - ٥٨٣.

كان حاله وهو عند الله ذو المقام المحمود والحوض المورود وهو أوّل من تنشق عنه الأرض وهو صاحب الشّفاعة يوم العرض.

والعجب أنا لا نعتبر به ولسنا على ثقة فيما نلقاه بل نحن أسرى الشهوات وقرناء المعاصي والسيئات فما بالنا لا نتعظ بمصرع سيد المرسلين وإمام المتّقين وحبيب ربّ العالمين لعلنا نظنّ أنا مخلّدون أو نتوهم أنا مع سوء أفعالنا مكرمون هيهات هيهات ما أبعد هذا الوهم بل نتيقن أنّا جميعاً على النار واردون ثم لا ينجو منها إلا المتّقون فنحن للورود مستيقنون وللصدود عنها متوهمون فما نحن والله من المتقين ولا نرجو النجاة إلا برحمة من أرحم الراحمين فلينظر كل عبد إلى نفسه هل هو إلى الظالمين أقرب أم إلى المتقين

فانظر إلى نفسك بعد أن تنظر إلى سيرة السلف الصالحين فلقد كانوا مع ما وفقوا إليه من الخائفين، ثم انظر إلى سيد المرسلين فإنه كان من أمره على يقين وكان سيد النّبيين وقائد المتّقين، فانظر كيف كان كربه عند فراق الدنيا وكيف اشتد أمره عند الإنقلاب إلى جنة المأوى[١].

وروى سعيد بن عبدالله عن أبيه لمّا رأت الأنصار أن رسول الله ﷺ يزداد ثقلاً فارتعدت خوفاً ووجلاً واستأذنوا بالدخول عليه فدخل عليه الفضل بن العباس فأعلمه بذلك ثم دخل عليه أمير المؤمنين عليّ كرم الله وجهه فكلمه فمد يده وقال: هات فتناولوه فخرج رسول الله ﷺ متوكئاً على أمير المؤمنين والفضل بن العباس أمامه ورسول الله ﷺ معصوب الرأس يخط برجليه حتى جلس على أسفل مرقاة من المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال: «أيّها الناس بلغني أنكم تخافون عليّ الموت كأنه استنكار للموت وما تنكرون من موت نبيكم ألم أنع إليكم نفسي وأنعِ إليكم أنفسكم هل خلّد نبي قبلي ممن بعث فأُخلد فيكم، ألا إني لاحق بربي وإنكم لاحقون بي»[٢].

وروى ابن مسعود أن الرسول ﷺ قال لأبي بكر: سل يا أبا بكر فقال: يا رسول الله دنا الأجل؟، قال: قد دنا الأجل وتدلى فقال أبو بكر: ليهنك يا نبيَّ الله عند الله فليت شعري ما منقلبك؟ فقال: إلى الله وإلى سدرة المنتهى ثم إلى جنة المأوى والفردوس

---

(١) الإحياء ٤/٥٨٢ - ٥٨٣.

(٢) قال العراقي في تخريج الإحياء ٤/٥٨٥ حديث مرسل ضعيف فيه نكارة ولم أجد له أصلاً من حديث سعد بن عبدالله وأبوه عبدالله بن ضرار بن الأزور تابعي قال أبو حاتم سعيد بن عبدالله ليس بالقوي.

الأعلى والكأس الأوفى والرفيق الأعلى والحظ والعيش المهنّا ، فقال أبو بكر: يا رسول الله من يلي غسلك؟ فقال: رجال من أهل بيتي الأدنى فالأدنى قال: ففيم نكفنك قال: في ثيابي هذه أو في حلّة يمانية أو في بياض مضر، فقال: كيف الصّلاة عليك منّا؟ وبكينا وبكى ثم قال: مهلاً غفر الله لكم جزاكم الله عن نبيكم خيراً إذا غسلتموني فكفنوني وضعوني على سريري هذا على شفير قبري ثم اخرجوا عني ساعة فإن أول من يصلّي عليّ الله عزّ وجلّ هو الذي يصلّي عليكم وملائكته ثم يأذن للملائكة في الصلاة عليّ فأول من يدخل عليّ من خلق الله ويصلّي عليّ جبريل وميكائيل وإسرافيل ثم ملك الموت مع جنود كثيرة ثم أنتم فادخلوا عليّ أفواجاً وصلوا عليّ أفواجاً وسلّموا تسليماً وليبدأ منكم الإمام وأهل بيتي الأدنى فالأدنى[1]» .

قالت عائشة: لما كان اليوم الذي توفي فيه رسول الله ﷺ قال الرسول ﷺ: اخرجن عني، هذا الملك يستأذن عليّ فخرج من في البيت غيري ورأسه في حجري فجلس وتنحيت في ناحية البيت فناجاه الملك طويلاً ثم إنه دعاني وأعاد رأسه في حجري وقال للنسوة: ادخلن فقلت: ما هذا بحسّ جبريل ، فقال رسول الله ﷺ: أجل يا عائشة هذا ملك الموت جاءني فقال: إن الله عزّ وجلّ أرسلني وأمرني ألا أدخل عليك إلا بإذن فإن لم تأذن لي رجعت وإن أذنت لي دخلت وأمرني ألا أقبضك حتى تأذن لي فما أمرك؟ ، فقلت: أُكفف حتى يأتي جبريل فهذه ساعة جبريل ، فجاء جبريل في ساعة فعرفت حسّه فخرج أهل البيت وقال: يا جبريل إن ملك الموت استأذن عليّ، فقال جبريل: إن ربك لمشتاق إليك وإنه متمّ شرفك وكرامتك ووالله ما استأذن على أحد قبلك ولا يستأذن على أحد بعدك ، فقال الرسول ﷺ: لا تبرح حتى يجيءإذاً وعند هذا أذن للنّساء بالخروج[2].

قالت: وجاء ملك الموت فسلم على الرسول ﷺ واستأذن فأذن له فقال ملك

---

(١) رواه ابن سعد في الطبقات من رواية محمد بن عمر الواقدي بإسناد ضعيف إلى ابن عوف عن ابن مسعود وهو مرسل ضعيف، تخريج الإحياء ٤/٥٨٥.

(٢) رواه الطبراني في الكبير من حديث جابر وابن عباس مع اختلاف وهو حديث طويل قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ٤/٥٨٧ هو منكر وفيه عبد المنعم بن إدريس بن سنان عن أبيه عن وهب بن منبه، قال أحمد: كان يكذب على وهب بن منبه وأبوه إدريس أيضاً متروك قاله الدارقطني ورواه الطبراني أيضاً من حديث الحسين بن علي وهو منكر أيضاً وفيه عبدالله بن ميمون القداح قال البخاري ذاهب الحديث ورواه الطبراني أيضاً من حديث ابن عباس وفيه المختار بن نافع منكر الحديث.

الموت: ما تأمرني يا محمد؟ فقال: ألحقني بربي الآن، قال: بلى من يومك هذا أما إن ربك لمشتاق إليك، فقبض الملك روحه الكريمة، ثم خرج جبريل وقال: السلام عليك يا رسول الله هذا آخر ما أنزل فيه إلى الأرض أبداً طوي الوحي وطويت الدنيا وما كان لي في الأرض حاجة غيرك ثم لزوم موقفي، فهكذا كانت وفاة رسول الله ﷺ وقد حذفنا كثيراً من الحكايات ميلاً إلى الإيجاز، ولم يترك ﷺ شيئاً من الدنيا سبداً ولا لبداً، ولم يترك بعد وفاته مالاً ولا بنى في حياته لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة، ففي وفاته عبرة لسائر المسلمين(١).

الوفاة الثانية
وفاة أمير المؤمنين كرم الله وجهه

ولقد كان الرسول ﷺ أخبره بذلك ونعى إليه نفسه حيث قال: «أشقى الناس رجلان: أُحيمر ثمود الذي عقر الناقة والذي يضربك على هذه»(٢) أراد على قرنيته فتبلّ منها لحيته، ولمّا كانت الليلة التي أُصيب فيها أتاه ابن النواح حين طلع الفجر يؤذنه بالصلاة وهو مضطجع متثاقل فعاد الثانية وهو كذلك فعاد الثالثة فقام يمشي وهو يقول:

أُشدد حيازيمك للموت فإنّ الموت لاقيكَ
ولا تجزع من الموت إذا حلّ بواديكَ(٣)

ولقد كان كرّم الله وجهه يقول بعد أن ضرب على أم رأسه: كم اطردت الأيام أسألها عن مثل هذا الأمر فأبى الله إلا كتمانه، فلما بلغ الباب الصغير شدّ عليه اللّعين ابن ملجم فضربه حتى خرجت أُم رأسه، فخرجت أمّ كلثوم فقالت: ما لي ولصلاة الغداة قتل فيها زوجي وقتل فيها أبي(٤).

ورُوي أنه كرم الله وجهه لمّا ضرب قال: فزت وربّ الكعبة، ورُوي أنه لما ضرب ما زال ينطق لسانه بالشهادة حتى قبض(٥)، ولمّا ثقل الحسن بن علي رضي الله عنه دخل

---

(١) رواه ابن عبد البر تخريج الإحياء ٤/٥٨٧.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٤/٢٦٣) من حديث عمار بن ياسر.

(٣) يلاحظ أن هذه بيتين من الشعر تكتب واضحة وهي داخل القوس.

أشدد حيازيمك للمو ت فإن الموت لاقيكا
ولا تجزع من الموت إذا حل بواديكا

(٤) أنظر الإحياء ٤/٥٩٥.

(٥) الإحياء ٤/٥٩٥.

عليه أخوه الحسين بن عليٍّ فقال: يا أخي لأي شيء تجزع؟ تقدم على رسول الله ﷺ وعلى عليّ ابن أبي طالب وهما أبواك وعلى فاطمة بنت أسد وخديجة بنت خويلد وهما أمّاك وعلى جعفر وحمزة وهما عمّاك، فقال: يا أخي أُقدم على أمر لم أُقدم على مثله[1].

الوفاة الثالثة
وفاة أبي بكر رضي الله عنه

ولما احتضر أبو بكر رضي الله عنه قال: انظروا ثوبيّ هذين فاغسلوهما وكفّنوني فيهما فإن الحيّ إلى الجديد أحوج، وقال له ناس من أصحاب رسول الله ﷺ: ألا ندعو لك الطبيب ينظر؟، فقال: قد نظر إليّ وقال: إني فعّال لما أُريد ولمّا ثقل في مرضه وأراد الناس منه أن يستخلف فاستخلف عمر، فقال الناس: استخلفت علينا فظاً غليظ القلب فماذا تقول لربك؟، قال: أقول استخلفت على خلقك خير خلقك[2].

ثم أرسل إلى عمر فجاءه فقال: إني موصيك بوصية إعلم إن لله حقاً في النهار لا يقبله في الليل وإن له حقاً في الليل لا يقبله في النهار، وأنه لا يقبل النافلة حتى تؤدي الفريضة وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينهم يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا وثقله عليهم وحقّ لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يثقل، وإنما خفّت موازين من خفّت موازينهم يوم القيامة باتباع الباطل وخفّته عليهم، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يخفف وأن الله ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئاتهم فيقول القائل أنا دون هؤلاء ولا أبلغ مبلغ هؤلاء والله تعالى ذكر أهل النار بأسوإ أعمالهم ورد عليهم صالح الذي عملوه فيقول القائل أنا أفضل من هؤلاء وأن الله تعالى ذكر آية الرحمة وآية العذاب ليكون المؤمن راغباً راهباً ولا يلقي بيده إلى التهلكة ولا يتمنى على الله تعالى غير الحق، فإن حفظت وصيتي فلا يكن غائب أحبّ إليك من الموت ولا بد لك منه، وإن ضيعت وصيتي فلا يكن غائب أبغض إليك من الموت ولست تعجزه، فهذه وصيته عند موته[3].

---

(١) أنظر الإحياء ٤/٥٩٥.
(٢) الإحياء ٤/٥٩١ ـ ٥٩٢.
(٣) الإحياء ٤/٥٩١ ـ ٥٩٢.

الوفاة الرابعة

وفاة عمر رضي الله عنه

قال عمرو بن ميمون: كنت قاعداً غداة أُصيب عمر ما بيني وبينه إلا عبدالله بن العباس، وكان إذا مرّ بين الصفين فإذا رأى خللاً قال: استووا حتى إذا لم ير خللاً تقدم فكبّر قال: وربما قرأ سورة يوسف أو النحل أو نحو ذلك في الركعة الأولى حتى يجتمع الناس فما هو إلا أن كبّر فسمعته يقول: قتلني أو أكلني الكلب حين طعنه أبو لؤلؤة فطار العلج بسكين لها طرفان لا يمرّ على أحد يميناً ولا شمالاً إلا طعنه حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً فمات منهم تسعة، وفي رواية أخرى سبعة، فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنساً فلمّا ظنّ العلج أنّه مأخوذ نحر نفسه[1].

وتناول عمر عبد الرحمن بن عوف فقدمه، فأما من كان يلي عمر فقد رأى ما رأيت وأمّا من كان في نواحي المسجد فإنهم لا يدرون ما الأمر غير أنهم فقدوا صوت عمر وهم يقولون سبحان الله سبحان الله فصلّى بهم عبد الرحمن بن عوف صلاة خفيفة، فلمّا انصرفوا قال: يا ابن عباس انظر من قتلني، قال: فغاب ساعة فقال: غلام المغيرة بن شعبة، فقال: قاتله الله لقد كنت أمرت به معروفاً، ثم قال: الحمد لله الذي لم يجعل منيتي على يد رجل مسلم فحملوه إلى داره فشرب لبناً فخرج من جرحه فعلم الناس أنه ميت ثم استأذن عائشة أن يدفن في بيتها فأذنت له ثم جاءت بنته حفصة فدخلت عليه فبكت ساعة ثم خرجت من عنده فقالوا له: أوص يا أمير المؤمنين واستخلف، فقال: ما أرى أحقّ بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين مات رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ فسمى علياً وعثمان وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف، وقال أوص الخليفة بعدي بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم ويحفظ لهم حرمتهم، وأوصيه بالأنصار خيراً الذين تبوؤا الدار والإيمان[2].

الوفاة الخامسة

وفاة عثمان رضي الله عنه

عن يمامة القشيري قال: شهدت الدار حين أشرف عليهم عثمان فقال: أنشدكم الله إلا ما أتيتموني بصاحبيكم اللذين ألباكم عليّ، قال: فجيء بهما كأنهما جملان أو

---

(١) أنظر الإحياء ٤/٥٩٢ ـ ٥٩٣.

(٢) أنظر الإحياء ٤/٥٩٢ ـ ٥٩٣.

حماران فأشرف عليهم عثمان فقال: أنشدكم بالله والإسلام هل تعلمون أنّ رسول الله ﷺ قدم المدينة وليس بها ماء يستعذب غير بئر رومة، فقال: من يشتري بئر رومة يجعل دلوه مع دلاء المسلمين بخير له منها في الجنة فاشتريتها من صلب مالي فأنتم اليوم تمنعوني أن أشرب منها ومن ماء البحر، قالوا: اللهم نعم، قال: أُنشدكم بالله هل تعلمون أن المسجد ضاق بأهله؟ فقال رسول الله ﷺ: من يشتري بقعة آل فلان فيزيدها في المسجد بخير منها في الجنة فاشتريتها من صلب مالي وأنتم اليوم تمنعوني أن أُصلي فيها ركعتين، قالوا: اللهمّ نعم، ثم قال: أُنشدكم بالله هل تعلمون أنّي جهزت جيش العسرة من مالي؟ فقالوا: اللهم نعم، ثم قال: أُنشدكم بالله وبالإسلام هل تعلمون أن رسول الله ﷺ كان على ثبير ـ جبل شرقي المشعر ـ ومعه أبو بكر وعمر وأنا فتحرّك الجبل حتى تساقطت أحجاره بالحضيض قال: فركضه الرسول ﷺ برجله وقال: اسكن فإنما عليك نبي وصديق وشهيد؟، قالوا: اللهم نعم، قال: الله أكبر شهدوا وربِّ الكعبة أني شهيد[1].

ورُوي عن شيخ من بني ضبّة أن عثمان حين ضرب والدماء تسيل على لحيته جعل يقول: «لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين اللهم إني أستعين بك عليهم وأستعينك على ما ابتليتني وأسألك الصّبر على أُموري»[2]، وقال عبدالله بن سلام لمن حضر تشخط عثمان حين جرح: ماذا قال عثمان وهو يتشخط؟ قالوا: سمعناه يقول: اللهم اجمع أُمة محمد ﷺ على خير ثلاثاً، قال: والذي نفسي بيده لو دعا الله ألا يجتمعوا ما اجتمعوا أبداً إلى يوم القيامة»[3]، فهذا ما أردنا ذكره من وفاة هؤلاء وإنما أوردناه لما فيه من الموعظة والذكرى لمن كان له قلب فينظر إلى تلك المصارع لأشرف الخلق فيعلم أنه لا محالة مصروع ولما في سجاياهم وخلائقهم من الإعراض عن الدنيا والزهد فيها.

---

(١) أخرجه الترمذي وقال حسن وأخرجه النسائي أيضاً تخريج الإحياء ٤/٥٩٥.

(٢) أنظر الإحياء ٤/٥٩٥.

(٣) الإحياء ٤/٥٩٤.

الباب السادس

في بيان أقاويل جماعة من خصوص الصالحين من الصحابة والتابعين وغيرهم من أهل الزهد والعبادة عند الاحتضار للموت وعند القبور وعند موت الأولاد

فهذه مقامات ثلاثة نذكر ما يتعلق بكل واحد منها من كلماتهم النافعة الواقعة في القلوب:

المقام الأول
في ذكر أقوالهم عند الموت

حُكي أنه لمّا حضرت معاذاً رضي الله عنه الوفاة قال: اللهمّ إني كنت أخافك وأنا اليوم أرجوك اللهمّ إنك تعلم أني لم أكن أحبّ الدنيا وطول البقاء فيها لجري الأنهار ولا لغرس الأشجار ولكن لظمإ الهواجر ومكابدة الساعات ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذّكر، ولما اشتد به النزع ونزع نزعاً لم ينزعه أحد فكان يقول كلما أفاق من غمرة فتح طرفه، ثم قال: يا رب أخنق خنقك فوعزتك إنك تعلم أنّ قلبي يحبك.

ولما حضرت سلمان الوفاة بكى فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: ما أبكي جزعاً على الدنيا ولكن عهد إلينا رسول الله ﷺ أن تكون بلغة أحدنا من الدنيا كزاد الراكب، فلما مات سلمان نظر في جميع ما تركه فإذا قيمته بضع عشرة درهماً[1].

ولما حضرت بلالاً الوفاة قالت امرأته: واحزناه قال: بل واطرباه غداً ألقى الأحبة

---

(١) الإحياء ٤/٥٩٧.

محمداً وحزبه ، ولما حضرت إبراهيم النخعي الوفاة بكى فقيل له : ما يبكيك؟ ، قال : أنتظر من الله رسولاً يبشرني من الله بالجنة أو النار ، وحضرت ابن المنكدر الوفاة فبكى فقيل له : ما يبكيك فقال : والله ما أبكي لذنب أعلم أني أتيته ولكن أخاف أني أتيت شيئاً حسبته هيّناً وهو عند الله عظيم ، ولما حضرت عامر بن عبد قيس الوفاة بكى فقيل له : ما يبكيك؟ ، فقال : ما أبكي جزعاً من الموت ولا حرصاً على الدنيا ولكن على ما يفوتني من ظمإ الهواجر وعلى قيام الليل في الشتاء ، ولمّا حضرت فضيلاً الوفاة غشي عليه فلمّا أفاق فتح عينيه فقال : وابعد سفري وقلة زادي[1].

ولمّا حضرت ابن المبارك الوفاة قال لنصر مولاه : اجعل رأسي على التراب فبكى نصر فقال له : ما يبكيك؟ فقال : ما كنت فيه من النعيم وأنت هوذا الموت فقيراً غريباً ، قال : اسكت فإني سألت الله تعالى أن يحييني حياة الأغنياء وأن يميتني موت الفقراء ، ثم قال له : لقّني ولا تعد علي ما لم أتكلم بكلام ثانٍ ، وبكى بعضهم عند الموت فقيل له : ما يبكيك؟ قال : آية في كتاب الله : ﴿ **إنما يتقبل الله من المتقين** ﴾ (المائدة : ٢٧) ، ودخل الحسين على رجل يجود بنفسه فقال : إن أمراً هذا أوّله لجدير أن يتّقى آخره ، وإن أمراً هذا آخره لجدير أن يزهد في أوله[2].

وقيل لبشر بن الحارث لما احتضر وكان يشق عليه الكلام كأنك تحبُّ الحياة ، قال : القدوم على الله شديد ، وقيل لصالح : ألا توصي بابنك ، قال : أنا أستحي من الله أن أوصي بابني وعيالي إلى غيره ، ولما احتضر أبو سليمان الداراني أتاه أصحابه فقالوا : أبشر فإنك تقدم إلى ربّ كريم غفور رحيم ، فقال لهم : ألا تقولون احذر فإنك تقدم على رب يحاسب على الصغير ويعاقب على الكبير ، ولما احتضر الواسطي قيل له : أوصنا ، فقال : احفظوا مراد الحق فيكم ، واحتضر بعضهم فبكت امرأته فقال : ما يبكيك؟ قالت : عليك أبكي ، فقال لها : ابكي على نفسك فلقد بكيت لهذا اليوم أربعين سنة[3].

ولما حضرت يوسف بن أسباط الوفاة شهده حذيفة فوجده قلقاً فقال : يا أبا محمد هذا أوان القلق والجزع ، فقال : يا أبا عبدالله كيف لا أقلق ولا أجزع وإني أعلم أني لا أعلم أني صدقت الله في شيء من عملي؟ ، فقال حذيفة : واعجباً لهذا الرجل الصالح

---

(١) أخرجه أحمد والحاكم وصححه. تخريج الإحياء ٤/٥٩٨.
(٢) أنظر الإحياء ٤/٥٩٩.
(٣) أنظر الإحياء ٤/٥٩٩.

يحلف عند موته أنه ما صدق الله في شيء من عمله، واحتضر بعض الزهاد فقال وقت وفاته: يمكنك أن تعمل ما تريد فارفق بي، ودخل المزني على الشافعي في مرضه الذي توفي فيه فقال له: كيف أصبحت يا أبا عبدالله؟ فقال: أصبحت من الدنيا راحلاً وللإخوان مفارقاً ولسوء عملي ملاقياً ولكأس المنية شارباً وعلى الله تعالى وارداً ولا أدري أروحي تصير إلى الجنة فأهنيها أم إلى النار فأعزيها[1].

ولما احتضر بعض الزهاد سئل عن مسألة فدمعت عيناه وقال: يا بني باب كنت أدقه خمساً وتسعين سنة هوذا يفتح لي الساعة لا أدري أيفتح بالسعادة أو بالشقاوة فأنّى لي أوان الجواب، فهذه أقاويلهم عند الموت مختلفة، وإنما كان اختلافها بحسب اختلاف أحوالهم في الخوف والرجاء والشوق والمراقبة، فكل واحد منهم يجيب على ما يعلم من حاله، فنسأل الله أن يرزقنا صدق الرّجاء فيه وأن يمنحنا حذر الخشية والخوف منه بمنّه وطَوْله آمين[2].

المقام الثاني
في بيان أقاويلهم على الجنائز والمقابر

إعلم أن الجنائز عبرة لكل بصير وفيها تنبيه للعاقل وتحذير وفيها موعظة وتذكير لأهل الغفلة فإنهم لا تزيدهم مشاهدتها إلا قساوة لأنهم يظنّون أنهم أبداً إلى جنازة غيرهم ينظرون ولا يحسبون أنهم لا محالة على الأعواد يحملون أو يحسبون ذلك ولكنهم على القرب لا يقدرون ولا يفكرون أن المحمولين على الجنائز كلهم هكذا كانوا يحسبون فبطل حسابهم وانقرض على القرب زمانهم فلا ينظر إلى جنازة إلا ويقدر نفسه محمولاً عليها فإنه محمول عليها لا محالة على القرب[3].

وقد رُوي عن أبي هريرة أنه كان إذا رأى جنازة قال: امضوا إنّا على الأثر، وكان مكحول الدّمشقي إذا رأى جنازة قال: اغدوا فإنّا رائحون موعظة بليغة وغفلة سريعة يذهب الأول والآخر لا عقل له، وقال أسيد بن حضير: ما شهدت جنازة فحدثت نفسي بشيء سوى ما هو مفعول بها وما هي صائرة إليه ولما مات أخ لمالك بن دينار خرج مالك في جنازته وهو يبكي ويقول: والله ما تقرعيني حتى أعلم إلى ماذا صرت ولا أعلم ذلك ما

---

(١) أنظر الإحياء ٤/٥٩٩.

(٢) الإحياء.

(٣) الإحياء.

دمت حياً، وقال الأعمش: كنا نحضر الجنائز فلا ندري من نعزي لحزن الجميع، فهكذا كان خوفهم من الموت والآن لا تنظر إلى جماعة يحضرون جنازة إلا وأكثرهم يضحكون ويلهون ولا يتكلمون إلا في ميراثه وما خلفه لورثته ولا يتفكر أحد منهم في نفسه، ونظر إبراهيم الزيّات إلى أناس يترحمون على ميت فقال: لو ترحمتم على أنفسكم لكان خيراً لكم إنه قد نجا من أهوال ثلاثة وجه ملك الموت قد رأى ومرارة الموت قد ذاق وخوف الخاتمة قد أمن[١].

وقال الضحاك قال رجل: يا رسول الله من أزهد الناس؟ قال: من لم ينس القبر والبلى وترك فضل زينة الدنيا ولم يعد غداً من أيامه وعد نفسه من أهل القبور[٢]، وقيل لأمير المؤمنين: ما شأنك جاورت المقبرة؟، قال: إني أجدهم خير جيران صدق يكفون الألسنة ويذكرون الآخرة[٣]، وقال رسول الله ﷺ: «ما رأيت منظراً إلا والقبر أفظع منه»[٤]، ورُوي عن الرسول ﷺ: أنه خرج إلى قبر والدته آمنة بنت وهب فبكى وأبكانا، ثم قال: استأذنت ربي في زيارتها فأذن لي في زيارتها ولم يأذن لي في أن أستغفر لها فأدركني ما يدرك الولد من الرقة[٥].

وعن عثمان رضي الله عنه أنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «القبر أول منازل الآخرة فإن نجا منه صاحبه فما بعده أيسر وإن لم ينج منه فما بعده أشد»[٦]، وقال مجاهد: أوّل ما يكلم ابن آدم حفرته فتقول: أنا بيت الدّود وبيت الوحدة وبيت الغربة وبيت الظلمة، هذا ما أعددت لك فما أعددت لي[٧]، وقال أبو الدرداء: ألا أخبركم يوم فقري؟ يوم أُوضع في قبري، وكان الحسن بن صالح إذا أشرف على المقابر يقول: ما أحسن هذه الظواهر وإنما الدّواهي في البواطن، وكان عطاء السلمي إذا جنّ عليه الليل

---

(١) أنظر الإحياء ٤/٦٠١ ـ ٦٠٤.

(٢) أنظر الإحياء ٤/٦٠٤.

(٣) الإحياء ٤/٦٠٤.

(٤) أخرجه الترمذي وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث عثمان وقال الترمذي حسن غريب تخريج الإحياء ٢/٢٦٨.

(٥) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة في زيارة قبر أمه ﷺ وأحمد من حديث بريدة وابن أبي الدنيا في كتاب القبور من حديث ابن مسعود وابن ماجه مختصراً وفي إسناد ابن ماجه أيوب بن هانيء ضعفه ابن معين. وقال أبو حاتم صالح، تخريج الإحياء ٤/٦٠٣ ـ ٢/٢٦٨.

(٦) أخرجه الترمذي وحسنه وابن ماجه والحاكم وصحح إسناده.

(٧) الإحياء ٤/٦٠٣.

خرج إلى المقبرة ثم يقول: يا أهل القبور متُّم فيا موتاه وعاينتم أعمالكم فواعملاه ثم يقول: غداً عطاءٌ في القبر فلا يزال ذلك دأبه حتى يطلع الفجر، وقال سفيان: من أكثر ذكر القبر وجده روضة من رياض الجنة، ومن غفل عنه وجده حفرة من حفر النار[١].

وقال بعض الزهاد: تتعجب الأرض من رجل يمهد مضجعه ويسوّي فراشه للنوم فتقول الأرض: يا ابن آدم لم لا تذكر طول بلاك وما بيني وبينك شيء وقال ميمون بن مهران: خرجت مع عمر بن عبد العزيز إلى المقبرة فلما نظر إلى القبور بكى ثم أقبل فقال: يا ميمون هذه قبور آبائي بني أمية كلهم كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لذاتهم وعيشهم أما تراهم صرعى قد حلّت بهم المثلات واستحكم فيهم البلاء وأصابت الهوام مقيلاً في أبدانهم ثم بكى وقال: والله ما أعلم أحداً أنعم ممن صار إلى هذه القبور وقد أمن من عذاب الله، فهذه مقالاتهم على الجنائز والقبور تدل على الأحزان في قلوبهم وتوقد النيران في أفئدتهم[٢].

المقام الثالث
في بيان مقالاتهم عند موت الأولاد

حق على من مات ولده أو قريبه أن ينزله في تقدمه عليه بالموت بمنزلة ما لو كان في سفر فسبقه إلى البلد الذي هو مستقره ووطنه فإنه لا يعظم عليه تأسفه لعلمه أنه لاحق به على القرب وليس بينهما إلا تقدم أو تأخر، وهكذا حال الموت فإن معناه السّبق إلى الوطن إلى أن يلحق المتأخر، وإذا اعتقد هذا قلّ جزعه لا سيما وقد ورد في موت الولد من الثواب ما يعزّي به كل مصاب، قال رسول الله ﷺ: «لأن أقدم سقطاً أحبّ إليّ من أن أخلف مائة فارس كلّهم مقاتل في سبيل الله تعالى»[٣]، وإنما ذكر السّقط تنبيهاً بالأدنى على الأعلى وإلا فالثواب على قدر محل الولد من القلب، وقال زيد بن أسلم: توفي ولد لداود عليه السلام فحزن عليه حزناً شديداً، فقيل له: ما كان عدله عندك قال ملء الأرض ذهباً قيل له: فإن لك من الأجر مثل ذلك[٤].

وقال رسول الله ﷺ: «لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فيحتسبهم إلا

---

(١) الإحياء ٤/٦٠٣ ـ ٦٠٧.

(٢) الإحياء ٤/٦٠٣ ـ ٦٠٧.

(٣) قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ٤/٦٠٧ لم أجد فيه ذكر «مائة فارس» وروى ابن ماجه من حديث أبي هريرة «لسقط أقدمه بين يدي أحب إلي من فارس أخلفه خلفي».

(٤) الإحياء ٤/٦٠٧.

كانوا له جنة من النار»[1]، فقالت امرأة عند رسول الله ﷺ: واثنان؟ قال: واثنان»[2]، وليخلص الوالد الدّعاء لولده فإنه أرجى دعاء وأقربه إلى الإجابة، ووقف محمد بن سليمان على قبر ولده فقال: اللهم إني أصبحت أرجوك وأخافك فحقق رجائي وآمن خوفي، ووقف ابن سنان على قبر ابنه فقال: اللهم إني قد غفرت له ما وجب لي عليه فاغفر له ما وجب لك عليه فإنك أجود وأكرم، ووقف أعرابيٌّ على قبر ابنه فقال: اللهم إني قد وهبت له ما قصّر فيه من بري فهب له ما قصّر فيه من طاعتك[3].

ولما مات ذرّ بن عمر بن ذر قام أبوه عمر بن ذر بعد ما وضع في لحده فقال: لقد شغلنا الحزن لك من الحزن عليك فليت شعري ماذا قلت وماذا قيل لك؟، ثم قال: اللهم إن هذا ابني ذرّاً متّعتني به ما متعتني ووفيته أجله ورزقته ولم تظلمه، اللهم وقد ألزمته طاعتك وطاعتي اللهمّ وما وعدتني عليه من الأجر في مصيبتي فقد وهبت له ذلك فهب لي عذابه ولا تعذبه، فأبكى الناس، ثم قال عند انصرافه: ما علينا بعدك من خصاصة يا ذرّ وما بنا إلى إنسان مع الله من حاجة فلقد مضينا وتركناك ولو أقمنا ما نفعناك[4].

ونظر رجل إلى امرأة بالبصرة فقال: ما رأيت مثل هذه النضارة وما ذاك إلا من قلة الحزن، فقالت: يا عبدالله إني لفي حزن ما شاركني فيه أحد، قال: وكيف؟، قالت: إن زوجي ذبح شاة في يوم الأضحى وكان لي صبيان مليحان يلعبان فقال أكبرهما للآخر: أتريد أن أُريك كيف ذبح أبي الشاة؟ قال: نعم، فأخذه فذبحه فما شعرنا به إلا متشحطاً في دمه فلما أن وقع الصّراخ هرب الغلام فلجأ إلى جبل فرهقه ذئب فأكله وخرج أبوه في طلبه فمات عطشاً من شدة الحرّ فأفردني الدهر بأمثال هذه المصائب، وفي الحديث عن الرسول ﷺ: «لا يموت لأحد ثلاثة من الولد فتمسّه النار إلا تحلّة القسم»[5]، وقال ﷺ: «إذا أمر الله الملائكة بقبض روح ولد لرجل فقبضوا روحه فيقول الله تعالى:

---

(١) أخرجه البخاري رقم الحديث (١٢٤٨) من حديث أنس دون ذكر الاثنين وهو عند أحمد بالزيادة من حديث معاذ. ومتفق عليه من حديث أبي سعيد بنحو من هذا، تخريج الإحياء ٢/٣٥.

(٢) جزء من الحديث الذي قبله.

(٣) أنظر الإحياء ٤/٦٠٧.

(٤) الإحياء ٤/٦٠٧ ـ ٦٠٨.

(٥) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز (١٢٥١) من حديث أبي هريرة ولفظه «لا يموت لمسلم ثلاثة من الولد فيلج النار إلا تحلة القسم».

ماذا قال والداه؟ فتقول الملائكة: صبرا واحتسبا فيك فيقول الله تعالى: أُشهدكم أنّي قد جعلت ثوابهما الجنة»[1] وقال ﷺ: «زر القبور تذكر بها الآخرة[2]، واغسل الموتى فإن معالجة جسد خاوٍ فيه موعظة بليغة، وصلّ على الجنائز لعلّ الله أن يحزنك فإن الحزين في ظل الله تعالى»[3]، والمستحب في زيارة القبور أن يقف مستدبر القبلة مستقبلاً لوجه الميّت وأن يسلم ولا يمسح القبر ولا يقبله ولا يمسّه فإن ذلك عادة النّصارى، قال نافع: كان ابن عمر رأيته مائة مرّة يجيء إلى القبر فيقول: السلام على النبي السلام على أبي بكر، السلام على أبي وينصرف، وعن أبي أمامة قال: رأيت أنس بن مالك أتى قبر الرسول ﷺ فوقف فرفع يديه حتى ظننت أنه افتتح الصلاة فسلم على الرسول ﷺ ثم انصرف[4].

وقال ﷺ: «ما الميت في قبره إلا كالغريق المستغيث ينتظر دعوة تلحقه من ابنه أو أخيه أو صديق له فإذا لحقته كانت أحبّ إليه من الدنيا وما فيها»[5]، وإنّ هدايا الأحياء إلى الأموات الدّعاء والاستغفار، ويستحب الثناء على الأموات وأن لا يذكروا إلا بالجميل قالت عائشة: قال الرّسول ﷺ: «فدعوه ولا تقعوا فيه»[6]، وقال ﷺ: «لا تسبّوا الأموات فقد أفضوا إلى ما قدّموا»[7]، وقال ﷺ: «لا تذكروا أمواتكم إلا بخير فإن يكونوا من أهل الجنة تأثموا وإن يكونوا من أهل النار فحسبهم ما هم فيه»[8]، وقال أبو هريرة: قال الرسول ﷺ: «إنّ العبد ليموت فيثني عليه القوم الثناء يعلم الله منه غيره فيقول الله للملائكة: أُشهدكم أني قد قبلت شهادة عبيدي على عبدي وتجاوزت عن

---

(١) الإحياء ٤/٦٠٨.
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب القبور والحاكم بإسناد جيد من حديث أبي ذر أنظر تخريج أحاديث الإحياء ٤/٦٠٩.
(٣) هو جزء مما قبله.
(٤) الإحياء ٤/٦٠٩.
(٥) أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عباس وفيه الحسن بن عبد الواحد قال الذهبي حدث عن هشام بن عمار بحديث باطل، تخريج الإحياء ٤/٦١٠.
(٦) أخرجه أبو داود من حديث عائشة بإسناد جيد.
(٧) أخرجه البخاري من حديث عائشة.
(٨) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من حديث عائشة بإسناد ضعيف. ورواه النسائي مختصراً من حديث عائشة أيضاً وهو جيد وعزاه الديلمي للطبراني والنسائي. تخريج الإحياء ٤/٦١٢.

علمي في عبدي»[1]، فهذا ما أردنا ذكره من ذكر الأقاويل عند الموت وعلى الجنائز وعلى المقابر، ثم إنّ من أعظم الدّواهي وأكبرها أنّ الإنسان لا يرضى أن يموت على حالته التي هو عليها ومع ذلك يعلم علماً يقيناً أنّه إلى ضعف وهوان وشيخوخة ونقصان، فهذا جهل مفرط وحمق مستولي ولا حول ولا قوّة إلا بالله وإنّا به عائذون»[2].

---

(١) أخرجه أحمد في المسند من رواية شيخ من أهل البصرة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل. تخريج الإحياء ٤/٦١٢.
(٢) أنظر الإحياء ٤/٦١٢ ـ ٦١٣.

الباب السابع

في بيان ما يلقاه في القبر إلى نفخة الصور

اعلم أنا قبل الخوض فيما نريده نذكر حقيقة الموت ففيها خبط عظيم بين العلماء وفيه مذاهب أربعة:

المذهب الأول: أن الموت هو العدم وأنه لا حشر ولا نشر ولا عاقبة للخير والشّر وأن موت الإنسان كموت الحيوانات وجفاف الأشجار، وهذا هو رأي الملاحدة وكلّ من كان لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، وهذا هو رأي الفلاسفة أيضاً، فإنهم زعموا إنكار اليوم الآخر على ما جاءت به الرّسل صلوات الله عليهم ونطقت به ظواهر الشّريعة ورجعوا إلى هذيانات باطلة وتمويهات كاذبة.

المذهب الثاني: زعم قوم أنه ينعدم الروح بالموت ولا يتألم بعقاب ولا يتنعم بثواب ما دام في القبر إلى أن يعاد في وقت الحشر، وهذا هو رأي المنكرين لعذاب القبر.

المذهب الثالث: قال آخرون: إن الروح باقية لا تنعدم بالموت وإنما المثاب والمعاقب هي الأرواح دون الأجساد وأن الأجساد لا تبعث ولا تحشر أصلاً[1].

المذهب الرابع: وهو المختار الذي نطقت به الآيات وشهدت به الأخبار أن الموت معناه تغير حال فقط وأنّ الروح باقية بعد مفارقة الجسد إما معذبة وإما منعمة ومعنى مفارقتها للجسد هو انقطاع تصرفها عن الجسد بخروج الجسد عن طاعتها فإن الأعضاء آلات للروح يستعملها حتى إنه يبطش باليد ويمشي بالرِّجل ويسمع بالأُذن

---

(١) الإحياء ٤/٦١٢ - ٦١٣.

ويبصر بالعين، وكذلك فإنه ينعم بأنواع الفرح والسرور ويتألم بأنواع الأحزان والغموم، فكل ما كان وصفاً للروح بنفسه فهو باقٍ بعد مفارقة الجسد وما هو لها بواسطة الأعضاء فيتعطل بموت الجسد إلى أن يعاد الرّوح إلى الجسد.

وهذا هو الذي يريده أهل العدل بقولهم: إن الإنسان بنية معتدلة هي المثابة المعاقبة المخاطبة، وعلى هذا يحمل ما ورد في الآيات والأخبار وفيه كلام كثير لا حاجة بنا إلى استقصائه ومقدار الغرض حاصل بما ذكرناه ها هنا، فإذا تمهدت هذه القاعدة فلنذكر كلام القبر للميت ثم نردفه بالكلام في عذاب القبر ثم نذكر بعده سؤال منكر ونكير، فهذه مقامات ثلاثة نفصّلها بمعونة الله تعالى[1]:

المقام الأول
في بيان كلام القبر للميت
إما بلسان المقال وإما بلسان الحال

قال الرسول ﷺ: «يقول القبر للميت حين يوضع فيه: ويحك يا ابن آدم ما غرّك بي ألم تعلم أنّي بيت الفتنة وبيت الوحدة وبيت الظلمة وبيت الدود؟ ما غرّك بي إذ كنت تمر عليّ فذاذاً؟» والفذاذ هو الذي يقدم رجلاً ويؤخر أخرى هكذا فسره الراوي، فإن كان مصلحاً أجاب عنه مجيب القبر فيقول: أرأيت إن كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فيقول القبر: إني إذن أتحول عليه خضراً ويعود جسده نوراً وتصعد روحه إلى الله تعالى»[2]، وقال بعض الزهاد: ما من ميّت يموت إلا نادته حفرته التي يدفن فيها أنا بيت الظلمة والوحدة والانفراد، وقال يزيد الرقاشي: بلغني أن الميت إذا وضع في قبره احتوشته أعماله ثم أنطقها الله تعالى فقالت: أيها العبد المنفرد في حفرته انقطع عنك الأخلاء والأهلون فلا أنيس لك اليوم عندنا.

وقال كعب: إذا وضع العبد الصّالح في القبر احتوشته أعماله الصالحة الصّلاة والصوم والحج والجهاد والصّدقة، قال: وتجيء ملائكة العذاب من قبل رجليه فتقول الصلاة: إليكم عنه فلا سبيل لكم عليه فقد أطال بي القيام عليهما، فيأتونه من قبل رأسه فيقول الصيام: لا سبيل لكم عليه فقد أطال ظمأه في دار الدنيا، فيأتونه من قبل جسده

---

(١) الإحياء ٤/٦٠٩.

(٢) أخرجه ابن أبي الدّنيا في كتاب القبور والطبراني في مسند الشاميين وأبو أحمد الحاكم في الكنى من حديث أبي الحجاج الثمالي بإسناد ضعيف تخريج الإحياء ٤/٦١٨.

فيقول الحج والجهاد: إليكم عنه فقد أنصب نفسه وأتعب بدنه وحجّ وجاهد لا سبيل لكم عليه، قال: فيأتونه من قبل يديه فتقول الصدقة: كفّوا خلوا عنه فكم من صدقة خرجت من هاتين اليدين حتى وقعت في يد الله ابتغاء وجهه فلا سبيل لكم عليه، فيقال له: هنيئاً طبت حياً وطبت ميتاً.

قال: وتأتيه ملائكة الرحمة فتفرش له فراشاً من الجنة ودثاراً من الجنة ويفسح له في قبره مدّ بصره ويؤتى بقنديل من الجنة فيستضيء بنوره إلى يوم يبعثه الله من قبره، فهذا كلام القبر كما ترى[1].

المقام الثاني
في بيان عذاب القبر

قال البراء بن عازب خرجنا مع رسول الله ﷺ على جنازة رجل من الأنصار فجلس رسول الله ﷺ على قبره منكساً رأسه، ثم قال: اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ثلاثاً، ثم قال إن المؤمن إذا كان في قبل من الآخرة بعث الله سبحانه وتعالى إليه ملائكة كأن وجوههم الشمس بحنوطه وكفنه فيجلسون مدّ بصره فإذا خرجت روحه تجمع كل ملك بين السماء والأرض وكل ملك في السماء وفتحت أبواب السماء فليس منها باب إلا يحبّ أن تدخل روحه منه فإذا صعد بروحه قيل: أي رب إن هذا عبدك فلان فيقول: ارجعوه فأروه ما أعددت له من الكرامة فإني وعدته[2] بقولي: ﴿**منها خلقناكم وفيها نعيدكم**﴾ (طه: ٥٥)، الآية.

وإنه ليسمع خفق نعالهم إذا ولوا مدبرين حتى يقال: يا هذا من ربك وما دينك ومن نبيك؟ فيقول: ربي الله وديني الإسلام ونبيي محمدﷺ فينتهرانه انتهاراً شديداً وهي آخر فتنة تعرض على الميت، فإذا قال ذلك نادى منادٍ أن صدقت وهو معنى قوله تعالى: ﴿**يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة**﴾ (إبراهيم: ٢٧)، ثم يأتيه آتٍ حسن الوجه طيب الرائحة حسن الثياب فيقول: أبشر يا ولي الله برحمة من ربك وجنّات لهم فيها نعيم مقيم، فيقول: وأنت فبشرك الله بخير، من أنت؟ فيقول: أنا عملك الصالح والله ما علمت أن كنت لسريعاً في طاعة الله بطيئاً عن معصيته فجزاك الله خيراً، قال: ثم ينادي منادٍ أن أفرشوا له من فرش الجنة وافتحوا له باباً إلى الجنة

---

(١) الإحياء ٤/٦١٨ ـ ٦١٩.

(٢) أنظر الإحياء ٤/٦١٨ ـ ٦١٩.

فتفرش له فرش من فرش الجنة ويفتح له باب إلى الجنة فيقول: اللهم عجل قيام الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي .

وأما الكافر فإذا كان في قبل من الآخرة وانقطاع من الدنيا نزلت إليه ملائكة غلاظ شداد معهم ثياب من نار وسرابيل من قطران ـ فيحتوشونه فإذا خرجت نفسه لعنه كل ملك بين السماء والأرض وكلّ ملك في السماء وغلقت أبواب السماء فليس فيها باب إلا ويكره أن يدخل بروحه منه، وقيل: ربِّ عبدك فلان لم تقبله سماءٌ ولا أرض فيقول: ارجعوه فأروه ما أعددت له من الشر إنّي وعدته بقولي: **﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم﴾** (طه: ٥٥)، الآية.

وإنه ليسمع خفق نعالهم إذا ولوا مدبرين حتى يقال له: يا هذا من ربك وما دينك ومن نبيك؟ فيقول: لا أدري ثم يأتيه آت قبيح الوجه منتن الرّيح قبيح الثّياب فيقول: أبشر بسخط الله وبعذاب أليم، فيقول: بشرك الله بشّر من أنت؟ فيقول: أنا عملك الخبيث والله إن كنت لسريعاً في معصية الله تعالى بطيئاً عن طاعته فجزاك الله شرّاً، فيقول: وأنت فجزاك الله شراً ثم يقيض له أصم أعمى أبكم معه مرزبة من حديد لو اجتمع عليها الثقلان على أن ينقلوها ما استطاعوا لو ضرب بها جبل لصار تراباً فيضربه ضربة فيصير تراباً ثم يعود فيه الرّوح فيضربه ضربة يسمعها من على وجه الأرض ليس الثقلين، ثم ينادي منادٍ أن أفرشوا له لوحين من نار وافتحوا له باباً إلى النار، فيفرش له لوحان ويفتح له باب إلى النار»[1].

وقال محمد بن علي: ما من ميت يموت إلا مثل له عند الموت أعماله الحسنة وأعماله السيئة، قال: فيشخص إلى حسناته ويطرق إلى سّيئاته[2].

وقال أبو هريرة: قال الرسول ﷺ: «إن المؤمن إذا حضر أتته الملائكة بحريرة فيها مسك وصباين الرّيحان فيسل روحه كما تسلّ الشعرة من العجين ويقال: أيتها النّفس اخرجي راضية مرضية ومرضيّ عنك إلى روح الله وكرامته، فإذا خرجت روحه وضعت على المسك والريحان وطويت عليها الحريرة وبعث بها إلى عليين، وإن الكافر إذا أتته الملائكة بمسح فيه جمرة فتنزع روحه انتزاعاً شديداً ويقال: أيّتها الرّوح الخبيثة أُخرجي

---

(١) هذا الحديث بطوله أخرجه أبو داود والحاكم بكماله وقال صحيح على شرط الشيخين وضعفه ابن حبان ورواه النسائي وابن ماجه مختصراً. أنظر تخريج الإحياء ٤/٦٢٠.

(٢) الإحياء ٤/٦٢٠.

ساخطة ومسخوطة عليك إلى هوان الله وعذابه فإذا خرجت روحه وضعت على تلك الجمرة فإذا لها نشيش ويطوى عليها المسح ويذهب بها إلى سجّين حيث تكون أرواح الشياطين»[١]، ونكتفي بهذا القدر في عذاب القبر ففيه كفاية في مقدار غرضنا والله أعلم.

المقام الثالث
في بيان سؤال منكر ونكير وضغطة القبر
وبقية الكلام في عذاب القبر

قال أبو هريرة: قال الرّسول ﷺ: «إذا مات العبد أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما منكر ولـلآخر نكير فيقولان له: ما كنت تقول في النبي؟ فإن كان مؤمناً ثبته الله وهداه للصّدق فيقول: هو عبدالله ورسوله أشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً عبده ورسوله فيقولان إن كنا لنعلم أنك لتقول ذلك ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً في سبعين ذراعاً وينوّر له في قبره فيقول دعوني أرجع إلى أهلي فأُخبرهم فيقال: لا سبيل لك إلى الرّجعة ولكن نم فينام كنوم العروس التي لا يوقظها إلا أحبّ أهلها إليها حتى يبعثه الله من مضجعه[٢].

وإن كان منافقاً قال: لا أدري سمعت النّاس يقولون شيئاً فكنت أقوله، فيقولان: إن كنّا لنعلم أنك تقول ذلك، ثم يقال للأرض التمي عليه، فتلتئم عليه حتى تختلف فيها أضلاعه فلا يزال معذباً حتى يبعثه الله تعالى من مضجعه ذلك[٣].

وعن عطاء بن يسار قال: «قال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب يا عمر كيف بك إذا أنت متّ فانطلق بك قومك فقاسموا لك ثلاثة أذرع في ذراع وشبر، ثم رجعوا إليك فغسّلوك وكفّنوك وحنطوك ثم حملوك حتى يضعوك فيه ثم يهيلوا عليك التّراب ويدفنوك فإذا انصرفوا عنك أتاك فتّانا القبر نكير ومنكر أصواتهما كالرّعد القاصف وأبصارهما كالبرق الخاطف يجرّان أشعارهما ويحثيان القبر بأنيابهما فتلتلاك وترتراك، كيف بك عند ذلك يا عمر؟، فقال عمر: ويكون معي عقلي الآن؟ قال: نعم، قال: «فإذن

---

(١) أخرجه البزار بلفظ المصنف وأخرجه ابن أبي الدنيا وابن حبان مع اختلاف. تخريج الإحياء ٤/٦٢٠.

(٢) أخرجه الترمذي وحسنه وابن حبان مع اختلاف. تخريج الإحياء ٤/٦٢٤.

(٣) جزء من الحديث الذي قبله.

أكفيكهما»[1]، وهذا نص صريح في أن العقل لا يتغير بالموت وإنما تتغير الأعضاء والبدن، والعقل هو الرّوح، وعلى هذا يكون الميّت عاقلاً مدركاً عالماً بالآلام واللذات كما كان، لا يتغير من عقله شيء وليس العقل متغيراً بحال[2].

قال محمد بن المنكدر: بلغني أن الكافر تسلّط عليه دابة في قبره عمياء صماء في يدها سوط من حديد في رأسها مثل عرف الخيل تضربه إلى يوم القيامة لا تراه فتبقيه ولا تسمع صوته فترحمه، قال سفيان: تحاجج الأعمال الصالحة عنه كما يحاجّ الرّجل عن أخيه وأهله وولده ثم يقال له: بارك الله لك في مضجعك، فنعم الأخلاء أخلاّؤك ونعم الأصحاب أصحابك[3]، وعن حذيفة قال: «كنا مع رسول الله ﷺ في جنازة فجلس على رأس القبر ثمّ جعل ينظر فيه، ثمّ قال يضغط المؤمن في هذا ضغطة تردى منها حمائله[4]، وقالت عائشة رضي الله عنها: إنّ للقبر ضغطة لو سلم أو نجا منها أحد لنجا منها سعد بن معاذ[5].

وعن أنس بن مالك قال: توفيت زينب بنت رسول الله وكانت امرأة مستقامة فتبعها رسول الله ﷺ فساءنا حاله، فلمّا انتهينا إلى القبر فدخله التمع وجهه صفرة فلمّا خرج أسفر وجهه فقلنا: يا رسول الله رأينا منك شيئاً ساءنا فممّ ذلك؟، قال: ذكرت ضغطة القبر لبنتي وشدة عذاب القبر فأتيت فأُخبرت أنّ الله تعالى قد خفّف عنها ولقد ضغطت ضغطة سمعها من بين الخافقين غير الجنّ والإنس[6].

وقال أبو هريرة: إذا وضع الميت في لحده جاءت أعماله الصّالحة فاحتوشته فإن أتاه من قبل رأسه جاءت قراءة القرآن وإن جاء من قبل رجليه جاءت الصلاة والصّوم وتناجيه فتقول: أمّا إني لو رأيت خللاً لكنت أنا صاحبة حمىً من أجل قيامه، وإن أتاه

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب القبور مرسلاً عن عطاء بن يسار ورجاله ثقات وقال البيهقي في الاعتقاد ورويناه من وجه عن عطاء بن يسار مرسلاً. وقال العراقي ووصله ابن بُطة في الإبانة من حديث ابن عباس. ورواه البيهقي أيضاً في الاعتقاد من حديث عمر وقال غريب بهذا الإسناد تفرد به مفضل ولأحمد وابن حبان من حديث عبدالله بن عمر. أنظر تخريج الإحياء ٤/٦٢٤.

(٢) أنظر الإحياء ٤/٦٢٤.

(٣) الإحياء ٤/٦٢٥.

(٤) رواه أحمد في المسند بسند ضعيف. تخريج الإحياء ٤/٦٢٥.

(٥) رواه أحمد في المسند بسند جيد.

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من رواية سليمان الأعمش عن أنس ولم يسمع منه. تخريج الإحياء ٤/٦٢٥.

من قبل يديه قالت اليدان: والله لقد كان يبسطهما للصّدقة والدّعاء لا سبيل لكم عليه، وإن جاءه من قبل فيه جاء ذكره وصيامه، وقد نجز غرضنا من هذه المقالة التي جعلناها حاصرة لأحوال الميّت من موته إلى نفخة الصّور، ونشرع الآن في نفخة الصّور إلى آخر الإستقرار[1].

المقالة العاشرة

من علوم الكتاب وهو وآخر الديوان في ذكر أحوال الميت من وقت نفخة الصور إلى آخر الأمر في ذلك من الإستقرار في الجنة والنار وتفصيل ما بين يديه من الأهوال والأخطار

واعلم أن هذه المقالة مشتملة على شرح العظائم التي نحن مقابلوها وجملة ما نورده من ذلك يحصل في تنبيهات عشرة نوضّحها بمعونة الله.

---

(١) الإحياء.

الباب الأول

في بيان نفخة الصور

إعلم أنّا قد ذكرنا فيما سبق شدة أحوال الميّت في سكرات الموت ومشاهدة الملائكة ثم مقاساة ظلمة القبر وديدانه، ثم لمنكر ونكير وسؤالهما، ثم لعذاب القبر وخطره، وأعظم من ذلك الأخطار التي بين يديه من نفخ الصّور والبعث يوم النّشور والعرض على الجبّار والسؤال عن القليل والكثير ونصب الميزان ثم انتظار النداء عند فصل القضاء إما بالسعادة وإمّا بالشّقاوة، فهذه أهوال وأخطار لا بد لك من معرفتها ثم الإيمان بها على سبيل الجزم والتّصديق ثم تطويل الفكر فيها لتنبعث من قلبك دواعي الاستعداد وأكثر الخلق لم يدخل الإيمان باليوم الآخر صميم قلوبهم ولم يتمكن من سويداء قلوبهم، وإذا سئلوا عن اليوم الآخر نطقت به ألسنتهم ثم غفلت عنه قلوبهم، ومن شاهد عجائب الخلقة في النّطفة القذرة وتركيبها على هذا التركيب العجيب، وهكذا سائر المكونات لم يستبعد النّشأة الثانية فإنها مثل الأُولى وأسهل منها[1].

وإذا كنت قوياً في الإيمان فأشعر قلبك تلك المخاوف والأخطار وأكثر فيها الفكر والاعتبار وتفكّر أولاً فيما يفزع سكّان القبور من شدة نفخة الصور فإنها صيحة واحدة تنفرج بها القبور عن رؤوس الموتى فيثورون دفعة واحدة، فتوهم نفسك وقدوثبت متغيراً وجهك معفراً بدنك من قرنك إلى قدمك من تراب قبرك، مبهوتاً من شدة الصّعقة شاخص العين نحو النّداء، وقد ثار الخلق ثورة واحدة من القبور التي طال فيها بلاؤهم وقد أزعجهم الفزع والرعب مضافاً إلى ما كان عليهم من الهموم والغموم وشدة الإنتظار

---

(١) أنظر الإحياء ٤/٦٣٤.

لعاقبة الأمر كما قال تعالى: ﴿**ونفخ في الصّور فصعق من في السّموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون**﴾ (الزمر: ٦٨)، وقال تعالى: ﴿**فإذا نقر في الناقور فذلك يومئذ يوم عسير**﴾ (المدثر: ٨ - ٩)، ﴿**ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصِّمون إلى قوله - وصدق المرسلون**﴾ (يس: ٥٢)، فلو لم يكن بين يدي المؤمن إلا هول تلك النفخة لكان جديراً بأن يتّقي فإنها نفخة وصيحة يصعق بها من في السموات والأرض أي يموتون بها إلا من شاء الله وهو بعض الملائكة.

ولذلك قال الرسول ﷺ: «كيف أنعم وصاحب الصّور قدالتقم القرن وحنى الجبهة وأصغى بالأُذن متى يؤمر فينفخ[1]؟»، قال مقاتل: الصّور هو القرن وذلك أنّ إسرافيل واضع فاه على القرن كهيئة البوق ودائـرة رأس القرن كعرض السموات والأرض وهو شاخص ببصره نحو العرش فينظر متى يؤمر فينفخ النفخة الأولى، «فإذا نفخ صعق من في السموات والأرض أي مات كل حيوان من شدة الفزع إلا من شاء وهو جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت، ثمّ يؤمر ملك الموت بقبض روح جبريل وميكائيل وإسرافيل، ثم يؤمر ملك الموت فيموت، ثم يبعث الخلائق بعد النفخة الأولى في البرزخ أربعين سنة، ثم يحيي الله إسرافيل فيؤمر أن ينفخ النفخة الثانية فذلك قوله: ﴿**ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون**﴾ (الزمر: ٦٨)، على أرجلهم فيمشون على أرجلهم إلى البعث»[2].

وقد قال ﷺ: «حين بعث إليّ بعث إلى صاحب الصّور فأهوى به إلى فيه وقدّم رجلاً وأخر أُخرى ينظر متى يؤمر بالنفخ، ألا فاتقوا النفخ»[3]، فتفكر في الخلائق وذلهم وانكسارهم واستكانتهم عند انبعاثهم خوفاً من هذه الصعقة وانتظاراً لما يقضى عليهم من سعادة أو شقاوة، وأنت يا مسكين فيما بينهم منكسر مثل انكسارهم متحير مثل تحيرهم، بل إن كنت في الدنيا من الأغنياء المترفهين والمتنعمين فملوك الأرض في ذلك اليوم هم أذلّ أهل الجمع وأصغرهم وأحقرهم يوطأون بالأقدام مثل الذر، وعند ذلك تقبل الوحوش

---

(١) أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري وحسنه. ورواه ابن ماجه بنحوه وفي إسناد ابن ماجه الحجاج بن أرطأة مختلف فيه. أنظر تخريج الإحياء ٤/٦٣٦.

(٢) الإحياء ٤/٦٣٦.

(٣) قال العراقي في تخريج الإحياء ٤/٦٣٦ لم أجده هكذا وروى البخاري في التاريخ وأبو الشيخ في كتاب العظمة من حديث أبي هريرة نحوه وقال البخاري لم يصح وذكر العراقي رواية أخرى عند أبي الشيخ وقال إسنادها جيد.

من البراري والجبال منكسة رؤوسها مختلطة بالخلائق بعد توحشها ذليلة ليوم النّشور من غير خطيئة تدنست بها ولكن حشرهم شدّة الصعقة وهي النفخة وشغلهم عن الهرب من الخلق والتوحش عنهم وذلك قوله تعالى : ﴿ **وإذا الوحوش حشرت** ﴾ (التكوير : ٥) .

ثم أقبلت الشياطين المردة بعد تمرّدها وعتوها وأذعنت خاشعة من هيبة العرض على الله تعالى تصديقاً لقوله تعالى : ﴿ **فو ربّك لنحشرنّهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيّاً** ﴾ (مريم : ٦٨) ، فتفكر في حالك وحال قلبك مما يلحقه من الطيش والفشل والإزعاج .

الباب الثاني

في بيان صفة أرض المحشر وأهله

ثم انظر كيف يساقون بعد البعث والنشور وهم حفاة عراة إلى أرض المحشر أرض بيضاء قاع صفصف لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، ولا يرى فيه الإنسان ربوة يختفي وراءها، ولا وهدة ينخفض عن الأعين بل هو صعيد واحد بسيط لا تفاوت فيه يساقون إليه زمراً، فسبحان من جمع الخلائق على اختلاف أصنافهم من أقطار الأرضين إذ ساقهم بالراجفة تتبعها الرادفة، والراجفة هي النفخة الأولى والرادفة هي الثانية، ويحق لتلك القلوب أن تكون يومئذ واجفة ولتلك الأبصار أن تكون خاشعة، قال الرسول ﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة نقي»[1]، وقال الرّاوي: ليس فيها معلم لأحد والعفرة بياض ليس بالنّاصع، والنّقي هو الخالص من القشر والنخالة فلا بناء يستر ولا تفاوت يرد البصر، والسموات ذهب شمسها وقمرها ونجومها، فانظر يا مسكين في هول ذلك اليوم وشدته فإذا اجتمع الخلائق على هذا الصّعيد تناثرت فوقهم نجوم السّماء وانطمست الشمس والقمر وأظلمت الأرض لخمود سراجها[2].

فبينما أنت كذلك إذ نزلت السماء من فوق رؤوسهم وانشقّت مع غلظها وشدتها وغلظها خمسمائة عام، والملائكة على حافتها وأرجائها، ثم تنهار وتسيل كالفضة المذابة يخالطها صفرة، فصارت وردة كالدهان، وصارت السماء كالمهل، وصارت الجبال كالعهن واشتبك الناس كالفراش المبثوث وهم عراة حفاة غرلاً، فقالت سودة:

---

(١) متفق عليه من حديث سهل بن سعد تخريج الإحياء ٤/٦٣٧.

(٢) الإحياء ٤/٦٣٧.

واسوأتاه ينظر بعضنا إلى بعض، فقال: شغل الناس عن ذلك، ﴿**لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه**﴾ (عبس: ٣٧).

قال أبو هريرة: قال الرسول ﷺ: «**يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف ركباناً ومشاة وعلى وجوههم فقال رجل: يا رسول الله وكيف يمشون على وجوههم؟، فقال: الذي قدر على إمشائهم على أرجلهم قادر على أن يمشّيهم على وجوههم**»[١]، وفي طبع الآدمي إنكار كل ما لم يأنس به، ولو لم يشاهد الإنسان الحية لأنكر مشيها على بطنها كالبرق الخاطف، والمشي بالرجل مستبعد عند من لم يشاهد ذلك، فإياك أن تنكر شيئاً من عجائب يوم القيامة وأهواله لمخالفته لقياس الدنيا فأحضر في قلبك صورتك وأنت واقف عارياً مكشوفاً ذليلاً مدحوراً متحيراً مبهوتاً منتظراً لما يجري عليك من الأهوال ويحرق قرطاس سمعك ممّا ترى من تغّير الأحوال، وأعظم ما يجري عليك هو سماع النّداء والقضاء بالسعادة والشّقاوة فأعظم بهذه الحالة فإنها لعظيمة، واستعد لنزولها فإنها منا لقريبة[٢] والله أعلم بالصواب.

---

(١) رواه الترمذ وحسنه وفي الصحيحين من حديث أنس نحوه. تخريج الإحياء ٤/٦٣٨.

(٢) الإحياء ٤/٦٣٨.

الباب الثالث

في بيان صفة العرق يوم القيامة

ثم يفكر في نفسه عند ازدحام الخلائق واجتماعهم الذين حصلوا في الموقف وازدحموا عليه أهل السموات السبع والأرضين السّبع من ملك ووحش وإنس وشيطان وهوام وسبع وطائر فأشرقت عليهم الشمس وقد تضاعف حرها وتبدلت عمّا كانت عليه من خفّة أمرها، ثم أُدنيت من رؤوس العالمين قاب قوسين فلم يبق على الأرض ظلّ إلا ظلّ العرش ولا يستظل به إلا المقربون فمن بين مستظلّ بالعرش ومضحّى بحر الشمس قد صهرته بحرّها واشتد كربه وغمّه من وهجها ثم تزاحمت الخلائق ودفع بعضهم بعضاً لشدة الزحام واختلاف الأقدام وانضاف إلى ذلك شدّة الخجل والحياء من الإفتضاح والخزي عند العرض على جبار الأرض والسماء فاجتمع وهج الشمس وحرّ الأنفاس واحتراق القلوب بنار الحياء والخوف ففاض العرق من أصل كل شعرة حتى سال ذلك على صعيد القيامة ثم ارتفع إلى أبدانهم على قدر منازلهم عند الله فبعضهم بلغ العرق ركبتيه وبعضهم حقويه وبعضهم إلى شحمة أُذنيه وبعضهم كاد يغيب فيه، وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين باعاً ويلجمهم ويبلغ آذانهم»[1] هكذا رواه البخاري في صحيحه.

قال عقبة بن عامر: قال رسول الله ﷺ: «تدنو الشمس من الأرض يوم القيامة فيعرق الناس، فمن الناس من يبلغ عرقه عقبيه ومنهم من يبلغ نصف ساقه ومنهم من يبلغ فخذيه ومنهم من يبلغ خاصرته ومنهم من يبلغ فاه وأشار بيده فألجمها ومنهم من يغطيه

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة. تخريج الإحياء ٤/٦٣٨.

عرقه وضرب بيده على رأسه هكذا»[1]، فتأمل يا مسكين في عرق أهل المحشر وشدة كربهم، وأن فيهم من ينادي ويقول: رب أرحني من هذا الكرب والانتظار ولو إلى النار، وكل ذلك ولم يلقوا حساباً ولا عقاباً فإنك واحد منهم ولا تدري أين يبلغك العرق[2].

واعلم أنّ كل عَرَق لم يخرجه التّعب في سبيل الله تعالى وحج وجهاد وصيام وقيام وتردّد في قضاء حاجة مسلم وتحمّل مشقة في أمر بمعروف أو نهي عن منكر فيخرجه الحياء والخوف في صعيد القيامة ويطول فيه الكرب وتعظم فيه الأحزان، فنسأل الله النجاة من عظائم أهواله والفوز بجواره وكريم أفضاله[3].

---

(١) رواه أحمد في المسند وفيه ابن لهيعة وهو ضعيف. تخريج الإحياء ٤/٦٣٩.

(٢) الإحياء ٤/٦٣٩.

(٣) نفس المصدر.

الباب الرابع

في بيان حال يوم القيامة

إعلم أن هذا اليوم قد عظم الله شأنه وأوضح على ألسنة الرسل علامته وبرهانه فلنذكر صفة طوله وما يجري فيه من الدواهي، فهذان مقامان نوضّحهما بمعونة الله تعالى.

المقام الأول
في بيان صفة طوله

فقد قيل: إن الخلائق يقفون شاخصة أبصارهم منفطرة قلوبهم لا يُكلّمون ولا يُنظر في أمرهم ثلثمائة عام لا يأكلون فيه أكلة ولا يشربون فيه شربة، ولا يتصل بوجوههم ريح نسيم، قال كعب وقتادة في تفسير قوله عزّ وجل: ﴿**يوم يقوم النّاس لربّ العالمين**﴾ (المطففين: ٦٠)، يقومون ثلثمائة عام[1]، وفي حديث آخر قال رسول الله ﷺ: «كيف بكم إذا جمعكم الله تعالى كما تجمع النبل في الكنانة خمسين ألف سنة لا ينظر إليكم»[2]، وقال الحسن: ما ظنّك بقوم أقاموا على أقدامهم خمسين ألف سنة لم يأكلوا فيها أكلة ولم يشربوا فيها شربة حتى انقطعت أعناقهم عطشاً واحترقت أجوافهم جوعاً ثم يؤمر بهم إلى النار فسُقوا من عين آنية قد آن حرّها واشتد نفخها.

---

(١) أنظر الإحياء ٤/٦٣٩.

(٢) رواه الطبراني في الكبير من حديث عبدالله بن عمرو وفيه عبد الرحمن بن ميسرة ولم يذكر له ابن أبي حاتم راوياً غير ابن وهب، ولهم عبد الرحمن بن ميسرة الحضرمي أربعةٌ، هذا أحدهم مصري والثلاثة شاميون. تخريج الإحياء للعراقي ٤/٦٣٩.

فلما بلغ المجهود فيهم ما لا طاقة لهم به كلم بعضهم بعضاً في طلب من يكرم على مولاه فيشفع في حقهم فلم يتعلقوا بنبي إلا دفعهم وقال: دعوني نفسي نفسي شغلني أمري عن أمر غيري واعتذر كلّ وأحد منهم من شدة غضب الله تعالى وقالوا: قد غضب ربّنا اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله حتى يشفع[1] نبينا محمد ﷺ لمن يؤذن له فيه: ﴿يومئذ لا تنفع الشّفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً﴾ (طه: ١٠٩)، ﴿لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً﴾ (مريم: ٨٧)، واعلم أنّ كلّ من طال انتظاره في الدنيا للموت لشدة مقاساته للصبر عن الشهوات فإنه يقصر انتظاره في ذلك اليوم خاصة، قال رسول الله ﷺ: لمّا سئل عن طول ذلك اليوم والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أهون عليه من الصلاة المكتوبة يصليها في الدنيا[2].

فاجتهد أن تكون من أولئك المؤمنين فمهما بقي لك نفس من عمرك فالأمر إليك والاستعداد كلّه بيدك فاعمل في أيام قصار لأيام طوال تربح ربحاً لا منتهى لسروره واستحقر عمرك بل عمر الدنيا. لتتخلص من يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، فلو لم تعمل إلا لمكان الخلاص من ذلك اليوم دون رجاء الجنة والحذر من النار لكان ربحك كثيراً وتعبك يسيراً، فكيف ما ينضم إليه من الأهوال العظام والدواهي التي تُذهب العقول والأحلام[3].

المقام الثاني
في بيان ما يجري فيه من الحوادث الفاجعة

فاستعد يا مسكين لهذا اليوم العظيم شأنه، المديد وقته وزمانه، القاهر سلطانه، القريب أوانه، يومٌ السماءُ فيه انفطرت والجبال سيّرت والكواكب من هوله انتثرت والنجوم الزّواهر انكدرت والشمس فيه كوّرت والعشار عطلت والوحوش حشرت والبحار سجّرت والنفوس زوّجت والجحيم سعرت والجنة أُزلفت والجبال نسفت والأرض قد مدّت، يوم زلزلت فيه الأرض زلزالها وأخرجت فيه أثقالها وقال الإنسان:

---

(١) أنظر الإحياء ٤/ ٦٤٠.

(٢) أخرجه أبو يعلى والبيهقي في الشعب من حديث أبي سعيد الخدري وفيه ابن لهيعة وقد رواه ابن وهب عن عمرو بن الحارث بدل ابن لهيعة. قال العراقي في تخريج الإحياء ٤/ ٦٤٠ وهو حسن ولأبي يعلى من حديث أبي هريرة نحوه بإسناد جيد والبيهقي في الشعب.

(٣) الإحياء ٤/ ٦٤١.

ما لها يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم ، يوم حملت الأرض والجبال فدكّتا دكّة واحدة .

يوم وقعت فيه كل واقعة وانشقت السماء فهي يومئذ واهية والملك على أُرجائها ويحمل عرش ربّك فوقهم يومئذ ثمانية يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ، يوم تسير الجبال وترى الأرض بارزة يوم رجّت الأرض فيه رجاً وبُست الجبال فيه بساً فكانت هباء منبثاً ، يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش ، يوم تذهل كل مرضعة عمّا أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد .

يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار يوم تنسف الأرض نسفاً فتترك قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، يوم ترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مرّ السحاب ، يوم انشقت السماء فيه فكانت وردة كالدّهان فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان يوم يمتنع الفصيح فيه من الكلام ولا يسأل فيه عن الإجرام، بل يؤخذ فيه بالنواصي والأقدام .

يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، يوم تعلم فيه كل نفس ما أحضرت ، وتشهد ما قدّمت وأخرّت ، يوم تخرس فيه الألسنة وتنطق فيه الجوارح ، يوم شيّب ذكره سيد المرسلين إذ قال له الصديق : أراك قد شيّبت، فقال: شيّبتني هود والواقعة والمرسلات وعمّ يتساءلون وكوّرت[١] .

فيا أيها القارىء العاجز حظك من قراءتك أن تمجّ القرآن وتخضخض به اللسان ، ولو كنت متفكراً فيما تقرأه لكنت جديراً بأن تنشق مرارتك ممّا شاب منه شعر سيد المرسلين ، وإذا قنعت بحركة اللسان وقد حرمت ثمرة القرآن فالقيامة أحد ما ذكر الله فيه ، وقد وصف الله بعض دواهيها وأكثر من ذكر أساميها لتقف من أساميها على كثرة معانيها ، فليس المقصود من كثرة الأسامي معرفة الألقاب ، بل الغرض التنبيه لذوي العقول والألباب فتحت كل إسم من أسمائها أسرار ومصالح وفي كل نعت من نعوتها معانٍ وفواتح فاحرص على إدراك معانيها[٢] .

---

(١) أخرجه الترمذي وحسنه والحاكم وصححه تخريج الإحياء ٤ / ٦٤١ .

(٢) الإحياء

الباب الخامس

في بيان أسماء القيامة وألقابها

إعلم أن اختلاف الألقاب عليه وإسناد الأسماء الكثيرة إليه إنما كان من أجل ما يحصل فيه من الأهوال وما يشاهد فيه من تغيّر القلوب والأحوال وهي: يوم القيامة، يوم المسألة، يوم المسابقة، يوم المنافسة، يوم المناقشة، يوم الصّاعقة، يوم الرّاجفة، يوم الدّاهية، يوم الطامة، يوم الفراق، يوم التّناد، يوم العذاب، يوم اللّقاء، يوم الجزاء، يوم الحشر، يوم الوزن، يوم الفصل، يوم الفتح، يوم عقيم، يوم النّفخة، يوم الزلزلة، يوم الواقعة، يوم الرّادفة، يوم الآزفة، يوم الحسرة، يوم اليقين، يوم الصّاخة، يوم المساق، يوم الحساب، يوم الفرار، يوم البقاء، يوم البلى، يوم الوعد، يوم الحق، يوم عظيم، يوم الخزي، يوم عسير، يوم النّشور، يوم الصيحة، يوم الدمدمة، يوم القارعة، يوم الغاشية، يوم الحاقّة، يوم التّلاق، يوم القصاص، يوم المآب، يوم القضاء، يوم البكاء، يوم العرض، يوم الحكم، يوم البعث، يوم الندامة، يوم الجمع، يوم الدّين، يوم المصير، يوم الزّحفة، يوم الفزع، يوم المأوى، يوم المرصاد، يوم الإحتقار، يوم الإنشقاق، يوم الخلود، يوم عبوس، يوم مشهود، يوم الزّجرة، يوم الجزع، يوم الميقات، يوم القلق، يوم الإنكدار، يوم الوقوف، يوم الوعيد، يوم المحاسبة، يوم موعود، يوم معلوم، يوم لا ريب فيه، يوم السّكرة، يوم المنتهى، يوم الميعاد، يوم العرق، يوم الإفتقار، يوم الإنتشار، يوم الخروج، يوم التّغابن[1].

يوم تبلى السّرائر، يوم لا تجزي نفس عن نفس شيئاً، يوم تشخص فيه الأبصار، يوم

---

(1) الإحياء.

موعود، يوم لا يغني مولىً عن مولى شيئاً، يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً، يوم يدعُّون إلى نار جهنم دعّاً، يوم يسحبون في النار على وجوههم، يوم تقلّب وجوههم في النار، يوم لا يجزي والد عن ولده، يوم يفرّ المرء من أخيه، يوم لا ينطقون، يوم لا يؤذن لهم فيعتذرون، يوم لا مردّ له من الله، يوم هم بارزون، يوم هم على النار يفتنون، يوم لا ينفع مال ولا بنون(١).

يوم تبلى فيه السرائر، وتظهر فيه الضمائر، يوم كشفت فيه الأستار، يوم خشعت فيه الأبصار، يوم برزت فيه الخفيّات، يوم يظهر فيه الأشهاد، يوم توضع فيه الموازين، يوم يغلي فيهُ الحميم، يوم تسعّر فيه النيران، يوم تنطق فيه الجوارح، يوم تسكن فيه الأصوات، يوم تظهر فيه الخطيئات، يوم يشيب فيه الصغير، يوم تنشر فيه الدّواوين، يوم تزجر فيه النار، يوم تتغير فيه الألوان، يوم تكشف فيه الأستار، يوم يقلّ فيه الإلتفات، يوم يساق فيه العباد، يوم يسكر فيه الكبير، يوم تبرز فيه الجحيم، يوم ييأس فيه الكفّار، يوم تخرس فيه اللّسان.

يوم الجحيم، يوم التقلّب تتقلّب وجوههم في النار، يوم الغضب، يوم السّخط، يوم الكلام، يوم الملامة، يوم الشدائد، يوم تسير فيه الجبال(٢).

فيا أيها الإنسان ماغرّك بربّك الكريم؟حيث أغلقت الأبواب وأُرخيت السّتور واستترت عن الخلائق ولابست الفجور،فماذا تفعل وقد شهدت عليك جوارحك؟،فالويل كلّ الويل لنا يا معشر الغافلين يرسل الله إلينا سيد المرسلين وينزّل علينا الكتاب المبين ويخبرنا بهذه الصفحات وبقرب يوم الدّين ثم يعرفنا غفلتنا ويقول: **﴿اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون﴾** (الأنبياء: ١)، ثم يعرِّفنا قرب يوم الدين بقوله: **﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾** (القمر: ١). **﴿إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً﴾** (المعارج: ٦)، **﴿وما يدريك لعلّ السّاعة قريب﴾** (الشورى: ١٧)، ثم يكون أحسن أحوالنا أن نتخذ دراسة القرآن عملاً فلا نتدبر معانيه ولا ننظر في كثرة أوصاف هذا اليوم وأساميه ولا نستعد للفرار من عظيم دواهيه، فنعوذ بالله من غفلة مستولية على القلوب ونستجير بالله من استحكام الزّلل وغلبة الذّنوب(٣).

---

(١) الإحياء

(٢) أنظر الإحياء ٤/٦٤١.

(٣) أنظر الإحياء ٤/٦٤١ - ٦٤٢.

الباب السادس

في بيان صفة النار وأهوالها وأنكالها

أيها الغافل عن نفسه المغرور بما هو فيه من شواغل الدنيا المشرفة على الانقضاء، دع الفكر فيما أنت مرتحل عنه واصرف فكرك إلى موردك فإنك أخبرت أن النار مورد الجميع حيث قال تعالى: ﴿ **وإن منكم إلا واردها** ﴾ (مريم: ٧١)، فأنت من الورود على يقين، فكيف حال الصّدور، وتأمل في حال الخلائق وقد قاسوا من دواهي القيامة ما قاسوا، فبينما هم في كروبها وأهوالها واقفين إذ أحاط بالمجرمين سوء أعمالهم[١]، ونحن الآن نشير إلى صفاتها على سبيل الجملة وعلى جهة التّفصيل، فهذان تقريران.

التقرير الأول
في ذكر صفاتها على جهة الإجمال

إعلم أنّ حال النار أعظم من أن يوصف وعذابها أكبر من أن يكيّف فبينما أهل الإجرام والآثام في المحشر على ما أصابهم من تلك النّكالات إذ غشيتهم ظلمات ذات شعب وأظلت عليهم نار ذات لهب وسمعوا لها زفيراً وجرجرة تفصح عن شدة الغيظ والغضب فأيقن المجرمون عند ذلك بالعطب وجثت الأُمم على الركب حتى أشفق البرءاء من سوء المنقلب وخرج المنادي من الزّبانية قائلاً: أين فلان ابن فلانة المسّوف نفسه في الدنيا بطول الأمل المضيّع عمره في سوء العمل؟ فيبادرونه بمقامع من حديد ويستقبلونه بعظائم التهديد ويسوقونه إلى العذاب الشديد ويردونه في قعر جهنم ويقولون: ذق إنك

---

(١) الإحياء ٤/٦٥٨.

أنت العزيز الكريم فأُسكنوا داراً ضيّقة الأرجاء مظلمة المسالك مبهمة المهالك يخلد فيها الأسير ويؤبد في السّعير، فشرابهم فيها الحميم ومستقرهم الجحيم الزّبانية تقمعهم والويل يجمعهم، أمانيهم فيها الهلاك وما لهم عنها فكاك قد شدّت أقدامهم إلى النّواصي واسودّت وجوههم من ظلمة المعاصي[1].

ينادون من أكنافها ويصيحون من أطرافها، يا مالك قد حق بنا الوعيد، يا مالك قد أثقلنا الحديد، يا مالك قد نضجت منّا الجلود، يا مالك أخرجنا منها فإنّا لا نعود، فتقول الزّبانية: هيهات هيهات لات حين أمان ولا خروج لكم من دار الهوان فاخسئوا فيها ولا تكلّمون لو أُخرجتم لكنتم إلى ما نهيتم عنه عائدين[2].

فعند ذلك يندمون وعلى ما فرّطوا في جنب الله يتأسفون، فلا ينجيهم الندم ولا يغنيهم الأسف بل يكبون في النار على وجوههم مغلولين، النار من فوقهم، والنار من تحتهم، والنار عن أيمانهم، والنار عن شمائلهم، فهم غرقى في النار، طعامهم نار وشرابهم نار، ولباسهم نار، ومهادهم نار، فهم بين مقاطعات النيران وسرابيل القطران وضرب المقامع وثقل السّلاسل، فهم يتجلجلون في مضايقها ويتحطمون في دركاتها، ويضطربون بين غواشيها، تغلى بهم النار كغلي القدور، ويهتفون بالويل والعويل، ومهما دعوا بالثبور صب من فوق رؤوسهم الحميم يصهر ما في بطونهم والجلود، تهشم بالمقامع هاماتهم فيتفجر الصّديد من أفواههم وتنقطع من العطش أكبادهم وتسيل على الخدود أحداقهم، وتسقط من الوجنات لحومها وتنمعط من الأطراف شعورها بل جلودها وكلّما نضجت جلودهم بدّلوا جلوداً غيرها وَعري من اللحم عظامهم، فبقيت الأرواح منوطة بالعروق وعلائق العصب، وهم مع ذلك يتمنون الموت فلا يموتون.

فكيف بك لو نظرت إليهم وقد اسودّت وجوههم أشد سواداً من الحميم، وأُعميت أبصارهم وأبكمت أَلسنتهم وقصمت ظهورهم وكسرت عظامهم، وجدعت آذانهم، ومزّقت جلودهم، وغلت أَيديهم إلى أَعناقهم وجمعت بين نواصيهم وأَقدامهم وهم يمشون في النار على وجوههم ويطأون حسك الحديد بأَحداقهم، فلهب النّار سارٍ في بواطن أَحداقهم وحيّات الهاوية وعقاربها متشبثّة بظواهر أَعضائهم، فهذه جملة أَحوالهم على جهة الإِجمال فيما يتّصل بهم من النّكال.[3].

---

(١) الإحياء ٤/٦٥٨.

(٢) الإحياء ٤/٦٥٩.

(٣) الإحياء ٤/٦٥٩ - ٦٦٠.

التقرير الثاني
في بيان ذكر صفاتهم على جهة التفصيل

وتفاصيل النّكالات الحاصلة إليهم لا يعلم كنهها إلا الله تعالى لكنّا نشير منها إلى أنواع عشرة:

النوع الأول: أمكنة النار فهي درجات بعضها فوق بعض، فالأعلى جهنّم، ثم سقر، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السّعير، ثم الجحيم، ثم الهاوية. قال الرسول ﷺ: «إن في جهنم سبعين ألف وادٍ، وفي كلّ وادٍ سبعون ألف شعب، في كل شعب سبعون ألف ثعبان وسبعون ألف عقرب ولا ينتهي المنافق والكافر حتى يواقع ذلك كلِه»[1]، وقال ﷺ: «تعوذوا بالله من جبّ الحزن، قيل: يا رسول الله وما جبّ الحزن؟ قال: وادٍ في جهنم تتعوذ منه جهنم في كل يوم سبعين مرّة أعدّه الله للقراء المرائين[2].

النوع الثاني: طعامهم وهو الزّقوم قال الرسول ﷺ: «لو أن شيئاً من الزّقوم أخرج إلى الدنيا لأفسد على أهل الدنيا معاشهم»[3]، وقال تعالى: ﴿**ليس لهم طعام إلا من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع**﴾ (الغاشية: ٦، ٧)، وقال تعالى: ﴿**وطعاماً ذا غصّة**﴾ (المزمل: ١٣).

النّوع الثالث: شرابهم وهو الغساق وهو الصّديد الذي يسيل من أبدانهم، قال الرّسول ﷺ: «لو أنّ دلواً من غساق أهل جهنم أُلقي في الدّنيا لأنتن أهل الأَرض»[4]، والصّديد في قوله تعالى: ﴿**ويسقى من ماءٍ صديد**﴾ (إبراهيم: ١٦) والمهل في قوله تعالى: ﴿**وإن يستغيثوا يغاثوا بماءٍ كالمهل يشوي الوجوه بئس الشّراب**﴾ (الكهف: ٢٩).

النوع الرابع: الجوع قال الرسول ﷺ: «يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل

---

(١) قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ٤/ ٦٥٩ لم أجده هكذا. بجملته.

(٢) أخرجه ابن عدي في الكامل بلفظ وادي الحزن، وقال باطل وأخرجه أبو نعيم الأصبهاني بسند ضعيف. ورواه الترمذي وقال غريب من حديث علي. ورواه ابن ماجه من حديث أبي هريرة بنحو لفظ المصنف ابن عدي. تخريج الإحياء ٤/ ٦٥٩.

(٣) أخرجه الترمذي وقال حسن صحيح، وابن ماجه من حديث ابن عباس تخريج الإحياء ٤/ ٦٦١.

(٤) أخرجه الترمذي وقال إنما نعرفه من حديث رشدين بن سعد وفيه ضعيف. تخريج الإحياء ٤/ ٦٦٠.

ما هم فيه من العذاب فيستغيثون بالشراب والطعام»[1] فأما الطعام فيرفع إليهم الزقوم بكلاليب من نار حديد، فإذا دنا من وجوههم شوى وجوههم ، فإذا دخل بطونهم قطع أمعاءهم كماحكى الله تعالى: ﴿ **فقطع أمعائهم** ﴾ (محمد: ١٥)، وأما الشراب فهو الحميم كما قال تعالى: ﴿ **فشاربون عليه من الحميم** ﴾ (الواقعة: ٥٤).

النوع الخامس: حيّات النار وعقاربها، قال الرسول ﷺ: «**إن في النار لَحيّات مثل أعناق البُخت يلسعن اللسعة الواحدة فيجد حموتها أربعين خريفاً**»[2].

النوع السادس: تعظم أجسادهم فإن الله تعالى يزيد في أجسادهم طولاً وعرضاً حتى يعظم عقابها بلسع العقارب والحيّات ولفح النار، قال الرسول ﷺ: «**ضرس الكافر في النار مثل أُحد وغلظ جسده مسيرة ثلاث**»[3].

النوع السابع: البكاء والشهيق والعويل الذي لا ينفع، قال الرسول ﷺ: «يرسل على أهل النار البكاء، حتى تنقطع الدموع، ثم يبكون الدم حتى يجري في وجوههم كهيئة الأخاديد حتى لو أُرسلت فيه السّفن لجرت»[4] وما دام يؤذن لهم في البكاء والعويل والشّهيق والزّفير والدعاء بالويل والثبور فلهم فيه مستروح ولكنهم يمنعون من ذلك[5].

النوع الثامن: الحسرة العظيمة بفوات الجنة ونعيمها، قال الرسول ﷺ: «يؤتى يوم القيامة بناس من أهل النار إلى الجنة حتى إذا دنوا منها واستنشقوا ريحها ونظروا إلى قصورها وإلى ما أعدّ الله لأهلها فيها فتصرف وجوههم عنها فيرجعون بحسرة ما رجع الأولون بمثلها»[6].

النوع التاسع: القيود في أرجلهم والسّلاسل في أعناقهم والأغلال يسحبون في النار على وجوههم، قال الله تعالى: ﴿ **مقرنين في الأصفاد** ﴾ (إبراهيم: ٤٩)، وقال: ﴿ **إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون** ﴾ (فاطر: ٧١).

---

(١) أخرجه الترمذي من رواية سمرة بن عطية عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قال العراقي في تخريج الإحياء ٤/٦٦١ نقلاً عن الدارمي إنه من قول أبي الدرداء.

(٢) أخرجه أحمد في المسند من رواية ابن لهيعة عن عبدالله بن الحارث بن جزء. الإحياء ٤/٦٦٢.

(٣) رواه مسلم من حديث أبي هريرة.

(٤) رواه ابن ماجه من حديث أنس وفيه يزيد الرقاشي عن أنس وهو ضعيف. تخريج الإحياء ٤/٦٦٣.

(٥) الإحياء ٤/٦٦٣.

(٦) قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ٤/٦٦٤، رويناه في الأربعين لأبي هدبة عن أنس وأبو هدبة إبراهيم بن هدبة مالك.

النوع العاشر: اللباس قال الله تعالى: ﴿ **سرابيلهم من قطران** ﴾ (إبراهيم: ٥٠)، وإنما قال من قطران لأن النار إلى القطران أسرع ما يكون وأشد حرّاً.

فهذه أوصاف جهنم على الجملة وتفصيل غمومها وأحزانها ومحنها وحسراتها لا نهاية لها، وقد قال ﷺ: «يؤتى يوم القيامة بكبش أملح فيذبح بين النار والجنة، ثم يقال: يا أهل النار خلود ولا موت ويا أهل الجنة خلود ولا موت»[1]، وقال مالك بن أنس في قوله تعالى: ﴿ **سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص** ﴾ إبراهيم: ٢١).

فانظر أيها الغافل المسكين في هذه الأهوال واعلم أن النار خلقها الله تعالى بأهوالها وخلق لها أهلاً لا يزيد ولا ينقص وأن هذا أمر قد قضي وفرغ منه، فانظر إلى أحوالك وأعمالك فإن كلًّا ميسّر لما خلق له، فإن كان قد يسّر لك سبيل الخير فأبشر بالسعادة الأبدية والبعد من النار وإن كنت لا تقصد خيراً إلا وتحيط بك العوائق فتدفعه عنك ولا تقصد شراً إلا وتيسر لك فاعلم أنك آيل إلى الخسارة، فنسأل الله تعالى الصّدق في حقه والعمل الخالص لوجهه وقرباناً من رضوانه وبعداً من عقابه[2].

---

(١) أخرجه البخاري من حديث أبي سعيد. تخريج الإحياء ٤/٦٦٣.

(٢) الإحياء ٤/٦٦٣.

الباب السابع

في ذكر صفة أهل الجنة ونعيمها

إعلم أن هذه الدار التي قد عرفت غمومها وشرورها تقابلها دار أخرى فتأمل نعيمها وسرورها، فإن من بعد من أحدهما استقر لا محالة في الأخرى فاستثر الخوف في قلبك بطول الفكر في الجحيم واستبن الرجاء بطول الرجاء للنعيم المقيم لأهل الجنان، وسق نفسك بسوط الخوف وزمام الرّجاء إلى الصراط المستقيم فيه تنال الملك العظيم وتسلم برحمة الله من العذاب الأليم، ونحن الآن نشير إلى نعيم أهل الجنة تارة على جهة الإجمال وتارة على جهة التفصيل، فهذان مقامان[1].

المقام الأول
من جهة الإجمال

من جهة الإجمال.

فأعمل فكرك في أهل الجنة فتجدهم كما حكى الله: ﴿**تعرف في وجوههم نضرة النعيم يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك**﴾ (المطففين: ٢٤ ـ ٢٦)، جالسين على منابر من الياقوت الأحمر في خيام من اللؤلؤ الرطب الأبيض فيها بسط من العبقري الأخضر، ومتكئين على أرائك منصوبة على أطراف الأنهار المطردة بالخمر والعسل محفوفة بالغلمان والولدان، مزّينة بالحور العين من الخيرات الحسان، إذا اختالت إحداهن في مشيها حمل اعطافها سبعون ألفاً من الولدان عليها من طرائف الحرير الأبيض ما تتحير فيه

(١) الإحياء ٤/٦٦٤ ـ ٦٦٥.

الأبصار مكللات بالتيجان المرصعة باللؤلؤ والمرجان شكِلات غنجات عطرات آمنات من الهرم والبؤس، مقصورات في قصورهن من الياقوت الأحمر بنيت في وسط روضات الجنان قاصرات الطرف عين كأنّهن بيض مكنون[1].

﴿ **ويطوف عليهم ولدان مخلدون** ﴾ (الواقعة: ١٧)، ﴿ **كأمثال اللؤلؤ المكنون جزاءً بما كانوا يعملون** ﴾ (الواقعة: ٢٣، ٢٤)، ﴿ **في مقام أمين في جنّات وعيون** ﴾ (الدخان: ٥٢)، ﴿ **إن المتقين في مقام أمين، في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر** ﴾ (القمر: ٥٤، ٥٥)، ﴿ **إن المتقين في جنات ونهر ينظرون فيها إلى رحمة الملك الكريم وقد أشرقت في وجوههم نضرة النعيم، لا ترهق وجوههم قترة ولا ذلّة بل عباد مكرمون** ﴾ (القمر: ٥٤، ٥٥)، وبأنواع الترف والتحف يتعهدون، وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون، لا يخافون ولا يحزنون، وهم عن ريب المنون آمنون، فهم فيها يتنعمون، ويأكلون من أطعمتها ويشربون من أنهارها لبناً وخمراً وعسلاً، أرضها فضّة وحصباؤها مرجان وعلى أرض ترابها مسك أذفر ونباتها زعفران، ويمطرون من سحائب فيها من ماء النسرين على كثبان الكافور.

ويؤتون بأكواب وأي أكواب، أكواب من فضة مرصعة بالدر والياقوت والمرجان كوب فيه من الرّحيق المختوم، ممزوج بماء السلسبيل العذب وكوب يشرق نوره من ضياء جوهره يبدو الشّراب من ورائها لرقته وحمرته، لم يصغه آدميّ فيقصّر في تسوية صنعته وتحسين صناعته، في كفّ خادم يحكي ضياء وجه الشمس في إشراقها، ولكن أين الشمس من حلاوة صورته وحسن أصداغه وملاحة أحداقه.

فيا عجباً لمن يؤمن بهذه الدار التي وصفناها ويوقن أنه لا يموت أهلها ولا تحل الفجائع فيها ثم ينزل بفنائها ولا ينظر الأحداث بعين التغيير إلى أهلها كيف يأنس بدار قد أذن الله بخرابها ويهنأ بعيش دونها، والله لو لم يكن فيها إلا سلامة الأبدان مع الأمن من الخوف والجوع والعطش وسائر أصناف الحدثان، لكان جديراً بأن يهجر الدنيا بسببها وألا يؤثر عليها دار التصرّم والتّنغيص من ضروبها، فكيف وأهلها ملوك آمنون وفي أنواع السّرور ممتعون لهم فيها فاكهة ولهم ما يدّعون في كل يوم بفناء العرش يحضرون وإلى رحمة الله وثوابه ينظرون، وهم على الدّوام بين أصناف هذه النعم يترددون ومن زوال النّعم آمنون، لا يمسّهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين[2].

---

(١) الإحياء ٦٧٧.

(٢) الإحياء ٤/٦٦٤.

قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «إذا صار أهل الجنة في الجنة نادى منادٍ أن لكم أن تصحّوا فلا تسقموا أبداً وأنّ لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً، وأنّ لكم أن تشبّوا فلا تهرموا أبداً، ونودوا[1] ﴿**أن تلكم الجنةأورثتموها بما كنتم تعلمون**﴾ (الأعراف: ٤٣)، فهذا بيان وصفها قد أشرنا إليه على جهة الإجمال والله أعلم.

المقام الثاني
في ذكر حالها على جهة التفصيل

فتأمل عدد الجنان فهي كثيرة جنّة الفردوس، وجنة المأوى، وجنّة **عدن**، وجنّة الخلد، وجنّة النّعيم، وفي قوله تعالى: ﴿**ولمن خاف مقام ربِّه جنّتان**﴾ (الرحمن: ٤٦)، جنتان من فضّة آنيتهماً وما فيهما وجنّتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، ونحن الآن نشير إلى تفاصيل نعيمها ونشير إلى أصناف عشرة:

الصنف الأول: في صفة أبواب الجنة وهي كثيرة بحسب أصول الطاعات، فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريّان، ومن كان من أهل الصّدقة دعي من باب الصّدقة، ومن فعل هذه الطاعات كلها دعي منها كلها وهي ثمانية، وأبواب الجنة سبعة[2]:

الصنف الثاني: حيطانها وقد قال ﷺ: «إن حائط الجنة لبنة من ذهب ولبنة من فضة ترابها زعفران وطينها مسك»[3]، وسئل رسول الله ﷺ عن تربة الجنة، فقال: «درمكة بيضاء مسك خالص»[4] والله أعلم.

الصنف الثالث: أشجارها وأنهارها، قال رسول الله ﷺ: «أنهار الجنة تنفجر من تحت قلال أو من تحت جبال المسك»[5]، وقال أبو هريرة: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام، اقرؤا إن شئتم[6]: ﴿**وظلٌ ممدود**﴾ (الواقعة: ٣١)، وفي قوله تعالى: ﴿**وسدر مخضود**﴾ (الواقعة: ٢٨)، أي يخضد الله شوكها فيجعل مكان كل

---

(١) الحديث أخرجه مسلم عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري تخريج الإحياء ٤/٦٦٦.

(٢) الإحياء

(٣) رواه الترمذي من حديث أبي هريرة وقال ليس إسناده بذلك القوي وليس عندي بمتصل ورواه البزار من حديث أ سعيد بإسناد فيه مقال ورواه موقوفاً عليه بإسناد صحيح. أنظر تخريج الإحياء ٤/٦٦٨.

(٤) أخرجه مسلم من حديث أبي سعيد الخدري.

(٥) أخرجه العقيلي في الضعفاء من حديث أبي هريرة.

(٦) متفق عليه من حديث أبي هريرة.

شوكة ثمرة ثم انفتق الثمر عن اثنين وسبعين لوناً ما فيها لون يشبه الآخر.

الصنف الرابع: لباس أهل الجنة قال الله تعالى: ﴿**يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين**﴾ (الدخان: ٥٣)، وقال: ﴿**ولباسهم فيها حرير**﴾ (فاطر: ٣٣، والحج: ٢٣)، وقال: ﴿**متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان**﴾ (الرحمن: ٧٦)، وقال رجل: أخبرنا يا رسول الله عن ثياب أهل الجنة أخلق تخلق أم نسيج تنسج، فسكت رسول الله ﷺ وضحك بعض القوم، فقال رسول الله ﷺ: مم تضحكون؟ من جاهل يسأل علماً، ثم قال رسول الله ﷺ: «بل ينشق من ثمرة الجنة من بين أكمامها وينفتح عنها»[١].

الصنف الخامس: حليه أهل الجنة قال الله تعالى: ﴿**يحلّون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً**﴾ (فاطر: ٣٣)، وقال الرسول ﷺ: «إن عليهم التيجان إن أدنى لؤلؤة تضيء ما بين المشرق والمغرب»[٢]، وقال ﷺ: «من يدخل الجنة ينعم ولا يبأس ولا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه، وفي الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»[٣].

الصنف السادس: فرشهم وسررهم وأرائكهم وخيامهم قال الله تعالى: ﴿**متكئين عليها متقابلين**﴾ (الواقعة: ١٦)، وقال تعالى: ﴿**فيها سرر مرفوعة**﴾ (الغاشية: ١٣)، وقال تعالى: ﴿**متكئين على فرش بطائنها من إستبرق وجني الجنّتين دان**﴾ (الرحمن: ٥٤)، وقال ﷺ: «ما بين الفرشين كما بين السماء والأرض»[٤]، وقال تعالى: ﴿**متكئين فيها على الأرائك**﴾ (الإنسان: ١٣)، وقال تعالى: ﴿**حور مقصورات في الخيام**﴾ (الرحمن: ٧٢)، قال ابن عباس: الخيمة درّة مجوفة فرسخ في فرسخ لها أربعة آلاف مصراع من ذهب، وفي حديث آخر: «الخيمة درّة مجوفة طولها في السماء ستون ميلاً، وفي كل زاوية للمؤمن أهل لا يرون الآخرين»[٥].

---

(١) أخرجه النسائي من حديث عبدالله بن عمرو تخريج الإحياء ٤/٦٦٩.

(٢) أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري وقال لا نعرفه إلا من حديث رشدين بن سعد. تخريج الإحياء ٤/٦٦٩.

(٣) رواه مسلم من حديث أبي هريرة واتفقا عليه من حديث آخر لأبي هريرة تخريج الإحياء ٤/٦٦٩.

(٤) أخرجه الترمذي بنحوه من حديث أبي سعيد الخدري وقال لا نعرفه إلا من حديث رشدين بن سعد. تخريج الإحياء ٤/٦٧٠.

(٥) متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري. تخريج الإحياء ٤/٦٧٠.

الصنف السابع : طعام أهل الجنة ، قد ذكره الله تعالى في كتابه الكريم كقوله تعالى : ﴿ **يدعون فيها بكل فاكهة** ﴾ (الدخان : ٥٥) ، وقال تعالى : ﴿ **ولحم طير مما يشتهون** ﴾ (الواقعة : ٢١) ، وقال تعالى : ﴿ **وأُتوا به متشابهاً** ﴾ (البقرة : ٢٥) ، وقال الرسول ﷺ : «تحفة أهل الجنة عند دخولهم الجنة زائدة كبد الحوت وغذاؤهم ثور الجنة الذي كان يأكل من أطرافها»[١] ، وقال الرسول ﷺ : «إن الرجل من أهل الجنة لينظر إلى الطير في الجنة فيشتهيه فيخرّ بين يديه مشوياً ، وما يأكلونه من الطعام فإنه يكون عرقاً يفيض من جلودهم مثل المسك»[٢] ،وقال الرسول ﷺ : «إن في الجنة طيراً أمثال البخاتي ، فقال : أبو بكر : إنها لناعمة ، فقال ﷺ : «آكلها أنعم منها وأنت ممن يأكلها يا أبا بكر»[٣] ، وقال عبدالله بن عمر في قوله تعالى : ﴿ **يطاف عليهم بصحاف من ذهب** ﴾ (الزخرف : ٧١) ، قال يطاف عليهم بسبعين صحيفة من ذهب كل صحيفة فيها لون غير الآخر [٤] . .

الصنف الثامن : شرابهم ، وهو كما قال الله تعالى : ﴿ **فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفّى** ﴾ (محمد : ١٥) ، وقال تعالى : ﴿ **يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب** ﴾ (ص : ٥١) ، وقال تعالى : ﴿ **يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك** ﴾ (المطففين : ٢٥ ، ٢٦) ، وقال تعالى : ﴿ **ومزاجه من تسنيم** ﴾ (المطففين : ٢٧) ، وقال تعالى : ﴿ **ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً عيناً فيها تسمى سلسبيلاً** ﴾ (الإنسان : ١٧ ، ١٨) ، وقال تعالى : ﴿ **إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً** ﴾ (الإنسان : ٥) ، وقال أبو الدرداء : في قوله تعالى : ﴿ **ختامه مسك** ﴾ (المطففين : ٢٦) ، قال : هو شراب أبيض مثل الفضة يختمون به آخر شرابهم لو أن رجلاً من أهل الدنيا أدخل يده فيه ثم أخرجها لم يبق ذو روح إلا وجد ريح طيبها[٥] .

الصنف التاسع : صفة الحور العين والولدان وهم كما حكى الله تعالى : ﴿ **حور**

---

(١) رواه مسلم من حديث ثوبان . تخريج الإحياء ٤/ ٦٧٠ .

(٢) أخرجه البزار بسند فيه ضعف من حديث ابن مسعود تخريج الإحياء ٤/ ٦٧١ .

(٣) أخرجه الترمذي من حديث أنس وحسنه والقائل هو عمر تخريج الإحياء ٤/ ٦٧١ . ولأحمد من حديث أنس نحوه بإسناد صحيح وحسنه الترمذي .

(٤) الإحياء ٤/ ٦٧١ .

(٥) الإحياء ٤/ ٦٧١ .

مقصورات في الخيام﴾ (الرحمن: ١٦)، وقال تعالى: ﴿**كأنهن الياقوت والمرجان**﴾ (الرحمن: ٥٨)، وقال تعالى: ﴿**وعندهم قاصرات الطرف عين**﴾ (الصافات: ٤٨)، وقال الرسول ﷺ: «لو أن امرأة من أهل الجنة اطلعت على الأرض لأضاءت وملأت ما بينهما ريحاً ولبصقتها خير من الدنيا وما فيها»[١]، وقال ﷺ في قوله: ﴿**كأنّهن الياقوت والمرجان**﴾ (الرحمن: ٥٨)، قال: ينظر إلى وجهها في خدرها أصفى من المرآة وإن أدنى لؤلؤة عليها لتضيء بين المشرق والمغرب وإنه يكون عليها سبعون ثوباً ينفذها بصره حتى يرى مخّ ساقها من وراء ذلك[٢]، وقال الرسول ﷺ: لما أُسري بي دخلت موضعاً يقال له البندج عليه خيام اللؤلؤ والزّبرجد الأخضر والياقوت الأحمر، فقلن: السلام عليك يا رسول الله، فقلت: يا جبريل ما هذا النداء فقال: هؤلاء المقصورات في الخيام استأذنَّ ربّهن في السلام عليك فأذن لهن فطفقن يقلن: نحن الراضيات فلا نسخط أبداً ونحن الخالدات فلا نظعن أبداً وقرأ رسول الله ﷺ[٣]: ﴿**وحور مقصورات في الخيام**﴾ (الرحمن: ٧٢).

وقال مجاهد: ﴿**ولهم فيها أزواج مطهرة**﴾ (البقرة: ٢٥)، قال: من الحيض والغائط والبول والبزاق والنّخامة والمني والولد، وقال الأوزاعي: قوله تعالى: ﴿**في شغل فاكهون**﴾ (يس: ٥٥)، أراد أن شغلهم كان في افتضاض الأبكار.

الصنف العاشر: في بيان جمل من أوصاف أهل الجنة، قال الرسول ﷺ لأصحابه: «ألا هل مشّمر للجنة إن الجنة لا نظير لها؟ وهي وربّ الكعبة نور يتلألأ وريحانة تهتز وقصر مشيد ونهر يطرد وفاكهة كثيرة نضيجة وزوجة حسناء جميلة في خير ونعمة في مقام أبداً ونضرة في دار عالية، قالوا: نحن المشمرون لها، قال: قولوا إن شاء الله»[٤]، وجاء رجل فقال: يا رسول الله هل في الجنة خيل فإنها تعجبني؟، قال: إن أحببت أتيت بفرس من ياقوتة حمراء فتطير بك في الجنة حيث شئت، وجاء رجل فقال: هل في الجنة إبل فإن الإبل تعجبني؟ فقال: يا عبد الله إن دخلت الجنة فلك منها ما

---

(١) أخرجه البخاري من حديث أنس.

(٢) أخرجه أبو يعلى من رواية أبي الهيثم عن أبي سعيد بإسناد حسن رواه أحمد وفيه ابن لهيعة ورواه ابن المبارك في الزهد مرسلاً عن أبي الهيثم. وللترمذي من حديث ابن مسعود وصحح وقفه عليه. وفي الصحيحين نحوه من حديث أبي هريرة تخريج الإحياء ٤/٦٧١.

(٣) أنظر تخريج الإحياء ٤/٦٧١.

(٤) أخرجه ابن ماجه وابن حبان من حديث أسامة بن زيد. تخريج الإحياء ٤/٦٧٢.

اشتهيت ولذّت عيناك[١]، وقال الرسول ﷺ: «إن أدنى أهل الجنة الذي له ثمانون ألف خادم واثنتان وسبعون زوجة، وينصب له قبّة من لؤلؤ وزبرجد وياقوت كما بين الجابية وصنعاء، وإن عليهم التيجان وإن أدنى لؤلؤة منها لتضيء ما بين المشرق والمغرب»[٢].

وقال رسول الله ﷺ: «إن في الجنةحوراء يقال لها العيناء إذا مشت مشى حولها سبعون ألف وصيفة وهي تقول: أين الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر[٣]، وقال الرسول ﷺ: إن في الجنة لياقوتة فيها سبعون ألف دار في كل دار سبعون ألف بيت ليس فيها صدع ولا نقب[٤]، وقال كعب: خلق الله آدم بيده وكتب التوراة بيده وغرس الجنة بيده ثم قال لها: تكلمي، فقالت: قد أفلح المؤمنون، فهذا ما أردنا ذكره في صفات الجنة وأهلها على جهة الإجمال والتفصيل والله أعلم[٥].

---

(١) أخرجه الترمذي من حديث بريدة مع احتلاف وفيه المسعودي مختلف فيه ورواه ابن المبارك في الزهد من رواية عبد الرحمن بن سابط مرسلاً. قال الترمذي وهذا أصح. تخريج الإحياء ٤/٦٧٣.

(٢) أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد منقطعاً وقال لا نعرفه إلا من حديث رشدين بن سعد. تخريج الإحياء ٤/٦٧٣.

(٣) رواه العراقي في الإحياء ٤/٦٧٤ من قول أبي هريرة ولم يرفعه ولم يخرجه العراقي والمصنف هنا رفعه ولم أجده مرفوعاً.

(٤) أخرجه نحوه أبو الشيخ في كتاب العظمة ٣/١١٧ رقم ٦٠٩. والأجرّي في كتاب النصيحة من رواية الحسن بن خليفة عن الحسن قال سألت أبا هريرة وعمران بن الحصين والحسن لم يسمع من أبي هريرة والحسن بن خليفة لم يعرفه ابن أبي حاتم. أنظر تخريج الإحياء ٤/٦٦٨. وفي الإحياء ٤/٦٧٤ ساقه من كلام الحسن البصري ولم يذكره العراقي. ورواه ابن جرير في التفسير.

(٥) قول كعب الأحبار أورده الغزالي في الإحياء ٤/٦٧٣ ولم يخرجه العراقي.

الباب الثامن

في ذكر الميزان والصراط والحوض

إعلم أن هذه الأمور الثلاثة لا بدّ منها في يوم القيامة وقد وردت بها الأخبار ولا حاجة بنا إلى تأويلها بل بقاؤها على ظواهرها لما فيه من الزّجر والتّحفظ على الأعمال ونذكرها في مقامات ثلاثة:

المقام الأول
في ذكر الميزان وصفته

ثم أعمل فكرك في الميزان وتطاير الكتب عن الشمائل والأيمان فإن الناس بعد السؤال فرق ثلاث:

فرقة ليس لهم حسنة فيخرج من النار عنق أسود فيلتقطهم لقط الطير الحبّ وينطوي عليهم فيلقيهم في النار فتبتلعهم النار وينادى عليهم: شقاوة لا سعادة بعدها.

وفرقة أخرى لا سيئة لهم فينادى: ليقم الحامدون لله على كل حال فيقومون ويسرحون إلى الجنة، ثم يفعل ذلك بأهل قيام الليل ممن لم تشغله عن الله تجارة ولا بيع، ثم ينادى عليهم: سعادة لا شقاوة بعدها.

وفرقة ثالثة هم الأكثرون خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، وقد خفي عليهم ولا يخفى على الله أن الغالب حسناتهم أو سيئاتهم ولكن الله يأبى إلا أن يعرفهم سيئاتهم ليبين لهم فضله بالعفو، وعدله بالعقاب فعند ذلك تتطاير الصحف والكتب منطوية على الحسنات والسيئات وينصب الميزان وتشخص الأبصار إلى الكتب أتقع في اليمين أو في الشمال؟

ثم إلى لسان الميزان الميل إلى جانب الحسنات أو إلى جانب السيئات، وهذه حالة عظيمة تطيش فيها عقول الخلائق[1]

وعن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يؤتى بابن آدم يوم القيامة حتى يوقف بين كفّتي الميزان ويوكل به ملك فإن ثقل ميزانه نادى الملك بصوت تسمعه الخلائق سعد فلان سعادة لا شقاوة بعدها وإن خفّ ميزانه نادى بصوت تسمعه الخلائق شقي فلان شقاوة لا سعادة بعدها» وعند خفّة الميزان أقبلت الزّبانية وبأيديهم مقامع من حديد عليهم ثياب من نار فيأخذون نصيب النار إلى النار[2] وعن عائشة رضي الله عنها أنها سألت رسول الله ﷺ: هل يذكرون أهليهم يوم القيامه؟، فقال: والذي نفسه بيده أمّا في ثلاثة مواطن فإن أحداً لا يذكر إلا نفسه إذا وضعت الموازين ووزنت الأعمال حتى ينظر ابن آدم أيخفّ ميزانه أو يثقل وعند نشر الصحف حتى ينظر ابن آدم أبيمينه يأخذ كتابه أو بشماله وعند الصراط[3]، ولهذا قال الله تعالى: **﴿فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون﴾** (المؤمنون: ١٠١).

المقام الثاني
في ذكر الصراط

وهو من الأهوال العظيمة فإن الناس بعد هذه الأخطار يساقون إلى الصّراط وهو جسر ممدود على متن النار أحدّ من السيف وأدقّ من الشعرة، فكل من استقام في الدنيا على الصراط المستقيم فإنه يخف على صراط الآخرة ونجا، ومن عدل عن الإستقامة في الدنيا وأثقل الظهر بالأوزار وعصى فإنه يعثر على أول قدم من الصراط ويتردى، فتفكر فيما يحل بك من الفزع لفؤادك إذا رأيت الصراط ودقته ثم وقع بصرك على سواد جهنم من تحته ثم قرع سمعك شهيق أهل النار وزفيرها وتغيّظها، وقد كلفت أن تمشي على الصراط مع ضعف حالك واضطراب قلبك وتزلزل قدمك وثقل ظهرك بالأوزار المانعة لك عن المشي على بساط الأرض فضلاً عن حدّة الصراط، فكيف بك إذا وضعت عليه إحدى رجليك فأحسست بحدّته واضطررت إلى أن ترفع القدم الثاني والخلائق بين يديك يزلون ويعثرون وتتناولهم زبانية جهنم بالخطاطيف والكلاليب وأنت تنظر إليهم كيف

---

(١) أنظر الإحياء ٤/٦٤٥ ـ ٦٤٦.

(٢) حديث أنس أورده الغزالي في الإحياء ٤/٦٤٦ ولم يرفعه ولم يخرجه العراقي.

(٣) حديث عائشة أخرجه أبو داود من رواية الحسن وإسناده جيد تخريج الإحياء ٤/٦٤٦.

ينتكسون فتسفل إلى جهة النار رؤوسهم وتعلو أرجلهم فيا له من منظر ما أفظعه ومرتقى ما أصعبه ومجازاً ما أضيقه(١).

فانظر إلى حالك وأنت تزحف عليه وتصعد إليه وأنت مثقل الظهر بأوزارك تلتفت يميناً وشمالاً إلى الخلق وهم يتهافتون والرسول ﷺ ، يقول: «يا رب سلم سلم ربّ سلم سلم»(٢) ، والزّعقات بالويل والثّبور قد ارتفعت إليك من قعر جهنم لكثرة من زلّ عن الصراط من الخلائق فكيف لو زلّت بك قدمك ولم ينفعك ندمك ورفعت صوتك فقلت : واويلاه هذا ما كنت أخافه فياليتني قدّمت لحياتي يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً يا ويلتا ليتني لم اتّخذ فلاناً خليلاً ، ويا ليتني كنت تراباً يا ليتني لم تلدني أمي وعند ذلك تختطفك النيران والعياذ بالله وينادي المنادي أخسئوا فيها ولا تكلّمون ، فلا يبقى سبيل إلى الصّياح والأنين والتنفس والاستغاثة فكيف ترى الآن عقلك وهذه الأخطار بين يديك ، فإن كنت غير مؤمن به فما أطول مقامك مع الكفار في دركات جهنم ، وإن كنت به مؤمناً وعنه غافلاً وبالإستعداد له متهاوناً فما أعظم حسراتك وطغيانك(٣) .

وماذا ينفعك إيمانك إذا لم يكن باعثاً لك عن السعي في طلب رضاه بطاعته وترك معاصيه فلو لم يكن بين يديك إلا هول الصّراط واضطراب قلبك من خوفه وفزعه عند الجواز مع السلامة لكان كافياً هولاً وفزعاً ، قال الرسول ﷺ : «يضرب الصراط بين ظهراني جهنم فأكون أوّل من يجوز بأُمتي من الرّسل ولا يتكلم يومئذ إلا الرّسل ودعوى الرّسل يومئذ اللهم سلِّم سلّم ، وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان ، هل رأيتم شوك السّعدان؟ قالوا : نعم يا رسول الله غير أنه لا يعلم قدرها إلا الله تعالى تختطف الناس بأعمالهم فمنهم من يوثق بعلمه ومنهم من يخرذل ثم ينجو(٤).

قال أبو سعيد الخدري قال رسول الله ﷺ : «يمر الناس على جسر جهنّم وعليه حسك وكلاليب وخطاطيف تختطف الناس يميناً وشمالاً وعلى جنبته ملائكة يقولون : اللهم سلّم سلّم ، فمن الناس من يمر مثل البرق الخاطف ، ومنهم من يمر كالريح ، ومنهم من يمر مثل الفرس المجري ، ومنهم من يسعى سعياً ، ومنهم من يمشي مشياً ،

---

(١) الإحياء ٤/٦٥٠ ـ ٦٥١.

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة ولفظه يضرب الصراط بين ظهراني جهنم ومن حديث أبي سعيد نحوه متفق عليه وحديث أبي هريرة الآتي أيضاً في الصفحة الآتية.

(٣) الإحياء ٤/٦٥٢.

(٤) متفق عليه من حديث أبي هريرة.

ومنهم من يحبو حبواً، ومنهم من يزحف زحفاً، فأما أهل النار الذين هم أهلهافلا يموتون ولا يحيون، وأمّا ناس فيؤخذون بخطايا وذنوب»[1].

وعن ابن مسعود عنه ﷺ: «إن الله يجمع الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم قياماً أربعين سنة شاخصة أبصارهم إلى السماء ينظرون فصل القضاء وإن المؤمنين يعطون أنواراً فعلى قدر ما يحصل لهم من تلك الأنوار يكون جوازهم على الصراط فمنهم من يمر كطرفة العين، ومنهم من يمر كانقضاض الكوكب، ومنهم من يمر كشد الفرس، ومنهم من يمر كشدّ الرجل، ومنهم من يحبو على وجهه ويديه ورجليه يجر يداً ويعلق أخرى وتصيب جوانبه النار فلا يزال كذلك حتى يخلص فإذا خلص وقف عليها وقال: الحمد لله لقد أعطاني ما لم يعط أحداً إذ نجاني منها بعد إذ رأيتها فينطلق به إلى غدير عند باب الجنة فيغتسل فيه[2].

وقال أنس بن مالك سمعت رسول الله ﷺ يقول: الصراط كحد السيف وكحد الشّعرة، وإن الملائكة ينحّون[3] المؤمنين والمؤمنات، وإن جبريل لآخذ بحجزتي وإني لأقول: يا رب سلّم سلّم فالزّالون والزّالات يومئذ خلق كثير، فهذه أهوال الصراط وعظائمه فطوّل فيها فكرك فإنه لا يسلم منها إلا من طال فكره فيها، فأما من غفل فليس سالماً.

المقام الثالث
في بيان ذكر الحوض وأوصافه

إعلم أن الحوض مكرمة عظيمة خصّ الله بها الرسول ﷺ، وقد اشتملت الأخبار على وصفه، ونحن الآن نرجو أن يرزقنا الله في الدنيا علمه وفي الآخرة ذوقه وإن من صفاته أن كل من شرب منه لم يظمأ أبداً، قال أنس بن مالك: أغفا رسول الله إغفاءة فرفع رأسه متبسماً فقلت: يا رسول الله لم تضحك؟، قال: آية أُنزلت عليّ آنفاً وقرأ بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ (الكوثر: ١)، حتى ختمها ثم قال:

---

(١) متفق عليه من حديث أبي سعيد وتقدمت الإشارة إليه.

(٢) رواه ابن عدي والحاكم من حديث ابن مسعود وقال الحاكم صحيح الإسناد.

(٣) أخرجه البيهقي في الشُعب وقال هذا إسناد ضعيف وقال أيضاً وروي عن زياد النمري عن أنس مرفوعاً «الصراط كحد الشعرة أو كحد السيف» وقال وهي رواية صحيحة انتهى. ورواه أحمد من حديث عائشة وفيه ابن لهيعة أنظر تخريج الإحياء ٤/٦٥٢.

أتدرون ما الكوثر؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: إنه نهر وعدنيه ربي في الجنة عليه خير كثير ترد عليه أُمتي يوم القيامة آنيته عدد الكواكب»[1]، وقال أنس بن مالك: قال رسول الله ﷺ: «بينما أنا أسير في الجنة إذ بنهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف، قلت: ما هذا يا جبريل؟، فقال: هذا هو الكوثر الذي أعطاك ربّك وضرب الملك بيده فإذا طينه مسك أذفر»[2]، وقال رسول الله ﷺ: «ما بين لابتي حوضي ما بين صنعاء والمدينة أو ما بين المدينة وعمان»[3].

وروى ابن عمر لمّا نزل قوله تعالى: ﴿إنّا أعطيناك الكوثر﴾ (الكوثر: ١)، قال الرسول ﷺ: «هو نهر في الجنة حافتاه من ذهب وشرابه أشدّ بياضاً من اللبن وأحلى من العسل وأشدّ ريحاً من المسك يجري على جنادل اللؤلؤ والمرجان»[4]، قال ثوبان مولى رسول الله ﷺ: قال الرسول ﷺ: «إن حوضي ما بين عدن إلى عمان البلقاء، ماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل وأكوابه عدد نجوم السماء، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً، أول الناس وروداً عليه فقراء المهاجرين، فقال عمر بن الخطاب: من هم يا رسول الله؟ قال: «هم الشّعث رؤوساً المغبرون الدّنس ثياباً الذين لا ينكحون المنعّمات ولا تفتح لهم السدود»[5] فقال عمر بن عبد العزيز: والله لقد نكحت المنعمات فاطمة بنت عبد الملك وفتحت لي السدود إلا أن يرحمني الله لا جرم لا أدهن رأسي حتى يشعث ولا أغسل ثوبي على جسدي حتى يتّسخ[6].

وقال رسول الله ﷺ: «إن لكل نبي حوضاً وإنهم يتباهون أيهم أكثر وارداً وإنّي لأرجو أنّي أكثرهم وارداً»[7]، وعن أبي ذرّ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن حوضي يشخب فيه ميزابان من الجنة عرضه مثل طول ما بين عمان وأيلة، فهذه صفة الحوض»[8].

---

(١) رواه مسلم من حديث أنس وفيه آنيته «عدد نجوم السماء».

(٢) أخرجه الترمذي وقال حسن صحيح ورواه البخاري من قول أنس تخريج الإحياء ٤/٦٥٧.

(٣) رواه مسلم من حديث أنس تخريج الإحياء ٤/٦٥٧.

(٤) رواه الترمذي وقال حسن صحيح ورواه الدارمي في مسنده وهذا أقرب إلى لفظ الدارمي.

(٥) أخرجه الترمذي عن ثوبان وقال غريب. وأخرجه ابن ماجه أيضاً تخريج الإحياء. وأخرجه نحوه الهناد في الزهد ١/٢٧٦ رقم ٢٣٨.

(٦) قول عمر بن عبد العزيز الإحياء ٤/٦٥٧.

(٧) رواه الترمذي وقال غريب من حديث سمرة. وقال روى الأشعث بن عبد الملك هذا الحديث عن الحسن عن النبي ﷺ مرسلاً ولم يذكر فيه عن سمرة وهو أصح.

(٨) أخرجه مسلم من حديث أبي ذر رضي الله عنه. تخريج الإحياء ٤/٦٧٥.

الباب التاسع

في المساءلة وبيان صفتها

ثم أعمل فكرك أيها الغافل المسكين بعد وقوع هذه الأهوال فيما يرد عليك من السؤال شفاهاً ومواجهة من غير ترجمان فتسأل عن القليل والكثير والنقير والقطمير، فبينما أنت في كرب القيامة وعرقها وشدّة عظائمها إذ نزلت ملائكة من أرجاء السماء بأجسام عظام وأشخاص ضخام غلاظ شداد أُمروا أن يأخذوا بنواصي المجرمين إلى موقف العرض على الجبار، قال رسول الله ﷺ : «إن لله ملكاً ما بين شفري عينيه مائة عام»[1].

فما ظنك بنفسك إذا شاهدت مثل هؤلاء الملائكة أُرسلوا إليك ليأخذونك إلى مقام العرض الأكبر، وتراهم على عظم أشخاصهم وكبر أجسامهم منكسرين تحت الهيبة والجلال لشدة ذلك اليوم مستشعرين مما بدا من غضب الجبار على عباده وعند نزولهم لا يبقى نبي ولا صدّيق ولا صالح إلا ويخرّون لأذقانهم خوفاً من أن يكونوا هم المأخوذين، فهذا حال المقربين فكيف حال العصاة المجرمين وعند ذلك يبادر أقوام من شدة الفزع فيقولون للملائكة : أفيكم ربّنا وذلك لما يشاهدون من عظم موكبهم وشدة هيبتهم فيفزع الملائكة من سؤالهم إجلالاً لخالقهم عن أن يوصف بهذا الوصف ويشار إليه بهذه الكيفية، فينادون بأعلى أصواتهم منزّهين لمليكهم عمّا توهّمه أهل الأرض ويقولون: سبحان ربنا ما هو فينا ولكن يأتي أمره بإنفاذ قضائه في خلقه، وعند ذلك تقوم الملائكة صفوفاً محدقين بالخلائق من الجوانب ويكون على جميعهم شعار الذل والخضوع

(١) قال العراقي في تخريج الإحياء ٦٤٢/٤ لم أره بهذا اللفظ.

والهيبة والخشوع وظهور المهابة والخوف والجزع من شدّة ذلك اليوم وفزعه [1].

وعند ذلك يصدّق الله تعالى قوله: **﴿ فلنسألنّ الذين أُرسل إليهم ولنسألنّ المرسلين إلى قوله ـ غائبين ﴾** (الأعراف: ٦، ٧)، وقوله: **﴿ فو ربّك لنسألنّهم أجمعين عما كانوا يعملون ﴾** (الحجر: ٩٢)، فيبدأ بالأنبياء وهو معنى قوله تعالى: **﴿ يوم يجمع الله الرّسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا ﴾** (المائدة: ١٥)، فأعظِم بشدّة يوم تذهل فيه عقول الأنبياء وتمحى علومهم من شدة الهيبة وعظم الخجل والوجل إذ يقال لهم: ماذا أجبتم وقد أُرسلتم إلى الخلائق وكانوا قد علموا فتدهش عقولهم فلا يدرون بماذا يجيبون فيقولون من شدة الهيبة إذا قيل لهم: ماذا أجبتم قالوا: لا علم لنا إنك أنت علّام الغيوب وهم في ذلك الوقت صادقون لأن العقول فيه طائرة والعلوم عنهم ممحوة حتى يقويهم الله تعالى فيدعى نوح عليه السلام فيقال له: هل بلغت؟ فيقول: نعم فيقال لأمته: هل بلّغكم فيقولون: ما أتانا من نذير، ويؤتى بعيسى فيقول الله تعالى له: **﴿ أأنت قلت للناس اتّخذوني وأُمي إلهين من دون الله ﴾** (المائدة: ١١٦)، فيبقى متشخصاً تحت هيبة هذا السؤال منقاداً في أسر الذّل من عظم ذلك المقام والمقال، فما أعظم هذا اليوم الذي تقام فيه السياسة على الأنبياء بمثل هذا السؤال مع عظم حالهم عند الله تعالى.

ثم تقبل الملائكة فينادون واحداً واحداً: يا فلان ابن فلانة: هلمّ إلى موقف العرض، وعند ذلك ترتعد الفرائص وتضطرب الجوارح وتنتبه العقول ويتمنى أقوام أن يذهب بهم إلى النار ولا تعرض قبائح أعمالهم على الملك الجبار ولا تنكشف أستارهم على رؤوس الخلائق [2].

وقبل الإبتداء بالسؤال يظهر نور العرش، وأشرقت الأرض بنور ربّها، وأيقن كل عبد بإقبال أمر الملك الجبار لمساءلة العباد فظنّ كل واحد أنما يريد أحد سواه وأنه المقصود بالأخذ والسؤال دون من عداه، فيقول الجبار عند ذلك: يا جبريل إئتني بالنار فجاءها بالأمر الإلهي وقال لها: يا جهنّم أجيبي خالقك ومليكك فصادفها جبريل على غيظها وغضبها، فلم يلبث بعد ندائه أن ثارت وفارت وزفرت إلى الخلائق وشهقت، وسمع الخلائق تغيظها وزفيرها وانتهض خزّانها متوثّبة إلى الخلائق غضباً على كل من عصى الله وخالف أمره، فاخطر ببالك وأحضر في قلبك قلوب العباد وقد امتلأت خوفاً

---

(١) أنظر الإحياء ٤/٦٤٣.

(٢) أنظر الإحياء ٤/٦٤٣.

وفزعاً من زفراتها، ولها ثلاث زفرات:

الزفرة الأولى: يتساقطون على ركبهم ويولون مدبرين فراراً منها وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها ويسقط بعضهم على بعض للوجوه منكبين، ونادى الظالمون والعصاة المجرمون بالويل والثبور، وينادي الصّديقون والأولياء والصالحون نفسي.

فبينما هم كذلك على تلك الحال إذ زفرت **الزّفرة الثانية** لها، تتضاعف فيها أحوالهم وتتخاذل قواهم وظنوا أنهم مأخوذون وأشفقوا غاية الإشفاق وحصل عليهم من الذّل والخوف فرقاً منها وجزعاً من شدّة ما يرون من غيظها[1].

الزّفرة الثالثة: تتساقط الخلائق على وجوههم ويشخصون بأبصارهم ينظرون من طرف خاشع خفي فانهضمت عند ذلك قلوب الظّالمين فبلغت الأفئدة لدى الحناجر كاظمين وذهلت العقول من السعداء والأشقياء أجمعين، وبعد ذلك أقبل الله تعالى على الرّسل فقال: ماذا أجبتم فإذا رأوا ما أُقيم من السياسة على الأنبياء اشتدّ الفزع على العصاة، فعند ذلك يفرّ الوالد من ولده والأخ من أخيه والزّوج من زوجته ويبقى كل واحد منتظراً للأمر ثم يأخذ واحداً واحداً ويسأله الله تعالى شفاهاً عن كل عمله قليله وكثيره وعن سره وعلانيته وعن جميع جوارحه وأعضائه.

قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «فيقول الله للعبد: ألم أكرمك وأسوّدك وأزوّجك وأسخرّ لك الخيل والإبل وأدبّرك على أحسن حالة وأكرم هيئة، فيقول العبد: نعم، فيقول الله تعالى: أفظننت أنّك ملاقيّ، فيقول: لا، فيقول: فإني أنساك كما نسيتني»[2] فتوهّم نفسك يا مسكين وقد أخذت الملائكة بعضديك وأنت واقف بين يدي الله عزّ وجلّ يسألك شفاهاً فيقول: ألم أُنعم عليك بالشباب ففيم ذا أبليت؟، ألم أُمهل لك في العمر ففيم ذا أفنيت؟، ألم أرزقك الأموال فمن أين اكتسبت؟ وفيم ذا أنفقت؟ ألم أُكرمك بالعلم فماذا عملت فيما علمت؟، فكيف ترى خجلك وهو يعدّ عليك أنعامه ومعاصيك وأياديه ومساويك، فإن أنكرت شهدت جوارحك[3].

وقال ﷺ: «ليقفن أحدكم بين يدي الله تعالى ليس بينه وبينه حجاب فيقول: ألم أُوتك مالاً؟ فيقول: بلى، فيقول: ألم أُرسل إليك رسلاً؟، فيقول: بلى، ثم ينظر عن

---

(١) الإحياء ٤/٦٤٣.

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة تخريج الإحياء ٤/٦٤٤.

(٣) الإحياء ٤/٦٤٧.

يمينه فلا يجد إلا النار ثم ينظر عن شماله فلا يجد إلا النار فليتقّ أحدكم النار ولو بشقّ تمرة أو بكلمة طيبة إن وجدها »[1]، وقال ابن مسعود : ما منكم من أحد إلا ويقول له الله تعالى : يا ابن آدم ما غرّك بربّك؟ يا ابن آدم ما عملت فيما علمت؟ ، يا ابن آدم ماذا أجبت المرسلين؟ ، يا ابن آدم ألم أكن رقيباً على عينيك وأنت تنظر إلى ما لا يحل لك؟ ، ألم أكن رقيباً على أُذنيك وأنت تسمع إلى ما لا يحلّ لك ، وهكذا الأمر في سائر الأعضاء ، فأعظم أيها المسكين الغافل عمّا يصلحك وعمّا يغشاك من الحياء من أجل ذلك[2].

وبعد ذلك فإنك بين حالتين عظيمتين إما أن يقال لك قد سترتها لك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم فعند ذلك يعظم سرورك ويتكاثر حبورك وفرحك ويغبطك الأولون والآخرون بما حصل لك من الفوز بالمغفرة والرّضوان ، وبين أن يقال للملائكة خذوا هذا العبد السوء الذي بارز مولاه بالمخالفة والمعصية فغلّوه ثم الجحيم صلّوه ، وعند ذلك لو بكت عليك السموات والأرض ومن فيهنّ لكان ذلك جديراً بك ولعظمت مصيبتك واشتدت حسرتك على ما فرطت في طاعة الله تعالى وعلى ما بعت به آخرتك من دنيا دنيّة ليست باقية لك ولا لأحد غيرك فنعوذ بالله من خسارة الأنفس في الآخرة واستحقاق العقوبة[3].

---

(١) أخرجه البخاري من حديث عدي بن حاتم.
(٢) أنظر الإحياء ٤/٦٤٥.
(٣) الإحياء ٤/٦٤٥.

الباب العاشر

في بيان الانتصاف وصفة المخاصمة ورد المظالم

قد عرفت بما ذكرناه من قبل هول الميزان وخطره وأن الأعين شاخصة إلى لسان الميزان وشوكته، : ﴿**فأما من ثقلت موازينه، فهو في عيشة راضية، وأما من خفت موازينه، فأمه هاوية . وما أدراك ما هية . نار حامية**﴾ (القارعة: ٦ - ١١)، واعلم أنه لا ينجو من خطر الحساب والميزان إلا من حاسب نفسه في الدنيا ووزن فيها بميزان الشرع أعماله وأقواله وخطراته ولحظاته كما قال عمر رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا نفوسكم قبل أن توزنوا، وإنما حسابه أن يتوب عن كل معصية قبل الموت توبة نصوحاً ويتدارك ما فرّط من تقصير في فرائض الله ويرد المظالم حبّة بعد حبّة ويستحلّ من كل من تعرّض له بلسانه ويده وسوء ظنّه بقلبه، ويطيب قلوبهم حتى يموت ولم يبق عليه فريضة ولا مظلمة لأحد، فمن هذه حاله فإنه يدخل الجنة بغير حساب[1].

ومن مات قبل ردّ المظالم أحاطت به خصومه فهذا يأخذ بيده وهذا يقبض على ناصيته وهذا يتعلق بتلابيبه وهذا يقول: ظلمتني وهذا يقول: شتمتني، وهذا يقول: استهزأت بي، وهذا يقول: ذكرتني في الغيبة بما يسوءني، وهذا يقول: جاورتني فأسأت جواري، وهذا يقول: عاملتني فغششتني، وهذا يقول: بايعتني فغبنتني وأخفيت عني عيب متاعك، وهذا يقول: كذبت في سعر متاعك، وهذا يقول: رأيتني محتاجاً وكنت غنياً فما أطعمتني، وهذا يقول: وجدتني مظلوماً وكنت قادراً على دفع المظالم فداهنت الظالم وما رعيت حقي[2].

---

(١) الإحياء ٤/٦٤٧.

(٢) الإحياء ٤/٦٤٧ - ٦٤٩.

فبينما أنت كذلك وقدأنشبت الخصوم فيك مخاليبهم وأحكموا في تلابيبك أيديهم وأنت مبهوت متحير من كثرتهم حتى لم يبق في عمرك أحد عاملته على درهم أو جالسته في مجلس إلا وقد استحقّ عليك مظلمة بغيبة أو جناية أو نظر بعين استحقار وقد ضعفت عن مقاومتهم ومددت عين الرّجاء إلى سيدك ومولاك لعله يخلصك من أيديهم إذ قرع سمعك نداء الجبّار: **﴿اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب﴾** (غافر: ١٧).

فعند هذا ينخلع قلبك ويدهش فؤادك ولبّك من الهيبة وتوقن نفسك بالبوار وتتذكر ما أنذرك الله تعالى به على لسان رسوله حيث قال: **﴿ولا تحسبنّ الله غافلاً عمّا يعمل الظّالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار - إلى قوله تعالى - وأفئدتهم هواءٌ﴾** (إبراهيم: ٤٢ - ٤٣)، فما أشد فرحك اليوم بتمضمضك بأعراض الناس وتناولك أموالهم، وما أشد حسراتك في ذلك اليوم إذا وقف بك على بساط العدل وشوفهت بخطاب السياسة وأنت مفلس فقير عاجز مهين لا تقدر على أن ترد جواباً أو تظهر عذراً، فحينئذ يظهر القصاص وتوفر الحقوق منك ولات حين مناص.

قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «هل تدرون من المفلس؟، قالوا: المفلس فينا يا رسول الله من لا درهم له ولا متاع له، قال: المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وزكاة وصيام، ثم يأتي قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار»(١)، فانظر إلى مصيبتك في مثل هذا اليوم إذ ليس تعلم لك حسنة سلمت من آفات الرّياء ومكايد الشيطان بالغضب والحسد، فإن سلمت واحدة في مدّة طويلة استحقها خصماؤك وابتدروها وأخذوها، ولعلك لو حاسبت نفسك وأنت مواظب على صيام النهار وقيام الليل لعلمت أنه لا ينقضي يوم إلا ويجري على لسانك من غيبة المسلمين ما يستوفي جميع حسناتك فكيف ببقية السيئات من أكل الحرام والشبهات والتقصير في الطاعات وكيف ترجو الخلاص من المظالم في يوم ينتقم فيه للجمّاء من القرناء.

وقال أبو هريرة: في قوله تعالى: **﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم﴾** (الأنعام: ٣٨)، أراد أنه يحشر الخلائق كلهم يوم القيامة البهائم

---

(١) أخرجه مسلم (٦٠) في البر من حديث أبي هريرة.

والدواب والطير والوحوش وكل شيء للمقاصّة فيما بينها حتى يبلغ من عدل الله تعالى أن يأخذ للجمّاء من القرناء، ثم بقول بعدذلك: كوني تراباً، فذلك حين يقول الكافر: يا ليتني كنت تراباً، ألا فاتقوا الله تعالى مظالم العباد بأخذ أموالهم والتعرض لأعراضهم وتضييق قلوبهم والإساءة إلى الخلق في معاشرتهم فإن ما بين العبد وبين الله تعالى فالمغفرة إليه أسرع[1].

ومن اجتمعت عليه مظالم وقد تاب عنها وعزّ عليه استحلال أرباب المظالم فإن الله تعالى بسعة كرمه وفضله يقضي عنه فليكثر من الطاعات التي ينال بها لطفه الذي ادّخره لأحبابه المؤمنين وأصفيائه المتّقين.

وقد نجز غرضنا مما أردنا ذكره في هذا الكتاب والحمد لله رب العالمين وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم يا كريم، ولنختم كتابنا هذا بالابتهال إلى الله تعالى والاعتذار إليه فنقول: اللهم إنّا نستغفرك من جميع ما هجس في الأفئدة والخواطر واشتغلت به الجوارح في الأمكنة الخالية والحجب السواتر بحيث لا يطلع عليه سواك ولا يستأثر بعلمه إلا أنت، ونستغفرك من كل ما زلت به الأقدام أو طغت به الأقلام، ونستغفرك من الأقوال التي لا توافقها الأعمال، ونستغفرك من كل علم وعمل قصدنا وجهك الكريم فخالطه ما يقصره عن بلوغ فضلك العظيم، ونستغفرك من كل تقصير أحدثناه أو تصنّع وتكلف آثرناه.

ونرجو بعد الاستغفار ممن وقف على كتابنا فاستفاد منه موعظة أو اطلع فيه على منفعة في الدين أن يتكرم بالدعاء بالعفو والمغفرةوالتجاوز عن جميع السيئات وقضاء الحاجة العظمى وهي خاتمة الخير فإن الكرم عميم والرحمة واسعة، والجود على الخلق فائض، وكان تأليفه في حال الاشتغال بإصلاح حال الشرف وإقامة أمر الدين فيه ونفوذ أحكام الشريعة، والرّجوى في الله ذلك، وانتجز الفراغ من تأليفه في العشر الأول من شهر رمضان المعظم أعاد الله علينا من بركاته من سنة ست وثلاثين وسبعمائة.

والحمد لله ربّ العالمين على كل حال من الأحوال
وصلّى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه

رقم الإيداع ٤٤١٩/ ١٩٨٥

---

(١) انظر الإحياء ٤/٦٤٨ ـ ٦٤٩.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ فهرس الآيات القرآنية

٢ - فهرس الأحاديث والآثار

أ ث

أ ج

أ ح

أ خ

أ ر

أ م

إنّ

ت

ح

خ

ر

ز

ك

ل

ي

٣ - فهرس المصادر والمراجع

اسم الكتاب	المؤلف	المطبعة	التأريخ
١ ـ اتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين	لمحمد الحسيني الزبيدي	دار الفكر	
٢ ـ إحياء علوم الدين	لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي	مؤسسة الحلبي القاهرة	
٣ ـ اختلاف العلماء	لأبي عبدالله محمد نصر المروزي تحقيق : السيد صبحي السامرائي	عالم الكتب ؛ بيروت	الأولى
٤ ـ أخلاق النبي ﷺ وأدابه	لأبي محمد عبدالله الأصبهاني (أبي الشيخ الأنصاري) تحقيق : أحمد مرسي ، محمد عثمان	مؤسسة الأهرام	٨١ م
٦ ـ الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان	لعلاء الدين علي بن بلبان الفارسي	دار الكتب العلمية بيروت	الأولى
٧ ـ الاخوان	لأبي بكر عبدالله (ابن أبي الدنيا)	دار الاعتصام (القاهرة)	
٨ ـ الأداب	لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي	دار الكتب العلمية بيروت	الأولى
٩ ـ الأدب المفرد	لمحمد بن إسماعيل البخاري	دار الكتب العلمية بيروت	

الكتاب	المؤلف	الناشر	الطبعة
١٠ ـ الأسرار المرفوعة في الاخبار الموضـوعة	نور الدين علي محمد سلطان (المُلا علي	دار الكتب العلمية بيروت	الأولى
١١ ـ الإصابة في تمييز الصحابة	لأبن حجر العسقلاني	دار نهضة مصر	
١٢ ـ الأمثال	لأبي عبدالله محمد الحكيم الترمذي	دار ابن زيدون بيروت	
١٣ ـ الأمثال في الحديث النبوي	لأبي محمد عبدالله بن جعفر (أبي الشيخ)	الدار السلفية	الأولى
١٤ ـ البعث والنشور	لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي	مركز الخدمات والأبحاث الثقافية	الأولى
١٥ ـ التواضع والخمول	لأبي بكر عبدالله (ابن أبي الدنيا)	دار الاعتصام (القاهرة)	
١٦ ـ التوبيخ والتنبيه	لعبدالله محمد جعفر (أبي الشيخ)	مكتبة القرآن (القاهرة)	
١٧ ـ التوكل على الله	لأبي بكر عبدالله (ابن أبي الدنيا)	دار البشائر الاسلامية	الأولى
١٨ ـ التوكل على الله	لأبي بكر عبدالله (ابن أبي الدنيا)	مكتبة القرآن (القاهرة)	
١٩ ـ التيسير بشرح الجامع الصغير	لعبد الرؤوف المناوي	مطابع المكتب الاسلامي	
٢٠ ـ الجامع الأزهر في حديث النبي	لعبد الرؤوف بن تاج العارفين	المركز العربي للبحث	٨٠ م
٢١ ـ الجامع الصحيح	لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سؤرةمصطفى البابي الحلبي		الأولى
٢٢ ـ الحلم	لأبي بكر عبدالله (ابن أبي الدنيا)	مكتبة القرآن (القاهرة	
٢٢ ـ الدر المنثور	لعبد الرحمٰن جلال الدين السيوطي	دار الفكر (بيروت)	الأولى

٢٤ ـ الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة	لجلال الدين السيوطي	دار العربية	الأولى
٢٥ ـ الدعاء	لأبي القاسم سليمان الطبراني	دار البشائر الاسلامية	الأولى
٢٦ ـ الروض الداني إلى المعجم الصغير	للطبراني	دار عمار (الأردن)	الأولى
٢٧ ـ الزهد ـ ويليه: الرقائق	لعبدالله بن المبارك المرزوي	دار الكتب العلمية	
٢٨ ـ السنن المأثورة	لمحمد بن إدريس الشافعي	دار المعرفة (بيروت)	الأولى
٢٩ ـ الشكر	لأبي بكر عبدالله (ابن أبي الدنيا)	دار الشروق (جدة)	
٣٠ ـ الشمائل المحمدية	لأبي عيسى محمد بن سؤرة الترمذي	دار الندوة الجديدة	
٣١ ـ الصمت وحفظ اللسان	لأبي بكر عبدالله (ابن أبي الدنيا)	دار الاعتصام	الأولى
٣٢ ـ العظمة	لأبي محمد بن عبدالله (أبي الشيخ)	دار العاصمة	الأولى
٣٣ ـ العقل وفضله واليقين	لأبي بكر عبدالله (ابن أبي الدنيا)	مكتبة القرآن القاهرة	
٣٤ ـ العلل الواردة في الأحاديث	لأبي الحسن علي بن عمر الدارقطني	دار طيبة (الرياض)	الأولى
٣٥ ـ العلل ومعرفة للرجال	لأحمد بن محمد بن حنبل	دار الخاني	الأولى
٣٦ ـ الفردوس بمأثور الخطاب	لأبي شجاع شيرويه الديلمي	دار الكتب العلمية	الأولى
٣٧ ـ الكافي الشافِ في تخريج أحاديث الكشاف	لأحمد بن حجر العسقلاني	دار المعرفة بيروت	
٣٨ ـ الكامل في ضعفاء الرجال	لأبي حميد عبدالله بن عدي	دار الفكر (بيروت)	الأولى
٣٩ ـ الكشف الإلٰهي عن شديد الضعف	لمحمد محمد الحسيني الطرابلسي	دار العليان	الأولى
٤٠ ـ المجروحين من المحدثين والضعفاء	لمحمد بن حبان التميمي البستي	دار الوعي (حلب)	٩٥ / ٧٥

٤١ ـ المراسيل	لأبي داود سليمان السجستاني	مؤسسة الرسالة	الأولى
٤٢ ـ المستدرك على الصحيحين معه: تلخيص المستدرك	لأبي عبدالله محمد الحاكم النيسابوري لشمس الدين محمد الذهبي	دار الكتب العلمية بيروت	
٤٣ ـ المصنف في الأحاديث والآثار	لأبي بكر عبدالله محمد بن أبي شيبة	مكتبة العلوم والحكم	٩ / ٨٩
٤٤ ـ المعجم الأوسط	لسليمان بن أحمد الطبراني	مكتبة المعارف	الأولى
٤٤ ـ المعجم الصغير	للطبراني	المكتب الاسلامي (بيروت)	(٣٦٠)
٤٥ ـ المعجم المفهرس لألفاظ الحديث	(أ. ي) (نسنتك) (ي. ب)	منسج مطبعة بريل (لندن)	٦٩ م
٤٦ ـ المغني عن حمل الأسفار في الأسفار على هامش إحياء علوم الدين	لزين الدين أبي الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي	مؤسسة الحلبي، مطابع سجل العرب (القاهرة	٨٧ م الأولى
٤٧ ـ المقاصد الحسنة	لمحمد عبد الرحيم السخاوي	دار الكتب العربي	الأولى
٤٨ ـ المنامات	لأبي بكر عبدالله (ابن أبي الدنيا)	مكتبة القرآن	
٤٩ ـ المنتخب	لعبد بن حميد	دار الأرقم	الأولى
٥٠ ـ المنتخب	لعبد بن حميد	مطابع البلاغ (القاهرة)	الأولى
٥١ ـ المنتخب من مسند عبد بن حميد	لأبي محمد عبد بن حميد	عالم الكتب	الأولى
٥٢ ـ المنتقى من السنن المسندة عن رسول الله ﷺ	لأبي محمد عبدالله الجارود النيسابوري	مطبعة الفجالة الجديدة	٨٢ / ٦٣
٥٤ ـ المؤتلف والمختلف	لأبي محمد عبد الغني سعيد الأزدي	(الهند)	الأولى
٥٣ ـ المؤتلف والمختلف والفهارس	لأبي الحسن علي عمر الدارقطني	دار الغرب الاسلامي	الأولى

الكتاب	المؤلف	الناشر	الطبعة
٥٥ ـ الموضوعات	لأبي الفرج عبد الرحمٰن الجوزي	مطبعة المجد	الأولى
٥٦ ـ اليقين	لأبي بكر عبدالله ابن أبي الدنيا	دار الكتب العلمية	الأولى
٥٧ ـ أمثال الحديث	لأبي محمد الحسن الرامهرمزي	الدار السلفية	الأولى
٥٨ ـ بلوغ المرام في شرح مسك الختام	لحسين أحمد العرشي	دار إحياء التراث العربي	
٥٩ ـ تحفة الأحوذي	لأبي محمد المباركفور	مطبعة الأعثمان	
٦٠ ـ تخريج أحاديث إحياء علوم استخراج : الدين	أبي عبدالله محمود	دار العاصمة	١٤٠٨ هـ
٦١ ـ تقريب التهذيب	لشهاب الدين أحمد بن علي بن حجردار	البشائر الاسلامية	الأولى
٦٢ ـ تلخيص العبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير	لأبي الفضل أحمد بن علي العسقلاني	شركة الطباعة الفنية	٨٤ / ٦٤
٦٣ ـ تلخيص المتشابه في الرسم	لأحمد بن علي أبي بكر الخطيب البغدادي طلاس	(دمشق)	الأولى
٦٤ ـ جامع بيان العلم وفضله	لأبي عمر يوسف عبد البر القرطبي	مطبعة العاصمة	الثانية
٦٥ ـ جمع الجوامع (الجامع الكبير)	لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي	الهيئة المصرية العامة	
٦٦ ـ حسن الظن بالله	لأبي بكر عبدالله بن أبي الدنيا	مكتبة القرآن القاهرة	
٦٧ ـ دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة	لأبي بكر أحمد الحسيني البيهقي وثقه : عبد المعطي قلعجي	دار الكتب العلمية (بيروت) ٨٥	الأولى
٦٨ ـ سنن ابن ماجه	لأبي عبدالله محمد بن زيد القزويني	دار إحياء الكتب العربية	
٦٩ ـ سنن أبي داود ومعه معالم السنن	لأبي داود سليمان الأشعث الخطابي	دار الحديث (سوريا)	الأولى

٧٠ ـ سنن الدارقطني وبذيله : المفتي على الدارقطني	لعلي بن عمر الدرقطني	دار المحاسن	٨٦ / ٦٦
٧١ ـ سنن الدارمي	لأبي محمد عبدالله الدارمي	شركة الطباعة الفنية	٨٦ / ٦٦.
٧٢ ـ سنن النسائي الصغرى	لأحمد بن شعيب الخراساني النسائي	دار البشائر	الثانية
٧٣ ـ شرح صحيح مسلم	يحيى بن شرف النووي	دار الفكر	
٧٤ ـ صحيح البخاري (الجامع الصغير)	لأبي عبدالله بن محمد بن إسماعيل	المكتبة السلفية	الأولى
٧٥ ـ صحيح مسلم	لأبي الحسين مسلم بن الحجاج	رئاسة ادارات البحوث	٨٠
٧٦ ـ طبقات المحدثين بأصبهان	لأبي محمد عبدالله (أبي الشيخ)	مؤسسة الرسالة	الأولى
٧٧ ـ عمل اليوم والليلة	لأبي بكر أحمد الدينوري (ابن السين)	دار البيان	الأولى
٧٨ ـ عمل اليوم والليلة	لأحمد شعيب النسائي	مؤسسة الرسالة	الثانية
٧٩ ـ غاية المرام في تخريج الحلال والحرام	محمد ناصر الدين الألباني	الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية	الأولى ٨٠
٨٠ ـ غريب الحديث	لأبي عبيد القاسم الهروي	الهيئة العامة	٤ / ٨٤
٨١ ـ فضيلة الشكر على نعمته ما يجب من الشكر	لأبي بكر محمد جعفر السامري (الخرائطي)	دار الفكر (سوريا)	الأولى
٨٢ ـ قضاء الحوائج	لابن أبي الدنيا	مكتبة القرآن القاهرة	
٨٣ ـ قطف الأزهار المتناثرة في الأخبار المتواترة	لجلال الدين السيوطي	المكتب الاسلامي	الأولى
٨٤ ـ كشف الأستار عن زوائد البزار	لنور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي	مؤسسة الرسالة	الأولى
٨٥ ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد	لنور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي	دار الكتاب	الثانية

الكتاب	المؤلف	الناشر	الطبعة
٨٦ ـ مجموعة الرسائل	لابن أبي الدنيا	دار الندوة الاسلامية	٨٧ / ٨٨
٨٧ ـ محاسبة النفس	لابن أبي الدنيا	مؤسسة الكتب الثقافية	الأولى
٨٨ ـ مختصر الشمائل المحمدية	لأبي عيسى محمد بن سؤرة الترمذي	المكتب الاسلامي	الأولى
٨٩ ـ مصابيح السنة	لأبي محمد الحسين الفراء البغوي	دار المعرفة	الأولى
٩٠ ـ مساويء الأخلاق ومذمومها	لأبي بكر محمد السامري (الخرائطي)	مكتبة القرآن	
٩١ ـ مسند أبي داود الطيالسي	لسليمان بن داود الجارود	دار المعرفة (بيروت)	
٩٢ ـ مسند أبي يعلى الموصلي	لأحمد بن علي بن المثنى التميمي	دار المأمون للتراث	
٩٣ ـ مسند الإمام أحمد	لأحمد بن حنبل	دار الفكر (بيروت)	
٩٤ ـ مسند الإمام عبدالله بن المبارك	لعبدالله بن المبارك	مكتبة المعارف	الأولى
٩٥ ـ مسند الشهاب	لأبي عبدالله محمد سلامة القضاعي	مؤسسة الرسالة	الأولى
٩٦ ـ معرفة التذكرة في الأحاديث الموضوعة	لأبي الفضل محمد (ابن القيسراني)	مؤسسة الكتب الثقافية	الأولى
٩٧ ـ معرفة السنن والآثار	لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي	المجلس الأعلى	
٩٨ ـ مكارم الأخلاق ومعاليها	لأبي بكر محمد السامري (الخرائطي)	المطبعة السلفية	١٣٥٠
٩٩ ـ مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفا	لغياض المالكي	دار الجنان	الأولى
١٠٠ ـ موضح أوهام الجمع والتفريق	لأبي بكر أحمد الخطيب البغدادي	مطبعة المعارف العثمانية	٨٩ / ٦٠
١٠١ ـ نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار	لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني	مطبعة مصطفى البابي	الأخيرة

فهرس
كتاب تصفية القلوب